حوارات محمد همام

الفكر العربي

في مطلع القرن الحادي والعشرين

حوارات محمد همام

الفكر العربى

فى مطلع القرن الحادى والعشرين

الطبعة الأولى يناير ٢٠٠١

عنوان الكتاب: الفكر العربى فى مطلع القرن الحادى والعشرين
اسم المؤلف : محمد همام

الناشر : مركز المحروسة للبحوث والتدريب والنشر
٤ش ٩ب المعادى – ت: ٣٧٥٢٠٣٣
المدير العام : فريد زهران
رقم الإيداع : ٩٦/٢٠٠٠٩٧٩٩/١٧١٦٣
الترقيم الدولى I.S.B.N: 1 - 040 - 313 - 977

الفكر العربي
فى مطلع القرن الحادى والعشرين

الفهرس

الصفحة

تقديم

رحيل صحفى مبدع

هذه كلمات يفرضها الموت ، ويستدعيها الغياب ، ويقتضيها الوفاء لذكرى شاب صحفى لامع ، سقط تحت عجلات الحياة صريعاً بطريقة مفاجئة ، وهو يبحث عن الهدف الأسمى لما يجعل للحياة معنى ، وللكلمة قيمة ، وللرأى وزناً ، وللموقف ثمناً يستحق التضحية من أجله . وكلها معان وغايات تصنع مهنة الصحافة ، وتضعها فى مرتبة مساوية لقيمة الحرية التى تصبح مسئولية بمجرد ممارستها .. يُسأل الإنسان عنها أمام نفسه وأمام ضميره وأمام مجتمعه ، ثم يسأل عنها أمام الخالق فى نهاية الأمر وقبل كل شىء .

والصحافة مهنة تكتمل بتراكم الخبرات والتجارب ، وباكتساب المعارف والتقنيات الحديثة ، وبما يتعلمه الصحفى من أجيال سبقته ، ثم بما تحققه المهارة والحذق من صقل لأدوات المعرفة ، وفنون الحوار ، والاطلاع الواسع على مناهل الفكر والثقافة وحركة التاريخ ، وطبائع البشر ، وصعود المجتمعات والممالك واضمحلالها وسقوطها .

والصحفى البارع عادة هو الذى يطرح من الأسئلة أكثر مما يقدم من أجوبة ، ويصغى لإيقاع الأحداث ونبض التاريخ ومصائر البشر ، أكثر مما يتكلم عن نفسه ، ويجلس فوق الصخرة على حافة بركان يصف ويسجل ويرصد ، وهو يتلقى حرارة الصهد ويحس ذوبان الحجر ، دون أن يقع فى فوهة البركان أو يجرفه سيل العرم .

وقد حاول الراحل العزيز محمد همام أن يفعل ذلك، وأن يوظف رصيده الكبير من الخبرات والتجارب الصحفية والثقافية، فى تقديم عمل صحفى متميز بكل المقاييس... أثبت جدارته وتفوقه فى مدى زمنى قصير لا يتجاوز بضع سنوات، مستخدماً فى ذلك أداة من أفضل وأصعب أدوات العمل الصحفى، بل لعلها من أكثرها صعوبة فى الممارسة والتطبيق، وبالأخص حين يتعلق الأمر بمشروع طموح كالذى تصدى له، وهو استكشاف المعانى والقيم،

والتحولات والتقلبات ، والأهداف والمقاصد التى حركت جيلاً بأكمله من أجيال النخبة المصرية ، من خلال الحوار الحى المباشر ، والتى حددت مصيره وأجهضت فى معظم الأحيان أهدافه وأدواره .

وفى هذا المجال فليس أفضل من الحوار أداة ، لتسليط الأضواء على حشد كبير من المثقفين والسياسيين ، والمفكرين والدبلوماسيين ، ورجال الأعمال والعسكريين ... الذين لعبوا أدواراً مؤثرة وحاسمة فى تقرير مصير هذه الأمة ، وفى تحديد اتجاهاتها ، وفى صياغة عقل أجيال حاضرة ومستقبلة من أبناء مصر والأمة العربية ... وتسليط الأضواء هنا لا يقتصر على المظهر دون الجوهر، ولا على الشكل بغير الموضوع . ولكنها محاولة جادة للغوص فى الأعماق ، والولوج فيما وراء الشعارات والكلمات والكتابات التى يمكن أن ترتبط بظروفها وزمانها ، والتى يمكن أن يعاد تأويلها وتفسيرها فى إطار زمنى وتاريخى قد يختلف أشد الاختلاف .

وكان أكثر ما أثار دهشة محمد همام ، وحرك فى داخله ومن داخله بواعث التحدى ، والرغبة فى اكتشاف المجاهل العقلية والنفسية لهذه الشركة الواسعة والمتنوعة من المثقفين والمفكرين ، هو تلك المسافة التى أحس بها وهى تتسع أو تضيق بين المعلن والمستور ، بين الواضح والغامض ، بين ما قيل وما أسدلت عليه أستار الصمت ، بين المنطوق به والمسكوت عنه ... كان مع كل سؤال يطرحه يحاول أن يحفر بوصة فى أعماق هذه الشخصيات ... أن يستنفرها إلى الكشف والمصارحة ، وإلى تعرية الدوافع والبواعث والأسرار التى انطوت فى القلوب وبين الجوانح ، والتى لم تسمح الظروف بالبوح بها والإعلان عنها ... ربما طلباً للسلامة فى أوقات عزت فيها السلامة ، أو خداعاً للنفس بحثاً عن طمأنينة عقلية كاذبة . أو ابتغاء منفعة وتقرب إلى السلطان حين كانت يد السلطان قادرة على أن تعصف بالإنسان إلى ما وراء الشمس .

وقد لجأ همام إلى هذا الأسلوب الذى يمكن أن نطلق عليه فى الصحافة «فن الحوار الاستقصائى» أو «حوار الأعماق» ، حين لاحظ أن ثمة طبيعة نفسية واحدة ربطت بين أبناء هذه النخبة ، التى قد يكون من بينها الناصرى ، أو الشيوعى ، أو الإسلامى ، أو الليبرالى ، أو الوطنى... تتفق فيما بينها على أنها سلمت قيادها لعبد الناصر بعد صدامات مريرة تكسرت فيها الأقلام والآمال على أحلام وآمال أخرى أشد وأقسى ، كما تتكسر النصال على

النصال فى بيت الشعر العربى القديم . وانتهى إلى نتيجة مؤداها أن المرجعية التى ربطت بين هذه الشخصيات فى إطار واحد ، هو النظرة الشمولية التى ترى بعين اليقين أن للحقيقة وجهاً واحداً ، وأن الحرية – من ثم – تمارس بصورة فردية ، وليست أسلوب حياة ، وطريقة تفكير ، وثقافة عقل .

ولكى يستخرج همام أكبر قدر ممكن من الحقائق ، ويقدم أوضح صورة عن هذه الشخصيات ، التى سيطرت على مقدرات الحياة الفكرية والسياسية فى النصف الثانى من القرن العشرين ... فقد تسلح فى مواجهتها ، والاشتباك معها ، ومبارزتها بالسؤال والجواب ، بقراءات مستفيضة تناولت كل واحد من هذه الشخصيات ... جمع من خلالها جل ما كتب عنه أو ما كتبه هو عن نفسه ، وما تردد حوله من حكايات وأقاويل ، وما سجلته الوقائع التاريخية من أحداث أسهم فيها أو وقف على هامشها ... وقد حاول جهد طاقته أن يحتفظ بمسافة بينه وبين محاوره ، تسمح له بالاقتراب دون الامتزاج ، والتماس الأسباب دون البحث عن الأعذار ، والتفتيش فى خبايا النفوس دون تعمد فضحها أو الحكم عليها .

ومهمة الصحفى البارع فى ذلك مهمة شاقة وعسيرة . فهو لابد أولاً من أن يكتسب ثقة محاوره ، وينزع عنه دروعه التى يتخفى وراءها ، ويشجعه على التخلى عن تحفظه وغموضه . ويقنعه بأن اختلاف زوايا الرؤية لا ينبغى أن يكبل عقل الإنسان أو يحول الاختلاف إلى خصومة.

وعلى خلاف ما يعتقد كثيرون ، فالصحفى هنا ليس محققاً يبحث عن أركان الجريمة أو المجرم أو يسعى إلى تقديم ضحيته إلى محكمة التاريخ . ولكنه شخص ندب نفسه أو ندبته مهنته لمعرفة الحقيقة من جميع جوانبها ، فى لحظات الضعف والقوة ، وفى ظل الظروف الخارجية والداخلية التى تصنع الحديث وتمليه على صاحبه أحياناً كثيرة ... تاركاً للقارئ فى نهاية الأمر فرصة اكتشاف الحقيقة وقراءتها بالطريقة التى تقنعه .

وعلى كثرة ما تنشر الصحافة العربيةمن حوارات وأحاديث ، وما تمتلئ به وسائل الإعلام المرئية من مقابلات اتخذت فى العالم العربى أخيراً شكل «المساجلات الخطابية» كما كانت تجرى فى أسواق العرب قديماً ، والتى احتلت شاشات بعض القنوات التلفزيونية من الحائط إلى الحائط ، فإن النظرة الفاحصة لمجمل الحوارات التى أجراها محمد همام مع ما يقرب من ٢٥ شخصية مختلفة ، كل منها يمثل موقفاً واتجاهاً ويعد علماً بارزاً فى مجاله ، وقمة من

القمم فى مصر والعالم العربى ، تحمل على الاقتناع بأنه قد بلغ الذروة فى امتلاك فنون الحوار الصحفى . وأنه كان يحشد نفسه ، ويجمع معلوماته ، ويصقل أدواته ، ويبدأ رحلة الغوص فى الأعماق مسلحاً بكل الوسائل التى تمكنه دائماً من الطفو على السطح ، والخروج إلى بر الأمان محملاً بكنوز ثمينة من الصيد الفكرى والثقافى والتاريخى .

وأعترف بأننى كنت أتطلع دائمـاً بشـغف شـديد إلى هذه الحوارات وأنتظرها . وأقرأ كلماتها وعباراتها وما بين سطورها . وأستزيد من خلالها معرفة بشخوص وأحداث ووقائع ... وكان يعن له فى بعض الأحيان أن يمر بى فى مكتبى ، يناقشنى فى بعض تفاصيل حواراته ، والملابسات التى حدت به إلى اختيار شخصياته ، وما هى المداخل الإنسانية أو المهنية التى تمكنه من تحقيق هدفه .

كان محمد همام صحفياً قديراً ... لم يكن مجرد صحفى يلاحق الأحداث ولكنه كان يحاول استباقها . كان مهموماً بقضايا عصره وقضايا جيله ، وكان يسعى من خلال التفتيش فى ذاكرة الأجيال السابقة عن مواطن القوة والضعف ، وعن أسباب الانكسار والانحدار التى ألمت بالأمة العربية ، وساقتها إلى هذا المصير المؤلم ، وقد جاء رحيله المفاجئ صدمة لكل أصدقائه وأحبابه ، وكأنه بموته المفاجئ قد قضى عليه بالرحيل قبل أن ينجز العمل الذى أهل نفسه له . والذى كان جديراً بأن يفتح له الطريق إلى المقدمة بين الأجيال الصاعدة من الصحفيين .

لقد رحل محمد همام فى أوج عطائه حاملاً معه كل آماله وأحلامه وحواراته ... سقط فجأة كما يسقط غصن شجرة محمل بالثمر اليانع . وكف عن التغريد قبل أن تكتمل أغنياته . ولكنه ترك وراءه تلك الحصيلة الرائعة من الحوارات الكاشفة ، التى تمتلئ بحب الناس وحب الحقيقة . رحمه الله .

سلامه أحمد سلامه

مقدمة لم يكتب لها أن تتم .:...

البحث عن معنى

هل يعني كل ماسبق أنني كنت أبحث عن تلك المعاني الضائعة لدى بعض أبناء النخبة المصرية التي يمثل كل منها مساحة أكبر أو أقل مما يبدو ؟

لعل في ذلك بعض الحقائق ... لكن الجوهر الحقيقي للأمر هو محاولة متواضعة لقراءة بعض أفكار ورؤى وتوجهات بعض أبناء النخبة.. كنت أعتقد أن كل واحد شيء مختلف حتى لو ظهر ذات وقت بأن الإجابة واحدة .. كنت مسئولاً بالاختيار والحوار وإدارة اللقاء عن تقديم بعض سمات شخصية وبعض رؤية .. كنت مهموماً بالبحث عن المسكوت عنه .. وأعترف بأن لدى قناعة تأكدت من خلال هذه الحوارات ومن غيرها من حوارات واسعة امتدت لسنوات في القاهرة وعلى ضفاف الخليج أن المسكوت عنه في حياتنا كثير وكبير وعميق .. وكانت المفاجأة دائماً هي سلاحي الذي يدفعني لعدم الشعور بالخذلان .. وكانت الدهشة من الواضح والمعلن تعكس في أحيان كثيرة أسئلة عن المناخ والأمان والناس .. وكنت أتسلح في كل مرة بقدر أكبر من كشف بعض المستور في نفوسنا .. قد تبين لي أنه كثير وأنه لافرق بين كبير وصغير وأن الشكوى في المستويات العليا من الطبقة الحاكمة لاتقل عن تلك الصغيرة من أبسط موظف في سلم الإدارة المصرية .. في جلسة عشاء ضمت مذيعة شهيرة .. ومعداً تليفزيونياً ناجحاً .. ورجل أعمال مرموقاً وثلاثة صحفيين ناجحين ومهندساً يبدأ أول الطريق .. وطبيباً أنهى الدكتوراه في أمراض الوراثة ضج المكان بالشكوى .. من ضياع قاس ومن إحساس عام بالوحدة ومن شعور بأن ثمن النجاح في مصر باهظ التكلفة ولايستطيع أن يدفعه في أحيان كثيرة الأسوياء أو من كان حريصاً على بعض ميراث تربوي معين .. وأن هناك من أسلحة الاغتيال المعنوي والنفسي والهجمات التدميرية مايسحق الموهبة .. أي موهبة وأي كفاءة عار قد يلحق بصاحبه الأذى وأن هناك خطوط دفاع في الإدارة المصرية تحول بين الكمال في الأداء .. وأن الجميع يعرف ذلك !! هذا الحوار كان نفسه موضوع جلسة طويلة مع اثنين أحدهما مسئول عن أحد أجهزة الرقابة الكبرى والآخر في موقع بالغ التقدم من جهاز آخر بالغ الحساسية .

الأول اتسم بالوداعة وهو يقول : كل شيء معروف إنها مشكلة .. ولكن لدينا مساحة كبيرة

تفصل بين مانعرف ومانعمل أما الثانى فكان حكيماً .. شوف قد أستطيع توفير كل المعلومات التى ترغب فيها والصالح بهذا الأمر الذى تسأل عنه ورأيى الشخصى أنه لاتوجد مشكلة فنية فى ذلك ولكن «المسئول الأول» لابد وأن يشعر بأن له دوراً .. لقد عاتبنى بأنه إذا لم يخرج التصريح منه .. والمعلومة فى أفضل وأكمل الصورة وزير .. يسألنى عن الدور المقترح للصف الثانى فى الإدارة المصرية ومن قال لك أن هناك دوراً ثانياً أو صفًا ثانياً إن أكبر عملية تجريف للمواهب والكفاءات تتم فى مصر ببطء وكفاءة عالية .. إن مصلحة المسئول ورئيس العمل والقائد .. وأى شخص يمثل موقعاً أن تبدو الأرض خلفه جرداء .. وسراباً وأوهاماً ضائعة أى لدى الجميع إحساس بأن الطوفان قادم لينزع عنا دورنا الوحيد وهو الوجود فى قمة موقع العمل .. لاتوجد ياعزيزى صفوف ثانية وثالثة .. بل هناك فراغ رائع !!!

أحد أشهر الأطباء النفسيين فى مصر وصاحب خبرة واسعة فى علاج مسئولين فى كل موقع فى الوطن العربى همس فى أذنى «احذر من سلاح الفرح والدهشة والسذاجة والألفة الإنسانية التى تصيبك وتخلق حولك كل هذه الضوضاء لقد نجحت فى موقعى لأننى كنت أقبل أصغر الأدوار وأقلها شأناً .. واستطعت الاستمرار لأننى لم أختلف أبداً مع رئيس ولم أتناقض مع كبير «فى مهمتى» .. لقد كان هدفى دائماً هو إشاعة الأمان حولى وتوزيع أسباب الاستقرار ولقد تأقلمت شخصيتى مع هذه السياسة حتى أننى استطعت أن أنفصل عن زوجتى دون أن أعرف أن أكبر درس فى الحياة على الطريقة المصرية أن تفعل ماتريد بدون أن يعرف الناس ماذا تريد ومتى تريد وكيف تحقق ما تريد !!!»

وهنا عرفت معنى «التسقية» فى الشخصية المصرية لقد صادفت أعداداً لا بأس بها من الناس .. لم يشغلنى مدى ثقافته بقدر مدى وعيه للحياة .. ولم أبحث عن عدد الكتب التى اطلع عليها بقدر حجم الأسئلة التى صادفها فى حياته وكيف أجاب عليها ..

يتساوى فى ذلك البواب والوزير وكانت هذه المعلومات التى تبلورت عندى هى أحد إسرارى الخاصة وكنت ومازلت وسأظل مشغولاً بالثابت والمتغير لدى أبناء النخبة المصرية .. ولكن أى نخبة ؟ وقد بات واضحاً أنها نخبة واحدة تلك التى سيطرت على مقدرات الحياة وعلى إدارة دفة السفينة طوال النصف الثانى من القرن العشرين وأن هذه النخبة قد سلمت قيادها لعبد الناصر بعد صدام مرير وآمال جديدة وأحلام فى الآتى .. إن هذه النخبة ذات طبيعة نفسية واحدة قد يكون منها الناصرى والشيوعى والإسلامى والليبرالى والوطنى .. ولكنى اكتشف أن للجميع مرجعية مشتركة واحدة أما المرجعية فهى تلك الصحافة الشمولية الواحدة التى ترى

بعين اليقين أن للحقيقة وجهاً واحداً توفر لها وحدها معرفته وأن الحرية هى لفظ جميل يمارس بصورة فردية بديعة وأن كونه مسألة ثقافة حياة مسألة صعبة .. لقد لتقيت بأحد كبار الكتاب الذين تربعوا على عرش الكتابة النقدية للفكر الدينى ببراعة وكفاءة .. واعترف : إنهم يرفضوننى وأنا أرفضهم كل منا يرفض الآخر .. إن المسألة تجاوزت الخلاف الفكرى والبحث عن أماكن التقاء بديلاً لأرض الاختلاف .. لقد أصبح وجود كل منا مرهوناً باختفاء الطرف الآخر !!! إنها ثقافة نفى ولذلك شعرت بأن المعلن شىء وأن الخفى شىء آخر نفس المنطق يحكم عملية السلام ..

إن السلام لفظة مضت معانيها ولم يتبق منها سوى عذر أو تبرير خلافى له أكثر من صيغة .. طرف يرى أن العالم تغير وسقط السوفيت ولم نجد من يساندنا .

وطرف يرى أننا لابد أن نحاول مايمكن إصلاحه فى المستقبل وطرف يتكلم عن السلام على أنه الصيغة الأكيدة فى عالم اليوم والجسر الوحيد للمستقبل ولكنه فى قرارة نفسه يعتقد أنه يعزف نغمة مطلوبة سياسياً من بعض الأطراف لذلك ينزعج كثيراً على مايردده إذا رد رئيس الجمهورية على من يسأله عن التطبيع .. «من يريد أن يطبع ليفعل ومن لايريد هو حر» . هذه الإجابة دفعت بأحد أعمدة حركة السلام أن يتساءل ماذا يعنى ذلك فتصدى أحد الخبثاء يهمس «الحق نفسك لأن فرصتك كده حتضيع .. إنسى حكاية التطبيع تلك» .

بينما مثقف آخر يعد أحد الأسماء الكبرى فى العلوم السياسية والذى يعتبر أحد الوجوه التى يتم إعدادها للمرحلة القادمة لم يجد أمامه سوى أن يرفع سماعة الهاتف ويسأل أحد كبار مسئولى الأمن .. ياباشا إيه الحكاية بالضبط سلام ولا لأ .. الولد فلان ده بيشتمنى عشان دعوتى للسلام .. إنتم عاوزين إيه بالضبط ؟ ورد المسئول الأمنى الكبير بأن كل شىء مطلوب ولاتنزعج !!!

أين السلام .. وهو الموضوع الكبير .. لم يحدث اتفاق عليه أى سلام وبأى طريقة وكيف ؟ .. إن مفهوم الحرب أسهل بكثير وأوضح بكثير .. وهل كانت هناك حرب ؟ أعرف أن ذلك السؤال يذبح القلب وتئن له النفس .. ولكن لا الحرب كانت خياراً فى الماضى البعيد «قبل ١٩٥٢» ولا كانت كذلك بعد ثورة يوليو وهنا خطورة العصا الإعلامية عندما تصبح بديلاً وعلاجاً للأمية الشعبية .. الحرب كانت شعاراً سياسياً يتم من حوله مصادرة كل شىء من أجل المعركة .. الحرب كانت الصرخة المدوية لإزالة العار الذى لم يتساءل الناس حقيقة عن

أسباب حدوثه .. جاءت حرب ٤٨ ثم ٥٦ ، ٦٧ ، ٧٣ .. كلها حروب كانت مفروضة ولم تكن خياراً إستراتيجيا حتى فكرة القوة لم تكن فكرة أساسية فى جوهر التكوين النفسى والفكرى والسياسى .. كانت قوة من أجل استعادة ما انتزع بالقوة .. القوة هنا لم تكن هدفاً عاماً وهل لو كانت هدفاً عاماً .. هل كانت تختلف الصورة . من الممكن ذلك ؟

البحث عن معنى ...

شعرت بحجم اللخبطة التى نعيشها ذات صباح وأنا أجلس مع الأستاذ صلاح جاهين فى منزله فى حى المهندسين .. أحد صباحات يوليو الحار جداً الذى لايلطف منه سوى جهاز التكييف الهادر فى حجرة مكتبه وكنت أحفظ أشعاره .. وأتابع رسومه كل صباح وقبل أن أعمل فى الأهرام كنت أشعر أن هذا الرجل يحمل بداخله قلباً كبيراً أو أنه عبارة عن قلب كبير .. ولكننى فى ذلك الوقت (عام ١٩٨٠) .

البحث عن معنى ...

ذات يوم قرأت للشاعر السورى المعروف محمد الماغوط عبارة كانت سبباً فى إعادة رؤيتى وشكى فى الكثير من القرارات .. كتب ساخراً أنه من الخمسينيات فقد انقسم الوطن العربى بين طبقتين اثنتين : طبقة الحكام ومن يدور فى فلكهم ويتكسب رزقه من العمل فى حدائقهم النفسية والفكرية والصناعية والتجارية والإعلامية .. وفى كافة المجالات ، وطبقة من المواطنين العزل من كل شىء وأنه يمكن ببساطة إقامة جدار عازل ومرتفع بين الطبقتين بدون قلق .

فى العبارة رشاقة لم أنقلها .. ولكن معنى لايمكن تجاهله .. وقبل هذا المعنى كنت أحاول .. فقط أحاول التعرف على بعض أبناء النخبة .. بعض أفراد قليلة ترسم بعض المعانى الممكنة .. كنت محملاً بشكوك جيل اهتز لديه الكثير من اليقين .. وأيضاً تحرر من الأجوبة السهلة ولن أعترف فى هذه المقدمة بما أنجزت!أو حاولت ولكنى سأعترف بما لم أنجز ..

فلم أستطع الاقتراب كما كنت أتمنى من المؤسسة العسكرية . ولقد وعيت على أن الجيش قام بالثورة .. وسعدت بالتفسيرات التى أظهرت تهافت الماركسية فى نظرتها للجيش .. وكنا نشعر بالغرور بأن الجيش قام بالثورة فكانت تجربة مثيرة فى بلدان العالم الثالث.. ولكن شخصية المشير عامر تحديداً .. ثم هزيمة يونيو ٦٧ .. ثم أسئلة حرب أكتوبر ٧٣ .. كل ذلك جعلنى أتساءل دائماً : كيف يفكرون هناك فى هذه المؤسسة ؟

هل يشعرون بالإنجاز ؟

هل هم مثلنا ؟ .. ما هو الميكانيزم أو النظام الذى يحكم الأداء ؟ .. كنت شغوفاً بالأداء والنظام .. وكنت عاجزاً عن كشف مايحدث بالداخل : وأعترف الآن وللمرة الأولى أن الصورة الطبيعية تبلورت خلال فترة تجنيدى داخل القوات المسلحة .. فهناك بعيداً وعلى الحدود الغربية أمضيت المدة .. وشاهدت الجنود المصريين فى الصحراء وخارج العمران كنت أفتح عينى بشدة على كل شىء هل أستطيع أن أحكى ؟ هل أستطيع أن أبوح ؟ هل أستطيع أن أستعيد الفكاهات الساذجة والقسوة المفاجئة والطعام .. هل أستطيع أن أتساءل عن كيف يحدث ليلة عيد الميلاد ورأس السنة الميلادية والعيد الأضحى وعيد الفطر ؟ هل أستطيع أن ألفت النظر لملابس الجنود ؟.. هل أستطيع أن أستعيد خطاباتى لأحد أقرب أصدقائى وأنا أتألم ؟ .. هل أعترف الآن أننى تساءلت بقلق كيف كان الجيش فى ٦٧ ؟ .. كيف يدار كيف يأكل .. كيف يفكر كيف علم جنوده ؟ هل أعترف بأننى شاهدت الوطن بصورة موزعة بين الرمال والنجوم وهل أعترف بالوجع الذى قرب قلبى لزميلى الذى أنهى جيشه فى منزله بينما الجندى نور .. الذى يحمل لون طمى النيل تمزقت يده وبترت أربع أصابع وهو يُعلم جندياً آخر كيف يستخدم السلاح ؟ هل أعترف .. أم أننى أكون بذلك قد تجاوزت الخطوط الحمراء .

على أية حال فى كلمة وداع ونحن نستعد للاحتفال بانتهاء مدة الخدمة العسكرية ونيابة عن الجنود وجهت تحية للجنود فى الرمال لبرق المطر .. وقلت إننى سأفكر فى الوطن بشكل مختلف منذ الآن !!

أيضاً لم أنجز الالتقاء بكافة رموز النخبة الحاكمة .. أو الموزعة فى كافة المراكز العليا ولكنى حاولت بمن التقيت أن أعرف المساحة بين الممنوع والمسموح فى أحيان كثيرة .. فهناك العديد من المسئولين الذين أجريت معهم حوارات نشرت ولم يتضمنها هذا الكتاب ولكن بقيت فى الذاكرة ما هو خارج النشر أو ما المطلوب عدم نشره : فى إحدى الوزارات الحيوية نظر إلىّ أحد نجومها الكبار وأنا أسأله عن الذى سيهدى إليه كلمة تحية بمناسبة موقعه الذى صعد إليه عن أستاذه الذى ترك أثراً لايمحى فى مسيرته المهنية والإنسانية ، نظر إلىّ وقال .. الجدير بالرسالة لا أستطيع أن أرسلها إليه سوف أغضب فلاناً .. وليس ذلك من مصلحتى أليس كذلك ؟

لم أعلق ولكن الدهشة خذلت براعتى .. فأجاب «إنت عارف كل واحد عايز ينسب فضل كل حاجة لنفسه» .

قد يقدر الواقعة مسألة شخصية إنسانية عادية .. قد تبدو حكاية ساذجة فى زمن صناعى .. قد تبدو قصة مكررة تحكيها الجدات عن فلان الجميل ولكنى كنت أراها من زوايا مختلفة كنت أستشعر المسألة ملفوفة فى سؤال : هل تلك المعانى تعكس ثقافة مساندة ؟

هذا سؤال حررنى من الخشية ومن الخوف .. ومن التردد .. وجعلنى بالمعانى والدلالات وليس بالحكايات والروايات وبهذا المنطق اكتفيت من مسئول كبير بإشارة إلى صورة على مكتبه وتعليق أحياناً يبدو المثقفون كفريقين .. فريق يعمل لدى الشيطان والثانى ينتظر فرصة لقبول عرضه للعمل بصورة تحفظ له ماء وجهه !!!

وأمام هذه العبارة لاح أمام عينى فريق كبير من المثقفين لم تكن قناعتهم كاملة بماذا ؟

بتلك المعانى التى لخصها الشاعر الروسى إكلين أيفنشنكو عندما سأل أنيس منصور «ما هى القضية التى يعمل من أجلها المثقفون فى بلدكم» .

فى إطار البحث عن معنى ...

الازدواجية الاتفاق الصمت بين الجميع بأن المسافة بين الممكن والحقيقى شاسعة .. الإحساس العام بأن هناك لغتين لكل منا قلبين فى جوفه جعل شعورى بمجتمع الصفوة مليئاً بالمتناقضات .

إحدى الباحثات أعدت رسالة دكتوراه عن النخبة السياسية فى مصر وكانت حول ازدواجية هذه النخبة تصريح للدكتور عبدالمنعم ..... حول التعاون مع حكم عبدالناصر بدون امتناع منه ولكنه كان يأمل أن يساهم بصورة غير مباشرة فى الدفع بعيداً عن النظام الاشتراكى .

....

عبدالوهاب المسيرى

التمرد على قبعة العم سام

ما بين حقبتين ونهاية قرن كانت رحلة هذا المفكر المثقف من عالم الي آخر، وكانت تغييرات فكرية جديرة بالتأمل اندلعت في منتصف السبعينيات ويشتد لهيبها فى أوائل الثمانينيات، لنجد بعدها الاستاذ الدكتور عبدالوهاب المسيرى أحد أكبر المثقفين العرب المتخصصين فى المسألة الصهيونية.. وقد عاد مسرعاً ليدير ظهره للحداثة الأوروبية ويبحث عن لحن وجوده فى جذور الحضارة العربية الإسلامية.. وكانت العلامة والبشارة قطعة من الرخام مكتوب عليها ديوان الأميرية عام ١٨٧٢ اكتشفها فعاد بها مسرعاً.. ليغير (الرؤية) لعمارته السكنية التى يمتلكها.. والرؤية أيضا التى يمتلكها لينتقل بقوة من خندق الى خندق . ويصبح هذا الانتقال جديراً بالتفكير.. لأن تجربة د. عبدالوهاب المسيرى هى تجربة.. أو جزء من تجربة مجموعة من النخبة العربية التى بدأت حياتها الفكرية والعلمية وهى ترقص على ألحان الغرب.. وتوجت رحلتها بالخروج على هذا اللحن، بل بقيادة التيار ضده، والسباحة عكسه.. إن أهميتها ليس فيما حدث من وقائع بالأمس.. ولكن فيما يعنيه ذلك لنا فى الغد.. إنها مشكلة عقلية ضارية يرى فريق أنها تعود لجذورها مسرعة ويرى فريق:

فى بداية الحوار قلت له.. إن هناك شعوراً عاماً بالأزمة لا نعرف سببه.. فوافق وقلت له: إن العواطف نفسها فى أزمة .. فقصص الحب الفاشلة تتزايد ولعاً .. فوافق.

وعندما سألته: أين يكمن الخلل ؟

أجاب بثقة: إن الحداثة الأوروبية فشلت هنا.. وهناك ولكن لا أحد يجرؤ على الاعتراف بذلك.. هذا زمن الخصخصة كل إنسان يفعل ما يريد!!

ولأن من حق كل إنسان ذلك طبقا لرؤية الدكتور المسيرى أستاذ الأدب الإنجليزي.. والذى قدم للمكتبة العربية موسوعة المصطلحات الصهيونية من ثمانية أجزاء لتمثل أبرز إضافة فكرية فى حقل الدراسات الصهيونية فى نهاية القرن العشرين.. لأن من حقنا اختيار نقطة البداية فكان منزل الدكتور المسيرى هو الذى فرض بدايات الحوار.. فقد جعل عمارته صياغة معمارية فكرية وحياتية تعكس تجربته.. هو ابن الثقافة الغربية.. الذي ارتدى قبعة العم سام فى بلاد الحضارة المنتصرة أمريكا حتى منتصف الستينيات ثم فجأة بدأ يتمرد ولعل أبرز

تجسيد للتمرد هذه للبناية الهادئة في أحد شوارع الحى الهادئ (مصر الجديدة) والذى فرض ان تكون نقطة البدء كذلك؟

«... لهذا المنزل قصة.. لقد قام أحد المهندسين بتأسيسه بالطريقة التقليدية وكان ما يسيطر على ذهنه كيف ستقيمها لجنة المساكن وليس كيف سيعيش فيها السكان.. وأتذكر أيامها أننى اقترحت أن يتم بناء الكثير من الخدمات داخل الشقة بما يوفر نفقات الكثير من الأثاث.. فقيل لى إن النظر إليها سيكون على أنها إسكان شعبى ولن أحصل منها على مليم!! وفى هذه الحالة ستؤجر الشقة فى حدود ٧ جنيهات فخرجت.. لأننى كصاحب رأس مال أحب الحصول على عائد وأنا أرى النقود دائما بأنها حرية مجمدة!! أى يمكن استخدامها لتحقيق وتنفيذ بعض أفكارى.. المهم عندما بدأ المهندس فى تنفيذ هذه العمارة كانت الملاحظة الأساسية تعدد (البلكونات) الضخمة بصورة مبالغ فيها وبدون تحقيق وظيفة معينة فعدت لأسأل المهندس مرة أخرى هل نقص هذه البلكونات وتقلل فى تقديرها للقيمة الإيجابية فما كان منى الا ان تمردت وبدأت إلى العديد من هذه البلكونات بعد إقامتها وحدث نفس الشىء عندما فوجئت بواجهة قبيحة للعمارة.. فقررت أن أبدأ مسيرة تعديل العمارة.. وكانت نقطة البداية أننى وجدت فى أحد محلات الأشياء القديمة لافتة مكتوب عليها ديوان المديرية وتخص مديرية الجيزة القديمة والتاريخ المكتوب عليها ١٨٧٢ أى قبل الاحتلال الإنجليزى!! وبالفعل كانت هذه اللافتة الرخامية هى نقطة البداية فى صياغة هذه العمارة.. وقد كان! وتبع ذلك نزع الألوان القديمة والسعى لوضع ألوان وأشكال زخرفية عربية حتى يصبح للمنزل هوية ولعل أبرز التغييرات الأساسية أننى حولت (المنور) المغلق إلى حديقة عربية.. وبالتدريج ورغم أنها عمارة من طوابق متعددة الا أنها أخذت أخيراً شكل البيت العربى القديم».

ويستطرد: من ناحية أخرى كان أثاث شقتى كله فرنسى واستطاع أحد مهندسى الديكور أن يجعل منه منزلا أوروبيا أنيقا ولكنه كان قطعة من أوروبا ملمحا وإحساسا ولكن تمردى امتد إلى هناك وبدأت فى تغيير محتوياته ليعكس الاهتمام بالطرز العربية خاصة الطراز المملوكى.. وأعدت صياغة كل شىء.

* من هذه النقطة – نقطة الصياغة – يمكن أن نبدأ التساؤل عما حدث لك كنموذج للكثيرين من مثقف بدأ حياته يساريا مثل الدكتور محمد عمارة إلى مؤرخ اعتذر علانية عن موقفه من التيار الدينى مثل طارق البشرى إلى مفكر مثل الدكتور عبدالوهاب المسيرى يستعد لاصدار واحدة من أهم الموسوعات وهى موسوعة المصطلحات الصهيونية فى ثمانية أجزاء ولكنه استطاع أن يخلع قبعة العم (سام) ويطوح بها بعيداً.. كيف وما تفسيرك؟

** بداية لابد أن أعترف بأننى بُهرت بالحضارة الأمريكية أثناء وجودى هناك وظللت لفترة من الوقت أنظر حولى وأستوعب وجودى هناك والواقع الذى أنا فيه بامتنان شديد.. ولكن مع

عام ١٩٦٥ بدأت أتكشف وحشية هذه الحضارة.. حرب فيتنام والشراسة غير العادية التى كانت تمارس بها.. ووجدت كل القيم الديمقراطية الأمريكية تتحطم وتتراجع أمام الصخرة الإسرائيلية فبدأت الشكوك تنمو داخلى ولاسيما أننى لا أقنع بمعرفة (السياسى) بل أتجاوزه إلى المعرفى أى التعامل مع القضايا الكلية والنهائية وهنا بدأت تطل على ذهنى أسئلة حيوية مثل ما هى الصورة الإنسانية الكامنة وراء الحضارة الغربية؟

وبالبحث والمعايشة وجدت أن صورة الإنسان الكامنة هى صورة الإنسان الاقتصادى الذى أسميه الآن فى أدبياتى بالإنسان الجسمانى أى الإنسان الذى يعيش فى جسده تماماً ويتمثل ذلك فى بعض أوجهه فى الاعلانات التليفزيونية فانها دائما ذات هدف اقتصادى توظف الجنس بحيث أنها لا ترى الانسان إلا من هذين البعدين.. فاحتساء الشاى لا تكتمل متعته إلا من أيد رقيقة !! والإعلانات عن قشرة الشعر أو البشرة تجعلنا نحس وكأن الجنس البشرى كله قد أصيب فجأة بالأمراض الجلدية!! ويرتبط بذلك كله انتشار قاس للقيم الاستهلاكية مثل أنه لابد للمرء أن يجدد نفسه كل يوم.. ويجب ألا يترك شبابه أبداً وأن امكانية الشباب الأزلى قائمة.. وهكذا ، إنها مجموعة من القيم الاستهلاكية التى تدفع الإنسان لمزيد من الاستهلاك.

وقد وصلتنا هذه الرياح فى المنطقة العربية وفى مصر وعبرت عن نفسها من خلال فتيات الإعلان وهى ظاهرة جديدة عندنا.

* لماذا تجعل منتصف الستينات نقطة البداية فى نظرتك النقدية للحضارة الغربية عامة والأمريكية خاصة؟

** كنت فى أمريكا طوال الستينيات وأتذكر أن أول إعلان يوظف الجنس فى الدعاية والإعلان كان عام ٦٤.. وأتذكره لأن أحد أصدقائى الأمريكان قال : هذه هى بداية النهاية! وأتذكر أن الإعلان كان عن صابون حلاقة حيث تأتى فتاة شقراء وتقول (اخلعها.. اخلعها كلها) وتعنى الصابون وأشياء أخرى!!

وقد صدمنا الإعلان جميعاً فى هذه الفترة وأتذكر أنه خرجت حركات احتجاج ضده لكن الدرس الذى تفهمته هناك أن الإعلام الأمريكى قد يتراجع لكن يعود ليتقدم مرة أخرى ولذلك وبعد قليل أصبح توظيف الجنس مسألة مشروعة في الإعلانات.

المهم أننى فى تجربتى مع الحضارة الأمريكية تجاوزت المستوى السياسى والأيديولوجى لكى أصل إلى أن صورة الانسان فى الحضارة الغربية كئيبة للغاية.. صورة مادية.. منحطة!! ولا أعنى بذلك أن الإنسان فى الغرب منحط.. فالإنسان خلقه الله وبث فيه فطرة سليمة وطيبة.. وينطبق ذلك على الأفراد هناك ولكن حديثى ينطبق على النموذج وليس البشر العاديين إنهم مثلنا إذا ذهبت للولايات المتحدة تجد الكثيرين من أبناء الطبقة المتوسطة فى حالة ضيق شديد من الحصار الذى يقوم به إعلام لا يعبر عن وجهة نظرهم.. إعلام إباحى يمجد الشذوذ

الجنسي ويتقبله بصدر رحب!! والأسر العادية الباقية تستنكر ذلك.. ولكن لا يمكنهم الفكاك من هذا الحصار الشديد لأنهم أسرى فكرة مفروضة عليهم وهى ما يمكن تسميته (اتساع الأفق).

* ماذا يعنى هذا المفهوم؟ ومدلولاته على حضارة أراك وأعرف أنك دارس متعمق لها وهى حضارة هامة لأنها تمثل القمة لجبل العالم أو النموذج المنتصر؟

** مفهوم اتساع الأفق الذى يفرضونه على الناس هناك يعنى قبول أى شىء.. فعندما ترى فيلماً عن الشذوذ الجنسى فيجب ألا تعبر عن ضيقك.. يجب أن تتسم برحابة الأفق وتقبل ذلك ومنذ أسبوعين كنت فى إنجلترا وأثيرت قضية خاصة بأستاذة جامعية كانت زميلة لى فى أمريكا كتبت رواية عن الجماع بالأطفال أو ما يعرف بالإنجليزية (Bedohilia) وتدافع عن ذلك وتصفه.. وقد حدث انقسام فى المجتمع الإنجليزى.. فهناك بعض المكتبات رفضت أن تعرض الرواية للبيع والبعض الآخر وافق ولكن هذا من قبيل خطوة للخلف ثم خطوتين للأمام.. وأعتقد أننا عندما نعود بعد عام للحديث عن هذا الموضوع سنجده موضوعاً شائعاً وعليك أن تتسم برحابة الأفق واتساعه!

قيمة أخرى فى هذه الحضارة التى يعتقد البعض أنها النموذج الوحيد الذى يجب أن ننحنى أمام عظمته ونسلم مثلما يرى البعض الذين نقصدهم فى سؤالك وهى قيمة الحساسية.. إذ يجب أن تُظهر حساسية فائقة نحو الآخرين.. لا تحكم عليهم على الإطلاق.. هكذا فان كافة الأخلاقيات الغربية ضد المعيارية وعليك أن تقبل كل شىء وأن تظهر التفهم تجاه الآخرين.. وتصبح النسبية المطلقة هى النسبية المتوحشة وهى تدعى اتساع أفق.. ولكنها فى الحقيقة ضيق أفق شديد لأنها تفرض منطلقاتها وقيمها.

* كيف تصاعدت هذه الهجائية داخلك لتتمرد على ثقافة أنت تعلمت على يديها وبالتأكيد استفدت منها؟

** الوعى الذاتى والمعرفى والرغبة الملحة فى الفهم المعرفى لما يحدث ويتردد حولى كان وراء عمق رؤيتى للغرب.. وكانت رسالتى للدكتور فى الولايات المتحدة هى التى دفعتنى لاكتشاف ظاهرة نهاية التاريخ - بالمناسبة أول كتاب نشرته عام ١٩٧٢ بعنوان «نهاية التاريخ» وذلك قبل كتاب فوكوياما بنحو ١٦ عاماً وللأسف عندما نوقش كتاب فوكوياما فإن بعض من قرأ كتابي وعلق عليه يوم صدوره لم يتذكر ذلك وهو يناقش كتاب فوكوياما.. لقد رأيت أن نهاية التاريخ تعنى سيطرة الإنسان على كل شىء أو ما سميته فى كتاب آخر (الفردوس الأرضى) إنه فردوس تكنولوجى بيروقراطى ولكن مع الوصول لهذه المرحلة يختفى الإنسان فى تقديرى لأن الإنسان كائن مركب يحوى داخله الكثير من الاسرار التى لا يمكن التحكم فيها.. ولا يمكن التنبؤ بسلوكه بشكل كامل ونهاية التاريخ تلغى كل ذلك..

وقد درست الحضارة القريبة من هذا المنظور.. ودرست أعمال الشاعر الأمريكى ويتمان من هذا المنظور .. ووصلت إلى أن الديمقراطية التى ينادون بها ليست ديمقراطية على الإطلاق وإنما هى تعبير عن فكرة الإنسان الغربى بأن هناك تاريخاً واحداً للعالم وأن هذا التاريخ يصل إلى قمة تصوره فى الحضارة الغربية وأن على العالم كله أن يقلد هذا وعلى الغرب أن يساعد الآخرين على الوصول لهذا الهدف.

وهذه المساعدة واستخدام فكرة حقوق الإنسان لضرب الحكومات المغايرة.. وخفض العملة فى جنوب شرق آسيا لا يبتعد عن فلك الأساليب حتى تستسلم آسيا روحيا لهذا الحضارة المنتصرة والشرسة.

الإنسان الإمبريالى

* قد يرد عليك البعض بأنك تنظر لسلبيات الحضارة الغربية فقط فى إطار هجائيتك لها؟

** هذا الكلام أقرب لكلام دعاة التنوير والحضارة الغربية عندنا الذين يرون أن الاستعمار هو انحراف عن خط هذه الحضارة ولكنى أجد العكس فالاستعمار والإمبريالية هى تحقق النموذج الغربى – فالإنسان الذى يسيطر على الطبيعة ويسخرها.. وليس عنده معايير يعيش عليها وكل شىء بالنسبة له نسبى هو نفسه الإنسان الإمبريالى.. الذى يسخر آسيا وأفريقيا وشعوبها ومواردها لصالحه هو ، وقد نحت لفظة عربية لوصف هذه الحضارة المادية وهى (الحوسلة) أى تحويل كل شىء الى وسيلة وهى على نفس إيقاع (البسملة) وبالمناسبة أنا لا أدعى أن هناك مؤامرة ضد الشرق وإنما أدعى أن هناك آلة غربية تقتل الجميع بما فى ذلك الغربيين وفى كتاب (تغريب العالم) وقد تعرفت على مؤلفه الذى قال إن الحضارة الغربية لم تعد قصة جغرافية أو لحظة تاريخية وإنما أصبحت آلة تفتك بالجميع بما فى ذلك القائمين عليها وإنها نوع من استعمار الحياة كما قال مفكر آخر.

* رغم هذه الهجائية العنيفة ضد الحضارة الغربية.. فإننا مطالبون بالبحث عن جسر إليها ، إن العداء للحضارة الغربية يبدو أحياناً وكأنه إما موضة أو حالة نفسية بسبب تخلفنا مثلما يقول البعض ، إن الطريق للمستقبل لا يمكن أن يتجاهل الحضارة الكبرى التى أعطت للعالم شكله الحديث ونحن نبحث عن طريق للمستقبل.. فلابد من رؤية مختلفة؟

** بداية لا أحد ينكر أن هذه الحضارة حققت نجاحاً مادياً مذهلا لكن يجب أن نسأل أنفسنا: كيف حققت هذا النجاح؟ ثم ما هى تكاليفه؟ وهل يمكن الاستمرار فيه؟ هذه أسئلة ضرورية ، وفى إطار الإجابة نتذكر أنه فى لحظة من اللحظات يبدو وكأن العالم كان فى حالة فراغ.. فالدولة المملوكية فى مصر والدولة العثمانية فى حالة تدهور والإمبراطورية الهندية فى

قوقعة وكانت الصين فى حالة تقدم وقد لا ينتبه البعض إلى أنها أرسلت أسطولا فى القرن السادس عشر وصل إلى شواطىء أفريقيا ولم يكن له نوايا إمبريالية.. بل وقف يوزع الهدايا على الناس ليبين أهمية امبراطور الصين!! ثم يعود ، ولكن جاء الرجل الأبيض برؤية مخالفة لاكتساح العالم كله وتسخيره كله.. الإسلام أقام حضارة مختلفة.. حضارة اتسعت للمسلمين ولغيرهم وكانت القضية هي هداية العالم وليس (حوسلته) أى تحويله لوسيلة مادية. ومن المفارقات الكبرى أن الغرب فى الماضى كان أفقر مكان فى العالم.. ولم تكن لديه بضائع ليتبادلها مع العالم لذلك لجأ للنهب.. وهناك واقعة هامة تذكرها الموسوعة البريطانية وهى أنه عندما حط الانسان الغربى البرتغالى فى الهند أرسل بعض الهدايا للمهراجا الهندى فنصحهم بسحبها لأنها تعتبر إهانة بسبب فقرها!!

فلم يكن لدى الإنسان الغربى ما يميزه.. لذلك قام بعمليات نهب تاريخية لم تحدث من قبل وولى إبادة الجنس الأحمر فى أمريكا الشمالية - مثلا سكان المكسيك عندما وصل الإنسان الأبيض كان مقدارهم ٣٠ مليون ، وفى عدة سنوات تناقص العدد ليصبح مليون واحد. يعنى الإبادة كان هائلة.. وحدث نفس الشىء للجنس الأسود حيث يقال إنه - أى الإنسان الأبيض - الذى نقل عشرة ملايين لتسخيرهم كعبيد أباد ٩٠ مليون!! وفى مواجهة الجنس الأصفر لننظر لحرب الأفيون وتدمير الصناعات الهندية وهكذا فى باقى أجزاء العالم وكل ذلك ساهم فى صناعة التراكم الذى لم يحدث مثيل فى التاريخ من خلال مانهبته إنجلترا من الهند والذى يفوق بمراحل ما أنتجته أثناءالثورة الصناعية وهكذا !!

وبناء على كل ما سبق فإنه لا يمكن تكرار هذه التجربة بل أكثر من ذلك فإن هذا الغرب وقف ضد المحاولات التوحيدية الكبرى من محمد على إلى جمال عبدالناصر الذى لم يكن هذا الغرب يمكن أن يتركه ليحقق حلمه الكبير فى وحدة عربية ذات هوية إسلامية حضارية تصد اندفاع الغرب للمنطقة.

* استمراراً يا دكتور لنفس السؤال السابق ألا تلاحظ أن الكثيرين تجاوزوا عداء الأمس من أجل السياحة نحو الغد؟ وأن الموروث التاريخى - سواء استعماريا أو غير ذلك - قد تم تجاوزه فى كل أنحاء العالم وبدا أن التعاون يأت بديلا للصراع وتبادل المنفعة بات مكان المواجهة ولكنك وضمن مجموعة ندوة نهاية السبعينيات التى كانت تلتقى فى منزل الأستاذ عادل حسين الذى تخلى عن الماركسية واتجه الى المظلة الإسلامية تجعلون من الماضى مقياساً للتعامل مع الغرب ولا تقدمون جديداً لكيف نستفيد من ذروة تفوقه؟ إنكم ستجدون الكثيرين الذين يؤيدون هذا الموقف من الغرب ولأسباب عاطفية ولكن هل يتفق هذا الكلام مع عالم بات أى حدث يقع فى أقصى بلدانه يجد صدى فى أبعدالقارات؟

** هذه الدعوة التى تقولها هى دعوة غربية.. وبصراحة شديدة - وتستند إلى نهاية

التاريخ .. فالتاريخ انتهى بانتصارهم فلماذا نفكر فى التاريخ.. يا عزيزى هذه دعوة لصالحهم وليس لصالحنا وانظر لنموذج إسرائيل.. تحتفظ بالقنبلة الذرية ولكن تحرم منها غيرها ، رفضت أمريكا أن توضح اتفاقية الألغام.. انظر لتسليح إسرائيل لإريتريا للهجوم على الجزر اليمنية.. وأمثلة أخرى تؤكد أن هناك إستراتيجية غربية مستمرة منذ القرن التاسع عشر وهى أن نمنع ظهور قوة فى هذه المنطقة العربية التى تشكل قلب العالم الإسلامى.. وبالمناسبة هذا ليس غريبا على العقل الغربى، إن سكان أوروبا الذين يمثلون ٢٠٪ من سكان العالم يستهلكون ٨٠٪ من موارده.. ولو أننى سمحت - كإنسان غربى - لبقية البشر أن يعيشوا مثلى فإن هناك مشكلة ستقع لأن الموارد محدوده!! .. وبنفس المعيار فإن الولايات المتحدة هى أكثر دول العالم اكتظاظا بالسكان لأن الإنسان الأمريكي يستهلك أكثر مما يستهلكه ألف انسان هندى!! إذن فالولايات المتحدة فيها ٢ بليون شخص!! وأوضح هنا شيئا للاجابة على سؤالك ، إن فهم الإنسان الغربى ليس بهدف الهجوم عليه - فهذه أمور صبيانية وإن رؤية أن الغرب هو المسئول عن مآسينا أيضا مسألة صبيانية.. هذه ليست مسائل علمية لكن العلم هو معرفة البنية الغربية.

دعاة التنوير

* بصراحة شديدة.. يا دكتور.. هل تعتقد أن كل المثقفين العرب الذين يتبارون فى مهاجمة الغرب أدركوا كل هذا الكلام الصعب والهام الذى تشرحه أم أنكم أسرى عاطفيون للماضى.. أم ماذا؟

** ألفت نظرك لمسألة.. أن الذين يقولون ذلك هم مجموعات من دعاة التنوير هم أشبه بأناس دخلوا سوبر ماركت الغرب ولم يستطيعوا الخروج منه.. يا عزيزى هم أسرى.. أما الحديث عن العواطف فإننى لا أرغب فى حديث عن تاريخ طويل.. لكن أعترف بأننا لا نعبر عن الحضارة الإسلامية اليوم.. نحن يا عزيزى بقايا لهذه الحضارة العظيمة التى لم تعش على سحق وهضم الآخرين.. نحن على وعى بهذه الحقيقة ولكن فى سؤالك بعض الصحة عندما أعترف لك بأن أول صدام وجدانى مع الغرب كان بخصوص الصراع العربى - الإسرائيلى وسوف أعترف لك بما هو أكثر من ذلك حتى يفهم الجميع حقيقة التحول الذى حدث.. لقد كنت صهيونيا حتى عام ١٩٦٣ نعم.. وكنت أطالب بنسيان الفلسطينيين.. أو البحث عن مخرج لهذه القضية كمشكلة للاجئين تسبب الإرباك فى حركة المرور فى شوارع العالم!! وكنت أحمل رؤية صهيونية بالفعل.. وظللت أحمل هذه الرؤية حتى قابلت فتاة يهودية وسألتنى عن جنسيتى فقلت (مصرى) وهى قدمت نفسها لى على أنها (يهودية).. فأخبرتها أننى لا أسأل عن دينها، إننى رجل علمانى صهيونى ماركسى.. هكذا كنت للحقيقة ولكن قلت أسألك عن جنسيتك

فأجابتنى ثانية: أنا يهودية وأنت لا تفهم شيئاً - وفى هذا اليوم أدركت أن هناك مشكلة.. وبدأت كعربى هناك أحاول تفهم الحقيقة فوجدت أن الاعلام الغربى يلعب دوراً هائلاً فى المسألة..مثلا يردد أن عبدالناصر قال سنلقى بإسرائيل فى البحر.. فنستعين كعرب يعيشون فى أمريكا بعالم أمريكى لدراسة المسألة فيكتشف الرجل أن عبدالناصر لم يعلن ذلك ويعلنه.. ولكن الإعلام هناك يظل على موقفه.

أيضا ادعاء الإعلام الصهيونى والغربى بأنه لم يحدث أية توابع فى فلسطين قبل ٤٨ وأن الفلسطينيين تركوا بلادهم لأن الحكام العرب طلبوا منهم ذلك.. وطبعاً رؤية تصدم المشاعر الإنسانية وتقدم الأدلة على عكسها فيرفضون فى الغرب قبولها وأتذكر أنه فى آخر أيامى فى الولايات المتحدة كنت اسير وفى سيارتى حقيبتان بهما أدلة علمية على خطأ ما يردده الإعلام.. فوجدت أن ذلك من الغباء لأننى أحاول أن أتجاوز خطأً معرفيًا .. وهنا بدأت أحاول فهم ما يحدث.

* قبل الاستطراد فى هذه التجربة الهامة.. أتصور أن فهم العقل العربى للسلوك الأمريكى خاصة والغربى عامة حوله علامة استفهام حتى أن تجربتك تلك تجعلنا نعتقد أننا قد أخطأنا فى ذلك؟

** بالتأكيد.. لقد بدد العقل العربى نفسه فى محاولة شرح القضية للغرب ولم نكتشف ذلك بسهولة.. ولذلك تبنيت مشروعى المعرفى الذى توجهت به للإنسان العربى المسلم ليس بغرض فضح الصهيونية ولكن بغرض فهمها. وبالتالى فإننى بذلت واسنوات جهداً كبيراً فى هذا الإطار وعندما أقول اليوم. نعم الغرب توصل لاكتشافات علمية كبيرة ولكنها منفصلة عن القيمة وأن هناك وهماً عامًا بأن كافة الاكتشافات كانت لخدمة الانسان وإن الأمثلة عديدة.. ومثلما يشير كتاب صدر حديثا فإن الساعة مثلا تم اختراعها لضبط الإنسان وليس لخدمته - والمهم أنه ظهر الآن علم منفصل عن القيمة ولذلك وقف رئيس الولايات المتحدة لمنع الاستنساخ فى المجال البشرى لأن العلم وصل إلى حد هدد المجتمع البشرى وهذا الاتجاه هو جوهر العلم الغربى.

وأقصد به الفصل بين الإنسان ونشاطات إنسانية عديدة انفصال النشاط الاقتصادى عن الإنسان وتحكم عليه أحكاماً اقتصادية فقط.. الى أن نصل إلى انفصال الجنس عن القيمة بحيث نظر المرأة الى جسدها ليس كشىء اجتماعى أو إنسانى بل شىء خا ص بها كفرد ومهيأ للمتعة وهذا ما نشاهده اليوم فى الغرب فالجنس هناك لم يعد له علاقة لا بالحب ولا الأسرة ولا الإنجاب.. لقد اصبح أداء منفصلاً عن القيمة.. وبالتالى فإنه بانفصال العلم عن القيمة والجنس عن القيمة وأصيب الإنسان بإعراب كامل.. لأنه انفصل عن المعرفة واللذة.. وفى العالم الغربى الآن هناك دراسات تتوجه لهذه المشكلة.. وسأقدم لك مثالا.. عندما كان

النازيون يقتلون أحد توأمين ليعرفوا تأثير ذلك على الطرف الآخر.. السؤال هل هناك علميا ما يمنع ذلك؟ بالتأكيد لا ولكن ما يمنع هو قوله تعالى «ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق» أى العودة للمقدس فالعلم لا يزود الإنسان بمنظومة أخلاقية وبالتالى لسنا نحن فقط الذين نقوم بعملية المراجعة ولكن هناك عملية مراجعة ضخمة فى العالم كله.

وأرجو أن يجيب ذلك على أكثر من صيغة لسؤالك الأساسى حول تحولى الفكرى وكيف اهتديت إلى المظلة الإسلامية أرجو أن نجد فى كل الأمثلة ما يكشف لك الطريق الذى مشيت فيه.

* أستطيع أن أرى الطريق الذى مشيت فيه ولكن أحب أن أسألك إذا كانت هذه الأمراض أصابت الغرب فإنك ترفعها أمام عيوننا رعبا قادما بدون أن نمتلك حضارته إنك وآخرين تشيرون لنا كى نعود ولكن نعود من أين وإلى أين ونحن لم نتحرك من مواقعنا وهذه مشكلتنا.. إن الخشية من الرعب الذى تحدث عنه يمكن أن تجعلنا اسرى لعدم التقدم للأمام..أكثر من ذلك ما هى مقاييس التقدم البديلة التى تطرحها أمام مجتمع يريد السير للمستقبل؟

** بداية لابد أن تعرف أن منظومة الحداثة الغربية فى أزمة، وثانيا أن هذه المنظومة رغم أزمتها فإن العالم كله يجربها حتى نحن.. حتى فكرة الخصخصة نفسها هى إحدى ثمارها ولكن هناك بحث عن مخرج.. وفى تقديرى أن الخطاب الإسلامى يقدم نوعا من الخصال وأنا لذلك أضع هذا الخطاب فى سياق عالمى – أما بالنسبة لسؤالك عن منظومة أو مقاييس بديلة للتقدم فاننى أفضل بداية توحيد معايير التقدم.. فإذا أدى التقدم إلى تلوث البيئة واستهلاك الأوزون وتحول صناعات الفتك والقتل إلى كونهما أهم الصناعات فى القرن العشرين ، ولايمكن للاقتصاد الغربى بالمناسبة أن يستمر بدونها – وإذا أدى هذا التقدم المزعوم الى انتشار الإيدز واندثار الأسرة وظهور مدن كريهة للجميع – ليست القاهرة فحسب بل نيويورك ولندن وهكذا – وتزايد معدلات الجريمة فإن السؤال: هل هذه الحداثة التى تسأل عنها تحت مسمى التقدم حتمية أم أنه يجب فتح باب الاجتهاد؟ إذن فتح باب الاجتهاد مطلوب ليس بخصوص الإسلام فحسب بل بخصوص الإنسانية أيضا – وإذا كان الله قد وهبنا العقل كما تعلمنا من تراثنا الإسلامى ووهبنا أيضا حرية الاختيار فالسؤال الآن هل يمكن تأسيس حداثة جديدة تستفيد من العلم ولاتجعل العلم يسخرها؟ هذه هى القضية المطروحة على الجنس البشرى كله.. لذلك أرى أن الخطاب الإسلامى فى قيمته يتوجه للعالم ويطرح حلولا للعالم كله.

أيضا.. أرجو ألا نتجاهل أننا حاليا ندفع الثمن الفادح لمقولة نهاية التاريخ ، ندفعه – مثل كل العالم – بدون تردد.. ولكن مشكلتنا أنهم هناك لديهم قواعد للسير والمرور ونحن مازلنا لا

نعرف أين يمكن للعسكرى أن يقف وماذا يستطيع أن يفعل لينظم هذا المرور!! إنه الثمن!.

* ما بين الرياض والقاهرة.. حدث تحولك الفكرى.. هل قليل من التوضيح يزيل أية أسباب لسوء الفهم؟

** ذهبت للسعودية عام ١٩٨٣ وكنت قبل ذلك بسنوات وتحديدا منذ عام ١٩٧٦ قد بدأت العمل فى تحديث موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية، التى أصدرتها من خلال الأهرام عام ١٩٧٥ وأذكر أنه فى عام ١٩٨١ دعوت لاجتماع ضخم حضره عدد كبير من الباحثين للتفكير فيما أنا مقدم عليه، ولكن ظلت الأمور تحتمل علامات استفهام عديدة حول المشروع وإطاره النظرى وما سأقدمه ولكن بوجودى فى السعودية وفر لى أحد الأصدقاء قدرا كبيرا من التفرغ.. جعلنى أعيد ترتيب كل شىء وأبذل جهدا مضاعفا فى وضع تصور لتلك الموسوعة التى ستصدر خلال الأيام القادمة حيث أقدم فيها ومن خلال ثمانية أجزاء نموذجاً تفسيريّاً جديداً لليهود واليهودية والصهيونية. فى نفس الوقت بدأت أحضر ندوة أسبوعية كان يحضرها العديد من الأدباء والمثقفين السعوديين. وقد ساهمت هذه الندوة فى تطورى الثقافى. وهناك بدأت تتبلور رؤيتى للحضارة الغربية.. ندوة أخرى لعبت دوراً هاما فى حياتى وسبقت ندوة الرياض وهى تلك التى كانت تُعقد فى منزل الأستاذ عادل حسين وكان يحضرها طارق البشرى والدكتور إبراهيم عبدالحليم والدكتور ممدوح فهمى أحد علماء الرياضيات وحامد الموصلى والدكتور محمد عمارة والدكتور جودة عبدالخالق. وكانت تعقد فى منزل أحدنا مرة كل شهر. لقد جمعنا فشل الحداثة الغربية - هكذا يواصل الدكتور المسيرى حديثه: وكان يقينى يزداد فى نفس الوقت أن العالم يعانى من افتقاد علاقته بالله، وأن العالم بدون إله يصبح شقيا ويصبح الإنسان فيه ذئباً وليس هناك من يردعه.

الحضارة الصهيونية

* بين ندوتين حدث ذلك التطور الفكرى، وفى الحلقة السابقة تكلمت عن صدمتك فى الحضارة الغربية أثناء دراستك هناك ولكنك ضمن المجموعة التى ذكرتها الآن يبدو وكأنكم صادرون عن موقفكم كرد فعل للصراع العربى ـ الإسرائيلى الذى جعلكم تنتقلون إلى خندق الظاهرة الإسلامية بشكل مازال يثير الأسئلة؟

** هذا التصور الذى يتضمنه سؤالك صحيح إلى حد كبير ولا يمكن إغفال عامل الصراع فى تغير توجه الكثيرين وتغيير آرائهم إلى مظلة الإسلام الفكرية.. ولكن بالنسبة لى، فقد تجاوز الأمر ذلك إلى إدراكى أن المشروع الصهيونى جزء أساسى من المشروع الغربى، وأنه ليس بانحراف عن الحضارة الغربية.. ولذلك ففى موسوعتى أقدم تاريخا مختلفا للصهيونية.

فهي لم تبدأ مع المؤتمر الصهيوني الأول وإنما بدأت مع التفكير الاستعماري الغربي وأن الحضارة الغربية كانت تتجه اتجاها صهيونيا قبل ظهور اليهود كعنصر فاعل في الحضارة الغربية، وأن المفكرين الصهاينة الأساسيين في الحضارة الغربية لم يكونوا من اليهود وإنما كانوا إما من البروتستانت أولا ثم من العلمانيين الغربيين - وأعتقد أن الحضارة الغربية كلها تحولت إلى الصهيونية عام ١٨٤١ مع القضاء على محمد علي، وأصبح من وقتها تأسيس وطن صهيوني جزءاً هاماً في الإستراتيجية الغربية - وطن يهودي حتى يتم تقسيم الدولة العثمانية، وهذا الرأي يعبر عنه ناحوم سوكولوف صاحب كتاب «تاريخ الصهيونية» وهو أول تاريخ رسمي للصهيونية وكاتبه كان رئيسا للمنظمة الصهيونية العالمية.

* لعل هذه الجزئية من الحوار تفرض التساؤل عن تصورك لكيفية التعامل مع العقل الغربي حتى يقبلنا ويقف بحياد بين العرب وإسرائيل؟

** ما لا نفهمه نحن العرب أن التأييد الغربي عامة وكذلك الأمريكي للكيان الإسرائيلي شيء أساسي في الحضارة الغربية منذ بداية المشروع الاستعماري، ولا تنس أن هذا المشروع والذي أراه جوهر الحضارة الغربية قائم على عدة افتراضات.. أولها أن الانسان الغربي له مطلق الحرية في الحركة، وثانيا أن من حق الإنسان الغربي أن يصدر جميع مشاكله للآخرين فإذا كان يحتاج لأرض فضاء فإنه يستولي على أمريكا الشمالية، وإذا كان لديه مجرمين يصدرهم لأمريكا الشمالية أو لاستراليا، وإذا كان لديه بطالة فإنه يصدرهم لجنوب أفريقيا وينشئ جيوباً استيطانية، وفي هذا الإطار يمكن فهم وجود إسرائيل.. فلقد كانت هناك مشكلة يهودية وهي مشكلة فائض بشري لم يكن الغرب مستعدا للتفكير في كيفية حلها خاصة أنها كانت مشكلة طائفية.. وهذا على العكس منا، فنحن عندما ظهرت مشكلة طائفية في مصر مع الأقباط لم يطالب أحد بترحيلهم لأن هذا التفكير جريمة. ويكشف التاريخ أن الخديوي عباس الثاني لم يكن يحب الإخوة الأقباط وكان يفكر في نفي بعضهم أو كلهم إلى السودان.. فكان رد شيخ الأزهر بسيطا.. قال له : إذا لم يكن الإسلام تغير فلا يمكن أن تفعل ذلك! وشيوخ الإسلام وقفوا ضد ترحيل الأرمن أيام الدولة العثمانية. ولم تبدأ عملية اضطهاد الأرمن إلا بعد سقوط الدولة العثمانية والرؤية الإسلامية، أي أنها تمت في إطار علماني، وأقصد بهذه الأمثلة أن الغرب تعامل بصورة أخرى مع مشكلته الطائفية.. كان الحل دائما إمبرياليا أي تصدير المشاكل وهذا ما تم بالنسبة لليهود حيث جاءت الصهيونية كترجمة عملية لهذه الرؤية ومتى تصدير اليهود ووظيفهم وبتحويلهم من فائض بشري إلى مستوطنين مقاتلين نيابة عن الحضارة الغربية.. وما حدث يؤكد ذلك.. إن العقول اليهودية الكبرى مثل أينشتين لم يشتركوا سياسيا، والذي قاد اليهود في العالم والذي عقد الصفقة مع الاستعمار الغربي هي العقول اليهودية من الدرجة الثالثة!! ناس مثل هرتزل وبن جوريون.. فلم يكونوا مفكرين من الدرجة الأولى.. هرتزل كان مراسل صحيفة نمساوية متواضعة، وكان يكتب

مسرحيات فاشلة.. ولم تكن له دراية بالفكر أو غيره.. هؤلاء تكلموا باسم اليهود أمام العالم الغربى، وتم عقد الصفقة.. حيث اكتسبت المنظمة الصهيونية شرعيتها وقالها هرتزل: إن الإستراتيجية الصهيونية ليست الهجوم من أسفل وإنما الهجوم من أعلى، أى من خلال القوى الإمبريالية. ولقد كان رأيى دائما أن الحركة الصهيونية موجهة ضد العرب وضد اليهود، وأنها قائمة على نقل اليهود من أوطانهم إلى فلسطين، ونقل الفلسطينيين إلى المنفى، ولذلك فإن من عارض وعد بلفور كان الوزير اليهودى الوحيد فى الوزارة البريطانية آنذاك «سير إدوارد مونتاجن» وكتب كتابا بعنوان «معاداة اليهود من جانب الوزارة الحالية».. وحينما عُقد المؤتمر الصهيونى الأول عارضته جميع المنظمات اليهودية الدينية والعلمانية فى العالم. واليهودية حتى نهاية القرن التاسع عشر كانت تحرم العودة إلى فلسطين.. ولكن تم تغيير كل شىء من العودة إلى الشذوذ الجنسى الذى ينص على تحريمه العهد القديم، إلا أن غالبية يهود العالم تعرف به حتى بات هناك معابد لتخريج الحاخامات الشواذ جنسيا، وهذا يعطى دلالة على أنه تم تغيير اليهودية و«صهينتها» طبقا الرؤية العلمانية التى ترى أن الدين لابد أن يواكب العصر!!

ضرب القومية العربية

* كتبت كثيراً عن أزمة العقل الإسرائيلى تجاه المشروع الصهيونى، ويبدا من كلامك تعاطف مع اليهود وأن الكثيرين منهم - كما يظهر فى تحليلك الآن - يرون أن هذا المشروع ضار باليهود.. إذن من الطبيعى أن يتساءل البعض: لماذا لم تمد يدك لبعض القوى أو الجماعات المصرية التى تحاول إقامة جسور مع المجتمع الإسرائيلى؟.. ولماذا تبدو وكأنك ضد عملية السلام فى المنطقة؟

** أنا لست ضد عملية سلام ولست مع عملية حرب، لكن وهبنى الله عقلا أوصلنى إلى أن الدولة الصهيونية زُرعت فى المنطقة لأهداف معينة ويمولها الغرب بعشرات البلايين من الدولارات للقيام بوظيفتها .. وأحب أن أشير إلى أن اليهود كانوا دائما جماعة وظيفية تقوم بالتجارة والربا ولم تصبح أبدا جزءا من المجتمع المسيحى الغربى.. وهذه الجماعة باتت بلا وظيفة مع ظهور الدولة الحديثة التى تقوم بوظائف التجارة والبنوك، فكان لابد من إيجاد وظيفة لهم.. فتم إنشاء إسرائيل باعتبارها دولة وظيفية تتسم بجميع سمات الجماعة الوظيفية بأنها ذات وظيفة معينة هى ضرب القومية العربية أثناء تألقها، ثم السعى لضرب الإسلام مع ازدهار صحوته.. ثم طرح السوق الشرق أوسطية فى مقابل السوق العربية التى تعنى الوحدة، بينما الأولى تعني التشرذم وهكذا.. وإسرائيل نفسها اكتشفت ذلك.. إذن فالمسألة لو كانت مجرد ثلاثة ملايين يهودى لم تكن توجد مشكلة، بل إننى كنت أستطيع أن أرى فى ذلك إضافة جيدة مثلما يوجد أرمن وأرثوذكس وغيرهما.. كان يمكن أن يُضافوا إلى هذه

الفسيفساء العظيمة التي أتباهى بها كمسلم.. بينما فشل الغرب في ذلك. ودائماأتذكر أنه بينما كان الأتراك العثمانيون يستولون على آسيا الصغرى كانت أوروبا المسيحية تستولى على أسبانيا، فلم يبق لا مسلم ولا يهودى فى أسبانيا أو شبه جزيرة أيبريا بينما لاتزال آسيا الصغرى متحفا للأجناس.. لايزال هناك عرش البطريرك الأرثوذكس!! وهكذا يتضح أن الإسلام غطى منطقة الشرق الأوسط لكن مازالت الفسيفساء قائمة.. وكانوا يعايروننا بذلك في الستينيات ويقولون إن إسرائيل هي الدولة العضوية الوحيدة فى المنطقة، بينما كانوا يتجاهلون أن الحقوق تؤسس ليس على الوحدة العضوية، ولكن على التراحم والتكافل والأقليات طبقا للرؤية الإسلامية. وهذا ما حدث فى العالم اليوم..المهم أن إسرائيل تحصل على المعونات بمقدار قيامها بوظائفها.. وبمقدار ماتحتفظ بهويتها دولة منفصلة عن المنطقة. وإذا أصبحت جزءا من المنطقة تفقد وظيفتها وينتهى اهتمام الغرب بها. وفي مقابل ذلك سؤالك - أرد عليه بعد هذا الشرح وأقول إذا وضع الإسرائيليون فى برنامجهم المطالبة بإلغاء قانون العودة والذى يعطى يهود العالم الحق في العودة بعد ٣ آلاف سنة الى إسرائيل أو ان يُطبق على اليهود والفلسطينيين وأن يصبح حق العودة متاحا لمن يريد العودة، وفى هذه الحالة فإننى أزور القدس وتل أبيب صباح اليوم التالي، لكن أعلم تماما أن ذلك مستحيل لأن المشروع الصهيوني نفسه قائم على قانون العودة وأن إسرائيل دولة ليهود العالم.. دولة ذا طابع عالمي.

* رؤية أخرى جعلتنا أمام قدر من التداخل بين المسألة اليهودية والمسألة الصهيونية.. فهل هناك فرق؟

** نعم.. بل إننى أحرص على الفرقة دائما.. فالمسألة اليهودية خاصة بالغرب وعليهم حلها، أما المسألة الصهيونية فهى رؤية عنصرية توسعية يدفع ثمنها الفلسطينيون.. وهذا الفهم وراء موقفى من العالم بأسره. وأزعم أيضا أن موقفى هذا لا علاقة له بالفلسطينيين وحدهم، بل هناك مسألة أخرى وهى أن هدف إسرائيل الإستراتيجي ضرب مصر.. وحتى لو وافق الفلسطينيون جميعا على الصلح مع إسرائيل فأنا لايمكن أن أتصالح مع إسرائيل الصهيونية إلى أن أعرف وظيفتها العدوانية الأساسية ضد مصر.

* موسوعتك أنفقت فى إعدادها نحو ٢٥ سنة وتصدر خلال مارس القادم فى ثمانية أجزاء.. تصدر بعد أن مر ٢٠ عاما على مبادرة الرئيس السادات، ومرور ٥٠ سنة على إنشاء إسرائيل و١٠٠ سنة على انعقاد مؤتمر بازل الذى بدأ فى الإعداد لقيام إسرائيل، وكل ذلك يرتبط بنهاية قرن.. ألا يجعلك ذلك تفكر فى إقامة جسور بدلا من حفر خنادق فكرية مثلما تفعل؟

** أنا كمثقف غير مطالب بتشييد جسور، بل بالتفسير والفهم من ناحية فلم أطالب بأكثر

من السلام القائم على العدل.. لأن السلام القائم على الظلم هو حالة حرب.. وهذا السلام هو ما يطالب به نتانياهو وكل صهيوني مهما بلغ من طيبة القلب!!.. وسيظل الكيان الإسرائيلي كيانا عدوانيا ضد المنطقة، وبالتالى فإن التعاون المطروح علينا من الطبيعى أن يكون مع ماليزيا أو أندونيسيا أو فرنسا، لو عرفنا كيف نستفيد من إنجازاتها العلمية أو الولايات المتحدة إذا تعاملت معى بقدر من الاحترام والندية. ثم إذا كانت كافة الجيوب الاستيطانية فى العالم قد سقطت، لماذا تطالبنى أنا بقبول الجيب الاستيطانى الإسرائيلى.. ومن ناحية ثالثة فإننى أقول إن الأكثر عداء للتطبيع هم الإسرائيليون فى المنطقة ولست أنا . وبالمناسبة دائما أتساءل – على سبيل التقريب للأفكار – وأقول: لو أنهم.. أى الإسرائيليون يرغبون فى السلام فلماذا يشيدون الطرق الالتفافية حول المدن العربية؟

إن هذه الطرق تعبير عن مقولة أرض بلا شعب لشعب بلا أرض، جئنا هنا فوجدنا للأسف الشعب.. إذن نلتف حوله حتى لا نراه!! وهذه عقلية لا تؤسس سلاماً.

مبادرات خاصة!!

* يبدو فى كلامك النظرى رؤية معادية لسياسة التطبيع القائم منذ فترة فى المنطقة.. بينما يشير البعض إلى سلوكيات قمت أنت بها عكس هذه الرؤية؟

** البعض يخلط بين الأمور.. ففى عام ١٩٦٥ كتبت إلى السفير المصرى فى واشنطن آنذاك الدكتور أشرف غربال أقول: لماذا لا يتم تكوين لجنة تتولى طرح مبادرات سلام على إسرائيل فى إطار العدالة.. ومن هنا كان اعتراضى الأساسى على مبادرة السادات.. كنت أتساءل: لماذا يذهب رئيس الجمهورية ويضحى بكل شىء، لكن فى عالمنا العربى لا يجد أهل الخبرة أحداً يستفيد منهم.. وأنا مثلا أفنيت عمرى فى هذا المجال ونادراً ما يطلب أحد استشارتى.. وأتذكر أننى وضعت منهجا فى دراسة آليات الهجرة الى إسرائيل وعوامل الطرد من الاتحاد السوفيتى والجذب فى إسرائيل والمشاكل الناجمة عن هجرتهم.. وقد ألقيت بعد صدور كتابى عن هجرة اليهود السوفيت الذى يضم كل تلك المعلومات مع أحد كبار المسئولين الفلسطينيين، فبادرنى قائلا: لماذا لم تقل كل هذا الكلام من قبل! فضحكت وليس هناك رد حتى الآن!!.. المهم أننى فى عام ١٩٧٣ قلت ايضا أننا لابد أن نفصل إسرائيل عن الإسرائيليين.. وكانت مبادراتى من أجل السلام تأتى فى إطار ما نسميه إطاراً تفكيكيًا للصهيونية لأنه لا سلام مع الصهيونية، وكنت مع تجنب إراقة الدم وأن المجاهد عليه ألا يموت بقدر الإمكان لأنه لو أراد الموت فهو منتحر!.. وكنت مع السعى للسلام العادل وجسد مانديلا رؤيتى.. فقد رفض أن يخرج من سجنه طالما كان الإطار مجرد التفاوض بين البيض والسود.. لكن موقفه تغير عندما قبل البيض التفاوض فى إطار العدالة.

* هل كنت تبحث عن التواصل أو مغازلة قوى إسرائيلية مثل حركة السلام الآن من خلال مبادراتك؟

** لا.. حركة السلام الآن صهيونية مائة فى المائة، وأستطيع أن أقول إن القوى الإسرائيلية التى تنسلخ عن المنظومة الصهيونية لم تتبلور حتى الآن هناك، والمشكلة فى جهود التطبيع الحالية أنها تتناسى حقيقة أخرى وهى أن الجماهير لا تنسى حقوقها وتظل دائما تطالب بها وما يحدث على الأرض الفلسطينية ذاتها دليل على ذلك.

* التغيرات التى أجدك حريصا على رصدها عالميا، أجدك لاتذكرها على مستوانا القومى.. وبمعنى آخر: لماذا تتجاهل أن هناك ظاهرة اسمها العنف قد ظهرت فى أحضان ما تسميه بالصحوة الإسلامية؟

** بداية لنتذكر أنه مع الستينيات كان العالم منقسماً بين اشتراكى ورأسمالى، وبذلك كانت الأمور كلها محلولة. اليوم كل ذلك تغير مما فرض ضرورة الإبداع.. ونفس الشىء حدث بالنسبة للمنظومة الإسلامية، ولكن مسألة العنف أحب أن أشرحها على أساس أن هناك ما يسمى بالإسلام الشعبوى أو الاستغاثى وهو إسلام الجماهير التى ولدت داخل منظومة معينة وتبنتها دون أن تفهمها وبات هناك مسلمو المدينة ومسلمو القرية.. والفريقان مختلفان.. فالفريق الأول يأخذ منظومته من الإعلانات التليفزيونية، أما الفريق الآخر فيما زال يدور فى فلك المنظومة الأخلاقية القديمة.. وهؤلاء يرون أن المجتمع يبيع لهم أحلاما مستحيلة ولا يقدم لهم أية بضائع.. أوهام من قرى سياحية إلى كريم للشعر.. ومشكلة الأحلام المستحيلة أنها أرض خصبة لنمو الإرهاب.

وفى تقديرى أن الإسلام الاستغاثى إما يعبر عن نفسه فى شكل عنف أو شكل عزلة مثلما فعل بعض الجمعيات.. وبالتالى أرى أن الإرهاب عرض لمرض. وفى مقابل ذلك الإسلام الاستغاثى هناك الإسلام السياسى المتمثل فى الإخوان المسلمين الذين انضوى بعضهم تحت جناح حزب العمل والبعض الآخر حاول دخول النقابات، ومع الأسف فإن الحكومة لم تساعدهم.. لأننى أعتقد أن تطور الإسلام السياسى هو السبيل لوقف الإرهاب لأنه يتم استيعابهم داخل المنظومة، مثلما حدث تماما للشيوعيين. وبالمناسبة معظم التيارات السياسية فى العالم أدركت أن الدولة حيوان خطر وأن الاستيلاء عليه دائما مؤقت، وبالتالى فإن الاتجاه يزداد نحو الجمعيات الأهلية والنقابات كطريقة أفضل لتغيير المجتمع. أما المستوى الثالث فهو مستوى الإسلام الفكرى مثل محاولاتى وآخرين لتطوير معرفة إسلامية تتعامل مع العصر الحديث ودائما أضرب المثل بمصنع الدكتور الموصلى وحديقة القوادرى التى حصل من خلال تصميمها الدكتور إبراهيم عبدالحليم على جائزة أغا خان الدولية فى العمارة الإسلامية.. فالدكتور عبدالحليم لم يرفض مفهوم وقت الفراغ، ولكن تعامل معه كمسلم..

* يا دكتور أخشى وكأن كلامك يعطى الانطباع بأن هناك حديقة مسلمة أو جدار مسلم! وبالتالى وقت فراغ مسلم!! وهكذ أتصور أنها مسألة ستؤدى لمشكلة ذهنية للناس الذين يعانون في بلادنا من التداخل بين الإسلام كدين والحركة على الأرض وهى الحياة؟

** أنا أتحدث عن حضارة إسلامية تركت بصمتها وخلقت نماذجها لماذا يا عزيزى نتحدث عن طعام ماكدونالدز على أنه عنوان لحضارة غربية متوحشة وتستكثر على أن أقول أن هناك نقوشا وزخارف إسلامية . وبدون تفاصيل الآن، سأشير فقط لمسألة وقت الفراغ وأشرح رؤيتي.. فحتى القرن العشرين لم يكن وقت الفراغ معروفا، وأتذكر أننا كنا فى دمنهور.. وفي الإجازات كنا نعمل مع والدى طوال الإجازة الصيفية. لم يكن هنا وقت فراغ.. أما الآن فقد زاد وقت الفراغ. وقد توجه الدكتور عبدالحليم للتعامل مع هذه المسألة بأن أقام حديقة فيها معمار إسلامى وتخدم الحى وطرح مشروعاً متكاملا للتلاحم بين الحى والحديقة وكلها مفاهيم فى جوهرها إسلامية. أما الدكتور حامد الموصلى فقد صدر عن رؤية للطبيعة مختلفة عن الرؤية الإمبريالية الغربية حيث رأى فى «جريد» النخل مدرا طبيعيا للأخشاب التى يمكن استخدامها بدلا من التخلص منها نفايات.وقد أنشأ مصنعا فى الوادى الجديد يطبق به نظريته!! وأنا – كصديق لهم – يمكن أن ترانى مشغولا ومهموما بقضية الحداثة الغربية والبحث عن رؤية إسلامية تبعدنا عن الأمراض.

* مع تقديرى لهذه الرؤية.. إلا أنه مما يستدعى التأمل منذ فترة هو أن مساحةالخطاب الدينى فى حياتنا قد زادت فعلا وأن حجم المترددين على المساجد فى تزايد وأن أعداد الذين يسافرون للحج سنويا وأعداد الذين يعيشون على أمل زيارة الأراضي المقدسة يزداد سنويا، وأن أجهزة الإعلام مكدسة بالمواد الدينية.. ولكن فى مقابل كل ذلك فإن هناك عنفا دمويا وإرهابا مرفوضا من الجميع بدلا من استنارة فكرية شاملة تغير الأفكار وتترجمها السلوكيات؟

** يعنى هل تعتقد أن هذا الضخ الدينى كله سليم! بصراحة دعاة يجلسون على مقاعد أرابيسك يتحدثون بملل شديد لا علاقة له بأى شىء.. حتى إذاعة القرآن الكريم وغيرها من الأدوات الإعلامية الدينية كلها وضع فى شكل أقرب لكتب التراث التى يشتريها الناس «بركة»وليس للقراءة.. وفريق آخر يشتريها كديكور.. وهكذا، فإن معظم المواد الإعلامية الدينية مهمشة ومعزولة وأن اليد العليا للإعلانات – من ناحية أخرى فإن لدينا خلطا بين الدين الإسلامى والتاريخ الإسلامى.. فهذا الأخير مساهمات بشرية وللأسف ما يحدث اليوم اتجاه لتقديس كل ما هو إنسانى على حساب ما هو إلهى.. ويأتى فى هذا الإطار مسألة الأولياء، فهى اختراع يمسكه الفرد بحواسه ويقدسه. نفس الشىء الاتجاه إلى إعلاء قيمة بعض الممارسات التاريخية الذى يوجد فى حياتنا.. هذا الاتجاه مصدر لكثير من الأساطير.. لذلك

ندعو دائما لقواعد وأقوال، مثلا الفتوى يجب أن تؤخذ بحذر وجدية فى حياتنا.. يعنى الفتوى بتحريم مصارعة الثيران التى صدرت فى مصر مؤخرا جعلنى فى دهشة.. فرغم أننى ضد هذه المصارعة، ولكن أرى أن مسألة التحريم مسألة كبيرة جدا وأن من يقوم بالتحريم و الفتوى عليه أن يذكر كافة الفتاوى التى تؤيده وتلك التى تعارضه، ثم يبين لنا الأساس الفقهى والدينى لفتواه، ولذلك أتساءل إذا حرمنا مصارعة الثيران فما القول فى المصارعة الحرة التى تثير اشمئزازى، وأتذكر أننى كنت فى بلد إسلامى وكنت فى زيارة لصديق التقيت عنده بآخرين يلتفون حول برنامج للمصارعة الحرة فى التليفزيون، وقد انتظرت حتى انتهى البرنامج وانتهى العشاء وسألتهم لو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم معنا، ماذا كان موقفه؟.. قالوا جميعا كان يغلق التليفزيون على هذا البرنامج لأن «الشورت» الذى يرتديه اللاعب غير شرعى!! وصُدمت.. فهم لم يشاهدوا شيئا آخرولم يستوعبوا معنى أبعد من ذلك ولم يتفهموا النموذج الإسمامى أو كيفية التوليد منه.. لم يشاهدوا على الحلبة معنى الصراع غير الإنسانى «حتى لو كان فبركة»سوى مظهر بعيد عن الحقيقة!!.. وهذه مشكلة أخرى نعانى منها فى واقعنا الإسلامى.

* على نفس الإيقاع.. ما هى المفاهيم التى ترى ضرورة تجديدها حتى ندخل هذا القرن بأعباء أقل وحرية حركة أكبر وأساطير أقل؟

** أرى ضرورة البحث عن الرقعة الأخلاقية المشتركة بين الناس جميعا، فإذا كان يمكن تقسيم أى دين إلى الأصول «اللاهوت» ثم المنظومة الأخلاقية التى تستند لهذا اللاهوت.. واللاهوت لا يفهمه إلا المتخصصون ويمكن أن نختلف نحن المسلمين واليهود والعلمانيين ونعقد الندوات لمناقشة ذلك ولا بأس فى هذا.. وتتبقى بعد ذلك المنظومة الأخلاقية التى تضم المسلم والمسيحى واليهودى والعلمانى.. فالجميع يؤمن بالإنسان.. وبأسبقية المجتمع على الفرد.. وإذا كان من يهدد هذا المجتمع بالدعوة مثلا للشذوذ الجنسى فإن الجميع يقفون ضده.. من هنا أرى تقديم المنظومة الأخلاقية الإسلامية لتكون الأساس المشترك لعقد اجتماعى بين كل أعضاء الأمة.. ويصبح هذا العقد الاجتماعى شيئاً مُلزماً.. والوصول لذلك ليس مستحيلا، لأن هناك رقعة اتفاق بين الجميع كما ذكرت.. وأنا أتحدث مع الأخوة الأقباط وأجد عندهم هذا التمسك بالقيم الأخلاقية والخوف على الثوابت.. وأجلس مع الإسلاميين وأجد نفس المعاني، وألمس ذلك عند الكثيرين ممن يسمون أنفسهم بالعلمانيين. والمشكلة فى أحيان عديدة أن بعض دعاة العلمانية والواصل بالقرب غير مطلعين على الحضارة الغربية بما فيه الكفاية.. مثلا الدكتور مراد وهبة، وهو أحد كبار دعاة التنوير، له كتاب عن الاستنارة، ولكن فى نفس الوقت يكشف على أنه لم يقرأ أى دراسات حديثة عن الاستنارة!! يتحدث وكأنما فولتير مازال يكتب!! والغريب أنه لم يلحظ أن هناك مدرسة فرانكفورت التى نقدت الاستنارة والعلمانية وتعد واحدة من أهم من قام بذلك، ورغم ذلك فإن نصيبها فى كتاب الدكتور مراد وهبة سطر

واحد!!.. مسألة أخرى: الخناقة التى دارت مؤخراً حول الاحتفال بالثورة الفرنسية ذكرتنى بما كان يكتبه الدكتور لويس عوض عن هذه الثورة ولم يكن له علاقة بما يحدث هناك أو بالدراسات الحديثة حول المسألة.. وهنا يجب أن أقول إن الحوار حول العلمانية كان حوار طرشان.. فالجميع لم يعرف العلمانية.. البعض قال إنها فصل الدين عن الدولة، وهو تعريف نهاية القرن الماضى والذى التزم الصمت تجاه القيم الاخلاقية والإباحية والتزم الصمت تجاه علاقة الفرد بالمجتمع.. إذن فصل الدين عن الدولة يعنى ذلك بالضبط.. يعنى فصل الإجراءات الاقتصادية والسياسية عن هيمنة رجال الدين.. وأنا كمسلم لا أمانع فى ذلك لأنى لا أحب أن أرى المشايخ يلهثون فى ردهات وزارة الخارجية أو الدفاع ولاسيما أن الدولة الحديثة بالغة التركيب والتعقيد.. لكن هناك تعريف آخر كامن أحب توضيحه من خلال أفلام الكرتون «توم وجيرى».. فالرؤية هناك رؤية صراعية، فدائما القط يطارد الفأر.. والفأر ينتصر ليس لأنه خيّر، ولكن لأنه لذيذ ودمه خفيف! بمعنى أنها منظومة منفصلة تماماً عن القيم الأخلاقية والإنسانية والدينية.. ونفس الشىء فى أفلام الغرب الأمريكى.. حيث يأتى الرجل الأبيض إلى أرض بلا شعب يقتل الهنود لأنهم إرهابيين ويمنعونه من تأسيس مزرعته، والقيمة الحاكمة هى سرعة المسدس.. إذن المنظومة هنا ليست فصل الدين عن الدولة وإنما فصل كافة القيم ليس عن حياة الإنسان العامة فقط، بل وعن حياته الخاصة أيضا، وهذه هى العلمانية الشاملة، ولدينا خلط فى ذلك.. فنحن نتحدث عن العلمانية الجزئية بينما كافة المنتجات الثقافية التى تأتينا من الغرب تنتمى لتلك الأخيرة التى أسميها بالعلمانية الجزئية بينما كافة المنتجات الثقافية التى تأتينا من الغرب تنتمى لتلك الأخيرة التى أسميها بالعلمانية الشاملة.

* ما هو أبرز مثال فى حياتنا يعكس ذلك المفهوم الذى قلت لى أنك أول من قمت بصياغته؟ وأين يقع مفهوم العولمة الذى أصبح موضة هذه الأيام فى ذلك التصور النظرى الذى تطرحه؟

** الإعلانات التليفزيونية مثل قوى على تلك العلمانية الشاملة.. فعادة تظهر بنت بعيون زرقاء وشعر أصفر وبشرة شقراء جعلتنى أفكر فى تغيير أمى!! كلهن فتيات نحيفات لا يمكن أن تلتقى بهن فى الشارع والخلفية منزل به حديقة تضم طيوراً صدحاً بدون قلق.. إنها عملية استلاب شديدة.. ثم يتبع ذلك استخدام الجنس بهدف اقتصادى فى الإعلان.. وتختفى كافة المحددات الأخلاقية والدينية.. إذن فهذه العلمانية أخطر لأنها أشمل ويتمركز فى مقدمتها قطاع اللذة البالغ القوة فى الغرب، لذلك فإن العلمانية الشاملة عندمايتم تصميمها تصبح هى العولمة.. التى تتطلب انسانا اقتصاديا جسمانيا وهو إنسان يمكن التنبؤ بسلوكياته بدءا بطعامه الذى سيحصل عليه من ماكدونالدز إلى شكل الفتيات اللاتى سيجرى خلفهن إلى الأزياء التى ستعجبه، وبالتالى يمكن صياغة السوق العالمى الذى يوفر ذلك.. لكن يصيب هذه المعادلة الخلل إذا دخلها فلاح مصرى يأكل الفول والطعمية.. فماذا يفعل السوق العالمى معه!! لابد أن يجعله يخلع الجلباب الأزرق ويتخلى عن أكل الفول حتى يمكن السيطرة عليه! لذلك

أقول إن النظام العالمي الجديد أو الاستعمار العالمي الجديد عكس القديم الذى كان يضربنا لنظل متخلفين ويستطيع نهب الموارد الخام..أما الجديد يريدنا أن نتقدم (شوية) بحيث نكون نصف منتجين ونصف مستهلكين نأكل ماكدونالدز ونشرب بيبسى.. لأنه لو ظللت متخلفا فلن أشترى كمبيوتر ولن أستهلك بنطلونات (الجينز).. لذلك المطلوب بعض التقدم مع الكثير من الانسلاخ.. لذلك نرى رجلا مثل أربكان فى تركيا حاول الخروج على ذلك وحاول السير على خطى عبدالناصر فى الاستقلال القومى والعزة الوطنية والحفاظ على الذات والهوية.. ولكنه حوصر وسيظل كذلك.. ونفس المنطق حدث لمحمد على وآخرين..

فى الحب المستحيل

* .. ..؟

** إرتبطت بزوجتى الدكتورة هدى حجازى عن قصة حب قوية ونحن طلاب بجامعة الإسكندرية.. كان عمرها ١٧ عاما وقتها، وكنت بطبيعتى شديد الرومانسية ودارساً مقيماً للأدب الرومانتيكي، فكنت شد يد الالتصاق بها حتى بدأت أفكر فى هذه المسألة التى أوجدتنا معا.. فاكتشفت أن الحب الرومانسى بهذه الصورة هو حب خارج الزمان وأن الحب الذى يعيش هو الذى يصبح داخل الزمان حيث تصبح العلاقة حب وصداقة.. قرب وبُعد فى آن واحد.وأتذكر اليوم أننى منذ طفولتى لا أمارس شيئا إلا أتأمل فيه.. ولقد ظلت فى فكر ى مسألة أننى لا أرغب فى الابتعاد عن زوجتى واعتبرتها أقرب لنهاية التاريخ، فتساءلت: كيف يستمر التاريخ والإنسان يحب بهذه الصورة؟ وقد استمر هذا الحب المشبوب حتى انتصرت وأمكننى تطوير مفهوم جديد للحب يختلف عن ذلك الحب الرومانتيكى الذى يلغى الزمان ثم يلغى نفسه بعد ذلك.. وتوصلت الى أنه لابد من مسافة بين الحبيبين.. لذلك لا يتحدث القرآن عن الحب ولكن عن الطمأنينة أوالسكينة.. وقد بدأت أفهم ذلك مع الأيام وأن المشكلة أن الناس عاوزة الحب الرومانتيكى يستمر وهذا حلم مستحيل.. لذلك تنتهى قصص عديدة بالفشل أو الموت.

فى حكاية الأب الغائب

* .. ..؟

** منذ طفولتى حدث انقسام حاد فى شخصيتى فلم تعد الأحزان حادة ولا الأفراح كذلك.. تجربتى مع وفاة والدى.. فلم أتمكن من أن أرثيه أو أبكى من أجله وعذبتنى المسألة.. وكان رجلا رأسماليا قويا وكان شخصية لها مواصفات قوية.. عندما مات وعلمت بذلك أثناء

وجودى فى أمريكا ذهبت لمشاهدة مسرحية بريخت «القاعدة والاستثناء» وهى تتعامل مع مثل هذه الشخصية وشعر به.. ولكنى لم أبك إلا بعد ذلك بأربع سنوات، عندما ذهبت لزيارة قبره - وبعدها استرحت - وقد كبرت وأنا أشعر أننى أشبه والدى من نواح كثيرة.. ولكنى الآن فى هذه السن وأنا أتأمل نفسى، اكتشفت أن أمى هى التى أثرت فىّ بصورة عميقة جدا.وأنه كان الأب الغائب.. فقد كان تاجرا يسافر كثيراً.

* .. .. ؟

** إلى حد كبير.. فداخل الأسرة الممتدة - وكنا ٦ أخوة - قدر لا بأس به من الحرية، كان لى زوج أخت مثقف، وخال رئيس حزب الوفد فى دمنهور، لم تكن هناك ضغوط حول نجاحى أو رسوبى.. وكنت طالبا فاشلا.. فقد رسبت فى الصف الثالث الابتدائى والرابع الابتدائى والأول الثانوى ورسبت فى الثانى الثانوى.. وكنت أستعين بالدروس الخصوصية فى وقت لم تكن هذه الظاهرة معروفة.. وكانت مشكلتى دائمة مع علم «الحساب»، ولم أتفوق إلا بعد أن أدركت أن النماذج الهندسية وراءها معانى أخرى..

فى المال

* .. ..؟

** المال مهم جدا فى حياتى على أن يأتى بشروطى، فأنا أود المال لتحقيق ذاتى.. لذلك أحب المال حبا جما بشرط أن يأتى بنفسه.. لكن بالمناسبة لست ثريا، فقد تم تأميم والدى عام ٦٤ ومات إثر ذلك عام ٦٥ .. ولا أعتبر نفسى ضمن مجموعة الأثرياء.. فمازالت سيارتنا هى نفسها منذ عام ٧٩.. ولا تمتلك زوجتى مجوهرات وأحيانا ندفع مبلغا ماليا فى لوحة تعجبنا ولا نشترى شيئا آخر ماديا مباشرا.. وللحقيقة فإن مايجمعنا هو تلك الرؤية.

فى الحقيقة الغائبة

* .. ..؟

** إنه اتهام ساذج.. لأننا فى العالم العربى لا نفهم وظيفة مساعد الباحث.. فأنا صاحب مشروع بحثى ويعمل لدى بعض المساعدين للبحث فى المراجع أو الاطلاع على الصحف.. وعندما ينضج هذا الباحث ويكتب شيئا يدخل فى عداد التأليف والإبداع يُنسب له مباشرة، وهذا ما حدث فى الموسوعة التى تصدر قريبا.. فمن أضاف تم كتابة اسمه، ومن قام بجهد تم ذكره وتوجيه الشكر له، بالإضافة إلى الحقوق المادية.. الدكتورة هدى حجازى زوجتى، كانت تقرأ علىّ ما أكتب وتنتقده بشدة فأضطر لإعادة الكتابة مرة أخرى، وقد شكرتها فى مقدمة

الموسوعة على ذلك.. ولكن ماأضافته من مداخل عن الربية - تخصصها - تم نسبته إليها.. لقد أنفقت مليون ونصف المليون جنيه - هى أموالى الخاصة - على الموسوعة وبعت فى سبيل ذلك الشاليه الذى كنت أمتلكه فى الساحل الشمالى.. وأكرر لم أسرق لا جهد تلاميذى، ولا حقوقهم، ولكنى أحاول الإنتاج فى واقع ضد الإنتاج.

* .. ..؟

** تسألنى عن التجارة، ليست التجارة حراماً طالما كان التاجر أمينا ولا يعمل فيما يتعارض مع الدين أو القانون.. ثم ما هو العيب فى أن يتاجر المثقف ليكسب بشرف وأمانة ما يسمح له بمزيد من الحرية!! وعلى أية حال كنت أحاول ممارسة عمل يدوى يخفف ضغط التعامل مع الكلمة المكتوبة، فأعيد تكوين بعض الأثاث القديم أو الأنتيكا.. ولم تكن المسألة تحقق الربح الذى تصنع الشائعة.. وعلى أية حال لا أجد سببا للخجل.. لقد صنعت التجارة حضارة عظيمة مثل الحضارة الإسلامية.

* .. .. ..؟

** لا.. لم أمارس الاختفاء أو التقية السياسية.. ففى أيام عبدالناصر كان الموقف من الصهيونية يمثل رقعة إجماع تضمنا جميعا بالرغم من أننى سُجنت عام ٥٨ بتهمة الشيوعية لمدة أربعة أيام!! ولكن ظل عبدالناصر موضع إعجابى الخاص لأنه يمثل مع محمد على ثم أحمد عرابى منظومة المواجهة الحقيقية ضد الغرب وجبروته.. وفى أيام السادات كان موقفى الرافض للتطبيع.. وفى أيام مبارك تفرغت للعمل فى موسوعتى «اليهود واليهودية والصهيونية.. نموذج تفسيرى جديد» وأنا من المؤمنين بالجهد النظرى.. وإن كان الواقع يكشف بؤس النظرية فى العالم العربى، فجمال حمدان فيلسوف الثورة لم يتم اكتشافه إلا بعد موته.

كلمة ترغب فى تكرارها

* .. ..؟

** لم أستغل أحد، لم أستغل زوجتى مثلما سألتنى، وها هى أمامك.. لم أسرق جهد تلاميذى، بل لقد قدمت لهم الكثير. ولكن يبدو أن الشائعات باتت من القوة أنها يمكن أن تسبب الإزعاج. إن البعض يعتقد أن المعلومات وحدها يمكن أن تصنع مؤلفا، وهذا غير حقيقى.. أين سكرتيرى الذى أشاعوا أنه هو الذى كتب موسوعة المفاهيم والمصطلحات

الصهيونية «١٩٧٥».. لقد اختفى!! المشكلة أن البعض يعتقد أن ثقافة المعلومة تصنع مؤلفا وهذا وهم، لأن المعلومات اليوم فى الإنترنت وفى كل مكان.ولكن المهم الرؤية.. والتحليل.

* .. ..؟

** لا.. الزوجة هى الصورة بالأبيض والأسود.. والعشيقة هى الصورة الملونة، إنها نهاية التاريخ على طريقة الأوروبيين.

* دكتور عبدالوهاب المسيرى دعنا نتكلم عن الموسوعة والتى سنعتبرها مدخلاً للحديث عن الموقف النفسى والفكرى للدكتور عبدالوهاب المسيرى من قضية استغرقت أكثر من ٢٥ : ٣٠ سنة من اهتمامك وهى الفكر الصهيونى ؟ هذه المسألة تخلق علاقة ما بينك وبين هذه المادة التى تعمل عليها ، البعض قد يعتقد أنها علاقة عداء يمكن أن تنشأ نتيجة عوامل نفسية ، وقد تنشأ علاقة أخرى يسميها البعض معاداة السامية ، ما هو توصيفك لعلاقاتك بهذا الفكر خلال ثلاثين سنة هل هى علاقة عداء أم علاقة كشف أم علاقة ماذا ؟

** فعلاً كان يوجد لحظات أشعر فيها أننى فى فخ وخاصة أنه كان طموحى فى الماضى أن أكون ناقداً أدبياً وبعد ما تحولت عن دراسة الأدب لدراسة الصهيونية ظل طموحى دائماً أن أكتب عملاً نظرياً لاعلاقة له باليهود أو اليهودية ولذلك حتى تجد أنه فى مقدمة الموسوعة التى كتبتها عام ١٩٧٥ أشير إلى أننى دخلت فى «جيتو» يهودى صهيونى ضيق وأننى كنت أريد أن أتعامل مع عالم أرسطو وهيجل وابن خلدون والفارابى أى عالم رحب عالم إنسانية وظل هذا هو الموقف إلى أن رضخت عام ١٩٨٤ عندما علمت أن مصيرى أن أكتب هذه الموسوعة ، لكن عندما أقول فى سيرتى الذاتية التى أكتبها الآن أنه كما لو كان سبب رضوخى أن كل الإشكاليات النظرية عبرت عن نفسها من خلال دراسة اليهود باليهودية الصهيونية إلى أن تحولت اليهودية والصهيونية إلى دراسة حالة ، أعتقد أن أهم ما فى موسوعتى هو المجلد الأول وهو مجلد نظرى محض لا علاقته باليهود واليهودية وهو يتعامل مع المصطلحات فى التوراة ويتعامل مع النموذج لأداة تحليلية ويتعامل مع مفهوم للجماعات الوظيفية ومفهوم الحرية ما أسميه العلمانية الشاملة وتعمدت فى هذا المجلد ألا تكون الإشارات لليهود واليهودية والصهيونية إلا طفيفة واستخدمت أمثلة من حضارات أخرى ومن تشكيلات إنسانية أخرى ، وبالتالى فأنا أعتقد أن هذا الرضوخ الذى أدى فى النهاية إلى تحقيق جزء كبير من مشروعى المعرفى وهذه أعتبرها مكافأة من الله سبحانه وتعالى ، وأتصور الآن أننى لو كنت تعاملت معه بشكل نظرى لما كنت أنجزته ، لأن وجود دراسة حالة جعل من السهل على إنجازه . وبالمناسبة عندما جلست لأكتب المقدمة النظرية للموسوعة كتبت أربعة مجلدات ولخصتهم فى هذا المجلد ، فعندى دراسات نظرية كثيرة التى تحقق مشروعى المعرفى عن مابعد الحداثة والعلمانية والحضارة الغربية وهكذا .

ولكن أعتقد أن مسألة تعاملى مع قضية محددة جعل من الممكن أن أتعامل مع النظرية بدين خوف .

* خلال استمرارك ربع قرن فى دراسة الحامة الصهيونية إذا صح التعبير ، هذا يخلق علاقة خاصة بينك وبين هذا الفكر فهل تنامت علاقة عداء ومعاداة للسامية من هذا السياق أم تنامت علاقات أدرى مختلفة أنت نفسك يمكن أن تكتشفها مع الوقت ، ما هى طبيعة العلاقة بينك وبين هذا الفكر ؟

** بمناسبة معاداة السامية أحب أن أشير أولاً أن الاستجابة الإسرائيلية لموسوعة كانت فى داخل هذا النطاق موسوعة بمعاداة السامية بعد صدورها بيوم أو أسبوع مما يدل على أن الإسرائيليين لايريدون أن يدخلوا معى فى حوار فكرى ، يعنى لايريدون أن يدرسوا ماقلته أو يعلقوا عليه ، حتى الآن كل الاستجابات تقول إن أحد الأدلة على تشدد مصر أنها منحت جائزة معرض الكتاب لموسوعة معادية للسامية من ثمانية مجلدات وهذا تعليق سياسى سخيف لايتطرق لأى من المشاكل التى أطرحها ، بالنسبة لعلاقتى بالمادة التى أكتبها ، إننى أتعامل مع القضية ككل اليهود واليهودية والصهيونية .

* ما نوع العلاقة التى تربطك بهذا الفكر وأنت تستعيد ذكريات ٢٥ سنة عندما تعاملت فيها مع المادة سواء كانت حالة مرضية أو حالة صحية فهناك نوع من علاقة ما فما هو ؟

** أولاً فى مقدمة الموسوعة أرفض ما أسميه الخطاب الإعلامى ، أى أن الإنسان يهتم بقضية إعلامية من أجل الناس ورفضت ما سميته بالخطاب الحقوقى وهو أن نجمع قنوات مجلس الأمن ونقول القرارات والحق ، كما رفضت ما أسميه الخطاب الأخلاقى وهو أن تظهر ما مدى الظلم لنا والحق معنا ، وذكرت أننى لست ضد البعد الأخلاقى وإنما البعد الأخلاقى يأتى بعد الخطاب التحللى أى أحلل وأفهم ، وأعتقد أننى نجحت إلى حد ما فى أن أحاول أن أتعامل مع الظاهرة الصهيونية كأى ظاهرة أخرى ، وهذا لايعنى أننى كنت محايداً، فبنهاية الأمر أنا عربى وأنا أشعر أنهم سرقوا الأرض ، لكن حاولت بقدر الإمكان أن تكون عاطفتى وتحيزاتى دافعة نحو مزيد من الفهم عن هذه الحالة ، بمعنى أننى طرحت فى الموسوعة أنه حينما ندرس الظاهرة الصهيونية من الداخل والخارج بمعنى أن فى نهاية الأمر من الضرورى أن نرى القضية كما يرونها هم لأن الداخل فى دراسة أى ظاهرة إنسانية لابد أن تدرس دوافع الفاعل .

* ما المقصود بالداخل ؟

** هو رؤية اليهود لأنفسهم ورؤية اليهود داخل حدودهم ، لأن الرؤية الصهيونية فى الواقع هى رؤية من الداخل وحسب ولابد أن أضع هذا فى سياق أوسع بحيث أرى من الخارج فمثلاً الصهاينة يتحدثون عن تاريخ يهودى ، عن الطرق والظلم والأشكال السياسية

اليهودية ، بعض مايتحدثون عنه لايمكن فهمه إلا إذا وضعته فى سياقه الحضارى ، خذ مثلاً تاريخ يهود إنجلترا ، لو نظرت له على أنه تاريخ يهودى مستقل هل الثورة الصناعية جزء من هذا التاريخ ، الثورة الصناعية هى أهم حدث فى تاريخ يهود إنجلترا وهذا نجم عنه أنهم اندمجوا وحدثت عملية تحديث ، فلايمكن فهم تاريخ يهود إنجلترا إلا عندما ندرسهم كأقلية لها ديناميكيتها الخاصة من الداخل ولكنها خاضعة لديناميكيات المجتمع من حولها ، فهذه الرؤية رؤية مركبة تجعل الفرد إلى حد ما يحتفظ بمسافة بينه وبين نفسه ، ونجم عن هذا أن اليهودى تحول فى عقلى من مجرد يهودى إلى حالة ، فمثلاً أنا أزعم أن مايحدث لليهودى فى الحضارة الغربية من أنه يباد أو يتفوق أو يذوب هذا كله جزء من منظومة الحداثة الغربية ولايمكن فهمه إلا فى إطار منظومة الحداثة الغربية وهذا ما ذكرته من قبل ، كيف أن الإشكاليات النظرية كلها ومن ضمنها نظرية الحداثة الغربية وتعريف الحداثة الغربية بأنها ليست تبنى لعلم وتكنولوجيا وحسب وإنما تبنى للعلم والتكنولوجيا المنفصلين عن القيمة بهدف تحويل العالم إلى مادة استعمالية ، هذه مسألة أساسية .

* كيف يصبح اليهود جزءاً من هذه الحداثة ، كيف رأيتهم جزءاً من هذه الحداثة التى حددتها بهذه الدقة ؟

** أولاً يحكم على الفرد بمقدار كفاءته المادية وقدرته على الصراع فهم حققوا تفوقاً لأنه كان لديهم آليات معينة تجعلهم قادرين ومن ضمن هذه الآليات أنهم لم يكونوا جزءاً من مجتمع فى العصور الوسطى فهذا الإنسان المغترب إنسان أساسى للحداثة الغربية .

* أى أنهم إعلان من إعلانات الحداثة الغربية ؟

** بالضبط ، مثلاً الإبادة أليست الحداثة الغربية هى الحداثة التى بدأت بالإبادة فى أمريكا الشمالية ومازالت مستمرة فى فيتنام ، فالحداثة الغربية حداثة تنميط فذوبان اليهود هو أيضاً تعبير عن هذه الظاهرة يعنى اليهود الأمريكان على عكس مايتصور بعض الدارسين فى طريقهم إلى الاختفاء وهناك فى علم الاجتماع الغربى مايسمى بتمويت الشعب اليهودى وبزواج مختلط ، عدم إنجاب ، توجه نحو اللذة وهكذا .

* اسمح لى يادكتور!، نحن عشنا فى مصر من ١٩٧٧ إلى ١٩٩٧ ساد فى الثقافة العربية تعبير الحالة النفسية بيننا وبين اليهود ، أن هناك حاجزاً نفسياً ، وكأن البعض اعتقد أن هذا الحاجز هو واجبنا ، وأنه الجسر الموصل لأرض الفردوس أو الفردوس المفقود هو السلام . د.عبدالوهاب المسيرى كيف اكتشف أبعادها هل فعلاً بيننا!وبين اليهود حاجز نفسى أم أن المسألة أعمق من هرا؟

** أنا لى واقعة فى حياتى عندما كنت فى الولايات المتحدة أثناء توقيع كامب ديفيد وكانت هناك!هستيريا إعلامية وتركيز أنه قد اخترقنا الحاجز النفسى وأنا رجل عقلانى فقلت لنفسى

يمكن يكون هناك حاجز نفسي ، فوجدت أن تفكيري كله ليس له معنى فنمت لمدة أسبوع وعندما كنت نائماً تساءلت مخيمات اللاجئين وهذه الحروب والتصلب الإسرائيلي والهجوم على البلاد العربية ، أليست هذه الأحداث كلها نفسية ومازالت الآثار موجودة ، فاستيقظت من النوم وأنا أقول لا ليست المسألة نفسية وهؤلاء هم أناس يخدعون أنفسهم وعلينا أن ندرس العملية لأن مابيننا وبينهم ليس مجرد حاجز نفسي .

* بعد دراستك كل هذه السنين قد يعتقد البعض أنك تستند لمرجعية وكأن الموسوعة التي كتبتها كانت في ظلال هذه الحالة النفسية ، حالة تستند لمرجعية الصراع بديلاً لمرجعية التعاون والمشاركة . دكتور عبدالوهاب المسيري مرجعيته الفكرية والدينية والأخلاقية مرجعية صراع يقاتل ويقاوم ، هل هذا الكلام صحيح ؟

** في نهاية الأمر مرجعية الإنسان يتحكم فيها دون شكل هذه تثير قضية في العلوم الإنسانية وهي قضية الموضوعية والذاتية ، كيف تفرق بينهم أنا في الواقع في خطابي التحليلي أسقطت الاثنين ، لأن كليهما مستحيل فأن تكون موضوعياً تماماً فهذا مستحيل وأن تكون ذاتياً تماماً فهذا مستحيل وأحللت مصطلحين أكثر تفسيرية وأقل تفسيرية ، فقلت هذا كلامي وهو ذاتي فما رأيك فلتأخذه ولتختبره على الواقع ، فمثلاً أنا أقول إن إسرائيل مصنوعة من البطيخ فما رأيك ، فعندما تجدها هكذا فأنا صحيح .

فأنا أقول أن إسرائيل جيب استيطاني إحلالي لايختلف تماماً عن جنوب إفريقيا وأضيف أنه إذا كانت كل الجيوب الاستيطانية في العالم انتهت ولِمَ لاتنتهي إسرائيل ؟ فمعرفتنا في نهاية الأمر معرفة تاريخية مقارنة فهل إسرائيل شعب مختار؟ نحن لانؤمن بهذا وهم لايؤمنون بهذا لأنه هناك ديناميكيات معينة ، فمثلاً أقول أن كل الجيوب الإحلالية في العالم التي نجحت نجحت عن طريق إبادة الشعب في الأصل ، إسرائيل لم تفعل ذلك ، أمريكا الشمالية أستراليا ونيوزلاندا عملية إبادة ، فأنا أرى من معرفتي التاريخية المقارنة أن إسرائيل جيب إحلالي لم ينجح في إبادة السكان الأصليين بسبب ظروف تاريخية من ضمنها أنها تجربة إحلالية تمت في نهاية القرن التاسع عشر تمت في منطقة عربية بها تراث وبها ناس تعلموا ، مثلاً القيادة ليست الفلسطينية مهما تختلف معها تعلمت أسلوب تفاوض وتعلموا أسلوب كفاح ، على عكس الهنود الحمر لم يتعلموا شيئاً من المستعمرين البيض ، ولذلك فإن المستعمرين تحولوا إلى موضوع يتم اهتزازه ، فهذا كله على اعتقادي قد يكون بدافع حبي فالصراع بدافع كذا ... فهذا يترك للمحلل النفسي الذي يعالجني أما أنت عليك أن تأخذ ما أقول من تفسيرات وتختبرها وترجع وتقارن الحجة بالحجة .

* ما توصلت إليه من خلال هذا العمل ، العناصر الرئيسية أو العناوين الكبرى التي تجد أنت أنها محددة للسلوك الإسرائيلي حتى وإن تجاهلناه نحن نتيجة السلوك السياسي ، هناك

علامات كبرى فى الفكر الصهيونى أنت ترى أن هذه العلامات نتيجة عملية سياسية الآن قد لايذكرها أحد ، قد يتجاهلها البعض قد يجهلها البعض ، وهذه العناصر التى ترى أنها محددة للسلوك الإسرائيلى ، ما هى ؟

** أنا أعتقد أن الشعار الصهيونى القديم: أرض بلا شعب لشعب بلا أرض هو المدخل لفهم العقل الصهيونى حتى الآن ، إن الصهيونية مبنية على أكذوبة جوهرية هى الأكذوبة أن فلسطين لايوجد فيها شعب ، بعضهم قد يعترف بأنه موجود لكن هامشى وبعضهم يعترف بوجوده لكن ممكن يطرد لكن أنه موجود وصاحب الأرض هذا خارج المسألة ، لماذا فى موسوعتى أقول إن كل النظم السياسية تواجه مشكلتين ، مشكلة فى الشرعية السياسية فمثلاً الحكومة فى جنوب إفريقيا ضرورى تقوم بعدة أعمال حتى يقبلها الشعب بما فى ذلك الإرهاب أى ترهب الشعب فهذا بعضه شرعية سياسية ؟ الذى يقول الصهيونية تواجه الشرعية السياسية أمام المستوطنات . لكن هناك شيئاً نسميه شرعية الوجود وهذا تواجهه فى مقابل السكان الأصليين الذين لايطالبون بتغيير النظام السياسى فهم يطالبون بكل شىء هذه الشرعية تخلق عند الإسرائيليين ما أسميه الهاجس الأمنى يعنى هم كانوا دائماً يقولون نيتانياهو عنده هاجس أمنى ، فأنا أعتقد أن جميع الإسرائيليين عندهم هاجس أمنى لأن الفلسطينيين اختفوا ، فأنا أعتقد أن كلام المتشردين الصهاينة مضبوط إنك أنت لو تنازلت عن نابلس فهذا تنازل عن حيفا لأنه فى نهاية الأمر تقبل بمقولة أن هذه أرض بشعب وليس أرضاً بلا شعب كما يقال ، فالهاجس الأمنى الإسرائيلى هاجس حقيقى فلايمكن إخفاؤه، لايمكن بطريقة من الطرق أن تخفف من حدته يمكن أن تسكنه أحياناً لكنه مكون حقيقى ، مما يزيد من المشكلة أنهم قالوا: شعب بلا أرض وأنهم افترضوا أن هناك حاجة اسمها شعب يهودى فى العالم مشتت لا أرض له وبدأ تدريسهم للصهيونية على هذا الأساس وقالوا أننا سنؤسس دولة يهاجر إليها هذا الشعب اليهودى ، أولاً هاجر البعض واكتشفوا أنهم عندهم مشكلة من هو اليهودى ، كيف تؤسس مشروعاً يهودياً وأنت لاتعرف من هو اليهودى فهناك إشكاليات ضخمة فى إسرائيل ، (ثانياً) وهذا هو الأسوأ أن الغالبية الساحقة من يهود العالم لاتزال فى الخارج ، لدرجة أنه ظهرت كتب فى أمريكا كتبها مؤرخون صهاينة اسمها «المنفى» لاتتضمن أمريكا الشمالية وكندا ، بمعنى أن أمريكا الشمالية وكندا أصبحتا وطناً قومياً لليهود ، فالولايات المتحدة وكندا يضمان أكبر نسبة من يهود العالم ، كما ترى أن هناك إشكاليات ضخمة تولد مشاكل فى العقل الإسرائيلى وهذا يوجه سلوكهم سواء كان عدواناً أو تراجعاً أو إحساساً بالأزمة وهكذا .

* للمزيد من التحديد نحاول نصل من خلال دراستك إلى بعض العناوين الأخرى فتحدثت عن الهاجس الأمنى ومن قبل عن الفكرة التى قامت عليها إسرائيل وأن العقل الحقيقى والذى يحكمها فكرة أساسية هى شعب بلا أرض ، وأرض بلا شعب ، هذه الفكرة هى التى مازالت

مسيطرة على العقل الإسرائيلى، لو قلنا فكرة ثالثة تسيطر ونحن نتجاهلها بمعنى فكرة يتجاهلها العقل السياسى العربى .

د. المسيرى كمفكر بعيد عن السلوك السياسى أفكار يتجاهلها السلوك السياسى العربى فى المرحلة القادمة ونحن على مشارف قرن جديد ؟

** أنا أعتقد أن العقل السياسى العربى تجاهل مدى حدة الأزمة فى إسرائيل بمعنى: نحن هُزمنا علي يد الإسرائيليين عدة مرات وعادة أنت تنسب لعدوك الذى هزمك قدرات عجائبية ضخمة وهذه حالة نفسية ومعنى ذلك أنك تقلل من شأنك وتقول أنك ضعيف ، فلابد أن تعظم من عدوك حتى تسترد احترامك لنفسك بعض الشىء ، وبالتالى عملية رصدنا لإسرائيل مفزعة .. مفزعة ، على سبيل المثال سأذكر لك قصة: كنت ذات مرة فى أغسطس ٧٣ أعطى محاضرة لبعض القيادات السياسية الكبرى فى مصر وتحدثت معهم عن أن المجتمع الإسرائيلى والقيادات الصهيونية تبث فى قلوبنا الرعب لأنها مرعوبة وضربت لهم أمثلة بالصحف الإسرائيلية وغيرها . هاجوا وماجوا ضدى واتهمونى بالعمالة وقالوا لابد أن ندرس إسرائيل بموضوعية لمدة عشرين سنة وهذا الكلام فى أغسطس قبل العبور وهؤلاء القيادات هم الذين شاركوا فى العبور فى أكتوبر لكن الأمر فيه شىء أن حاجزاً نفسياً نحن خلقناه حتى نسترد بعض أنواع التوازن وبالتالى بدلاً من أن ننظر للإسرائيليين فى مناطق ضعفهم نركز على مناطق القوة وهذا أصابنا فى مقتل . من ضمن هذا فكرة المؤامرة عندما نقول هناك مؤامرة يهودية وصهيونية وهذا فى حد ذاته محاولة لإضفاء قوة عجائبية على الآخر حتى أبرر هذه النتيجة وأستعيد شيئاً بينى وبين نفسى .

* من خلال علاقتك أنت الفكرية ودراستك للحالة الصهيونية ، أين تكمن عوامل القوة فى الفكر الصهيونى إذا صح التعبير وأين تكمن عوامل الضعف ؟

** أنا أعتقد أن عنصر القوة الأساسى فى الفكر الصهيونى هو فكرة بسيطة توصل لها هرتزل أن من يريد أن يحقق أى مشروع غربى لابد أن يتحالف مع الإمبريالية وهذا يفسر شيئاً فى تاريخ الصهيونية لم يدركه أحد ، أنه كانت توجد منظمات صهيونية كثيرة صغيرة ، لكنها كثيرة فى روسيا وبولندا والنمسا ، لكن هرتزل بمفرده هو الذى عقد المؤتمر الصهيونى وهم الذين انضموا له ولم ينضم هو لهم ، طبعاً التفسيرات الصهيونية تقول أنه شخصية كاريزمية وأنه استخدم الإعلام، أنا أعتقد أن المنظمات الصهيونية فى روسيا لم تدرك أهمية التجربة الاستعمارية لأن روسيا لم يكن عندها تجربة استعمارية بينما هو فى النمسا، فى الواقع هو بدأ بطريقة تقديرية عندما ذهب لبعض الأثرياء اليهود ولبعض الحاخامات ، هذا كان نمطاً فى العصور الوسطى إلى أن اكتشف أنه يجب أن يذهب لإنجلترا مباشرة أو لألمانيا وهو طبعاً كان غبياً كان يذهب للدولة العثمانية معتقداً أنها دولة استعمارية فقد خذلوه ، لكن

إنجلترا وألمانيا تبنوه لذلك فهو اكتشف الآلية الكبرى لتنفيذ أى شىء فى العالم الغربى وهو أنك تحتاج إلى الإمبريالية ، حتى «نورداو» علق على الجهود الصهيونية قبل هرتزل والتى تعتمد على الجهود الذاتية ، هذا هو جوهر الصهيونية وجوهر تفوقها حتى الآن أنها أدركت أنه لابد من التحالف مع قوة إمبريالية حتى يمكنها أن تنفذ مشروعها والصهاينة ليس عندهم أى شكوك فى هذا .

* هل فى العقل الإسرائيلى الجمعى أو فى الفكر المكون لإسرائيل عناصر قوة لم ندركها نحن ، من خلال دراستك ، هناك إحساس نفسى بأن الصهاينة والشعب اليهودى بالفعل يمتلك غريزة التفوق ، هل هذا الكلام صحيح ؟

** لا ، فمثلاً لو كان اليهود عندهم غريزة التفوق فعندما تطبق هذا المعيار على يهود اليمن ، فستجد أنهم لايختلفون عن الشعوب الذين يعيشون بينها، ونفس الشىء بالنسبة لليهود المصريين فلا نعرف بينهم أى عباقرة .

* مازلنا نتكلم يادكتور عماتراه أنت بعيداً عن الشائع والوهم السائد ؟

** عبر التاريخ لم يوجد عباقرة يهود ، فأول عبقرى يهودى بهذا المعنى ظهر فى القرن السابع عشر (سبينوزا) وهو كان أول يهودى ينفصل عن اليهودية ولايتبنى ديناً آخر ولذلك يسمى بأنه أول إنسان علمانى فى التاريخ، فى الماضى كان هناك «فيلون» السكندرى كان متأثراً بالفلسفة الهلينية ولايمكن تصنيفه باليهودى بهذا المعنى ، مثلاً أحد مثل «موسى بن ميمون» هذا كان نتاج الحضارة الإسلامية.

وظهر التميز اليهودى ابتداء من القرن السابع عشر مع الحداثة الغربية ولايمكن تفسير عبقرية هؤلاء إلا بوجودهم داخل الحضارة الغربية بدليل أنه لايوجد عباقرة ظهروا خارج هذه الحضارة لأنه لو كان يهوديتهم هى المكون الأساسى لعبقريتهم لكان لابد أن يظهروا فى أى مكان وهذا لم يحدث . فالخطاب التحليلى العربى نظراً لرغبة عندما يقول هذا يهودى وهذا يهودى بدون النظر للحضارة الغربية وأنهم يهود للحضارة الغربية هل أينشتين يمكن تفسيره من خلال يهوديته أو من خلال تراكم معرفى معين ووجود أجهزة معينة داخل الحضارة الغربية . أينشتين فى هذه الحالة لايمكن أن نميزه عن فاروق الباز فهل فاروق الباز لو كان معنا هنا ما كان وصل إلى هذا المركز إلا إذا توفرت له إمكانات كافية .

* الحديث عن إسرائيل كأنها تتابع الأسطورة ، وأعتقد حضرتك أشرت إلى هذا ، فهذا أيضاً يشككنا فى التاريخ وأن كل وقائع الأيام تثبت أن الأسطورة الإسرائيلية انتصرت ، هل فعلاً كانت الأسطورة الإسرائيلية أكثر تأثيراً وانتصاراً وجدوى من التاريخ العربى ؟

** لا بالطبع الأسطورة لها تأثير فى التاريخ فى الواقع عندما تنبأ الأستاذ هيكل بسقوط الاتحاد السوفيتى وقال لقد فقدوا الحلم ؟ الأسطورة عنصر محفز ، جارودى فى كتابه عن

الأساطير الإسرائيلية يميز بين نوعين من الأسطورة هناك أسطورة تحلق بالإنسان وتجعله يتجاوز وهناك أسطورة أخرى وهى الكذب فالأسطورة الإسرائيلية من هذا النوع الثانى قائمة على الكذب لأنها شعب بلا أرض وبالتالى هى أسطورة فاشية ليست أسطورة إنسانية مثل أسطورة هتلر (ألمانيا فوق الجميع) ، لابد أن يلجأوا إلى حد أقصى من العنف لتحقيق أهدافهم ولكن من سوء حظهم أنهم لم ينتصروا ونحن مازلنا نتعلم ولم نصل بعد إلى نهاية التاريخ ورغم أن هناك انتصارات إسرائيلية إلا أنها لم تجئ بالأمن والسلام لدرجة أن أحد المثقفين الإسرائيليين قال إن إسرائيل ترقض من نصر إلى نصر حتى تصل إلى نهايتها المحتومة و «جيكو يعقوب» المؤرخ الإسرائيلى يتحدث عن عقم الانتصارات أى أنهم ينتصرون دون تحقيق أى شىء .

* لو من خلال الدراسة التى استمرت كل هذه السنوات ، لو قلنا للدكتور المسيرى تحدث عن الأوهام الكبرى فى العقل الإسرائيلى ، الأوهام الكبرى التى استخلصتها من خلال هذه الرحلة إذا كان كل عقل له أساطير ، وله أحلامه وله أوهامه ، فما هو الوهم لدى العقل الإسرائيلى ؟

** أنا أعتقد أن الوهم الأساسى هو تصوره أنه يمكن أن يستمر داخل الإطار الصهيونى وهذا مستحيل لايمكنه أن يستمر داخل الإطار الصهيونى أو كما قال «أب ايفيتم» فى الشرق الأوسط وليس منه ، أى هو جزء من أوربا ولكن مولود عندنا ويستغلنا لمصالح أوربا لكن يتعامل معنا ، فأنا أعتقد أن هذا وهم إسرائيلى كبير لأنه حتى الآن يدور فى إطار قانون العودة الذى يعطى اليهودى الذى غادر فلسطين منذ ٣٠٠٠ عام أن يعود وينكر هذا الحق على الفلسطينى الذى طرد من دياره منذ ٥٠ عاماً ولازال يطارده أى أنه يريد أن يأتى اليهودى الذى لايود أن يهاجر وأن يغلق الأبواب على الفلسطينى الذى يود أن يعود . وهذا موقف متفجر لانهاية له والوهم الإسرائيلى الأكبر أن يستمر مثل هذا الوضع .

* د. عبدالوهاب المسيرى لو توقفت عند الموسوعة وكأنك لم تؤلفها ووقفت أمامها محايداً وتعيد قراءتها مرة ثانية ، ما هو اليقين الذى يمكن أن تمنحك إياه ، إذا اعتبرنا أن الفكر يمنح يقيناً سواء بالسلب أو بالإيجاب ما هو اليقين الذى يمكن أن تمنحه لك ؟

** طبعاً اليقين الكامل أنا كمسلم أقول أن كتاب الله هو الذى يمنحنى اليقين لأنه وحده هو الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ويتعامل مع قضايا إنسانية كبرى تتسم بنوع من أنواع الثبات . أما هذه الموسوعة تتعامل مع ظاهرة متغيرة لكن فى إطار هذا يمكن أن أقول ما يلى أنه عندى يقين كامل أن إسرائيل ستزول لأنها جيب إستيطانى سيختفى لأنه لايحتوى على أى من مقومات الحياة حتى الآن ، فى الواقع حتى الآن مقومات الحياة تأتى من الخارج معونات ودعم وهكذا ، أما من الداخل هناك أزمات ومشاكل وهناك انقسامات وأنا

أعتقد أن عدم سقوط إسرائيل حتى الآن من أكبر الأدلة على خيبة العرب الكبرى وليس على قوة إسرائيل إنه غياب عربى وليس حضوراً إسرائيلياً .

* معنى هذا اليقين الذى وصلت له ، يجعلك تنظر كيف وبأى عين تنظر لسلوك سياسى عربى الآن ندخل به القرن الجديد ، فأنا أتحدث عن نبوءتك بإن إسرائيل ستزول هذه نبوءة ؟

** لكن على فكرة أحب أن أضيف أنها لن تزول من نفسها لأننا نعرف حكومات عاشت فى حالة أزمة مئات السنين مثل النظام المملوكى فى مصر عاش فى أزمة لا هناك تطور ولا مقدرة على الدفاع عن شىء فسقط حينما جاء الفرنسيون ، نفس الشىء بالنسبة لإسرائيل يمكن أن تعيش فى حالة أزمة عشرات السنين خاصة كما قلت أن مقومات حياتها من الخارج تأتى المعونات الأمريكية وتحل المشاكل ومن خلال هجرة بعض العناصر الساخطة ، فهو مجتمع له ليونة معينة فالمجتمع الإسرائيلى سيسقط من خلال الكفاح العربى وليس من تلقاء نفسه كما يتصور البعض ، بعد هذا سؤال آخر حول رؤية العالم العربى فأنا أعتقد أن العالم العربى بدأ يصل إلى نوع من أنواع التركيب فى علاقته بفلسطين وإسرائيل ، بمعنى أنه بدأ يدرك مثلاً أنه هناك أبعاد دولية وبدأ يدرك أن هناك نظاماً صهيونياً له ثوابت ، فأنا أرى كثيراً من الحكومات العربية التى رحبت بباراك فعلت ذلك إرضاء للخطاب الدولى لكنهم يعرفون تماماً أن باراك لايختلف عن نتانياهو داخل فكر الإجماع الصهيونى ، فهم يعرفون ذلك وعندهم حنكة سياسية لكنهم عندهم من الحنكة السياسية أنه فى نهاية الأمر يجب أن لا يخاطبوا العالم بطريقة عدوانية . تعلمنا هذا على عكس فى الستينيات كنا نقول الحق مرة واحدة وأنت لاتقول الحق فى لعبة السياسة الدولية وأعتقد أيضاً أن التشكيلات الإقليمية الكبرى مثل أوربا ومثل علاقة أمريكا بالمكسيك ستجعلنا دنيوياً ندرك أننا منطقة واحدة ، لايمكن أن يتعايش معنا فى مواجهة السوق الأوربية المشتركة إن لم يكن هناك نوع من أنواع التكامل ، الذى أعتقد أنه سنؤكل كاليتامى على مأدبة الذئاب أنا بطبيعتى متفاءل ولكن أرى من المؤشرات مايساند تفاؤلى .

* إلى أى حد يقين المفكر أو يقين المثقف عندما ينظر إلى السلوك السياسى أو الأداء السياسى، الأداء السياسى العام يبدو نقيضاً للفكر المجرد الذى حفر أثناء زيارة السادات للقدس يبدو للبعض وكأنه حفر مجرى غير مجرى النيل وأن هناك اتجاهاً كاملاً سياسياً فى المنطقة يعيد ترتيبها لمرة أخرى فى إطار إقليمى أو إطار دولى وهو فى قلب هذا الإطار ، هذه الدولة التى تعتقد أنها ستزول تواصل هذا إلى أوسلو ومن قبلها مدريد ، أليس كل هذا يهز كل اليقين الذى توصلت له ؟

** فى الواقع لا . عندما ترى تاريخ إسرائيل منذ ١٩٧٧ الأزمة تتفاقم ، الانتفاضة وهذه ليست عملية سهلة ، لدرجة أن التفكير السياسى الإستراتيجى الإسرائيلى وجد أنه لايوجد

إجابة للانتفاضة وأعتقد أن قبولهم لأوسلو والسلطة الفلسطينية وغيرها كان نتيجة للانتفاضة، كيف يلتف حولها ، رغم كل ماتراه من نقائض فى أوسلو لكن فى نهاية الأمر فهى تناسب إسرائيل ، لكن مسار كامب ديفيد أعتقد أنه توقف منذ فترة طويلة والإشكاليات الإسرائيلية ضخمة وتضطر للتنازل ومثلاً الآن لأول مرة فى التاريخ إسرائيل لها حدود ، لم يكن لها حدود فى الماضى، وهذا ضد الشرعية الصهيونية ، والآن العمق الإستراتيجى الإسرائيلى نفسه كان زمان يبعث طائرات تضرب الخارج وتعود فالآن عنده ملايين الفلسطينيين الذين يتكاثرون ويهددونه ديموجرافياً ، فالمشاكل تتفاقم .

* تحدث فوكوياما عن نهاية التاريخ وأنا أعرف أنك تنظر للمسألة اليهودية فى إطار العولمة وهذا مدخل مهم جداً ، هل من الممكن أن نعتبر ما يحدث الآن سياسياً هو نهاية التاريخ بالنسبة لنا ، هل من الممكن ومن المطروح على مستوى إعادة تنظيم المنطقة العربية وإسرائيل داخلها ، هل هذا يعتبر بالنسبة لنا أيضاً نهاية التاريخ ؟ هل هناك شىء اسمه نهاية التاريخ ؟

** لا أنا أعتقد أن هذه المقولة «نهاية التاريخ» توجد فى الأيديولوچيات الفاشية لأن فى نهاية الأمر نهاية التاريخ تعنى نهاية الإنسان ، لذلك فى أول دراسة لى عن الصهيونية كان اسمها نهاية التاريخ لأن الصهاينة اعتقدوا أنهم يحاولون إنهاء تاريخ الفلسطينيين وإنهاء تاريخ اليهود فى الخارج .

* رؤيتك ورؤية المثقف العربى أو تطور رؤيته لإسرائيل ، ما هى ملاحظاتك على هذه الرؤية فى هذه المرحلة ؟

** من البداية أرى أن الرؤية العربية لإسرائيل والصهيونية انحصرت فى الإطار السياسى والاقتصادى لم تصل إلى المعرفى أبداً ولا الفلسفى ولا الحضارى يعنى يمكن أن يكون هناك بعض الاستثناءات ولكن ليس بدرجة أن تشكل خطاباً ونتيجة لغياب البعد المعرفى هذا والتركيز على السياسى فإن عملية الرصد لإسرائيل لم تكن ذكية ودخلت فى قوالب جاهزة فأنا أعتقد أن المطلوب الآن رصد للصهيونية وإسرائيل واليهود واليهودية ستكون فى إطار عملية مترابطة حتى يمكن أن نراه فى إطار كلى وشامل على جميع المستويات السياسية والاقتصادية والثقافية والحضارية وهكذا .

* وماذا عن الموقف الخطابى الإسلامى للنظرية الصهيونية ؟

إنهم للأسف يرون أنه فقير جداً بمعنى أنه لايزال يدور فى إطار أن اليهود هم يهود خيبر ، بمعنى أنه فى الواقع سقط فى الرؤية الصهيونية الذى يقول أن هناك استمرارية صهيونية عبر التاريخ، يوجد استثناءات لهذا ومحاولات للابتعاد عن مثل هذا الاختصار . لأنه فى نهاية الأمر إذا افترضت هذه الاستمرارية الكاملة فأنت لن ترى الواقع فسترى النصوص الدينية

سواء نصوصك أو نصوصهم تحاول تفسير سلوكه فى ضوء التوراة والتلمود وتفشل فى رؤية ما أمامك أو أنا أعتقد أن هذه هى المشكلة الأساسية فى رؤية الخطاب الإسلامى .

ولكن كما أقول هناك محاولات جادة لفهم إسرائيل فأنا أعتقد أن بعض الجماعات الإسلامية المناهضة لإسرائيل تحليلاتها بالنسبة لإسرائيل جيدة جداً فأنا أرى بعض منشورات حركة الجهاد وحماس أجد أن خطابهم يزداد تركيباً ووعيهم يزداد .

* ما مكانة الخطاب الدينى اليهودى فى المنظومة الإسرائيلية ؟

** أنا أعتقد أنه ديباجات بمعنى أنه هناك مشروع صهيونى جوهره استيطانى أى نقل يهود من الخارج إلى إسرائيل تتم بترك ذلك المجال تقول أنك رجل ماركسى وعملية نقل هؤلاء لتأسيس دولة ماركسية ، إذا كنت ليبرالياً: لأننا نريد أن تكون هناك واحة للديمقراطية إذا كنت رأسمالياً تقول: لا من أجل المشروع الخاص ، إذا كنت دينياً تقول: هذا من أجل الوعد الإلهى ، هذه سمة ديباجات لاتغير من نية المشروع الصهيونى نفسه والتبريرات والاعتذارات هى التى تتغير تبرير الاستيطان تبرير لفظى . هناك مشكلة نتيجة لأن الشرعية الصهيونية تدعى أنها شرعية يهودية نجد أن الخطاب الدينى يكتسب ديناميكية مستقلة ويكتسح لكن فى نفس الوقت هناك شراسة علمانية فى إسرائيل فهم يريدون فى تل أبيب من أكثر المدن إباحية فى العالم ويتمتعون بالحياة الدنيا ولايريدون المتدينين وهم أغلبية .

* بماذا تفسر أن «بنجوم» العلمانى الموحد كان يستخدم فى خطابه عادة أو يستند فى خطابه إلى الدير الدينى اليهودى ؟

** هو فولكلور فمثلاً فى رمضان عندما لاتفرق بين رمضان والفوانيس ولكن لاتصوم وعندما ترى أحد يصوم تقول هذا شىء حلو ، فهو يعتبر أن كتاب التلمود والتوراه كتاب فولكلور الشعب اليهودى ومن ثم يمكن أن يستعين منه بما يشاء .

* أليست إسرائيل دولة دينية ؟

** بالطبع لا لا ، هذا من مشاكل الخطاب العربى لأن إسرائيل دولة علمانية تعقد تحالفات مع الغرب كدور فى إطار المنظومة الداروينية أو النيتشوية التى تتوسع لأسباب إستراتيجية وهكذا ، فمثلاً سيناء أهم من الجولان من المنظور الدينى لكنهم تنازلوا عن سيناء وظلوا محتفظين بالجولان لماذا لأن فى نهاية الأمر هناك اعتبارات إستراتيجية معينة تبرر دينياً بعد ذلك .

* أى الصراع ليس صراعاً دينياً ؟

** بتاتاً ، لا .. لا ، هذا عصر الأقل من جانبهم ، هذا لايعنى أننا لانستخدم الحافز الدينى فى حفز الناس بمعنى أننا ضد الظلم ولايجب أن يكون الحافز الدينى ضد اليهود لأننا لسنا ضد اليهود ولكننا ضد الظلم ومن يرتكبه سواء أكان يهودياً أو غير يهودى .

محمود أمين العالم

بشرفى .. الميثاق من أهم كتب القرن العشرين

منذ أكثر من ٦٥ عاماً ومحمود أمين العالم - الفائز بجائزة الدولة التقديرية عام ١٩٩٩ - فى اشتباك مع الحياة كمثقف.. وكسياسى.. مرت السنون.. وتداعت إمبراطوريات وتهاوت نظريات ولم يفتر حماسه أبداً الذى لابد أن يأتى - من وجهة نظره على الأقل - وبعد عشرات السنين.. يبدو محمود أمين العالم.. وكأنه المتفائل الأخير الرابض على قمة حلم.. أو أمل.. لا الأيام الماضية ساندته.. ولا الأحداث الجارية أيدته ولكنه كان أقرب لعاشق.. أحب.. فأخلص.. فله ثواب العشق.. وله جزاء الإخلاص.

وتجربة محمود العالم الثقافية والسياسية.. هى أيضا تلخيص لتجربة جيل ظهر فى الأفق منذ الحرب العالمية الثانية.. ومازال موجودا فى حياتنا.. أثر ومازال بصورة عميقة فى الحياة السياسية والثقافية.. ومازال هذا الأثر ملحوظا.. ومع نهاية القرن العشرين.. أصبح من حق الأجيال اللاحقة أن تواجهه بالسؤال: لماذا؟

إن أجمل تهنئة لمحمود أمين العالم - وجيله - مع نهاية هذا القرن هى فى المواجهة من أجل تفسير بعض ما حدث.. وتوفير بعض الضوء لما يحدث.

وتجربة محمود أمين العالم - الذى نحتفل بعيد ميلاده الثامن والسبعين خلال أيام - توفر لنا هذه الفرصة.. فالرجل اختار الماركسية فى الأربعينيات.. ودخل السجن فى نهاية الخمسينيات.. وخرج منه ليصعد إلى مكانة مميزة على مسرح السلطة فى منتصف الستينيات ليصل إلى خيمة المعارضة والنفى فى السبعينيات.. وهو فى كل ذلك يقدم خليطا لتجارب عديدة وأدوارا متباينة من الكتابة الشعرية والنقد والفلسفة وعلم النفس والمختلطة بحماسه ودوره السياسى.. حتى أننا يمكننا أن نسأله بكل استفزاز ومودة: من هو محمود أمين العالم؟

التقيت بالأستاذ محمود أمين العالم مهنئا بجائزة الدولة التقديرية محصنا بالكثير من التساؤلات فى مواجهة صدقه الواضح وإنسانيته الدافعة ومودته العميقة التى يلقى بظلالها على كل من يتحدث معه أو يلتقى به.. كانت لدى - طوال الحوار - إجابات أرغب فى أخبارها أكثر من الأسئلة التى أبحث عن إجاباتها.. كنت أبحث عن رؤية تفسر وتكشف وليس استعادة ذكريات تشبعت بها الأسواق.. وبتدفقه.. أمسك بأول خيط للحوار عندما أبدى دهشته قائلا:

«استغربت مقولة الدكتور عبدالعظيم رمضان فى حوارك معه عندما قال إن «أمى حذرتنى من أولاد الرعاع».. كيف نتكلم عن الرعاع؟ أنا ابن الدرب الأحمر.. ابن حارة سيدى عنبر. الأزهر.. تعلمت فى كُتّاب فى مدخل «السكّرية».. وفى مدرسة النحاسين فى بيت القاضى.. أنا من الرعاع وأفضل الرعاع على الرعية.. الرعية هم العبيد.. لكن هؤلاء الرعاع هم الذين تحدوا المماليك ووقفوا ضد نابليون.. إنهم ملح الأرض.. ليسوا فى السلطة ولكنهم يعبرون عن السلطة المقهورة – لقد كنت أول من طبع أهم كتب عبدالعظيم رمضان (تاريخ الحركة الوطنية) بعد ذلك بحث لنفسه عن طريق آخر..

قرأت ما قاله عبدالعظيم رمضان – وهو صديق – رغم أنه غيّر اتجاهه بشجاعة.. وأنه يهاجم عبدالناصر وهذا دليل الجرأة مع نفسه.. الحقيقة أننى أعتبر تجربة عبدالناصر أروع وأرفع تجربة فى تاريخ مصر المعاصر، جسدى مازال مليئا بالجراح.. ولكنى أيدت عبدالناصر حتى وأنا فى السجن.. كان نصيبى من التعذيب مضاعفا داخل السجن أنا وعبدالعظيم أنيس رغم تأييدنا له – لكنى اختلفت فى بداية تجربته ولاسيما بسبب إعدام خميس والبكرى بكفر الدوار، ولكنى استطعت أن أقرأ مسار هذه الثورة بعد ذلك وأن نتحالف مع عبدالناصر.. شعرت أننى أخطأت كشيوعى – عندما وافقنا على حل الحزب وحاولنا الاندماج معه من خلال المبادئ المشتركة، لكنى اعتذرت بعد ذلك كتابةً فى كتاب (الوعى.. والوعى الزائف).

اشكال من الوعى

* ما الفرق بينكم: أنت وحديثك عن الوعى.. وعبدالعظيم رمضان ووعيه كمؤرخ، والحكيم صاحب أشهر دعوة دشنت (أحاديث عودة الوعى) التى كانت عنواناً لمرحلة جديدة فى تاريخ مصر؟

** أبدأ بالدكتور عبدالعظيم رمضان.. فهو لم ينقد عبدالناصر ولكنه نقض عبدالناصر.. هو خرج من المعسكر الوطنى القومى إلى معسكر آخر معاد للحركة الناصرية التى لها سلبياتها ولكنها فى مجملها حركة تقدم اجتماعى.. فعل ذلك.. وهو يؤرخ وعيه النقيض.. إنه يقوم بالتأريخ وليس كتابة التاريخ. التأريخ هو الذى يلتقط أحداث تفصيلية هنا أو هناك ويصوغ منها نظرية – أما التاريخ فهو غير ذلك.. إن التاريخ هو التاريخية.. هو التشابك بين العلاقات المتحركة فى الرؤية الشاملة لحركة الأشياء وليست الرؤية المتشفية المتجزأة هنا أو هناك.. عبدالعظيم رمضان يلتقط تضاريس خارجية لا يتعمق للتشابك بين الأحداث. يقف عند رؤية جزئية خالية من وحدة النظرة الشاملة.. ولهذا انتقل من النقيض إلى النقيض حتى وصل أنه يوافق على الصلح مع إسرائيل بدون تحفظ.. يوافق على مانشاهده من تغيير شامل فى البيئة الاقتصادية بدون تحفظ.. ولا يبرر هذا إلا بحديث.. يخوض فيه الكثيرون وهو

الديمقراطية، والديمقراطية قيمة أساسية ولكن ما هى الديمقراطية وما حدودها.. أى أنه يعتمد على عامل واحد وأنا أقول أن التاريخ لا يفسر بالعامل الواحد - أما بقية السؤال بمناسبة الوعى عند توفيق الحكيم فأقول إنه لم يستعد وعيه.. لأنه كان واعيا جدا فى كل لحظة من اللحظات.. وهو كتب أفضل كتاباته النقدية فى عهد عبدالناصر: كتب بنك القلق وناقش فيها طبيعة نظام عبدالناصر والسلطان الحائر.وعودة الروح كانت العمل المفضل لعبدالناصر - وفلسفة الحكيم (التعادلية) قضى أنه يبذل جهده للتعادل مع كل نظام.. كان أيام الملك متعادلا جدا مع على ماهر والمدرسة المحيطة بالملك وأذكر أنه كتب (براكسا.. أو مشكلة الحكيم) قبل الثورة.. أو تحديدا فصلين من هذه المسرحية، بعد الثورة أضاف فصلين آخرين!! وأبرز سلطة الشعب بجسده فى (الحكيم). ورأيى أنه كان دائما مفكراً أكثرمنه فنانا.. ولكنه فنان أقدر منه مفكرا - ولكن أرجوك أن تحذر من تصميم هذا المعنى - ففى تاريخ مصر رجال تمسكوا بمبادئهم وكانوا مثل القابض على الجمر.. منذ أيام الفراعنة.. قد يصمون.. لكن يقفون على باب مذبح المبدأ.

* أنت من المعجبين بمقولة أحد الشعراء الإيطاليين «فى معرقة أنبل جواد قد تجد قملتين».. فماذا لو اقتربنا من جواد محمود أمين العالم؟

** لا.. ستجد الكثير (ضاحكا ببراءة لابد أن تسلبك حيادك) يا عزيزى الحياة مليئة بالحماقات العديدة.. لكن بأمانة لدى خط واضح جوهره أننى صادق مع نفسى.. لقد بدأت مثاليا.. معاديا للعلم.. معاديا للماركسية والتحقت بقسم الفلسفة بكلية الآداب بسبب إعجابى بنيتشه مبكرا الذي تعرفت عليه من خلال مكتبة أخى محمد شوقى أمين عضو المجمع اللغوى عندما وجدت كتاب «هكذا تكلم زرادشت» واندفعت فى تلك المعرفة وأناأردد «ابعث بسيقانك إلى البحار المجهولة.. شيد بيتك فوق قمة جبل فيزوف.. عش فى خطر.. الأخلاق قيم مسحية منحطة» فى نفس الوقت كنت مغرما بالمتصوف الإسلامى الحلاج والشطح الغريب الذى ما كان يعنى غيبوبة عن الواقع.. وكنت أتساءل دائما عما يربط بين الحلاج.. ونيتشه واكتشفت العلاقة.. الأول يقول بالإنسان الكامل - وما فى الجبة إلا الله - والثانى يهتم بالإنسان الأعلى..كامل الصورة داخلى بهذا الشكل لذلك أقول إننى كنت مثاليا خطرا.. وبدأت رسالة الماجستير مستهدفا تفويض العلم مستندا إلى نيتشه وبرجسون واخترت موضوع (المصادفة) وكدت أنتهى من الرسالة بعد ثلاث سنوات لولا وقوع كتب أخرى بين يدى تقول إن المصادفة هى نفسها القانون فى تعقده.. حصلت على الماجستير بأرفع الدرجات وحصلت على جائزة الشيخ مصطفى عبدالرازق.. وعينت فى الجامعة.. وأيضا تغيرت بنفس الحماس من المثالية إلى الماركسية وفصلت من الجامعة لذلك.. ولكن حماسى استمر وواصلت طريقى..أخطأت كثيرا مثل التعجل فى إصدار الأحكام.. تغليب بعض الجوانب الأيديولوجية على أحكامى.. لكن الشاعر الفرنسى أراجون له مقولة: «لو كان علىّ أن أراجع مسيرتى.. لسرت فى نفس

الطريق..» وأنا أقول نفس الشيء ولكن بتقليل بعض الأخطاء والحماقات.

خيانة الفلسفة

* كلامك يكشف عن معنى هام وهو أنك مازلت متحصنا بعباءة الأيديولوجية ضد أية قراءة لتغيرات الزمن أو سلبيات الواقع.. في نهاية القرن العشرين.. من ناحية أخرى.. يتساءل بعض منتقديك.. أليس غريبا أن يرى محمود أمين العالم دارس الفلسفة – في الميثاق الوطني الذي صدر في الستينيات فلسفة حياة!! ألا يعتبر ذلك نوعا من الخيانة للفلسفة؟

** بداية لا تقسُ على صدقي مع نفسي.. وسأقول لك شيئا بالمصادفة.. صحفي عربي يسألني عن أهم الكتب في القرن العشرين في مصر.. هل تعرف أنني من ضمن هذه الكتب قلت «الميثاق»!! بشرفي..إنني صادق مع نفسي واختياراتي.. هذا الكتاب لم يكتبه عبدالناصر.. ولم يكتبه هيكل ولكنه «شارك في صياغته».. ولكن هناك قوى كبيرة مفكرة صاغت ذلك..الميثاق رؤية اجتماعية لتاريخ مصر.. ليست رؤية سطحية..ثم جهد فكري لوضع مصر في تاريخ العالم.. ثم رؤية مستقبلية لوضع مصر في العصر، بعد ذلك يضم الكتاب ما لم يتحقق وهو الديمقراطية العميقة، فيها رؤية شاملة.. فيه قبض على قوانين الواقع الاجتماعي وقوانين اللحظة التاريخية.

* قد يرى البعض – في هذا الكتاب – مجرد بيان سياسي.. أو رؤية لحاكم.. لكن أن يصبح طبقا لتعبيرك بوصلة فلسفية لفهم التاريخ.. فمن حق البعض أن تذهب به الدهشة إلى آفاق مختلفة؟ ومن حق البعض أن يرى التاريخ في أية لحظة بأية صورة وأن يضفي على تلك اللحظة – من صدق حماسه وإخلاصه – أكبر من حجمها؟

** شوف.. مازلت عند رأيي.. هذا الكتاب جوهره صحيح ولكنه لم يطبق.. ولم تتحقق الكثير من معانيه.. أنا غير آسف على الأوصاف والتشبيهات التي قلتها.وإذا كنت تدفعني – كممثل لجيل آخر – كي أقدم اعتذارا فإنني آسف فقط على أنني اعتقدت أن مكاني للتغيير الاجتماعي هو في السلطة.. ولكن الصحيح أن يكون مكاني في التغيير الاجتماعي في قاعدة المجتمع.. وأريد أن ألفت النظر إلى أن كل إنسان فيلسوف.. والفلسفة هي الرؤية النظرية العامة.. والفلسفة اليوم تتكلم عن البيئة وقضية السلام.. وقضية المفاعلات النووية. والفوضى في العالم.. الفلسفة لم تنزل من السماء إلى الأرض على رأى سقراط.. بل غاصت في (طين الأرض) حتى تتجسد.. لذلك فإن المؤشر الكبير لتغيير اجتماعي في إطار عصر معين فإنني أعتبره رؤية فلسفية.. بمعنى أنه رؤية نظرية بهذا المعنى فالميثاق خطاب فلسفي.. الآن.. أستطيع أن أقول أن العقاد فيلسوف وطه حسين فيلسوف، وزكي نجيب محمود فيلسوف.. لذلك أقدم في العدد الجديد من مجلة (الفلسفة) رجلا مسئولا عن الكمبيوتر ويعمل في

الاقتصاد السياسى وله كتاب عن الفلسفة الإدارية.. كمفكر وفيلسوف.. فالفلسفة هى رؤية للعالم.

بلا أيديولوجيا

* عندما ينتهى القرن العشرون بعد أيام.. وأنظر خلفى وأقرأ ما حدث ثم أستمع إلى إخلاصك الفكرى الأيديولوجى الذى يتضح فى كلماتك.. فإننى لابد أن أقول لك: بلاش أيديولوجيا بقى.. لأنها قصة لم يعد لها قراء.. وحكاية قديمة.. بعد أن سقطت فى العالم كله وأصبح الجميع يعتذرون عنها حتى الذين خرجت من بلادهم؟

** لا يا عزيزى.. لن تدفعنى للاعتذار أو التنكر للصواب.. لا.. مفيش حاجة اسمها بلاش أيديولوجيا.. هذا شعار أمريكى مخادع. الفيلسوف الفرنسى (التوسير) يقول إن الإنسان حيوان أيديولوجى.. أنت فى كلامك هذا أيديولوجى.. لا شىء يحدث بدون أيديولوجيا.. إنها هى البعد الذاتى فى كل ما نصدره من أحكام، العلم فيه أيديولوجيا.. التكنولوجيا التى يتحدث عنها الجميع هى أيديولوجيا.. لا شىء خال من الأيديولوجيا..أنا مهتم بعلم الطبيعة.. وفى هذا العلم هناك نظرية الكم التى تكتشف العلاقة بين سرعة البروتون وموضوعه.. وفيها أيديولوجيا.. علم الاجتماع.. علم النفس لا يمكن قراءتهما بدون أيديولوجيا.. والأدلة عديدة وأبسطها أن علم الاجتماع فى أمريكا غيره فى روسيا - كل إنسان يتنفس الأيديولوجيا.. والقيم هى إلى أى حد تسند هذه الأيديولوجيا إلى أسس موضوعية؟ أنا اخترت الماركسية كعلم وليس كأيديولجيا.. أى اكتشاف قوانين المجتمع للسيطرة عليها لتغيير المجتمع لمصلحة المجموع.

* من سمات العلم أن النظرية التى يثبت قصورها تتراجع وتحل مكانها النظرية الأكثر دقة..أنت بعد ستين عاما من رحلتك مرتديا معطف الأيديولوجيا.. لماذا لاتستسلم لحقيقة أن هناك نظرية سقطت سقوطا مدويا وتحطمت مثل إناء من الفخار؟ وأن العالم كله وصل إلى صياغة جديدة مهما خالفت مشاعرك؟

** الذى سقط نظام.. ولم تسقط النظرية.. أنت تتحدث عن نهاية التاريخ.. بكل صراحة وبكل حسم أخبرك أننى لم أؤمن بضرورة الاشتراكية مثلما أؤمن الآن فى مواجهة تلك العولمة البشعة.. لست دون كيشوت كما توحى فى كلامك.. مؤخرا كنت فى فرنسا فى مؤتمر عالمى بمناسبة مرور ١٥٠ عاما على صدور كتاب كارل ماركس (البيان الشيوعى) وحتى أزيد من استفزازك أقول لك لقد حضره مئات من العلماء غير الاشتراكيين بالإضافة إلى مئات آخرين من نفس الفكر وكانت نقطة الجذب التى لفتت الأنظار أنه فى هذا البيان توقع بأن تتسع الرأسمالية ولكنها ستزداد شراسة وستكون معادية للإنسان - وستسعى للقضاء على شعوب

وتسيطر سيطرة كاملة.. وأنا شخصيا أؤمن بأننا نعيش عصر الرأسمالية البشعة.. لست ضد العولمة.. وهذا تنويه مهم حتى لا يفهم كلامى على غير مرماه.. بل إننى أرى العولمة خطوة هامة على طريق توحيد العالم.. لكن ليس على نمط رأسمالى بشع.. والسؤال: كيف تدافع عن العولمة وتحولها إلى صياغة أكثر إنسانية ورحمة؟ إن العولمة الحالية هى التى قضت على مجلس الأمن والأمم المتحدة.. وحولت منظمة الأطلنطى من منظمة إقليمية إلى منظمة عالمية تتحد فى أى مكان من الكرة الأرضية - إننى أدافع عن إنسانية الإنسان ضد الهيمنة الأمريكية ونعود إلى التنوع والتعدد وليس أن يسود أسلوب واحد أو نمط وحيد أو لون وحيد للعالم.. صدقنى.. ليس لدى عناد فكرى.. وصدقنى أننى أنتقد نفسى فى كل لحظة.. ولكنى غاضب من أجل حقيقة إنسانية.. هذه عولمة شرسة ينبغى لمصر والأمة العربية أن يكون لها كيانها ودورها فى التعاون مع قوى أخرى فى العالم من أجل تحقيق ديمقراطية هذه العولمة وحق كل بلد فى أن يكون له خط التنمية الملائم لظروفه.

* كيف أستطيع أن أطمأن لرؤيتك تلك للمستقبل وضروراته وأنت صاحب رؤية لم تنجح بالأمس.. وصاحب نبوءة فشلت.. فأنت الذى قلت فى الستينيات إن العالم يعيش أزمة الانتقال أو أوجاع العبور من الرأسمالية إلى الاشتراكية. وها هى الأيام تكشف لجيلى أن حلم جيلك فى الاشتراكية قد تبدد وأن الرأسمالية ترفع أعلامها فى كل مكان؟

** لا يا عزيزى.. لنكن موضوعيين.. لقد انهزمت تجربة تنموية لديها أخطاء عديدة.. الثورة الفرنسية وبعد مشاكل عديدة ظهرت الملكية مرة أخرى.. لكن الثورة الفرنسية لم تختف بل لم يستطع أحد إلغاءها.. بل انتصرت.. كذلك فإن سقوط الاتحاد السوفيتى.. لا يعنى زوال الأحلام والرؤى الكبيرة.. الكلام الذى تذكرنى به كتبته فى الستينيات هل تستكثر علىّ أن أحلم بالخير والفضيلة والإنسانية والحياة الكريمة للناس.. إننى أحلم بحياة طيبة للبشر بقلب مفعم بالإيمان وعقل يستند للعلم والتاريخ - هذا الحلم لم ينته.. وبهذه المناسبة الدكتور فؤاد مرسى وزير التموين الأسبق والمفكر الاشتراكى الذى نسيه الناس فى نهاية الثمانينيات قال بأن الرأسمالية تجدد نفسها بسبب تكنولوجيا الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات ولكن الرأسمالى العالمى المعروف «سورس» يعرف أن الرأسمالية تعانى أزمة حادة الآن.. ولدى آخر كتاب لفوكوياما مؤلف «نهاية التاريخ» لكنه يتحدث الآن عن (نهاية الإنسان) وهذا الكلام فارغ.. لن تضيع الخصوصيات.. حتى فرنسا.. قالت لا للثقافة الأمريكية.. ونحن ينبغى أن ندافع عن خصوصيتنا الثقافية وهويتنا الحضارية ليس بمعنى الانغلاق.. فالهوية ليست قوقعة مغلقة ولكنها مشروع مفتوح على المستقبل دون أن أفقد ذاتى الحضارية. وأن أتجه لتنمية خصوصيتى تعاونا مع القوميات الأخرى وإقامة مشترك عالمى لا يلغى الفروق والخصوصيات.

الفتى مهران

* أحـتـرم كل هذا الزخم الإنسـاني الذى ترى من خـلاله العـالم.. ولكن هل كنت ترى المخالفين لك فى الرأى بهذه الرحـابة؟ البعض يشكك فى ذلك ويذكرنا بموقـفك من مسرحـية «الفتى مهران» لعبدالرحمن الشرقاوي.. أو نقدك الشهير لديوان صـلاح عبدالصبور «أحلام الفارس القديم» الذى قلت فيه إن السد العالى يمسح الدموع والأحزان!!؟

** أنا صاحب منهج يؤمن بتاريخية الأشياء، لست مع الجمود.. لست مع الأفكار الجامدة والنسق الجامد ومـأزق الاتحاد السوفيتى أن الجدل توقف والصراع تجمد وأصبح نسقا مغلقا جامدا وتجمدت التجربة فسقطت ولاسيما بعد أن انشغلت بحرب الكواكب وتناست الإنسـان وبالتالى فإننى أؤمن بالتغير وأغمس حتى أحزانى الشخصية فى التاريخ حتى أعبرها إلى ما بعدها .. هذه المقدمة ضرورية.. لكى أقول لك إننى وجهت تحية حارة لمسرحية الفتى مهران لنقدها للسلطة الناصرية وموقفها النقدى ودافعت عن موقفها من السلام – ولكنى قلت إن موقفها من السلام يصلح للسلام المطلق لكن فى هذه اللحظة التى قال فيها المؤلف: أيها الملك أعد جيوشنا من البلاد البعيدة.. كانت جيوشنا فى اليمن – جيوشنا تحول بلدا كان يعيش فى عصور ما قبل الإقطاع إلى العصر الحديث.. كانت حربا رائعة وشريفة.. كانت الحرب تجديدا للدم العربى.

أنا شعرت أن المسرحية ضد وجودنا فى اليمن.. السياسى القومى فى داخلى هو الذى اعترض ولاسيما أننى كنت أرى عتاة الكارهين لعبدالناصر وللقومية العربية يصفقون بحماس ضد وجود جيشنا فى اليمن.. رغم أنها كانت حملة تحرير عربية وبالمعنى السـاذج سوق لمصر.. وعبر منطقة شديدة التخلف.. أنا كنت فى معركة.. فاعتبروا أننى ضد السلام! ثم تتكلم المسرحية عن (هؤلاء الفتية الذين حلواحزبهم وانضموا للسلطان).. والغريب فى الأمر أن عـبدالرحـمن الشـرقـاوى نفسه كـان آنذاك فى الحـركة الشـيـوعـيـة.. ويعـرف لماذا نؤيد عبدالناصر ليس رغبة فى جاه أو سلطان أو مـال.. بعد ذلك.. صدقنى وبشرفى أننى تدخلت لدى شعراوى جمعة للحفاظ على استمرار عرض المسرحية. أما حكاية صلاح عبدالصبور ونقدى لديوانه فليس بالصورة التى ذكرتها، المسألة ببساطة أننى مع السد العـالى.. ومع الدموع.. وقلت ما أروع الأحزان ولكن أحزان صعود الجبل أحزان المعاناة من أجل ما هو أرقى، ديوان (أحلام الفارس القديم) ملىء بالأحزان البشعة ويتحدث عن الفارس المعقوف الأنف – إشارة الى عبدالناصر – ويحتوى رؤية قاتمة تماما للواقع فى مصر.. أنا قلت هناك فرق بين أحزان تدفعنا للنهوض والتجاوز وأحلام تجعلنا سلبيين.. فتحولت المسألة على لسان البعض أن محمود العالم يقول كيف نحزن ونحن نبنى السد العالى!! لست ساذجا لأقول هذه المعانى.

* اصطياد محمود أمين العالم.. الناقد والمفكر والمثقف السياسى الذى ظل مخلصا للفكر الشيوعى ودخل السجن لسنوات طويلة أيام عبدالناصر كان ضمن أهداف الحوار معه.. ولكنه فاجأنى بأن رحلته الطويلة كانت كلها محاولة للهروب من هذا الاصطياد - يقول: «على باب السجن يخلع الإنسان كل شئ..! الملابس.. الكرامة الإنسانية.. ويتم اصطياده ويتحول إلى لا شىء آخر داخل السجن.. وعلى باب ليمان أبى زعبل تم اصطيادى مع آخرين وهناك عشت تجربة مرة لاصطياد الإنسان مازلت أعايش تفاصيلها داخليا»..

والسؤال هل نجح الناقد الذى هز الحياة الثقافية فى منتصف الخمسينيات والمفكر الذى تتلمذ على يدى د. عبدالرحمن بدوى ثم هجره، والسياسى الذى خرج من السجن إلى السلطة والإنسان الذى مازال ينظر حوله بتفاؤل ويبث مودته بصدق ويخفى بين جنباته تحت معطف الأفكار.. ويتذكر قصة حبه الأولى بحنين.. وينظر لزوجته التى دفعت الثمن منذ حوالى ٢٨ عاما باعتذار صامت.. هل نجح فى الهروب من ذلك الاصطياد؟

من أين تبدأ المحاولات؟ وهل تم السعى لاصطياد محمود أمين العالم سياسيا (داخل الوظيفة) أم كان سعيه لذلك من خلال قناعاته؟

وما الشعور الذى ينتابه اليوم.. ونحن نعيش الأيام الأخيرة فى القرن العشرين.. وهل ينظر خلفه لنصف قرن مضى لم يتوقف خلاله عن الحركة بندم أم عناد؟ وما المشاعر التى تنتابه كسياسى حل حزبه وركب القطار.. ودارت الأيام لا القطار ذاته.. ولا الطريق الذى كان هو الموجود؟

** تداعيات عديدة تركت لها حرية الظهور على السطح خلال لقاء يتسم بالود وتكلم بقناعة:

كنت من أواخر الدفعات التى خرجت من معتقل الواحات فى نهاية عام ١٩٦٤ وفى يوم الإفراج نفسه أبلغنى أحد الأصدقاء بدعوة سامى شرف مدير مكتب عبدالناصر للقاء وخلاله قال إن الرئيس عبدالناصر يدعوك للانضمام للتنظيم الطليعى ولم يكن العرض غريبا.. فأنا كنت من فريق الحركة الشيوعية المصرية الذى تحمس للميثاق.. وتحمست لتنظيم طليعى يضم طليعة الاشتراكيين.. وأصدرنا وثيقة - ونحن فى السجن - نقول فيها إن فى سلطة عبدالناصر مجموعة اشتراكية غير علمية.. ولكنها تتجه نحو الاشتراكية العلمية بالممارسة ومقاومة الرجعية والاستعمار.. وأن هناك أيضا مجموعة حول عبدالناصر ليست على المستوى ذاته من الطموحات.. وبالتالى أخذنا بالرأى القائل بأن الاندماج فى سلطة عبدالناصر سيعجل بالتغيير المنشود فى المجتمع ويحمى عبدالناصر من حكاية التجربة والخطأ التى كانت وراء الكثير من تصرفاته.. ولعلنا اعتقدنا أننا قد نوفر بوصلة لحركته.. لم يكن انضمامى

السلطة قفزة فردية إلى حضن النظام.. ولكنى أيضاً كنت على إيمان بأننى يجب أن ألتصق بسلطة عبدالناصر ولكن بحذر.. لأننى بالتأكيد كنت أتنازل عن أشياء ولكن فى سبيل أشياء أكبر.. وكنت أقول إن المبدأ الأكبر قد يَجُبّ الاختلافات الفرعية.والحقيقة أن الحوار بين عبدالناصر والشيوعيين لم يتوقف أبداً.. وقد لعب أحمد حمروش وأحمد فؤاد دورا مهما، أرسل عبدالناصر لمناقشة انضمامنا إلى التنظيم الطليعى، انعقد مؤمر عام للحزب الشيوعى بعد الإفراج.. وتم الإعلان عن حل الحزب وإعطاء سلطته لرئيسه الشاعر (كمال عبدالحليم) ليعيده فى اللحظة التى يرى أنها ضرورية لكى يعود! لم أحضر المؤتمر.. ولكننى كنت مع هذه الاتجاه.. فى المقابل فإن سلطة عبدالناصر كانت تنتقى كُلّا منا فرديا عكس تفكيرنا نحن فى التحاقنا بنظام الحكم كتنظيم!! من ناحية أخرى قد تم ضمى لمجموعة خاصة بالسيد سامى شرف.. وأتذكر أننى كنت أكتب تقارير تحليلية نقدية عن الأوضاع الاقتصادية والاجتاعية والسياسية وكانت تصل إلى عبدالناصر.. وحدث أن علق عبدالناصر على تقاريرى قائلا: هذا الرجل يصلح أن يكون فى الأمانة العامة للتنظيم الطليعى (القيادة الرئيسية) والتى كانت تضم على صبرى وشعراوى جمعة ومحمد فايق وسعد زايد وحلمى السعيد ومحمد عروق وآخرين.. كان للأستاذ محمد حسنين هيكل مجموعته ا لخاصة ورفض أن يكون للتنظيم الطليعى لجنة فى الأهرام ولكنها تشكلت سرا بدون معرفته وكان على رأسها الدكتور رفعت السعيد والصحفية أمينة شفيق.

ويستطرد محمود أمين العالم: هذا على المستوى السياسى أما على المستوى العملى.. فقد دعانى أحمد بهاء الدين للكتابة والعمل فى مجلة المصور وبالفعل بدأت الكتابة فى هذه المجلة العريقة بالإضافة إلى مقال فى مجلة الهلال العريقة أيضا التى رأست تحريرها في وقت لاحق - بالإضافة إلى ذلك فقد شغلت بعض المواقع المؤثرة على خريطة العمل الثقافى العام.. فقد اتصل بى ذات يوم الدكتور ثروت عكاشة وطلب منى أن أستأذن بهاء في العمل معه للإشراف على هيئة الكتاب.. وبعد فترة توليت رئاسة مجلس إدارة الهيئة القومية للتوزيع والنشر.. وللحقيقة تجربة العمل مع الدكتور ثروت عكاشة كانت بالغة الثراء والأهمية..أتذكر أننا كنا نجتمع أسبوعيا : نجيب محفوظ وصلاح أبو سيف وعلى الراعى وآخرين.. يطرح كل منا أفكاره.. ثم نتناقش حتى نتفق على الخطوط العامة - ظلت هذه التجربة قائمة وظللت أسعى لطرح رؤيتى للعمل الثقافى وأحاول تنفيذها حتى اتصل بى مكتب عبدالناصر وطلب منى السفر يوم ٢ يونيو ٦٧ إلى باريس لأن هناك إشارات أو ملامح لعدوان إسرائيلى مرتقب بعد يومين وأن أحمد بهاء الدين ولطفى الخولى سيلحقان بى هناك بغرض التنسيق للتعامل مع الرأى العام العالمى وحشده لصالح مصر سافرت ولم أشاهد شيئا هناك سوى الهزيمة وآثارها.. واستمعنا فى السفارة المصرية هناك إلى خطاب الرئيس الذى يتضمن الاعتراف المؤلم بالمأساة. وأتذكر أننا شاركنا فى قلب باريس فى

مظاهرات ضد تنحى عبدالناصر وأتذكر أننى بعد عودتى من فرنسا انتقلت لأتولى مسئولية هيئة المسرح بعد خلاف د. على الراعى مع د. ثروت عكاشة وهناك اتصل بى بعد فترة مكتب سامى شرف وطلبنى للقاء الرئيس.. وكان لقاء طويلا مليئا بالشجن.. فى منتصفه أخبرنى برغبته فى أن أتولى مسئولية أخبار اليوم.

وعاظ السلاطين

* مثقف مثلك بدأ بنقد الواقع العام.. والواقع الثقافى.. فلقد أصدرت عام ١٩٥٤ كتابا بالاشتراك مع د. عبدالعظيم أنيس.. تعلن فيه التمرد على سلطة طه حسين الأدبية.. كيف تغيرت أنت بعد أن أصبحت جزءا من السلطة السياسية بصراحة ماذا فقدت وماذا اكتسبت؟

** عندما تحولنا نحو عبدالناصر كان ذلك يتم تحت!شعار المساندة النقدية لا الاندماج. وأؤكد لك أهنى طوال وجودى على خريطة العمل الرسمى احتفظت لنفسى بالحق فى المساندة بروح النقد واحتفظت باستقمال عقلى.. أؤكد لك أننى لا أغالى.. وأبرهن على رلك ببعض الأمثلة: ففى أثناء وجودى فى أخبار اليوم كرئيس مجلس إدارة فى أوائل عام ١٩٨٦ تمت مصادرة أخبار اليوم وطلب منى تغيير مقالى بآخر.. فأرفض وأعود إلى بيتى.. ويتم الاعتذار لى ثم سرعان ما يتبنى عبدالناصر أفكار هذا المقال فى اجتماع عام. ويحدث خلاف آخر عندما يكتب محمد حسنين هيكل عن المجتمع المفتوح ويتبنى الرئيس عبدالناصر أفكاره.. فأكتب مقالا يعترض على هذه الرؤة وأقول إن هذا كلام معروف لكاتب معين يرفض مفهوم التاريخ والتقدم وهو ضد فكرة أى نوع من التخطيط.. فتبنى عبدالناصر رؤيتى وقال أنا لا أقصد بالمجتمع المفتوح المعنى الذى قاله أحد الكتاب ولكنى أقصد المجتمع الثورى المفتوح وما عارضته أنا المجتمع الرأسمالى المفتوح.

فى مرة أخرى انتقدت الاتحاد الاشتراكى فاتصل بى سامى شرف يقول لى أرجوك أن تكتب مقالا آخر لأننى أصدرت أوامر للبوليس على طول خط السكة الحديد من الجيزة للصعيد لجمع النسخ التى تم شحنها فاعترضت وقلت له إننى لن أكتب مقالا آخرا! وغادرت مكتبى وصدرت أخبار اليوم بمقال آخر لا أعرف من كتبه. ورفضت أنا التعاون على هذا الأساس.. فتم الاعتذار لى من مكتب عبدالناصر - أؤكد لك أننى كنت نفسى.

* تبدو علاقتك بالسلطة أحيانا نموذجاً لموضوع تكلم عنه الكثيرون وظل موضع تساؤل دائم سواء فى الدراسات الأكاديمية أو الأحاديث الثقافية.. هناك شعور بأن المثقف المصرى جسد علاقة التبعية والتبرير وليس علاقة الاستقلال والنقد.. فأحيانا يبدو وكأن جيلك الذى قاد قطار الثقافة منذ نصف قرن قد دشن ميلاد المثقف الموظف؟

** شكليا.. كلامك صحيح.. بالنسبة لى شخصيا أنا رجل سياسى كان عضوا فى حزب

شارك فى حله يتحالف مع سلطة جديدة تغير مصر فى اتجاه اشتراكى إذن فأنا أختلف مع أى موظف يعمل بالثقافة - ثم لا تظلمنا وتنسى أننا انضممنا لنظام عبدالناصر بشروط تستهدف تغيير الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والوطنية. وأنا عملت فى مجال الثقافة أساسا ولم أدخل فى مجالات سياسية محضة.. لم أكن موظفا داخل سلطة.. لكنى كُنت متحالف أيدلوجيا مع سلطة أسعى لتنمية قدراتها على الفعل لذلك عندما وصل الخلاف إلى درجة معينة.. فإن السادات عندما طلب منى ترك أخبار اليوم والبقاء فى المنزل.. فعلت بعد أن أدركت صعوبة الاستمرار وأنه قرار من عبدالناصر نفسه.

لم أكن موظفا يعمل بالثقافة. ويكفى أن أخبرك أنه بعد هزيمة ٦٧ تمت إعادة تكوين الحزب الشيوعى المصرى فى سرية كاملة ولم أكن أعتبر ذلك خيانة لعبدالناصر.. لأن خطئى أننى تصورت أنه يمكن تغيير مصر وأنا جزء من القمة أو داخل سلطة عبدالناصر.

أنا أفرق كذلك بين السلطة.. والدولة - الدولة هى مصر من الفراعنة حتى الآن.. أما السلطة فهى التى يتم تداولها وتتغير من مرحلة إلى أخرى. وأنا أكون فى مرحلة ضد السلطة فهذا لا يعنى أننى ضد الدولة. وأى مثقف قد يكون داخل السلطة أو يكون خارجها المهم موقف الإنسان. من ناحية أخرى.. كانت هناك ثقافة مهيمنة - دائما - وأخرى معارضة مثل أيام السادات أما بالنسبة لموقفى تحديدا فيمكن أن تقول إنه كانت هناك ثقافة مهيمنة وأخرى متحالفة.. طبعا أتفق معك من أنه كان هناك وعاظ سلاطين.. وهناك من غيّروا جلودهم مع كل نظام حكم وهؤلاء ليسوا مثقفين بالمعنى الحقيقى.. إنهم جزء من ثقافة السلطة - كل سلطة - وليسوا تعبيرا عن سلطة الثقافة.. مثلا.. أنا.. اليوم مسئول لجنة الفلسفة فى المجلس الاعلى للثقافة وهو جزء من وزارة الثقافة.. وأعددنا مؤخرا مجلة «الفلسفة والعصر» لم يقرأ جابر عصفور سطرا منها أو يفرض شيئا.. والأمر نفسه وزير الثقافة.. من ناحية أخرى كافحنا داخل اللجنة من أجل تطوير تدريس الفلسفة فى مصر.. حيث تقرر تدريس الفلسفة والمنطق والفكر العلمى من الصف الأول الثانوى وإجباريا - لم يراجعنى فى ذلك أحد.. وأنا هنا - كمثقف - أخدم دولة مصر.. ولا أشعر بإحساس التابع أو شعور الموظف، أنا فعلا.. ابن الدولة المصرية.. ابن القومية المصرية.. ابن الشعب المصري.. ابن الأمة العربية، وكل ممارساتى تنطلق من هذه الأرضية.. و لو شعرت بعدم قدرتى على خدمة وطنى كمثقف مستقل.. وأنه ليس أمامى سوى فرصة الموظف التابع سوف أستقيل.

* فى «أخبار اليوم».. فشلت.. لأن تجربتك كانت تجسيداً لفكرة أصحاب الثقة كبديل لأهل الكفاءة ومن جانب آخر.. لأنه يبدو أن الحديث عن الديمقراطية يختلف كثيرا عن ممارستها تجاه الخصوم فى موقع العمل؟

** الصحافة ليست مهنة إنها مهمة.. ولست أنا الأيديولوجى الوحيد الذى تولى مهمة صحفية.. أتحدى أن يثبت أحد أننى ساهمت فى انتصار اتجاه معين فى أخبار اليوم.. لقد احتفظت بالتوجه العام للسلطة آنذاك فى طريق التنمية والوحدة والاستقلال.. لم أفصل أحدا.. وأتذكر أن أنيس منصور كان يكتب ضد اليهود باستمرار وكنت أعترض على ذلك لأننا لسنا ضد اليهود ولكننا ضد الصهيانية وغيرهم.. والذين كانوا يحاربوننى حاولت أن أخلق حوارا معهم، لم تصبح أخبار اليوم جريدة حمراء.. قدمت الشيخ إمام كظاهرة غنائية جديدة فى حياة المصريين..عينت جمال الغيطاني واختلفت مع هيكل الذى اعتبرت تأثيره غير إيجابى على عبدالناصر وكان أقرب إلى الجانب التوفيقى فى النظام لذلك ساند السادات فى انقلابه على عبدالناصر.

* لن تجذبنى قصة الصراع على السلطة فى ١٥ مايو ١٩٧١.. وانتصار الرئيس السادات على خصومه.. ولن أناقش رؤيتك لموقف محمد حسنين هيكل.. ولكن فقط أحب أن أشير إلى أن رأيك يظل رأيا خاصا جدا لمثقف ارتبط بأكثر المجموعات خصومة لقصة الديمقراطية وحقوق الإنسان فى كل حكم عبدالناصر (مجموعة على صبرى – وسامى شرف) ولولا هذه الحقيقة ما اختفت هذه المجموعة القومية مثل (قبض الريح) بينما وقف الناس – فى أضعف الصور – يشاهدون غيابهم بدون نظرة وداع!!

** لا..فإن كلامك هذا يستحق التعليق.. وبداية فإن رؤيتك تتوقف على تقييمك لمسألة الديمقراطية أيام عبدالناصر.. ففى رأيى أنه كانت هناك ديمقراطية اجتماعية أيام عبدالناصر حققتها إنجازاته الاقتصادية وتغيير طبيعة القوى الاقتصادية.. وعندما تكون لدينا تلك النهضة المسرحية والثقافية فى الستينيات.. فإن ذلك يعنى وجود ديمقراطية.. طبعا كانت هناك وصاية مفروضة على العمل العام ولكن أعرف عن يقين أنه كانت هناك نوايا لعبدالناصر لتغيير الميثاق نحو مزيد من الديمقراطية.. ولا أنسى أبدا أنها كانت ثورة بالجيش.. واسمح لى.. إنه لا يمكن الاكتفاء بقضية الديمقراطية كمعيار وحيد للحكم على نظام..إنها عوامل أو معايير عديدة تتكامل معا، وأعترف أيضا أن القوى السياسية كافة التى كانت موجودة والتى أبدت المعارضة للثورة ولدور الجيش قد أدت بهذه الثورة إلى طريقها غير الديمقراطى.. لقد اتهمناها منذ البداية بأنها أمريكية.. وأنها تبيع مصر.. ولكن نظام عبدالناصر استطاع أن يتغلب علينا.. ويواصل طريقه بدوننا فأصبح جهاز الدولة هو وسيلته وبعد سنوات عديدة.. تم ضرب النظام الذى تصفونه بأنه غير ديمقراطي.. وجاء نظام ليبرالى جدا حقق صلحا مع إسرائيل، ففكك الأبنية الداخلية فى المجتمع.. وفى تقديرى أننا لم نتقدم عما كان عليه الأمر.. بل تخلفنا عن مفهوم التنمية الشاملة..

* مات عبدالناصر وأنت مسئول عن المسرح.. ووطد الرئيس السادات حكمه وأنت سجين!!.. كيف حدث ذلك وأنت من أوائل الذين عرفوا السادات من الخمسينيات؟

** كانت تربطنى بالفعل بالرئيس السادات علاقة طيبة..أسريا.. ومعنا الدكتور حمدى السيد وسامى الدروبى - سفير سوريا فى مصر ثم سفير الجمهورية العربية المتحدة (بعد الوحدة) فى الهند.. كنا نلتقى عائليا كثيرا وكان السادات يستدعينا كثيرا وهو رئيس مجلس الأمة لمناقشة بعض المسائل طبقا لتوجيهات عبدالناصر (اذهب وناقش محمود العالم فى الموضوع ده).. كنا نتفق وكثيرا نختلف.. ولقد كنت مسئولا عن النشرة الداخلية للتنظيم الطليعى وكان لدىَّ مكتة فى مجلس قيادة الثورة.. بعد موت عبدالناصر.. حدثت مفارقة غريبة يوم الجنازة.. فقد كان فى مدخل امجلس قيادة الثورة مكان يضم فراشين.. فى هذا اليوم الصعب نام فى أحدهما على صبرى وفى الآخر السادات.. وكلاهما مرهق مريض!! كان مظهرا رمزيا للاثنين المؤهلين والمتصارعين على تولى قيادة الأمورً. فى داخل الاتحاد الاشتراكى كان هناك اتجاه عام ضد السادات.. وأتذكر أننى فى هذه الأيام استرجعت لقائى مع عبدالناصر قبل أن أتولى مسئولية أخبار اليوم.. وقتها قال لى إن لديه مشكلة محورها الأول على صبرى والثانى زكريا محيى الدين.. الأول يطلب الاستمرار فى عمليات التنمية والثانى يطلب إرضاء الطبقة الوسطى بتخفيض الجمارك.. بما يسمح بالاستيراد.. ولا ضرورة لأن نواصل التنمية بنفس الأسلوب. كان ردى أن الرشوة لا تغير الواقع.. وأن الأجدر بأن نمنحهم ونقترب منهم، هم العمال والفلاحون والمثقفون.. إنهم قوى المستقبل المنتجة.. ولكنى خرجت من عنده لأجد القوانين تعد طبقا لوجهة نظر زكريا محيى الدين..

ولعلى أذكر ما قلته للرئيس عبدالناصر عندما سألنى ذات يومك ما رأيك فى على صبرى؟ أجبته إنه رجل دولة ولديه خبرة واسعة. ولكنى أستطيع أيضا أن أقول إنه غير جماهيرى! لذلك أزعم أن عبدالناصر عندما اختار السادات نائبا له كان بسبب مقدرة السادات على مخاطبة الناس.. ولكن فى ١٥ مايو كان اختيارى لعلى صبرى لأنه الأكفأ فى تحقيق خطة تنمية شاملة. ومثل هذه الخطة هى عندي المعيار والهدف.. وأقول لك إنه بعد وفاة عبدالناصر كانت السلطة فى يد أمانة التنظيم الطليعي.. وقد رشح على صبرى ولكنه رفض بالإضافة إلى أن اختيار عبدالناصر للسادات كنائب دفع بأنور السادات بقوة إلى الشرعية.

مصطفى محمود .. صديقى

* غيّر الكثير من أصدقائك طريقهم.. عادوا للثوابت أو الجذور الحقيقية للأمة.. (الإسلام) وظللت أنت هناك.. فى الوقت نفسه يتساءل البعض بعد ما كتبته عن (نصر حامد أبو زيد).. لماذا يملك بعضنا جرأة مبالغة نحو المقدس فى حياتنا؟.. لماذا يصدمون الناس فى عواطفهم

الدينية؟

** أنا لا أصدم الناس.. أنا أكتب بود وحب عما آراه صحيحا وعما أقتنع به.. مثلا.. مصطفى محمود صديقى وقد دافعت فى منتصف الخمسينيات عن كتابه (الله والشيطان) وأرى أنه فنان صاحب خيال وجرأة.. غاص فى بحار، وسعى فى طريق، ولا أملك سوى تقديره.. تغير أيضا مع الأيام عادل حسين.. والرفيق محمد عمارة الذى أصبح الشيخ الدكتور محمد عمارة.. احترمت تجربتهم.ولكنى فى المقابل صاحب تجربة روحية وتجربة خاصة فى الصوفية.. وطريقى أن أكون بين الناس لذلك دافعت عن نصر حامد أبو زيد وعن آخرين ليس جرأة على المقدس.. لا.. لأننى أرى أن المقدس ينبغى أن يتحول إلى نسبى بالنسبة لحياة الناس - المقدس هو الذى يتحول إلى مصالح العباد ويتطور مع مصالحهم ويختلف باختلاف المكان والزمان وتعمل عقولنا من أجل تعمير الحياة.. ولذلك لا يمكن أن يكمل الدين بمجرد القراءة الظاهرية لآيات كتاب الله - الدين يتجدد بالعلم وبالمعرفة.. بالنضال من أجل مصالحهم وتطوير الحياة إلى أسعد وأعدل.. الهدف فى الدين هو مقاصد الشرع.. أصدقاء الأمس الذين تحولوا إلى أن أصبحوا رموزا فى التيار الدينى لا أتهمهم بالانتهازية.. ولاسيما أن هناك مفكرا فاضلا.. كان قريبا جدا من اليسار المصرى لكنه اختار موقعه فى قلب الحركة الإسلامية إنه طارق البشرى.. إننى أحمل له احتراما كبيرا.. وبالمناسبة إننى أعتبر نفسى استمرارا لأبى هذا الشيخ المعمم ولكن بوسائل علمية وبلغة العصر.

لم تبشروا بجديد

* لك حوارات خصبة مع أساتذة شغلوا العقول بما بشروا به وتحديدا الدكتور زكى نجيب محمود ووضعيته المنطقية.. وعبدالرحمن بدوى والوجودية.. وأنت بماركسيتك.. كلكم جئتم عابرين من بحار الفكر الغربى.. لم تبشروا بجديد.. ولكنكم حملتم لنا ما كان جديدا فى الغرب.. أى أنكم كنتم تقليدا للآخر المتقدم.. لذلك لا نجد تلاميذ يكملون الطريق - أى طريق - وبالتالى فإننا مع نهاية القرن العشرين لابد أن نعترف بأننا كنا صدى لهم رغم أننا نتوهم أننا كنا نواجههم؟

** أنا معك.. ولا أستطيع إلا أن أقول إن أغلب أفكارنا الرئيسية فى دلالتها العامة.. هى أفكار لا أقول أنها مستوردة ولكنها فى دلالتها العامة.

عندنا مفكرون ولكن ليس لدينا فلاسفة! أغلب ما كتبه عبدالرحمن بدوى تحقيق لكتب التراث ولكن ليس لديه نسق فكرى واضح

نبتها الأساسى فى الغرب.. ولكن الأفكار عندما تصل إلى مستوى نظرى لا أنسبها إلى غرب أو شرق!.. فالكهرباء التى تضىء منازلنا وحياتنا هى فكر غربى لا أقترب منه؟.. كذلك

الأدب عندما يرتفع مستواه عاليا يصبح أدبا إنسانيا.. النقد الأدبى عندما يصبح نظرية فى النقد الأدبى يصبح ملكا للثقافة الإنسانية.. البنيوية فرنسية لأنها نشأت هناك ولكنها كنظرية لا تنتسب إلى فرنسا بل أصبحت منهجا عاما.. وهكذا.. من ناحية أخرى وبدون تعصب أحب أن أقول لك إن الفكر الغربى العقلانى هو ثمرة تلاحقه وتفاعله مع الفكر العربى الإنساني - وحتى القرن السابع عشر الميلادى كان ابن سينا يدرس هناك كطبيب كما أن فكر ابن رشد هو الذى ساعد فى تطوير الفكر العلمى فى أوروبا، التراث الغربى هو ثمرة التراث العربى الإسلامى، النظرية الذرية ليبنتز هى ثمرة النظرية الذرية عند الأشاعرة.. بل إننى أزعم أن الحركة الصوفية والإشراقية هى أحد جذور الفكر الوجودى وبالتالى فإنه عند مستوى معين من مستويات العلم والمعرفة يتسع المشترك الإنسانى والمهم أن نجعل ما نقتبس منه جزءاً من بيئتنا وثقافتنا.

* رغم كثرة الحديث عن الفكر والفلسفة، فإن الشكوك كثيرة فى أن يكون لدينا فلاسفة.. فالترجمة شيء.. ونقل أفكار الآخرين شيء.. ولكن الجهد النظرى الذى يقدم رؤية شاملة شيء آخر؟

** أستطيع أن أقول - مع كثير من التجاوز - إن عبدالرحمن بدوى كانت له هذه الرؤية الشاملة فى مرحلة من المراحل، ففى كتابه «الزمان الوجودى» إضافات معينة لا يمكن تجاهلها.. لكنه فى هذا الكتاب خان الوجودية، وأتذكر أننى بعد قراءة الكتاب ذهبت مع صديق إلى منزله لأناقشه بعد أن اهمناه بأنه حوّل الوجودية إلى مقولات عقلية.. ومن حسن حظنا أنه لم يقابلنا.. فرجعت أبكى لدى أحد الأصدقاء.. وعلى أية حال.. حتى لا يصبح حوارى كله معك وكأننا نقيضان لا يلتقيان سوف أقول لك لدينا مفكرون وليس عندنا فلاسفة.

السياسة تسرق الفلسفة

* بعض محبيك يرون أن السياسة والأحزب قد سرقت جهدك الحقيقى وحرمتك من أن تترك ميراثا نظريا فى مجال الفكر الفلسفى كنت مرشحا له لقد جنت عليك السياسة.. وعفوا - كان هناك صوت ولكن لم يكن هناك طحين؟

** لا يأس.. كان هذا رأى الدكتور عبدالرحمن بدوى أيضا.. كان يصفنى بأننى من تلاميذه الجيدين ولكن السياسة أفسدته.. ولويس عوض كان ينصحنى دائما (يا أخى سيبك من السياسة واكتب فى النقد الأدبى.. أنا شخصيا أجد فى حياتى ثلاثة أبعاد: الأدب عامة (ولدى ديوانان شعريان)، والفكر والفلسفة بشكل عام، والسياسة - وأنا موزع بين هذه الأمور الثلاثة.. وقد يغلب أحدهم على الآخر.. ولكن صدقنى أن لا أستطيع أن أرى السياسة بدون رؤية علمية وفكرية، ولا أستطيع أن أرى الفكر بدون عين سياسية، ولو تراجعت عن السياسة فإننى أخون فكرى، ولو وقفت عند حدود الفكر لكى أقدم نظرية كاملة لن أكون مفكراً جيداً..

عبدالرحمن بدوى تفرغ للفكر.. لكنك لا تستطيع أن تأخذ منه نسقا فكريا واضحا.. إنه الآن يقوم بأبحاث ذات طابع تجريدى بحت.. وأغلب كتبه - مع احترامى له - هى تحقيق للتراث.. ولا نستطيع أن نشير لما قدمه فى الوجودية على أنه إنجاز بعد أن انتهت فى العالم كله.

* مثلما كانت جناية السياسة.. كانت جناية الأيديولوجيا.. فهناك من يعتب قائلا إنك كنت شديد المجاملة للبعض ليس لإبداعهم ومكانتهم ولكن لانتمائهم لفكرك السياسى.. ويرون فيما كتبت عن الكاتب الروائى (صنع الله إبراهيم) الدليل على ذلك؟

** أولا إننى أرى أن صنع الله إبراهيم أبدع وأشرف وأهم من كثير من الروائيين، وكتابى عنه كان ثمرة محاضرة ألقيتها فى باريس.. لكن لى عشرات المقالات عن آخرين وليس من الضرورى أن يكونوا معى فى الرأى.. هناك من اتفقت معهم واختلفت معهم فى الوقت نفسه تحت مظلة الاحترام مثل صلاح عبدالصبور وأحمد عبدالمعطى حجازى.. إننى أجامل إنسانيا لكن لا أجامل فى السياسة أو الثقافة أو العلم.. صدقنى.. أنا أتعامل باحترام مع جهد المبدع وأنا أقف مع كل عمل أدبى وأقول له: تكلم أنت - لذلك عندما أقول مثلا إن الكاتب الروائى محمد ناجى من الروائيين الآن فأنا أقصد ذلك تماما وعندما أقول أن محمد البساطى من أروع الروائيين فى حياتنا الإبداعية فأنا أقصد ذلك تماما كذلك وصدقنى فى ذلك.. وبالمناسبة.. سؤالك السابق مازال عالقا فى عقلى..دعنى أزعم بتواضع كامل أن خلاصة بعض كتبى الفكرية تشكل نسقا فكريا معينا - وأقول لك إننى منذ أنهيت رسالتى للماجستير عن نظرية المصادفة فإننى حتى الآن أجمع مراجع ونقاطا من أجل كتاب يلخص تجربتى الفكرية الكاملة التى يتداخل فيها الجانب السياسى والفكرى والنقدى أو الجمالى، كان لدى مشروع عن العلاقة بين الضرورة والحرية، لكنه أجهض بطردى من الجامعة فى الخمسينيات، لقد نقدت معظم المفكرين البارزين العرب وقدمت البديل.. من عبدالله العروى إلى زكى نجيب محمود إلى محمد عابد الجابرى.. ولكنها بدائل تقدم نسقا كاملا.. وأختلف معه.

مرة أخرى.. أؤكد لك أن المقدمة التى كتبتها لكتاب ثلاثية الرفض والهزيمة لـ (صنع الله إبراهيم) إضافة تجديدية.. لى إضافة مميزة فى كتاب (فى الرواية العربية) يشمل رؤية هامة تضيف الكثير لكتاب (فى الثقافة).. المشكلة الى قد لا يعرفها الكثيرون أن لدى الكثير المبعثر.. لدى كتاب نقدى كامل عن الشعر لم يُنشر بعد.. أنا أعترف بأننى (مُقل) فى كتابتى النقدية ولاسيما أننى أثناء وجودى خارج مصر شعرت أحيانا أن معركة الفكر النظرى تحتاج كافة جهودى، لكنى أعرف أيضا أهمية وقصور كتاب (فى الثقافة المصرية) الذى بلور تلك المعركة النقدية الشهيرة عندما كتب العميد د. طه حسين فى جريدة الجمهورية يقول إن الأدب ألفاظ ومعان فكتبنا عبدالعظيم أنيس وأنا بياناً إلى الدكتور طه حسين: الأدب ليس ألفاظا ومعانى

بل صياغة ومضمون، وبدأت معركة ثقافية معه ومع العقاد.. كانت ردوده جميلة.. فكتب يعلق علينا «يوناني فلا يُقرأ».. أما العقاد فكان يقول: أنا لا أناقشهما وإنما أضبطهما.. إنهما شيوعيان!! فرق كبير.

* الحب.. والزواج.. محاولة جميلة للاصطياد مهما كانت النتائج.. كيف سقطت في الحب.. وكيف استسلمت داخل شبكة الزواج.. وهل يبقى الحزن أم الفرح.. من الذكريات؟

* الحب أتذكره بحزن.. والزواج باعتذار عما سببته من ألم لزوجتي.. أول قصة حب في حياتي بدأت في مرحلة الطفولة واستمرت مع فتاة من الأقرباء ابنة خالي وتم تتوجيها بـ (الخطوبة) بعد تخرجي.وكنت أعيش في ذلك الزمان أحلم بالفلسفة.. وعصر جديد ووطن حر ديمقراطي.. وسعيت في الأرض من أجل هذا.. ويبدو أنني انشغلت عن العروس فلم أستيقظ إلا وأبوها قد زوجها لآخر.. لن أشرح تفاصيل لأن الأبطال مازالوا على قيد الحياة.. لكن في هذه القصة عرفت معنى أن يكون الحزن العميق.. وكيف أن الحزن يمكن أن يصبح مثل شبكة الصياد التي تلتقط الفريسة وتفترسها افتراسا!! ولكن الحياة تمنح الإنسان فرصا باستمرار لكي يبدأ من جديد وهذا ما حدث من خلال جمعية (الجرامفون) الموسيقية التي كونها لويس عوض وأنا في كلية الآداب والتي نقلتها إلى قسم الجغرافيا في الكلية نفسها.. وكنت وقتها أعمل أيضا موظفا بمكتبة القسم فتصادف أن جاءت للمكتبة فتاة اسمها سميرة الكيلاني لتستعير كتابا.. وسرعان ما بدأت تحضر اللقاءات الموسيقية للجمعية حيث كنت أقوم بتحليل الموسيقى السيمفونية وكان يحضر أيضا فؤاد زكريا.. حدث إعجاب بيننا.. فقدمت لها مجلة «علم النفس» كتبت فيها مقالا فعادت في اليوم التالي ومعها مجلة علم نفس إنجليزية وأوضحت أن طريقتي في الكتابة (صعبة)!! توثقت علاقتنا الثقافية وكنت وقتها أدرس للماجستير بينما مازالت هي طالبة.. ولكن ازدياد المشترك الثقافي بيننا ساعد على التقريب العاطفي والوجداني حتى وصلنا إلى مرحلة (الحب).. طبعا.. دفعت ثمن زواجها مني بالمعاناة الشديدة بسبب دخولي السجن المتكرر.وبلغت الذروة بضياع مستقبلها الوظيفي في التليفزيون بعد أن فصلها السادات في أحداث ١٥ مايو ١٩٧١ بسبب عضويتها في التنظيم الطليعي، والمفارقة الأساسية أنها لم تكن لها رغبة في ذلك.. لقد فرض عليها الأمر!! والمفارقة الأخرى أن ابنتنا (شهرت) سارت على الدرب حى سُجنت في أحداث ١٨ و١٩ يناير ١٩٧٧.. ورغم أن القضاء أصدر حكمه الشهير بالبراءة فإن السادات رفض ذلك.. ولم يُغلق هذا الملف إلا بمجيء الرئيس مبارك.

و (شهرت) كانت دارسة في كلية العلوم دارسة للمنطق الرياضي في الخارج.. وحاصلة على الدكتوراة في نظرية الجهات عند ابن سينا في المنطق.

أحزان وأفراح.. أزمات وانفراجات لكننى أقاوم ولم أستسلم أبدا للاصطياد حتى لو كان الصياد كتلة حزن مفاجئة.

* هل وقع محمود أمين العالم فى محاولة اصطياد على الطريقة اليهودية؟.. سبب السؤال أعرف أن هناك (رفاقا) لك كانت قصص حبهم الأولى ليهوديات؟.. وأعرف آخرين تتلمذوا على أيدى اليهود سياسيا.. حتى الحركة الماركسية فى مصر حولها كلام كثير بالنسبة لعلاقتها باليهود؟

** ملاحظة: لم تختف الابتسامة من ملامح محمود أمين العالم طوال اللقاء الذى استمر بيننا ساعات سوى مرتين.. كانت هذه أولهما.. انقبض ونفى واستغرب أن تأتى تلك الصورة إلى ذهنى ولم يهدأ إلا بعد شرح طويل كان أقرب للتسوية النفسية بيننا.. وبعدها عاد للحوار بسماحته الجميلة: المشكلة أن الكلام هذه الأيام غريب ومغرض حول علاقة الماركسيين لا باليهود فى مصر بل بإسرائيل ولعل ذلك سبب توترى للبرهة الأولى ولكنى أتذكر الآن أنه خلال قصة حبى الأول كانت الوسيط بينى وبين خطيبتى جارة يهودية صغيرة كانت تعيش فى بيت خالى فى شارع الجيش فى الأربعينيات.. كان اسمها (إستر) وكانت هى التى تحاول أن تخفف حدة المشاكل البريئة التى تندلع بينى وبين خطيبتى، بالنسبة لبقية كلامك.. فأنا أقول لك أننى مع شهدى عطية (يرحمه الله) قمنا بفصل هنرى كورييل من الحزب الشيوعى المصري.. ليس لأنه يهودي.. بل لأنه أجنبى وأتصور أننا لسنا ضد اليهود كديانة.. بل ضد الصهيونية.

* بمناسبة الزواج.. ماذا جاء بابن الدرب الأحمر ليعيش فى جاردن سيتى؟

** فى بداية زواجنا.. أقمت فى شقة أختى بالمنيل حتى قابلت بالمصادفة إنسانا شديد اللطف والذوق يعمل فى المقاولات.. وكان على مودة مع د. لويس عوض.. فى هذا اللقاء أبدى إعجابه بما أكتب وبنشاطى، وتشجيعاً منه عرض علىّ أن أسكن فى شقة فى إحدى عماراته لا يحتاجها بل يستخدمها كمخزن مؤقت.. وكانت شقة من حجرتين فى إحدى عماراته بجاردن سيتى.. من هذه الشقة دخلت السجن عام ١٩٦٠ وبعد الإفراج عنى عام ١٩٦٤.. وجدت زوجتى قد تركت تلك الشقة لتعيش مع أمها التى كانت تسكن فى جاردن سيتى وكان علينا أن نبحث عن سكن مستقل وكان الأمر صعباً وهنا تقدم أحد أقرباء زوجتى فعرض علينا متفضلا شقة فى جاردن سيتى كان يستخدمها مخزنا وكان عرضا سخيا وهى هذه الشقة التى نعيش فيها حتى اليوم وكانت أيضا مخزنا لبضائعه فى مجال الأخشاب بإيجار ١٣ جنيها.. لكن أنا مازلت حتى اليوم ابن الدرب الأحمر.

* عندما يمنح الله الإنسان رحلة عمر طويلة – أمد الله فى عمرك – ومليئة بالكثير من الحركة بين الناس وفى مواقع مختلفة.. فإن هذا الإنسان قد يقع فريسة الخيانة حينا.. أو فريسة الوهم فى أحيان أخرى.. ولأننا جعلنا (اصطياد محمود العالم) موضوعنا فى هذه

الحلقة فإن الاعتراف - كما يقول علماء النفس أفضل سبل التحرر اليس كذلك؟.. بالمناسبة أصدقاء لك حدثوني عن محبتك لذكرى المذيع المشهور «عباس أحمد».. هل هذا حقيقي؟

** جميل أسلوب الغواية الذي تفرش به أنت الطريق أمامي.. سياسية متفرعة واجهت مشاكل شبابية..دعنا نمسك بالوجه الجميل للحياة.. الواقع أن من أعظم عطايا الحياة بعد الحب هي الصداقة. ما أكثر وأعمق الصداقة في حياتي النظر لعطائه برضا؟.. جاك بيرك المستشرق الفرنسي.. جاك لانج وزير الثقافة الفرنسي الذي زار معي مسرح البالون وفوجيء بمودة الناس لي ليس لأنني صاحب سلطة بل صاحب محبة ثم اتصل في اليوم التالي ففوجئ بأنني رهن الاعتقال عام ١٩٧١.. فتأثر وطلب من زوجتي المشورة ماذا يفعل لكي يساعد!! وظلت صداقتنا بعد ذلك.

أستاذي وعميدي طه حسين كنت قريبا منه الشهور الأخيرة قبل وفاته أقرأ له أحدث ما ينشر، صديق عمري عبدالعظيم أنيس كتبنا معا.. وفكرنا سويا وسجنًا ومازلنا نشعر بالدفء الإنساني معا.. صديقي أنيس منصور الذي يعجبني أسلوبه وأختلف مع أفكاره والذي يذكرني دائما بكتاب ألفناه سويا عندما كنا في قسم الفلسفة.. وهناك أسعد حسن خليل، وبدر أديب المبدع الذي لم ينل ما يستحق من تقدير.

هناك أيضا إنسان سبب لي الحزن لأنني اقتربت منه ولم يقترب هو أبدا مني ولغاية الآن أقترب منه رغم اختلافي معه إنه الدكتور عبدالرحمن بدوي.. لقد دخلت بسببه قسم الفلسفة.. وأحببت الوجودية في أول حياتي لأجله.. ثم اختلفت مع أفكاره ولكني مازلت أحبه.. وأقدره.. هناك أيضا صديقان ارتبطنا معا.. وكانا أسبق مني في اختيار الفكر الماركسي في الأربعينيات هما الدكتور مصطفى سويف ويوسف الشاروني وكنت وقتها أكتب الشعر.. التقينا ذات مرة معا عند عميد الأدب العربي.. أنا ألقيت قصيدة عدّل فيهاوأبدى إعجابه واستمع لنا جيدا وتحسس رائحة السياسة في كلامنا فكان جميلا وهو يبتسم بحنو ورضى ويقول: اعلموا التكتيك والاستراتيجية.

ولكن قبل هؤلاء جميعا.. صديقي الراحل.. (عباس أحمد) كان من أهم المذيعين.. تزاملنا معا في قسم الفلسفة وتصوفنا معا.. وأحببنا الحلاج معا.. وقرأنا (الزمان الوجودي) لعبد الرحمن بدوي معا وبكينا منه لأنه خان الوجودية في رأينا وهو صاحب أجمل رواية عن (المحلة الكبرى) وهي بهذا العنوان.

* في حياة كل منا وجع يصطاد الإنسان في إحدى اللحظات ورغم مرور السنين فإن رائحة هذاالوجع تختفي.. بل أستطيع أن أقول إنها تكشف جوانب في الشخصية.. بصراحة.. ما الوجع الذي يبلور هذا المعنى؟

** آه والله.. هناك وجع يكشف لك جزءا من شخصيتي.. أنا بدأت حياتي الدراسية في كُتاب الشيخ السعدني على ناصية حارة السكرية - ثم مدرسة القربية في الدرب الأحمر.. وأتذكر أنني كنت في الصف الثاني بالمدرسة الأولية.. وكان مدرس اللغة الإنجليزية الأستاذ أنيس يحبني جدا.. وأتذكر أننا كنا نجمع نقوداً للقيام برحلة ووضعناها في (حصالة) ووضعناها في (درجي) للاحتفاظ بها حتى وقت آخر..أغلقت الدرج (بقفل) صغير وبعد يومين طلب مني (الحصالة) ففتحت الدرج ولم أجد الحصالة. وأصابني الجنون وأقسمت له بأنني لم آخذ النقود لكن شعرت أنه لم يصدقني!!

اليوم بعد مرور أكثر من ٧٠ عاما على هذه الواقعة مازال عدم تصديق أنيس أفندي يجرحني..حقيقة.. (كانت هذه المرة الثانية التي أرى فيها رقرقة الدموع في عيون محمود العالم ولمحة حزن دفينة).. تربت لدى حساسية شديدة للدفاع عن نفسي..ودائماأحزن جدا من الذين يشكون في أي شيء خاص باختياري أو موقفي..دائما منذ سبعين عاما وأنا أشعر أنني في موقف الدفاع.. هذا بعد أيضا من أبعاد اصطياد الإنسان.. محاولة اصطياد كرامتي.. أن هناك محاصرة لكلمتي.. أنا كلمتي صافية.. أغلقت القفل ولكن هناك من يفتح الأبواب سرا ويسرق.. صدقني ياأنيس أفندي!

صورة أخرى.. حدثت مع تكلا أفندي في المرحلة الثانوية.. كنت ألمع التلاميذ لديه في اللغة الإنجليزية.. وذات يوم كان يسأل الفصل (محطة) يعني إيه؟.. لم يجب أحد.. نظر إليّ وطلب مني الإجابة الطبيعية. وهو واثق كل الثقة فيّ .. وفجأة تبخرت الكلمة.. الثقة الكبيرة في قدراتي كانت واضحة وحبه لي قويا.. أربكت فأجبت: (مهطة) فضربني في ذلك اليوم بقسوة متناهية بيديه وقدميه.. حزنت جدا، لقد أعتقد أنني أسخر منه ولاسيما أنه كان قصير القامة جدا.. وساهم ضحك التلاميذ في ذلك الشعور.. لكنني كنت ضحية لحظة ارتباك شلت العقل واللسان.. فضربني في صدري بعنف بالغ.. وعرفت يومها المعنى الجميل لقول الرسول الكريم (اللهم إني أشكو إليك قلة حيلتي).. وكيف أن الإنسان قد يقع مظلوما بسبب سوء فهم.. بعد عدة أيام كنت خارجا من باب مدرسة النحاسين متجها إلى بيت القاضي فشعرت بمن يلعب في (ذر الطربوش) فنظرت فوجدت تكلا أفندي يربت على كتفي وانفجرت في نفسي ينابيع فرح لا يوصف.

* أحيانا تبدو أنك تعيش في العموميات ولا ترغب في الاقتراب من التفاصيل.. ولكن ذلك لا يحميك من ضرورة الإعلان عن رأيك في مسألة الإنسان المثقف في بلادنا.. ولا يمنعك من أن تعترف لنا بأنك كنت على خطأ في الرأي في حوارك الطريف مع الفنان محمد عفيفي حول فرويد والجنس.. فها هو القرن العشرين ينتهي والعالم يعيش ثلاث قصص جنسية كبرى: الأولى موت ديانا.. قصة للعشق والحب والخيانة والمعاناة.. والثانية كلينتون ومونيكا.. قصة

الجنس ومفرداته التى يعاقب عليها قانون الذوق العام قبل قانون الإجراءات وقد باتت جزءا من ثقافة الكبار والصغار.. والثالثة الفياجرا.. المنتج الجنسى الذى يدخل به الناس القرن الجديد..؟

** بالنسبة للمعنى الأول فى وجهة نظرك - لأننى آراك تطرح رأيا مختفيا بلباقة فى شكل سؤال - فإننى اكتشفت أن الإنسان قد يكون كاتباً جيدا أو فنانا موهوبا.. ولكنه غير مثقف.. بل يعانى من التخلف الثقافى.. فى موقفه العملى.. فى جشعه.. فى سلوكه غير الأخلاقى.. أحس بمفارقة مؤلمة تجاه الفنان الجيد الذى يعانى من ضحالة الثقافة.. ليس على مستوى إبداعه.. بل قد يكون هو أدنى من هذا الإبداع.. أحيانا كثيرة.. أعيش فى العموميات والكليات حتى لا أسىء إلى الآخرين.. وصدقنى مرة أخرى.. إننى أرى كل محتويات الكوب ولكنى أعيش بالأمل.. هل تعرف أننى أدركت حجم مأساة الاتحاد السوفيتى من خلال نكتة حكتها لي مرافقتى الروسية أثناء حضورى مؤتمراً للفلسفة أيام جورباتشوف.. قالت: «دخل رجل غرفة نومه فوجد رجلا غريبا فى الفراش مع زوجته.. فأخرج مسدسه ليقتله فصرخت: حذار أن تقتله لقد رأى لينين!!!». عرفت خيبة الأمل فى التجربة.. ولكن ذلك لم يمنعنى من رؤية مآسى وآثار ومخاطر الرأسمالية العالمية. تطلعى إلى مستقبل أفضل وأعدل وأجمل للناس جميعا.

أما الجنس والتاريخ.. فهذه قضية - كان صديقى محمد عفيفى يرى أن الجنس يلعب دورا في صناعة التاريخ.. وكان ردى عليه أن التاريخ لا تتم صناعته فى غرف النوم.. ومازلت عند هذا الرأى.. قصة مونيكا - فتحت ثغرة فى جدار الفضيلة والقيم.. وأشاعت جرأة وعلمت الناس خبرات جديدة!!.. الفياجرا.. صناعة جديدة فى أسوق الرأسمالية العالمية لزيادة الثروات واتساع الأوهام ببيع السعادة الموقعة.. سوق.. ديانا .. صناعة أسطورة إعلامية مغموسة فى طبق الفضائح.. لا بأس.. لكن الأساس أنهم هناك يحكمون التاريخ.. يقودون أحداثه يصنعون وقائعه.. والآخرون محكومون بما يصنعه هؤلاء، الجنس أصبح تجارة.. فى ظل الرأسمالية العالمية المتوحشة فى ظل غياب المعانى الكلية..نحن نفتقد المعنى.

* كيف تبدو صورة الوطن العربى فى المرحلة الراهنة ؟

** عذراً إن قلت لك إنها فى أسوء حالتها تفككا وانهيارا من حيث الجانب السياسى، تزداد الفرقة بين البلاد العربية من حيث وحدة العمل الموحد، وليس أدل على ذلك من العجز عن عقد مؤتمر قمة عربى ، ومن العجز عن حماية أطفال العراق مما يعانونه من موت بطىء بسبب الحصار الأمريكى ، ومن احتلال أمريكى أساساً مدفوع الأجر يجثم على مناطق الثروات النفطية فضلاً عن استمرار الحصار على ليبيا ، والزحف عبر القدس لبعض البلاد العربية إلى الاعتراف بالدولة الصهيونية الجاثمة على أرض فلسطين والتى تبذل أبشع أشكال

المراوغة والمهانة والتوسع الاستيطانى السرطانى ، هذا إلى جانب ازدياد الهيمنة الأمريكية على مختلف البلاد العربية بمستوى أو بآخر فى الوقت الذى يزداد فيه الرضوخ ، لا المقاومة لهذه الهيمنة .. أما من حيث الجانب الاقتصادى ، فها هى الأمة العربية بعد كل أحلام واجتهادات النهضة العربية منذ القرن الثانى عشر وحتى اليوم ، لم يتحقق مشروع مشترك لتنمية اقتصادية مشتركة ، بل لايزال اقتصادنا يقوم فى معظمه على استهلاك نتيجة الدول الرأسمالية الكبرى وبخاصة أمريكا .. بل يفرضون علينا أفقاً محدداً لمشروعاتنا الإنتاجية ، إن كان لدى أى بلد عربى مشروع إنتاجى تصنيعى يسعى لتحقيق توازن وبين صادراتنا ووارداتنا . ومن الناحية الاجتماعية ماتزال الوصاية المركزية فى صورتها القبلية ، أو الدكتاتورية العسكرية وإن ارتدت ملابس مدنية ، أو فى صورتها الليبرالية التى تتسع اتساعاً لا حدود له لأسواق مضارباتها المالية وتضيق أشد الضيق لمنابر الفكر والنقد والإبداع ، مكتفية من هذه المنابر إن سمحت لها بالمهرجانات المنتفخة التى تخفى ضآلة الجسد المجتمعى المريض .

* هل تعتقد بأن هناك وطنا عربيا يدخل مرحلة جديدة أم أن هناك محاذير من أن يكون (الشرق أوسط الجديد) .. هو الواقع الجديد ؟

** لن تكون هناك محاولات حتى لإقامة شرق أوسط جديد ، لأن هذا يعنى شكلاً من أشكال التكتل وإن كان تحت قيادة وإشراف صهيونى أمريكى ، وأن المحاولات إنها تتجه أساساً للتفكيك وتعميق الفرقة والتمزق ومضاعفة التبعية واستنزاف البقية الباقية من القدرات العربية فى تجلياتها المختلفة، إنهم لايقيمون تحالفاً حتى مع أقرب وأخلص الأنظمة إليهم ، وإنما يقيمون استبعاداً وقهراً وبصفة نهائية لكل بقايا المحاولات لتحقيق وحدة ونهضة عربية فى هذه المنطقة من العالم الزاخرة بالثروات التاريخية والأرضية ، والإمكانيات الضخمة لأن تكون قطباً عالمياً حضارياً فاعلاً فى مصر والعالم لغير مصالح قوى الهيمنة الرأسمالية .

* هل يعلنون وفاة العروبة فى القرن الجديد ؟

** من قال إن العروبة تموت ، الذى سوف يموت هم هؤلاء الذين يتحدثون كذباً ويمثلون كذلك، ويحكمون كذباً باسم العروبة ، مهما طال الأمد ، هذه الأنظمة المفروضة من أعلى ، لكى تخفض القامة التاريخية العملاقة للأمة العربية . على أنه بقدر ما تزداد غطرسة القمع والقهر والاستغلال التى تمارسها التحرر والتجدد من القاعدة المضغوطة التى لن تتخلف كثيراً لحظة انفجارها التاريخى . التاريخ يتحرك دائماً من جانبه ، ألا يقول مثلنا الشعبى : اشتدى أزمة تنفرجى ، أو بالأحرى تفجرى .

* ما هى ملاحظاتك على أبرز التيارات أو الرؤى الفكرية التى تحكم العقل العربى اليوم ـ مع ملاحظة أننا نقرأ الواقع كما هو حتى لو كان يخالف أمنياتنا ؟

** أبرز الرؤى والتيارات هى الرؤى السلطوية امتى تملك وتسيطر على وسائل الإعلام والتعليم والثقافة . وهى رؤى أعبر عنها دائماً بأن منظومة ثلاثية العناصر تتشكل من فكر دينى طقوسى ، وفكر قويدعائى وفكر وضعى نفعى برجماتى فضلاً عن رؤية تجزيئية هشة مسطحة تابعة عاجزة عن المبادرة الإبداعية فى أى شأن من الشئون اللهم إلا قمع وقهر شعوبها ، حتى نصبح فريسة سهلة لقوى الهيمنة الرأسمالية العولمة .

ولكن هناك بغير شك قوى فكرية أخرى وإن لم يكن لها سيطرتها بعد على الرأي العام ، وهى قوي بينها ماهو مشترك ولكنه لايجمعها ، وإنما يفرقها ، يختلفون فيما بينهم عليه من رؤى . هناك طبعاً التيار الدينى والليبرالى والقومى والعلمانى عامة والعلمانى الماركسى خاصة . ولكن يكاد التيار الدينى ، لأنه أقرب إلى الفكر الاجتماعى السائد ، ولأنه يتلافى أيديولوچيا مع فكر الأنظمة رغم التناقض . هو للأسف أكثر التيارات الفكرية حتى الآن هيمنة على الفكر الاجتماعى أو الشعبى العام ، دون أن يعنى هذا الهيمنة التنظيمية ، وإنما يعنى سيادة الفكر الدينى السلفى الجامد الذى يفتقد خسارة التجدد العقلانى بحسب مقتضيات اختلاف المكان والزمان والأحوال ، والذى يصلح فى بعض البلاد العربية كما الحال فى الجزائر ، وإن أخذ يخف قليلاً – وفى بعض البلاد الإسلامية كأفغانستان ملف يصلح إلى حد الجريمة التى لاصلة لها بأى ديانة، لا بالدين الإسلامى وحده .

* تقفون موقفاً متشدداً مع صعود التيار أو المد الدينى .. الذى ساد فى نهاية القرن العشرين .. كيف تقرأون هذه الصورة مع القرن القادم ؟

** لا أحد يقف ضد المد الدينى الذى هو نتيجة اجتماعية طبيعية لأمة الواقع السياسى والمعيشى والقيمى السائدة فى بلادنا العربية وفى العالم ، ولكن الوقوف ضد سيادة الرؤية الدينية كما سبق أن ذكرت الجامدة ، التى هى ثمرة أزمة الواقع وأن تكون فى موقف نفسها بجمودها ثقافتهم من هذه الأزمة وتكرسها ، لأنها لاتقدم حلولاً موضوعية لها ولما يعانيه الناس اللهم إلا التكفير والحجاب ونشر التفاسير التى هى أقرب إلى الخرافة التى تتناقض مع مقاصد الشرع والعقل والتطور .

* العقل العربى .. كيف تبدو إشكاليته الأساسية ؟

** الحديث يطول فى هذا الموضوع .. وأكتفى بالقول بأن الحجاب الذى يسعى الإسلام السياسى السلفى إلى فرضه فرضاً على وجه المرأة يتحقق كذلك على عقل المرأة والرجل على السواء . هناك محاولات أعتقد أنها ليست عفوية وإن برز بعضها كأنها كذلك ، لإشاعة التعمية بدلاً من التوعية ، واللاعقلانية بدلاً من العقلانية ، والاكتفاء بالأدوات التكنولوچية اكتفاءاً استهلاكياً دون امتلاك حقيقتها العملية وتطويرها ، وتنمية روح القدرية والتواكلية ، فضلاً عن

روح الربحية السريعة على حساب كل شيء ، هذه الروح التى يجسدها المثل الشهير «إللى تكسب به تلعب به» وفى تقديرى أن النسق الاستهلاكى فى حياتنا وانعدام الإنتاجية وخاصة الإنتاجية الصناعية الثقيلة فضلاً عن الإنتاجية الاتصالية والمعلوماتية الحديثة ، تضاءلت معها وشحبت الإنتاجية الذهنية . أصبح فكرنا فكر ردود فعل لاعقل ، فكر تكرار واجترار أو تهميش لا فكر ابتكار وإبداع وتجاوز . وهو أمر لايتحقق اعتباطاً ، بل يخضع لتوجيه خلال وسائل الإعلام المحلية والعالمية ، التى تسيطر عليها قوى الهيمنة العالمية والمتواطئون معها فى الداخل ، من أجل تنميط التفكير تنميطا بجعله خاضعاً لحدود معينة تفتقد القدرة على امتلاك روح النقد وذاتية الإبداع .

ومع ذلك فهناك قدرات عقلانية عربية تسعى للتمرد على ذلك . ولهذا ، فإن واجبات المثقفين فعلاً على قوى العمل والإنتاج والفكر والوعى ، مسئولية على كسر هذه الدائرة الخبيثة والسعى الدائب مهما كانت التضحيات لتنمية روح المقاومة للاستكانة والتبعية والبلادة والجمود والاستسلام للفكر الرسمى المهيمن السائد - إنها المعركة التاريخية بين ثقافة السلطة وسلطة الثقافة، ثقافة الجمود والمصالح الحزبية ، وثقافة التطلع المستقبلى والاستنارة ، ثقافة الحق ، والعدل والخير والإبداع والتقدم والتفتح الإنسانى إلى غير حق .

* السلام .. موضوع مطروح .. طوال نهاية السنوات العشر الأخيرة .. لو قرأت قصته فى السنوات القادمة بعيون المتأصل .. كيف ترى المسيرة ؟ وكيف ترى طرحها ؟ .. وهل خالفت أو جاءت عكس رؤية جيل سادت رؤيته منذ الحرب العالمية الثانية ؟ أقصد جيل الأستاذ محمود العالم الذى يشهد رؤية مخالفة .. وإذا كان هذا هو الواقع .. ما تحليلك لذلك ؟

** لا مجال لتحليل .. اللهم إلا لنحسن المقاومة . إن العولمة الرأسمالية تأسيس لإسرائيل الصهيونية كما أسستها فى المرحلة الأولى قاعدة لها ضد حركات التحرر الوطنى والوحدة القومية فى المنطقة ، إنها الآن تسعى لتجديدها لتصبح مركز أو قاعدة أو قلعة العولمة الرأسمالية فى هذه المنطقة وجيشها العسكرى وبنكها الاقتصادى ، وأدواتها التكنولوجية وثقافتها الخاصة المرتبطة والمعمقة لمصالحها . إنها تشاهد نهاية حلم قرن بأكمله من أجل تحقيق نهضة عربية شاملة ، وبناء دولة فلسطينية متحررة فى قلب هذا النهوض العربى إنه الانتكاس الكامل حلم عصر النهضة .. ولكنها البداية المتجددة المستأنفة لمرحلة جديدة ، لاينبغى أن تبدأ هذه المرة من أعلى ، بأنظمة عسكرية ، وإنما من أسفل من قاعدة الجماهير العربية ، هذه هى الانطلاقة الحقيقية المتحددة للنهضة العربية وهى مسئوليتنا جميعاً اليوم، لا بالشعارات وإنما بالوعى الموضوعى وامتلاك المعارف العلمية وحسن مخاطبة شعوب العربية والتحرك معها بالحوار والمجاهدة والعمل وحزب النماذج فى الصدق والكفاءة وتقديم النموذج .

إننا فى مهب مرحلة حضارية جديدة ثالثة لأمتنا العربية .. برغم كل حالة التردى والتخلف والتبعية التى ترين على واقعنا العربى . ولكنها ليست دعوة إلى تفاؤل الغفلة ، بل تفاؤل الوعى والنضال والإبداع والعقل الجمعى .

* كمفكر .. بماذا تشعر عندما تجد أن نفس الحكومات الوطنية التى حاربت الوجود الغربى فى المنطقة بعد الحرب العالمية الثانية هى التى تطلب منه العون اليوم ؟

** الحكومات التى تطلب اليوم من الاستعمار فى المنطقة بعد الحرب العالمية الثانية ، لم يكن أفرادها فى ذلك الوقت فى سلطة الحكم بل كانوا فى قاعدة الجماهير . وعندما استقر المقام ببعضهم على كرسى السلطة ، أصبح همهم لا الدفاع عن مصالح الأوطان والشعوب بل مصالحهم الذاتية . لأنهم كما ذكرت نزلوا إلى كراسى السلطة بباراشوتات ، ولم يصعدوا على رأس جماهيرهم . وإنما استغلوا حماس الجماهير ليصعدوا ، وبعد أن صعدوا هم أسقطوا الجماهير من حساباتهم السلطوية .إن السلطة غواية ، إن صعدت إليها وانقطعت عن مصالح الجماهير التى ساعدتك فى الصعود إلى السلطة ؟ سرعان ما تتسلط السلطة عليك بآلياتها الخاصة ، وتصبح خادمها، أداة من أدواتها للقمع والبطش والاستغلال، وتصبح مهمتك إعادة إنتاج مايتم إنتاجه ، ومحاربة كل جديد ينادى إليه الواقع السائد والمصالح السائدة .

وهنا مرة أخرى أكرر ما سبق أن حدثتك عنه ، أن يكون التغيير الحق ، من أسفل، بالجماهير ومن أجل الجماهير ، ولاتصبح الديمقراطية مجرد مجالس شورى أو مجالس برلمانية مصنوعة!أو غير مصنوعة ، وإنما تكون الديمقراطية ، سلطة القرار من خلال الرأى الجماهيرى والحوار المجتمعى الشامل من خلال مؤسساته المدنية المعبرة عن مصالحه ، ثم تنفيذ القرار من خلال قوى هذه المؤسسات الدينية ، ثم رقابة التنفيذ رقابة متصلة وتنمية الإبداع فى هذا التنفيذ من خلال هذه المشاركة الجماهيرية المنظمة المتمثلة فى مؤسساتها الدينية التى تمثل أساساً القوى المنتجة والمبدعة فى المجتمع .

* عندما تحدثت معك أحسست أنك مع نهاية هذا القرن تستشعر قلقاً عامًا واضحاً محليًا وعربيًا وعالميًا ، ما هو مصدر قلقك رغم أن البعض يعتقد أنه عندما ينتهى القرن تتراجع الحروب والانقسام والاستقطاب، انتهى من العالم ، من أين هذا القلق ؟

** أنا أستشعر أن هناك ظاهرة جديدة موجودة الآن وهى العولمة والمقصود بها هيكلة العالم حسب نمط إنتاج رأسمالى عام ولكن أخطر من العولمة والخطورة الحقيقية فى العولمة هو نمط إنتاج رأسمالى يقوم على الاستغلال على التوسع ويقوم على الربح والأساس، وبه كل عيوب النظام الرأسمالى والخطورة فيه أنه تحول جانب التنافس فيه إلى جانب احتكارى شديد واستقطاب فى حوالى سبعة أو ثمانى دول على رأسهم أمريكا وتحقق مايسمى فى

داخل العولمة الهيمنة ، فهناك ناس يخلطون بين العولمة والهيمنة فالعولمة ظاهرة طبيعية موضوعية تاريخية وهى تطور النظام الرأسمالى إلى أن حقق هيكلة العالم رأسمالياً ، فالعالم أصبح مهيكلاً رأسمالياً ، سواء كان المجتمع رأسماليًا أو يعيش على الهامش أو تابع للرأسمالية . ويدخل فى هذا النظام الموضوعى وهو هيكل النظام العالمى كله رأسمالياً، هناك هيمنة بضعة دول على أمها أمريكا وهذه تحول العالم إلى مجال لاستغلال شامل لم يعد هناك من ينافسه ، وخلاصة الأمر هناك عولمة موضوعية تاريخية نتيجة لتطور نمط الإنتاج الرأسمالى وعندما أقول نمط إنتاج لا أقصد اقتصاداً فقط وإنما أقصد سياسة وثقافة أى هيكلة ، ففى الماضى كان توجد علاقات عالمية دولية أما الآن فهيكلة العالم ولم تصبح علاقات فأصبح هناك نسق واحد كله يضم العالم ولذلك نقول عولمة هيكلة العالم رأسمالياً، لكن فى داخل هذا العالم أصبح هناك هيمنة وبالتالى هناك انعدام تكافؤ شديد بين هذه الدول الكبرى وبين بقية العالم وأصبح الآن السيادة ليس للشركات المرتبطة ببلادها ولكن بالشركات المتعددة الجنسية عابرة القارات التى تسيطر على كل شىء وتحتكر كل شىء ومع ذلك هناك صراعات شديدة لأنه فى ظل التنافس يحدث الاحتكار وفى ظل الاحتكار يكون هناك تنافس ، رغم أنها عولمة واحدة لكن يوجد بداخلها صراعات شديدة ، صراعات على أكثر ربح وعلى النفوذ وعلى الدول الضعيفة التى لاتنتج وهى موضع استهلاك، وبالتالى هناك خطورة تنعكس على القيمة التجارية التى أصبحت الآن كل شىء . والقيمة الربحية حتى فى الجانب الرأسمالى العالمى أصبحت أهم من القيمة الإنتاجية وأصبحت البورصة والمضاربات هى الأهم ، والشىء الآخر هو تسليع كل شىء حتى الأطفال، دعارة الأطفال والنساء، والقيم الفنية حتى تتسلع أصبح الربح هو السائد ، ومن هنا جاءت الخطورة على العالم وتؤدى أحياناً إلى إزالة بعض الشعوب من أجل بيع الأسلحة ، فمثلاً مايتم فى أفريقيا صراعات قبلية وعمرها لم تصل إلى هذه الوحشية ولكن فى الشركات الكبيرة الربح السهل جداً والسريع جداً هو السلاح ، فتبدأ فى تفجير خلافات ونزاعات من أجل بيع السلام وليست المشكلة فى موت الآلاف ولكن المهم يباع السلاح والشركات تربح الكثير فتباد شعوب وغابات من أجل مصالحهم وتظهر صناعات غربية معينة لتسىء إلى البيئة لأن المهم هو الربح ، فكل شىء ليس مهمًا لا البيئة ولا الإنسان ولا الأخلاق فى ظل روح الربح الشديدة القائمة داخل العولمة والهيكلة الرأسمالية والصراعات ونحن فعلاً البلاد النامية تقع ضحية لهذا وتهيكل ، فأنت تعرف الآن أن صندوق النقد الدولى هو الذى يفرض الخصخصة ويضعف الآن الدول القومية فمع الجات والتجارة الدولية تفتح الحدود الاقتصادية والحدود الثقافية والحدود السياسية وأصبحت هناك سيولة دولية ولكن بالنسبة للضعيف، ولكن الدول القوية مركزية ، والشركات متعددة الجنسية رغم أنها متعددة من جنسيات مختلفة والفوارق الجنسية لكن تجد وراء كل واحدة منهم دولة معينة: اليابان ،

إنجلترا ، ألمانيا ، أمريكا فنحن نكون موضع استهلاك ، وهناك موقفين موقف يقول ليس ما يهمنا فى هذا أنها عولمة غربية وكافرة والاتجاهات التعصبية السلفية، فهذا انتحار طبعاً وغفلة عن العالم ، الشيء الآخر كما يقال أننا نكاد نتكيف تكيفا هيكليًا مع هذا النظام وهذا انتحار أيضاً ، المسألة أولاً تبدأ من بناء ذاتيتك لأنهم يسعون إلى طمس الخصوصيات القومية والخصوصيات الثقافية ، الرد والحل ليس فى أن تنعزل عنهم ولكن أن تسعى أولاً لتؤكد ذاتيتك القومية وهويتك الثقافية ، وأن تمتلك أدوات العلم والمعرفة وأن تسعى لأن تشارك فيها مشاركة ندية كلما أمكن ، فهذا قد يؤدى إلى إضعاف الهيمنة وفى نفس الوقت أن تقوى الشخصيات الوطنية فى كل بلاد العالم بدلاً من أن تمحى الخصوصيات القومية والخصوصيات الثقافية التى تمحى مع مجلس الأمن والأمم المتحدة وتزول حتى الحلف الأطلسى أصبح على العالم كله . فإننى أؤكد عندما تتأكد الخصوصيات لكل بلد وخصوصيتها القومية وكل بلد تحاول أن تكون لها تنميتها الذاتية وغير المنعزلة تتحول العولمة من عولمة مهيمن عليها إلى عولمة ديمقراطية إلى حد ما تتنوع فيها الخصوصيات وتتنوع فيها القوميات ويحدث فيها قطعاً مشترك إنسانى ثمرة الخصوصيات والقوميات المختلفة ، تصنع منه مشتركا ثقافيا ومشتركا اقتصاديا وسياسيا ويصبح هناك أمم حقيقية فمجلس أمن حقيقى نشترك فيه .

* يبدو من حضرتك أن الصورة التى نطل منها أو الصورة التى نراها أمامنا فى القرن الـ ٢١ على المستوى الدولى تبدو أنها صورة مؤلمة ؟

** هى صورة مهيمنة بشعة شرسة أى أن القرن الواحد والعشرين هو قرن الهيمنة البشعة من جانب نمط الإنتاج الرأسمالى الذى تسيطر عليه ثمانية دول على رأسهم أمريكا .

* إسمح لى أستاذ محمود ، لماذا لا نعتقد أيضاً أن هذا القرن هو قرن صعود مفاهيم لم تكن موجودة خلال القرن العشرين مثل حقوق الإنسان التى صعدت وأصبحت قضايا الاعتداء أو سجن أحد الأفراد فى الدول النامية تهتز لها أمريكا ، صعود قضية مثل قضية البيئة لم تكن موجودة فى العالم إلا فى ظل هذه العولمة ، صعود قضية مثل قضية المرأة ، لو أخذنا نماذج من هذه القضايا الثلاث نعطى إيحاء بأن هناك عالماً جديداً يطرح قضايا جديدة والمهم أن نكون جزءاً منها وهى قضايا لم نسمع عنها فى ظل وجود النظام الاشتراكى وكأنه يبدو أن سقوط المعسكر الاشتراكى أفرج عن قضايا إنسانية أخرى ، هل هذا الكلام صحيح ؟

** صحيح وغير صحيح بمعنى أن هذه الصورة البشعة الموجودة هناك من يقومها فى العالم هناك مايمكن أن نسميه عولمة مضادة وهناك أستاذ فى تونس تحدث عن مايمكن أن نسميه عولمة مضادة وأنا أعتقد أنه فى ظل مواجهة العولمة الرأسمالية البشعة يتخلق فى العالم

الآن رد فعل عكسى لها ومواجه لها وهى الذى قلته، فمثلاً أطباء بلا حدود فهى صورة من العولمة المضادة ضد جرائم الحروب التى تحدث وهناك ناس ضد الفساد فى البيئة والمجتمعات المدنية التى تنشأ وهناك محاولة لعمل هيئة شعوب عالمية ليس هيئة أمم متحدة تكون هى الضمير الإنسانى الشعبى لهيئة أمم الحكومات، مثلاً أنا أحلم بأن يكون هناك جامعة شعوب عربية لاتزيح جامعة دول عربية لكن تكون هى الضمير الشعبى . الآن فعلاً هناك عولمة مضادة جديدة تتخلق ضد العولمة الشرسة ، وهذه الرأسمالية التى نقف جميعاً ضدها هى ثروة عظيمة فى تاريخ الإنسانية فهى بدأت بالحداثة والعقلانية واحترام الفرد والديمقراطية ولكن مع تطور النظام الرأسمالى والتفتح التاريخى والعقلى والتفتح الديمقراطى إلى نظام ضد العقل وضد التاريخ وضد الفرد وضد الإنسانية المفتوحة ولذلك يوجد الآن مابعد الحداثة وهو إلغاء العقل وإلغاء المبادئ العامة والنظريات الكلية ويقولون أنها أشياء استبدادية ولاتوجد هناك مدارس ولا قيم مهنية ولا دلالات للأشياء وبالتالى هناك فلسفة مابعد الحداثة وهى فلسفة العولمة الشرسة لكن الحداثة القديمة للرأسمالية فى بدايتها العظيمة الآن هناك مايدافع عنها، هناك فيلسوف كبير فى ألمانيا «هاترماس» الذى يقول أن الحداثة لم تستكمل بعد ولايوجد مايسمى مابعد الحداثة ولابد أن ندافع عن العقل وعن المبادئ وأن ندافع عن العلاقة الإنسانية وعن الوحدة الإنسانية بالمعنى الإنسانى وعن القيم الإنسانية فى مواجهة مابعد الحداثة ، بعد الرأسماليين الكبار أصبحت هناك كارثة فيمكن أن تحدث فى أمريكا، رغم الشكل المبهر أمريكا مدانة داخلياً .

* حضرتك أشرت سريعاً للفلسفة والاجتماع والنقد هل يمكن أن نقول أن هناك أسئلة كثيرة لم يتم حسمها كما يبدو وسوف تظل مصدراً لمعارك خلال القرن الواحد والعشرين ؟

** معركة الإنسانية من أجل الخير والمساواة والتضامن والتقدم والإبداع ماتزال مستمرة فى قلب هذه العولمة الشرسة ولا أستطيع أن أقول أن الصورة ستتعدد تعدداً نهائيًا لكن أعتقد أنه نتيجة للحماقة والبشاعة التى تمارس بها الهيمنة الرأسمالية سعيها إلى الربح والسيطرة لعلها فعلاً تتيح نمو النقيض لها ولا أقول لك الآن رغم أننى مؤمن بأن الاشتراكية هى مستقبل العالم ، النقيض الآن هو العلاقات الدولية وضرب الهيمنة وإلغاء الهيمنة على العالم ، بحيث يحدث تكافؤ بين الأنظمة المختلفة ويكون هناك أشكال متنوعة من الحرية والتنمية هذا اشتراكى وهذا رأسمالى، تتنوع أشكال التنمية ويتنوع احترام الاختلافات فى التنمية ويقوم تضامن دولى يقوم على التكافؤ بين الصغير والكبير وتعود المؤسسات الدولية إلى ثمرة الحرب العالمية الثانية الفظيعة التى أدت إلى ظهور قيمة كبيرة وهى حقوق الإنسان وقانون حقوق الإنسان الذى يهدر فى كل مكان .

* هل تتوقع أنه سوف يُطرح بديل بعد إعلان نهاية الاشتراكية ، أو سوف يتم الإعلان الرسمي عن ميلاد قوة بديلة ويقدم العزاء الرسمي في الاشتراكية ؟

** الاشتراكية لم تمت إطلاقاً ، الذي فشل هو خطة تنمية اشتراكية سبق خطؤها نتيجة لأسباب كثيرة كما حدث في الاتحاد السوفيتي لأنها بدأت متخلفة جداً .

الاشتراكية لاتزال كأي حلم كبير في العالم ولاتزال حلم العالم في القرن القادم وكنت في فرنسا من حوالي سنة كان هناك مؤتمر عن مرور مائة عام على البيان الشيوعي وهو ١٨٤٨ ، ١٥٠ عام على البيان الشيوعي حدث فيه من أنحاء العالم لم يأت شيوعيون فقط ولكن مفكرون من جميع أنحاء العالم ونسميه الآن عالم في الماركسية أو كاركسيون كلهم يتحدثون عن عالمية جديدة الآن تأسيساً على كلام ماركس في كتابة «البيان الشيوعي» لو قرأت البيان الشيوعي في فقرة من فقراته تجد ما يحدث الآن تماماً ويقول أن هذه مرحلة من مراحل التطور الاجتماعي ولكن ليست نهاية التاريخ . وقال إن هناك نقيضا للاشتراكية سوف يأتي فبيان الشيوعية حلم بعيد جداً وهو حلم ، ولذلك لايمكن التنبأ فيما سيحدث في المستقبل إلا أمل إنساني في إلغاء الاستغلال ، إلغاء الامتهان البشري وهذا الحلم باق ، الآن هذا الحلم موجود في كل مكان في أمريكا هناك حزب شيوعي ، في ألمانيا التي لم يكن فيها شيء هناك حزب شيوعي وانتصروا في الاتحاد السوفيتي لم ينته الحزب الاشتراكي ولكنه يقوى بل وأصبح هو المسيطر على البرلمان ليس معنى هذا أنه في سنة أو سنتين ستنتهار الرأسمالية وستقوم الاشتراكية ولكن أعتقد أنه سيتحقق خلال العشرين سنة القادمة أن يتعدل ميزان القوى في العالم لمصلحة مقرطة العلاقات الدولية ليس سياسياً فقط ولكن مقرطة اقتصادية أيضاً . هذا هو الذي نكافح من أجله الحد من الهيمنة ويصبح عندنا مجلس أمن حقيقي يمثل حقيقة علاقات القوى الكبيرة والصغيرة، ليست أوربا فقط أو العالم الثالث فقط، ولايوجد فيتو ينهي المسائل عن طريق دولة واحدة ، هيئة الأمم المتحدة يكون لها سيادتها الحقيقية ولايكون حلف الأطلنطي هو المسيطر على العالم ، وإلغاء الهيمنة وإتاحة فرصة للتنمية في العالم تتنوع بتنوع خصوصيات كل بلد وخصوصيات ثقافته وتزدهر الخصوصيات القومية والثقافية وتتعانق مع بعضها في مشترك بشري بحيث يكون هناك إنتاجية وتضامن وسلام والتقدم لكل الناس وتحول إلى مكافحة الآفات .

مكافحة الأخطار الطبيعية ، تسليع الثقافة وتسليع الجنس والبشاعة التي تتم الآن والطبيعة تتمرد علينا لسوء استخدامها، نحن في حاجة إلى حكومة كبيرة لاتسيطر عليها دولة واحدة ولكن العالم كله وينتهي الاحتكار المركزي في الدولة لمصالح الشعوب وحتى لمصلحة الدول الرأسمالية ، يمكن أن نأخذ من العولمة أشياء جميلة جداً كوحدة العالم ووحدة الإنسانية

ولكن بثقافات مختلفة وحضارة واحدة ، كيف نحقق مشتركاً للثقافات ونحترمه ونحقق مشتركاً حضارياً واحداً لمصلحة السلام والتقدم وهذا حلم بشرى لابد أن نكافح من أجله وخاصة أصبح هناك طاقة ثورية وهى العلم والتكنولوچيا الجديدة بدلاً من أن نوجهها إلى التدمير والسيطرة والقهر والتسليح والأسلحة توجه إلى الفائدة .

* هل أيديولوچية القرن الجديد هى العلم والتكنولوچيا ؟

** الأيديولوچية كيف تستخدم العلم ، لابد أن تكون العقيدة تعبر عن إنسانية الإنسان ، بمعنى أن الأسلحة النووية يمكن استخدامها فى اكتشاف أشياء كثيرة بدلاً من استعمالها فى الحرب وكذلك العلم البيولوچى تستخدم فى تنمية الزرع والسلالة البشرية ، والعلم سلاح ذو حدين فيمكن أن تستنفع به أو تضر به .

* هل تعتقد أن البحث عن هذه الرؤية أحد الأشياء المفروضة علينا فى القرن القادم ؟

** العلماء أيضاً يتمردون على هذه الاستخدامات ولذلك فأنا أقول أن هناك طبقة عاملة جديدة تعمل فى الكمبيوتر والعلم ، لم يكن العامل اليدوى وهو أكبر إلى المهندس وهؤلاء الناس مستنيرون وليس لهم مصلحة فى الاستغلال وفى حد قيم الإنسان سوف يكون له مصلحة فى نشر العلم لصالح الإنسان مثل علماء الطب فهم الآن ينتشرون خارج حدود بلادهم مثل أطباء بلا حدود وستجد علماء بلا حدود وسياسيين بلا حدود وأحزاباً تكون بأشكال مختلفة من أجل صياغة السلام العالمى والتضامن العالمى والثقافات المختلفة ومن خلاله يمكن أن يحدث مشترك ولكن بألوان مختلفة وقيم مختلفة ، فهناك مسرح عالمى ولكن أيضاً هناك مسرح صينى ويابانى وهناك شعر يابانى له خصوصية وشعر مصرى له خصوصية أخرى المشكلة هى كيف نحترم الخصوصيات المختلفة مع وحدة الإنسان بإلغاء الاستغلال وإهدار كرامته، وأكرر لك: هناك كفاحات فى العالم ضد هذا وسوف تأخذ مجراها، وفى القرن القادم هناك مواجهة للعولمة الرأسمالية الاحتكارية المهيمنة .

* لو قلنا أن لدينا على المستوى العالمى عدة قضايا ، هل القرن الـ ٢١ يطرح أمامنا نحن العرب على مستوى المرأة وعلى مستوى الثقافة ، هل يطرح أسئلة جديدة سوف نكون مطالبين بالإجابة عليها أو على الأقل نشارك بقدر من الاجتهاد فيها ، مثلاً قضية المرأة: هل العالم يفرضها بشكل مختلف ، قضية البيئة هل يطرحها علينا بشكل مختلف ؟ ما هو رأيك ؟

** هناك إشكاليات بمعنى أننا نعيش مرحلة تخلف فى الحقيقة رغم مشروع النهضة فى مصر مازالت النهضة متخلفة ، كلمة الطهطاوى أننا نفدى الوطن بالحرية ونفدى الوطن بالفكر فمازالت الحرية منقوصة والفكر محدوداً والمصنع نعيش على استهلاك مايصنعه الآخرون ،

المفروض علينا كأمة عربية أولاً وكشعوب عربية أولاً أن نتلافى ونخطط لمشروع موحد وتنمية موحدة للبلاد العربية وليس معنى هذا إلغاء الخصوصيات بل تنوعها ولابد أن نكون حريصين على الخصوصيات المختلفة فى الأمة العربية .

* فى بداية اللقاء معك عبرت عن قلقك وقلت أنك منزعج الانزعاج العالمى الذى قلت أنك تخشى من أثر الهيمنة ، لو قلنا على المستوى العربى ندخل القرن الواحد والعشرين أى نوع من القلق يتحرك داخلك تجاه الوطن العربى ؟

** إنه هو المهيمن علينا بمعنى (أولاً) هناك جزء كبير من أمتنا العربية به احتلال مدفوع الأجر أى جزء من عائدك والآن يفرض عليك أنماطاً من التنمية ليست ملكاً وأنت فى الوطن العربى عاجز أن تحقق تنمية ثقيلة والتنمية الصناعية الثقيلة أصبحت هناك الصناعة مابعدها ونحن مازلنا ما قبل الصناعة، لابد أن نبنى صناعات ثقيلة (ثانياً) كل تستورده من الخارج ، نحن نصنع أغلفة السيارات وغيرها من السلع لكن المحركات التى تحرك الفكر والثقافة والمجتمع لانصنعها ونكاد نكون ممنوعين من صناعتها ، فأنت عليك أن تبنى جزراً للصناعة الثقيلة بما فيها الصناعة الذرية ليكون عندك مفاعلات ذرية لكن تعجلك بالإنتاج الصناعى ، وكان عندنا هذا ، فأنا فى تقديرى لو أصبح فى البلاد العربية أربع أو خمس أو سبع أو عشر مفاعلات ذرية سيساعد على التعجيل بالصناعة فى نفس الوقت الذى نواصل فيه العمل فى الصناعة الكمبيوترية أى الصناعة الإتصالية والمعلوماتية ، الشىء الآخر أن نحقق التجارة البينية مع الدول العربية نشكل ٧ أو ٨٪ والباقى كله مع الخارج فلماذا لايكون هناك علاقات بينية أكثر وبالتالى علاقات تجارية بيننا فى العالم العربى ولماذا لايكون هناك مراكز بحثية علمية ويكون هناك مركز عام عربى لتطوير الفكر العلمى ، لماذا لاتكون هناك مصانع إنتاجية ، ففى مصر ألاحظ الآن اتجاهاً إلى البورصة والمتاجرة فى العقارات ولايوجد مشروع إنتاجى كبير فأنا ماركسى وأرحب جداً بالرأسمالى المنتج الصناعى فأنا مع التقدم الصناعى الذى هو الأساس وعلى هذا الأساس نحن فى حاجة إلى أن نقيم قاعدة صناعية تنموية مشتركة فى العالم العربى يراعى فيها احترام الاختلافات القومية ، فأنا ضد فكرة مايسمى بالقطر المصرى والقطر العربى أنا فى رأيى هناك خصوصيات عربية وأوطان عربية وحدة شاملة لكن بين أوطان عربية ، عندما تمت الوحدة المصرية السورية كان الواقع السورى غير الواقع المصرى وبالتالى هناك خصوصيات وبالتالى يمكن أن يكون عندنا سوق عربية موحدة نراعى فيها الاختلافات والخصوصيات ونحترمها ولانتعالى على ما أقل منا وأنا ضد فكرة مصر قائدة ورائدة لأن فى رأيى هناك فى العالم العربى هناك فى المغرب فكر فلسفى عظيم وفى تونس شىء آخر عظيم ففى كل دولة فيها شىء ليس عندى فى كل البلاد العربية ، إذن نحترم

الخصوصيات ولانتعالى ونبحث عن خطط تنمية تراعى الاختلافات ويكون هناك سيمفونية جميلة بين العالم العربى مشتركة نواجه بها العالم، لاننعزل عنه، نمتلك أسراره العلمية والتكنولوجية، ننمي ذاتيتنا ليس في تناقض معه ولكن بتعاون معه وهذا لايحدث إلا بمعارك، لأن مثلاً البنك الدولى يمنعنا من أن نقوم بصناعات ثقيلة ويفرض علينا خصخصة ليست من مصلحتنا يفرض علينا قواعد عسكرية ومشاركة فى إستراتيجية فى المنطقة ضد من ، ضد إيران فهى الأقرب لنا ، أريد فى النهاية أن أقول لابد أن نفكر تفكيراً عربياً جماعياً علمياً فيه روح العصر فيه السيطرة على كل أدوات العصر وهيمنة العلم والتكنولوجيا فمكتباتنا ينقصها كل العلم العالمى غير موجود عندنا .

* إسمح لى هنا وأنت تتحدث عن الوطن العربى مايجب أن يكون عليه فى القرن الجديد ، حضرتك تجاهلت أحد مخاوفك التى أشرت إليها فى بداية الحوار حول رؤيتك المستقبلية للوطن العربى فى القرن الـ ٢١ ألا ترى تصوراً جديداً لعلاقة من التعاون بين عمالة عربية ومال عربى وتكنولوجيا وعقل إسرائيلى ؟

** إطلاقاً لا !!

* كيف ترى الصورة الآتية التى تدخل بها المنطقة العربية فى القرن الواحد والعشرين فى ظل إسرائيل ؟ كيف تقرأ الصورة ؟

** أنا فى تقديرى أن مايحدث الآن للأسف ولحزنى الكبير وينبغى أن أتنبأ له هو أن إسرائيل تعد لأن تكون مركز العولمة العالمى فى المنطقة فى القرن الجديد ومنذ أن قامت لتفتيت ومنع الوحدة العربية ومنع التنمية الاقتصادية العالمية العربية فكانت زمان قوة عسكرية قوية، الآن تتحول إلى قوة اقتصادية قوية بجانب قوتها العسكرية وستكون هى المركز الاقتصادى وقد تكون المركز الثقافى للعولمة ، ثم بالعلاقات التى تتم اليوم تنتهى العلاقة بين إسرائيل كدولة موجودة والأمة العربية التى ستكون إسرائيل والبحرين أى إسرائيل ومصر وإسرائيل ولبنان ... وهكذا ، وبالتالى تتفكك الأمة العربية ثم تصبح علاقات ثنائية بين إسرائيل وبين هذه الدول وبهذا انتهت الأمة العربية ونكون خضعنا للمخطط الإسرائيلى المرتبط بالمخطط العولمى لأن إسرائيل لاتعيش أكثر من سنة أو سنتين لو انقطع العون الأمريكى عنها ، إسرائيل هى التجسيد المحلى للرأسمالية العالمية وحقيقة فهى تمهد لهذا بأن تكون كلب حراسة النظام الرأسمالى العالمى فى المنطقة والأمريكى بوجه خاص وبالتالى نحن للأسف بدل من أن ننمى أنفسنا نسعى للصلح معها والاستسلام لها بدون قيد ولاشرط ونتصور أننا عندما نجلس معها على المائدة أننا نحسن اللغة الإنجليزية والفرنسية والآن العبرية أننا سوف نستطيع أن نقنعها بذكائنا وفهلوتنا ، الذى يتكلم على مائدة المفاوضات مع

إسرائيل وأمريكا أيضاً هى ما ورائنا من قوة اقتصادية وثقافية وقوة الشعب الديمقراطى فأنا دائماً أقول لو أن الأمة العربية وقفت وقفة إضراب خمس دقائق من طنجة إلى البحرين بدون حركة أو كلام سيولد هذا إحساساً بالخطر والخوف لدى الأعداء وهذا هو الذى يتحدث على مائدة المفاوضات ولو تعاونا وصنعنا مفاعلات ذرية وعلاقات تجارية هذا هو الذى يتحدث على مائدة المفاوضات ولو نمينا إقتصادنا تصنيعيا أساساً ولو ارتفع تعليمنا بشكل عقلانى هذا الذى يجعلنا ننتصر فى المساومة الدولية والذى يجعل لنا وجوداً فى ظل صياغة العولمة فى العالم .

* مازلت تتحدث عن إسرائيل كعدو بينما نسمع الآن عن أن موريتانيا أعلنت بعلاقاتها مع إسرائيل ، ألم يدخل لديك شك بأن إسرائيل ستدخل الجامعة العربية ؟

** هذه ستصبح جريمة من الجرائم وعندما تدخل إسرائيل الجامعة العربية لاتصبح جامعة عربية ، بالنسبة لموريتانيا هناك ضغوط أمريكية وسيطرة أمريكا، فالمغرب أنا فى رأيى بشكل أو بآخر على علاقة بإسرائيل منذ فترة ، الآن سمعت من وزير الخارجية بتاعتنا أن المؤتمر الاقتصادى سينعقد فى القاهرة وهو المؤتمر الذى عارضه شعبنا عندما انعقد فى قطر ، ليس عندى مانع فى أن تتلاقى الأمة العربية مع بعضها البعض وأن تقوم دولة فلسطين فهذه الدولة الإسرائيلية تكون العلاقة بينها وبين الأمة العربية وليس بدول متفرقة ، فأنا فى رأيى أن إسرائيل كتيبة أمامية فى النظام الرأسمالى العالمى فى المنطقة ، لا أقول نقذف بهم فى البحر لكن هى موجودة ، أوافق ولكن أن يعود لى حقى وأن أكون أنا صاحب الأمر وأن تكون فلسطين مستقلة كاملة السيادة وتتحرك الأمة العربية كوحدة واحدة بالفعل فى مواجهة إسرائيل لأنها ليست دولة يهودية ولكنها دولة صهيونية ، تسعى للتوسع وإخلاء أرض فلسطين من الفلسطينيين والسيطرة على المنطقة البترولية والمنطقة العربية ومنع تطورها لمصلحة النظام الرأسمالى العالمى ومنه أمريكا ، كلمة صهيونية هى القضية ، مصر الآن تُستوعب وتُستغل أكثر من جانب إسرائيل فمصر تعترف بإسرائيل، مصر تكنولوجية، فتكنولوجية إسرائيل والعمالة عربية وكان الله بالسر عليم وهناك نقضى على مشيئة أن تنقضى الأمة العربية والإسلامية فهم يقومون بعملية نهب كاملة بتراث الشعوب الفكرى والدينى والمادى وقيمهم لمصلحتهم هم ، أريد أن أقول دفاعنا عن ذاتيتنا العربية هو دفاع عن الحضارة والإنسانية ، لأنه عندما تقوم فى المنطقة مصر قائدة وكبيرة للأمة العربية كبيرة سيؤثر هذا فى الوضع العالمى جداً .

لو جاء الرد عليك الآن: أستاذ محمود إسمح لنا القرن العشرين انتهى ، القرن الواحد والعشرون أكبر قراءة فيه هى أن يحمل العرب على ظهورهم هزيمة كاملة وآن الأوان كما قالها

بيريز ياعرب تعالوا جربوا أنتم كنتم وراء مصر تعالوا جربوا إسرائيل ، فإذا جاء لك عربى وقال لك تعالى نتعاون مع إسرائيل والقرن القادم يستوعب ذلك من أجل تخضير الصحراء ونحارب تلوث البيئة هذا كلام محمد سيد أحمد ، وأن نحاول أن نجرب الصلح والخير وهذا كلام على سالم .

الشعر ... التصوف ... والحب

لايمكن رؤية الناقد والمفكر محمود أمين العالم فى أحيان عديدة بدون نظارة الشعراء .. فقد كتب الشعر مبكراً ولديه ديوان غير مطبوع .. وعندما يتحدث عن السياسة أو فى السياسة يبدو الحديث مخلوطاً بألفاظ وأحاسيس ورومانتيكية الشاعر : «الشعر يتحرك داخلى وأحياناً أعالج السياسة بطريقة شعرية .. وأعالج الفكر شعرياً حتى أن أنيس منصور نبهنى مرة إلى أن لغتى التى أعالج بها قضايا الفكر والنقد ذات طعم شعرى ..» .

ولايمكن رؤيته بدون قناعة يرددها : «الحياة أو الجهاد فيها محاولة مستمرة للهروب من اصطياد الإنسان .. العولمة محاولة اقتناص الإنسان لصالح أمريكا أو لمصلحة بعض الشركات المتعددة الجنسية .. حتى شعار (الليبرالية) فى بعض الأحيان يستخدمونه بصورة شكلية لاقتناص المواطن تحت وهم أنه تكلم .. ولكن بدون حرية الرغيف أو حرية الإبداع .. نتكلم أحياناً والحرية نحن نسيطر عليها .. أمريكا تتكلم عن العالم الحر وهى منذ بلد الحرية فى العالم.. !!!

خاتمة صادقة جداً

ماذا تفتقد أنت بالتحديد؟

أفتقد الرؤية الواضحة للمستقبل.. قد أراها نظريا.. ولكن على مستوى الواقع والعمل أشعر بالارتباك.. نحن فى حالة شبه ضياع.. الوحدة العربية تفككت.. شعارات النهضة منذ أيام الطهطاوى حتى اليوم مجهضة.. لا حرية ولا تنمية شاملة نابعة من احتياجاتنا وفاعليتنا وابداعاتنا وهناك اليأس وهشاشة فى الفكر. مانزال نستهلك فى الأغلب ما ينتجه الآخرون. على أن أغلى ما نملكه هو ذلك الإبداع الثقافى الذى يعبر بصدق عن كل هذا القلق ويفتح لهذا أبواب التغيير والتجدد.. والمستقبل.

إسماعيل صبرى عبدالله
صعيدى .. يرفض الهزيمة

هناك رجال تمنحها المناصب بريقها .. وهناك رجال يمنحون كافة الشوارع التى يسيرون فيها والمقاعد التى يجلسون عليها الكثير من الحرارة والسطوع .. ومن هذا الصنف الثانى الدكتور إسماعيل صبرى عبدالله وزير التخطيط الأسبق ، والرئيس الإقليمى لمنتدى البحر المتوسط ، وأحد أبرز مثقفى اليسار الماركسى المصرى الذين خرجوا من سجون الثورة فى الستينيات ليتم توقيع عقد زواج رسمى يربطهم بحكم عبدالناصر .. فيظلوا دائماً يحملون وثيقة الزواج فى يد وانتماءهم اليسارى فى اليد الأخرى ..

ولقد لعب هذا الفريق ـ وفى القلب منه الدكتور إسماعيل صبرى عبدالله ـ دوراً خصباً فى الحياة السياسية المصرية ، ولكن هذا لم يمنع التساؤل : هل نستقبل القرن الجديد بدون يسار بعد أن اختتمت تجربته بالاختفاء من أرض الواقع كما يشير الكثيرون ؟ . وهل يقتضى ذلك أن تعترف هذه المجموعة التى كانت جزءاً من النخبة الحاكمة حيناً ثم جزءاً حيوياً من المعارضة فى أحيان أكثر بأن هناك مايستحق التراجع عنه حتى يمكن احتساء قهوة القرن العشرين بأقل مرارة ممكنة ؟ .

الدكتور إسماعيل صبرى عبدالله .. صعيدى لديه شجاعة الموقف .. ومثقف لديه رحابة التفكير .. وقد شاهدته وسيماً أنيقاً وزيراً عام ١٩٧٥ وهو يدافع عن عبدالناصر حيناً وعن مشاركته فى الوزارة فى ظل السادات حيناً آخر أمام طلاب كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة ، وكان تهديده الأساسى بأنه سيخلع قميصه ليروا آثار الضرب على ظهره وأنه وزير صاحب موقف .. ذكرته بذلك ، وأثارت سنوات الوزارة الكثير من الهواجس لديه : ظللت فى الوزارة أربع سنوات وكان يعتبر من الأرقام القياسية حيث حلفت اليمين أمام السادات خمس مرات ومر علىّ ١٥٠ وزيراً ، وكانت أفضل تجربة خلال وزارة الدكتور عزيز صدقى (١٩٧٢ ـ ١٩٧٤) ، فقد كان يعتز بالمجلس وانتقى مجموعة من الوزراء على مستوى عال وبعضهم كان يخسر بسبب وظيفة (وزير) ـ وقد اعتمد هذا المجلس على التصويت فى بعض القضايا وكان يخضع لرأى الأكثرية حتى لو كانت ضده ـ الفترة الثانية كانت فى وزارة الدكتور عبدالعزيز حجازى من ١٩٧٤ إلى نهاية عام ١٩٧٥ .. وكانت تجربة خصبة شرح أبعادها الدكتور حجازى بنفسه عندما قال : إن الدكتور إسماعيل صبرى عبدالله له قناعاته وأنا لدى قناعاتى ، ولكننا نلتقى حول أن مصر فى هذه المرحلة فى حاجة لاقتصاد مختلط

يضم قطاعاً عاماً قوياً وندعم القطاع الخاص وننميه حتى تزيد الطاقة الإنتاجية .. وكان كلامه دقيقاً وبالفعل كنا متفاهمين تماماً، ولذلك فعندما حدث تغيير وزارى وجاء ممدوح سالم وتحدث معى للانضمام للتشكيل الجديد اعتذرت مع شكرى لحماسه الذى استمر أكثر من ساعة لإقناعى حتى قلت له : إننى بالفعل أحترمه وأقدره ولكن ما أراه أمامى أن التغيير المطروح ليس الوزارة ، ولكن السياسة المصرية .. وأنا كنت على اقتناع بصحة السياسة التى كانت قائمة حتى مجيئه (عام ١٩٧٥) .. وبالتالى فليس من الأمانة أن أستمر حتى أنفذ سياسة تبدو غير مقنعة بالنسبة لى – ثانياً .. فإن أنسب فرصة للخروج بدون ضجة تكون أثناء التعديل الوزارى .

* بهذا المنطق كنت شريكاً فى وضع أسس التغيير الذى بدأت ملامحه فى منتصف السبعينات ، فقد كنت وزيراً للتخطيط وساهمت فى وضع قانون يشجع الاستثمار ويوفر الامتيازات للاستثمار .. من أين ظهر التناقض بعد ذلك بينك وبين النظام حتى أصبحت فى المعارضة منذ تلك اللحظة ؟ .

** نعم شاركت فى وضع القانون رقم ٤٣ الخاص بتشجيع الاستثمار .. ولكن لاتنس أننى اعترضت على إحدى مواده حتى تم التعديل الذى قضى بأن المشروعات التى تستفيد من المزايا لابد أن تكون واردة فى الخطة .. أيضاً كانت هذه المادة تبيح وجود البنوك الأجنبية لأننى كنت أفهم أن هذه البنوك تعمل (باليافطة) وتقوم بجمع أموال المودعين المصريين وتعيد استثمارها بالطريقة التى تعجبها .. المشكلة أن الناس تعتقد أن البنك يُحضر فلوساً .. وهذا غير صحيح .. فالبنك يأخذ فلوساً كانت ستذهب للبنوك المحلية ويستخدمها كيفما يرى .. أقصد بأمثلة اعتراضى أننى كنت صاحب رؤية مع آخرين لكى يصبح الاستثمار فى صالح المجتمع وكى تصبح امتيازات رأس المال الخاص دعماً لحركة الإنتاج .. وقلقى من البنوك الأجنبية لم يتغير وموقفى ثابت علمياً .. وما قلته أثناء وجودى فى الوزارة مازالت الدلائل تؤكده ويكفى مثالاً على ذلك ، أن البنوك الأجنبية فى مصر تقترض من السوق بسندات .

وهذا الاتجاه الذى عبر عنه الدكتور حجازى آنذاك بأن هناك حاجة لاقتصاد مختلط كان فى رأى رئاسة الجمهورية تعقيد للأمور وإغلاق أبواب الخير الذى سيتدفق من أمريكا .. وقد ناقشت ذلك كثيراً مع الرئيس السادات .. وأتذكر أنه ذات مرة قال أنتم ترفضون مشروعات استثمارية كثيرة والناس تشكو .. فقلت له إن الذين سيأتون سريعاً بمجرد سماع التيسيرات التى نقدمها هم النصابون ، أما الشركات ذات الوزن فإنها تنتظر لتدرس واقع الدولة التى ترغب فى الاستثمار فى مشروعاتها .. وقلت له ياريس أنا اجتمعت فى باريس برجال أعمال .. وكذلك فى سويسرا وفى واشنطن .. وكان كل هؤلاء يسألوننى أين خطتكم الخمسية ؟ .. وما هى الأولويات التى ترونها؟ .. فقال ماذا تقصد ؟ .. قلت له : إن هؤلاء الناس يعرفون أنه لايوجد مشروع ينجح بمفرده ، إنما الاقتصاد كله هو الذى ينمو ، والضمانات التى نمنحها

لهم بغرض الطمأنينة من احتمالات التأميم لايشغلون بالهم بها كثيراً لأن لديهم نظام تأمين ضد التأميم .

* وكأنك ترى أن توفير القوانين والتشريعات المناسبة لايمثل الإغراء المناسب لرجال الأعمال والاستثمارات الأجنبية ؟ .. بالرغم من أن هذه القوانين فى السبعينات كانت وراء جذب أو بداية مقدم رؤوس الأموال الأجنبية مصر كما يرى البعض ؟ .

** الكلام الكثير عن القوانين المطلوبة أو عن توفير الطمأنينة للمستثمر الأجنبى كلام (فاضى) لأن الطمأنينة الحقيقية لرجل الأعمال الحقيقى هو النمو الاقتصادى داخل البلد ـ سواء فى الاستثمار أو الادخار ، أو لدى هذا البلد عمالة مؤهلة ومدربة ومنظمة وذات إنتاجية أم لا .. وعلى هذا الأساس أزعم أن مصر لم تحصل على رءوس أموال من الغرب فيما عدا فى مجال البترول حتى الآن ، وأعرف أن هناك شركات كبرى حصلت على عروض مغرية جداً فى السبعينيات ولم تُنفذ ! مثلاً شركة فولكس واجن كان عندها مشروع إنشاء مصنع أيام السادات ولم تنفذه ، وبالرغم من أن السادات طلب من الحكومة أيامها أن تشترى سيارات (فولكس واجن) وأن الوزراء يستخدمونها ولكنهم لم يحضروا !! مثال آخر يكشف لك أن الكلام شىء والحقيقة شىء آخر .. فقد حصلت شركة ميشلان الفرنسية للإطارات على عقد مغر للغاية ويتضمن شرطاً بأن الحكومة المصرية تحصل على كل احتياجاتها من إطارات السيارات من المصنع الذى سوف تنشؤه الشركة فى مصر ، ورغم ذلك لم يظهر المصنع بالرغم من القوانين والإغراءات بل إن هذه المصانع لم تظهر حتى اليوم وخط الإنتاج الخاص بسيارات هذه الشركة عبارة عن تجميع وقيمته المضافة لاتزيد عن ٥٪ حتى أن وزير الصناعة الحالى طالب بالتفرقة بين التجارة والصناعة ! لأن مايحدث حولنا تجارة فى الأساس للأسف الشديد .

موت مع وقف الإعلان

* تتحدث فى أكثر من موضع عن أهمية الدراية بالواقع .. ألا تستشعر أن الأيديولوچيا قد حاصرت أو أعاقت اليسار المصرى عن رؤية الواقع حتى خرج بعيداً عن الناس وظل يدعى الحديث باسمهم ؟ .

** أنا ماركسى ومازلت ماركسياً والأخطاء التى حدثت هى أخطاء ماركسيين وليست خطأ فى المنهج فى التعامل مع المجتمع .. وماركس لم يكتب كلمة واحدة يصف بها المجتمع الاشتراكى .. وليس مسئولاً عن التجربة السوفيتية .. تلك التجربة كان لى عليها تحفظات من الستينيات وكتبت فى يونيو ١٩٧٠ مقالاً فى مجلة الطليعة فى عدد خاص طلبه عبدالناصر بمناسبة مئوية لينين .. قلت فى المقال أن تجربة لينين دخلت ذاكرة التاريخ ، ولكن الأوضاع

تغيرت وفى حاجة لتفكير جديد خاصة بالنسبة لقضايا ثلاث أساسية : الأولى الديمقراطية فى مجتمع اشتراكى ـ والثانية عدم وجود أساس نظرى لفكرة السوق العالمية الاشتراكية ـ والثالثة أنه بالنسبة لبلدان العالم الثالث التى تحررت وتسعى للنمو السريع مع الحفاظ على العدالة الاجتماعية وتتجه نحو الاشتراكية ليس لها نظرية وأن مايقال عن السير على الطريق اللارأسمالى هو عبث لأن الشيء لايُعرف بالسلب بل بالإيجاب .. وأن الأحزاب الحاكمة شُغلت بقضايا الحكم بينما الأحزاب القوية فى أوروبا الغربية على وشك الوصول للحكم بعد أن شُغلت بالقضايا اليومية ـ وفى أوائل الثمانينيات استكتب لطفى الخولى ٢٥٠ مثقفاً فى صفحته (الحوار القومى) وكنت الوحيد بينهم الذى كتب عن المستقبل .. وقلت ومازلت أقول أننا لابد أن ننشغل بعض الشيء بما هو قادم وليس مجرد الاستغراق فيما مضى .. وقلت فى ذلك الوقت (فى أوائل الثمانينيات) أن الاتحاد السوفيتى سينشغل بمشاكله الداخلية وسيقنع فى السياسة الخارجية بالحفاظ على السلام العالمى ـ لم أتوقع الانهيار ولكنى كنت أعرف أن هناك مشاكل داخلية عميقة ـ الصين أيضاً انشغلت ومازالت بأمورها الداخلية. إذن .. فإن العالم لن ينتظرنا حتى تُحل مشاكلنا ثم نركب قطاره ! لا .. إنه منطلق بسرعة ولابد أن نعرف أين يسير هذا العالم بقطاره السريع ..

المهم أقول إن هذه الراية التى طرحتها كانت تعبر عن القلق بالمستقبل ولكن أيضاً فإن الانهيار المدوى للمجموعة الاشتراكية كانت هناك عيون ترصد التغيير ولكن لم تتوقع حجمه وعمقه .

* يبدو من كلامك يادكتور أنك غير مقتنع بأن الاشتراكية قد ماتت وتم تشييع جنازتها فى موكب عالمى ضم الكثيرين من الاتحاد السوفيتى إلى أنجولا ؟ .

** انهيار المجموعة الاشتراكية لم يعن أبداً موت الاشتراكية ، فأكبر حزب فى الاتحاد السوفيتى هو الحزب الشيوعى .. ولنتذكر أن الثورة الفرنسية انتهت وقضى عليها نابليون وتأسست إمبراطورية وعادت الملكية ، ولكن أثرها فى حياة البشر امتد إلى اللحظة الحالية .. ومثال بسيط ومهم : أن هذه الثورة الفرنسية أعلنت لأول مرة مبدأ الاقتراع العام وأن لكل مواطن حق التصويت .. ولم ينفذ هذا المبدأ فى فرنسا إلا بعد مائتى سنة !! فالهدف كان صحيحاً لذلك تحقق ، أيضاً أقول إنه مادام هناك استغلال سيظل هناك تمرد عليه .. لا أعرف بالضبط شكل الاشتراكية الذى سيجيء لأنى لا أتنبأ .. وليس هناك نموذج لابد من الاحتذاء به «إنك لاتستحم فى نفس النهر مرتين» وبالتالى ففكرة النموذج معناها الحكم على المستقبل مقدماً ووضعه فى قالب معد لظروف مختلفة.. لذلك رغم كل هذه القناعات أكرر أن شكل هذه الاشتراكية لا أعرفه ولكنه سيظهر .

* أنت تتحدث عن اشتراكية فى مجتمعات عربية قفزت سريعاً وبقوة وعنف بعيداً عن هذه المسميات .. أنت يادكتور تتحدث بيقين عن كائن دخل سجل الذكريات ، ونحن نجلس نبحث

عن محاولة للتوقيع فى كتاب المستقبل ؟ .

** لا .. لا .. هذا غير دقيق إطلاقاً .. نحن الذين نتوهم ذلك ، انظر للهجوم على الأوضاع الرأسمالية فى بلادها .. وألا تلاحظ أن الاتحاد الأوروبى تحكم بلدانه أحزاب اشتراكية ..

* يادكتور هل من الصعب على اليسار المصرى بعد التغيير الذى حدث أن يعترف بقصور رؤيته فى وقت من الأوقات وأن يعترف فى المقابل بالنجاح الذى يرى الفريق المقابل أنه تحقق فى ظل سياسة السوق المفتوحة فى مصر ؟ .

* ليس هناك نجاح اليوم بالصورة التى يدعيها سؤالك .. مازال معدل التنمية وحتى عام ١٩٩٥ : ٢٪ ، مازال معدل الادخار ٦٪ ، وفى الهند معدل الادخار ٢١٪ من الناتج المحلى ! مازال الاستثمار عندنا ١٧٪ ، الهند فيها ٢٧٪ ، البنك الدولى فى آخر دراسة عن الاقتصاد المصرى يقول إن المشكلة تكمن فى ضعف الادخار وضعف الاستثمار وزيادة البطالة ، أما الكلام الخاص بتوازن الجنيه مسائل نقدية ، وليست مسائل إنتاجية .. لذلك أكرر ليس كل تغيير خيراً .. ما كنت أريده كان تغييراً أيضاً ولكنه تغيير مدروس يقلل التضحيات .. وإذا لم يكن التغيير يفيد الأغلبية من الشعب فلا ضمان لاستمراره . وعلى فكرة ، قراءة بسيطة للتاريخ تفيد كثيراً فى ذلك .. كان فيه رق حدثت ثورات عليه ، كان فيه استغلال ظهرت الاشتراكية ، أكثر من ذلك الديمقراطية التى نسعد بالحديث عنها والإشارة إلى بلدانها لم تكن هدية من الرأسمالية ، بل إن هذا ما انتزعته الشعوب بالعافية من الرأسمالية والديمقراطية لاتتحقق بقرار بل لابد من قاعدة إنتاجية ضخمة تمكن من خلق أوضاع مواتية .

وأعود لسؤالك .. فأقول بينى وبين ضميرى إننى راض بما فعلت ولست نادماً على أى شىء .. ولايعنى ذلك أننى كنت دائماً على صواب .. لأن ذلك يعتبر ادعاء .. لكن تقييم التجربة كلها يجعلنى أحس أن اختياراتى كانت صحيحة ومازالت سليمة .

هزيمة اليسار ..

* مازالت سليمة ؟ .. اجابتك يادكتور تدفعنى للبوح بسؤال يردده البعض بدون التصريح العلنى به وهو أن المستقبل الذى التقينا للحديث حوله سيكون بدون يسار ـ لأن اليسار المصرى بصفة خاصة هُزم بقسوة على أرض الواقع وعملياً اختفى من الساحة ؟ .

** اختفى من الساحة لأن اليسار العربى توقف عن تطوير نفسه .. الدنيا تتطور ولابد من التطور معها ، هذه هى الحكاية ! رئيس جمهورية بولندا اليوم كان مسئول شباب الحزب الشيوعى البولندى الذى غير اسمه وفاز بالأغلبية ويحكم بولندا اليوم ! .. أليس مما يلفت النظر أن ١٢ دولة فى أوروبا يحكمها اليسار ؟ جوسبان هزم شيراك .. كيف ؟ وماهى القوى الاجتماعية التى خلفه ؟ .. مادام هناك قوى تشعر بالظلم وتسعى لتحسين أوضاعها سيكون

هناك يسار وتقدمية .. وحتى تتضح الصورة أحب أن أقول إن أى مجتمع من المجتمعات يمكنك أن تُقسم الناس فيه إلى ثلاثة : القسم الأول راض بما هو قائم ، وجزء ثان رافض لما يجرى ويهرب للوراء رغبة فى استعادة ماض معين ، وهؤلاء سلفيون سواء فى الفكر الدينى أو السياسى مثلما حدث عندما نظر فريق من الماركسيين لما حدث فى الدول الشرقية والاتحاد السوفيتى على أنه مؤامرة من المخابرات المركزية .. وهناك سلفية عند الناصريين الذين يريدون إرجاع الستينيات .. ولكن التاريخ لايعود للوراء ـ ثم هناك تيار ثالث بالضرورة وأسميه البديل الديمقراطى التقدمى الذى ينظر للأمام اعتماداً على المشاركة الجماهيرية .. وهذا ما أعتقد فى قدرته على طرق أبواب المستقبل .

* بنفس المنطق ، هل تعتقد أن هذا اليسار الذى تتحدث عن احتمالات اختفائه وأنت فى القلب منه مازال عاجزاً عن تفسير التغير السياسى الذى حدث فى المنطقة بعد أن أصبحت إسرائيل بصورة أو أخرى جزءاً من منظومة دول المنطقة التى يدور الجدل معها فى كيفية السلام وليس فى موعد الحرب ؟ .. وهل هى مشكلة أن عدو الأمس (إسرائيل) أصبح أمامك (صديق) اليوم ؟ .

** سوف تظل إسرائيل عدواً .. وكل التغيير الذى تتحدث عنه هو فى الحقيقة أن هناك تراجعاً عربياً وانتصاراً صهيونياً .. وأن إسرائيل لديها مشكلات حدود مع جاراتها العربيات ولكن مشكلتها مع مصر مشكلة وجود .. هذه المنطقة لاتتسع لدولتين متقدمتين متطورتين .. ومستقبل هذه المنطقة إما هيمنة إسرائيلية وإما حركة تحرر وتوحد عربى ومصر فى القلب منها .. ومازلت عند هذه الرؤية ، وأعتقد أن أعلى درجات السلطة فى مصر على وعى بذلك .

* ولكن هذه الرؤية اليسارية يصفها كاتب ومفكر يسارى هو الأستاذ محمد سيد أحمد بأنها تستند للماضى وليس للمستقبل فى النظر للصراع مع إسرائيل .. وكاتب آخر هو الأستاذ لطفى الخولى الذى رأى أن تحالفاً شعبياً لمؤيدى السلام يمكن أن يتجاوز هذا الواقع؟ .

** لا .. إذا كانت رؤيتى تستند للماضى فليكن .. وأنا موجود ومحمد سيد أحمد موجود والأحداث سوف تكشف الصواب من الخطأ .. لكن بالنسبة للطفى الخولى فإن المسألة تختلف .. لأن محمد سيد أحمد خطورته فى أنه رجل تأصيل فكرى ويؤسس رؤيات ومفاهيم فى إطار نظرى وافتراضات فى شكل نسق محتواه الأساسى فكرة العولمة وأن القضايا الوطنية انتهت والعالم يعيش حاجة ثانية .. وحتى فى نظرته لإسرائيل ومايطرحه من فكرة تبادل المنفعة أو الاعتماد المتبادل .. كلها رؤيات خاطئة .. إذ كيف تكون هناك منفعة متبادلة مع طرف يعتبرنى (منحطاً) ـ الصهيونية تؤمن بأن الشعب اليهودى شعب الله المختار، أنهم أعلى شعب على الأرض .. ثم أنهم أصحاب عقلية استعلائية نحونا نحن (المحليين) فى نظرهم ـ وهذا ما قاله بيجن للسادات أثناء زيارة القدس المشئومة عندما ذكر أنه لو اجتمع المال العربى والعقل

اليهودي تغير شكل المنطقة .. أى أننا لانمتلك سوى الفلوس – رأى ذلك محمد سيد أحمد ولم يعلق عليه وكأن بيجن متخلف ، لكن إسرائيل حاجة ثانية !! . ولذلك فالخطورة فى رؤية محمد سيد أحمد أنه يطرح رؤية فكرية .. لكن قضية لطفى الخولى قضية سياسية ، فهو لم يغير نظرته لإسرائيل ولكنه يقول أن هناك قوى فى إسرائيل أصابها الإرهاق من مناخ التوتر والحرب وتخشى طغيان التيار الدينى السلفى اليهودى وسيطرة المؤسسة العسكرية ويرغبون فى العيش فى سلام .. وأنه يمكن أن نقوى جبهتهم فى الداخل عسى أن يصبحوا قوة ضغط ضد نتانياهو .. وهذه وجهة نظر سياسية بحتة ليس فيها تغيير لطبيعة الأحداث ، وقلت رأيى فى ذلك أن مجموعة لطفى لن تصل لنتيجة لكن بدون إدانة أو سباب أو تجريح .. ورأيى أيضاً أنها معركة تم تصديرها إلينا حتى تضرب بقية مفكرى اليسار بعضها البعض .. ووقعنا فى الفخ ببساطة ! .. والاختلاف فى الرأى لايعنى تخوين طرف والإساءة إليه .. وأؤمن بمقولة الإمام الشافعى : ما أراه صواباً .. صواب إلى أن يثبت العكس .. وما أراه خطأ .. خطأ إلى أن يثبت العكس ، ولذلك أقول إن هناك صداماً حضارياً فى المنطقة بين دور مصر من جانب فى مقابل دور إسرائيل من جانب آخر .

الزيارة المشئومة

الدكتور إسماعيل صبرى عبدالله لم تكن تجربته الحقيقية فى الحياة أنه كان وزيراً صاحب رؤية فقط .. ولكنه فى الأساس مفكر جعل الاقتصاد لغة سائدة وكان أول من تكلم عن النظام الاقتصادى العالمى الجديد الذى كان يتبلور فى ظل نمو الأسواق .. وكان أول من تحدث عن مجموعة الـ ٧٧ الاقتصادية ودور دول العالم الثالث فى الحوار بين الشمال والجنوب .. وظل حتى اليوم يحارب فكرياً من أجل قناعاته بمستقبل عربى حقيقى لايخضع للهيمنة الاقتصادية أو الاستسلام بأن هناك منتصراً وحيداً هو إسرائيل ومن هذه النقطة .. أتساءل :

* فى كلامك الآن وصفت زيارة القدس بـ (المشئومة) وسوف ينظر فريق لهذا الوصف بدهشة ويتساءل .. كيف ظللت على هذا الرأى بالرغم من أن المنطقة العربية كلها انتقلت إلى واشنطن ثم إلى مدريد ثم إلى أوسلو وكأنك المعترض الوحيد للسلام أو لمسيرته التى قطعت رحلة طويلة جداً باتت فيها زيارة القدس بعيدة عن ذاكرة تمتلئ بزيارات أحدث وأخطر ؟

** انتقلت المنطقة إلى حال أسوأ بكثير وللأمانة الفكرية فإننى لابد أن أقول إن هناك حدثين تاريخيين وراء تردى الوضع العربى الحالى أولهما كامب ديفيد والثانى غزو الكويت وهما وراء رجوع العرب إلى أكثر من نصف قرن للوراء فلم يكن العرب منذ بدء الاستقلال بهذا الاهتراء والغريب أن بعض من يطرحون الرؤية التى تتخلل سؤالك لايستطيعون أن يقولوا لنا لماذا تقدم إسرائيل تنازلات لنا ؟ ولماذا أسمينا ما يحدث بأنه سلام ؟ . ولماذا لم نطلق عليه تسوية سياسية فهذا أدق بالرغم من أنها تسوية جائرة ولكن يمكن تفهمها وقبولها فى ظل

توازن القوى الحالى بشرط أن أستفيد من الوقت فى جمع الشمل ولتغيير علاقات القوى .. إن السلام الشامل اليوم كارثة على العرب لأنه يتم طبقاً لشروط إسرائيل ـ وأنا لم أوجه الإدانة إلى أوسلو ولكنى قلت هذا باب ضيق إلى نضال مرير وهذا مايحدث !

قد يعلق البعض على رؤيتك بأنها تعكس تشاؤماً ورأيهم أن مسألة السلام قضية وقت يستطيع خلاله الإسرائيليون إدراك أهمية استمرار المسيرة السلمية .

هذا الفريق يغير الحقائق .. وفى تقديرى أن السن هى مفتاح شخصية نتانياهو يتعين أن يعلم العرب أن رئيس وزراء إسرائيل الجديد يعرف باسم بيبى اختزالاً أو تدليلاً وواضح أن الرجل سعيد بذلك وعلى من يهرول نحوه أن يناديه به لعل ذلك يفتح قلبه ، وفى تقديرى أن السن هى مفتاح شخصيته ٤٦ عاماً فقط ويقابله فى حزب العمل خليفة بيريز إهود باراك ، فإسرائيل تشهد اليوم انتهاء جيل كامل ممن عاصروا إنشاءها ليحل محلهم جيل نشأ فى أوج العدوان الإسرائيلى وأسهم فى أعمال الاغتيال داخل وخارج إسرائيل تحت مظلة الموساد والشين بيت وهذه الأجهزة لصيقة بأقصى الرجعية الإسرائيلية . ألم يكن قاتل رابين مرشداً للشين بيت (الأمن الداخلى) . وهذا الجيل لايتوقف عند ما ادعاه الجيل السابق من علمانية تعارض الدولة الدينية فقد كانوا ينتمون إلى مايسمى الصهيونية السياسية، أما الجيل الجديد، حتى من تعلم منهم وعاش فترة فى الولايات المتحدة مثل نتانياهو فإنهم يعلنون تعاطفهم مع الحاخامات وتمسكهم بالطقوس ويترددون فى كل مناسبة على حائط المبكى وستكون الأحزاب الدينية التى حصلت على أكثر من عشرين مقعداً فى الكنيست مقابل ٣٣ لحزب الليكود حريصة على الحصول على عدد مهم من المناصب الوزارية .

ومنطق حكام إسرائيل الجديد صريح وفظ فهم يرون ببساطة أن لإسرائيل من القوة فى كل المجالات وليس فقط فى السلاح مايمكنها من أن تفرض السلام على العرب دون أن تتخلى عن أى جزء من الأرض التى تحتلها ولذلك فهم يرفضون مقولة الأرض مقابل السلام قائلين أن السلام يقابل السلام ولاشىء آخر وأنه من المرفوض أن يسترد العرب بالسلام مافقدوه بالسلاح كما يسخرون من مجمل ماقيل وكتب عن الشرق الأوسط الجديد الذى دعا إليه حزب العمل حيث لايجوز فى رأيهم أن ترتبط دولة صناعية متقدمة ذات ثقافة عالية وتملك تكنولوجيا راقية بكيانات هلامية مهترئة سياسياً ومتخلفة ثقافياً لاتعرف من العلم والتكنولوجيا شيئاً كما أنهم واثقون من أن الأغلبية العديدة لليهود الأمريكيين تؤيدهم ، بل لبعض جماعاتها أفكار أشد تعصباً .

* تتعامل مع المجتمع الإسرائيلى ككتلة واحدة بينما أصبح السائد فى الثقافة المنتشرة اليوم أنه مجتمع ينقسم بين صقور وحمائم وهذا مبرر لدى فريق آخر للاختلاف معك ؟

** الواقع أن بيريز وكلينتون نجحا فى إيهام الرأى العام بوجود قادة معتدلين يريدون التعايش السلمى مع جيرانهم ويوصفون بالحمائم ، وأنهم الضمان الوحيد ضد تشدد الصقور

الذين ينكرون مجرد وجود شعب فلسطيني ويمثلهم الليكود وحلفاؤه من الأحزاب الدينية ، وبفضل وسائل الإعلام انتشر هذا الوهم بين العرب أنفسهم وبصفة خاصة بين «السلاميين بأى ثمن» الذين لم يتحركوا شبراً عن قناعتهم تلك حتى أمام مذبحة قانا التى اهتز لها الرأى العام العالمى .

ونكرر هنا أن إسرائيل ليست دولة، عادية كغيرها من الدول ولكنها بلغة العصر «دولة أصولية» تقوم على عقيدة سياسية ودينية اسمها الصهيونية تريد إحياء ملك داود وسليمان وتنتظر بسط نفوذها من النيل إلى الفرات وكل الصهيونية فى هذا سواء : المتطرفون الدينيون والمؤمنون المعتدلون وحتى من يزعمون أنهم علمانيون ويقولون إنهم صهيونيون سياسياً وبغض النظر عن العقيدة الدينية . وتراهم جميعاً فى المناسبات المهمة «يضعون الطاقية» المشهورة على رؤوسهم.

فى إسرائيل صهيونيون حتى أولئك الذين يرون فى نوع من السلام بين الغالب والمغلوب فرصة جيدة لنجاح المشروع الصهيونى (النيل ـ الفرات) بأقل تكلفة بشرية يهودية أى بلا حرب وإن حرصوا جميعاً على حيازة وتطوير السلاح النووى ـ حتى من يسمون أنفسهم فى الولايات المتحدة «باليهود الإصلاحيين» أو غير الأرثوذكس جزء من الحركة الصهيونية العالمية.

إن معيار التفرقة الوحيد بين اليهود هو من يؤمن بمشروعية وضرورة الاستيلاء على الأرض والأسواق العربية وبين من يرى أن اليهودى إنسان كبقية البشر ويشارك أمال البشرية كلها فى السلام الحقيقى ونبذ ومحاربة الفقر والجهل والمرض وتحسين مستوى ونوعية حياة الشعوب ككل كما يريد وعلى النحو الذى يرتاح إليه وهؤلاء ليسوا أفراداً معدودين وإنما فئة لايستهان بها وإن كانت غير منظمة ونذكر فى هذا المقام أن عدداً من يهود مصر المعادين للفاشية والتعصب العنصرى كونوا فى القاهرة فى أوائل الأربعينيات رابطة «اليهود المعادين للصهيونية» فى وقت فتحت فيه الحكومات المصرية ذراعيها لنشاط صهيونى كثيف وأقام فى القاهرة عدد كبير ممن شغلوا مواقع القيادة فى إسرائيل فيما بعد . ومنهم وايزمان . نحن لانواجه العنصرية بعنصرية أخرى أو الأصولية بأصولية أخرى . ونؤمن نحن العرب أن الخالق جعلنا شعوباً وقبائل لنتعارف ونتعاون وليس لنتقاتل ونتعصب . وليس مثل الطرف الآخر الذى يصر على أنه شعب الله المختار المتميز عن البشر كافة ويسعى للهيمنة والاستغلال.

لايمكن إلغاء الصراع ..

* البعض يرى أن ماتطرحه يعكس مشكلة بعض المثقفين العرب الذين يرون أن السلام مع

إسرائيل فسحة من الوقت استعداداً للنزال القادم وهذا سر التمزق النفسى لدى النخبة الثقافية العربية عامة واليسار خاصة ؟

** أتصور أن المسألة فى حقيقتها أن الصراع قائم والعرب يتعرضون للقتل وسلطة عرفات ممزقة وبعد ذلك يقولون إن الصراع غير موجود .. كيف ؟ وماذا تريدون لكى تشاهدوا الصراع ؟

لايمكن إلغاء الصراع بقرار لأنه قائم على تعارض مصالح لذلك قلت إننى سعيد بمجىء نتانياهو لأننا رأينا الوجه الحقيقى للصهيونية .. إسرائيل تدرك أن الحرب لاتتناسب مع الأجواء العالمية ـ وهم يعرفون أنهم متفوقون عسكرياً على جموع الدول العربية بكافة مواردها وإمكاناتها ولكنهم يعرفون أيضاً أهمية السيطرة على الأسواق العربية للحفاظ على مستوى معيشتهم الحالى .. والأرقام تكشف ذلك ، فمتوسط دخل الفرد هناك ١٤ ألف دولار (عشرة أضعاف مصر) ويتحقق فى جزء كبير منه بسبب دورها فى المنطقة طوال السنوات الماضية ـ ولكن فى حالة السلام فإن الاقتصاد الإسرائيلى لايغرى الشركات العملاقة على الاستثمار لذلك فإن نتانياهو قال فى الكونجرس إسرائيل تحتاج لاستثمارات وليس للمساعدات هذه الشركات الأمريكية الكبرى يمكن فعلاً أن تفعل ذلك فى حالة انفتاح الأسواق العربية أما المنتجات الإسرائيلية .. فليس هناك من ينتج لأربعة ملايين ولكن هناك من يسيل لعابه لسوق تضم ١٠٠ مليون أو للعرب جميعاً أى لـ ٢٥٠ مليوناً !! الوصول لهذا الهدف تم من خلال لغتين .. لغة بيريز التى ترى أن العرب يحبون الكلام الطيب ويمكن بالفعل الحديث معهم حول شرق أوسط جديد ـ ولغة نتانياهو التى ترى أن العرب سيأتون بدون تنازلات .. هذه هى القضية .. أما إشاراتك المتكررة فى الأسئلة عن المأزق النفسى فى صفوفنا فأقول لك بصراحة لماذا أضع يدى فى يد من يحتقرنى ؟ ببساطة ! عندما أصافح الأمريكان فهم يعرفون أننا ند .. ولكن الإسرائيليين على العكس يروننا أقل .. فالمسألة ليست مأزقاً نفسياً مثلما يحب أصحاب التنظير الجديد، بل واقع مؤلم لايمكن تجاهله .

* أنت عضو اللجنة المركزية لحزب التجمع .. أحد أحزاب المعارضة فى مصر . ألا تشعر بأن هذه الأحزاب قد فقدت فاعليتها أو قدرتها على المشاركة أو التأثير فى الواقع ؟ .. وألا ترى أن هذه الأحزاب اليوم قد خسرت الكثير من المصداقية أمام الناس حتى أصبحت فى حالة غياب كامل؟

** مصداقية العمل الحزبى متوقفة على مصداقية العملية الانتخابية فالأحزاب موجودة .. لكن ضمن تعريف الحزب أنه جمعية أهلية تشتغل بالسياسة لأنها تريد أن تصل للحكم .. وتصل بأغلبية الأصوات .. إذن الانتخابات لابد أن تكون سليمة والتعلل بالأمية والفقر فى تدهور العملية الانتخابية غير سليم .. فالهند أكثر فقراً منا .. وفيها نفس النسبة من الأمية كما أنها متحف للأديان والتنوع العرقى ومع ذلك تعيش لتتنفس الديمقراطية منذ ميلادها لأن

الانتخابات سليمة طبقاً للدستور وأوضح لك .. كيف أقنع الناس بالانضمام لحزب التجمع إذا لم أكن أستطيع توصيل ٣٠ أو ٤٠ نائباً لمجلس الشعب ؟ .. ولماذا يُغضب المرشح المنافس بلدياته بدون عائد ! وطبقاً للروح العملية للشعب المصرى فإنه يقول لنا قلبى معكم . لكن الراجل اللى جاى اللى الحكومة عاوزاه .. فلاداعى لإغضابه علشان يمشى شغلنا ! هذا هو المنطق البسيط .. وأكرر لك الأحزاب وليدة الانتخابات وليس العكس وبدون انتخابات جادة لايمكن أن توجد أحزاب سياسية جادة فى مصر .

الخطايا

* تنجح الأمم فى الانتقال لزمن جديد أو الصعود لعصر جديد إذا حققت عدة أمور .. منها مثلما تكشف لنا فلسفة التاريخ القدرة على تحديد الخطايا التى تعرقلها والشجاعة فى تبنى ما يؤهلها للحركة والتغيير - وفى تقديرك وأنت شاهد حى على حركة الاستقلال الوطنى وشريك فاعل ضمن النخبة الحاكمة فى مصر لفترة طويلة وكمثقف له رؤية .. ما هى أبرز خطايا مجتمعاتنا فى نهاية القرن العشرين ؟

** بصراحة هو عجزنا عن الاشتغال بالسياسة .. السياسة بالمعنى العلمى أى التعبير الأسمى عن كافة تفاعلات المجتمع وتناقضاته واتخاذ قرار باسم المجتمع لتحقيق هدف تسعى إليه .. فالعرب فى فترة معينة فى ظل عبدالناصر ونمو حركة التنموية الوطنية بصورة عامة تسرعوا (شوية) فى طلب الوحدة الشاملة .. ولكن على الأقل كان فيه مطلب .. اليوم الفئة العاملة بالسياسة فى الوطن العربى عاجزة عن تقديم طرح مستقبلى متكامل يمكن أن يلتف حوله الناس .. الناس تحتاج إلى قضايا كبرى تلتف حولها .. ودائماً أقول إن الشعب المصرى قادر على تحقيق المعجزات إذا توفر له التنظيم والهدف وهذا حدث فى بناء السد العالى - وحرب أكتوبر ٧٣ .. كان أداء المصريين رفيع المستوى وهذا ما يحتاجه شعبنا اليوم .. لايوجد شعب يجرى وراء الفلوس فقط .. والرأسمالية ليست فلوساً فقط بل إنها أفرزت تكنولوچيا ونظريات وعلوم لكننا اليوم نعيش وراء تفاصيل صغيرة لاتكفى للنهضة. أيضاً من ضمن الخطايا أن يعتقد البعض أن عبدالناصر قدم خُطباً فقط .. لا .. إن عبدالناصر غير فى طبيعة مصر وترك بصمات لايستطيع أحد أن يُغيرها .. الخمسة مليارات دولار التى تأتى لنا من الخليج تأتى بعرق المصريين الذين علمهم عبدالناصر .. يعنى إن مجانية التعليم جاءت بمردودها الاقتصادى .. لذلك فالتقاء قوى الناس فضيلة لابد من المحافظة عليها .. هذه الفضيلة تبلورت فى حرب أكتوبر .. رئيس الدولة آنذاك لم يكن يريد الحرب لكن الشعب المصرى فرض الحرب من أجل التحرير .. أيضاً .. ونحن على أبواب عصر جديد لامفر من تنمية جادة وتكامل اقتصادى عربى بحيث نؤسس القوة العربية الشاملة .

* من كان البوصلة التى ساهمت فى توجيهك وبناء اختياراتك ؟ .. وما رأيك فى الدهشة من أنك من أسرة صعيدية ميسورة مادياً وفى نفس الوقت اخترت اليسار كبعض أبناء الأثرياء فى الأربعينيات ؟

** بداية .. فقد تعلمت وتثقفت فى مكتبة والدى التراثية درست اللغة العربية والشريعة والتراث الإسلامى .. وفى الجامعة بدأت أقرأ كل ماتقع يدى عليه بالإنجليزية .. أما الإشارات لفكرة الثراء والاختيار الفكرى فلها معان إيجابية لأنها تعكس أنه ليس هناك مصلحة للشخص فيما يدعو إليه .. ولقد اخترت طريق السجن بالرغم من أنه كان هناك طريق الثراء مفتوحاً أمامى .. ولكن ضميرى اختار ولم أندم أبداً ـ وكثيراً ما أتذكر أننى بعد أن أنهيت رسالتى فى الدكتوراه تحت إشراف أستاذ فرنسى فى باريس .. قال لى هذا الأستاذ: أنتم ياعرب تقدمون رسائل مدهشة ولكن بعد عودتكم لمصر لانسمع عنكم شيئاً .. وأنا أريدك أن تعود لتحضر لمسابقة الأستاذية وذلك بترشيح من الحكومة المصرية ، وأعطانى خطاباً شخصياً منه إلى الدكتور طه حسين (وزير المعارف آنذاك) .. ولكنى مع عودتى لم أقدم الخطاب لطه حسين لسبب واضح هو أننى طوال تعليمى كان لدى منحة تفوق وحصلت على بعثة وتعلمت فى المقابل كان هناك أكثر من نصف مليون شاب فى عمرى لم يتعلموا القراءة أو الكتابة فأنا مدين لهم وفكرت فى أن أعبر عنهم وأدافع عن حقوقهم .

الصعيدى .. والنساء

* ماموقف شريكة حياتك من اختياراتك التى بعثت بك إلى السجن فى أوائل الستينيات ؟ وهل تعاتبك هى على الأمس الذى لاتندم أنت عليه اليوم ؟

** ارتبطت بزوجتى عاطفياً أثناء الدراسة فى باريس كان الحب والثقافة المشتركة المتعددة والمفتوحة الآفاق وكانت صاحبة ذوق فنى وأدبى رفيع وكانت تكتب الشعر بالفرنسية وتفهم فى الأنواع الأدبية والفنية المختلفة .. وكانت الثقافة بمعناها الواسع جسراً قوياً يعبر عليه الحب ويؤسس عالماً له ركائز قوية .. ومن هنا جاء احترامها لاختياراتى ولكونى صاحب قضية .. وإذا كانت تعاتبنى اليوم فإنها تعاتبنى على فترة الوزارة .. ولذلك أسباب أهمها أنه ليس لدينا أولاد فكنا فى تعايش دائم معاً فجاءت الوزارة وأخذتنى منها .. لذلك أعتقد أنها زوجة الوزير الوحيدة التى فرحت يوم أبلغتها بأن الوزارة ستتغير وأننى اعتذرت عن الانضمام للوزارة الجديدة وأتذكر أن يومها قالت لى أسرع بنا للسفر إلى الإسكندرية حتى لايعتقد بعض الأصدقاء أن هناك واجب عزاء لابد من تأديته .

* هل كانت زوجتك والتى أعرف أن والدها أحد مؤسسى علم الحشرات فى الجامعة وهى أخت الفنانة إنجى أفلاطون وراء صياغة رؤيتك للمرأة أم أن هناك عوامل أخرى ولاسيما أن

جيلك قد عايش مرحلة زراعة أفكار كان قد سبق وزرعها جيل الرواد من الطهطاوى إلى قاسم أمين ولم تنمُ إلا فى مناخ ما بعد الحرب العالمية الثانية ؟

** قد تُدهش عندما تعرف أن وراء تشكيل رؤيتى شىء آخر .. وهو أننى صعيدى . فى أعماق الصعيدى احترام شديد للمرأة .. فى كل بيت صعيدى توجد امرأة هى الحاكم الحقيقى .. الأخذ بالثأر وراءه المرأة .. لأن الأم تقول لابنها وهو مازال فى مرحلة إذا لم تأخذ بالثأر سأخرج أنا بالبندقية من أجل الثأر .. وكان دائماً فى الأسرة هناك سيدة يتم الرجوع إليها قد تكون الجدة أو الأخت الكبرى أو ماشابه ذلك .. وأعتقد أن ذلك يعود إلى الحضارة الفرعونية وهذا عكس حضارة اليونان وهذه الجذور الصعيدية تفسر احترامى العميق للمرأة ولقد كان أبى عمدة قريتنا وقد بعث بأختى الصغيرة لتتعلم فى مدرسة الأشراف فى مصر (العاصمة) ولو كان عاش يمكن كان حرص على استكمالها لتعليمها الجامعى وهذا انعكس فى الحقيقة على ظروف نشأتى حيث كان هناك تقدير للعلم ولقد أنفق أبى الأموال على تعليم أولاده .. ووالدتى .. كنموذج للمرأة الصعيدية كنا نخشاها ونحن كبار وقد عاشت حتى تجاوزت الثمانين .. وكنا نعمل لها حساباً .. وحتى اليوم عندما تذهب للصعيد تكشف هذه الصورة للمرأة وأستطيع أن أقول إنه فى الثقافة المصرية الأصلية لايوجد احتقار للمرأة .. وقد يكون هناك تفسير خاطئ أحياناً ولكن كثقافة لا أعتقد .. ومن أمثلة التفسير الخاطئ اعتقاد البعض أن تقدم الرجل على المرأة فى الصعيد أثناء السير فى الشارع نوع من التميز أو التعالى .. ولكن الحقيقة أنه المقصود بذلك الحماية فى الأساس!!

* هل يعنى ذلك أن الانتماء للصعيد أو الخروج منه يمكن أن يكون مفتاحاً للشخصية ؟

** بالتأكيد .. والشىء الوحيد الذى أشعر بأننى متعصب له هو كونى صعيدياً ! أكثر من ذلك لايمكن فهم شخصية عبدالناصر بدون الجانب الصعيدى فى تكوينه والذى يبرز فى اعتزازه بكرامة مصر وكرامته .. والصعيدى (الحافى) حتى اليوم إذا ناداه عسكرى يرد عليه (إيه .. عايز إيه) والصعيدى متمرد على السلطة .. ولذلك لايعجبكم أنتم أبناء المدينة والحضر فتؤلفون النكات عليه .

خاتمة من المستقبل

* عندما التقينا كان الهدف هو التساؤل عن المستقبل وليس الوقوف عند أعتاب الأمس .. ماذا تفعل أنت اليوم ؟

** بداية .. فإننى أقرأ مايحدث وأبرز ما يجرى فى العالم يتغير وكل قدراتى أوجهها إلى مايجب أن أتعلمه كى أستطيع النظر للمستقبل وتفهمه .. لقد أدرت مشروعاً بحثياً يتبع الأمم

المتحدة واستمر لمدة خمس سنوات من (١٩٨٠ ـ ١٩٨٥) حول المستقبلات العربية الجديدة ـ وحالياً بدأت العمل فى التحضير لمشروع بحثى اسمه مصر عام ٢٠٠٢ وهو عمل علمى ليس له علاقة بالتمنيات أو التخمينات . وليس إستراتيچية تنمية إنما هو تحليل عميق للاتجاهات الواقعية التى حكمت خلال الـ ٢٠ سنة السابقة ـ ثم نستخدم الوسائل الرياضية الحديثة المتاحة والتى يوفرها الكمبيوتر ـ ونعمل لطاقة العلاقات بين مختلف القطاعات وعلى ضوء هذا نرى احتمالات المستقبل بحيث ينتهى العمل بأن نطرح على المجتمع المصرى ثلاثة سناريوهات ممكنة التنفيذ .. وكل سيناريو يحتوى على تقدير لتكاليفه الاجتماعية ـ لأى إجراء اقتصادى يفيد ناساً ويضر آخرين .. لكن المهم أن المحصلة النهائية تكون للأغلبية والمجتمع كله وسوف يطرح المشروع على صانعى القرار وكافة المستويات والمهم أننا مع ذلك لن نتقدم بتوصية لتنفيذ سيناريو معين لأن القرار هنا لابد وبالضرورة أن يكون سياسياً ولكننا نقف عند نهاية المسعى العلمى لاحتمالات المستقبل وأملى الوحيد الآن أن يكون أمام العرب مرجعية مستقبلية .. لأن للأسف المرجعية التى نستند إليها مرجعية ماضوية حتى أننا بدأنا نسمع أناساً يتحدثون عن أن الماضى أفضل ـ وهذه رؤية غير علمية لأنه لاعودة للوراء والحياة تتغير والبشر يتغير وناس تفقد قدرتها على الإنتاج وناس تنتج بكفاءة متزايدة وهذه سنة الله فى خلقه ـ ولكن الجديد أن حركة التنفيذ متسارعة بحيث إذا لم يسرع المجتمع أو الناس لفهمها يتخلفون .. ولذلك فإن كل مساعى العلم تستهدف أن يتجه عدد متزايد من الباحثين العرب للأخذ بالنظرة المستقبلية وسوف أطرح مثالاً بسيطاً وهو أنه مازال لدينا نصف السكان يعانون الأمية بالتعريف البدائى (أى عدم معرفة القراءة أو الكتابة) وذلك عكس التعريف الحديث الذى يرى أن الأمى هو الذى لايعرف استخدام لغة الكمبيوتر .. ومثال آخر أن التعريف الحديث للعامل يفترض حصوله على مؤهل جامعى .. أيضاً أصبح من مقاييس التنمية المستخدمة نسبة من يدرسون العلوم والهندسة إلى مجموع الدارسين فى الجامعات إذن نحن أمام عالم جديد يطرح العديد من مقاييس التقدم والنهضة الحديثة .. مقاييس مختلفة لابد أن تجعلنا ننظر للمستقبل بأعين جديدة .. ولامفر طبعاً لهذه الرؤية أن نقول أن لمصر قضية أساسية وهى أن مواردها الطبيعية محدودة .. ولكن الموارد البشرية كثيرة .. ولكي يتم استثمار هذه الموارد لابد من تأهيلها ولامفر من أننا سنستورد مواد أولية وبعض الغذاء وأن نصدر مواد مصنعة وبدلاً من بيع طاقة العمل كمادة خام (العمالة) لامفر من أن نصدر منتجات لأن ذلك هو الأفضل اقتصادياً ولاسيما أن قيمة المواد الأولية من أى سلعة لاتتجاوز ١٠٪ من قيمتها والباقى كله قيمة مضافة من عمليات التصنيع والنقل والتجارة وغيره .. وهذا كله ليس جزءاً من تفكير الأمنيات إنما بات مطلباً علمياً ستؤكد تلك السيناريوهات المستقبلية التى بدأنا مشروعنا لإعدادها.

لامفر من أن ننمو .. ومصدرنا الأساسى هو قدرة البشر على العمل أى لامفر من التعليم إذن فوجود نسبة ٥٠٪ من السكان أميين يعتبر كارثة !! والعامل الأمى عبء على التنمية .. والمتعلم عنصر تنمية .

السيد ياسين

لا يمكن أن نقدم العزاء للعروبة

الدكتور سيد يسين واحد من رموز البحث الاجتماعي والسياسي في مصر، قدم مجموعة كبيرة من البحوث والدراسات الاجتماعية والسياسية حلل فيها الكثير من سلبيات المجتمع ودور المثقفين حيالها.

وتميزت إنتاجاته من القيم البحثية والمعرفية التى اكتسبها من تتلمذه على يد رواد كبار فى مجال البحوث الاجتماعية والقانونية، أمثال حسن صادق المرصفاوى الذى كان معروفاً بصداقته لطلبته فى كلية الحقوق، والدكتور أحمد خليفة والدكتور مصطفى سويف.

التحق د. يسين بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية فى العام ١٩٥٧.

وهذه القيم التى انتقل بها إلى مؤسسة الأهرام عام ١٩٧٥، كخبير منتدب من المركز القومى ساعدته فى أداء دوره كمثقف ملتزم وموضوعى من خلال عمله بمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية فى الأهرام.

نحاول أن نقدم كشف حساب الجيل الذى ينتمى إليه السيد يسين عما قدموه للأجيال التالية على مشارف القرن الجديد كما نحاول استشراف آفاق المستقبل العربى بشكل عام والمصرى خاصة خلال هذا القرن.

* اسمح لى بأن أبدأ هذا الحور عن الجيل الذى تنتمى إليه باعتباره الجيل الذى هيمن على ساحتى السياسة والثقافة منذ عهد الثورة حتى الآن، واسمح لى أيضا بأن نعتبر الثورة خطأً فاصلاً باعتبارها بدأت فى منتصف هذا القرن الذى أوشك على الانتهاء، ألا ترى أن جيلك لم يتمكن من ترسيخ قيم ثقافية وسياسية فى المجتمع وعلى رأسها مفاهيم الديمقراطية ؟

** أنا أنتمى إلى جيل مارس السياسة بوعى قبل ١٩٥٢، وعشت مرحلة تدهور النظام الحزبى القديم فى مصر منذ فترة الحرب العالمية الثانية وحتى عام ١٩٥٢، وهذه أسميها مرحلة تدهور النظام الليبرالى فى مصر.

لقد أصبح واضحاً بعد نهاية الحرب وجود مشكلتين أساسيتين فى مصر استنفر جيلى كله بشأنها، وهما الاحتلال الإنجليزى وكيفية التخلص منه، والمشكلة الاجتماعية أى الفجوة الطبقية بين الأغنياء والفقراء فى ريف مصر وحضرها.

فيما يتعلق بالمشكلة الأولى فقد كانت مثار لسقوط وزارات ومظاهرات قمنا بها كطلبة فى الأربعينيات والتى كان لها دافعان رئيسيان الأول مصرى خالص يتعلق

بالاحتلال الإنجليزى أما الثانى فهو الشعور العربى الذى كان بالغ العمق فى مصر – على عكس ما يظن الناس – فالشعب المصرى كله كان يتابع القضية العربية فى يوم وعد "بلفور" فقد قامت مظاهرات فى المدارس والجامعات، كما كانت هناك مظاهرات احتجاج على سياسة فرنسا فى الجزائر وأخرى لمناصرة الشعب السورى والشعب اللبنانى، فقد كان هناك شعورا وطنى عارم على المستوى المصرى.

أما المشكلة الطبقية فقد عبر عنها الشعب المصرى فى حوادث مشهورة تمرد فيها الفلاحون على الإقطاعيين إلى حد الاشتباك.

وفى هذه الفترة منذ ١٩٥٠ وحتى ١٩٥٢، بدأنا نشعر بأن الأحزاب فقدت مصداقيتها. لماذا ؟ حزب الوفد كان هو حزب الأغلبية فى ذلك الوقت، ولكنه لم يحكم فى تلك الفترة اكثر من ٨ سنوات، وتحالف عليه أحزاب الأقلية والإنجليز لإقصائه عن الحكم، والنخبة الليبرالية التى تمثل أحزاب الأقلية تآمرت عليه وهو ما يعنى عدم تطبيقهم للمبدأ الأساسى فى الديمقراطية القائل بتداول السلطة.

* هل يعنى هذا أن النقد الاجتماعى بدأ مع سيادة الإحساس بعدم فاعلية الأحزاب؟

** بالضبط تصاعدت حدة النقد الاجتماعى من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، سيد قطب أصدر كتابة الشهير "العدالة الاجتماعية فى الإسلام" وكانت رؤية يسارية.

خالد محمد خالد اصدر "من هنا نبدأ" كما اسهم محمد مندور والشيوعيون، باختصار شاركت جميع القوى الوطنية ضد النظام القديم، ولكن لم تكن هناك قوة معينة تستطيع أن تغير، الضباط الأحرار قاموا بالثورة ولابد ان نعرف ان نشأة هؤلاء الضباط سياسيا كانت فى ظل الأحزاب، فهم كشباب وطنيين فى الثلاثينيات وبداية الأربعينيات " لفوا على الأحزاب كلها"، عبد الناصر ذهب إلى "مصر الفتاة" واحتك بالشيوعيين وبالإخوان المسلمين ثم استقر رأيهم، أرادوا تكوين هيئة مستقلة عن الأحزاب تقوم بانقلاب والذى تحول إلى ثورة، وبالتالى يمكننى ان أقول ان برنامج الثورة هو برنامج الحركة الوطنية قبل ١٩٥٢.

* كيف ؟

** لم تكن هناك فكرة واحدة تبنتها الثورة لم تكن معروفة أو مدعومة بمطالب الشعب المصرى، الإصلاح الزراعى كان مطلبا تقدم به إبراهيم مدكور ومحمود خطاب وإبراهيم شكرى رئيس حزب العمل.

* هذا الاستعراض التاريخى هل يعنى ان جيلك عندما قفز إلى قطار ٢٣ يوليو ليقدم نموذجا فى الاحتواء ويصبح جزءا من النظام السياسى،ألم يرسخ بهذا المعنى فكرة أن يصبح المثقف موظفا من هذه اللحظة حتى اليوم ويتحول المثقف أو المفكر إلى مفسر أو مؤيد ومازلنا نعيش هذا ؟

** أنت توصلت إلى نتيجة معينة غير صحيحة، فهذا الجيل بانتماءاته المختلفة - أخوان مسلمين وأحزابا رفضوا طرح الثورة فى بدايتها، لكن عندما ببين وجه الثورة الحقيقى وانحيازها للفقراء ورغبتها فى تطبيق نوع من العدالة الاجتماعية فى المجتمع تغيرت المواقف، وكنا كجيل قد سئمنا من الألعاب الحزبية القديمة وفقدنا ثقتنا فى الأحزاب، وكنا نريد إدارة سياسية جديدة فى المجتمع تختلف عن الإدارة الحزبية التقليدية.

يمكن ان نقول ان النقطة الحاسمة فى الثورة كانت سنة ١٩٥٤، حين قامت الثورة بإلغاء الأحزاب وتأسيس هيئة التحرير، فى ذلك الوقت لم تكن الحزبية موضع اهتمامنا - وأنا هنا أتكلم عن نفسى - كنا مهتمين ببرنامج وطنى للتنمية والنهوض بالبلاد حتى لو كان ذلك على حساب تأخر الديمقراطية.

نحن اعتبرنا ان ثورة يوليو هذه هى التى ستتيح للطبقة الوسطى أن يأخذوا فرصتهم، وهى الأزمة التى عبر عنها نجيب محفوظ فى "القاهرة ٣٠ وغيرها، أزمة الطبقة الوسطى المحاصرة".

ثورة يوليو هى التى فتحت الأبواب أمام الطبقة الوسطى المصرية، وهى التى تقود النهضة فى البلاد حتى الآن، وعصب المجتمع المصرى الآن هو نتاج هذه المرحلة التاريخية نتاج مجانية التعليم وسياسة البعثات التى أرساها عبد الناصر.

* بين قوسين.. هل كان جيلك موافقا على الثورة انتماء لها ولتوجهها الفكرى، أم خوفا من عصاها الثقيلة التى ألهبت ظهور المثقفين المصرية خاصة بعد أزمة ١٩٥٤؟

** لست متفقا معك، ولا ان نفرق بين الفئات السياسية والتى أخذت موقفا عدائيا من الثورة مثل الأخوان المسلمين، الثورة كانت عنيفة وحادة فى مواجهتهم.

أنا ضد تعذيب أى مسجون سياسى شيوعيا كان أو اخوانيا أو غيره، ممارسات الثورة فى هذا مدانة، من الممكن ان أحيد خصومى وأدخلهم السجن!، هذا وارد لان أى ثورة تعتقل خصومها الذين حاربوها.

عند إلغاء الأحزاب السياسية لم يظهر أحد المؤيدين السابقين، أقاموا الاتحاد الاشتراكى، انا كنت طالبا فى كلية الحقوق، قررت ألا اشتغل بالسياسة رغم أننى كنت عضوا فى الأخوان المسلمين قبل ١٩٥٢، واختلفت معهم وتركتهم فى ١٩٥٤، قبل ان يحدث أى شيء.

وما حدث بعد ذلك أنه كأى ثورة توجد فئات تتعارض مصالحها مع الثورة هى التى قاومتها لكن الحكم على أى ثورة هو من خلال كيفية تعاملها مع خصومها.

أنا ضد التجاوز فى التعامل مع الشيوعيين والأخوان المسلمين، فى أواخر الستينيات حدث نوع من أنواع سيطرة أجهزة المخابرات والمباحث على الجو العام وهو

ما سبب نوعا من الخوف من الكلام والنقد بشكل عام - هذا صحيح، وهنا تأتى المفارقة انك موافق على خطوط المشروع الناصرى بشكل نقدى ولكنك غير موافق ! على الممارسة، وهذه كانت المعضلة التى يواجهها العديد من المثقفين المصريين الذين ليس لهم انتماءات محددة سواء للشيوعيين أم الأخوان المسلمين فلم يكن الأمر خوفا من سياسة العصا الغليظة وانما هو اختيار لتأجيل موضوع الديمقراطية إلى انه تتم إعادة توزيع انساق المجتمع المصرى.

* الدكتور يحيى الجمل قال لى فى حوار أجريته معه (خطيئة جيلى انه قدم شيكا على بياض لجمال عبد الناصر)؟

** لم نقدم شيكا على بياض، بدليل أننا حاولنا ان نكتب بقدر ما تسمح به حرية التعبير،لكننا مارسنا ذروة النقد فى وجود عبد الناصر، أريدك ان تعود إلى اعداد الأهرام والجمهورية والأخبار فى عام ١٩٦٦-وأنا لدى الملف - لترى كيف غطت الصحف الثلاث أعمال ندوة المبعوثين والتى شاركت فيها مدعوا من بعثتى فى باريس، فهناك نقد موجه لعبد الناصر شخصيا وللنظام الناصرى سواء ما يتعلق بالحريات أم الديمقراطية أم ظهور طبقات جديدة، فنحن مارسنا النقد.

حدثت عملية مقايضة وكنا مخطئين فيها، فقد تصورنا انه من الممكن تأجيل الديمقراطية حتى تترشح قواعد العدل الاجتماعى، وكان هذا خطا تاريخيا لا نعتذر عنه لسبب بسيط لان هذه المسألة جزء من الممارسة، وكان الدرس التاريخى للحقبة الناصرية انه لا يمكن ان تمارس الإصلاح الاجتماعى أيا كانت راديكاليته بغير ممارسة ديمقراطية لانه لو كانت هناك ممارسة ديمقراطية لكان يمكن للشعب ان يدافع عن مكتسباته بشكل اقوى، وبالتالى أصبحت مسألة الديمقراطية مدخلا أساسيا لأى مفكرا أو باحث من هذا الجبل يدرك ان المسألة لها ظروفها التاريخية.

* فى نهاية القرن يبدو هذا الجيل وكأنه لم يأخذ بيد جيل آخر ويقدمه إلى المجتمع؟

** هذا غير صحيح، فهناك الآن جيل فى مصر من تلامذتنا أعطينا لهم كل ما نستطيع من قيم علمية ومنهج علمى، وهم الآن نجوم بارزة فى تخصصاتهم.

* أريد ان أوسع السؤال وأقول هل هناك قيم ثقافية عليا متروكة لجيل كامل؟

** تم هذا من خلال الممارسة والنقد الذاتى ، كان هناك حوار دائم بيننا ، واخذ أشكالا متعددة، أخذ شكل حقهم فى انتقادنا وان نقبل هذا النقد، وان نوجه إليهم من جهتنا النقد وان نربيهم تربية علمية.

* أنت من الاشتراكيين الذين رأوا الاشتراكية بمفهومها الناصرى تحقيقا للعدل الاجتماعى،الاشتراكية الآن محل تساؤل، وكذلك الديمقراطية التى تأسست حتى الآن بلا

قواعد، وأنت فى نهاية القرن العشرين، وتأمل ان ترى جيلك وهو يـ سلم أفكاره الأساسية فى هذه القضايا إلى جيلنا إلى سيدخل القرن الجديد، كيف؟

** حدثت تحولات عالمية وعربية ومصرية، لا يمكن للتجربة المصرية ان تنفصل عن التحولات العالمية، تجربة الماركسية ومحاولة تطبيقها فى الاتحاد السوفيتى تجربة تاريخية فذة،وموقف المثقفين الفرنسيين فى الأربعينيات والخمسينيات عبر عن تضامنهم مع الاتحاد السوفيتى وكانوا يساريين ولكن عند دخول الجيش السوفيتى إلى تشيكوسلوفاكيا ١٩٥٦، قدم اغلبهم استقالاتهم من الحزب الشيوعى، وانقلبوا وأعادوا النظر فى التجربة.

المثقف يخطئ وينتقد ذاته ويصحح أخطاء ويغير مفاهيمه، وما حدث هو ان تجربة تطبيق الماركسية فى الاتحاد السوفيتى، كشفت عن ضعف فى أسسها النظرية، ولابد ان تكون لنا الشجاعة ونقول هذا الكلام.

أنصار الإسلام السياسى يقولون ان لديهم النص فى الآية والحديث وان الماركسية كانت خطأ هناك خلل فى الصيغة السياسية الإسلامية، لماذا ؟ لان الإسلام اكتفى بمبدأ أخلاقى اسمه الشورى، لم تكن هناك مؤسسات ملزمة للشورى، ولا مؤسسة تدافع ضد الحاكم المستبد، وبالتالى ساد الاستبداد.

وكمعارض أو مثقف نقدى نزيه أقول يبدو ان هناك ضعفا فى النظرية السياسية الإسلامية لأنها اكتفت برفع راية الشورى بدون مؤسسات تدافع عن الشورى، وهكذا فالمثقف يتغير ويستفيد من أخطائه ويعترف بهاَ أحيانا.

ونحن كمثقفين مصريين أعدنا النظر فى التجربة المصرية نفسها، ونحن فى قلبها عام ١٩٦٦، قبل الهزيمة وقبل موت عبد الناصر.

* لم يرتفع صوت المثقفين المصريين أو بعضهم بالهجوم وبالدفاع عن التجربة المصرية الوطنية التى بدأت فى عام ١٩٥٢ الا عندما أعطى الخطاب السياسى الجديد فى مصر الضوء الأخضر بالهجوم.

** ليس صحيحا، حتى قبل ١٩٦٦ كان هناك نقد بلغ ذروته، ولم يعط لنا أحد الضوء الأخضر ولكن النظام نفسه فوجئ بالنقد، وعبد الناصر فض المؤتمر بعد ثلاثة أيام وقال "كفاية كده".

* ونحن على أبواب قرن جديد، ما النظرة الانتقادية التى يمكنك ان توجهها إلى المثقفين المصريين فى نهاية القرن ؟

** هذا سؤال واسع ، لان المثقفين اتجاهات شتى، هناك أولا مثقفون من أنصار الإسلام السياسى وأنا وجهت إليهم النقد وعندى كتاب كامل اسمه (الكونية والأصولية وما بعد الحداثة) ولست من أنصار وجود نظرية سياسية إسلامية مختلفة عما يجرى فى

البلاد، كما أننى ضد المتشبثين بالقيم أو مواساة الشيوعية القديمة والذين يدعون ان ما حدث فى روسيا عيب فى التطبيق.

وأقول بشكل عام ان مشكلة المثقفين المصريين هى عدم متابعتهم النقدية والفكرية العميقة لتحولات النظام العالمى، وأقول فى رأيى الخاص ان مهمة المثقف هى:

أولا: ما اسميه التتبع النقدى للفكر العالمى باتباع الأساليب العلمية ومناهج علم الاجتماع للمعرفة وغيرها.

ثانيا : ممارسة النقد الذاتى، وهو ما فشل فيه المثقفون المصريون، والنقد الذاتى ليس فضيلة عربية - للاسف الشديد - وإنما فضيلة غربية، فالأحزاب السياسية والمثقفون والكتاب وممثلو النظام لابد ان يمارسوا النقد الذاتى.

ثالثا: ما نسميه ممارسة الإبداع الذاتى فى ضوء تتبع الفكر العالمى، أى ان أبدع نظريتى الخاصة التى تتعلق بالبنية المحلية، وبالمجتمع المصرى وهناك تقصير شديد من المثقفين فى غالبيتهم لأنهم لا يتابعون كما ينبغى تطورات الفكر العالمى ولا يمارسون النقد الذاتى أو الإبداع الذاتى.

* فى هذا السياق كيف تنظر مع جيلك إلى القضايا الأساسية التى تركز عليها اهتمامك فى بداياتك، ما مصير الطبقة الوسطى؟ وكيف ترى قضية العدالة الاجتماعية، والعروبة؟ ومدى الإخلاص لفكرة الديمقراطية؟

**بالتأكيد ان الظروف والمفاهيم تغيرت الآن فمفهوم العدالة الاجتماعية اختلف عما كان عليه فى الخمسينيات والستينيات .كيف ؟ السياق فى الماضى كان محاولة إعادة توزيع الدخل بطريقة اكثر عدالة لدى الطبقات المختلفة، التحدى الآن اصبح مختلفا وهو تحدى المعرفة وتحول الاقتصاد إلى ما يسمونه اقتصاد المعرفة، فالتحدى القادم فى القرن الجديد هو بين من يعرف ومن لا يعرف وليس من يملك ومن لا يملك.

وحتى فى المجتمع المصرى الآن لو كان هناك من يملك ولا يعرف، فليس أمامه مستقبل لأننا دخلنا فى اقتصاد المعرفة لان الثورة التى يشهدها العالم الآن تؤدى إلى تحويل المجتمع إلى مجتمع المعلومات العالمى، هذا المفهوم له آثار سياسة واقتصادية واجتماعية فمجتمع معلومات يعنى حرية تداول المعلومات، وترشيد الخطاب السياسى والارتقاء به، وحق كل مواطن فى المعلومات لكى يكون رأيا إيجابيا أو سلبيا ومراقبة أداء الحكومة وهذا من حقى، مجتمع المعلومات يوفى هذا، وبالتالى فمجتمع المعلومات سوف يساعد على الممارسة الديمقراطية والمشاركة الشعبية.

* الطبقة الوسطى، كيف تراها الآن وكيف ترى مستقبلها ؟

** الطبقة الوسطى التى تتكلم عنها تغيرت معالمها ، وأى طبقة بها شرائح متعددة ، فهناك الآن الطبقة العليا من الطبقة الوسطى خبراء وفنيين التحقت بالطبقة العليا ،

وطبقة وسطى تكافح وتناضل للحفاظ على موقعها وهناك شريحة ثالثة سقطت بسبب التضخم وارتفاع الأسعار .

* هل تعتقد أن هذا الحراك سواء إلى الأعلى أم إلى الأسفل تم طبقا لما تراه من معطيات جديدة أم لمعطيات قديمة ؟

** لا .. هذا التغيير عملية اجتماعية معقدة ومستمرة ، بمعنى أن الطبقة الجديدة ظهرت فى رحم النظام الناصرى ، وفى مؤتمر ١٩٦٦ ، عقدت ندوة فى السفارة المصرية فى باريس نظمها "حسن حنفى" موضوعها "الطبقة الجديدة فى مصر" كان هذا قبل أن يأتى السادات والانفتاح فى مصر وهذا المنطق تاريخى ، هناك أشياء تظهر من العدم فجأة ، فقد ظهرت طبقة جديدة من المنتمين للقطاع العام متجاورة مع القطاع الخاص حيث بدأوا يشعرون بان النظام اصبح محور حركتهم وهم كانوا نواة الطبقة الجديدة فى مصر بعد الانفتاح ، كل هذا اثر على الطبقة الوسطى فى مصر ، صعد من صعد وهبط من هبط ، وبقى حزب المناضلين من ذوى الدخول الثابتة وهم موظفو الحكومة للبقاء بينما المركب تغرق بهم .

** عندما نظل على فكرة العروبة ، ألا ترى انه أن الأوان ليتم إعلان عربى جديد بدل السابق الذى لم يخلف سوى حرب العراق للكويت فلا الوحدة تمت ولا العروبة استمرت وإنما سادت التجزئة ، هل هذا الكلام صحيح ؟

** غير صحيح ، ما مفهوم العروبة ؟ انه سؤال مهم ، وهنا افرق بين ثلاثة مفاهيم ، هناك ما يسمى بالشخصية القومية العربية ، وهذه لها سمات نفسية واجتماعية تجمعنا معا بسبب تشابه القيم الثقافية ، فهذه عملية نفسية اجتماعية لن تتغير.

وهناك ما يسمى بالقومية العربية وهى تقوم على أيديولوجيا سياسية تقول أن ما يجمعنا اكثر مما يفرقنا وهناك الوحدة العربية كهدف سياسى قومى .

الشخصية القومية العربية هى التى تتغير وتتحول ، ولكننا موجدون ، القومية العربية لم تسقط ، الذى سقط هو تحقيق الوحدة العربية . لماذا فشلنا فى تحقيقها ؟ لان النظرية نفسها قامت على أسس يسارية تجاهلت الخصوصيات الثقافية لكل بلد عربى وتفاوت درجة التطور الاجتماعى فى المجتمعات العربية ، ثم ركزت على الإقليمية والقطرية التى كانت سبب كل المصائب .

للقطرية أسس راسخة وستظل ، وهذا منطقى ما حدث تاريخيا هو أن فكرة القومية العربية بعد ١٩٥٢ ، تقاطعت مع استقلال الدول العربية الذى حققته نخب سياسية معينة .

ففكرة الدولة الواحدة والعالم الواحد فكرة عبثية ، ثم الهجوم على الدولة القطرية كان لا أساس له ، ففى الغرب لا يسمونها دولة قطرية وإنما الدولة الوطنية التى استخلصت

نفسها من براثن الاستعمار وهذا حقها عند الاستقلال ، أن تنمو وتتطور وتتدرج نحن نقول أن هناك إعادة صياغة للنظرية الآن .

* إعادة صياغة أو توديع ، أليس من الأوقع أن نتقبل العزاء فى فكرة العروبة ؟

** أنا ضد تقبل العزاء فنحن قدمنا نقدا للخطاب القومى العربى التقليدى وقلنا أن أحد عمد النظرية الجديدة الدولة القطرية وإنها أساس الوحدة العربية قد يبدو هذا متناقضا لكن هذا حقيقى عليك أن تعترف كقومى عربى أولا بان القطرية أساس للوحدة العربية ، بدأت باستقلال كل دولة وخصوصيتها ومن حق نخبتها أن تحكمها حكما مباشرا . المسألة فى النهاية هى التنسيق السياسى والاقتصادى ، كالسوق العربية المشتركة وغيرهما أو عمل نوع من أنواع الاتحاد الفيدرالى ويبقى للدولة قوامها الخاص.

* وماذا عن المستقبل فى مصر كما تراه ؟

** هذه هى المعركة ، بمعنى كيف أحول المجتمع المصرى إلى مجتمع حديث وعصرى ، كمعلوماتى اعتبر هذه معركتى كيف افتح آفاق التعليم المصرى المغلقة فالتعليم معناه إتاحة الفرصة لكل فرد ، ورغم وجود التعليم المفتوح الذى يعنى تأكيد قيمة استمرار التعليم نجد أن هناك قيودا ، رغم أن هناك ضرورة ، فالذى حصل على ليسانس منذ ٣٠ عاما ليست لديه معرفة بالكمبيوتر ولابد أن نفتح له هذه الآفاق وان نرتقى إلى مستوى التطورات الموجودة فى العالم لأن الجات ستفتح باب التنافس العالمى .

* هناك نخبة سياسية تتكلم عن المستقبل ، هل تعتقد عندما نقرأ سمات هذه النخبة إنها ستطرح حل المشكل كما هى أم إنها ستطرح بدائلها ؟

** هذه النخبة متغيرة وليست ثابتة ، فالنخبة لتى تحكم مصر منذ الخمسينيات وحتى الآن متغيرة ، وهناك عناصر جديدة دخلت فيها ، خذ مثلا تجربة الدكتور هشام الشريف فى إنشاء مركز تبسيط المعلومات ودعم اتخاذ القرار نخبة جديدة على مستوى عصرى .

على مستوى الأحزاب سنجد إنها نخبة متخلفة للأسف وأفكارها متهافتة ليست على مستوى العصر ، ولديك مثلا نخبة وزارة الخارجية وهى نخبة على اعلى مستوى، لذلك ستجد فارقا كبيرا بين الفكر لديها وبين المتاح لدى نخب الأحزاب ، هل هناك حزب لديه سياسة تكنولوجية مقترحة ؟ على عكس ما يحدث فى أوروبا مثلا ، مركزا أبحاث على اعلى مستوى فى كل حزب فى ألمانيا مثلا ، وبشكل عام لا اعتقد أن خطاب الأحزاب يرقى إلى مستوى تحديات العصر .

محمد عمارة

هناك قصور لدى الجماعات الدينية في مجال تطوير الفكر الإسلامى

هل هى مصادفة أن يواكب الهجوم على المفكر والمجاهد الإسلامى الكبير جمال الدين الأفغانى .. الدعوة لفكرة العلمانية ؟

وهل ترديد الدعوة لما يسميه البعض بفصل الدين عن الدولة .. هو الحل لمشاكلنا الحضارية فى مصر وفى المنطقة العربية ؟ .. وهل الهوية الإسلامية لهذه المنطقة من العالم تنافى التقدم المنشود والأخذ بوسائل العصر ؟

تساؤلات عديدة أثارتها تلك الدعوة التى يرددها بعض المثقفين حول ضرورة العلمانية لحل مشاكل مصر ..

ومن هنا كان الحوار مع المفكر الإسلامى المعاصر الدكتور محمد عمارة حول : الجذور والحقيقة والوهم فى هذه الدعوة .

يقول الدكتور محمد عمارة :

يبدو من إثارة هذه القضية أن بعض مفكرينا لايفرقون بين مراحل التطور التاريخية فى مجتمعاتنا وفى المجتمعات الأوروبية التى خضعت لهيمنة الكنيسة وكهنوتها فى العصور الوسطى .. فليست لدينا سلطة مقدسة .. وليس لدينا مفهوم الحكم بالحق الإلهى .. وبالتالى ليست لدينا مشكلة أوروبية حتى نبحث عن الحل الأوروبى لها .. وهو العلمانية ــ وحتى إذا وجدت لدينا بعض القيادات التى أرادت صبغ السلطة بالقدسية .. وتحدثت عن الخليفة والسلطان باعتبارهما ظل الله فى الأرض .. وباعتبار الخليفة لا يسأل عما يفعل .. حتى إذا كان هذا الجنوح قد حدث فى تاريخنا .. فهو جزء من التاريخ الاستبدادى .. وليس من التراث الإسلامى ويتوهم الذين يحبذون العلمانية ويدعون لها بأنها سبيلنا إلى الوحدة الوطنية باعتبارنا أمة ــ من الناحية القومية ــ تضم أقليات دينية أخرى غير مسلمة وهنا أيضاً إذا سألنا عن موقف الإسلام الحقيقى لن نجد أنفسنا بحاجة لفصل الدين عن الدولة وللدعوة للعلمانية ــ فالإسلام واضح فى أن لغير المسلمين ما للمسلمين تماماً فى كافة نواحى الاقتصاد والاجتماع والسياسة وكل مظاهر الحياة .

والإسلام واضح .. فى أن القانون الذى هو فقه المعاملات هو تشريع للفقهاء .. وهو بالمعنى الأدق قانون وضعى وضعه فقهاء المسلمين فى إطار روح الشريعة والكليات الدينية وآيات الأحكام التى جاء بها الوحى .. إذن الأمة مصدر السلطات .. والأمة هى التى تشرع وفق مصلحتها ولكن فى حدود ألا تحلل حراماً وألا تمنع حلالاً .

وتراثنا فى التشريع الإسلامى هو جزء من عبقرية هذه الأمة ـ وفى تقديرى أن غير المسلمين من العرب هم أولى بهذا التراث وهم أقرب إليه من القانون الرومانى أو القانون الفرنسى، على الأقل هو قانون حضارتهم .. وقانون قوميتهم ..

إذن لاخطر من صبغ الحياة بالصبغة الإسلامية .. لأن الإسلام السياسى والاجتماعى والاقتصادى هو جزء من تراث الأمة جمعاء على اختلاف عقائدها .. وليس بعيداً عنا كلمة مكرم عبيد : «نحن مسيحيون فى الدين .. ومسلمون فى الوطن» .

والمسيحية هى رسالة روحية .. ومهمة الكنيسة روحية .. بمعنى أنه ليس هناك قانون مدنى مسيحى ينافى وينافس ويناقض القانون الإسلامى . فالخيار أمام المسيحى بين قانون وطنى وقومى .. وقانون استعمارى غريب عن الروح الحضارية للأمة .. فلا خطر على الوحدة الوطنية من التوجه الإسلامى .. خاصة أننا لابد أن نعى أن العلمانية كجزء من فكرة «التغريب» هى امتداد للحضارة الأوروبية بعدوانيتها واستعلائها على غيرها من الحضارات ، بل أضيف أن هذه الفكرة هى أثر من آثار الغزوة الاستعمارية .. والتخلص من هذه المقولة وغيرها يعد جزءاً من تحقيق الاستقلال الحضارى .

* ولكن هناك رأياً يرجع محاولات التحديث والنهوض طوال القرن الحالى وماصاحبها من تجارب وطنية إلى صعود نجم فكرة «العلمانية» ويربط بينها وبين إحداث التقدم المنشود ؟

** القراءة الدقيقة والموضوعية للواقع تشير إلى أن التجارب العلمانية فى العالم الثالث أثمرت نمطاً فى التنمية والتحديث هو تقليد للنموذج الغربى ـ ومسار التاريخ يؤكد أن السبيل الوحيد لاكتشاف الملامح الخاصة للتجربة الذاتية يتأتى من الانطلاق من الشخصية الوطنية .. من المكونات الحضارية الخاصة .. ومن التمايز الحضارى الذى يدخل فيه معتقد الأمة ودينها وبالطبع فإن هذه المنطلقات الحضارية المتميزة لاتعنى الانغلاق أو العداء للحضارات الأخرى لأن التمايز الحضارى مختلف عن العداء الحضارى .

ولذلك فإننى أرى أن الاسترشاد بالمكونات الخاصة .. وبعث التراث المشرق والنورى للأمة .. هو ما يعين على اكتشاف التجربة الخاصة وليست فكرة العلمانية .

* ولكن .. لو ضربنا أمثلة : تجربة الخديوى إسماعيل فى تحديث مصر وتجربة ثورة ١٩

وقبلها ثورة عرابى كل هذه التجارب .. يرى البعض أنها جمعت الشعب وراءها تحت راية علمانية تفصل الدين عن الدولة !؟

** لو نظرنا لهذه التجارب : انظر لتجربة الخديوى إسماعيل .. فقد حدث تقدم مادى .. ولكن زادت قبضة الاستعمار .. حتى تغير القانون الذى أشار إليه د . لويس عوض فى مقالاته الأخيرة على أنه سمة علمانية وانتصار (للفكرة الإنسانية) أرى فى تقديرى : أن ذلك كان فى جزء منه ثمرة لعجز المؤسسة الدينية عن أن تطور القانون الإسلامى بحيث يستوعب حركة الواقع، كذلك فإن ثورة ١٩١٩ لم تكن غريبة عن تراث الأمة : فإن هذا التراث يدعوها لمناهضة المستعمر بشكل أساسى .. وعندما قال أحد الخطباء لسعد زغلول : أنت تدعم نهضة الأمة رد عليه : أنتم نهضتكم قديمة منذ محمد على وجمال الأفغانى فسعد زغلول ربط المد الوطنى بالنهضة الحضارية التى عرفتها مصر منذ العصر الحديث .. أيضاً : فإن ثورة عرابى رغم عودتها وتمسكها بشعار «مصر للمصريين» .. لم تقطع ارتباطها بالدائرة الإسلامية ، ويمكن القول أنه لو كان هناك تناقض لاتحله إلا العلمانية .. فإننى أقول أنه تناقض مع أهل الجمود الذين قد يتصورون فيجيء الرد عليهم عن طريق هرب البعض لفكرة العلمانية باحثاً عن الأمان ! .. ولكن الإجابة الحقيقية على تلك الأوهام هى فى الإسلام السياسى والاجتماعى والحضارى والذى يعتبر أيديولوجية هذه الأمة وليس إسلام العقائد والعبادات والتى يختص بها المسلمون فقط ، وعلى هذا .. فالعلمانية هى حل أوروبى لمشكلة أوروبية لاينادى بها فى مجتمعاتنا إلا خائف من وهم أو داع لأن نصبح هامشاً حضارياً لأوروبا !!

* من الملاحظ أن الدعوة للعلمانية ترتبط بالدعورة لفك ارتباط مصر العربى فما تفسير ذلك ؟ وهل الجمع بين الفكرتين مصادفة ؟ خاصة أن الداعين للفكرة الأولى هم أنفسهم المتحمسون للفكرة الثانية ؟

** إن الصراع الحقيقى الذى نخوضه من أجيال طويلة هو صراع بين الحضارة الغربية الغازية وحضارة أمتنا كأمة تبحث عن تحررها وتقدمها .. وحتى تنتصر الحضارة الأوروبية فلابد من تجزئة الفريسة .. ولما كانت العلمانية هى الصياغة الفكرية التى تعزل الأمة عن تراثها وتقطع تواصلها التاريخى والحضارى لذلك كانت سلاحاً فعالاً فى أن تقف بكل إقليم من أقاليمنا عند حدوده الجغرافية .. فكانت حاجزاً أمام الدائرة الأوسع من الدائرة الإقليمية : عربياً وإسلامياً ـ إن العلمانيين فى الحقيقة لايعادون الدائرة الإسلامية فقط .. بل هم أعداء للدائرة العربية لأن هناك رباطاً عضوياً بين العروبة والإسلام. الذين بشروا بالعلمانية فى تاريخنا الحديث كانوا يبشرون بالإقليمية ويرفضون عروبة الأمة سياسياً وقوميا وأيضاً يرفضون الدائرة الإسلامية .

* يرى البعض أن احياتنا الفكرية يتجاذبها تياران أساسيان هما التيار العلمانى من جانب .. والتيار السلفى من جانب آخر فما مدى صحة ذلك التوصيف .. وكيف أثر ذلك فى نهضتنا المعاصرة ؟

** هذا التوصيف صحيح حتى الوقت الحاضر : فالتيار العلمانى هدد الهوية الإسلامية للأمة واستفز الحس الإسلامى .. فكان تيار المد حيث أخذت الحركة الإسلامية شكلاً معتدلاً عندما كانت السمة الليبرالية ملحوظة فى حياتنا السياسية .. فلما سادت المنطقة الانقلابات العسكرية وأنماط الحكم التى تميل للشمولية ووقع الصدام بين الحركة الإسلامية وأنظمة الحكم فى المنطقة .. طمست قسمة الاعتدال فى فكر الإسلاميين السياسى وحلت محله قسمات الغضب والعصبية وهذا هو الذى يسميه البعض بالسلفية وأنا أتحفظ على ذلك الاسم : فالسلفية تعنى العودة للمنابع وللجوهر النقى .. وتعنى رفض البدع والخرافات والإضافات التى تراكمت على المنظومة الفكرية الإسلامية فى عصورنا الوسطى ، وتعنى ثورة تجديدية شاملة فى الفكر الإسلامى .. ولقد كان المجددون دائماً سلفيين، كان الأفغانى ومحمد عبده على وعى دائم بهذه الحقائق .. ولم يتوهما أبداً إمكانية صب الحاضر والمستقبل فى قوالب الماضى .. كانت المنابع الأولى طاقة إلهام .. ينظر فيها المجددون بعقل عصرى مستنير ، ثم يصوغون مشروعهم الحضارى وفق مشكلات العصر وطبقاً لاحتياجات العصر وفى مواجهة تحديات العصر ـ أما التيار الذى يسود الآن الساحة الإسلامية المحيطة بنا .. فإن «إفراطه» فى الغضب جاء ثمرة «للتفريط» العلمانى .. وبين تيارى الإفراط والتفريط علينا أن نبحث عن التيار الوسطى المجدد المنطلق من هوية الأمة الحضارية والباحث عن صياغة عصرية لمشروع حضارى ينهض بالأمة : يتسم بسماتها القومية والحضارية .. ويفتح فى ذات الوقت نوافذه على مختلف المواريث الحضارية للأمم الأخرى .

* هل يعنى ذلك أن الإسلام دين ودولة .. وإذا كان كذلك .. ألا تعتبر تلك فكرة ثيوقراطية .. كان التخلص منها إيذاناً بظهور الدولة الحديثة ؟

** الإسلام دين ودولة .. هذه حقيقة ، لكن ليس بالمعنى الذى يفهمه البعض من أن الدين هو الدولة .. وبالتالى فطبيعة السلطة دينية بمعنى أنها كهنوت مثل الذى عرفته أوروبا فى العصور الوسطى .. لا .. إننا عندما نقول دين ودولة .. فحرف (الواو) .. حرف عطف يفيد فى لغتنا معنى المغايرة .. أى أن الدين غير الدولة .. ولكن بينهما علاقات لاترتفع لحد الوحدة فتكون كهنوتاً ولاتصل إلى حد الانفصام فتكون علمانية : إذن هناك علاقة .. وهناك تمايز .. فعقائد الدين وأصوله ثابتة أما شئون الدنيا فهى متغيرة .. وهذه الحقيقة مؤكدة فى نصوص الدين .. فلماذا إذن نبحث عن نمط فكرى وقسمة حضارية غريبة عن تراثنا الحضارى .. ومكونات شخصيتنا القومية ـ وهنا أتساءل: من ينكر أن تيار الجامعة الإسلامية الذى تكون حول جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده قد خرجت من تحت عباءته العديد من حريات وثورات

التحرر الوطنى ؟ ولكننا كذلك لاننكر أنه فى ظل المد الاستعمارى وسيادة فكرة «التغريب» .. فإن حركات وطنية استلهمت علمانية ومفاهيم الغرب لكى تحارب بها السيطرة الاستعمارية .. وهنا أستطيع القول أن هذه الأمة عبر تاريخها وفى مواجهة التحديات كانت دائماً وأبداً تنظر فى أسلحة الخصوم فى الحضارات الأخرى .. وفى مواريث الأمم الأخرى لكى تضيف ما هو مفيد إلى مخزونها الحضارى ـ إذن فالانفتاح على الحضارات الأخرى مطلوب .. وإذا وجدنا فى هذه الحضارات ما نستفيد به لابد من الحصول عليه .. ولنضرب مثلاً على ذلك : فإننا إذا تجاوزنا الشكل العلمانى لثورة ٢٣ يوليو فمن الذى ينكر أن مشروعها الوطنى كان يضع الدائرة الإسلامية فى حسبانه ؟ وأن المد القومى العربى هو السبيل الأوحد لإبراز الرابطة الإسلامية ؟ وأن إبراز الشخصية القومية العربية هو فى حد ذاته خطوة كبيرة على درب الاستقلال الحضارى الذى يدعو إليه الفكر الإسلامى ؟ إذن ـ أستطيع أن أدعى أن كافة مشاريع التحديث والتحرر الوطنى التى اصطبغت بصبغة علمانية .. هى ذات مكنون إسلامى لأنها ـ سواء بوعى أو دون وعى ـ تتم فى إطار أمة .. الإسلام هو أيديولوچيتها ـ فقط المطلوب أن نعى ما هو الإسلام السياسى وأن نعى النواقص التى حرمت هذه المشاريع من أن تعلن هويتها الإسلامية كاملة غير منقوصة !

* هل يفسر هذا الرأى انتشار الجماعات الدينية فى مصر فجأة خلال السبعينيات ؟ .. وهل تفسر رؤيتك الكثير من الظواهر الفكرية والثقافية التى ارتبطت بالظاهرة ؟

** الواقع أن ظاهرة انتشار الجماعات الدينية المعاصرة ـ أو ما يسمى أحياناً بتيار الغلو أو التطرف فى التنظيمات الإسلامية خلال مرحلة السبعينيات قد يرجعه البعض إلى التطورات السياسية والاجتماعية التى ظهرت فى هذه المرحلة خاصة التطور الذى يتعلق بمعالجة القضية الوطنية والقومية الأمر الذى أدى إلى تطبيع العلاقات مع إسرائيل وعزل مصر عن المحيط العربى والإسلامى فى السبعينيات . وعلى المستوى الداخلى كانت هناك سياسة الانفتاح والخلل فى العلاقات الاجتماعية وما أدت إليه من استفزاز للحس الاجتماعى فى مصر أى كان هناك استفزاز للحس الوطنى والاجتماعى .. وكانت هناك سيطرة للتغريب ليس بالمعنى الذى عرفناه قديماً والذى يقف عند حدود الحضارة الغربية التى تأتى لنا من أوربا وإنما التغريب بمعنى وجود الظاهرة الصهيونية المستفزة داخل مصر .

هذه العوامل بالتأكيد كانت من أسباب بروز ظاهرة رد الفعل الدينى التى تمثلت فى الانتشار الذى اعتقد البعض أنه مفاجئ ـ للجماعات الدينية ـ لكن فى تقديرى أن هذه الحقبة .. حقبة السبعينيات لم تكن بداية هذه الظاهرة .. هى كانت فترة انتشارها . أما البداية فهى حلقة من حلقات السلسلة الطويلة والقديمة المرتبطة بالصحوة الإسلامية والمد الإسلامى فى وجه التغريب والتحديات الحضارية التى تواجه الأمة العربية كلها . منذ الهجمة الاستعمارية كان الخيار الإسلامى أحد سبل مقاومة هذه الهجمة وذلك منذ ظهور تيار التجديد الدينى فى

النصف الثانى من القرن التاسع عشر .. كانت حقبة الإخوان المسلمين هى حقبة الإسلام السياسى الذى يتوجه إلى الجماهير .. وكان الخيار الإسلامى يأخذ شكل تنظيمات الصفوة .. حركات اجتهاد : حركات فكرية وفلسفية وتجديد وعقلانية فى حقبة الإخوان منذ العقد الثالث فى القرن العشرين وبعد صدام هذا التيار مع ثورة ٢٣ يوليو وبعد سيادة النظم الشمولية فى المنطقة ومنها كثير من النظم العسكرية تخلى التيار الدينى عن الأسلوب الليبرالى المعتدل فى مواجهة خصومه ولجأ هو الآخر إلى أساليب أكثر تطرفاً وعنفاً وغلواً وأكثر جموداً .. وهنا ـ وفى ظل الحقبة الناصرية ـ بدأت بداية هذه الظاهرة المغالية المتمثلة فى المرحوم سيد قطب .. وما يلفت النظر أن بداية هذه الظاهرة ظاهرة الغلو فى الفكر الإسلامى .. ظهرت على يد سيد قطب فى النصف الأول من الستينيات وفى ظل تألق المشروع الناصرى قومياً واجتماعياً .. هنا وأمام الاستقطاب الذى أحدثه نظام ثورة ٢٣ يوليو للأغلبية الجماهيرية أدرك هذا التيار الذى كان مضطهداً أو مسجوناً أنه لابد من تحديد الحدود الفاصلة تماماً بينه وبين النظام القائم .. ومن هنا سار إلى الغلو .. فرفض كثيراً من المبادئ والتوجيهات التى لايفرضها الإسلام ولكنه رفضها لمجرد أن مصدرها هذا النظام الذى يعاديه !!

بل هذه التطورات التى شهدتها الحركة الإسلامية فى ظل هذه المرحلة ثم تصاعد هذه الملابسات بعد هزيمة ١٩٦٧ وبعد التطورات السلبية التى حدثت فى السبعينيات هى التى أدت إلى انتشار هذه الظاهرة واستقطابها لجمهور واسع من الشباب بعد ذلك .

* ما هو تقييمك لفكر هذه الجماعات وأين توضع على الخريطة الفكرية الدينية .. وما هى جذوره الحقيقية ؟ وتوجيهاته المطروحة ؟

** هذه الجماعات تعانى مأزقاً واضحاً على المستوى الفكرى منذ كتب سيد قطب كتابه «معالم فى الطريق» .. ففى هذا الكتاب تبنى عدداً من مقولات الأستاذ المودودى .. وهى مقولات تتعلق بالموقف من الديمقراطية والقومية وكون الأمة مصدراً للسلطات .. تلك القضية التى رفضها واستبدلها بما سماه الحاكمية الإلهية .. هذه المقولات كتبت فى ظروف الهند .. أى ظروف مغايرة لواقع الأمة العربية وواقع مصر .. فى ظروف الهند قبل التقسيم .. لأن فكر المودودى تبلور فيما بين ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين .. فى هذه الفترة كانت الهند ذات أغلبية هندوكية .. فكان المودودى يناضل ضد الديمقراطية التى تعنى حكم الأغلبية .. أى حكم الهندوكيين للأقلية الإسلامية حكماً مؤبداً .. أيضاً رفض القومية .. لأن القومية السياسية بالنسبة له تعنى أن تتحكم قسمات الهندوك والهندوس فى القسمات الحضارية للأمة الإسلامية.

بعد استشهاد الشيخ حسن البنا افتقد التيار الدينى فى مصر القيادة الملهمة التى كانت

ضرورة لتخلف المرشد العام .. ومنذ بداية الخمسينيات وعقب استشهاد البنا .. بدأت الترجمة لكتابات المودودى ورسائله .. بدأ المودودى يتحول إلى مفكر ليس للجماعة الإسلامية فى الهند فقط .. إنما أيضاً للتيار الإسلامى فى مصر والعالم العربى .. هنا انتزعت مقولات المودودى من ظروفها وملابساتها لتوضع فى إطار أمة أغلبيتها مسلمة !!

فنجد فى كتاب «معالم فى الطريق» للمرحوم سيد قطب .. التبنى لهذه الأفكار : فيرفض القومية .. ويرفض الديمقراطية .. ويتكلم عن الحاكمية الإلهية .. هنا بدأت هذه المقولات التى لا علاقة لها بواقعنا تصبح هى النظرية والمقولات الفكرية التى تسود وسط هذا التيار المغالى والمتطرف من تيارات الحركة الإسلامية .. وهذا الموقف كان يعنى العجز عن الاجتهاد الذى يطور الفكرة الإسلامية لتواكب الواقع الذى تعيش فيه .. استعارة فكر المودودى لواقع مغاير للواقع الذى كتب له هذا الفكر هو سلبية فيما يتعلق بالاجتهاد والتجديد الإسلامى فى ظروف الحركة الإسلامية المصرية والعربية .. وهذه السلبية هى السلبية الرئيسية أو المأزق الحقيقى فما يتعلق بتيار الغلو فى الجماعات الدينية ، هناك رغبة .. هناك حماس .. هناك شوق حقيقى لدى قطاعات كبيرة من الشباب كى يخدم دينه وأن يعمل من أجل الإسلام وأن يضع الواقع فى إطار إسلامى وأن يصبغ الدولة والمجتمع بالصبغة الإسلامية .. لكن هناك قصوراً فيما يتعلق بالإبداع والخلق والتطوير للفكر الإسلامى ليواكب هذا الواقع .. هم يعيشون فى مرحلة إغلاق باب الاجتهاد حتى المرحوم سيد قطب عندما ناقش هذه القضية قال نحن لن نتحدث عن القوانين أو عن الاجتهاد أو عن التجديد لأننا لم نصل إلى السلطة بعد .. عندما يصبح المجتمع ملكاً لنا نتحدث فى هذه الأمور .. إذن فالاجتهاد مؤجل .. وبالتالى فإنى أرى تناقضاً بين هذا الرأى والرغبة فى صبغ الواقع بالصبغة الإسلامية .. فهذه الرغبة تتطلب عاملين رئيسيين وجهدين عملاقين لابد أن يتوازيا ويتآزرا فى الإنجاز، أولهما : أنه لابد من تطوير الفكر والتشريعات والقوانين الإسلامية وما نسميه من فقه المعاملات لكى يواكب الواقع المتغير الذى يستجد لأن هذا الفكر .. وهذا الفقه تجمد منذ إغلاق باب الاجتهاد .. على حين أن الواقع لم يتجمد .. مما زاد الفجوة بين النظرية وبين الواقع الذى يفترض أن تعالج النظرية مشاكله .. هذا الواقع زاد من تطوره وزاد من بعد المسافة بينه وبين النظرية الفقهية .. الغزو الاستعمارى الذى أسهم فى تطوير هذا الواقع فى اتجاه يختلف عن روح الشريعة ويتصادم مع روحها فى كثير من الأمور .. فزادت الهوة ما بين الواقع الذى تطور وبين الشريعة أو بمعنى أدق فقه المعاملات الذى ظل جامداً عند القرون التى أغلق فيها باب الاجتهاد .. لابد من تطوير الفكر ليواكب الواقع .. ولابد من تنقية الواقع من الشوائب التى تصادم روح هذا الفكر الإسلامى لكى يتم مرة أخرى عقد القران بين هذا الفكر وهذا الواقع .

وبالتالى فإننى أرى أن المأزق الحقيقى لكافة تيارات الفكر الإسلامى فى عالمنا العربى يتمثل فى توقف الإبداع والاجتهاد فى صفوف المفكرين وفى صفوف شباب هذا الجيل .

* ولكن : ما هو الجديد الذى حملته هذه الظاهرة الدينية التى انتشرت فى السبعينيات .. ليس فى مصر وحدها .. بل فى المنطقة كلها ؟

** إن أهم الملامح الجديدة كان ملمح العنف .. هذا الملمح لم يكن مطروحاً من قبل فى ثنايا هذا التيار .. لكن فى فترة السبعينيات وأمام بروز التحديات السلبية التى سادت فى المجتمع واستفزاز الحس الإسلامى والفكر القومى والحس الاجتماعى .. برز تيار العنف واستقطب جزءاً من تيار الجماعات الدينية .

* ولكن هذا الصدام استمر بين التيار الدينى .. ومعظم الحكومات الوطنية التى ظهرت بعد الاستقلال فى المنطقة العربية والإسلامية .. ما تفسير ذلك ؟

** يجب أن نتفهم أن هناك خلافاً فى التوجه الفكرى وراء ذلك .. فالحكم الوطنى وإن حقق الاستقلال إلا أنه ظل فى كثير من الأحيان يأخذ بالنهج العلمانى .. وحاول دائماً أن يبنى التجربة الوطنية القومية على النمط الغربى .. كما أن العديد من الحكومات فى المنطقة لم تأخذ الشريعة معياراً للمشروعية .. مما جعل .. وسيجعل هذا التناقض قائماً حتى ولو حققت مثل هذه الأنظمة الإنجازات العظمى فيما يتعلق بتطوير الواقع وعلى مستوى آخر فإن نقص الإبداع وإغلاق باب الاجتهاد والتفسير المستنير والرؤية الرحبة التى تعجز بعض هذه الجماعات الدينية عن امتلاكها يمنعها من رؤية الإيجابيات فى تجارب النظم الوطنية .. على نفس المستوى فإننى أؤكد أن هذا الاختلاف والخلاف سيظل قائماً مادامت العلمانية هى التوجه الرئيسى للحكومات الوطنية فى المنطقة .

حسين أحمد أمين

عبد الناصر تبنى الهوية العربية لمواجهة أطماع إسرائيل

السؤال يذكرنا بالهجوم الكبير الذى قاده زكى مبارك ضد الباحث الإسلامى والمؤرخ الكبير صحاب (فجر الإسلام) احمد أمين تحت عنان "جناية أحمد أمين على العروبة والاسلام" فهل ورث الابن معركة الأب .

صاحب (دليل المسلم الحزين) والذى صدر منه حتى اليوم ٨ طبعات يؤكد انه امتداد لأبية ولكنه يختلف عنه .. ويعترف بوضوح : يظل أبى اكثر عمقا منى بكثير !

وحسين احمد أمين الذى ظهر على الساحة الثقافية والفكرية وهو يتجاوز الخمسين من عمره آثار الكثير من القلق والمشاكل . البعض قال انه كان يبحث عن الشهرة .. واعترف هو فى هذا الحوار بأنه يمكن أن تكون الشهرة قد لعبت أمام عينيه كثيرا ولكنه بالتأكيد كان يمثل خروجا على الرؤية المألوفة والاجتهاد السائد فى قضايا الفكر الإسلامى لذلك كانت الضجة حوله وكان اقرب لمن دخل عش الدبابير ومازال هناك .

- واللافت للنظر أن الكاتب حسي احمد أمين هو الشقيق الأكبر للدكتور جلال أمين الكاتب والمثقف الذى ظهر فى الحياة الثقافية العربية محاورا وباحثا وكاتبا منذ سنوات وأيضا فأن حسين احمد أمين تربطه صداقة خاصة بالمؤرخ طارق البشرى .. وهو فى نفس الوقت على خلاف دائم مع الشقيق والصديق .. لماذا ؟

** احترم المؤرخ طارق البشرى .. ولكن اختلف معه دائما لأنه ضمن فريق من المثقفين العرب الذين يعيشون فى الماضى .. ويجعلون من التراث مثل الأيقونة المقدسة التى يجب التبرك بها دون حق النظر فى تفاصيلها .. وليس مقبولا ذلك .. واختلف أيضا مع جلال أمين .. فأرى شقيقى وصديقى ضد التحاور مع الآخر المتقدم (أوروبا) وأراهما يحاولان الوقوف ضد تيار الانفتاح على العالم المتقدم تحت أوهام الحفاظ على الهوية والدفاع عن الأصالة .

من هذه النقطة .. كانت بداية الحوار ..

- ألا يشعر نجل المفكر احمد أمين بأنه يهدد هوية أمه بالضياع .. وأين الثابت والمتغير فى هذا الموضوع؟

** الهوية سلاح لابد أن نحدد طبيعته ونختاره لأنفسنا على حسب التحيات التى تواجهنا فى تلك المرحلة وبهذا الشكل سنجد فى هذا السلام خير ما نستعين به فى المواجهة المفروضة وبالتالى فإنها متغيرة ، الهوية العربية أول من قال بها الكواكبى فى نهاية القرن الماضى فى كتابه (أم القرى) كان ذلك لمجرد أن هناك رغبة لدى الشعوب العربية الواقعة تحت سيطرة الاستعمار العثمانى للتحرر من هذه السيطرة وقبل ذلك كان جمال الدين الأفغانى يدعو للرابطة الإسلامية لأن السلطان عبد الحميد والأفغانى كانا يشعران بالقلق من اعتداءات الأجانب على الدولة العثمانية واقتطاع أجزاء منها .. أى أن السلاح كان الهوية الإسلامية - لجذب مسلمى الهند وروسيا .. وعبد الناصر تبنى فكرة القومية العربية من جديد من اجل مواجهة المطامع الإسرائيلية .. والسادات تحمس للهوية المصرية بسبب اختلافه مع الدول العربية .. فالأخطار هى التى تحدد الهوية التى تتسلح بها وبهذا المنطق فأن الهوية ليست شيئا ثابتا .. إننا نحمل الهوية المناسبة لكل تحد ، هناك أشياء ثابتة مثل اللغة التى نتحدث بها فهى من عناصر الهوية، والدين الإسلامى جزء من الهوية إنما التركيز على عناصر معينة هو الذى اعنيه باستخدام هذه العناصر كسلاح فى مقاومة الأخطار المتغيرة مثلا .. الهوية العربية اليوم فى انحسار بعد صراعات العرب العديدة بعد أن رأينا أن لجوءنا إليها لم يفد فى صراعنا مع إسرائيل أنا أتنبأ بان المؤتمر الإسلامى الذى سيعقد فى طهران فى ديسمبر القادم سيكون بداية توجه جديد للهوية الإسلامية وإزالة الحواجز بين الشعوب الإسلامية .

- بنفس المنطق نسأل : هناك من يرى أن التراث مقدس ويجب اتباعه ؟

** قبل الإجابة لابد أن نتساءل : هل هناك اكثر قدسية من نص القرآن ؟ لا .. ومع ذلك تواجهنا حقيقة مهمة فى كتب الأقدمين وهى مسألة نسخ آيات قرآنية بتغير الظروف أحيانا برفع آيات تماما من القرآن .. أو تم الاحتفاظ بها مع عدم العمل بهذا خلال ٢٣ سنة من الدعوة الإسلامية منذ بعث النبى إلى وفاته .. آيات نسخت آيات وأحكام نسخت أحكاما ، فما بالنا بقرون طويلة اختلفت فيها ظروف الحياة الاجتماعية والسياسية إلى آخره .. وأعتقد أن من حقنا أن نتلمس لأنفسنا الأحكام التى تناسب ظروف العصر .. ولم نكرر الحديث بالإشارة إلى عمر بن الخطاب الذى رفض العمل بآية المؤلفة قلوبهم لاختلاف الظروف أو انه من أوقف قطع يد السارق فى عام الرمادة .. كلام صحيح وغيره كثير .. أما بالنسبة لما يقوله البعض عن السنة فإننا نتوقف أمام البخارى الذى اجتمع لديه اكثر من ٧٠٠ ألف حديث اختار منها ٧٠٠٠ أى واحد فى المائة !! وبين السبعة الآلاف حديث هناك ثلاثة آلاف مكررة فى المعنى وان اختلفوا .. فيتبقى من كل الأحاديث المنسوبة للنبى نحو ٤ آلاف حديث فقط .

وهنا أقول أن ما قام به البخارى يفخر به أى عالم كبير فى أى مكان فى الدنيا ولكن مع ذلك تبقى فى صحيح البخارى أحاديث لا يمكن أن يقبلها العقل الحديث أو يصدق نسبتها إلى النبى ففى البخارى نجد حديث الذبابة الذى شغل الأذهان فى مصر طويلا !! وورد فى البخارى حديث مثل : سيظهر فى أمتى فى العراق رجل يدعى أبو حنيفة ويكون اعلم رجال الأرض وبسهولة جدا يمكن أن نخمن أن مخترع هذا الحديث من اتباع أبى حنيفة ولأن القرآن خاطب النبى بأنه لا يعلم الغيب وهناك حديث إذا فتحتم مصر فاستوصوا بأهلها خيرا .. يمكننا بسهولة أن نخمن أن مصريا دخل الإسلام وكان متعصبا لأهلها فقال أن أهلها أفضل ناس إلى آخره أذن حتى البخارى مع عظمته لم يستطع أن يحول دون وجود احاديث لا يمكن أن نثق فى نسبتها للرسول .

- هناك من يرى انك بهذه الرؤية تدفعنا بعيدا عن حضارتنا وتقاليدنا ؟

** إنها خشية الإسلاميين المتطرفين ليس من كلامى هذا ولكن من الأخذ بأساليب الحضارة الغربية وقد استوقفنى هذا الأمر منذ فترة طويلة وأرى انه مما يعوق حركتنا نحو المستقبل الذى يدور حوارنا هذا حوله .. إنهم يتكلمون عن حضارتنا وتقاليدنا وهذا يكفى دون الاقتباس من الغرب ورأي أن هذا ليس جزءا مكونا للعقلية الإسلامية لأن المسلمين فى أزهى عصور نهضتهم كانوا دائما متأثرين بالحضارات الأخرى من الهندية إلى الفارسية إلى البيزنطية واعتقد أن عظمة الحضارة الإسلامية كان فى موقفها الإيجابى من الاقتباس من الحضارات الأخرى .

- هناك رأى بان نستفيد بمنجزات العلم بسبب عالميتها وليس بالثقافة التى تعكس بيئة مختلفة؟

** وهل فلسفة هذا العلم سيئة ؟! أنا اعرف أن الجماعات الإسلامية تستخدم الكمبيوتر .. ومن المتشددين من هم من النوابغ فى الطب والهندسة وإنما أيضا وفى المقابل يرفضون الفلسفة والقيم الغربية ! وأنا اعتقد أن فى هذه القيم الغربية ما هو فاسد ولكن أيضا هناك الكثير فى حضارتنا فاسد ومفسد هو الآخر وإنما من يستطيع أن ينكر ألا الجاحد ما قدمه الغربيون أو على الأقل هذه المساحة الضيقة من الأرض التى تسمى أوروبا ! فى مضمار الحضارة من فلسفة ، من علوم اجتماعية ، من فنون لا يمكن تجاهلها .. هل هناك أعظم من باخ وبيتهوفن وموتسارت فى الموسيقى نعم لدينا أدباء عظام ولكن هل عندنا مثل الاخوة كرامازوف لدوستوفيسكى والحرب والسلام لتولستوى أو لدينا تشيخوف فى القصة .. أننى أرفض تأليه الغرب ولن ارفض عدم الاعتراف بجميله فى ميادين عديدة .

- ونحن نتجه نحو قرن جديد .. كيف ترى ابرز السلبيات التى يجب أن نتخلص منها ؟

** أشياء عديدة يجب على العقل العربى أن يتخلص منها فى مقدمتها المبالغة .. ويشرح ذلك ما شعرت به وأنا صبى من صدمة وذهول عندما اخبرنى والدى وأنا أراجع معه معلقة عمرو بن كلثوم أن شعراء الجاهلية فى قصائدهم التى تصف الحروب بين القبائل والانتصارات كانوا فى اغلب الأحيان لا يصفون معارك جرت ولا انتصارات أحرزت وإنما كانوا ينظمون تلك القصائد قبل نشوب الحرب للتعبير عن أمانيهم وآمالهم فيما سيأتى به الغد وما سيسفر عنه سير القتال ولكن بصيغة الماضى وكأنما التعبير عن هذه الأمانى بصيغة الماضى كفيل وحده بان يحقق بالفعل كل ما وصفه الشاعر فى قصيدته من إنجازات لقبيلته .. لهو هنا يماثل الساحر الذى يسعى إلى التأثير فى قوانين الطبيعة عن طريق ما يردده من عبارات ومن وقتها وقد فقدت الثقة فى دلالة قصائد الجاهليين .. كذلك فقد خطر فى ذهنى أن صياغة العرب للدعاء فى صيغة الماضى على نحو قولنا لمن أغضبنا (لعنك الله) وللمريض (شفاك الله) وللجندى (نصرك الله على أعدائك) يعبر عن نفس الرؤية .

لذلك أعود وأكرر انه من المؤكد أن الشعب العربى انفعالى تتحكم فيه العواطف . واللغة العربية خطابية فى المقام الأول وعلى نحو لا تدانيه أى لغة أخرى فهى كالموسيقى تتجه بالخطاب إلى العاطفة واستجابة العربى لها كاستجابته للموسيقى أن لم تكن اشد قوة .. فهو يتأثر بالكلمات اكثر مما يتأثر بالأفكار المطلقة اكثر من الحقائق الواقعة وقد تهتز نفس العربى لسماع قصائد لا يفهم معانيها أو يفهم القليل من معانيها لأن الأهمية الأولى لجرس اللفظ والجزالة والوزن والموسيقى .. انه سحر المقال .

- فى المقابل ما هى الخيارات التى تدعو للأخذ بهذا الزواج من المستقبل هذه الزيجة التى يسعى الجميع ويجتهد لتوفير أسباب نجاحها ولا سيما أننا دخلنا على الألفية الثالثة للتاريخ؟

** الخيار الأول أن نصحح علاقتنا بالعالم حولنا وذلك لأننا نعيش فى عالم تختلف معالمه بصورة جذرية عن العالم الذى شاهدناه فى طفولتنا وصبانا وشبابنا ، العالم انفتح واصبح قرية صغيرة واحدة لا يمكن أن نبقى بمعزل عنها ولا اعتقد أن أى شخص حتى لو اغلق على نفسه باب غرفته يستطيع أن يمنع تأثرنا بوسائل الأعلام المرئية والمسموعة لقد أصبحت التأثيرات الأجنبية فى الهواء وأنا شخصيا مقدر جدا للجهد الذى يبذله طارق البشرى أو أخى الدكتور جلال أمين فى محاولة بناء سور عال يحمى هويتنا وتقاليدنا .. الخ .. أنا احترمهما جدا بسبب هذا الجهد .. ولكن أرى هذا الجهد شبيها بحركة المكابين أو المقارع فى القرن الثانى والأول قبل الميلاد عند الشعب اليهودى فى فلسطين .. والمكابين هم أسرة أفزعها أن ترى الهلينية فى تقاليد الشعب اليهودى وكيف أن كل يوم يشهد تآكلا فى ديانة الشعب اليهودى وثقافته فصمموا على مقاومة هذا التأثير بمحاربة الاحتلال

الرومانى لفلسطين ونجحوا بصورة باهرة لمدة قرن ولكن بعد ذلك انتهوا تماما لأن الدولة الرومانية كانت فى سبيل نشر هيمنتها وحضارتها وتقاليدها على العالم المعروف فى ذلك الحين فى حوض البحر الأبيض ! كانت هذه مقدرات التاريخ .. نحترم المكابين لكن جهدهم كانت انتحاريا ومشرفا فى نفس الوقت !! وكان يجب أن يهزم !

والعالم الآن انفتح فى ظل مفاهيم جديدة واختلف حتى شكل الدولة المستقلة عما كنا ننادى به فى شبابنا (الاستقلال التام .. أو الموت الزؤام..) باتت مفاهيم منقرضة لا توجد دولة مستقلة داخل حدودها لا توجد حدود .. الكل مسئول عن الكل الفاشية فى العراق لا يمكن اعتبارها شانا داخليا للدولة "مفيش" حاجة اسمها من الشئون الداخلية للدولة هناك تزوير للانتخابات فى نيجيريا .. هناك إعدام مثقف فى بلد ما .. يهب العالم لوقف هذا الاتجاه لا توجد حرية بالمعنى القديم .. هناك معايير عالمية لا مفر من الالتزام بها .. وأنا هنا اقرر الواقع ولا أباركه .. ولكن أبارك الجزء الخاص بالتصدى العالمى لانتهاكات الديمقراطية وحقوق الإنسان فى أى مكان ، واتجاه العالم لنجدة ضحايا الكوارث الطبيعية .. ولكن فى المقابل أنا أقرر أو اقر ملامح العالم الذى نعيشه ولابد من الاعتراف به .

*أجد أمامى فى مكتبتك الآن كتاب نهاية التاريخ الذى ترجمته للعربية .. ويبدو الآن كأنك تطالبنا بما قاله مؤلف هذا الكتاب بان نرفع أيدينا بالتسليم للحضارة الغربية المنتصرة ؟

** الحضارة اليوم حضارة عالمية وتدعو أبناء كافة الحضارات للمساهمة فى بنائها بمفهومها الخاص .. ولم تكن الحضارة الغربية على استعداد للبحث والتأثير بثمار حضارات الغير كما هو حادث اليوم .. فنجد فرقة مثل البتلز تذهب للهند للتعرف كيف يمكن للموسيقى الهندية أن تسهم فى الموسيقى المعاصرة .. أو عندما يبحث الفنانون التشكيليون فى اثر الفنون الأفريقية فى أعمالهم وغير هذا كثير هو مظهر الحضارة عالمية .. واستطيع أن أقول أن هناك مؤشرات لتغيرات ستحدث سواء أحببنا أو كرهنا فإذا كانت نهاية التاريخ تعنى انه لن تحدث كوارث للرأسمالية فهذا غير صحيح .. وستحدث مقاومة لاتجاهات النظام العالمى الجديد .. ولكننى أرى أن الحضارة إنسانية وهناك دعوة مفتوحة لمختلف الشعوب لكى تسهم فى هذه الحضارة .. فالسينما لم تعد غربية فقط بل هناك مساهمات كبيرة للهنود واليابانيين وغيرهم .

*ورغم هذا فقد صرخ الفرنسيون من الهيمنة الثقافية الأمريكية وأنت تستكثر علينا القليل من الصراخ ؟

** إطلاقا .. بالعكس نحن مطالبون بذلك . أننا مدعوون للمشاركة .. انهم يمدون أيديهم لكى نخرج من قوقعتنا لإثراء الحضارة البشرية .. فالموسوعة البريطانية عندما تقدم كتاب ضخما عن الحضارة الغربية وفى المقدمة تدعو الحضارات العالمية الأخرى لعمل مشروعات

مماثلة ونجمعها فى كتاب بعنوان GREAT BOOK OF THE WORLD وتدخل فى مكتبة كل قادر .. من ناحية أخرى فهناك معارض ضخمة للمخطوطات الإسلامية وهناك حجم الكتب الهائل الذى صدر فى الغرب عن الحضارة الإسلامية من الناحية الإيجابية مطلوبة .. هم الذين أدركوا أن لكل شعب مساهماته التى يمكن أن نثرى بها حضارة البشر هناك هيمنة الكوكاولا أو نمط الحياة الأمريكية ،

ولكن مساهمتنا نحن إذا استطعنا سيتم الترحيب بها وبدلا من النقد فلنساهم نحن .. وبصراحة فأننى أحاول أن أتمسك بنظرة موضوعية لذلك عندا يقول لى الأستاذ محمود شاكر فى حديث خاص معه عن بلاشير الذى كتب عملا ضخما عن المتنبى هل أنا اجرؤ مهما بلغت إجادتى بالإنجليزية أن اكتب كتابا عن تشوسر .. وأنا أقول ليه لأ كتر خير الراجل الذى امضى سنوات من عمره فى دراسة المتنبى .. لماذا ليس لدينا من يدرسون الغرب على نفس المستوى .. فقط نعترض على اهتمامهم بنا ولا نبادلهم نفس المستوى .. فقط نعترض على اهتمامهم بنا ولا نبادلهم نفس الموقف ولا نساهم بصورة إيجابية فى دراسة حضاراتهم .

- ما هو التحدى الآخر الجدير بالحسم ويرتبط بعلاقتنا بالعالم ولابد من موقف جاد حتى نستطيع الحركة للأمام بالصورة المطلوبة ؟

** لا جدال فى أن الخيار المهم الآخر والضرورى للحركة نحو قرن جديد هو قضية الديمقراطية الجديرة بالحسم .. إنها قضية مطروحة ولا بديل عن التوقف أمامها .. ولكننا ونحن نفعل ذلك يجب ألا ننسى أننا مدينون للغرب تماما فى هذه المسألة ، قد يكون هناك من يقول بأن نظام الشورى افضل واقدم ولكن هذا غير صحيح .. ولأننا لو نظرنا للآيات المتعلقة بالشورى فى القرآن سنجد أن هذه الآيات كانت تخص حالات معينة وليس لها علاقة بنظام حكم وإذا نظرنا للممارسة سنجد أن عمر بن الخطاب الذى تقدم سلوكياته كمثال للشورى لدى بعض الإسلاميين -لم يشاور أحد قبل عزل خالد بن الوليد من قيادة الجيش .. وهل عزله خشية الافتتان به ؟ وانما لأن عمر بن الخطاب كان دائما يكره خالد من قبل الإسلام ! خالدا قابله فى موقعة أحد ورفع سيفه عليه وكان يمكن أن يقتله ثم تركه !! هذا الفضل من خالد لم يغفره عمر ! بل عمر كان شديد الإلحاح على أبى بكر الصديق ليقتل خالدا بعد قتل الأخير لمالك بن نويرة حتى يتزوج امرأته التى كانت اجمل نساء العرب .. ! وبالتأكيد ليس هناك علاقة بين الإسلام والديمقراطية ! وإذا أردنا أن نأخذ بالنظام الديمقراطى .. وإذا وجدنا فى الديمقراطية حلا لمشاكلنا ليس هناك من نمط غير النمط الغربى .. قد ندخل بعد التعديلات حتى لا يصبح التكرار أو التقليد مهزلة مثلما قام شريف باشا أول رئيس لمجلس شورى القوانين فى عهد إسماعيل بدعوة الأعضاء لتقليد الغرب

فيتجه المؤيدين للخديوى إلى اليمين والمعارضين إلى اليسار .. فإذا بكل الأعضاء ينتقلون لليمين !!ولكن اعتقد اليوم أن العالم كله تعلم ماذا يعنى حق الشعب فى اختيار حكامه .

حدث فى بيت احمد أمين

- أين موقع أمك فى بيت احمد أمين .. وبماذا تتذكر هذا البيت حتى اليوم ؟

** اهتممت بالفكر الإسلامى مثلما اهتم احمد أمين .. وكنت أتمنى دائما أن أكون عند حسن ظنه .. بل فى كثير من الأحيان كنت أتمنى أن تكون كل المحاولات الفكرية تحية إلى روحه .. ولكن اعترف بعد كل هذه السنوات انه كان الأكثر معرفة بتاريخ الحضارة الإسلامية .. وأنا اشعر بسعادة عندما يعرفنى أحد بأننى ابن صاحب "فجر الإسلام .." ومن ذكرياتى التى لا أنساها أن صاح أحد الخدام مرة موجها حديثه لى أنا وأخى "يا فتان ! القرآن يقول : والفتنة اشد من القتل" . فأصابتنا الفكرة بالقلق فاتجهنا لوالدى نسأله : صحيح يا أبى أن الفتان له عذاب يفوق عذاب القاتل .

فيجيب والدى : الفتنة المقصودة هنا هى الكفر فنهرع فرحين إلى الخدام ونخرج لهم ألسنتنا وبالنسبة لأمى فقد كانت سيدة مرحة لها حضور جميل وكنا نسير دائما خلفها فى محاولة للدخول إلى غرفة مكتب أبى الذى كنا نستشعر أن جلوسه فيها أهم من جلوسه مع أحد آخر .. ولكن ما أتذكره عنها إنها لم تخرج أبدا مع أبى فى زيارة أو نزهة وكانت فى نفس الوقت سعيدة بدورها وبحياتها وقادرة على إقناعه برأيها وقد تغيرت الأيام كثيرا ..ويكتفى مثالا على ما حدث أنه إذا كانت أمى لم تخرج مع أبى خارج المنزل .. فإننى اليوم لا اعرف الخروج بدون زوجتى !! واتصور أن الحاضر اكثر تطورا بصفة عامة .. وان المرأة اليوم فى كافة أرجاء الوطن العربى قد خرجت للحياة الواسعة واصبح التعليم حقا مكتسبا لها بعد أن كان منحة استثنائية للخاصة وبات العمل – رغم كل مشاكله فرصة ذهبية لتعبر المرأة عن كينونتها ولذلك اكرر أن الحاضر اجمل من الماضى وان المشكلة الحقيقية أن البعض يعتقد أن كل ما ذهب هو من ذهب وهذا وهم .. انظر للعالم وسوف تكتشف قوة هائلة جعلت الكون قرية إلكترونية .. وباتت حقوق الإنسان تقلق الإنسان فى أى مكان ومشاكل الطفولة يئن منها البشر فى أقصى المعمورة .. والعالم يتحرك نحو مستقبل افضل رغم كافة المآسى .. والمرآة فى كافة أنحاء العالم تحتل أراضى جديدة على مستوى الحياة العامة .. كلها صور تدفعنا للتفاؤل .

سعد الدين إبراهيم

النخبة الثقافية تعانى الاضطراب

الدكتور سعد الدين إبراهيم .. عالم اجتماع يعيش على سطح الحياة الساخن .. ومثقف أخذ من الغرب منهجه وعاد مسرعا .. ينظر حوله يغضب وإلى جيله بأسى وليكرر عبارة سبقه إليها بعض المثقفين : "محن أبناء الجيل الضائع .. " ! مما فرض على اللقاء معه أن نعرف آية الحكاية بالضبط .. إذا كان هذا الجيل الذى ما زال على سطح المجتمع يشعر بضياع الفرصة فيصبح سوء الحظ هو اخطر ما يهدد الأجيال التالية .. !

ولكن المشكلة الأكبر أن الدكتور سعد الدين إبراهيم لم يقتنع بدور أستاذ الاجتماع السياسى بالجامعة الأمريكية .. بل اشتبك مع الواقع حوله وانقسم الناس تجاهه .. بين من يغمز يعينه (إنه يحمل الجنسية الأمريكية ومتزوج من أمريكية ويدخن السجائر الأمريكية ..) وبين من يصفق بإعجاب (الرجل انشأ وشارك فى تأسيس ابرز مجموعة من مراكز الدراسات ومنظمات المجتمع المدنى من المنظمة العربية الحقوق الإنسان إلى مركز ابن خلدون للتنمية) وفريق ثالث يبتسم فى قسوة : (إنه مثقف عربى بدأ حياته اشتراكيا وانتصفت بالرأسمالية واختتمها بالدعوة للتسامح فى القدس) . !!

ولكن بعيدا عن تلك الحدة فى الاختلاف .. يظل ما آثاره الدكتور سعد الدين إبراهيم من قلق ظاهرة صحية .. فبعضه يمس المستقبل – حتى لو اختلفنا فى التفسير– وبعضه يمس (جيلا) ما زال نابضا بالندم أو العمل .. وبعضه رؤية من عالم له مكانته لواقع يتغير وهو يدق بعنف وتعثر على أبواب قرن جديد .

ومن لحظة الصراع .. بدأ الحوار .. وكان الاختلاف حول الروايات هو نقطة البداية .. يقول الدكتور سعد الدين إبراهيم من أول السطر : منذ عودتى من الولايات المتحدة عام ١٩٧٥ وأنا أساهم فى الحياة الفكرية والثقافية العربية ساعيا لتقديم الجديد .. ومن وقتها والهجوم على بالغمز واللمز والمباشرة لم يتوقف .. ,اشعر أن من يهاجموننى لديهم – احيانا– هواجس وشكوك مشروعة وعلاجها مزيد من المعلومات ومزيد من الحوار وهذا ما افعله من خلال ما اكتبه حيث اشرح كل شئ .. ماذا أفعل .. وما هو الهدف منه .. ومن أى اجندة .. ومن أين تأتى الموارد وكيف يتم توجيهها .. وهذه الصورة التى اعرضها مزعجة للكثيرين الذين يرغبون فى الإخفاء أو السرية وبعضهم يدى الإسلام .. آخرون يدعون الاشتراكية .. وفريق ثالث يدعى الناصرية .. وهكذا ويجمعهم انهم لا يتحاورون مع

ما اقدم .. ولكن يشغلهم أنا مين وليه افعل وطبعا من يحاول تغيير التراب إلى تبر سيظل يعانى إلى الأبد .

وقد ازدادت حدة الهجوم بعد إعلانى عن مؤتمر الاقليات والذى دعوت إليه محمد حسنين هيكل .. كان الإعلان فى يناير ٩٤ .. وكتب هيكل مقالته فى إبريل وشن هجوما على .. وسرعان ما التحق به كل من كان لديه حساب يرغب فى تسويته مع سعد الدين إبراهيم وكان مترددا .. لقد وفر هجوم هيكل شرعية لهؤلاء وان يزايدوا فى الهجوم .. !! هيكل على الأقل كان عفيفا فى ألفاظه إنما الآخرون فقد انطلقوا بعد أن اخذوا الضوء الأخضر من الكاهن الأكبر .. !! طبعا المشكلة انهم لو استمعوا لما قلته من خمس سنوات ما كانت هناك حاجة للبكاء للكونجرس اليوم .. فهناك مشكلة اضطهاد .. مدى حجمه أو مع من وهل الدولة هى التى تمارسه أم أفراد عاديون هذا موضوع أخر .. نتفق عليه أو نختلف لا بأس .. لكن من اخفى علته قتلته .. !! وقد واجهت نفس المأزق عندما تكلمت عن المتطرفين وقلت انهم لم يأتوا من المريخ .. وكانت النغمة السائدة انهم مجانين !! أو عملاء .. !! المهم أن الذين لا يرغبون فى الحديث عن مشاكل الأقباط يقولون انهم ليسوا أقلية .. ليكن !! لنقل انهم جماعة ولكن لديها مشكلة !! من ناحية أخرى أنت تقول انه اصبح هناك شبه إجماع على معارضة رؤيتى .. من قال ذلك .. أنا انظم مؤتمرا سنويا لدراسة الملل والنحل وله صدى واسع ! ثم أليس غريبا بدلا من الهجوم الإجابة على علامة استفهام تقول أن لديك ٢٦ محافظا ليس بينهم قبطى .. ولديك ١٤ جامعة ولا يوجد رئيس واحدة منها قبطى !! تحدث مع الأقباط وتعرف على مشاعرهم !! هناك حالة تسمى إنكار الواقع وهى ترتبط بانتشار ثقافة العيب وثقافة الذنب وفى تلك الأخيرة يشعر المرء بان هناك خطأ ويسعى لتصحيحه سواء هناك من يراه أم لا أما ثقافة العار أو العيب .. فتعنى أن الشخص يفعل ما يريد بشرط ألا يراه أحد .. !! فيقال أن (البنت جابت العار) لأنها فعلت شيئا بات معروفا .. ولكن إذا ظل فى الخفاء فليست هناك مشكلة وهذا المعنى كان وراء الثورة حول البنت التى صورتها محطة . C.N.N أثناء عملية ختان .. فهل هذه الثورة كانت لأنه ليس لدينا ختان بنات أم لأن الناس الأغراب شاهدوها .. !! لو أننا نشعر بالخجل فلنحاربها .

نظرة استشراقية

*تشغلك قضية الأقباط فى مصر والأقليات فى الوطن العربى ولكن كل المعارضين لك يرون انك ترى هذا الموضوع بعيون الغرب .. أو انك تمثل الاستشراق الجديد فى هذه القضية .. وفى ندوة لك تحدثت عن الإصابات التى وقعت بين الأقباط بسبب الإرهاب فى جنوب مصر

ولم ترها بصورة مجتمعية أى أن المجتمع المصرى كله يتعرض للإجرام العنيف وجعلت المسألة وكان أقباط مصر هم الهدف لهذا الإجرام .

** إذا كان ما أقوم به نظرة استشراقية فليقل لى أصحاب النظرة الاستغرابية - إذا كان الاستشراق عكس الاستغراب ما إذا كان للأقباط هموم خاصة إلى جانب همومهم العامة كمصريين مثلما نقول أن المرأة بصفتها (المصرية) لها هموم عامة شأن باقى أفراد المجتمع ولكن بصفتها امرأة فلديها هموم خاصة إضافية وهذا ينطبق على فئات عديدة من أبناء هذا البلد .. فالعمال لهم هموم عامة مثل باقى المجتمع إنما لهم هموم طبقية خاصة بهم .. كذلك الفلاحون .. هكذا .. وحديثك عن بعض الفئات لا يعنى نظرة استشراقية .. وما يقوله هؤلاء يعتبر نوعا من "التنطع" وهم لم يكتبوا كلمة يعترفون فيها بأن هناك هموما مشروعة للأقباط من ذلك انهم لا يتساوون بباقى المصريين فى حقوق بناء دور العبادة فإذا كنت لا تحتاج إلى تصريح من رئيس الجمهورية لبناء مسجد فلماذا تحتاجه لبناء كنيسة .. (التنطع) من بعض المثقفين بغرض الهروب من المشكلة وتوجيه الاتهامات أو تعليق اليافطات .. ومثلما أتحدث عن مشكلة المرأة أو حقوق الإنسان فإننى أتكلم أيضا فى هذه القضية ما دمت مقتنعا بوجودها وبالمناسبة فإن هؤلاء المعارضين استفادوا من نضالى ومن نضال الآخرين من اجل حقوق الإنسان فى أوائل الثمانينيات .. وعندما أنشأت المنظمة العربية لحقوق الإنسان وكنت أول أمين عام لها قيل نفس الكلام .. (إنه صاحب نظرة غربية وراءها تمويل غربى .. أليست مصادفة غريبة أن سعد الدين درس فى أمريكا وتزوج أمريكية ويدخن السجائر الأمريكية ويعمل فى الجامعة الأمريكية) الذين قالوا ذلك هم أول من استفاد من المنظمة العربية لحقوق الإنسان وأحدهم كتب ١٢ مقالة وهو فى باريس ينتقد المنظمة .. وهو فى حماية حقوق الإنسان الفرنسية .. وشاءت الظروف أن يسحب منه جواز سفره فكتب للمنظمة التى كان يهاجمها ! فتصدينا للمشكلة ولحسن الحظ أن استجاب وزير الداخلية آنذاك وعاد للرجل جواز سفره .. فكتب النقيض .. ! إنها ردود الفعل الحادة للمثقفين .. فقد كان الشخص هو الدكتور غالى شكرى وكان الوزير المستنير الذى استجاب لنا هو أحمد رشدى وأنا أدرك انه ما دام يتصدى المرء لقضية جديدة أو لقضية قديمة ولكن متوارية فإنه يحدث رد فعل من الذين لا يعلمون وبدلا من مقارعة الحجة فإنه يلجأ للأحكام الجاهزة .

*أتصور يا دكتور انه لا يوجد موقف مؤسسى من المجتمع بأغلبية ضد الأقلية .. ولكن تظل المشكلة هى فى سلوكيات وليست فى سياسة سائدة ضد الأقباط كما يعكس كلامك أحيانا؟

*أوافقك .. لا يوجد .. مثلما لا توجد سياسة منظمة ضد المرأة .. ولكن المثقف ليس دوره الحديث في وقت الكوارث فقط .. بل أن دوره أن يستبق الكوارث وان يشير إلى أى عطب يصيب الجسد المجتمعي .

*وهل تعتقد أن قضية الأقباط فى مصر عطب يستثير كل هذا الجهد منك؟

**وايه عرفك الجهد بتاعي موزع ازاى .. ان هذا الموضوع ضمن ٦ قضايا اشتغل عليها .. من يقول لى (كل هذا الجهد) فيفترض انه يعرف كيف يتم توزيع جهدى.. ثم هناك ما يستدعى هذا الاهتمام .. وانظر حولك .. أنا أتكلم عن هذه القضية منذ عشرين سنة وإلا لماذا تدخلت أمريكا.. إننى أقول إننا يجب ألا نعطى الذريعة لمن يتربصون بنا.. أمريكا نقع فى الخطأ وألا نمنح الفرصة للتدخل فى شئوننا.

*أمريكا التى تتعامل مع الشرعية الدولية بأكثر من معيار هل تصبح بالنسبة لى وطبقا لكلامك هى المرجع الذى يجب ان آخذه فى الحساب فوزا برضاها وكأن أمريكا – بطرحك هذا – مطلوب ان تمنح صكوك البراءة للمجتمع المصرى فى علاقاته بين فئاته..! أو أليس غريبا يا دكتور أنه فى أصعب الظروف التى عاشتها مصر أيام مدها الوطنى لم تنجح أمريكا فى ذلك بينما أنت تستحث لأخذ ذلك فى الاعتبار.

**لا.. إطلاقا .. لماذا تقفز إلى هذه الخلاصة إننى أتحدث عن هذه المشكلة قبل أن تتحدث فيها أمريكا وأكرر أن وظيفة المثقف أن يستبق الأحداث وأن يكون لديه من البصيرة ما يمكنه من التنبيه أو دق إجراء الإنذار المبكر المجتمعة.. وبالمناسبة أول مقال ظهر لى هذا الموضوع كان عام ٦٨ فى مجلة "دراسات عربية" لقد تحدثت عن كافة البؤر التى اشتعلت بعد ذلك من الأكراد وجنوب السودان وغيرهما وكان لدى إحساس ما لم نتنبه فإن هذه البقع ستنفجر وراء بعضها البعض وبانفجارها ستعطى ذريعة لأعدائنا فى المنطقة وفى خارجها للتدخل فى شئوننا.. هناك فرق بين كلامى هذا وكلامك أنت فى أننى أجعل أمريكا هى المرجعية – ثم فى الماضى كانت القوى السائدة وقتها تدخل مثل بريطانيا وفرنسا وروسيا.. فرنسا قسمت سوريا الكبرى إلى دولة درزية وأخرى مارونية والى دولة علوية – وفى وقت كانت روسيا تدخل لحماية الأرثوذكس وإنجلترا لحماية البروتستانت وفرنسا للكاثوليك .. هذا هو تاريخ المنطقة.. أنا أنبه للعطب كمصرى وعربى والسكوت عن الحق جريمة . وهذا يعكس فهمى للدين على مجموعة من مكارم الأخلاق والمبادئ والقيم التى لا يمكن التنازل عنها.

وابتداء من حادث الخانكة عام ٧١.. ومجلس الشعب أرسل لجنة برئاسة المرحوم الدكتور جمال العطيفى وأصدرت تقريرا وأنا أجزم أن هذا التقرير لو حذفت منه اسم الدكتور العطيفى واسم مجلس الشعب المصرى وقرأه أى مثقف من هؤلاء لقال لك انه من إخراج

وكالة المخابرات الأمريكية !! ولكن لم ينل هذا التقرير أى اهتمام من أحد !! بلاش كلام سعد الدين إبراهيم عام ٦٨.. ولكن لننظر لكلام العطيفى عام ٧٢ !! وقد قرأت اكثر من خمسين مقالا عن القانون الذى تسعى أمريكا لإصداره لم يذكر أحدهم التقرير في هذه المقالات إنما الكل يزايد فى قضية الوطنية التى لا توجد حولها قضية لن الجميع ضد التدخل الأجنبى ولأننا نفضل جميعا حل مشاكلنا فى الداخل.

خطاب وطنى أم طائفى

*كعالم اجتماع ألا ترى أن هناك ملاحظة أساسية وهو انه فى الفترة التى ساد فيها خطاب وطنى عام لم يكن هناك حديث عن مسلم وقبطى ولكن عن قضايا تمس المجتمع كله .. ولم تكن قضية رجل وامرأة ولكن قضية تنمية اجتماعية شاملة .. انت استبدلت هذا بخطاب طائفى وصفه الكاتب فهمى هويدى بأنه خطاب تفكيك؟

**لا.. فقد جربنا الخطاب الشمولى الذى يقول لك ان الناس كلها زى بعض وكلها صوت واحد وتحمل علما واحدا.. وقد اتضح ان ذلك غير دقيق ولا فى روسيا ولا فى مصر .. ممكن الناس تتحد لهدف معين فى لحظة معينة ولكن بعد هذه اللحظة تفكر الناس فى همومها وقضاياها. وإذا أمعنت فى تجاهل هذه القضايا فأنت تفتت الوحدة الوطنية التى خلقتها فى لحظة التحدى.. فى ١٩٦٨ عملت مراجعة كاملة لأسباب هزيمة ٦٧وحتى وصلت لقضية الأقليات والتنوع الأثني..حقوق الإنسان عموما كانت فى بداية الثمانينات.. حقوق المرأة كانت فى أواخر الثمانينات..حقوق الأقليات كانت فى أوائل التسعينات إنها رحلتى الفكرية التى تعكس سعيى من اجل مجتمع صحى سليم والتى تجعلنى أتأمل ماذا فعل سعد زغلول عندما حدث توتر طائفى .. فقد اهتدى بحكمته إلى أن الدين لله والوطن للجميع وتحول ذلك إلى دستور فعندما يصبح رئيسا للحزب فيصبح النائب قبطى بدون توزيع !! وفى وقت من الأوقات كان لدينا وزير خارجية قبطى ورئيس وزراء قبطى ونائب رئيس وزراء قبطى ماذا حدث بعد ذلك فكر أنت فى الإجابة ! على من يضحكون .. ومن يخدع من فى هذه الأمور.!

*أنت أحد المثقفين المصريين الذين زاروا القدس وحيدا وبالخروج على إجماع الكثيرين المعارضين لذلك مما أصاب الأستاذ إبراهيم سعده بدهشة سجلها فى أخبار اليوم كدلالة على تناقضك بين الأمس واليوم.. وقلت هناك فى حوارات صحفية انه لابد أن يسود التسامح بين العرب والإسرائيليين وقبول الآخر.. ألا تعتقد أننا نحن العرب فى أشد الحاجة للعدل بداية حتى يمكن للتسامح ان يكون طبيعيا ؟

**الذى يقيم العدل السلطة.. لذلك يقال العدل أساس الحكم ..العدل مطلـــب.. إنمـــا التسامح موقف إنسانى شخصى أنا أستطيعه وليس مطلوبا أن يكون لدى سلطة لكى أمـــارس التسامح مع المختلفين معى فى الرأى أو العقيد – النقطة الثانية أننى لســت الوحيــد الــذى ذهب إلى القدس سبقنى إليها رئيس الدولة المصرية ونائب رئيــس الدولـــة المصريـــة ثـــم الرئيس الجديد.. وكان ذهابى للقدس تلبية لدعوة من الشعب الفلسطينى الـــذى كـــان علـــى وشك أن تكون له أول انتخابات، من ناحية أخرى أنا حر أفعل ما أريد ما دام علنيـــا وغـــير سوى .. ذهبت للقدس لمساعدة الفلسطينيين وللقاء إسرائيليين من قوى السلام .. وكل ذلـــك لأننى مؤمن بالسلام. وليس فى هذا خروج على إجماع لأنه ليس هنـــاك إجمـــاع .. ولكـــن أصحاب الأصوات العالية يوحون إليك وأنا كنت منهم بان الأغلبية ضد السلام إلى أن أجريـــت بحثا عام ٧٩ – ٨٠ عن اتجاهات الرأى العام العربى نحو حل القضية الفلسطينية ووجـــدت أن اكثر من ٦٠% من الشعب المصرى موافق على ما طرحه السادات .. وكان ذلـــك بعـــد مبادرة السادات بعامين.. فتشككت فأرسلت الباحثين مرة أخرى على عينة بديلـــة.. فكـــانت نفس النتيجة ! وهذا سبب لى قلقا شديدا لأننى كنت اعتقد ان الإجماع ضد السلام .. ومنـــذ ذلك الوقت بدأت أتشكك فيما أدعى أننى اعرفه نيابة عن الشعب وما يقوله زملائى فى هـــذا الموضوع ولم أعرف بذلك إلا بعد عشر سنوات.. أقصد صحـــة اختيـــار الســـادات لطريـــق السلام ولذلك جمعت ما كتبته ضد السادات فى حياته وما كتبته بعد مماته بعشر سنوات لأجـد انه– فى هذه القضية على الأقل كان محقا – وكان يتحدث باسم أغلبية الشـــعب ممـــا كـــان يتحدث أغلبية المثقفين وبالتالى فأنا لا أعتذر عن اتجاهى.. وأنا منذ أواخر عـــام ٩٠ وأنـــا أراجع نفسى ووصلت إلى قناعة عبرت عنها علنـــا وبشـــفافية شـــديدة.. الســـلام اختيـــار إستراتيجى لهذه المنطقة. أما بالنسبة لموقف إبراهيم سعده فإنه يعكس تناقض المثقفين فـــهو قد ذهب إلى إسرائيل نحو ١٦ مرة مع السادات وبعده.. ولكن المرة التى سافرت فيـــها إلـــى هناك خصص صفحة كاملة للهجوم على .. وهذا يدل على التناقض الغريب !! إنهم يلومـــون أمريكا التى تكيل بمكيالين وهذا يكيل بعشرة مكاييل مختلفة الأوزان ويبين ان هنـــاك أجنـــده أخرى كانت تحركه مع بعض كتاب السلطة وهى قيامنا أنا والدكتور سعيد النجـــار بمراقبـــة الانتخابات من خلال اللجنة المصرية المستقلة .. وكتب ذلك فيما قالـــه (أخونـــا هـــذا كـــان ناصرى.. ودلوقت عامل حبيب الديمقراطية وبيعمل لجنة معرفـــش إيـــه..) لأننـــا قلنـــا مـــا شاهدناه..إنه التزوير والذى أكدته المحاكم الإدارية حول الانتخابات التشريعية فى عـــام ٩٥.. وفى نهاية هذا العام سافرت للقدس وبسبب مصداقية اللجنة المصرية لمراقبـــة الانتخابـــات طلب الفلسطينيون المساعدة فى إنشاء لجنة .. وخلال وجودى هناك ألقيت كلمة فى مؤتمـــر التسامح .. وأنا مقتنع بما فعلت ولا أعتذر عنه .. العلانية هى سلاحى الأساسى.

لـــدى أولـــويـــات

*وهل هذا ما يقلل من شعورك بالضيق عندما يقال ان المعونـــات الأجنبيـــة التـــى تحصل عليها من اجل أبحاثك أو من اجل مركز ابن خلدون للدراسات الذى أسســـته وتديـــره ليس ترحيبا بما نفعل ولكن من اجل مصالحها؟

**يقولوا اللى هم عايزين يقولوه أنـــا لـــدى أجنـــده بالأولويـــات مـــن عـــام ٦٧ وبالتحديات بعد الهزيمة.. وطبقا لها أسست مركز دراسات الوحدة العربية .. ومنتدى الفكـــر العربى .. والمنظمة العربية لحقوق الإنسان.. والمنظمة العربية للطفولة والتنمية.. والعديـــد من المنظمات.. وأنا ولائى الأساسى فى كل ذلك للشعب ولمجتمعى .. التقيت بالرؤساء عبـــد الناصر والسادات ومبارك .. وليس لذلك علاقة بموافقى، أنا كمثقف أمين مع نفســـى، لـــدى محكمة ضميرية هى التى تحاسبنى.. تضم عدة قضاة: على المستوى الإنســـانى والوطنـــى والقومى والاجتماعى .. ومهنيا عى الأقل لابد أن أكون قريبا من الناس ومع كل الفئات .

*تحت مظلة الضمير .. ولاء الباحث لمن ولاسيما ان أبحاثك عن الإسلاميون ثـــار حولها جدل وصخب فى بعض الأحيان وتساؤلات حول الجهة التى تخدمها لا سيما تلك التـــى أجريت بالتعاون مع مركز البحوث الاجتماعية والجنائية ؟

**كنت من أوائل من قاموا بأبحاث اجتماعية حول الإسلاميين داخل الســـجون فـــى السبعينيات وما تشير إليه فى ثنايا سؤالك فإن حقيقة ان مدير المركز آنذاك الدكتـــور أحمـــد خليفة اخذ شرائط التسجيل – والمفروض أنها ثقة بين الباحث والعميل – أخذهـــا وأرســـلها إلى رئاسة الجمهورية .. وفوجئت بحرم الرئيس تسألنى أليس ما يدور مع المبحوث مســـالة ثقة فأجبت بالإيجاب فقالت إن هناك فلانا أحضر لسيادة النائب الشرائط (كان الرئيـــس نائبـــا آنذاك) فأصابنى الجنون وذهبت مسرعا وطلبت الاطلاع على الشرائط التى كـــانت محفوظـــة فى خزينة المركز ..فارتبك مدير المركز وحدثت مواجهة عنيفة معه لأن الموضوع بالنســـبة لى كان أمام ضميرى المهنى والإنسانى.. وكان السؤال معه: ولاء الباحث لمـــن للســـلطة أم للمجتمع ؟.. هو مشكلته انه كان يتمنى ان يكون وزيرا مرة أخرى .. وأنا كنت ومـــا زالـــت أسير الولاء للمجتمع .. ولا يهمنى ان أكون وزيرا .. لكن لو طلبوا منى ان أكـــون وزيـــرا جائزا ألا أرفض !! إنما المهم الولاء كمفكر ومثقف للوطن وللناس.

السادات إلى أعلى

*كعالم اجتماع مرموق تحرص على إجراء دراساتك علـــى أرض الواقـــع متســـلحا بمناهج البحث العلمى من جانب وبالوعى الشديد بالبيئة التى تتحرك فيها.. فإننا نسألك مـــاذا

حدث للمصريين .. فهناك شكاوى عديدة تتردد بين الناس من التطرف فى الـرأى وسيادة مناخ الحدة البعيدة عن طبائع المصريين ؟

**أبرز ما حدث هو ذلك الإحباط الشديد الذى ضرب فئات كانت تعتبر نفسها عماد المجتمع وأقصد تحديدا الطبقة الوسطى ومثقفيها – وهذا ما جعل ردود فعل الشريحة المثقفة تتسم بالحدة سواء مع أو ضد !! لقد فقدت ميزان التعامل مع القضايا بشكل موضوعى أو عقلانى رغم ان ما كان يميز هذه الطبقة تاريخيا هو عقلانيتها .. فقد حصلت على تعليم حديث وأخذت بمناهج التفكير العلمية.. ولكن ما حدث لها منذ السبعينيات من توتر واختلال ولا سيما ما نسميه بالتوتر العبء مما دفع بها إلى المنطقة المرضية – وهذه الحالة باتت سمة للمثقفين العرب – وهذا يفسر ردود الأفعال نحو الأحداث أو القضايا أو حتى بعضهم البعض – والسبب الحقيقى وراء الإحباط هو أن القيادة خرجت من أيديهم ولا سيما بعد حرب أكتوبر .. فقد حدثت طفرات ضخمة فى المنطقة وفى العالم وانتقلت المجتمعات العربية من المرحلة الناصرية الشعبية إلى مرحلة جديدة لم تشارك الطبقة المتوسطة فى صياغتها .. وقادت هذه المرحلة عناصر أخرى بعضها ينحدر من الطبقة الوسطى لم تسنح لها مثل تلك الفرصة.. انهم يريدون ولكن لم تساعدهم الظروف ..! هذا داخليا ولكن خارجيا تغيرت التحالفات فأنظمة الحكم كانت تتحدث باسم الكادحين ولم تترك للآخرين فرصة للتحدث نيابة عن أنفسهم وهذه كانت سمة لهذه الطبقة التى كانت تسعى لاحتكار كل شىء .. تغير هذا كله فى السبعينيات والثمانينيات.

من ناحية أخرى فأن الحدة الشديدة فى ردود الأفعال باتت سمة فى حياة أو سلوكيات المصريين ولا علاج إلا بالمشاركة أو توسيع دائرة المشاركة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا كما انه لا مفر من ان يشعر المصريون بأنهم جميعا فى قارب واحد وإما ان يطفوا معا أو سيغرقون معا وان هذه الرؤية يمكن ان تكون سببا فى نظرة جديدة تمتد من العشوائيات إلى القطاميات ..أى إعادة النظر فى صورة تضم أناسا لا يعيشون عيشة آدمية إلى أماكن يقال ان الشقة أو الشاليه فيها يتجاوز سعره المليون جنيه بمراحل .. لست ضد ان يكسب البعض ويستمتع بالعوائد والفوائض ولكن ان يكون ذلك بجانب تجاهل من لا يجد قوت يومه.. فأن هذا الوضع دعوة صريحة للعنف ولا مفر من تعميق الشعور بالمسئولية والوعى بما يحدث فى المجتمع من تقلصات والمشاركة فى علاجها.. حتى الثرى سوف يستفيد عندما يساهم فى علاج مشاكل العوز والحاجة فى الوطن وسوف تزداد إنسانية سطوعا .. وأتذكر أننى كنت أزور يوما إحدى المناطق العشوائية وطلب أحد السفراء ان يصبحنى وطلب صحفى آخر من الجارديان هو ديفيد هيرست ان يصحبنى فى جولة أخرى .. والغريب فى الأمر ان الاثنين سألا سؤالا واحدا وهو إذا كان أى مسئول قد أتى إلى هذه المناطق وجاءت الإجابة بالنفى وان السكان فى هذه المنطقة لم يشاهدوا فى حياتهم

مسئولا.. وهذا يعنى ان الصحفى الأجنبى قد ذهب لمنطقة قبل أى مسئول آخر أو رجل أعمال من هؤلاء الذين يملكون شقة على النيل ثمنها يتجاوز الخمسين مليون جنيه.

هذا هو الاستقطاب الذى يحدث فى المجتمع هذه الأيام إلى مجتمعين وجزء من إحباط الطبقة الوسطى أنها تشعر أنها تدفع إلى النصف الفقير.. وتشعر بذعر شديد لأنها كافحت لأكثر من ١٥٠ سنة لكى تصعد وتتجاوز خط الفقر فى الريف أو المدينة ولكنها الآن تجد نفسها مهددة ليس فى وضعها السياسى والثقافى فقط بل أيضا فى وضعها الاقتصادى.. ولذلك فإنها – أى هذه الطبقة – هى التى تقود الصخب سواء باسم الدين أو القومية أو العدالة .

حال الدولة

*صورة مصر التى ستبدو فى القرن الجديد ما زالت موضع حوار للبعض ودهشة للبعض الآخر .. البعض يراها وكأنها قفزات من ضفة نهر إلى اخر بدون سابق إنذار والبعض الآخر يراها فى رحلة عبور بين أمس ذهب ولن يعود وغد صعب ولكن مفتوح بلا حدود .. كيف يقرأ عالم الاجتماع ملامح التحول الذى تدخل مصر تحت مظلته قرنا جديدا؟

**أبرز ما حدث ويحدث هو الانسحاب الكبير الذى بدأته (الدولة) من حياة المصريين.. والكثيرون وأنا منهم نشجع هذا الانسحاب من مجالات معينة مثل الوظائف الخدمية والإنتاجية التى كانت تقوم بها منذ الخمسينيات بداية من كونها مسئولة عن الطعام لكل فم إلى توفير العلاج والتعليم لكل فرد .. ولكن المشكلة ان (الدولة) تنسحب بصورة غير منظمة وأقرب لانسحاب ٦٧ !! لذلك يزداد حجم الضحايا – كما أنها لم تسمح – للأسف – لقوى المجتمع المدنى أن تحل مكانها.. فملأت قوى التطرف الفراغ الذى حدث.. أما بالنسبة للناس فإن كتلتهم الفاعلة فى أيام ناصر.. والسادات.. ومبارك.. هى كتلة الطبقى المتوسطة.. طبقة احتكرت الحقيقة السياسية أو السلطة أو الثروة أو احتكرت الثلاث معا . لأنه لا يمكن ان تشترك الطبقة كلها فى هذا الاحتكار فكانت طليعتها تمارس هذا الاحتكار وتغلق الباب وراءها.. وعلى سبيل التشبيه فإن الطبقة المتوسطة منذ أحمد عرابى تحاول أن تدخل قصر السلطة والثروة والنفوذ.. وتظل تدق الأبواب إلى ان تسنح الفرصة لطليعتها بالدخول ثم يغلق الباب ويصبحون الطبقة العليا الجديدة !! وهذا ما حدث ويحدث الآن .. والعناصر التى لم تدخل هى التى تدق بعنف .. فالإرهابى أيمن الظواهرى والشيخ عمر عبد الرحمن طبقة وسطى.. ولكنهم وجدوا ان راية الإسلام هى التى يمكن أن يدقوا بها وينسفوا الجدران.. قبل ذلك كان علم الوطنية أو القومية .. وهكذا. حتى أن الشعار الشهير مصر والسودان لنا وإنجلترا إن أمكنا هو شعار هذه الطبقة.. فهى كان تتحارب من اجل استقلالها

ولكنها على استعداد لاحتلال دولة ثانية !! شعار يكشف الفاشية المختبئة فى قبل هذه الطبقة الوسطى..!! والطريقة الوحيدة لمواجهة هذه الاتجاهات هى الديمقراطية لأنها الطريقة الوحيدة لكسر الاحتكار وسيادة العدل وتبادل مواقع السلطة وتأسيس قيادة موضوعية لهذا الهدف وأنا مندهش أنك طوال حوارك معى لم تستخدم هذه اللفظة.!!

*باتت هذه الكلمة (الديمقراطية) تستخدم بصورة واسعة هذه الأيام وبالتالى فسؤالى عنها لن يضيف جديدا.. ولكن ما يشغلنى هو ما أسميه انتشار ثقافة الكفاءة فى الأداء والجودة فى الإنتاج وسيادة قواعد تبادل الخبرات بين الأجيال مثلما حدث فى اليابان ودول جنوب شرق آسيا ؟

** كل هذه المعانى مرتبطة بالديمقراطية . . ولذلك فإن بلاد شرق آسيا لاتستطيع أن تستمر فى نموها ما لم تأخذ بقواعد الديمقراطية بصورة كاملة .. والانهيارات الاقتصادية التى حدثت تكشف ذلك . وبالمناسبة فإن محمد على بدأ هكذا . . ولكن عند مرحلة معينة إذا لم يتم الآخذ بالديمقراطية يحدث انهيار . . طبعا قواعد الكفاءة مطلوبة ولكن كيف تتأكد منها حتى فى غياب القائد المخلص أى أن تصبح المؤسسة هى الأساس وهذا لا يحدث بدون الديمقراطية .. ولننظر لما فعلة السادات الذى جاء بعكس عبد الناصر تماما وكان أكثر نجاحا من عبد الناصر .. بمعنى أن الذى فعله استمر مدة أطول فبعد الناصر لم يستمر أكثر من ١٨ سنة بينما المجرى الذى حفره السادات مستمر من عام ١٩٧٠ حتى اليوم وسوف يستمر ، والمعانى التى ذكرتها أنت كانت عماد الطبقة المتوسطة الغربية لذلك نجحت فى قيادة التقدم ، والديمقراطية هى التعبير عن كل ذلك .. أى أنها صورة محكمة لمباراة يجرى تحكيمها بقواعد عادلة بين فريقين .. أى إتاحة الفرص للجميع فى ظل الإيمان بحق الجميع فى الفرصة المتكافئة.

*لو حاولنا الحديث بصورة أكثر قربا من الناس وبالتحديد من النخبة العريضة من أبناء المجتمع الذين ينتجون السياسة والاقتصاد والثقافة ويستهلكها الجميع . . كيف تراها ولاسيما أنها ــ حتى الآن ــ هى التى تقود السفينة ؟

**هى نخبة مضطربة تتقاسمها وتتدافعها ــ فى ذات الشخص ــ نزعات متناقضة. فالاختلافات فى المذاهب أو الرؤيا أو العقائد أمر طبيعى بين المثقفين .. لكنى أتكلم عن نفسية المثقف الواحد .. إن مثقف السبعينيات وما تلا ذلك .. إنسان اختلطت عليه الكثير من الأمور وأصبح غير قادر على تصديق أشياء كثيرة .. وهذا الجيل الذى بدأ ينتج ثقافة فى السبعينيات جيل كان فى مرحلة المراهقة عندما وقعت هزيمة ٦٧ .. وجزء من الجيل جند وظل على خطوط القتال حتى حرب ٧٣ وظل فى الجيش عامين آخرين ..أنه جيل ضاعت أحلى سنوات شبابه إما فى الكمد والغم أو الغضب والإحساس بالمهانة .. وكانت

الفترة التى قضوها فى خطوط القتال والتى ضاعت فيها أزهى سنوات شبابهم ـ إلا إن التعويض كان فى الشعور بأنه كان هناك رسالة واضحة وهى السعى للتحرير ـ وبعد حدوث الانتصار رفع هذا الجيل قامته وابتسم للحياة منتظرا ثمار هذا الانتصار ، فكانت الصدمة الثانية التى ضربته حيث وجد أن البلد التى حارب من أجلها وحررها تتغير بسرعة اسمها يتغير علمها يتغير نظامها السياسى والاقتصادى يتغير .. ووجد أنه لا يستطيع أن يحقق ولو الجزء اليسير من أحلامه ـ وهذا أصاب عددا منهم بنزعة نحو التطرف .. وأصاب جزاء آخر بنزعة إلى العبثية .. وجزءا ثالثا بنزعة إلى الانتهازية وجزءا رابعا بالهروب داخليا أو خارجيا ـ المشكلة أن فى نفس الشخص الواحد تجد كل هذه النزعات !! فأحيانا تجد لدية نزعة انتهازية شديدة وأحيانا للعبث الشديد . . وفى أحيان ثالثة للتديين . طبعا هذه توصيفات عامة ولا تنطبق بنفس النسب على الجميع أو بنفس المقادير الداخلية .. وبالتالى فإن الثقافة التى إنتجها هذا الجيل هى ثقافة عدويه إلى " كأمننا "وهذا كله خط ثقافى يعكس العبثية . أيضا هناك ثقافة أخرى هى ثقافة الشراء السريع والمضاربات التى تمثلها القطامية الجديدة والساحل الشمالى والبحر الأحمر ويعبر عنها الأغنياء الجدد . وهذه الشريحة لها جاذبية خاصة تشد بعض المثقفين الذين يرغبون فى الالتحاق بها حينا .. وابتزازها فى حين آخر وهذا ما حدث فى مسألة الصحافة الصفراء .. وجزء آخر بدأ ممارسة العنف تحت وهم أنه رسالة واستمر تحت حقيقة أن العنف بات وظيفة ..!! ثقافة الشتات التى تظل كل هذا الواقع هى السائدة اليوم .

*يبدو هذا التحليل وكأنه يتجاهل ظاهرة دينية انتشرت بصورة واسعة النطاق إما بسبب الفراغ الذى تركة جيلك بدون ثمار كافية يأكل منها المجتمع أو بسبب أن هناك احتياجا بالفعل لهذه الثقافة أو الظاهرة إن جيلك يبدو كأنه لم يقدم بالأمس من اليقين ما يكفى .. فكانت النتيجة التى نراها اليوم ؟

الجيل الذى كان

** لا .. إنه خلل فيما قدمه جيل سابق على جيلى ذلك الجيل الذى كان يحكم ونحن فى العشرينيات ، جيلى أنا هو الجيل الضائع الذى بدأ يمارس الحياة العامة من منتصف الستينيات وللأسف فإن هذا الجيل كان واعدا بالكثير فى حياة هذا البلد .. لأسباب عديدة منها أنه كان قد تشرب جزءا من الليبرالية ثم جزءا من الحماس الثورى فى فتوته ثم تعليما ـ كان مازال ـ معقولا .. وبعضه تلقى المعرفة من أرقى معاهد العالم . لقد كان جيلا مؤهلا لاستلام المسئولية ولكن حين آن أوان العمل كانت الاستعدادات للحرب حينا ثم الانتقال للانفتاحيين الجدد فى مرحلة تالية .. فوجد هذا الجيل نفسه ضائعا والقلة التى

صمدت لعبت دورا مهما فى حياة مصر مثل إبراهيم كامل عالم الأعمال . . عبد الوهاب المسيرى فى الثقافة.. على الدين هلال فى الجامعة عبد الرحيم شحاته محافظ القاهرة احمد الجو يلى وزير التموين مصطفى الفقى إسامة الباز وغيرهم .. معظم هؤلاء درسوا فى أمريكا وكانوا نشيطين جدا سواء فى منظمة الطلبة المصريين أو فى منظمة الطلبة العرب . أما الظاهرة الدينية أو امتداد التيار الدينى الذى تشير إلية فإننى أرى أنه ــ أى هذا التيار ــ قد حقق ذيوعا وليس انتصار على الساحة . . والانتصار من وجهة نظر هذا التيار يعنى عندما يصل إلى الحكم لكى ينفذ أجندته وأعتقد أنه مازال بعيدا بل لن يتحقق له ذلك أبدا لأسباب عديدة منها عيوب خلقية فى التيار تجعله دائما أعدى أعداء نفسه ويدفع ضريبة دم فى كل جيل منذ أيام حسن ألبنا إلى يومنا هذا ــ ولم يتقدم بوصة واحدة للأمام ــ لأنهم يتوارثون أساليب العنف ، واستخدام العنف بهذا الشكل فى مصر والذى يستهدف نفى الآخر لا يجد قبولا من الأغلبية المسلمة والمسيحية ــ يمكن لهؤلاء أن يجرحوا الدولة أو يعرقلوا التنمية أو يرعبوا الناس لكن لايمكن أن يصل مثل هذا الأسلوب إلى الحكم فى مصر على أبواب القرن الواحد والعشرين ..

وبالمناسبة فإن سوء تعامل الدولة مع هذا التيار هو الذى أطال مدى المواجهة الدموية والعنيفة فلم تعط لهذا التيار الفرصة لكى يعتدل .. ومن المؤكد أن توفير مساحة من المشاركة يمكن أن تدفعه للاعتدال والدليل على ذلك الإخوان المسلمون طبعة ١٩٧٢ وحتى الآن .. فعندما توفرت لهم الفرصة للمشاركة اعتدلوا ولم يرتكبوا حادث عنف واحد ويحاولون الوصول لأهدافهم بالطرق السلمية فدخلوا انتخابات ٨٤ وانتخابات ٨٧ .. فى الأولى بالتحالف مع حزب الوفد وفى الثانية مع حزب العمل .. كانوا فى البرلمان مسئولين جدا .. وبالتالى فإن هذا نموذج لما يمكن أن يحدث إذا أعطيت لهم فرصة للاعتدال ــ وهذا كان يمكن أن يحدث لفصائل أخرى .. ولكن للأسف لم يحدث وهذا خطأ الدولة الذى تبدى عام ٩٠ وعام ٩٥ عندما أجهضت إمكانية مشاركتهم وبالتالى يمتد أجل المواجهة وإن كان فى يقينى أن الدولة المصرية دائما تنتصر لأنها دولة قوية رغم كل مشاكلها . وإنما ثمن الانتصار يرتفع من جولة إلى أخرى .. من ٣٠ قتيل عام ٧٤ إلى أكثر من ١٠٠ وهكذا حتى الجولة الأخيرة المستمرة من عام ٩٠ وحتى الآن والتى سقط فيها أكثر من ٤٠٠ قتيل وأكثر من ألف جريح .. وهذا يعكس أن الاتجاه للعنف يتزايد مع انعزال هؤلاء الأشخاص وتراكم خبرة العنف بينهم ، ولذلك لم يكن هناك من يظن أن مثل جريمة الأقصر يمكن أن يحدث .. والمواطن المصرى العادى يشعر بالذهول لأنه لم ير مثل هذا إنما المسألة مثل أى جرثومة لم تختف مع العلاج المناسب من أول لحظة مما جعلها تكتسب مناعة وتتغير ولذلك فأننى أرى أن هذا الموضوع بالغ الأهمية والحساسية.

** أعرف أنك قمت بعديد من الأبحاث العلمية الميدانية حول هذه الظاهرة ويعرف الكثيرون أهمية دراساتك حول التيار الديني في مصر .. من هنا فإن التساؤل: من أين نبتت هذه الظاهرة ؟

** لا يوجد تيار في مصر أتى من فراغ .. مصر منذ القرن الماضي وهي تضم ثلاث تيارات لم تختف وإن تغيرت ألوانها أو تفاصيلها : هناك التيار الرافض لكل ما هو غربي وتيار يهوى كل ما هو غربي وثالث انتقائي يحاول أن يوافق بين الأصالة والمعاصرة .. محمد علي وجمال عبد الناصر كانا يمثلان التيار التوفيق بين الأصالة والمعاصرة بينما الخديوى إسماعيل والسادات كانا يمثلان التيار التغريبي الذى كان يهوى الغرب أحدهما كان يريد أن يجعل مصر قطعة من أوروبا والثاني كان يريد أن يجعل مصر قطعة من تكساس أما التيار الرافض فالمعبر عنه الإسلام السياسي .. وهذه التيارات لا تختفي وأحيانا تنشط وأحيانا تنحسر.. لقد نشطت في أوائل القرن وكان النموذج الديني يتمثل في جمال الدين الأفغاني والتوفيقي في رفاعة الطهطاوى .. والملاحظة الأساسية أن التيار الديني لم يختف ولن يختفي .. السؤال المهم هو : هل يظهر بوجهه العنيف أم بشكله المعتدل .. وأنا شخصيا مع إدماجهم في الحياة العامة لأن ذلك هو الطريق لدفعهم إلى الاعتدال ومشاريعي العملية في إمبابة التي كان مسرحا للعنف لمدة ٦ أسابيع في أوائل ٩٢ كانت تستهدف إدماج هؤلاء في الحياة المدنية دون أن أسالهم تغيير آرائهم ولكن فقط الإقلاع عن العنف ، ومقابل ذلك وفرت لهم العديد من المساعدات التي تمنحهم أملا جديدا في الحياة وكنت دائما ضد إقصائهم ومع التعددية.

*البعض يختلف معك في أنك لخصت المظاهرة الدينية أو التعبير الديني في الشارع المصرى اليوم في العنف أو التطرف أو الصوت الغاضب لطبقة مأزومة ويرى هذا البعض أن المصريين يتجهون أو يعبرون عن اختيار ديني ويجدون في الإسلام حلا مرتقبا .. وقد قال أحد الباحثين المعروفين أن هناك بحثا أجرى وتبين منه أن أكثر ٦٥ % من المصريين يرغبون في أن تظللهم الشريعة الإسلامية ؟

** هناك فرق بين الاختيار التاريخي العام واختيار اللحظة ، وعلى فرض أن كلام هذا الباحث صحيح وأنه يتحدث عن بحث أو دراسة منضبطة علميا فإنها تعبير عن اختيار لحظة والشعب المصرى شعب متدين في كافة الأحوال . فإذا قيل له ما رأيك في العيش طبقا القواعد الدين فالأغلبية تقول نعم .. ولكن بتعميق السؤال وقلت ماذا لو قمنا بقطع يد السارق على أى جريمة فإنني اعتقد أنك ستحصل على نتيجة مختلفة . ولكن الحديث في العموميات سهل مثل ما رأيك في الوطنية ما رأيك في الاستقلال إنها تهويمات وليست أسئلة منضبطة .. أنها مثل الذى يقول إنني ضد التدخل الأجنبي في شئون مصر لمن يقول كلامه .

إن اللجوء للعموميات متاهة والحديث الذى يدور هذه الأيام عن الشريعة والإسلام يجرى فـى إطار هذه العموميات . ولكن الأسئلة المحددة هى المحك .. فعندما تسال المواطن العادى هـل تحب أن يحكمك شكرى مصطفى أو الشيخ عمر عبد الرحمن أجزم أنك ستحصل على إجابـة مختلفة عن السؤال هل تحب أن تعيش فى ظل الإسلام لأنك فى السؤال الأول حولت المجـرد إلى شخص وفكر ملموس .. فما يقوله هذا الباحث كلام مثقف ..كلام طائر فى الهواء غـير مرتبط بالزمان والمكان والسؤال المحدد.

*والانتصار المدوى لحضارة واحدة أو ثقافة واحدة تنشر فى أرجاء المعمورة بقـوة محطمة كافة الحدود متجاهلة كافة الخصوصيات ألا تصبح الخشية على الذات مشروعة ؟

** لا .. هذا الكلام مبالغة .. العالمية موجودة وستظل فى اتساع دائم والحـل هـو التعايش والتجادل .. ولكنى ضد التقوقع .. لدينا "فوبيا" أو خوف مرضى مـن الآخـر منـذ سقطت غرناطة عام ١٤٩٢ . كانت الحضارة تنحسر وحضارة أخرى تبزغ بظـهور أمريكـا .. تتولد لدى الذات الجماعية هلع .. ولكننا نسينا أننا نتكلم عن خمسمائة سنة مـن تـاريخ البشرية الطويل وأننا لن نجد الخلاص فى الانسحاب لأنه يعنى مزيد من المذلة .. وأننا لابـد أن نفهم أن الانتصار ليس قدر طرف واحد على طول الخط والعكس من نصيـب الآخـرون دائما وأن المسألة هى شروط .. فلو توفرت شروط النصر سوف ننتصر والمصـرى الـذى انسحب وهرب فى ٦٧ هو الذى اقتحم وانتصر عام ٧٣ .. والبعض يخـاف مـن إيـران .. وهكذا سنكتشف أن العرب خائفين من كل حاجة .

*يأخذ عليك بعض منتقديك غيابك الطويل عن مصر من عـام ١٩٦٣ إلـى عـام ١٩٧٥ويرون أنك والعديد من الأكاديميين الذين عاشوا نفس التجربة فى الغربة عادوا بـدون أن يقدموا زادا ثقافيا حقيقيا وهذا هو السر الحقيقى وراء ما حدث لها الجيل الذى وصفتـه بـ"الضائع".

**لا .. هذا غير دقيق .. ومعظم الأسماء التى ذكرتها لك منذ قليل لم تمـض كـل هذا الوقت فى الخارج .. وأنا بقيت فى الغربة.

*كان يمكن أن يترجم فيها كل ذلك إلى سياسات أو فكر أو تغيير فى عقلية النـاس كانت بعيدة عن أبناء هذا الجيل.

محمد سعيد العشماوى

إنهم يهدمون الدولة تحت غطاء الشريعة

هذا المفكر ورجل القانون مازال يقف مُصراً على رؤيته يحمل في يده ١٤ كتاباً يشرح وجهة نظره ويقدم رؤية فكرية كانت من أكثر الرؤيات إثارة للجدل والاهتمام والقلق .

يخوض معركة ضارية منذ سنوات ويشعر عندما تجلس معه بأنه صاحب هدف أو رسالة قدرية ضد من يسميهم : (أتباع الإسلام السياسى) ، ويقول عنهم إنهم يهدمون الدولة الحديثة ويحطمون قيمة الضمير الإنسانى ويدفنون النظام القضائى المدنى حتى يسيطروا على المجتمع تحت أوهام التراث والحكم بالشريعة !!

ويقولون هم عنه : إنه المستشار محمد سعيد العشماوى يرفع راية الحرب ضد الإسلام ويشكك فى الثوابت والأصول الدينية أيضاً كان القاضى الذى يحاكم خصومه ويقفون أمامه فى أغلالهم .. فأين الحقيقة فى الخصومة .. وأين الحقيقة فى الدور ؟ ..

فى طريقى إلى بيت المفكر والمستشار محمد سعيد العشماوى تساءلت : هل يا ترى سندخل القرن الجديد ونحن لازلنا نحمل على ظهورنا ضحايا حرب (داحس والغبراء) الفكرية التى اندلعت منذ أكثر من عشرين عاماً . وهل سنواصل فى الغرق رائحة غبار الأمس دون القدرة على أن نجد لغة جديدة ومنظوراً أحدث لاكتشاف طريقنا المستقبل ؟

وقبل أن أجتهد فى البحث عن الإجابة كنت أمام منزل الرجل .. وشعرت من الوهلة الأولى أن هناك خطراً يحيط بالمكان وقلقاً يظلله ... وتوتراً يتجول فى مدخل العمارة التى يتبادل الحراسة عليها مجموعة من رجال الأمن .. وأمام باب شقته .. ورجل الأمن يخبره بوصولى ، ومع صوت مميز ينبعث من انفتاح الباب الذى يغلق كهربائياً كنت قد بدأت أستشعر خطورة الأمر .. ولكن مع ظهوره ودخولى لأجد نفسى فى مكان فسيح مكتظ بالأضواء الخافتة والستائر الثقيلة تحجب ضوء الخارج وضوضائه .. ومع صوت الترحيب .. وأول خطوة داخل الشقة .. وجدت نفسى داخل متحف صغير تتنافس فيه التحف والمشغولات الفضية باللوحات الأنيقة التى تعود لعشرات السنين للوراء لتختلط بنماذج وألوان من عصر النهضة لتنوب فى أنغام كلاسيكية تنبعث من أركان المكان الفسيح المكتظ !

هنا خفَّ التوتر .. وبدأت أبحث عن رجل القانون قبل أن أقترب من رجل الفكر .. وبدأت مباشرة بالشكوك قبل الاختلافات :

* يحيط الخوف بالمنزل .. الحراسة من مدخل البيت .. هل لذلك علاقة بكونك كنت خصماً فكرياً للجماعات الإسلامية والمتطرفة وأيضاً القاضى ، وهل كانت هناك ظلال لهذه الخصومة على أحكامك ؟

** بداية الحراسة طبيعية لأنه يبدو أننى لا أزال على قائمة الإرهابيين وأنا لا أخشى ذلك ، لقد كنت هدفاً لنفس السيناريو الإرهابى الذى أصاب الكثيرين لذلك خضعت لحراسة مشددة منذ عام ١٩٨٠ .. ولكن بعيداً عن هذه التفاصيل فأنا أحب أن أتوقف أمام دورى كقاض من أجل الحقيقة .. فأنا بوضوح أمثل مدرسة الدين لله والوطن للجميع ، وسوف أرد على بعض ما يتضمنه السؤال بوقائع حية تعود إلى عام ٨٤ عندما عُرضت أمامى إحدى القضايا المتفرعة من قضية الجهاد .. ويومها حصل جميع المتهمين على البراءة باستثناء اثنين كانا قد هربا وعوقب كل منهما بستة أشهر !! وحدث التكبير والتهليل وكنت أعرف أنهم بالفعل جماعات إسلامية إنما هذا لا دخل له بالقضاء !

ولذلك فى إطار الرد على سؤالك أقول إنه لم يحدث أن شعرت كقاض أن هناك خصومة بينى وبين المتهم الذى يقف أمامى .. إطلاقاً .. بل أكثر من ذلك فقد علمت من المحامين أن أحدهم .. وكان من الإخوان المسلمين ــ قاد حملة فى تلك القضية التى ذكرتها فى بداية الكلام لردِّى قبل انعقاد الجلسة .. فسأله المحامون الآخرون : لماذا ترد المحكمة ؟ .. قال لأن القاضى له أفكار مخالفة!

فردُّوا عليه بأنه قاضٍ نزيه ولن نجد أفضل منه .. إنه يحكم بالعدل ، وهو فرصة لأى متهم للمتهمين الذين قالوا إنهم يطمئنون للقاضى ويسمعون عنه ما يدعو للاطمئنان .. ولا نرغب فى رده إطلاقاً ! وقد عُرضت على أكثر من قضية ولم أرد على الإطلاق .. ويمكنك أن تسأل مختار نوح .. إنها وقائع ثابتة ويمكن سؤالهم .. وفى هذه الدعوى بالذات أفرجت عن شخص تم القبض عليه لمدة ٢٤ ساعة ولم أجد دليلاً فأفرجت عنه .. وحدث أن تم تغيير اختصاصى فى المحكمة فنقلت إلى دائرة أخرى .. وكانت المفاجأة أنه فى أول جلسة تم رد المحكمة وكان عضو اليمين فيها المستشار عدلى حسين محافظ المنوفية وبكل أسف تم قبول الرد ولاحظ أنه كان ثانى رد للمحكمة فى تاريخ القضاء ! .. أقول ذلك لأبرهن أننى كنت قاضياً يحكم بالقانون فقط وخارج المحكمة كنت خصماً فكرياً وهذا حقى الإنسانى .

* هل كان الحرص منك والتأكيد الذى كررته على عدم وجود خصومة شخصية بينك وبين أتباع التيار الإسلامى أو الجماعات الإسلامية مقصوراً عليهم فقط ؟ .

** مرة أخرى أكرر لك .. وإذا أحببت أن تتقصى فأمامك متسع للحركة وهو أننى أنظر للقانون بعيداً عن أى اعتبارات والشواهد ليست مرتبطة فقط بهؤلاء الذين يلعبون بعواطف الناس تحت ادعاءات تطبيق الشريعة الإسلامية والذين ينشرون البلبلة وأقاومهم فكرياً من

أجل مستقبل جديد للوطن وللإسلام .. بل كان ذلك موقفى مع الآخرين جميعاً .. فى ١٨ و ١٩ يناير ١٩٧٧ وكنت رئيساً لنيابة وسط القاهرة رفضت حبس الشيوعيين لأنه لا تتوافر أدلة .. وجاء من يبلغنى بأن السادات له رأى معين .. فقلت لا يوجد دليل .. فطلبوا نقلها لمكتب النائب العام ووافق وبعد عشر سنوات صدر الحكم بالبراءة !!

* السؤال الآن عن الحالة القائمة بين الإدارة والعدالة فى مصر ؟

* هذا موضوع كبير .. وأذكر أننى كنت فى باريس عام ١٩٧٧ مع توفيق الحكيم بعد صدور طبعة فرنسية جديدة من كتابه (يوميات نائب فى الأرياف) وظهرنا فى برنامج تليفزيونى هو باعتباره المؤلف ووكيل نيابة فى العشرينيات – وأنا كمفكر ومؤلف ووكيل نيابة فى الخمسينيات والستينيات .. وتحدثنا عن نفس القضية .. وأقول لك: لم يحدث فرق ! وبكل أسف أعتقد أن الإدارة أحياناً معذورة وفى أحيان أخرى تتعرض لضغوط شديدة فى العمل .. ولكن فى جميع الأحوال أنه لم يتم تحديث الإدارة بالصورة اللازمة ولذلك تأثيراته . كنا ونحن وكلاء نيابة فى الخمسينيات لابد أن نطلب صحيفة سوابق المتهم .. وهذه تأخذ ١٥ يوماً حتى تصل لأنه جائز أن يكون قد ارتكب سرقة ويتبين من صحيفة السوابق أنه (عايد عود جناية) أى ارتكب أكثر من جريمة سرقة وحكم عليه فيها لفترة معينة .. فتنقلب الجريمة من جنحة إلى جناية .. أو بمعنى أدق يُعاقب على الجنحة بعقوبة الجناية .. وكان فيه جرائم الاشتباه .. أى إذا ارتكب جريمة اعتداء على المال أو النفس فيُعد مشتبهاً فيه والمحكمة تحكم بإنذاره وبعد ذلك إذا لم يستقم فإن المحكمة تحكم بحبسه .. هناك أيضاً التشرد .. فإن لم يمتهن الفرد مهنة شريفة فإن المحكمة تنذره بضرورة إيجاد عمل شريف .. فإذا لم يحدث يُحبس !

ولكن ما يحدث فى الفترة الحالية أن صحيفة السوابق لاتُرفق فى أغلب الأحيان وبذلك لاتكون أمام المحكمة صورة واضحة عن ماضى المتهم ـ كما أن جرائم العودة فى السرقة أصبحت نظرية لنفس السبب !! ـ ولذلك فإن عدداً كبيراً من جرائم المخدرات يُحكم فيها بالبراءة لعدم ثقة المحاكم بمحاضر الضبط أو عدم حضور الضباط للشهادة ـ وقد تحدثت مع أكثر من وزير داخلية فى ذلك .. وقلت لأحدهم أن معظم القضايا فيها افتعال تلبس وجرت المحاكم على أن تقضى بالبراءة وهذا ليس فى صالح الإدارة لأنه يحمل اتهاماً بمعنى غير كريم ـ فأجابنى أنه يتم الضبط بدون إذن تفتيش .. قلت إننا نعرف ذلك والمحاكم فاهمة لأن القضاة من الشعب ولازم تعدلوا هذا الوضع .. وعلى هذا أعتقد أن الإدارة فى علاقتها بالعدالة لاتزال كما هى منذ عشرينيات (يوميات نائب فى الأرياف) ! وأكثر من ذلك .. فإن الجرائم زادت كماً وثقلت نوعاً .. وبات العبء مضاعفاً .. أيضاً فإن القانون أصبحت قبضته واهنة وأصبح المواطن لابديل أمامه سوى الاحتكام للسلطة .. فزاد العبء الكبير على الشرطة لكي توقف هؤلاء الأشقياء المعادين عند حدودهم .. تلك الحدود التى كان يجب [illegible]

التربية والنشأة والثقافة السائدة وسلوكيات التحضر العام .. والقانون لايصح أن يُطبق فى كل حاجة .

فالقانون يضع قاعدة عامة يُعاقب الخروج عليها .. والجريمة من الطبيعى أن تكون فردية ولكنها إذا تكاثرت وكبرت تصبح ظاهرة اجتماعية فى حاجة للعلاج من المجتمع كله وليس من الشرطة وحدها .

* حديثك فى التليفزيون الفرنسى عام ٧٧ بالاشتراك مع توفيق الحكيم وتصريحك بأن الإدارة لم تتطور كما يجب يثير سؤالاً مهماً حول علاقة المواطن المصرى بالقانون .. هناك من يرى أن هناك خللاً فى هذه العلاقة .. قام بتفسيره المستشار طارق البشرى نائب رئيس مجلس الدولة وهو أننا تركنا ميراثنا التشريعى منذ الحملة الفرنسية ، فجاءت قوانين بعيدة عن الشخصية المصرية .. تجدها تُنفذ بتلقائية فى مجتمع أوروبى وتتعثر فى بيئتنا المحلية ؟

** سوف أبدأ من النقطة الأخيرة فى سؤالك وأقول هذا القول من طارق البشرى وأتباع الإسلام السياسى هو الذى أضعف سلطة القانون .. كلام به مغالطة .. فالإلحاح على أن القانون غريب وأن لا حكم إلا لله وبالتالى مخالفة القانون واجبة وبالتالى فإن طاعته كفر لأنها طاعة للكافرين !! .. هذا هو صميم الموضوع والذى أضعف أثر القانون .. وتعالوا نتساءل : ما الذى كان موجوداً قبل الحملة الفرنسية ؟ ولماذا لاننظر فى كتاب بدائع الزهور لابن إياس ، لنرى ماذا يقول ابن إياس الذى عاصر الحملة العثمانية ! بصراحة كده لم يكن هناك قانون فى مصر بل كانت إرادة الحاكم ولم يكن يوجد قضاء ! لأن القضاء كان مقصوراً على الأحوال الشخصية والمواريث ـ قاضى المواريث كان يسمى فارض .. ومن هنا جاءت تسمية (عمر بن الفارض) لأن أباه كان قاضى مواريث ، لم يكن القضاء يفصل فى الدعاوى الجنائية إطلاقاً إنما تحققها إذا رأى ذلك الحاكم والى الشرطة ـ إلا أن العقوبة كانت موكولة للوالى .. ولم يكن هناك نظام قضائى ـ أضف إلى ذلك أن المنازعات المدنية كانت تدور فى أربعة مذاهب .. أربعة قضاة يعينهم قاضى عسكر وفى الغالب كان روميا أو غير مصرى ويولى من الأستانة ولايحصلون على رواتب إنما رشاوى أو المصاريف مقابل الفصل فى الدعاوى ويدفعون منها (جُعلاً) للقاضى عسكر مقابل تجديد استمرارهم ! وكذلك .. لم تطبق الشريعة الإسلامية إطلاقاً ومرة أخرى لاداعى لكلام البعض وكأنه يتحدث عن (سمك فى الماء) .. نحن نريد مصادر واضحة للكلام عن الشريعة أو الكلام .

وحتى لاننسى فإن الامتيازات الأجنبية أعطيت أساساً من الدولة العثمانية لأن الأجانب قالوا إنهم لا يأمنون للقضاة ولا لقاضى عسكر ولا لأى حاكم شرطة .. وإذا أراد ولايات الدولة العثمانية دخول الأجانب وممارسة التجارة فلابد من الامتيازات .. فصدرت الامتيازات (بغباوة) فى الأستانة لأنهم كانوا يرون أنه لايصح لمسلم أن يعمل معاهدة مع كافر فأعطوا

فرمانات امتياز وورثت مصر هذه الامتيازات باعتبارها أهم دولة فيها أجانب وتجارة وعبور للهند .. ولكن تبين بعد ظهور المحاكم المختلطة أن هناك نظاماً آخر مختلفاً .. نظاماً دقيقاً وقد تبين لإسماعيل باشا خديوى مصر .. أنه يجب أن ينشأ قضاء مصرى لكى يسحب البساط من تحت أقدام القضاء المختلط ولكى تكون فرصة لإلغاء الامتيازات الأجنبية فيما بعد .. هنا لاننسى أنه فى عام ١٨٨٣ تم نقل الكثير من النظام القضائى الفرنسى إلى مصر .. وهذا يفسر دقة العمل الإدارى القضائى فى مصر ـ وما حدث أن الخديوى توفيق طلب من رجال الأزهر تقنين الفقه الإسلامى حتى يصبح قواعد محددة فرفضوا ! ولايوجد فى الفقه الإسلامى قانون عقوبات هناك أربعة حدود فى القرآن الكريم أضاف إليها الفقه حدين والباقى تعزيرات ـ ما يعن لولى الأمر ـ اليوم بعد أن تطورت الحياة وتحضرت لم تعد هناك عقوبة بلا نص .. والنص لابد أن يكون سابقاً على الجريمة .

* ولكن هناك من يقف عند نقطة متقدمة من كلامك ليقول بوضوح إذا كنا أمام حكم الله .. أطفئ أحكامك .. انتهت المسألة ؟

** لازلت مُصراً على أن أوضح تعقيباً على ذلك المعنى أن القضية ليست بهذا المعنى .. فهى ليست الفرق بين حكم الله وحكم الفرنسيين . بل الفرق بين حكم نظام قانونى .. وحكم عشوائى وبلا ضمانات للناس أمامه ولا عقوبات محددة .. فلم توجد عقوبات إسلامية .. كان هناك (التوسيط ـ والتجريس ـ والوضع على الخازوق) مثلما قال المقريزى .. وكذلك قاله إبن إياس وغيرهما .

* ما نتحدث عنه يدخل فى إطار ميراث اجتماعى وثقافى وعادات ومفاهيم بيئية مرتبطة بالتاريخ ولكن لا علاقة له بالفقه أو الشريعة والحكم بيننا القرآن .. فما رأيك ؟

** أنت تُرجع السلبيات للعادات والتقاليد والتراث ولكن أحب أن أذكرك بأن أحكام القرآن كاملة لم تطبق على مدى التاريخ كله ، ولاتنس مقتل عثمان والفتنة الكبرى ، ولاتنس الصراع بين على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان .. ولم يكن صراعاً مستحدثاً بل إنه ذلك الصراع القديم بين الهاشميين والأمويين .. ولاتنس أن العباسيين قالوا إن الأمويين لم يحكموا بما أنزل الله .. واليوم نمارس نفس الدوران فى الحلقة المفرغة الخطأ فى المبادئ أم فى الناس ؟ إننا ببساطة خارج نطاق الزمان والمكان نتعلق بشىء غير تاريخى .. ولن تكون للمسلمين فاعلية إلا إذا تحركوا داخل التاريخ ـ وأعود لنفس سؤالك وأذكرك بأن الحدود أربعة .. فهل هى كافية لإصلاح المجتمع ؟ وأين تقع عقوبات كافة الجرائم المستحدثة فى ذلك التصور القديم ؟ أين جرائم المرور ـ التجسس ـ المخدرات ـ التزوير ـ الحرائق العمد أو بإهمال .. وغيرها وغيرها .. كلها جرائم لاتوجد عليها عقوبة إلا بالتعزير ، والتعزير معنى عام يعكس وجهة نظر الحاكم .. يعنى بالضبط ماذا نفعل أقول لك على ما كان سائداً ، تقول لى التراث .. إذن

التراث لم يطبق القرآن .. إذن نستحدث التراث .. ولنتعامل مع التراث على أنه سبيل للاندفاع نحو المستقبل إنما نحن ننظر للتراث على أنه العيش في الماضي وهذا خطأ .. تريد الرجوع إلى القرآن ؟ أقول لك لايوجد فيه سوى أربع عقوبات ولم تُطبق !

* يرى البعض في أطروحات المفكر المستشار محمد سعيد العشماوى تعبيراً عن الدفاع عن الوافد الغربي والثقافة الغربية التى أزاحت موروثنا الحضارى وحاصرت الإنسان العربى اليوم بالتغريب والإحساس باللا معنى ؟ وأيضاً ألست معى فى أن الإسلام رسالة تشريع ؟

** أولاً أحب أن أشير إلى أننى من المدافعين عن الحضارة الإنسانية ، أنا رجل حضارى وإنسانى بالأساس ، وكل ما هو مقبول من الحضارة أنتخب .. ولكن أن تقبل الڤيديو .. والسيارة .. والتليفزيون الذى غير الحياة فى مصر .. والدش .. وقبل ذلك الطباعة .. ثم تجىء لتقول : إن عيب القانون أنه وافد وأنه فرنسى !! غريبة .. أليس كذلك ؟ ثم لأن عبدالرزاق السنهورى باشا ـ أستاذنا ـ قال إنه يمكن تخريج قواعد القانون المدنى على أحكام الفقه الإسلامى بمعنى أنه يمكن إيجاد قاعدة فقهية إسلامية لكل حكم فى أحكام القانون المدنى وتبقى العقوبات ولن أدخل فى التفاصيل .. ولكن أشير إلى أن التعزير فى الفقه الإسلامى أعطى الفرصة للحاكم أن يُنشئ الجريمة ويخترع العقوبة ويطبقها بدون ضمانات .. فى نظامنا الحديث تخلصنا من كل ذلك فهل فى ذلك ما يدعو للاستغراب ؟ أقول لك بصراحة إن هذه الدعوة التى تقال عفواً فى أجهزة الإعلام هى التى أضاعت هيبة القانون .. بالرغم من أن كل رموز الإسلام السياسى ـ الذين يقولون بذلك ـ يعرفون أن هناك أحاديث فى صحيح البخارى تقول أن طاعة الحاكم واجبة وضرورية لأن يوماً واحداً ، من الفتنة أبشع من ستين عاماً مع حاكم ظالم !! وأنا لست مع هذا الحديث إنما لماذا يتجاهلونه ؟ ولماذا نتكلم فقط عن القانون ونصفه بأنه فرنسى ؟ .. بوضوح أنا أرى أن هناك خطأً شديداً فى الفهم الإسلامى السائد مما أثر على المصريين .. فقد تأثر هذا الفهم بالإسرائيليات كما قال جمال البنا شقيق حسن البنا ـ ويبدو ذلك جلياً فى تحريف لفظ الشريعة واعتبار أن الإسلام رسالة !! فاليهودية رسالة تشريع لذلك يقولون على (معطى الشريعة) ونجد لديهم (سفر التكوين) .. ثم (سفر الخروج) ثم (سفر اللاويين) ثم (سفر التثنية) أى تكرار التشريع لليهودية تتناول كل شىء لأن موسى عندما خرج باليهود كان فيهم جزء مصرى متحضر والجزء الأكبر هو غير المتحضر وكان لابد أن يحكمهم القانون الإلهى بصورة سريعة فلديهم آفات ومصابون بالجرب ولابد أن يفعلوا كل شىء بأمر إلهى بداية من الاستحمام .. لذلك نجد تشريعات شديدة فى السعودية حتى أننا نجد فى المزامير (الرب شارعنا) أى المُشرِّع .. لماذا اقتحمت تلك الفكرة الإسلام .. لأنه بعد التوراة نشأ التلمود ـ أى التعاليم ـ وكان يقدمها الأحبار لأن التوراة بحالتها لم تكن صالحة للتطور الذى حدث ـ وباتت التوراة أقرب لنظام شمولى يقيد اليهودى .. بينما كلمة الشريعة فى القرآن تعنى الطريق «لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً» ثم «جعلناك على شريعة

من الأمر» فالشريعة كلفظ ظهرت فى القرآن مرة واحدة وبتعريفات ثلاث مرات .. وشريعة يعنى، ومن الأمر يعنى (من الدين) ـ والنبى محمد (صلى الله عليه وسلم) اتخذ خطا أو له منهج .. والمسيح منهج .. ولموسى منهج .. أى شرائع .. فالدين واحد للكل .. ولكن لكل واحد طريقة فى التفسير والتقديم لمجتمعه .. أى أن لفظ الشريعة هو الطريق إلى الله ويتحقق ذلك من خلال العبادات .. ولن نتكلم عنها ـ وهناك نظام أخلاقى وكلنا كمسلمين فى حاجة للتمسك به .. نجىء بعد ذلك للمعاملات فإن ماورد فى القرآن من أحكام قانونية كلها ٢٠٠ آية ١٢٠ منها والنافذ ٨٠ آية ـ أغلبها يفصل الزواج والطلاق والمواريث ـ ثم أربع عقوبات بدون لائحة تنفيذية .. وهذه متروكة للنبى فى وقته ثم المجتمع بدليل أن عمر بن الخطاب أوقف حد السرقة .. وهو بذلك كان يرى أن المجتمع بصفة عامة لايُطبق هذه العقوبة .. فى عام الرمادة .. أيضاً فعل الزنا فقد اشترط له شروطاً بالغة الصعوبة حتى تتحقق يصبح أقرب لفعل علنى فاضح .. وفى واقعة شهيرة عندما تردد شعبة بن المغيرة أقيم الحد على الثلاثة .. أقصد الأمثلة أن للمجتمع دوراً جوهرياً فى .. وأن المجتمع لم يطبق تلك الحدود الأربعة : حد الزنا ـ حد السرقة ـ حد الحرابة ورأيى أنه خاص بالنبى وحده ـ وحد القذف فى حق امرأة شريفة .. هذه الحدود تقع فى إطار وظيفة المجتمع يقيس ويوقف ويبيح ويمنع .. إنها رسالة المجتمع ـ ولكن فى نفس الوقت فإنه من الصعب أن تُصلح عقوبات أربع حال المجتمع .

* أنت متهم ـ على هذا القياس ـ فى رأى البعض بأنك لاترى فى الإسلام سوى عبادات وأخلاقيات سلوكية ولكن بدون دور فى إقامة مجتمع ! وتجعله ديناً بعيداً عن الحياة وبذلك تفرغه من فاعليته الحيوية التى جعلته بهذه القوة وهذا التأثير ؟

** بداية أرفض لفظ الاتهام لأنه فى نطاق الفكر لايوجد اتهام .. واستخدام هذا اللفظ هو استخدام لعبارات حادة أقرب لعبارات التكفير .. وهنا حتى يصل الرد واضحاً لابد أن أستكمل رؤيتى عن الشريعة لأقول إن الفقهاء اعتباراً من الدولة الأموية وجدوا أن القواعد القانونية فى القرآن قليلة فأكملوها إما اجتهاداً ـ وإما اطلاعاً منهم على الرومانى لأننى وجدت متشابهات كثيرة بين الفقه الإسلامى فى بواكيره ـ والفقه الرومانى وهذه لاتعود للمصادفة .. ولو تخيلنا أنها المصادفة فإن ذلك يعود للطبيعة الإنسانية ، فإذا فكرنا فى ظروف واحدة سنصل إلى نتائج واحدة ـ هذا الفقه سُمى الشريعة .. أو أصبحنا ندرسه فى كليات الحقوق على أنه الشريعة .. وبدأ البعض يقول إن الشريعة تفسر كل حاجة .. وهذا غير صحيح .. ولكن التفسير مهمة الفقه .. فأطلقوا لفظ الشريعة على الفقه وهو من عمل الناس .. وأعتقد أن الذين فعلوا ذلك هم الذين يدمرون الإسلام .. أما أنا فإننى أقوم بالتنقيح ولم أفعل أكثر من أن ما لله لله .. وما لقيصر لقيصر .. ما لله فى القرآن تماماً .. وما وضعه الفقهاء نغيره نحن لأننا أبناء عصرنا ولابد أن نجتهد فى انتشاب فقه جديد .. ولا أقبل أن يوضع العقل المصرى أو المسلم فى سجن آراء فقهية عمرها ألف سنة .. هى تراث لنا .. ولكن نحن

نبحث بصورة أخرى مختلفة ونقدم حلولاً أحدث ونخرج العالم بصورة صحيحة ولاسيما أن هناك اليوم (جيتو إسلامى) أوجده الإسلام السياسى الذى أوجد هذا الجيتو بشكله الفكرى ـ وشكله الواقعى .. ويزيدون من استعداء الغرب والعالم ضدهم .

* أى استعداء الذى تتحدث عنه والعرب والمسلمون يحاولون فقط الدفاع عن الذات القومية والحضارية فى ظل عالم تتربع على عرشه قوة واحدة .. وتنشر أعلامها حضارة واحدة وترفع شعاراتها وقيمها على كل رقعة ؟

** الدفاع عن الذات بتبنى أسلوب العلم .. بالعلم والثقافة والضمير .. أنت فى سؤالك السابق تقول إنى أفرغ الإسلام .. لا .. أنا أرى أن الإسلام ضمير وهم يرون أن الإسلام تنظيم سياسى .. هم يريدون تنظيماً سياسياً ـ وأقول لهؤلاء ـ أصحاب الجماعة الإسلامية ـ إن مضمون الإسلام هو الضمير (إلا من أتى الله بقلب سليم) (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) .. التنظيم السياسى كان دائماً فى المعارضة .. كانت هناك سلطة ولم تكن هناك حكومة وكان المجتمع يمارس أنشطته بعيداً .. عنها .. لأنه عندما يتم استخدام الدين لأغراض حزبية يتحول إلى أيديولوجية تملك المطلق وتستخدم العنف وتستبعد المخالف .. لكنى أعود وأركز على أن الإسلام فى الأساس ضمير .. والتأكيد على الضمير هو أهم إصلاح اجتماعى لأنه يغنى عن الشرطة والمحاكم ـ ويضع داخل كل شخص محكمة نزيهة وشرطة أمينة .. (منك لله مباشرة) وتخشاه أو تتقيه أو تحبه فى السر والعلن .. إنما أنت ستحضر الله معك ـ ولكن الضمائر فى حاجة للتربية .. ولكنها أيضاً حتى لاننسى مضادة للتنظيم .. التنظيم الذى ينادى به أصحاب الإسلام السياسى وأذكرك بأننى قلت منذ قليل إن فرق الجماعات المتطرفة جعلت من الإسلام أيديولوجية وتنظيماً سياسياً للسيطرة والقفز لحكم الناس .. وهم ضد الضمير لأنهم يريدون أن يصبح التنظيم هو الضمير .. ويسلب الناس الإرادة ليحل محلها طاعة أمير الجماعة ـ وهو الخروج بعينه عن الدين .

* ولكنهم هم الذن يقولون عن ما تردده فى كتاباتك بأنه خروج على الدين ؟

** ماذا قلت أنا ؟ .. قلت إن الله هو الضمير .. وقلت إن حرية العقل .. وإعلاء قيمة الحقيقة .. وسمو الأخلاق وحرية الإنسان هو جرهر الدين .. فهل هذا ضلال ؟ أم أن الخطأ هو كما قالوا إن من أطاعنى وأنا بشر فقد أطاع الرسول وبالتالى فقد أطاع الله ثم يتبين لنا من التاريخ أن هناك مطاعن كثيرة توجه لهم .. ومن يقرأ ما كتبه اللواء فؤاد علام يرى الكثير ، فأين مكان الطاعة ؟ وإذا خالفت فى أوامر قتل صدرت لى بارتكابها أكون قد خالفت الله !! ؟ .. إنها أيديولوجية .. ولكنى أنا أمثل الاستنارة داخل الإسلام .. والتعبير الدقيق عن الحقيقة .. حقيقة أن السياسة غير موجودة فى الإسلام إطلاقاً .. نظام الدولة أخذناه من أوربا فى ظل محمد على .. كلمة دولة لاتوجد فى اللغة العربية إطلاقاً .. والموجود فى القرآن (دُولة) بمعنى

التداول .. وقد أقر مجمع اللغة العربية تعبير دولة بمعنى STATE أخيراً فى الثلاثينيات .. لم يكن فى الإسلام سوى سلطة وأناس خاضعين للسلطة .

* هل هذا هو الشكل الوحيد للعلاقات الاجتماعية والسياسية طوال تاريخ الحضارة الإسلامية؟

** متقولش الحضارة الإسلامية ! لأنها كانت فى القرون : الثانى والثالث والرابع .. ولكن لنقل فى التاريخ الإسلامى .. ودائماً كانت هناك أمة لها إمام واحد أو رئيس لكنها ليست دولة بالمفهوم الحديث وأحب أن أشير إلى أن كلام فرق الإسلام السياسى عن التراث وعظمة الأمس ومنع دراسته بعقلانية كان يستهدف باستمرار تقويض الضمير .. وتقويض النظام القانونى .. وتقويض الدولة الحديثة .. والبديل هو طاعة الأمير .

* المستشار محمد سعيد العشماوى ـ لديه إيمان كبير بأنه بمساهماته الفكرية قد علق الجرس فى رقبة (القط) وأنه الوحيد الذى استطاع أن يضع يده على موطن الداء وهو الإسلام السياسى حتى إن البعض يرى أنه «وزير الحرب» ضد فريق معين .. ويرى البعض الآخر أن المسألة كلها لاتعدو التحذير من ذئب وهمى غير موجود وفريق ثالث يرى أن هذه المعركة مفتعلة والمقصود بها إضعاف الإسلام الذى يواجه الهجمة الغربية .. فأين تكمن الحقيقة ؟

** بعيداً عن الوصف .. فأنا ضد فئة تستغل الدين لهدم المجتمع المدنى الحديث .. ضد اتجاه يسرق من الوطن أجمل معانيه وهى السماحة والرحابة وضرورة التوجه للمستقبل .. وأيضاً بداية أحب أن أقول إن الإسلام شريعة واحدة لها صيغ متعددة فثم تفسيرات متباينة ونظرات متغايرة تؤدى إلى وجود أكثر من صيغة إسلامية وليس أدل على ذلك من وجود صيغتين أو اتجاهين متباعدين أديا إلى وجود الإسلام السنى والإسلام الشيعى ـ ومنذ عشرينيات هذا القرن ظهر فى العالم الإسلامى مفهوم للإسلام كان قد ظهر فى عهد الخوارج ـ أسميناه بالإسلام السياسى تحديداً لهويته وتفريقاً له عن الإسلام المستنير ـ والإسلام السياسى يتميز بعناصر رئيسية ثلاثة هى :

التأكيد على أن السياسة جزء من الإسلام ـ وأن العمل السياسى فرض على كل مسلم وثانياً الادعاء بأن جماعته هى جماعة المسلمين وما تقول به هو الإسلام الصحيح وهو أمر يعنى أن من ليس من هذه الجماعة ليس من جماعة المسلمين بل هو خارج عن الإسلام ـ وربما مهدر الدم والمال والعرض ـ كما يعنى أن من لم يعتنق كل مبادئ الجماعة بلا نقاش أو تفهم أو تعديل يعد مرتداً ويستوجب العقاب !

وبعد ذلك أو ثالثاً الاعتماد على فرض الآراء والقرارات والاتجاهات بالقوة والعنف والاغتيال والحرب والذى يسمونه جهاداً فى سبيل الله ـ والإسلام السياسى بعناصره تلك لايصمد للنقاش ولايقوى على التحليل .

* لقد حسمت بسرعة خلافاً طويلاً يرى فيه البعض أن السياسة جزء من الإسلام وأنك تصادر هذا المعنى ؟

** هذا الفريق أو هذا البعض الذى تقصده يقول كلاماً هلامياً مخادعاً ! فإن كان المعنى الذى ينادى به هو أن السياسة ركن من عقيدة الإسلام فإنه بذلك يكون قد قوض الاتجاه السنى الذى يرى أن أركان الإسلام خمسة ـ وذلك لحساب الاتجاه الشيعى الذى يرى أن هذه الأركان ستة ! ـ وإذا كان المعنى بقوله إن السياسة جزء من الإسلام أنها جزء من التاريخ الإسلامى فالتاريخ الإسلامى ليس هو الإسلام وهو مراحل كل مرحلة منه تختلف عن الأخرى ـ من ناحية أخرى فإن اعتبار العمل السياسى فرضاً على كل مسلم فهو اعتبار خاطئ ـ لأن العمل السياسى ليس فرضاً دينياً قط ـ وفروض الإسلام محددة وليس منها العمل السياسى.

يضاف إلى ذلك أن هناك خطورة بالغة فى اعتبار أن العمل السياسى عمل دينى يؤدى إلى إضفاء العصمة على العمل بحيث يكون أى اختلاف نوعاً من الكفر يستحق عقوبة الارتداد !

واستكمالاً لسؤالك السابق على ذلك فإن المعركة مع الإسلام السياسى ليست مفتعلة لأنهم حجر عثرة فى عصر التقنية والعمل والإنتاج ـ ومازالوا يعبرون عن شعارات بلا برامج ومقولات بلا فعل بلا فهم .. والدليل على ذلك أن الإسلام السياسى وقف فى حرب الخليج ضد أغلب البلدان العربية وضد الشرعية الدولية ـ فكان بذلك إلى جانب العدوان ومع نظام للحكم لم يعمل قط باسم الدين إلا أثناء الحرب .. إن أصحاب هذا الاتجاه لايرفعون سوى شعارات غامضة مثل تعبير المشروع الإسلامى .. وهو تعبير يكرس فكرة العزلة والانغلاق بدون آفاق .. وأكرر لك أن خطورة جماعات الإسلام السياسى أنها تهديد للمجتمع المدنى الحديث فى بلادنا ـ أكرر لك أنه يهدفون لهدم نظام الدولة الحديثة بقيمها وأعلامها .

* ولكن هذه المخاوف التى تتحدث عنها ألا تعتقد أنها تضاءلت .. فالمجتمع المصرى به أقدم تجربة برلمانية فى المنطقة وله تاريخ من التطور والتحديث انتقالاً من العهد الملكى إلى عهد ثورة يوليو وحتى اليوم .. ألا تستشعر قدراً من التطرف فى الانشغال بهذه المسألة أكبر من حجمها فى مجتمع مصرى يتطور بسرعة كبيرة ويأخذ بأحدث أساليب التكنولوجيا ؟

** بداية .. لابد من التفرقة بين الدولة الحديثة والمجتمع المدنى ـ الأولى تعنى وجود مؤسسات ونظم وقواعد محددة فى إدارة الدولة ـ بمعنى ألا تكون خزانة الدولة مثلاً هى حقيبة الحاكم ـ ولايكون القانون هو إرادة كل من له سلطة ـ وإنما يقوم بمفهوم الدولة الحديثة على وجود نظام واضح ودستور أو قواعد دستورية ونظام قانون وآلية محددة لإدارة مرافق الدولة ـ وهى بذلك تختلف عن الحكومة التى تعنى نظام الحكم فى الدولة ـ ولأن الحكومة غير الدولة فلا ينبغى سحب النقد الموجه للحكومة على الدولة ـ أما المجتمع المدنى فيعنى أساساً آلات توجد

سلطة سياسية أيديولوجية ولاتوجد مؤسسات كهنوتية تسيطر على مناصب الدولة، وأساس المجتمع المدنى أن توجد حرية أفراد ومساواة فى الحقوق – فى مصر ومنذ عهد محمد على بدأ الاتجاه لإيجاد دولة حديثة وكانت الخطوات موفقة إلى حد كبير بإصلاح النظام القضائى عام ١٨٨٣ وإصدار دستور ١٩٢٣ – وتثبيت فكرة المواطنة والمساواة بين المجتمع .. وقد قام قادة مصر مثل مصطفى كامل وسعد زغلول وغيرهما بجهد كبير فى ذلك وكان المفروض أن تتمم الأجيال التالية ذلك، ولكن الإسلام السياسى سعى لضرب فكرة الدولة الحديثة ليستبدل بها فكرة الأمة، وسعى لضرب فكرة المواطنة ليستبدل بها فكرة العلاقة الدينية وسعى لضرب فكرة حق الشعب فى أن يحكم نفسه بنفسه ويستبدلها بفكرة الحاكمية التى تجعل الحكم والتشريع فى يد قادة الإسلام السياسى أيضاً أحب أن أوضح أن هذا الإسلام السياسى ليس ظاهرة حديثة كما تشير .. لقد ظهر منذ عام ١٩٢٨ فى مدينة الإسماعيلية بمصر وقد استغلته القوى المهيمنة على قناة السويس التى كانت رمزاً للاستعمار وقامت بتمويله مالياً وساعدته معنوياً بقصد استخدامه لضرب الحركة الوطنية التى كان يمثلها الوفد آنذاك – وكان الإسلام السياسى أقرب إلى حصان طروادة الذى دخل فى صميم الحركة الوطنية ليخلق بها صراعاً مفتعلاً بين الدين والوطن، الأمر الذى أدى إلى تشتيت كفاح الشعب المصرى إلى الآن وأشير فى ذلك إلى كتاب (الإخوان المسلمون) وهو رسالة دكتوراه للباحث الأمريكى ريتشارد ميتشل – وهو باحث متعاطف معهم لكنه دلل على أن المرشد الأول للجماعة كان مؤيداً سياسياً ومدعوماً مالياً من هيئة قناة السويس والاستعمار البريطانى وهذا الكتاب موجود فى مكتبات القاهرة وتمت ترجمته وبات مرجعاً هاماً .

أما بالنسبة لحديثك عن جيل النهضة والتحديث فأحب هنا أن أشير إلى أن هذا الجيل واجه العديد من المعوقات وكانت فى معظمها من داخله ! نعم .. من تكوينه الذاتى .. لأن هذا الجيل كان سبراً للتراث التقليدى الذى ليس له علاقة بصحيح الإسلام ولكنه نتج عن فهم خاطئ للدين .. مما جعله – أقصد هذا الجيل بدءاً من قبل يوليو ١٩٥٢ وحتى من حكام يوليو – لايقتنع بالتخطيط العلمى ويرى أن القول مساو للفعل وأنه متى قال الزعيم فقد فعل ومتى هتف الشعب فقد تحقق وأذكر أننى تكلمت فى ذلك مع قادة الوفد .. فاعترفوا بغياب العلمية والتخطيط وكان تبريرهم أن الوفد كان يضم فئات مختلفة وكانت هناك خشية من التفتيت ! .. ولذلك كان إيمانى يتجدد باستمرار بضرورة التجديد فى التراث وفى الفكر الدينى والاجتهاد من أجل الغد .. وقد سعيت مخلصاً لذلك .. وحتى الآن لايوجد تعريف للشريعة الإسلامية إلا ذلك الذى وضعته، ولايوجد منهج لتفسير القرآن إلا ذلك الذى وضعته ولايوجد منهج فى الناسخ من المنسوخ إلا الذى اقترحته ! أليس شيئاً غريباً أن أقوم وحدى بكل الجهد الذى كان يحتاج لأجيال للقيام به ؟

* ولكنك أيضا ـ على ما أعتقد ـ من قال بتاريخية النص أم أنه نصر حامد أبو زيد وحده؟ وهذا في رأى البعض تهديد آخر منك للقرآن حيث تحوله إلى مجرد موروث أدبي وهذا ما قام بعكسه الآخرون الأكثر فائدة للدين ؟

** أنا من قال بتاريخية النص قبل أبوزيد في كتابي (حصاد العقل) والمسألة بصراحة هل أنا رجل أيديولوجي أنني إنسان مسلم يفكر في القرآن ويرى إرادة الله سبحانه وتعالى ويستنبطها ويقدمها في النهاية رؤية بشرية ؟

فكرتي ببساطة تقوم على أن فكرة الزمان كانت مغلوطة .. الناس فاهمة أن الله الكامل كامن وساكن وأن المتحرك هو الناقص لأن التحرك يؤدى بالصحة إلى المرض وبالفتوة إلى الكهولة وبالحياة إلى الموت .. لذلك فإن الفكر الدارج يرى أن الزمن نقص والله كامل عن الزمن .. وعندما يأتي منه نص يصبح خارج الزمان والمكان وهذا يعلق الإنسان خارج الكون وخارج الزمن وهنا يصبح هذا الإنسان غريبا عن التاريخ وغير فعال فيه ، وإذا أدخل التاريخ يصبح الوضع مهتزاً ! المسألة أن فهمنا للكمال خاطئ وقاصر جداً ، وما أفادني في ذلك ليس القانون ولكن دراسة الفيزياء .. وقد كتبت الطاقة الكاملة بين العلم والدين ـ كان قاصراً وبعد أن كان عضوياً أصبح اليوم حيوياً وبات هو الذي وببساطة .. فقد توصل إلى أن الزمن مستطيلاً كان في الأزل كاملاً ثم تدهور والمستقبل ثم بعد ذلك سيكتمل في الحياة كلها قصور ونقص .. ويصبح أن النص الديني يكون خارج الزمان كرجل مؤمن بطبيعتي وأستشعر ما حولي .. لدى إحساس صوفي بالكون لذلك أرى أن النص القرآني الزمان .. والدليل أنه لو كان المسيح والقرآن يقول ذلك ـ فإن هذه الكلمة فاعلية فقد .. تجسدت ـ وكلمة الله ـ أن تنزل وتتحرك داخل التاريخ . ماحدث في تقديري كان هناك النسخ ملائمة للزمان والمكان .. وكان الاختلاف إلى آخر في عصر النبي (صلى الله عليه وسلم).. وفي هناك الاتجاه المكي يطلب ـ والمدني حدث اختلاف ـ كذلك النصوص تغيرت بديل لآخر .. مثلاً في المواريث .. في الزنا .. النص تغير .

* ولكن ماذا عن قدسية النص .. ألا تشغلك ؟

** لا أدخل أنا في (مقدس) .. ماذا تقصد يعني المقدس هو الثابت ؟ .. لماذا لايكون المقدس هو المتحرك ؟ .. أنا أرى أن القدسية في الحركة وإلا تكون قد فرغت الإنسان من أهم مافيه وتحول الدين إلى (أيديولوجية جامدة) تحبس الناس وتتطاول بذلك إلى الألوهية (أستغفر الله) وفي القرآن : «كل يوم هو في شأن» معناها إيه ؟ يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب أي أن هناك حركة .. وكل شيء يتغير والمقادير تتغير .. ولاتوجد جبرية (كده) .. مرة أخرى مفاهيمنا اليوم لابد أن تتغير عن العصور الوسطى ـ لابد من تقديم مفاهيم للعالم .. ومشرفة للإسلام .. ولذلك بنفس الرؤية الجديدة أرى أن القرآن حركة

الشريعة نفسها تعنى الإستمرارية (منهج يتحرك) .. ولقد تركنا المنهج وتمسكنا ببعض الأحكام الفقهية !!

* هل تذكر تاريخياً كيف بدأت هذا الاختيار الذى يصر البعض على تسميته بالحرب السرية بينك وبين الإسلام السياسى ؟

** أنا لم أعلن الحرب ضد الإسلام السياسي .. لقد كتبت ثلاث كتب هى : رسالة الوجود - تاريخ الوجود فى الفكر البشرى وسماه الناشر الوجودية - (وأحد المأجورين كتب : سعيد العشماوى من الوجودية إلى مهاجمة الإسلام !! وللأسف لم يقرأ الكتاب ولو فعل وعرف وتعلم لاكتشف أننى فيه أهاجم الوجودية القديمة - وأقدم فهماً جديداً للوجود) - ثم ضمير العصر - ثم حصاد العقل الذى كتب مقدمته توفيق الحكيم وهو كتاب ينقد العقل الإسلامى وأيضاً الغربى .. وأقول فيه إنه لابد من المزاوجة بين العقلين لكى نقدم شيئاً جديداً للمستقبل ، كما نقدت الماركسية وقلت إنها رأسمالية الطبقة الحاكمة ونشر الكتاب عام ٧٣ - بعد ذلك نشرت (أصول الشريعة) عام ٧٩ .. وكان الرئيس السادات وقتها قد كوّن لجاناً لتقنين الشريعة برئاسة الشيخ عبدالمنعم النمر .. وسمع الرئيس عن كتابى فاستفسر منى عن موضوعاته .. ويبدو أن أفكارى راقت له فقلت له إنك تقنن الفقه وليس الشريعة وبذلك تهدم النظام القضائى والنظام القانونى - يضاف إلى ذلك أن دستور الدولة سيصبح إسلامياً ولن يصلح لرئاسة الدولة سوى (واعظ) ! - فتم الاتفاق على أن أنشر مقالات كإعادة صياغة للكتاب فى أخبار اليوم وبمجرد نشر أول مقال عن تعريف الشريعة وفى المقال الثانى تكلمت عن تاريخية النصوص وأن المسلمين يجب أن يدخلوا التاريخ .. حتى فوجئت بمن يفتح النيران !! والشيخ صلاح أبو إسماعيل قال : إنه يقدم ديناً جديداً ! ولكن الحقيقة أنهم شعروا بعد التعريف الذى وضعته بأن ٩٠ فى المائة مما يقال سوف يتم استبعاده لأنه فقه إسلامى - ولاسيما أن استخدام منهجى التاريخى مع آيات يكررون استخدامها يكشف حقائق كثيرة مثل : (وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين لله ..) صدق الله العظيم . فلو نظرنا للوضع التاريخى لهذه الآية فى القرآن سنجد أنها خاصة بالنبى (صلى الله عليه وسلم) فى حربه مع أهل مكة .. فهى ليست مطلقة إنها مخصصة لواقعة معينة.. ولكن مايحدث هو اقتناصها من قلب النصوص وجعلها مطلقة .. نفس الأمر بالنسبة للآية .. (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) صدق الله العظيم . إنها الآية التى تحكم التاريخ الإسلامى من الخوارج إلى الآن .. وعندما ننظر إليها نجد أنها جاءت فى تحكيم من اليهود للنبى وأنهم أضفوا عليه حكم التوراة فيما يتعلق بالرجم . ونظرة دقيقة للآية تكشف لنا أن المعنى : كيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله - إن الآية خاصة بواقعة معينة (ومن لم يحكم من اليهود ..) إنها خصوصية .. وكلمة (حكم) فى القرآن لاتعنى الحكم السياسى بل

خصـومـة (بما أنزل الله فى التـوراة) فـأولئك هـم الكافـرون .. أى المنكرون لحكم .. ولكن الخوارج استقطعوا الآية .. وظلت تستخدم لدى كل من يريد معارضة الحكومات تحت غطاء الدين .. لأنه فى كافة المجتمعات البشرية هناك دائماً سلوكيات تتناقض مع الأخلاق أو لايرضى عنها البعض .. وأنه دائماً هناك خلافات سوف تجد دعماً ـ طبقاً للمفهوم القديم ـ من هذه الآية.. والدليل أن على بن أبى طالب قُتل بهذه الآية ومعاوية بن أبى سفيان شُرع فى قتله بهذه الآية وعمرو بن العاص بنفس الآية .

والعباسيون اتهموا الأمويين بأنهم لم يحكموا بما أنزل الله ، والفاطميون قالوا نفس القول على العباسيين .. فهل ممكن أن يكون المسلمون طوال كل هذا التاريخ الإسلامى كفاراً .. ولم يحكموا بما أنزل الله ؟ مش ممكن .

لذلك عندما بدأت أكتب .. وحددت التعريف .. وحددت المنهج .. أدرك أتباع الإسلام السياسى أن البضاعة التى يعرضونها تتعرض للاختبار الصعب ! وبذلك بدأ هجوم شنيع .. وبدأت أقرأ وأحس بالعجب لأن الكثير مما يقال عنى لم أقله ! .. فتوقفت أتأمل ما يحدث وفى هذه الآونة طلب منى الاستمرار فى الكتابة .. ولكنى كنت أفكر مع نفسى فى طريقى .. وبالفعل شعرت أن هذا هو دورى ويجب أن أستمر وأننى يجب أن أقوم بتجديد كامل وعلمى وبدون تنظيمات أو الدخول فى السياسة .. ورغم تعرضى الدائم للاغتيال لم أشعر بالخوف لأنى أعرف أن الله يحمينى وأن الأعمار بيد الله وحده .

* يعنى أنك من ٧٩ وأنت مرشح لدور تاريخى ؟

** هذا ما حدث بالفعل .. وحتى اليوم أعتقد أن أفكارى قدمت الإسلام المستنير المناوئ للإسلام السياسى .. فى الماضى كانوا يقولون إنهم جماعة المسلمين وغيرهم يبقى كافراً .. أنا وضعت القضية فى صورتها الصحيحة : إسلام مستنير .. وإسلام سياسى .. وبالمناسبة الصوفية يطلقون على أنفسهم (الإسلام المستنير) .. وهذا الإسلام السياسى كله عبارة عن تنظيمات وحركة اغتيالات ولاتوجد أفكار ولكن أنا قدمت فقهاً كاملاً فى الاقتصاد ـ القانون المدنى .. فى الدولى .. الحجاب ـ الحديث .. وغيرها .. وقد قدمت عشرة كتب فى الإسلاميات.

* وهل تعتقد أن عشرة كتب فى الإسلاميات كافية للوقوف من نافذة النقد لإنجاز من سبقوك فى مجالات الفقه ؟ .. وهل تكفى لتقدم كل ما تتحدث عنه من رؤيات حديثة فى كل هذه المحاولات ؟ !!

** العبرة بالكيف لا بالكم .. وقد قال مفكر غربى أن كل تعاليم السيد المسيح يمكن أن تكتب على كارت بوستال ! ـ وقال ديورانت المؤرخ الشهير إن الحضارة تكون ثرية جداً إذا قدمت فكرتين جديدتين ـ يُضاف إلى ذلك أنى لا أدعى أن مجهودى يحجب أى مجهود أو أنه

ينفى أى اجتهاد ـ لكنه مجرد فتح الباب لغيرى من المصريين والعرب ومن المسلمين وغير المسلمين وكفانى أننى فتحت الباب وأنى علقت الجرس فى رقبة القط .

* هل تعتقد أنك علقت الجرس فى رقبة (القط) أم أنك فى حاجة للبحث عن قط آخر يتحمل المسئولية ولاسيما أن الأحداث الأخيرة تؤكد أن العلمانية لم تكن البديل الصحيح للخروج عن التراث ولم يكن نسيان الدين هو الطريق الوحيد للتقدم .. وتركيا أكبر مثال أمامنا على تلك التى خلعت الطربوش ولكن ذلك لم يؤهلها لارتداء القبعة ؟

** أرجو أن تتأكد وأن يعرف الجميع أننى لست علمانياً على الإطلاق ولا أدافع عنها ولا أحاسب على سلبياتها .. إننى مسلم مستنير وأؤكد أن العلاج هو الإيمان الصحيح بالله وأن الصلاح فى انتهاج أسلوب أخلاقى إنسانى وكونى لا أوافق على الاتجاهات العلمانية التى تستبعد الدين .. لا أوافق أيضاً على الاتجاهات السياسية التى تستخدم الدين أو تستغله ـ لكنى أمثل اتجاهاً جديداً يفسر الدين تفسيراً كونياً وإنسانياً وأخلاقياً بحيث لايتعارض مع الوطنية ولا مع الإنسانية ولا الكونية ـ وأنا أنظر بموضوعية للحياة حولى .. فكما توجد أخطاء للتطبيقات العلمانية كذلك توجد أخطاء للتطبيقات الإسلامية، وأنا بين هؤلاء وهؤلاء، وبغير ذلك لايكون لعملى أو التضحية بحياتى معنى .. وأكرر أن تركيا خطأ .. وأيضاً أفغانستان خطأ .. والسودانى (الترابى) خطأ لأنه بكل أسف .. فإن طبيعة الشعوب الشرقية متطرفة فى اتجاهها يميناً أو يساراً وأجمل تعبير عن ذلك البيت الشعرى الذى يقول :

ونحن أناسٌ لا تَوَسُّطَ عندنا ... لنا الصدرُ دون العالمين أو القبر

والحقيقة أنه لابد من أن نتعلم الوسطية .. والقرآن يؤكد أننا أمة وسط .

* وأنت تحدثنى عن رحلتك قلت أكثر من مرة إنك تستهدف أن تكون مجدداً على المستوى العالمى ؟ ماذا تقصد بذلك ؟

** أقصد أن العالم كله قرية واحدة .. وأنا درست كل الديانات من المسيحية واليهودية والإسلام بالإضافة إلى البوذية والهندوكية والمصرية القديمة وغيرها .. وغيرها .. كان لدى مشروعى منذ البداية .. فقد ظهرت داخلى الرغبة فى لعب دور تاريخى فى مجال التجديد على مستوى العالم أو بمعنى آخر أن أكون مفكراً دينياً على مستوى العالم منذ كنت طالباً فى الجامعة.

* غريبة !! القوس واسع جداً فكيف تبلور أو كيف تعاملت معه ؟

** المسألة أننى أساساً لدى حدس .. أو إلهام وهذا يفسر غزارة إنتاجى مع رؤيات فكرية ومفاهيم مستحدثة قد لايتوصل إليها الإنسان العادى وكانت عائلتى تستشعر مبكراً نحوى

بعض الأمور اللافتة للنظر كأن تتأكد أن أحلامى صادقة ! وأيام كنت قاضياً فى مدينة دسوق .. فوجئت بكاتب المحكمة وكان فى نفس المرحلة العمرية ـ يسألنى: سعادة الريس تسمح لى أسألك سؤالاً ؟ فأجبت بالموافقة فقال : هو أنت (مخاوى) ؟ فسألت ماذا يعنى ؟ فقال : يعنى على علاقة بالجن وتخبرك بكل شيء !! فقلت مش فاهم ؟ فرد : المحامين بيقولوا كده على سيادتك وبيقولوا إحنا 'مشر عارفين نتكلم أمامه .. ثم إنه بيقرأ الموجود فى رؤوسنا وعارف حقيقة كل متهم أمامه !! فنفيت له مايقول فرد : ولكنى أشاهدك أثناء دخول المحكمة تتمتم كدة .. فماذا تقول ؟ فأجبته إنها آيات قرآنية دائماً أقولها قبل دخول الجلسة .

* وهل هذا صحيح ؟

** نعم صحيح .. لابد قبل دخولى المحكمة من أن أرددها ولكنى لا أخبر أحداً بها .. وفى تقديرى الشخصى أن كل ما تكلم عنه الآخرون هو تعبير عما لدى من الحدس .. هذا الحدس لدى جعلنى أتجه لاختياراتى منذ تلك السن المبكرة .. ! .. وكيف كان يمكن أن أدرس الآن الهندوكية أو البوذية ؟ .. كان من الصعب أن يحدث ذلك بدون تراكم ثقافى تاريخى طويل فى أغلبية الديانات السائدة فى العالم وبصفة خاصة الديانة المصرية القديمة .

* بماذا خرجت من هذه الرحلة الطويلة بين مختلف الأديان ؟

** توصلت إلى أن فى كل ديانة جانبها الصحيح .. وجانبها الشعبى .. ونظرة على المصريين اليوم وهم يزورون مساجد الأولياء ويدعون للسيدة زينب وسيدنا الحسين ثم وهم يتنادون على السيد البدوى أو الدسوقى أو غيرهما .. قد يقول البعض إن هذا إسلام وثنى ! .. ولكنه فى الحقيقة صورة شعبية من الإسلام .. وأذكر أننى عندما كنت أعمل فى مدينة دسوق جلست مع شخص محترم يتجاوز عمره الستين عاماً ولكنى فوجئت به يسألنى : هل أنت قاضى دسوق ؟ فأجبته بالإيجاب .. فقال : انتبه لأن من يشترك فى تعيين قاضى دسوق هو الشيخ (الولى) إبراهيم الدسوقى !! قلت له : هل أنت مقتنع بذلك ؟ قال : نعم .. بل أكثر من ذلك إنه يراقبك من داخل المقام المدفون فيه من عشرات السنين !!

فأجبته : إننى متصوف بصورة مختلفة عنك .. إن تصوفى فكرى .. إننى أرى أن الكون كل واحد .. وأن الإنسانية واحدة .. وأعود لأقول بمناسبة الديانة المصرية القديمة .. إنه لم تظهر لنا الصورة الحقيقية للفكر المصرى والذى كان يضم صيغة العارفين بالله .. وهؤلاء لديهم التعاليم الدينية الحقيقية سرية وتقوم على الضمير والتلقين والتوحد بالكون والإنسانية .. وهناك صيغة أخرى سياسية شعائرية تعتمد على أن الناس تقوم بالشعائر ومن خلالها يحدث نوع من التطهير مثلما يحدث فى المسرح (مثلما قال أرسطو) وهذه الشعائر ـ ومع الوقت ـ تساعد فى الدخول إلى الطريق الآخر : وهذا الطريق (مصرى) .. والمقولة الشهيرة (يا إنسان

اعرف نفسك) صيغة مصرية .. وهوميروس أثبت في كتابي (ديوان الأخلاق) أنه مصرى وأفلاطون أمضى ١٢ سنة في مصر وفيثاغورث درس في مصر .. وهؤلاء جميعاً خرجوا بالتراث المصرى والحقيقة فإنه عندما جاءت المسيحية فإنها ضربت الديانة المصرية القديمة فضاعت أسرارها والشعائرية في الفكر المصرى القديم تم تفسيرها بصورة ساذجة مثلما يعتقد أحد اليوم أن الحزب الجمهورى الأمريكي يعبد الحمار وليس شعاره !! وسؤالى اليوم لماذا لانقوم بتوثيق الصلات بين التاريخ كله ولاسيما أن الإسلام جاء مكملاً ونقدم من الإسلام صيغة يقبلها الجميع .

* ماذا تقصد بصيغة يقبلها الجميع ؟

** أى كل العالم يقبلها .. فالعالم كله ينتظر اليوم فهماً جديداً للدين لأن المفاهيم القديمة تسبب التصادم مع العقليات المفكرة وبذلك تدفع هؤلاء للخروج عن الدين أو اتباع القانون بدون الخضوع للضمير .. وأعتقد بما أننا نعترف باليهودية والمسيحية ولأن القرآن قال : «إن الله يحكم بينهم ...» ولأن الديانة المصرية هى تراثنا .. ونحن نسمع اليوم عن الجنون في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية بتاريخ مصر القديم .. فلماذا لانرى ذلك كله على أنه إرهاصات بشىء جديد ؟ وواحد مثلى مصرى عربى مسلم يبلور كل ذلك .

أنت وإسرائيل

* بقدر ما شغلتك قضية الإسلام السياسى .. هل شغلتك بدرجة ما قضايا السلام .. والمشاكل مع إسرائيل .. وعامة القضايا الوطنية ؟

** أنا كنت قاضياً .. وليس لى الحق في إبداء رأيى في مثل هذه المسائل لكن عندما حدثت معاهدة السلام .. ووجدت أننا حصلنا على سيناء اعتبرت ذلك شىء (كويس) .. وأنا كقاض عارف إن مفيش حاجة تحصل عليها بدون تنازلات .. أو أن طبيعة الصلح هو تقديم التنازلات فإذا كان الرئيس السادات قدم تنازلات مثل نزع سلاح سيناء فإن ذلك لاقيمة له في عصر الصواريخ .. والعرب جميعاً يريدون ما قُدم لهم أيام السادات .. وكنت ومازلت أتمنى أن يحدث نفس الشىء للجولان وتعود لسوريا .

* ما هى طبيعة علاقتك بالقوى السياسية في مصر ؟

** علاقة طيبة .. ولدى علاقة جديدة وشخصية بالوفد وكذلك باليسار علاقة طيبة .. وأحترم الجميع وأقدر أفكارهم جميعاً .

* في ظل هذه العلاقة الطيبة .. يتكلم الكثيرون عن الديمقراطية أو يدعى الوصل بها فما لو أخذنا الديمقراطية معياراً للحكم ما يحدث من هذه القوى اليوم ؟

** نحن المصريين الذين ضربنا الديمقراطية لأن تراثنا شمولى .. والإسلام السياسى يقول أن الديمقراطية ضد الدين والإسلام السياسى يتقدم بخطابين فى أحدهما ينادى بالديمقراطية على أمل أن تصل بهم للحكم حتى لو كان بالتزوير ليحدث ـ لا قدر الله ـ عندنا ما يحدث فى الجزائر وأتذكر ـ فى هذا السياق ـ أننى كنت جالساً مع توفيق الحكيم ونجيب محفوظ وقلنا .. كويس أن التجربة حدثت فى إيران .. ولنتأمل ما يحدث .. وأثبتت الأحداث فى إيران وأفغانستان والسودان وفى الجزائر .. أنها كلها تجارب مؤلمة لجماعات لاتملك رؤية ومتعلقة بنصوص لاتنطبق مع الواقع وتاريخياً تم تجاوزها وهى تستعمل خطأ منهم وألحقوا أنفسهم بالخوارج وبالقرامطة وبكل الذين كانوا دائماً ضد الدولة .

* قد يعتقد البعض أنك المتحدث باسم الدولة ـ أو المقاتل القوى ضد المختلفين معها ؟

** لا .. هذا غير حقيقى .. فأنا لدى انتقادات عديدة على الدولة .. أو بمعنى أدق على الحكومة وليس الدولة .. فأنا أطالب بعدالة اجتماعية معاشات لكل الناس وتأمينات شاملة .. وضرائب تصاعدية على الأغنياء لصالح الفقراء .. وأطالب بمحاربة الفساد .. وقد شاهدت قضية عام ٩٢ صنعتها الرقابة الإدارية لطبيب ظلماً وعدواناً ومن أول نقطة كان القانون فى صالحه وقد تعجبت كيف حبسته النيابة فحكمت بالبراءة بعد أن درست القضية بدقة ونوهت أن الرقابة الإدارية تتعقب أبرياء وتاركة الفساد .. فاتصل رئيس الرقابة السابق بأحد الإخوة الصحفيين وبعث معه برسالة شفهية تقول أين هو الفساد ؟ !! وسرعان ما تفجرت القضايا بحملة من حوت مدينة نصر إلى غيرها ..

الاستنارة

* يبدو أن القرن الواحد والعشرين بات بالنسبة لنا نافذة نأمل أن نطل منها على المستقبل بوجه أكثر نضارة كيف نحقق ذلك من وجهة نظرك أنت ؟ .. أو ماذا نحتاج بالضبط ؟

** الاستنارة هى الحاجة المطلوبة بسرعة .. لأنه بدونها تصبح الصورة مليئة بالغيوم .. فهناك الأمية الأبجدية وهناك الأمية الثقافية الواسعة النطاق وفى مثل هذا المناخ لابد من تبديد غيوم الجهل .. وأنا شخصياً أرشح التليفزيون لدور ريادى فى ذلك إذا تم وضع خطة محكمة لتحقيق أهداف الاستنارة النوعية ونشر المعرفة ثم النظام التعليمى الذى يجب أن يطل أو أن يحتضن الأجيال الجديدة فى مناخ يعظم دور العلم ثم أن يلعب الوعاظ دورهم لأن هناك أكثر من ٢٠ ألف مسجد تم إنشاؤها فى العشرين سنة الأخيرة !! وبات توفير الواعظ المناسب معضلة ، حتى أننى التقيت ببعضهم فى مركز البحوث الجنائية واكتشفت حاجتهم الحادة للمعرفة والاستنارة وفى هذا الإطار لا مفر من تحديد علاقة المجتمع بتراثه الإسلامى .. هل هو سياسة أم أخلاق ؟ .. وهل هو تنظيم أم أنه ضمير ؟ .. ورأيى أنه ضمير وقلب ..

وكما قال القرآن الكريم (إلا من أتى الله بقلب سليم) صدق الله العظيم . فمسألة الأخلاق بالغة الأهمية .. بعد ذلك آن الأوان لنضع العلم فى مكانه الطبيعى المتقدم من حياتنا وهذا يتطلب نشر ثقافة العلم بدءاً من الفارابى وابن رشد وابن سينا إلى هندسة الوراثة .. أيضاً لابد من نشر ثقافة التجديد الفكرى .. لأنه لايمكن أن نعيش على فقه القرنين الثانى والثالث الهجرى بل لابد أن نتساءل أين التراكم المعرفى ؟ .. ولاسيما أن نظرة سريعة على أوروبا تكشف أنهم منذ القرن التاسع بدأوا فى إيجاد عقلية تركيبية .. ثم غيروا كل شىء .. بدءاً من هندسة إقليدس إلى المنطق إلى غيره من المعارف .. بينما نحن لابد أن نتساءل : لماذا ضاعت روح التجديد من حياتنا ؟ .. ومن الذى فرض علينا الشعار : قلد ولاتجدد، واتبع ولاتبتدع !! ويظهر هذا الاتجاه فى حياتنا منذ الطفولة .. إذا حاول الصغير عمل شىء غير معتاد يحاصره المجتمع فى شكل الأسرة أو النظام التعليمى والثقافى السائد ، وفى تصورى أن جزءاً من ذلك يعود أيضاً إلى أن الأم التى تولت تربيتنا هى أم مضطهدة وأخت كسيرة الجناح .. وأنا اشتغلت قاضياً شرعياً (وقسماً بالله العظيم) كنت أصاب بفقدان الشهية بعد نظر مثل هذه القضايا التى أرى فيها المرأة مسحوقة ! وأتذكر أن واعظ مسجد ألقى يمين الطلاق على زوجته أمامى فى الجلسة فأصيبت المرأة بلوثة عقلية !!

* منح الإسلام المرأة حقوقها كاملة .. وأتصور أن المشكلة هى فى تجاهل هذه الحقوق وهذا ما يجب التركيز عليه .. ألا تعتقد ذلك ؟

** لقد طالبت بوجود قضاء للأسرة وقلت إذا حدث خلاف بين الزوجين يحدث التحقيق فى غرفة مغلقة ثم تحدث دراسة اجتماعية لحالة الأسرة وتقدم للمحاكمة ونكون بذلك استوفينا كافة الجوانب والمحكمة تفصل فى كافة نقاط الأسرة بدلاً مما تعانيه المرأة فى محاكم متعددة من الحضانة إلى النفقة إلى غيرها وتعانى أكثر من العذاب فى التعامل مع صغار الموظفين فى أروقة المحاكم !!

وللأمانة فإن المشكلة أننا مجتمع ذكورى ويتم النظر للمرأة على أنها عورة وقد أصدر الإخوان المسلمون بياناً أثناء انعقاد مؤتمر الأسرة فى القاهرة وأول جملة فى البيان أن (المرأة عورة كلها) وهذا بمعنى آخر أن المجتمع كله عورة .. وإذا كانت الأم يمكن أن تطرد من البيت بكلمة ، وكذلك الأخت المتزوجة .. فأى شجاعة يمكن لهذه الأم أن تعلمها لصغارها ؟ الدنيا اختلفت .. وهناك فى القرآن آية كريمة ما معناها إن الشخص الذى بيده عقدة النكاح أو من بيده عقدة النكاح فليعف إذن الطلاق يمكن أن يكون فى يد الرجل أو المرأة أو الاثنين ثم أصبح فى يد المحكمة حتى لايساء استخدامه .. ومع التعقيدات الاجتماعية والثقافية السائدة أرى أن وجود الطلاق فى يد المحكمة أفضل حتى لايصبح البيت المسلم تحت التهديد أو الخوف.

هوامش ساخنة

من تجربتى فى المحاكم أن علاقتنا الإنسانية عاطفية جداً وفيها رعونة وأن الفكر الجاهلى يسيطر على تفكيرنا ولا يوجد توسط عندنا .

تساءلت كثيراً من خلال عملى كقاض شرعى كيف تحولت تلك العلاقة بين الرجل والمرأة .. وذلك الحب الذى كان يجمع بينهما إلى رغبة تدميرية وكراهية متبادلة تصل إلى حد الفضيحة حيناً والثأر الصعب فى أحيان أخرى .

أنا لم أتأثر بأشخاص ولكنى تأثرت بأفكار ولذلك علاقة بعملى كقاض .. فأنا طوال عملى كنت مشغولاً بتحليل أقوال الشهود وأفكار المحامى الذى أمامى والأبعاد النفسية التى تختفى خلف الكلام الطائر فى الهواء .. وفى النهاية تصبح لدى رؤية واسعة لما يجرى أمامى فى المحكمة.

أعرف أن هناك خطراً قائماً وأن تكثيف الحراسة علىّ يؤكد ذلك ولكنى لا أشعر بالقلق لأنى مؤمن برسالتى .. وأنا على ثقة أن للموت موعداً لابد أن يدق فيه الباب !

آسف لست محسوباً على أحد !! وكونى أفرق بين النقد والتقويض لا يعنى أنى أخدم فريقاً معيناً ، إننى مع النقد لكنى ضد الهدم .. وأنا مع خلق أجيال جديدة تتواصل مع الأجيال القديمة.. فيتعلم الصغير من الكبير وتستمر الخبرة تنقل من جيل إلى آخر .. وأعتقد أن تجربتى القضائية تكشف أن كل من شعر بأنه مظلوم كان يطمئن إلىّ .

الحكم القضائى عنوان للحقيقة النظرية أو الظاهرة .. لذلك لابد من قبول الحكم للقضاء حتى لو اعتقدت أنه خاطئ ، وهنا يأتى الإحساس بالعدالة الإلهية الذى يمنحنا الطمأنينة الحقيقية وأن هناك نظاماً يحكم الكون وأن هناك قوانين عادلة حتى لو لم نرها .

سوف أزور إسرائيل بعد أن يزورها الرئيس مبارك لأن وقتها ستكون مشكلة القدس قد تم حلها وأنا مؤيد للفلسطينيين اليوم لأنهم يتفاوضون من داخل الأرض .

نشأت فى بيت قراء .. ولذلك فقد قرأت للحكيم والعقاد وطه حسين أعمالهم قبل دخولى الجامعة .. وفى تلك الأيام كنت أقرأ الإنجليزية بكثافة .. وانفتحت على العالم وبدأت أزاوج بين القراءات الإسلامية (لابن سينا ـ وابن رشد ـ والفارابى ـ وأبو حامد الغزالى ـ وغيرهم) وفى الوقت نفسه أقرأ ثقافة أوروبية بلغتها ولأعلامها الكبار من ديورانت إلى ويلز حتى تخرجت وعُينت معاون نيابة فى الإسكندرية عام ١٩٥٤

الإسكندرية لعبت فى حياتى دوراً مهماً فتعلمت الموسيقى .. وتعرفت بمزيد من الثقافات وكانت هذه المدينة فى الخمسينيات ألمع من أوروبا .. ولا أنسى ما تعلمته فيها الفرنسية من

خلال أسرة إيطالية تتكلم الفرنسية .. وكان الاشتراك فى مكتبات الإسكندرية بجنيه واحد حيث أقرأ فى مجالات متجددة وأستعير من الكتب ما لا يتوافر فى مكتبتى .. فى هذه الفترة كنت أعمل بالنيابة صباحاً وأقرأ داخل غرفتى بقية اليوم .

أنا القوة الأولى المستنيرة على مستوى العالم .

فؤاد زكريا

يستوردون كل شيء
ثم يتحدثون عن الأفكار المستوردة

ونحن على أبواب الألفية الثالثة للتاريخ.. نحاول الإمساك بالوظيفتين.. نحاول أن نرى حقيقة أنفسنا حينا.. ونحاول أن نشهد على تجربتنا التى بدأت من أجل النهضة منذ نحو القرن.. وهناك فريق من المفكرين المصريين لابد أن يقدم شهادته للتاريخ لأنه لم يكن محايدا حتى لو بدا كذلك.. ولأنه لابد أن يساهم فى بناء المستقبل ولو بكلمة حقيقية تساهم فى تقليل سحابة عدم اليقين التى تحتل مساحة كبيرة من سماء حياتنا يهيمن هؤلاء.. أستاذ الفلسفة الذى رفض أن تكون الفلسفة بضاعة فى علب السفسطة على رف الحياة.. والمفكر الذى يشعر بأنه يصرخ فى البرية دون مجيب.. إنه الدكتور فؤاد زكريا.. الذى كان رئيسا لتحرير واحدة من أشهر المجلات الثقافية (الفكر المعاصر) ورئيسا لقسم الفلسفة بجامعة عين شمس ثم جامعة الكويت وحاليا مستشار لواحدة من أشهر السلاسل الثقافية فى الوطن العربى (سلسلة عالم المعرفة).. وقبل ذلك وبعده أحد أكثر المشاركين فى حوار المستقبل فى مصر .

* من أين نبدأ يا دكتور.. أليست الشهادة على الواقع بداية للرؤية الجيدة.. وأليس غريبا يا دكتور أن يكون بداية حوارنا دردشة غير مقصودة عن علاقة نظام الحكم فى بغداد بالشعب العراقى.. وهل مازلت شاهدا على نفس الرؤية التى طرحتها فى مرات عديدة حول هذا النظام؟

** شغلتنى علاقة النظم الحاكمة بالمحكومين فى الوطن العربى وكان لدى رأى أن العديد من النظم فى الوطن العربى تعتقد أن واجبها أن تعمل باستمرار للسيطرة على شعوبها - ولو حدث تعارض فإن مصلحة النظام لها الأولوية، ولكن يظل النظام العراقى حالة فريدة فى الوطن العربى غير قابلة لأن تصبح نموذجا للقياس.. فهى علاقة قامت على القسوة والجبروت والقهر وإهدار المستقبل بصورة فادحة ولذلك أعتبر أن الدموع الكثيرة التى تراها فى العيون والدعوة لرفع الحصار عن العراق بحجج متاعب شعبه أعتبرها جديرة بالسخرية لأن فى النهاية أى مساعدة سوف تتجه لدعم العراق هى دعم للنظام الاستبدادى هناك .

* فى هذا اللقاء الذى يجمع ما بين شهادتك على قرن يسحب آثاره من حولنا وما بين

المواجهة من جيل ينظر حوله بتساؤل لا بديل عن السؤال: هناك من يرى أن موقفك يا دكتور فى هذه الأزمة ارتبط بأسباب خاصة وهى إقامتك الطويلة فى الكويت ؟

** أنا سعيد جدا بهذا السؤال لأنى كنت أتمنى الرد عليه منذ زمن طويل.. فموقفى من كافة كتاباتى واضح فأنا صاحب موقف من الديكتاتورية وحكم الفرد منذ بدأت حياتى الفكرية بصفة عامة يهيم ويقدر قليل من الجهد يمكن لأى شخص أن يجد هذه النغمة فى كافة أعمالى وموقفى من الناصرية فى أوائل السبعينيات ثم من الحركات السياسية الإسلامية هو تعبير عن نفس الرؤية.. لأن الحركات السياسية الإسلامية لابد ان تؤدى إلى نوع من الديكتاتورية قد يكون أكثر قسوة من أى ديكتاتورية أخرى.. والأمثلة واضحة.. إذن فأنا صاحب رؤية ثابتة فى هذا المجال.

* إذا كان البعض قد تساءل عن علاقة عواطفك بموقفك من العراق فإن هناك أيضا من يعتقد أن عواطفك هى التى منعتك من إعلان وفاة الاشتراكية.. وفى الوقت الذى كنت تبشر قائلا: اليسار لم يمت كان العالم كله يسير فى جنازته ؟

** لم أقل هذه الصيغة ولكنى أعتقد أن هناك شكلا من أشكال اليسار سيظل موجودا وليس بالضرورة فى حضن الاشتراكية كما عرفت بعد وصول بعض النظم الماركسية إلى الحكم فى أعقاب الحرب العالمية الثانية لكن عندما أقول إن اليسار لم يمت.. فإننى أقصد بذلك أنه ستظل هناك دائما حركات معارضة فى العالم لصالح الطبقات الفقيرة ضد الطبقات المستغلة ولن يستغنى العالم عن هذه الحركات وعن مثل هذا التضاد وسوف يظل موجودا دائما.. !ولكن الشكل التنظيمى لحركات لها أيديولوجية معينة تسيطر على الحكم هذا هو ما انتهى.. ولكن التضاد سيظل موجودا .

* ونحن على أبواب قرن جديد هل لديك ما يدعوك لمراجعة بعض ما بشرت به أو إعادة النظر فى مواقف اتخذتها ولا سيما أن هناك تغيرات واسعة النطاق حدثت فى العالم.. وفى مصر بالتالى خلال العشرين عاما الأخيرة ؟

** أشعر بأننى مستمر فى أحكامى ورؤيتى للكثير من القضايا مثلما كان موقفى من تجربة الحكم الناصرى فى مصر.. مازلت على نفس الموقف من هذه التجربة مادمت أرى أقلاما تدعو لنماذج أخرى أو مشابهة لهذه التجربة.. وبهذه المناسبة أقول تعليقا على آراء الدكتور يحيى الجمل فى أن القومية العربية على طريقة عبد الناصر قد سقطت لأن القول بالقومية العربية بشكل مجرد له دعامات أقوى وأوسع وأعمق بكثير من الأنظمة المماثلة للناصرية.. وهذا من أخطاء القوميين العرب الذين مازالوا يبحثون عن بطل أو الزعيم صاحب الكاريزما المشعة والذى يوحد العرب بجاذبيته وقوته الفائقة على السيطرة.. وأظن أن هذه كانت من الأسباب التى أدت إلى إعجاب الكثيرين بما فعله صدام حسين لأنهم يبحثون عن

هذا النموذج ويعتقدون أن احتلاله الكويت بالقوة وبادعائه أن هذا الاحتلال ماهو إلا مقدمة لتوحيد العرب حتى لو كان الاحتلال العسكرى وسيلته مثلما فعل بسمارك فى ألمانيا .

* يشعر جيلى أحيانا يا دكتور أنكم ـ كجيل ـ أول من صنع صورة البطل الطاغية أو ساهم فى نشرها ؟

** لا أعتقد بهذه الصورة.. ما حدث أن الطاغية البطل قد ظهر فعلا وبعد ذلك انحاز إليه فريق من المثقفين من جيلى رغبة فى الارتزاق أو تقربا من السلطة القوية الموجودة.. لكن لو شئت الدقة لقلت أن الجيل الذى بدأ اسمه يلمع فى الأربعينيات كان على العكس من ذلك.. كان جيلا لا يتجه إلى تأليه الفرد ولكنه كان يتجه إلى تأليه الشعب وكان يصل فى ذلك إلى حد السذاجة الشديدة وكل ما كان يصدر عن الشعب كان مقبولا ومبررا وأسمى من غيره.. كانت هناك محاولة من الحركة الوطنية فى الأربعينيات للاحتماء بحضن الشعب لذلك إذا أردت أن تختبر جيلى فإن ذلك يكون فى إطار هذه السمة الأساسية وليس فى ضوء الكلام عن الفرد ـ البطل وللأمانة فإن الحديث عن دور الفرد البطل بدأ منذ أيام توفيق الحكيم وهذا جيل سابق بكثير على جيلى .

* البعض يرى أن مشكلة جيلك يادكتور أنه اختبأ فى إطار تعاطفه وحبه لثورة ١٩ بما منعه من أن يتعاطف مع مسيرة الوطن بعد ١٩٥٢ ويبدو حرص هذا الجيل على تبرئة نفسه دائما ؟

** الحقيقة أن ثورة يوليو هى التى لم تتعاطف مع ثورة ١٩ وليس العكس.. ولم تمنح هذه الثورة جيل ١٩ الفرصة بل أخذت منه موقفا مبكرا مضادا منذ اللحظة الأولى.. ومحاولة البعض لإلقاء اللوم على أى جماعة فكرية أو قوة شعبية بالنسبة للخلل فى حياتنا من حيث العلاقة بين الحاكم والمحكوم هذا خطأ كبير.. فالمسألة تبدأ دائما باختيار معين يقوم به الحاكم.. وهذا الاختيار يكون أساس بقية أوجه الخلل مثلا لو اختار أى حاكم القوة سبيلا إلى الحكم فمن الطبيعى فى هذه الحالة أن بعض الموجودين على الساحة الثقافية سوف يشتغلون فى كورس التبرير لهذا النظام.. والبعض الآخر سوف يعارض وهذا طبيعى. ولكن المحور الأساسى يبدأ باختيار يقوم به الحاكم فى العالم الثالث . . ولاسيما أنه بما لديه من السلطة لا ينتظر من الآخرين أن يشيروا عليه بما ينبغى أن يكون وعندما تكون السلطة المادية هى أساس الحكم هنا يحدث الخلل.. ومشكلة ثورة يوليو فى تقديرى أنها ظلت تعتمد على القوة المادية لآخر لحظة.. ولننظر مثلا فى وقت من الأوقات أراد عبد الناصر أن يتخلص من عبد الحكيم عامر وكان من مصلحة البلد أن يحدث ذلك ولكنه لم يستطع..! وإنما أجرى مساومة معه وعقدا صفقة لأن عامر كان يسيطر على الجيش وظل حريصا على ذلك لكى يجمع الأوراق الكافية فى يده ليتصدى بها لعبد الناصر ـ حدث ذلك بعد الانفصال، وظلت هذه الحقيقة

تشغل عامر دائما.. حتى وهو ينهار بصورة كاملة بعد ٦٧ لابد ألا ننسى التفاف الضباط حوله فى أيامه الأخيرة وهذا ما أدركه عبد الناصر وهو يتأمل دور عامر ولم يستطع القضاء على ذلك إلا بعد ٦٧.. إذن فالمشكلة فى حكومات العالم الثالث أن موقف الحاكم القوى يعتمد على عدد الأوراق المادية التى يجمعها فى يده .

* بعض أبناء الجيل الحالى الذين تعلموا على أيدى جيل الدكتور فؤاد زكريا ومقولاته يرون أن جيله رقص على أنغام الثورة الاستقلالية التى اندلعت مع الخمسينيات فى معظم الوطن العربى يهيم ولكن نفس الجيل رقص على أنغام الثروة بعد ظهور النفط.. فتركتم بذلك الكثير من الشك حينا والكثير من الحيرة مازال قائما ؟

** فى الحالتين التوصيف غير دقيق.. فالناس جميعا كانوا يعانون قبل الاستقلال من نظم إقطاعية ومستغلة ومستبدة متحالفة بشكل أو بآخر مع الاستعمار واعتقدوا أن الثورة هى أول وأقوى وسيلة لتحقيق الخلاص لذلك تعاونوا معها قلبا وقالبا فى البداية ولكن ما حدث أن الثورة بات لها وبسرعة منطقها الخاص ومصالحها الداخلية التى تدافع عنها قبل أى مبدأ آخر.. أما فى زمن الثروة فإنه عندما تقوم هذه الثروة بخدمة الثقافة بشكل أو آخر فإن المثقف على استعداد للتعاون معها فى تحقيق هذا الهدف ليس من أجل مصالحه الشخصية.. على سبيل المثال عندما تقوم دولة مثل الكويت بتقديم مشروع ثقافى مثل سلسلة (عالم المعرفة) وتطلب من فؤاد زكريا التعاون معها فى هذا المشروع فإنه لا يمكن لفؤاد زكريا إلا أن يرحب بالفكرة . ولازلت أتولى هذا العمل وبمنتهى السعادة الحقيقية وأعتبر هذا المشروع أكبر الإنجازات الثقافية التى حققتها فى حياتى لأنى وجدت فرصة القيام بعملية تثقيفية وتعليمية على أوسع نطاق ممكن ولصالح الشباب فى الوطن العربى.. ولا يستطيع أى مثقف أن يرفض فرصة كهذه.. هذا المشروع استند للثروة النفطية مما جعله يسير سريعا ويصبح أكثر فائدة للعقل العربى.. أما النوعيات الأخرى من المثقفين الذين يلهثون وراء الثروة ويتنكرون لمبادئهم من أجلها.. فإن هذا هو الفريق الجدير بالنقد .

وبالمناسبة فإنك تسأل عن علاقة جيلى بالثورة.. وأحب أن أشير لموقفى الذى يقوم على أن المثقف لا يعطى شيئا على بياض.! فالشيك يجب أن يكون محددا بأوصاف معينة.. ولكن المثقف الذى يعطى شيكا على بياض.. يبقى.. اسمح لى ! لأن دور المثقف أن يملأ هذا الشيك ويحدد شروط صرفه ! وغير ذلك يصبح متنكرا لدوره.. وبناء على ذلك فلابد ان يظل تأييدى كمثقف ـ للحاكم مشروطا، لأن التأييد المطلق هو الذى يغرى بالاستبداد .

* ونحن على أبواب قرن جديد.. يشعر الكثيرون أن هناك الكثير من الأمور المعلقة التى لم تحسم ولعل عبارة الأفكار المستوردة تدل على ذلك ؟

** مشكلتنا أننا كلما قطعنا شوطا من أجل التقدم ظهرت هنا أو هناك وأرجعتنا للوراء

عشرات السنين.. إنها مسألة أقرب إلى أسطورة سيزيف فكلما صعد بالحجر لأعلى الجبل كلما عاد لموقعه فى السفح مرة أخرى..! وأعتقد أننا فى النقاش الوطنى قطعنا هذا الشوط بشكل رائع فى النصف الأول من القرن العشرين ثم تظهر ثورة عسكرية تقوم على القوى المادية لتزيح أو تقضى على ثمار هذا النضال وبدأت من الصفر فى هذا المجال . . وبعد مأساة ٦٧ بدأنا مرة أخرى من الصفر . . وبعد أن كان الهدف طرد أكبر قوة فى العالم (إنجلترا) من بلادنا فإن كل نضالنا بات السعى لطرد أصغر قوة فى العالم وهى شرائح اليهود على الحدود.. ونفس الشىء فى الفكر الاجتماعى ففى قضية تحرير المرأة فبدون شك فإن الثقافة المصرية والعقل المصرى كان قد قطع شوطا كبيرا عند مشارف القرن العشرين ثم جاءت الحركة الإسلامية لتردنا قرنا للوراء.. ولو ترك الأمر لها لأرجعتنا ١٥ قرنا للخلف.! وتعبير الأفكار المستوردة أحد أمثلة ما نعانيه هذه الأيام فهو فى الحقيقة تعبير مجازى ينقل إلى ميدان الفكر لفظا ينتمى أساساً إلى التبادل التجارى ! والغريب الذى أكرره دائما أن أكثر الناس هجوما على الأفكار المستوردة هم أنفسهم الذين يطالبون بأن نستورد كل شىء من الخارج.. والفريق الآخر من هؤلاء لا يستطيعون الإجابة عن سؤال مهم وهو هل تراثنا وتاريخنا كان خاليا من كل فكر مستورد.. إنهم يتناسون أن أبرز دعائم الدولة الإسلامية كانت الشجاعة فى قبول الأفكار المستوردة .

* البعض يرى أن ما تقوله عن الحركات الإسلامية هو ترديد للرؤية الغربية المعادية للإسلام ؟

** المفهوم الغربى القاصر للإسلام ليس سببه موقف الغرب وحده.. ولكن سببه الإسلاميون أنفسهم.. وأؤمن أنه لا توجد كلمة واحدة يقولها اى كاتب غربى عن المسلمين إلا وكانت لها جذور حقيقية فى قلب العالم الإسلامى يم فالحديث عن الإرهاب فى العالم الإسلامى مثلا لم يخلقه الغربيون..!! فكل التهم الموجهة للإسلام مستمدة من سلبيات بعض المسلمين المعاصرين.. وبالتالى فالاتهام الموجه إلى ليس له أساس يهيم لأنى شخصيا عندما أوجه اتهاما للحركات الإسلامية فإنه يكون مستمدا من سلوكياتها ولا أختلق عليهم شيئا من عندى.. وبصراحة وقد قلت ذلك من قبل أن هذه الحركات لن يأتى تحت جناحها سوى الإرهاب والديكتاتورية .

* لدينا مشكلة بمناسبة تحديد المسئولية عن مشاكلنا .. وهى أنه منذ محمد عبده ولدينا إحساس بأن الآخرين هم المسئولون عن تخلفنا ؟

** أعتقد فى المسائل الاجتماعية والحضارية أن المشكلة تكمن فى القوى التى تنبثق من الداخل.. والخارج مهما فعل لن يمكنه تحريكنا بهذه الصورة، دائما الأصابع الخارجية التى تعرقل تطورنا تجد من يساندها من الداخل .

* بمناسبة الغرب وعلاقتنا به التى يبدو أنها ستظل سؤالا ينتظر إجابة فى القرن الجديد.. كيف ترى علاقتنا المستقبلية بالنظام العالمى الذى يوصف بأنه جديد ويجرى لرفع أعلامه فوق الكرة الأرضية ؟

** منذ ظهور تعبير النظام العالمى الجديد أخذنا نندب ونتصور أن هناك مؤامرة جديدة ضدنا.. ولم نحاول أن ننتزع لأنفسنا مكانا فى هذا النظام الجديد وانشغلنا ـ ومازلنا ـ بالإشارة إليه بأصابع الاتهام يم إننا نعوق أنفسنا بأنفسنا عن اللحاق بالعصر وتغيراته بسبب أساليب تفكيرنا .

.... ؟

مؤامرة الصمت

غير نادم على تجربتى ورحلتى الطويلة . .وإذا كنت أتجاوب معك فى استخدام معنى الشهادة على العصر حينا ومواجهة الذات حينا آخر والذى يدور هذا الحديث فى إطاره.. فإننى قد أديت واجبى كاملا ودفعت الثمن وهو ما أشعر به من المثقفين الآخرين من أنهم يسعون بشكل متعمد من أجل كبت صوتى.. والأدلة عديدة.. وأتذكر فى هذا السياق أن كتابى (كم عمر الغضب) والذى أرد به على كتاب هيكل خريف الغضب كان من المفروض أن يقلب الدنيا لأن فيه استفزازاً للمثقفين ولكن لم أسمع صوتا واحدا يرتفع للتناول أو التعليق وهذا أكبر دليل على مؤامرة الصمت التى تمارس ضدى .

* .... ؟

** ربما أشعر بالإحباط فقط من هذه الناحية .

* .... ؟

** إنها صور أولادى التى تراها أمامك . . فهذه صورة مجد.. ويعمل طبيبا وتلك صورة سونيا وهى أيضا طبيبة.. وتلك صورة سلمى التى تدرس وتسعى للعمل كمغنية أوبرا.

* .... ؟

** علاقتى بهم طبيعية ومازال اهتمامى بكافة تفاصيل حياتهم قائما بدون تسلط لدرجة أن البعض قالوا لى إننى لست فقط أباهم بل أيضا أمهم.. وسعدت بهذا التعبير .

* .... ؟

** ابنى أخذ منى قيمة إتقان العمل وكنت دائما أردد أمام أولادى الحديث الشريف: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه» .

* .... ؟

** نعم.. هذه حقيقة.. هناك شعور بالوحدة أقاومه بمحبة الأصدقاء .

* .... ؟

** لم تكن لى فى الحياة أمنيات مبالغ فيها بل كانت دائما متواضعة وبهذا المعنى فقد حصلت على ما تمنيت.. وأهم ما أعتز به احترام الناس.

* .... ؟

** ليس هناك مطرب عربى أحرص على سماعه . . ولا يوجد اليوم كاتب أحرص على القراءة له . . ولدى من الثقة والاعتزاز بطريقتى الخاصة فى التفكير وفهم الأمور ما يجعلنى غنيا عن الحرص على قراءة أى مفكر بعينه .

* .... ؟

** ذكرتنى بسؤالك عن أولادى وعلاقتى بهم بأن أقول لك أن قصة «عبدة الشيطان» هى مسألة تربية.. فلو كنا نعلم أولادنا الذوق الجمالى لما لجأ أحد منهم إلى هذه الممارسات ولو كنا نعلمهم الاستقلال الفكرى والبعد عن التقليد الحرفى للآخرين لما ظهرت هذه الظواهر..!! وأذكر أنه فى وقت من الأوقات وبعد عودة أولادى من أمريكا التى أمضوا بها عدة سنوات.. أن جاء ابنى بكيس (بمب) وبدأ يقف فى النافذة ويلقيه (للفرقعة) فى العيد.. فوقفت وسألته: هل هذا الصوت يتضمن أى قدر من الجمال.. أليس صوتا سخيفا يزعجنى كما يزعج الآخرين وأشك أيضا فى أنك سعيد به.. وبالفعل امتنع ابنى نهائيا عن ذلك السلوك أى أنه بقليل من الحس الجمالى والفهم التربوى يمكن التخلص من العديد من السلبيات.. نفس المنطق بالنسبة (لعبدة الشيطان) .. ويضاف إليه أن هؤلاء الشباب لم يتعلموا الرؤية النقدية بديلا للتقليد.

* .... ؟

** الصورتان وجهان للتطرف !! أبناء الفقراء يتطرفون دينيا . . وأبناء الأغنياء يتطرفون اجتماعياً .. ! إنها مسألة ثقافة سائدة وتربية متبعة وذوق جمالى يتم نشره . !

* .... ؟

** نعم هذا بعض من شهادة .. وبعض من مواجهة مع الذات !! ..

نعمات أحمد فؤاد

أدعو لكتابة التاريخ بسبب زيادة جرعة النفاق

هذه السيدة ظلت منذ منتصف السبعينيات وحتى اليوم تشعل المعركة تلو الأخرى.. وباتت أقرب إلى الحارس الأمين على ثوابت الوطن.. حيناً دفاعا عن ميراثه الحضارى.. وفى حين آخر دفاعا لما تعتقد أنه يهدد هويته وثالثا غناء لأجمل ما فيه.

هذه السيدة من الجنوب.. شكلها الصعيد بمناخاته الحميمة وصاغها التاريخ القديم بمعانيه العميقة ونسج مواقفها عشق لا ينتهى للوطن.. يجعل أى اختلاف معها ذا طعم خاص من المودة.

إنها الدكتورة نعمات أحمد فؤاد.. التى عندما يذكر اسمها تتذكر معركتها دفاعا عن هضبة الأهرام.. وقتالها من أجل آثار مصر ثم ثورتها الطاغية من أجل قضية التعليم.وأيضا نتذكر عشقا بالغا للأصالة ترجمته فى أنشودة حب (موسوعتها) عن أم كلثوم.

التقيت بالدكتورة نعمات أحمد فؤاد وهى تستشعر الرضا عن آخر معاركها «لقد امتلكت الدنيا اليوم لأن كل ما ناديت به تضمنه تقرير مجلس الوزراء فى قضية التعليم» وتذكرت رأى البعض فيها وهم يقولون إنها (صعيدية) تحمل من هناك صلابة ملحوظة وحساسية شديدة تجاه الأصالة والتاريخ فى زمن المعاصرة والعولمة وما بين الفريقين كانت المعركة التى جعلت البعض يتساءل: هل استشعارها للخطر يحمل قدراً من المبالغة؟ أم أن هناك بالفعل خطراً يقتضى الإخلاص فى التنبيه إليه؟

** الخطر أحس برائحته عندما تهب رياحه تجاه تاريخ الوطن أو مقدسات أجياله التى يسلمها كل جيل لأبنائه وأحفاده.. من هنا.. كانت أهمية معركة التعليم التى يجب أن تكون واضحة.. لقد أحسست بالخطر عندما بدأت أنتبه لمناهج المرحلة الابتدائية فى بلادنا والحقيقة أن اهتمامى بهذه المرحلة حقيقى وعميق.. وأتذكر عندما زرت الولايات المتحدة الأمريكية فإنهم هناك نظموا عدة زيارات لبعض الجامعات.. ولكنى طلبت منهم زيارة إحدى دور الحضانة أو رياض الأطفال لأننى كنت مشغولة بكيف يُصنع الإنسان فى بلاد الآخرين.. المهم أننى شعرت أنهم يؤجلون هذه الزيارة إلى طلبتها بنفسى.. فما كان منى إلا أن سعيت اعتماداً على نفسى للسؤال عن أقرب حضانة للفندق الذى أقيم فيه وذهبت لزيارتها ووقفت أتأمل ما أراه.وجدت

جدار الفصل بارتفاع متر وما بعد ذلك حائط زجاجي يصل إلى السقف، وبالخارج يقف اثنان – وبالداخل معلمتان بين مناضد عديدة صغيرة حولها مقاعد طفولية وفوقها ألعاب متباينة من منضدة إلى أخرى فهذه تضم ألعابا من الصلصال وتلك كتبا ملونة وغيرها آلات موسيقية.. وكلها أنشطة اكتشفت أنها تستهدف اكتشاف شخصية الطفل.. والمضى على تنميتها.. من ألطف الأمور أننى وجدت في الفصل (مرتبة) كبيرة لكى ينام من يرغب من الصغار.. وبالسؤال بعد ذلك علمت أنهم يكتشفون الأطفال الموهوبين ويعدون لهم برامج تعليمية خاصة يتم تنفيذها بالتعاون بين المدرسة والبيت.

* أعرف أن هذه الزيارة كانت فى عام ٨٦ فإلى أى حد كانت سببا للصدام بينك وبين نظام التعليم المصرى مما أدى لدخولك معركة أخرى ضمن سلسلة معاركك الوطنية؟

** لدى اهتمام أساسا بكل ما يساهم فى تكوين شخصية الإنسان وعينى دائما على مصر.. على وطنى وناسه.. وبقدر اهتمامى بالتاريخ.. بقدر ما انشغلت بالصياغة الذهنية لأبنائنا ولاسيما أن لدى أحفاداً فى الحضانة والابتدائى.. وقد لفتت نظرى مقرراتهم الدراسية فشعرت بالخطر فبدأت أجمع كتباً من مدارس أخرى خاصة أن هناك مدارس رسمية.. وأخرى خاصة متعددة، وكلما زادت الحصيلة كلما اكتشفت أنها مفرغة تماماً وخطر على عقلية الطفل المصرى ومن الأمثلة كتاب بالإنجليزية فيه موضوع يضم صورة لممثل بمايوه وسلسلة ذهبية حول الرقبة وطفل يحادث صديقه قائلا: لماذا أذاكر إن هذا الممثل يحصل على ٢ مليون دولار فى الفيلم الواحد.. وهذا يكفى فى العام الواحد؟ وهكذا مضمون سلبى بصورة خبيثة داخل كتاب مدرسى، والأكثر مرارة.. أننى وجدت موضوعاً آخر فى نفس الكتاب عبارة عن صورة لفتاة فى سن المراهقة وتبدو صورتها حزينة وعندما تسألها أمها عن سبب ذلك ترد قائلة إنها كانت على موعد مع صديقها جون لقضاء السهرة ولكنه لم يحضر وأنها لذلك ستجرى مكالمات تليفونية لأصدقاء آخرين للسهر معهم!! ما هذا؟ وأية قيمة يتم بثها؟ وهل يحدث ذلك فى بلد عربى مسلم مثل مصر؟ أين الأديان؟ وكيف ننسى أن هذا الوطن أكبر بلد وقف وراء الأديان.. حضارة الإسلام انتعشت وازدهرت فى قلبها – المسيحية.. كتبتها مصر من أولها لآخرها.. اليهود أخذوا منها المزامير وسفر الأمثال وقبل ذلك بألفى عام كتبت الوصايا.. هذا البلد كيف يسمح نظام تعليمى فيه بمثل هذه الانهيارات؟

من هنا .. بدأت معركتى ضد نظام التعليم وبدأت أفتح ملفاً لموضوع التعليم وأجمع الكتب المدرسية كلها.. ووجدت ذات مرة فى أحد الكتب موضوعا يقول: «أنا أحب أبى أنا أحب أمى» واندهشت.. ماذا يعنى ذلك! وهل الفطرة فى حاجة إلى تعليم؟ وهل الطائر الذى يحب عشه قرأ مثل هذا الكلام ليتأكد حبه؟!.. إنها مضيعة الوقت ومحاولة ساذجة لملء أوراق الكتب!! وما

كل هذه الحقائب الثقيلة التى تضغط على العمود الفقرى للطفل وعلى ميزانية أهله.. لماذا؟ ثم وجدت نفسى أعود بالذاكرة لأيام طفولتى عندما كنت أقف فى طابور الصباح لننشد جميعا:

النيل العذب هو الكوثر

والجنة شاطئه الأخضر

ريان الصفحة والمنظر

ما أبهى الخلد وما أنضر

النهر الفياض القدسى

الساقى الناس وما غرسوا

وهو المنوال لما لبسوا

والمنعم بالقطن الأنور

وبعد كل هذه السنوات مازلت أذكر هذا النشيد بقدسيته وبعمق تأثيره فى النفس - بل إن التداعى والمقارنة والفائدة يعود إلى أيام كنت فى الصف الثالث الابتدائى بمدرسة مغاغة بالمنيا عندما ذهبنا فى رحلة لمصنع السكر لنرى مراحل صناعته.. وأستطيع أن أقول إننى ولدت فى هذه الرحلة لأن المعلم طلب منا كتابة عدة (جمل) عما شاهدناه.. أنا كتبت ١٢ صفحة.. كيف؟ لا أعرف! وعندما قرأها المعلم بكى.. لأن ما كتبته كله كان وصفا للنيل وليس المصنع.. وسألنى عن والدى وعنوان منزلنا الذى حضر إليه يوم الجمعة والتقى بوالدى وقال له: «هذه البنت داخلها حاجة.. وهيطلع منها حاجة.. وإيدى فى إيدك عهد الله إن إحنا نساعدها».

لقد صنعنى المعلم بهذا الموقف وبدأ يطلب من والدى شراء الأهرام ومجلات معينة وأن تكون لى نسخة خاصة من المطبوعة وحتى اليوم لا أنسى هذا الأستاذ (أحمد عطية) ولقد توفى والدى صغيراً وأعطانى الله آباء عديدين منهم هذا المعلم - ولكن ظل لوالدى نور حقيقى فى حياتى ومازلت أتذكر إعلانه المتكرر أن كل ثروته لا تساوى تفوقى ونبوغى الدراسى وأن أكون صاحبة قلم.. ولم أنس ذلك.. وظل صوته يرن فى أذنى دائما حتى التحاقى بالجامعة وحصولى على الماجستير - وفى كتابى (أدب المازنى) قلت فى الإهداء: لقد كانت أمنية حياتك أن يكون لى قلم - وبهذا القلم أقدم لك كتابى الأول فى حنين الباكى ووفاء الشاكر وشكر الذاكر وبر البنين. ومازلت حتى اليوم عندما أواجه أزمة أشكو له.

* هل هذه العلاقة الخاصة مع الأب - البطل الذى اختفى فجأة من أمام الصغيرة هى التى تفسر علاقتك بجيل الأساتذة من العقاد إلى طه حسين وغيرهما وجعلتك فى موقف أبعد

ما يكون عن النقد لهم وأقرب للاحترام والتبجيل لكل ما يصدر عنهم؟

** بالضبط.. ويمكن أيضا تفسير علاقتي بالنيل الذى اعتبرته الأب الأكبر منذ كنت أستيقظ في السادسة صباحا مع والدى لنسير بجوار ترعة الإبراهيمية وبطول النيل ونعود بعد هذه الجولة لنجد الإفطار ـ الذى يعد أهم وجبة في الصعيد، بينما يكون الغذاء عبارة عن جبن وبطيخ بسبب حرارة الجو، بينما العشاء يكون فاخراً ولا يتأخر عن السابعة مساء ـ وقد وجدت تقريبا نفس النظام في معظم دول العالم التى زرتها وقد أحسست أننا في الصعيد قد صنعنا ذلك بكراً كتعبير عن علاقتنا بالطبيعة من حولنا وبدون ادعاء ـ المهم.. وطالما أنك جعلتني أنظر مرة أخرى في مرآة الزمن، فإننى أتذكر الآن أنه كان يقال إننى عندما كنت في الثانية من عمرى وحتى الرابعة.. كنت أتميز بشدة الحركة الدائمة.. وعندما بدأ معلمى يشترك مع والدى في رسم خطوات القراءة أمامى وتزويدى بالمجلات والصحف بدءا من الثامنة ابتدأ والدى يحدثنى كإنسانةناضجة ويسألنى (إيه رأيك)..

وهنا شعرت بأننى انتقلت من عالم الطفولة إلى عالم الكبار بدون انزعاج أو اهتزاز.. وعندما وصلت إلى سن الحادية عشرة كنت قد حفظت مئات من كلمات اللغة الإنجليزية وكذلك القرآن الكريم كله.. وحرصت على إعادته باستمرار، وفي هذه السن.. كانت هناك شخصية أخرى بالغة الأهمية في حياتي وهي جدتي ـ قاهرية ـ وكانت قد فقدت ابنتها الوحيدة وحزنت عليها بشدة لذلك كانت تصلى لله لكي ينجب أبى بنتا.. فعندما جئت للحياة احتضنتني بأكثر من معنى.. وكانت تقيم في البلدة لأن أبى وحيدها.. وفي نفس الوقت تتردد بانتظام على القاهرة ولم يكن يمكن أن تتركنى بعيداً عنها خلال هذه الزيارات وحتى عندما أصبح لى أربع أخوات وشقيقان ظللت أنا في الصدارة.

* في إطار هذه الصورة التى نستطلع ملامحها لبدايات التكوين بما تمثله من فائدة للكثيرين.. كيف أثر هذا الحنو الدفق في عملية تطورك ونضجك على المدى الطويل وكيف ظهرت أم كلثوم التى تعكس ثقافة أخرى في حياتك ولاسيما أنك صاحبة كتاب هام عنها؟

** تجيب عن سؤالك حقيقة أن هذا الحنان الذى أحاط بى كان أرضية خصبة للتوجيه نحو الأفضل.. وفي ذلك أبلغت جدتي أحد الأقرباء ـ وكان شيخا معروفا ـ بأننى أنهيت حفظ القرآن وسألته رأيه، فأخذني الرجل وجلس يستمع إليّ.. وبعدها طلب من جدتي أن تتركنى له.. وبالفعل بدأ في إعادة تحفيظى القرآن بالقراءات ووضع بذلك أساس تقويم لسنى في نطق العربية.. وانفتح باب المعرفة أمامى بعد ذلك إلى عالم الأدب وعالم الموسيقى، أى بدأت أجمع بين الثقافة العلمية والأدبية والسمعية في هذه المرحلة وهذا هو عماد شخصيتي. فعلاقتي باللغات دفعتني للالتحاق بالألسن ـ بعد التحاقى بالآداب التى درست فيها الفارسية والتركية

والفرنسية والإنجليزية فقد كنت أعد للماجستير وسعيت لتنمية الفارسية والتركية.. وفى نفس الوقت التحقت بالمعهد الفرنسى لتنمية تلك اللغة.. وثقافتى السمعية.. كانت وراء إحساسى المبكر بأم كلثوم حتى وصلت لمسألة أننى كنت أطفئ النور فى الغرفة لكى أستمع إليها بدون أن يشغلنى شىء عنها!! وكانت أسرتى تعرف أنه إذا أغلق باب غرفتى فإن هذا يعنى أن أم كلثوم تغنى!.. لذلك كله أعود لسؤالك الجوهرى عن الصدام بينى وبين منظومة التعليم فى بلادنا.. لقد شعرت أنهم لا يعطون الأولاد شيئا.. حتى وصل الأمر إلى حذف الآيات القرآنية المتعلقة بإسرائيل!!

وبالمناسبة فإن شدة حملتى من أجل التعليم أو آثارنا أو أية قضية أتبناها مصدره الحب الشديد لهذه الأرض.. لقد كان الحب هو المحرك الأساسى لى وحتى هذه اللحظة فى كافة المعارك التى خضتها.. لقد كتبت موسوعتى عن أم كلثوم بهذا المنطق وإشدة حبى لها.. ونفس المنطق فى معركتى من أجل هضبة الأهرام.

والدتى كانت قاهرية.. وكانت محبة للجمال حتى إنهم كانوا ذات مرة يرصفون الشارع.. وسمعت العمال يقولون وضعوا (الزفت) وأنا لا أعرف ماذا يعنى اللفظ بالضبط.. المهم عبرت الطريق وتلوث حذائى وخشيت السؤال فبادرتهم فى المنزل متألمة وشارحة موقفى (أصلهم فى الشارع بيعملوا زفت».. فلم تهتم أمى بالحذاء ولكنها سارعت لتقول لى «قولى الأبيض.. بلاش الكلمة الأخيرة» كانت تحب اللفظ الجميل.. وكان حسها الجمالى أعلى من مستواها التعليمى.. لذلك اعترضت مرة أخرى عندما كنت أصف شيئا وقلت «أحمر زى الدم» فأحضرت وردة حمراء وطلبت منى أن أقول «أحمر مثل الورد» أفضل من العبارة السابقة.. وقد أثر ذلك فى أسلوبى ذلك حتى أننى أشعر أننى أغنى الكتابة الأدبية قبل وضعها على الورق.

* هذه الـ (مصر) التى تعشقينها.. هل تغيرت على الأرض عن الصورة التى تدافعين عنها؟ وهل كان ذلك وراء دعوتك لإعادة كتابة التاريخ؟ وهل تشعرين ونحن على أبواب قرن جديد ـ وأنت شاهدة على أحداث نهاية آخر.. أننا نسير فى الطريق الصحيح؟

** نعم.. تغيرت كثيراً ودعوتى التى تشير إليها سببها حرصى على الدفاع عنها ضد ما أصابها وفى مقدمته أننا بدأنا تزوير التاريخ وبدأت جرعة النفاق تزيد.. أيض انتابنى الخوف على ملامح أعرق مدن الدنيا ـ القاهرة ـ بسبب التشويه المعمارى الذى بدأ يصيبها بعنف والعشوائيات التى تبدو أقرب للانتشار للمرض الخطير.. وزاد الخوف على الناس المحاصرين بالمسلسلات التليفزيونية التى تحرمهم من الكلام والحوار فيما يحدث.. أيضا تجاهلت وسائل الإعلام التاريخ وضرورة توصيله للناس ـ لذلك لا أعتقد أننا نسير على الطريق الصحيح وإن كنا لا نعدم وجود أشياء صحيحة ووجود نماذج مشرفة وسط النماذج التى شاهت حتى وصل

الأمر إلى الغناء الذى بات أقرب للألعاب منه إلى النغم.. وإن ظلت السلوى والمناجاة في الفن الحقيقى الذى ظهر بالأمس ومازلنا نعيش على رائحته وحضوره.. وهل هناك حضور أقوى من أم كلثوم.. وهل هناك غياب أقوى من غياب هؤلاء الذين يملأون الساحة.. هل فى أذهاننا عبارة بجمال ما قالته أم كلثوم:

يلى رضاك أوهام

والسهد فيك أحلام

حتى الجفا محرومٍ منه

ياريتها دامت أيام

هذا هو الجمال والعاطفة المتقدة.. لكن اذكروا عبارة واحدة لما يملأ الحياة من ضجيج اليوم.. لا شيء.. أيضا.. السينما ساءت جدا وتقدم مفاهيم خاطئة.

* هل شاهدت «المصير» ليوسف شاهين؟

** لا.. لا أستطيع أن أرى ابن رشد وهو يعمل طبالا.. وزماراً.. وليس ذلك لأننى أعادى الفن.. إطلاقا لقد كان الإمام ابن حزم يسمع طول الليل الغناء ومع آذان الفجر يذهب للصلاة.. لكن ليس معنى ذلك أن أجعل من ابن رشد الفيلسوف مجرد أمر - والمسرح أيضا ضربوه.. وهذا كله مخطط.. ولكن ما يمنع التشاؤم أن مصر قوة حضارية كبيرة لا حدود لها.. لقد استطاعت أن تكتب المسيحية كلها.. وأضفت لليهودية من الوصايا إلى سفر الأمثل إلى تسابيح إخناتون التى أخذوا منها المزامير حتى وصل الأمر بفرويد أن قال إن عقدة اليهود هى سبق مصر فى الحضارة.. ومن هنا تأتى محاولة الادعاء بأن جدودنا كانوا عبيداً أثناء بناء الأهرام.. وهذا وهم.. لأن العبيد لا يقيمون أهراما ولا يدرسون جيولوجيا التربة ولكنهم يكتفون بحمل الأحجار.

الصعيد .. تعبير عن حساسية مصر

* فى حوار تليفونى معك وفى أكثر من مناسبة كنت دائما مصرة على أن الصعيد منح مصر الرجال - والصعيد اليوم.. قضية واسعة جديرة بالتأمل قبل الاقتراب منها أسألك ماذا منحك الصعيد فى تقديرك الشخصى؟

** الصعيد أعطانى شخصيا مصر الحضارة.. لقد شاءت الأقدار أن أنمو بين المعابد والآثار التى يضمها هذا الصعيد - وأصبحت هذه الآثار خلايا فى نسيج جسمى.. وتسرب الإحساس بعظمة ومعانى هذا التاريخ القديم إلى داخلى وبعد أن كانت نظرتى لما يحتويه

الصعيد هى الانبهار فى زمن الطفولة.. أصبح ما يحتويه وما منحه لى هو العراقة بعد ما عرفت المعنى الحقيقى لما كانت أشعر به.. ورويداً رويداً بدأت أقترب فكريا ونفسيا من أجدادنا هؤلاء الذين صنعوا مظاهر تلك العظمة، أيضا أعطانى الصعيد الذى نشأت فيه (الدين).. لأن مصر تدينت قبل ظهور الأديان ومن آلاف السنين.. والصعيد هو أكثر الأجزاء تعبيراً عن حساسية مصر.. أيضاً منحنى القيم الاجتماعية وأتذكر أنه بعد أن كبرت وقرأت فى الأدب الفرعونى من يقول: «إذا سعيت إلى المركب فلا تتقدم من لا ولد له» قيمة أى أن هذا الرجل أب بدون أن ينجب ولابد من احترامه.. وفى موضوع آخر: «لا تستصحب رجلا غضوبا..».. وفى موضع ثالث: «لا تستكثر من المال الحرام فإنه كالنسر يطير بجناحين» سفر الأمثال أخذ من هذا الأدب الفرعونى بالنص «هل تريد أن تكون غنيا إنه كالأوز يطير بجناحين!!» والنص الفرعونى أكثر بلاغة.. هذا الأدب الفرعونى تعلمته وقرأته عندما كبرت ولكن قبل ذلك سمعته فى الصعيد وبلغة أخرى.. وشكلت هذه المعانى قيم الجنوب.. مثلا.. فى الصعيد يقولون للطفل «تعالى يا.. با..» لما كبرت عرفت أن الـ (با) هى الروح بالهيروغليفية و(الكا) هى القرينة.. وهذا فسر لى ما كان يحدث عندما تسقط طفلة على الأرض فيقول الموجودون : «اسم الله عليك.. أختك لقيتك.. لأذتيها ولا أذيتك!!» وبعد ذلك عرفت من هى أختى تلك التى لاقتنى عندما وقعت.. فهم يعتبرون أن لكل إنسان قرينه وكانوا يحبون الثنائية (الروح والقرين).. الاسم والاسم الجميل الذى نطلق عليه (اسم الدلع) ولذلك تفسير وهو أن للنيل ضفتين وبعدهما سهلين وبعدهما صحراوين، وبعد هى زرع خطوط.. خطوط.. فعشق المصريون الثنائية فى كل شىء.. هذا هو المناخ الذى تنفسته وأصبح المكون الحقيقى لوجدانى وفكرى.. لذلك عندما كانوا يستعدون لرفع معبد أبو سمبل أصابنى القلق ذهبت إلى هناك لأرى كيف سيرفعونه.. كنت خائفة على المعبد.. وهناك وجدت الشركة المسئولة وقد غلفت أجزاء المعبد بالقماش الأبيض ورقمته والتقيت بغفير اسمه (عم حبشى) كان يعرفنى بحكم ترددى على المعابد فى كل أنحاء الجنوب.. ولكنه هذه المرة كان يبكى وهو يقول: «معقولة.. دول هايقطعوه.. يسيبوه واحنا نشيله على رأسنا.. صعيدى ليس لديه فلوس أو شىء.

الغضب بأسلوب خطأ

* مقابل هذه الأحاسيس العميقة نحو الصعيد.. هل تهتز ثقتك به عندما تسمعين كل هذه النكات عن أهله؟ وهل كل هذه الحفاوة التى أحاطت بك استثناء عن موقف الصعيد بصورة عامة من المرأة؟.. وهل تشعرين بأن هذ الصعيد الذى تتكلمين عنه يقابله صعيد آخر موجود وعبر عن نفسه من فوهه العنف؟

** أنا أكثر الذين يضحكون من الفكاهات التى يتم اختراعها ضد أبناء الصعيد.. وليس هناك أصعب من هز ثقة الصعيدى بنفسه.. أما مسألة الموقف من المرأة.. فإننى أقول إن محافظة صعيدية مثل المنيا هى من أكثر المحافظات احتراما للمرأة.. فالمرأة عندما تصبح أما تفوز باحترام كبير وعندما تصبح جدة فإنه لا يبرم أمر بدون استشارتها والمنيا المحافظة الوحيدة التى جعلت من نفرتيتى شعاراً لها مع أن نفرتيتى زوجة أعظم عظماء مصر وهو إخناتون الذى جلب لمصر التوحيد ومع ذلك اختاروها هى!

لقد اختاروا المرأة التى خلف إخناتون والذى كان يصف السعادة بقوله «وكأننى أسمع ضحك الملكة وبناتها» لذلك كان شعار المنيا تعبير عن الدور الكبير للمرأة.. أما مسألة العنف.. فإنه لا يجب أن ننسى العنف الحكومى ضد الصعيد كان متكرراً ده كويس قوى إن الصعيد صبر واحتمل كل هذه الآلاف من السنين.. فالصعيد مصدر الخير والآثار ومصدر الرجال والنتيجة إهماله وظل يعيش من غير كهرباء أو مياه حتى جاءت لحظة كان المنزل المضىء بالكهرباء يعتبر حدثا.. لقد افتقر الصعيد طويلا للرعاية والاهتمام ولذلك إذ انفعل الصعيدى يعتبر معذوراً وهذا لا يعنى إقرارى للعنف لكن الإنسان فى حاجة إلى منزل وعمل وأمل وإلى حرية واحترام بهذه الأساسيات الخمس لا يمكن أن يفكر فى الإرهاب إنما عندما يتحول إلى إنسان مُضيع ومهمل يتبقى له ما يبكى عليه، طيب انشروا الأمل فى فرصة حياة كريمة.. ووفروا له سبل الحياة وسوف ترون رجالا من الصعيد مختلفين.. ولا ننسى أن الصعيد كان مصدر النوابغ من أول التاريخ لآخره: التحامسة كلهم من الصعيد: تحتمس الأول والثانى والثالث مفاخر التاريخ.. أحمس الذى جاء من الصعيد ليطرد الهكسوس من الدلتا!! لذلك الصعيد ليس له ذنب.. وهذا لا يعنى أننى أقر الجريمة ولكن فقط أدعو لقراءة أبعاد الحقيقة.

* إذن العنف ليس الديانة الشعبية السائدة فى الجنوب والدم الذى أزعج البراءة فى الأقصر مؤخراً ليس طقسا طبيعيا فى الصعيد وليس الخبز اليومى للناس هناك؟

** لا.. لا.. لا.. يكفى ملاحظة بسيطة تكشف لك رهافة حس هؤلاء الصعايدة وتمسكهم بالكرامة معنى.. وخلقا وسلوكا.. إنك إذا ذهبت إلى فندق هناك لن تجد من يتمسح انتظاراً للبقشيش بل إنهم هناك يترفعون ـ رغم الفقر ـ عن البقشيش، وعندما تقدمه لأحدهم يرد عليك «الخير واصل».. وهذه العبارة لا تسمعها إلا فى الصعيد.. كان عندى مربية لأطفالى كنت أسألها: «يا لطيفة الأكل كما هو.. ليه ما أكلتيش» ترد: «الخير.. واصل.. الأكل أمامى».. يكفى أن أقول عودوا للتاريخ القديم لتروا الصعيد الحقيقى فالتى نظمت المقاومة الشعبية ضد الهكسوس هى جدته وأمه ـ هى التى جعلته بعد موت أبيه وأخيه على رأس فرقتين وهو فى السابعة عشر من عمره وأخفت ٣ فرق وعندما هاجم الهكسوس نفذت خطتها وظهرت الفرق

المختفية وباتت هذه المعركة درساً عسكرياً خالداً!! أما جدته فقد جمعت النساء المصريات وقالت لهن: «هؤلاء الرجال علينا حرام إن لم يطهروا مصر من الهكسوس» وبالفعل خرج زوجها القائد بالجنود من طيبة ـ الأقصر ـ إلى الزقازيق ليحارب حتى يسقط فى أرض المعركة ويحل مكانه الابن الأكبر (كاس).. مات هذا.. أرسلت الأم بالأخ الأصغر أحمس.. هذا الكلام كله لا يعنى سوى اعتزازى بالصعيد وما حدث فى الأقصر أدمى قلبى ـ وما حدث للسياح نوع من إعلان الغضب بأسلوب مدان وخطأ.. لذلك قلت إن العنف المتبادل بين الحكومة وبعض المخطئين لن يحل المشكلة.. ولكن أسلوب تفهم الواقع هو الطريق الصحيح للحل.. طيب لنملأ الصعيد بالمدارس والمصانع والمزارع كل هذا مع فتوة الرجال وقوة النساء وسوف ينتج ذلك خوفو أخر وأحمس وتحتمس ومينا وغيرهم .

لا أغنى لتاريخ مضى !!

* البعض يرى فى أغنية الدكتورة نعمات أحمد فؤاد للتاريخ الفرعونى قدراً من المبالغة تجاه تاريخ بالغ القدم تجاوزته وعلت عليه الحضارة الإسلامية التى تشربتها مصر وأخذت منها شخصيتها وكان هذا رأى الشيخ محمود محمد شاكر رحمه الله وآخرين..؟

** مع احترامى للشيخ شاكر رحمه الله ولغيره.. فإننى لا أرى هذا الرأى وأنا لا أغنى لتاريخ مضى، بل تاريخ يعيش داخلنا ونتحرك به وسوف نعيش به.. ونحن نتنفسه.. وطالما هذا الهرم باق.. وطوال ما بقيت هذه المعابد وهذه الكتابات والنقوش موجودة فإن هذا التاريخ لم يذهب إلى الضياع أبداً.. كيف يعتقد البعض مثل هذا الكلام وأسماء مدننا كلها هيروغليفية!

المنيا.. دمنهور.. أسوان.. وغيرها، عادات القدماء نعيش بها من السبوع إلى الحنة إلى الدخلة إلى الرحمات والخوص للموتى ـ وقداسة الموت كلها عاداتهم.. إيه حكاية الأربعين؟ لأن عملية التحنيط كانت تتم فى أربعين يوما وعلى مراحل وفى كل يوم خميس كانت تنتهى مرحلة لذلك نجد عند المصريين حتى اليوم مسألة (الخميس) الأول والثانى وغيره بالنسبة للموتى!!

ومازال يقال على يوم الأربعين أنه آخر يوم للميت فى الدنيا.. إنها فكرة فرعونية كان يشار بها لاكتمال مسألة التحنيط!!

إنها مفاهيمهم!! وإذا كان الماضى راح.. فهل يعنى ذلك أن الأب ماض ذهب أيضا! كيف؟ بالعكس فأنا مازلت أحمل اسمه وأعيش فى خيره والنيل قديم.. هل يعنى ذلك أنه اليوم أرخص مما كان؟ أبداً بل العكس صحيح.. وكيف نرمى بألوف السنين الحضارية فى البحر وبدون أن أسأل نفسى.. هل أنكر الإسلام ما قبله؟.. لقد أنكر الجاهلية ولكنه لم ينكر

الحضارات.. لقد اقتبس من الحضارات فى سماحة شديدة، أخذ من مصر ومن فارس حتى الصين لذلك فإن هذا الفريق يُحمّل الإسلام ما ليس من طبعه ـ الإسلام يقول لك خذ الحكمة ولو من أهل النفاق! هذه هى رجاحة وسماحة الإسلام - الرسول # يقول: «مصر كنانة الله فى أرضه من أرادها بسوء قسمه الله». ألم يكن يعرف أن مصر هذه لها تاريخ قبل الإسلام؟

* إذن هى معركة مفتعلة تلك التى يشعلها البعض حول التناقض بين عروبة وإسلام مصر وتاريخها الفرعونى؟

** هى ليست معركة.. هى فهم خاطئ.. ماذا يضيرنى أن أجمع كافة الحضارات داخلى.. يقلل أم يزيد من تجربتى أن أجمع الكثير من الموروثات؟ من أغلى الأوصاف عندنا أن نقول (فلان ابن أصل) أى لم ألتق به فى الشارع! أى لم يكن منقطعا بدون جذور!! هذه الجذور ضرورية للإنسان وللوطن.. وهى التى تحمى من العواصف والزوابع..

كيف

* كيف يمكن أن يختتم حوار مع الدكتورة نعمات أحمد فؤاد وكيف يمكن أصلا أن يكتمل؟

فالنوافذ عديدة.

والدفء فى المكان والقلب حقيقة..

والذكريات كثيرة

وإن كانت تبدو فى أحيان عديدة غضبة فإنها تحمل فى أحيان أكثر ذكريات حب لا تنضب للذين رحلوا: «فى هذا المكان زارنى البيان محمد حسن الزيات وكان قد كتب مقدمة كتابى (فى بلادى الجميلة) وقال، لم يحدث فى الأدب العربى كله أن ظهرت أديبات يمتلكن مثل هذا الأسلوب المتميز إلا مى زيادة فى أوائل القرن وأنا ـ وقال: «لو مت الآن لن أحزن.. فأنا ممتد» وعندما اختار اليونسكو كتابه «دفاعا عن البلاغة» ضمن مشروع اختيار أفضل أعمال كبار الكتاب فى العالم فقد جعلنى أكتب مقدمة الكتاب ويومها وقف فى نفس المكان الذى نجلس فيه (صالون شقتها فى الزمالك) وقال: «هذه تساوى مائة دكتوراه».

أرادت أن يكون ختام حوارها حبًا لذكرى الأساتذة الذين تركوا بصماتهم على وجه مصر.. وظلت المشكلة فى اكتمال بقية ملامح الصورة هى الفرق بين ابن الوجه البحرى.. وابنة الصعيد رغم كل ما يجمعهما من مودة.

محمد سيد أحمد

بعد أن تسكت المدافع ... سلام أم سراب ؟

كلما مرت ذكرى اتفاقية السلام المصرية – الإسرائيلية.. انقسم الذين يتذكرون الحدث بين فريق يتأمل اتفاقية أنهت الحرب ولم تصنع الطمأنينة.. وفريق آخر احتفل بسلام حقق حتى ولو كان فى غرفة دائمة للرعاية الفائقة.. وفريق ثالث.. وقف يتباهى بالنسيان.. الذى جعل هذه الاتفاقية الهامة باهتة الضوء فى زمن تداخلت فيه الألوان. ولكن من هو الذى يجرؤ على أن ينسى كاتباً ومثقفا بحجم محمد سيد أحمد الذى كان – المُنظِّر والأب الشرعى – لكل المترادفات والألفاظ والأفكار التى سبح الجميع فوقها إلى شاطئ (السلام).. من يستطيع أن يهرب من (غواية) التساؤل: إذا كان محمد سيد أحمد الذى كتب (بعد أن تسكت المدافع) عام ٧٥ نبوءة بما هو قادم وضعته فى خانة (الشك) آنذاك.. هو نفسه محمد سيد أحمد الذى تساءل فى نهاية القرن (سلام أم سراب؟)

بل.. من يستطيع أن يتجاهل البحث عن الحقيقة المرسومة فى علامة استفهام: هل ما كتبه المثقف الشيوعى ابن الباشا القاطن فى حى الزمالك الراقى الذى يعشق الرياضيات والموسيقى ورائحة الياسمين التى تطل من نافذته.. كان مغامرة فردية ليسارى خلع عباءة الأيدلوجية أم مثقفاً قرأ قلب وعقل نظام الحكم وأحب أن يقوم بدور المدفعية الثقيلة تمهيدا لما هو قادم؟وهل الكتاب – النبوءة – الذى تلقفته كبريات صحف العالم فى باريس وجنيف لتفرد له الصفحات وتدعو مؤلفه للمحاضرات كان.. تعبيرا عن لمعان فكر مؤلف.. أم أنه بالإضافة إلى ذلك كان قراءة ثاقبة لزمن قادم لا يكتشف ضوؤه إلا الموهوبين؟

أسئلة لا يمكن فهم معانيها إلا مع صاحب (بعد أن تسكت المدافع) .

أشد الناس عداوة لمحمد سيد أحمد.. يصفونه بكاتب يسارى رومانسى يجيد اختيار ربطة عنقه وابن باشا لا يعانى من ضائقة عيش.. ومثقف يكتب كلاما (صعبا) للخاصة ويختمون كلامهم بأنه (باحث خيالى جعل من الشيوعية ربطة عنق لم يفرضها عليه أحد ولكنه اختارها كحال الكثيرين من شباب الموسرين حتى يقاوموا عدمية الحياة ويصبحون فى دائرة الضوء) وأشد الناس محبة له يصفونه بكاتب فذ صاحب عقلية رياضية جبارة وثقافة موسوعية لا يمكن تجاهلها.. ومقدرة فذة على استخدام مناهج البحث من الأيديولوجية صناعة لالتقاط

خيرات البحر في زمن كانت صنارة اليسار لاتخرج إلا بكل ما هو لذيذ، ومثقف صاحب قناعات فكرية جعلته مصدرا للجاذبية الدائمة وإن كان من الصعب أن يكون (تابعا) لفكرة أو شخص أو نظام .

* وهكذا.. يجتمع الفريقان.. «الأعداء» و«الأصدقاء» على حقيقة واحدة.. وهى أن محمد سيد أحمد.. الكاتب والمثقف المعروف لم يكن أبدا قابلاً للفساد ـ سواء تحت ظلال الأيديولوجيا ـ أو بسبب غواية (الدور).. ظل دائما.. المثقف «النظيف» الذى يتجنب القيام بأية مهمة فى السيرك الفكرى الذى يكثر أبطاله هذه الأيام.. هذا المثقف.. كيف كتب (بعد أن سكتت المدافع) الذى بدا وكأنه يرسم خطوط العلاقات مع إسرائيل ويقننها ويبحث عن إشارات ضوء تبرر للسائرين ليلا إلى أن هناك ما يقيهم عثرات الأسئلة الصعبة؟ كيف كتب (نبوءته) قبل زيارة السادات للقدس بسنوات؟

** هذا سؤال مهم.. وآن الأوان للكشف عن ملابسات عديدة لم أعترف بها من قبل.. الكتاب الذى كتبته لم يكن صدفة ولم يكن شطحة فكرية لمغامر – هكذا يبدأ محمد سيد أحمد الكاتب بالأهرام، والمسئول سابقا عن صفحة الرأى لسنوات:

«المسألة تبدأ عندما ظهرت فكرة إنشاء مركز الدراسات الإستراتيجية فى الأهرام بعد هزيمة يونيو ٦٧.. كان اسمه مركز الدراسات الفلسطينية والإسرائيلية.. وقد استنتجت مبكرا أن سبب تأسيس هذا المركز أن الدولة أدركت مما جرى فى ٦٧ أنها لا تعلم شيئا عن اسرائيل ـ وأن التقارير التى تُكتب هى من أناس مسئولين أمام عبدالناصر وليسوا مسئولين عن قول الحقيقة عن إسرائيل!! ولم يكن يتوفر لأى مسئول فرصة التحقق مما هو صحيح أو غير ذلك.. وكان هؤلاء يقدمون صورة تريح صانع القرار ولم تكن هناك مساءلة عن دقة ما يقدمونه من «حقائق» حتي جاءت المحاسبة بالحديد والنار فى أرض المعركة!!.. من هنا كان الاتجاه لإنشاء جهة علمية متصلة مباشرة بالقيادة.. تقدم رؤيتها وتحليلاتها وبدون أن يعلم المشاركون من الخبراء والمتخصصين أن ما يفكرون فيه وما يبدون فيه الرأى يصل مباشرة لقمة الحكم.. وهذا يفسر إنشاء مركز الدراسات الإستراتيجية تحت اشراف هيكل ـ وأن مديره كان يتناول العشاء يوميا مع عبدالناصر وأقصد زوج ابنته حاتم صادق.. وبالتالى كان يمكن لعبد الناصر أن يتلقى انطباعات أو علومات من داخل لقاءات خبراء المركز دون أن يعرف المشاركون بذلك ـ وقد اختار هيكل مجموعة الخبراء والباحثين والمتخصصين والمفكرين الذين كانوا يشاركون فى اجتماعات ومناقشات المركز.. شاركت فى كل الاجتماعات.. وساهمت فى مناقشاتها وتحليلاتها.. ولكن قراءاتى الشخصية لهذه اللقاءات هى ما كشفه كتابى (بعد أن تسكت المدافع).

طبعا لا أستطيع إثبات ذلك.. ولا أستطيع الادعاء بأن غيرى كان سيفسر ما يقال وما

يناقش مثلما فعلت أنا.. ولكن ما لفت نظرى شخصيا أننا بدونا وكأننا نبحث عن شىء أقرب للسحر لكى يخرجنا من حفرة الهزيمة.

* هذه الاجتماعات أشار إليها فى حوار سابق الدكتور مختار هلودة رئيس الجهاز المركزى للإحصاء بالتعبئة الأسبق.. وأحد المسئولين عن مشروع مصر فى مجال الصواريخ فى الستينيات.. لكن كيف قرأت ما بين السطور وكيف ذهبت إلى طريقك وحيدا لتبشر بالقادم؟

** من المؤكد أننا كنا نبحث عن جديد يساعدنا فى تجاوز هزيمة مريرة – ومن ضمن هذا الجديد تعرفنا على علم اسمه Game-Plam ويعرف بعلم ترجمة أحوال كيفية إلى أحوال كمية.. مثلا.. السوفيت.. مصلحتهم كام فى الحرب ومصلحتهم كام فى السلم؟.. ويتم إعداد قوائم واعتبارات مختلفة تقدرها درجات توفر تقديراً عاماً للموقف – وقد استضفنا خبيرا إنجليزيا وآخر أمريكيا وناقشنا كثيرا من القضايا بهذا الأسلوب وقد حضر هذه المناقشات شخصيات من جهات مختلفة كالمخابرات ولم نكن نعرف عنهم شيئا، هذا الجو العام كان يشغل فكرى بما يدور فيه.. ويترك آثاراً عميقة.. وكنت أختزن الكثير مما يدور بين المعانى.. كانت الدلالات تشغلنى أكثر من الكلمات – من ناحية ثانية.. حدث أمر آخر يرتبط بكتابتى لهذا الكتاب.وهو أننى دُعيت فى ذلك الوقت من مندوب الجامعة العربية وممثل منظمة التحرير الفلسطينية لإلقاء محاضرة فى جنيف عن دلالات حرب أكتوبر.. وقد أعددت دراسة موضوعية ليس لها أى طابع أيديولوجى حول دلالات الحرب.

وقد فوجئت أننى أمام جمهور من الشباب اليسارى وبدا وكأننى أتكلم لغة غريبة.. ولكن حدث اهتمام حاد بالمحاضرة.. ثم دعيت فى نفس الوقت للحديث فى نفس الموضوع فى جامعة جنيف، بعد ذلك ترجمت المقال للفرنسية وبعثت به إلى (اللموند) التى أجلت نشره قليلا ثم نشرته صفحة أولى مع ضجة لفتت الأنظار!!

أعترف اليوم بأن هذا المقال كان نواة أخرى لهذا الكتاب!!

واقعة ثانية.. وإن كانت سابقة على الأولى.. وهى أننى ذهبت بعد حرب أكتوبر بشهور إلى لندن مصادفة.. فقد كانت هناك ندوة يحضرها هيكل ودعى لها بطرس غالى الذى تنازل عن دعوته لصالحى بسبب انشغاله.. وبالفعل ذهبت لتلك الندوة التي كانت فى المعهد الدولى للدراسات الإستراتيجية فى لندن وكانت تضم خبراء من العالم كله.. وتكلمت عن نظريتى التى كانت تتبلور رويدا رويدا وظهرت فى الكتاب فيما بعد!! وأتذكر أيامها أن بعض كبار خبراء الإستراتيجية العالمية تحدثوا معى بإعجاب حول ما طرحت من رؤية لمستقبل الشرق الأوسط ومحددات العلاقات مع إسرائيل كما تبدو فى الأفق.

وهكذا.. ما بين مناقشات مركز الدراسات فى «الأهرام».. وندوة المعهد الدولى للدراسات الإستراتيجية فى لندن ومحاضرتى فى جنيف تبلورت الرؤية التى قدمتها فى الكتاب.

* يظل السؤال قائما.. كيف اندفعت لإصدار الكتاب.. كانت كافة المؤشرات تقول إنك تتوجه للخبراء الباحثين ومنهم الأجانب بأفكار تتلمح فى ذهنك.. ولكن أن يخرج ذلك إلى دائرة العلانية والعمومية.وما يعنيه يستحق التوقف؟

** بأمانة.. أعتقد أن خروج هيكل من «الأهرام» كان من ضمن الأسباب.. فقد تقدمت باستقالتى أكثر من مرة عقب إبعاده.. وكانت صلاحياتى على صفحة الرأى التى كنت مسئولا عنها فى الأهرام تتقلص.. وكنت أشعر نفسيا بعدم الرضا.. وهنا ظهر الكاتب والناشر فؤاد مطر وعرض علىّ أن أكتب كتابا يضم رؤيتى لمستقبل المنطقة.. وبالفعل وخلال ١٠٠ يوم كنت قد أنهيت الكتاب وكان لدى إحساس بأنه يجب أن يظهر بسرعة وكان فى ذهنى أن يكون الكتاب أطول.. وأنه لابد أن يضم ثلاثة أجزاء أحدها عن الوضع الدولى والثانى عن الصراع الإقليمى والثالث عن مصر.. ولكنى اكتفيت بالجزئين الأولين وكانا فى ٤٥٠ صفحة على أمل كتابة الجزء الثالث فى فرصة تالية.. وأعود لسؤالك.. فأقول أننى لم أكن أتوجه بنظريتى التى كانت تتبلور للقارئ الغربى.. بل الحقيقة فإننى كنت أختبر بعض أفكارى فى ندوات دولية.. وكانت النظرية الأساسية فى (بعد أن تسكت المدافع) هى أن حرب أكتوبر حققت نوعا من التوازن الإستراتيجى بيد أن الوضع القائم الذى يسىء للطرفين معا.. من الممكن أن يصبح مفيدا للطرفين معا – هذه هى فكرة السلام الأساسية فى الكتاب – وعندما عبرت عنها فى معهد الدراسات الإستراتيجية فى لندن.. فإن أحد المفاوضين الأساسيين الأمريكان فى مفاوضات نزع السلاح مع السوفيت جاء لتهنئتى على هذه النظرية، كما حدثت أشياء عديدة جعلتنى أشعر أن ما أقوله له قيمة!! الفكرة الثانية فى الكتاب أن عملية السلام ليست إلغاء للتناقضات وإنما إعادة ترتيب بحيث لا يستمر الصراع بشكله الحاد يتخذ أشكالا أخرى تجنب الحرب وتقود إلى نوع من التسوية وفكرة ثالثة تقول أنه بعد هزيمة ٦٧ لم يكن يمكن جمع الناس فى تفاوض.. لأنه لم يكن هناك مقياس مشترك.. هذا المقياس توفر بعد حرب أكتوبر.

أفكار مهمة.. ومطلب خروشوف

* أعرف جيدا أننى لا أجرى حوارا حول الذكريات.. ولكنى أسعى لاستقراء ما هو أبعد من الحدث من خلال شرفة الأيام.. ونحن معا الآن.. يبدو لى وكأن أفكارك تنمو بحرية بعيدا عن تدخلك المباشر.. وبصيغة استفهام.. كيف ترى نفسيا (التجربة – الكتاب) على المستوى الذاتى؟

** سؤالك جذب عقلى لملاحظة لم ألتفت إليها من قبل وهى أننى خلال لحظتين أساسيتين

في حياتي كتبت أفكارا ثبت أنها مهمة وأنا لا أدرك!! الأولى عندماخرجت من السجن بعد ٥ سنوات أمضيتها مع الشيوعيين المصريين ـ وكان من المفروض أن أمضى في السجن سبع سنوات.. لكن كلنا خرجنا فجأة بسبب دعوة خروشوف لزيارة مصر مع بدء تنفيذ إنشاء السد العالي.. وقال أيامها خروشوف للسادات الذى ذهب لدعوته (أنا راجل بأخاف.. لأن عبدالناصر يضع الشيوعيين في السجن) والمفارقة أن آخر واحد أطلق سراحه كان الدكتور اسماعيل صبرى عبدالله الذى خرج بعد وصول خروشوف بساعة!!

ولكن بعد إطلاق سراحنا.. ظللت ٦ شهور محّكوما علىّ أن أظل مساء في البيت بسبب المراقبة التى كانت مفروضة!! حتى تقرر إلغاء هذه الإجراءات.. في هذه الفترة كتبت كتابا كان محاولة للتنظير حول كيفية العلاقة بين الأنظمة مثل نظام عبدالناصر واليسار الشيوعى!! وكانت الفكرة أن العالم يتغير وأن من مصلحة الشيوعية أن تنفتح على صور أخرى من التحرر غير ما ترك ستالين!! طبعا الدولة شافت في الكتاب فكرة تقول أن التوافق وارد!! كتبت ذلك في شكل كتيب طبع منه ألف نسخة.. وكان وقتها د. إبراهيم سعد الدين رئيسا للمعهد الاشتراكى التابع للتنظيم الطليعي.. ووصله الكتاب فقرأه! ولفت نظره.. في نفس الوقت فإن هيكل كان يتساءل: الشيوعيون خرجوا من السجن ولكن ما هو الدليل على أنه يمكن العمل معهم؟.. فما كان من الدكتور إبراهيم سعد الدين إلا أن أعطاه كتابى الذى قرأه وطلبنى بعد أسبوع ولم يكن واضحا هل يطلبنى كابن باشا أم كشيوعي.. ثم دعانى للعمل في «الأهرام» ورفضت وأتذكر أنه دهش أيامها ولكن الحقيقة أن خالد محيى الدين وكان رئيسا لمجلس إدارة أخبار اليوم قال لى أنا عاوزك معي.. ثم إن لطفى الخولي هناك.. المهم أن هذا الكتاب الذى أصدرته آنذاك عبر عن تحول هام في علاقة النظام بفريق سياسي فاعل على الساحة. وتكرر نفس الموقف مع «بعد أن تسكت المدافع».

فهذا الكتاب كان معبرا عن تحول أساسي.. وفي الحالتين لم أكن أدرك أهمية ما أكتب.. كل المسألة أننى كنت أحس بأن لدى حالة خبرية.. أو تحليلية تحتاج الى تدخل وأجد نفسي أكتب.. وهذه أول مرة أربط فيها بين كتابي الأول أواخر ٦٤ ـ والثانى بعده بعشر سنوات!

* في لقاء سابق في مكتبك كانت إشاراتك المستمرة إلى أن أفكارك عن السلام العربي - الإسرائيلى والتى تبلورت في كتاب (بعد أن تسكت المدافع) نبتت على حافة حوارات مركز الدراسات السياسية في الأهرام وأكدت نفس المعنى الآن.. هل يعني ذلك أنك تلقى بالمسئولية على النخبة المشاركة في هذه الحوارات وأنك برىء من الفكرة وإن كنت مسئولا عن بلورتها أم أنك توزع (هواجس السلام) التى كانت جنينا لا يجرؤ أحد على إعلانها بين عدد من المثقفين حتى لا تتذكر ردود فعل عنيفة اتهمتك بالخيانة حينا وبالتفريط آنذاك؟

** لا.. ليست الصورة هكذا.. وأبدأ بنفسي لقد كنت مقتنعا دائما بالحرب من أجل

السلام.. وكنت متفقا - وبدون استخدام نفس التعبيرات - مع القذافى الذى قال إن حرب أكتوبر للتحريك وليس للتحرير.. لقد وجدت فى ذلك الكلام (تعبيراً معادياً) ولكنه معبر عن الحقيقة.. وتوصلت لذلك أثناء الحرب.. وأذكر أنه قبل حرب ٦ اكتوبر تمت دعوتنا كصحفيين للقاء السادات ويومها قال لابد من الحرب.. وأنا كنت أشك فى ذلك بصراحة.. وكنت شايف إن فيه رغبة فى إيجاد مخرج.. وسألت السادات سؤالا لم يفهمه، حتى هيكل قال لى.. «إنت ماعبرتش عن نفسك كويس»

كان سؤالي: الحرب من أجل ماذا؟ وماأقصده فى خلفية السؤال هو: هل علشان تجلس على الترابيزة؟ أم الحرب علشان تستعيد الأرض؟.. ولكنى لم أجرؤ على ذكر هذا المعنى المباشر.. فرد السادات: «الحرب.. مش هانقدر نطلع من العملية دى بدون حرب!!» كانت عقليتى التحليلية هى التى قادتنى لذلك الفهم فى شكل سؤال.. ولاسيما أن تكوينى الفكرى تغذى من أكثر من رافد أحدهما هو الفكر الجدلى والثانى الرياضيات.. إننى أعشق هذا العلم وكان أملى أن أشتغل فى هذا المجال.. ولذلك فلدى منطق صارم فى الاستخلاص والاستنتاج.. وما لا أجده منطقياً يدفعنى للبحث عن العيب. لذلك واستكمالا لسؤالك بصيغة أخرى.. فإننى عندما واجهت حربا عنيفة بعد صدور كتابى «بعد أن تسكت المدافع» بدأت أشك فى تفكيرى.. ولم أحمل المسئولية على غيرى بل كنت أحس أن المسئول عن مأزقى هو (علم الرياضيات).

* فى حوارك حتى الآن ما يشير إلى مسألة هامة وهى أن النظام فى مصر بعد هزيمة ٦٧ وتحت حكم عبدالناصر كان يسير نحو طريق واحد لا مفر منه.. فى خلفية الأفكار ووراء الكلمات تقول لنا إن السلام مع إسرائيل طريق مهده آخرون قبل السادات؟

** سؤالك مهم جدا وبالغ الحساسية والدقة.. لذلك أفضل أن أقول إننى وجدت فى عبدالناصر البطل القومى الذى تجاوز الشيوعية.. أو الزعيم الذى وضعنى فى السجن وأنا أحترمه وأنحنى له.. ولذلك كان كتابى الأول اعتراف بقوة نظام عبدالناصر الذى جعل خروشوف يغير خططه.. وكتابى الثانى كان تعبيرا عن العكس تماما .. كان تعبيراً عن حدود النظام.. لقد أدركت أن نظام عبدالناصر بات فى مأزق ويبحث عن مخرج.. والسؤال الذى لم يكن يعلنه أحد كان: إلى أى حد يمكن أن يكون السلام الممكن هو المخرج؟.. بعد هزيمة ٦٧ كان السلام نفسه غير ممكن.. وأصبح فى تقديرى الكلام عن الحرب فى نفس الوقت تأجيل للسلام؟ كانت معادلة صعبة .

وهنا أتذكر أن الصحفي المعروف والذى كان يزورنا جميعا فى بيوتنا أرنولد بورجريف حكى أنه تناول الغداء مع كيسنجر قبل حرب ٧٣ الذى أخبره بأنه أبلغ مستشار الأمن القومى آنذاك (حافظ إسماعيل) بأنه لابد من تسخين الوضع حتى يمكن حل المشكلة.. نشر بورجريف

ذلك فى النيوزويك.. وكتبت أنا أن الحرب توفر فرصة السلام بدون إهدار لكرامتنا.. وأن حرب أكتوبر كانت إنجازا لم يتكرر فى حياتنا من قبل.. وأتذكر فى هذا السياق أننى كتبت مقالا فى صفحة الرأى فكرته عن المواجهة بين الكم العربى والكيف الإسرائيلى وكلاهما غير قادر على إنزال هزيمة نهائية بالطرف الآخر.. وأتذكر اننى كنت يوميا أذهب «للأهرام» بعد الظهر لمراجعة صفحة الرأى بحكم مسئوليتى عنها.. وقد فوجئت أن هذا المقال لم ينشر!! فذهبت لعلى حمدى الجمال والدكتور عبدالملك عودة.. وعرفت أنهما طلبا من هيكل إلغاءالمقال من الصفحة وكأن تعليقوما (هذا لأمنك ومصلحتك لأن النظرية التى تقدمها خطيرة وتعرضك للمشاكل) طبعا شعرت بالضيق وذهبت لهيكل وأقنعته بنشر المقال.. ولكن دخل الاثنان عليه مرة أخرى للمطالبة بمنع المقال.. فطلبنا نحن الثلاثة وجلسنا نتكلم حتى قال اتركونى.. وأنا سوف أقرر الأمر بعد أن أقرأ المقال بطريقتى..وانتهى الأمر بنشر المقال بعد أن حذف منه بعض الجمل!!

واستنتجت أن الكثير من الأفكار وارد الكلام عنها فى غرف مغلقة فقط وغير مسموح بأكثر من ذلك.. لذلك أيضا لم يظهر كتابى (بعد أن تسكت المدافع) إلا بعد أن مشى هيكل من الأهرام ويمكن لو ظل فى الأهرام ما صدر الكتاب!!! لقد كنا أقرب للمعمل أو مطبخ تفكير.. وقد ثبت صحة ذلك ودليل ما حدث هذا الكتاب.. بصراحة وأقولها لأول مرة.. كتابى كشف المستور وإن اتجاه السادات بدأه عبدالناصر.. نعم.. عبدالناصر هو الذى بدأ طريق السادات ولم يكن هناك خيار آخر.. وإن جهود عبدالناصر كانت لتحسين ظروف التفاوض القادمة، وإن المشكلة أن إسرائيل كانت رافضة لعبدالناصر وكان يجب أن يكون هناك (آخر) تقبله إسرائيل وكان ذلك هو السادات..

وكان السادات يعلم ذلك.. يعلم أنه يملك ما لم يكن متوافرا لعبدالناصر.. وأنه يستطيع الذهاب لأبعد نقطة.. عبدالناصر قبل مبادرة «روجرز» ولكنه حرك الصواريخ.. فجعل الأمر ملتبسا ويمكن أنه جعل الأسئلة معلقة كما هى: هل قبل روجرز السلام أم قدم الصواريخ من أجل الحرب؟.. تركها مفتوحة ومات دون إجابة.. وجاء السادات ليفتح القناة ومعناه أنه رجح حلا على آخر.. ولكن لأن سؤال عبد الناصر كان غامضا.. انقسم النظام: فريق السادات يرجح تفسيراً.. فى مقابل فريق على صبرى الذى يرجح تفسيرا آخر.. ويكشف هذه الحقيقة مقالات هيكل تحت عنوان «نحن لا نناطح أمريكا) ومقابل ذلك تمت شتيمة هيكل وفى ظل حكم عبد الناصر من خلال صحيفة الجمهورية.. وفى تقديرى أن هذا كان توزيع أدوار.. مخاطبة السوفيت وإرسال إشارة إلى أمريكا بأنه يمكن اللقاء.. وفى تقديرى أن أى نظام ينقسم إلى خطين على التضاد فإن هذا تعبير عن وهن وعدم قدرة على التنفيذ.

* كتابك بشر بالسلام القادم مع إسرائيل قبل زيارة السادات للقدس بسنوات.. لعل ردود

** هذا الكتاب يعبر عن أفكارى الواعية وغير الواعية .. وسوف تظل ردود الأفعال عليه مؤشرا خطيرا على أمور نفسية وفكرية عديدة .. لقد أشعل حربا على فى بيروت التى كانت على أبواب الحرب الأهلية .. بينما أسرع الصحفى الأمريكى أرنولد بورجريف ليعقد ندوة عنه تضم جمال العطيفى وبطرس غالى وأنا عن الكتاب وينشر ما دار على صفحتين فى النيوزويك.

فى المقابل ـ تحفظت الطليعة التى كنت انتمى إليها بشأن الكتاب وإن نشرت تعليقا إيجابيا عنه تطوع السيد ياسين بكتابته ـ كما دار حوار على صفحات الطليعة نقدا للحوار الذى قدمته النيوزويك للكتاب .

ولكن بعد ذلك صدرت أربعة كتب تعليقا على الكتاب وأيامها نصحنى سفير العراق فى القاهرة بعدم زيارة العراق خشية على بسبب الكتاب !! ومن الطرائف أننا كنا أنا ولطفى الخولى وزوجاتنا فى اليونان والتقينا بممثل منظمة التحرير الفلسطينية فى أثينا فوفر لنا سيارة بسائق للتجول فى المدينة .. وفى إحدى الجولات نظر لطفى للسائق قال له : نسمع عن واحد اسمه محمد سيد احمد ؟ فأجابه بالإيجاب .. فعاد يسأله : إيه رأيك فيه ؟ .. فرد الرجل ببساطة :خائن !! لأنه كاتب حاجات غريبة !! الرئيس السادات سأل عن الكتاب كثيرا رغم أنه أساء تفسيره وذلك بسبب أنه لم يكن مهتما بما فى الكتاب ولكن بكونى أنا منسوب للمجموعة المحيطة بهيكل وأن نصائح بهيكل سيئة له (أى السادات) وسمعت أنه كان يقول: يا ريت محمد سيد احمد زى عبد الستار الطويلة .

والغريب أننى أصبحت مشهورا على المستوى العالمى خاصة أن الكتاب ترجم إلى ٦ لغات وفى مصر كنت أعانى من صعوبة النشر فى "الأهرام" .. وأيامها كان يوسف السباعى يتولى إدارة الأهرام ورغم العلاقات العائلية بيننا إلا انه كلمنى بصراحة "أنا ما أعرفش أنت بتكتب إيه بين السطور وأنا أخاف مما تكتب وأفضل انك ماتكتبش .. وأنا مسئول عن "الأهرام " وظلت الأمور تتدهور حتى جاءت اعتقالات سبتمبر ١٩٨١ ـ وشاءت الأقدار أن أخرج من مصر فى يوم فصلى من "الأهرام" مع عدد كبير من الصحفيين وتصادف أننى كنت وقتها أدليت بحديث " للصنداى تايمز"تشروه صفحة أولى .. ووصلت للخارج فى نفس اليوم .. ذهبت أولا لفرنسا .. ثم إلى أمريكا حيث كان مفروضا أن أحاضر هناك فى " مركز ولسون " عن السادات وفى يوم المحاضرة اغتيل السادات فتأجلت المحاضرة يوما آخر وكانوا مهتمين جدا بما أقول .. وخلال هذه الرحلة زرت ١٦ جامعة أمريكية وكنت أعيش من عائد محاضراتى يوما بيوم .. وأتذكر أن العرب الأمريكان هناك كانوا يهاجموننى بعنف بسبب الكتاب وأننى كتبته إرضاء للسادات ! وكان يدافع عنى الدكتور إدوارد سعيد وكان يحارب لحمايتى هناك ولكن بعد خروجى من مصر ووجودى هناك فى أمريكا والإعلان عن قوائم الاعتقالات وفصلى من عملى بدءوا يعتذرون عن موقفهم ويفتحون

مصر ووجودي هناك في أمريكا والإعلان عن قوائم الاعتقالات وفصلي من عملي بدأوا يعتذرون عن موقفهم ويفتحون قلوبهم بصورة جديدة.. ولكن بعد اغتيال السادات والإفراج عن المثقفين والكتاب عُدت لمصر.. ووجدت أن لدى الرئيس مبارك رؤية جديدة للاستفادة من المعارضة.

* أليس غريبا ويدعو للتساؤل أن المفكر الذي وضع نظرية السلام أو تنبأ أو مهد فكريا لسلام مع اسرائيل في منتصف السبعينيات يبدو وكأنه انتقل للمعسكر الآخر في نهاية التسعينيات؟.. وهل تستطيع أن تبدو بريئا من كوبنهاجن بينما يبدو وكأن لطفي الخولي هو المجرم الوحيد؟

** أنا لست ضد الحوار.. ولكني معترض على عملية كوبنهاجن.. لاحظ أن الكثيرين من الرافضين للسلام منطلقون من الاعتقاد بأن الحرب ممكنة ولكنها مؤجلة بسبب اختلال موازين القوة!! وأنهم لايريدون - برفض الحوار - الإساءة لمستقبل الحرب القادمة - ولكني أقول إن هذا تفكير لم يأت إلا بالهزيمة وإن شغلي الشاغل هو البحث عن صيغة سلام ليست باستسلام أو التخفيف من وطأة الاستسلام بشكل مهذب - وكثيرا ما أردد أن إسرائيل لن تكون مقبولة في المنطقة إلا بعد أن تثبت للعرب أن وجودها في المنطقة أفضل من غيابها.. وهذا الحد الأدنى المطلوب، ولكن هذا يتعارض مع أيديولوجية الشعب المختار.. ولذلك لابد أن تتنازل إسرائيل عن عنصريتها.. وكنت دائما أفرق بين موقف الدولة وموقف المثقف.. فالأخير يبحث في مصير المجتمع.. وأستطيع أن أقول أو اعترف بانني الذي بدأ كوبنهاجن وليس لطفي الخولي.. أنا الذي أطلقت العملية ثم بدأها آخرون.. وكان خطأي أنني تصرفت مثل السادات ولم أتصرف مثل عبدالناصر - فعبد الناصر قدم الصواريخ ثم قابل روجرز.. بينما أنا تقبلت مبادرة روجرز بدون صواريخ.. وهذا خطأ فريق كوبنهاجن.. تحاور مع الإسرائيليين بدون أن يلزمهم بشيء.. ومن الخطأ الحوار مع الإسرائيليين بدون شروط.. لقد أخضعونا لشروطهم لأنهم أرادوا الحوار بهذه الكيفية.. ثانيا أنا كمثقف لا أوقع ورقة مع إسرائيل، أنا أواصل الحوار معهم لمواصلة النقاش والخلاف ولكن ليس بغرض تصفية الخلاف فهذا مهمة الدولة - أنا أجتهد ولكن لا أقدم حلولا نهائية.

ليست هناك شيوعية مصرية

* الكاتب والمفكر محمد سيد أحمد طرح رؤيته ونقده لبعض المثقفين المصريين في اجتهادهم في قضية السلام - وتحديدا فريق كوبنهاجن. ولكن هل يحتاج محمد سيد أحمد نفسه إلى نوع من النقد الذاتي.. خاصة أن المثقف الذي استبدل الصراع مع إسرائيل بالاعتماد المتبادل أو المشاركة عاد في النهاية ليتشكك في (سلام أم سراب)؟

** شوف.. عندما كتبت (بعد أن تسكت المدافع) منذ عشرين عاما لا أستطيع الادعاء بأنني كنت أعرف إسرائيل كثيرا.. أنا لديّ شجاعة النقد الذاتي.. ولابد أن أعترف أن لديّ تربية خاصة أثرت فيّ ولعلها من العوامل التي تفسر لماذا كتبت هذا الكتاب ومنها انتمائي للأرستقراطية المصرية.. وعندما تنتمي للطبقات العليا فإنك قد تفتقد بعض المشاعر الساخنة جدا الموجودة لدى الشعب المصري.. وأزعم أنني أصبحت شيوعيا ليس بسبب حبي للفقراء ولكن بسبب ميولي العلمية، لن أصور نفسي بطلا.. وأدعي أمورا لم تخطر على بالي..كنت أعتقد أن الماركسية هي علم مستقبلي أيضا... بالنسبة لإسرائيل.. فقد كنت في مدرسة معظم تلاميذها يهود وهذا أثر في شبابي..فالوسط اليهودي في الأربعينيات كان مؤثرا.. وأزعم أنه لم يكن هناك أبدا حركة شيوعية مصرية.. بل حركة مرت بمرحلة يهودية وأخرى شيوعية.. طبعا هذا تبسيط مخل.. ولكنه يوفر زاوية تلفت النظر أنني يمكن كنت أسير أوضاع طبقات عليا بعيدة عن المشاعر الوطنية والقومية العميقة لدى الشعب، من ناحية أخرى.. فإن اليهودي كان مألوفا في حياتنا في الأربعينيات.. جيلك لم يعش هذه التجربة.. وهذه كلها عوامل تعكس البيئة التي أفرزت أفكاري أو لوثتها.وحتى إذا تشكلت هذه الأفكار في دوائر أخرى فإن للمؤثرات الاساسية عملها الذي لابد أن يمتلك المرء شجاعة الإشارة إليه.. وهذا نوع من النقد الذاتي.. ونحن لا نحتاج لكي نفش بعضنا البعض.. يعني كفاية تعقيدات اللعبة الموضوعية ولا داعي لادعاء صفات غير حقيقية.وحتى اليوم.. بعض الناس يقولون لي أنت لا تعرف إسرائيل.. وأنا لم أزرها.. ولن أزور إسرائيل إلا يوم أن أحصل على ترخيص بالزيارة من قوة جديرة باحترامي وتقديري.. ومؤخراً وقبل وفاته قلت للطفي الخولي.. أنا جربت أن أكون جنرالا بلا جيش وعشت سنوات بهذه الصبغة وعارف ثمن هذا.. وأنا شرعيتي من جيشي وهو المثقفون المصريون.. أنا لا أملك شرعية عندما أكون موضع تقدير إسرائيل ومدح أمريكا.. أنا شرعيتي أن أكون موضع تقدير ومناصرة من المثقف المصري العربي.. لذلك لما جيشي يرى أن ذهابي لإسرائيل مفيد أذهب – يعني أنا مش رافض للحوار أو زيارة إسرائيل من حيث المبدأ.. لكن في نفس الوقت لا أفعل ذلك بدون رضا الجيش.

كلنا سلفيون

* أنت أول من اخترع تعبير (ثقافة السلام).. وأنت أول من طلب منا أن نترك قليلا التشبث بالتاريخ ولا نجعله (المرجعية – أو المعيار) الذي نعيش به وأن ننظر للمستقبل وتداعياته ليصبح هو مقياسنا.. أنت بذلك تجعلنا ننسف (تاريخنا) على نمط (انسف حمامك القديم).. المتغير بديلا للثابت.. وتجعلنا ندخل المستقبل بدون ماض خلفنا.. هل هذا منطقي؟ وهل يستدعي المراجعة منك؟

** شوف.. لا.. أنا لا أقصد ذلك، لكن ما تقوله مهم.. لكن عيبنا هو السلفية.. كلنا سلفيون.. الماركسيون سلفيون.. والقوميون سلفيون.. كلنا عاجزون عن مواجهة تحديات المستقبل.. نحن بصدد عالم يختلف نوعيا فى هذه الفترة.. ينتقل من عالم كان يحمل فى طياته أسباب الرفض المتبادل.. كانت هناك أيديولوجيات تحكمنا فى العالم طوال نصف قرن: الرأسمالية والشيوعية.. اليوم سقط هذا التحكم كنمط.. أنا لا أقول إن التاريخ كان لابد أن يكون هكذا، وأزعم أن ما حدث كان يتوقع أن يكون الصراع صراع صواريخ.

العولمة شىء حقيقى.. والكوكب بات تكنولوجيا.. والإنسان باتت لديه أدوات جبارة للتحكم وإن كانت تفلت منه فى أوقات عديدة.. ولذلك لم يعد الصراع ممكنا كما كان حادثا من قبل دون أن يعرض البشرية للفناء.. العولمة تفرض علينا أوضاعا جديدة لا نملك نحوها أن نكون سلفيين، ولا نستطيع أن نواكب متطلبات هذا العالم الخطير بنظرة سلفية، ولكن أشير إلى أننى لا أقصد بذلك التخلى عن الهوية.. لأن كل واحد لازم ينطلق من موضعه الخاص إلى العولمة.. العولمة التى فرضت نفسها علينا ليست عولمتنا.. إنها عولمة الاستعمار.. إنها عالم أحادى القطبية.. حلف الأطلنطى هو الذى يقود اليوم الحرب فى كوسوفا وليس مجلس الأمن.. ورغم ذلك لا مفر من العولمة.. وما نطمح إليه هو عولمة الشعوب.. بديلا لعولمة الاقوياء.. وعولمة الشعوب تعنى تلبية الرغبات المشروعة لكل الشعوب.. أى تلبية متطلبات الهوية.

* يخشى البعض أن يكون القبول فى منتدى المستقبل العالمى مرهونا بالتخلص من حساسية يراها هذا البعض (مفرطة) تجاه ما حدث بالأمس؟

** هذا كلام مهم - إحنا كلنا نصمد فى مواجهة المستقبل بالاستناد إلى التاريخ لكن عايز أقول إننا - سواء أردنا أو لم نرد - أصبحنا موضع هويتين: هويتنا التى تنبع من موقعنا فى الدنيا حيث التربية والحضارة والتاريخ والأرض.. ولكن هناك هوية ثانية مصنوعة بالثورة الإعلامية.. هوية مصنوعة بسبب اختفاء الزمان والمكان.. لم يعد هناك فاصل بينى وبين ما يحدث فى أى مكان فى العالم وهذا يعنى أننى مطبوع بهوية أخرى شئت أم رفضت، وهذا نوع من التمزق.. أو سبب لتمزقات عديدة نعيشها فى عالمنا.. لكنها من المعطيات الجديدة التى ستزداد وطأة علينا.. لذلك أعود للتعليق على سؤالك بأننى لم أقصد إطلاقا أننا إما أن نختار هويتنا التاريخية أو هوية المستقبل.. لا..المعضلة أنك لا مفر من أن تصبح هذا وذاك فى وقت واحد، وكيف تجمع بين الاثنين بدون اضطراب.. كمواطن وكمجتمع.

نحن فى حاجة لاكتوبر

* أنت تؤسس فكريا للعلاقات والحوار العربى - الإسرائيلى.. وتفلسف طبيعة المستقبل بينهما وأن الاعتماد والتعايش معا لا مفر منه.. من هو جمهورك.. خاصة يبدو أحيانا وكأن

أحاديث السلام في جانب والناس في الشارع في جانب آخر.. مازال عقل الناس وعواطفهم - كما يبدو أحيانا - خارج الموضوع.. ألا يقلق ذلك طمأنينتك الفكرية؟

** السؤال له وجاهته ويستدعي التفكير.. ولكن أزعم أنه قريبا جدا سوف يعاني الناس من العطش.. نحن مقبلون على مرحلة ندرة في المياه.. وهذه المنطقة ستكون ضحية لتلك الحالة.. ووقتها ستظل أهمية رؤيتي.محور أو بؤرة التحدي القادم سننتقل من الأرض إلى المياه وهذه بؤرة خطيرة لأن الأرض ثابتة ولكن المياه تتحرك وعبر سيادة دول وتختفي تحت الأرض ثم تطل من السماء.. السيادة والهوية على الأرض مقننة لكن المياه مراوغة.. اليوم إذا كانت إسرائيل سوف تسيطر على مصادر تحلية المياه خلال العشر سنوات القادمة وهذا هو طموحها وقد بدأته فعلا.. فمعنى ذلك أن الصراع سيزداد حدة وإدارته في تقديري لن تكون بالوسائل القديمة ولا أعتقد أنه سوف تتاح لنا (أكتوبر) أخرى في صورة حرب.. ولكن بلا شك نحن في حاجة إلى (أكتوبر) آخر يعالج الأسئلة المطروحة.. مثلا إذا استطعنا تحقيق مشروع للمياه يفرض على إسرائيل احترامنا كقضية تفاوض حول المستقبل، ببساطة إسرائيل لا ترى أننا قادرون على مناوءتها.. أو مناطحتها.. لا مستقبل لنا مع إسرائيل ما لم نوقف تخلفنا ونقفز إلى التقدم الذي يعيشه العالم.. لقد ضاعت منا فرص كثيرة.. وما كان يعتبر نعمة تحول إلى نقمة.. كانت هناك النعمة البترولية ولكننا نسينا أنها ثروة مالية ولم تكن تقدما ماديا.. كنا دائما نعاني من الاسترخاء بينما إسرائيل كانت في استنفار دائم بسبب استثمارها لتاريخها.. ولهذا السبب عشنا في مراحل كثيرة ونحن نعتقد أننا منتصرون - ولم نكن كذلك - لكن بالتأكيد أن إسرائيل كانت هي المنتصرة.

مشمش في الزمالك

* عندما يتذكر محمد سيد أحمد بعض ملامح حياته.. تمر على وجهه ابتسامة خجل جميل.. وكأنه يعتذر عما لم يقصد.. ورغم معرفتي بالإغراءات التي تتم معه هذه الأيام لكتابة مذكراته.. ومعرفتي أيضا بمأزقه الإنساني بين صدقه الفكري والنفسي ورغبته في تذكر الحقائق.. وحرصه في نفس الوقت على مشاعر أصدقاء في رحلة الزمن مما وضع أمامه علامة استفهام مازال يبحث لها عن إجابة.. إلا أن إيقاع غرفة الصالون التي جلسنا فيها خلال اللقاء الثاني.. واللوحات الزيتية الموزعة على الجدران.. والستائر الكثيفة على النوافذ المرتفعة.. ورائحة أرستقراطية عريقة تعبق بالذاكرة.. وابتسامة طفولية ترتسم.. كلها ساهمت كي نتجه قليلا إلى مساحة أكثر إنسانية.. خاصة تجاه الأب:

** والدي كان يعيش في (فيلا) متسعة بحديقة تبدو هذه الشقة بجوارها متواضعة.. إنها الآن المدرسة الألمانية بالزمالك.. لقد بيعت هذه الفيلا بسعر بخس بعد اختفائي بسبب اعتقالي

الشيوعية.. وشقيقتي خُطبت آنذاك لشيوعي آخر.وأخي الصغير ذو الخمسة عشر عاما قُبض عليه بسبب هذا الزحام الغريب.. ولجأ والدي لرئيس الوزراء آنذاك «إبراهيم عبدالهادي» الذي نصحه بأن أسافر للخارج للدراسة والابتعاد عن مصر.. وكان الكلام على أن أسافر إلى لندن.. ولكن بدلا من ذلك ذهبت لباريس وأعطوني مبلغا كبيرا من المال بغرض أن أنشغل بمباهج أوروبا عن أفكار وأيديولوجيات أقلقت الجميع.. فما كان مني إلا أن أخذت المال وتبرعت به للحزب الشيوعي الفرنسي وتبقى معي مبلغ ضئيل من المال أحاول به الحصول على غرفة أعلى إحدى بنايات باريس عشت فيها أعاني من البرد والجوع لمدة شهرين في نهاية عام ١٩٤٩.. وأيامها انعقد في باريس المؤتمر العالمي للسلام.. وجاء إلى باريس إسماعيل صبري عبدالله وكان زعيم التقدميين المصريين، فأخبرته بنيتي للعودة إلى مصر.. ولكنه طلب مني أن أتحدث باسم الشيوعيين المصريين أمام المؤتمر.. وبالفعل تكلمت في الجلسة الافتتاحية.. وبعد انتهاء المؤتمر عدت إلى مصر وكان اسمي ضمن القائمة السوداء.. ولكنني استفدت من البيروقراطية المصرية.. فقد كانت في المطار قائمة مكتظة بالأسماء المنتظرة وحدث تداخل بين اسمي وصفة الاسم التالي لي وكان تاجرا.. وفي الجوازات نظر إلى الضابط ولم يقتنع بأن أكون شابا في العشرين وقادما من باريس (تاجر)!! فسمح لي بالعبور!

أتذكر أنني لم أعد إلى منزلنا بل ذهبت مباشرة إلى الحزب الذي كان منافسوه يسمونه «مشمش» وكان تنظيما صارما.. وهناك قرروا أن أذهب إلى شقة أعيش فيها ولا أخرج منها أبدا.. وأحضر اثنان وتم إعلان زواجهما على الورق فقط لكي يكونا تغطية لوجودي أمام سكان العمارة.

يهمني في ذلك السياق (والدي) عباس باشا سيد أحمد.. كنت أنظر إليه مندهشا.. فأنا من سلالة باشوات تمتد إلى محمد على الكبير وعلى ما أتذكر.. أن هناك حالتين فقط بهذا الشكل أسرتنا إحداها (مش أنا) لذلك لك أن تتخيل حجم ما عاناه والدي بسبب اتجاه ابنه الأكبر هذه الوجهة.. وشقتي هذه التي أعيش فيها الآن.. وقد ورثتها عن والدي شهدت الاجتماع الوحيد في تاريخ مصر لتحقيق ما سُمي بـ (وحدة كل الشيوعيين) طبعا مفارقة أن شقة الباشا تكون بهذا الدور.. وكان الاختيار يستهدف البعد عن مواطن الشبهات.. فلم يكن سيأتي في فكر أي بوليس أن تكون الزمالك – حي أرستقراطي – ومنزل الباشا مقرا لمثل هذا الاجتماع الذي قد لا يعرف ظروفه الكثيرون وكان ذلك يوم ٩ يناير عام ١٩٥٨.

*** أعرف أنك متعدد المواهب.. دارس للرياضيات والهندسة وتكتب بالفرنسية ببلاغة.. هل للتفوق المبكر علاقة أو تأثير على رحلتك السياسية؟**

** أنا كنت في المدرسة طالبا فوق التصور – يعني مش عاوز أبالغ – لكن الحقيقة أنني لم أكن (الأول) على الفصل إنما (الأول) في كل علم على حدة!! وظللت سنوات وسنوات على هذا

التفوق.. وكنت أتقدم للحصول على اثنين بكالوريا فى نفس العام: واحدة مصرى.. والأخرى فرنسي.. وأطلع (الأول فى البكالوريا الفرنسي والرابع فى البكالوريا المصرى فى نفس العام!!.. لقد كنت من القلائل الذين وصلوا إلى باب برمنجهام (أحد أكبر كليات الهندسة) فى العالم ثم أترك الكلية وأعود إلى مصر!!.. كنت قادرا على إعداد العشرات من رسائل الدكتوراه فى ظل نبوغ لفت الأنظار.. توفر لى كل شيء فى لحظة لم أقصدها.. والد بهذا الثراء.. وأم ذات دماء زرقاء عريقة.. فقد كانت من أسرة معروفة أرستقراطية بالرغم من إفلاسها فى بداية القرن.. كانت أمى أكثر عراقة من والدى الذى حصل على الأرض واللقب من خلال جده الذى ملكه محمد على باشا الكبير الأرض مثل بعض المصريين فى القرن الماضى كوظيفة اجتماعية.. ومن القصص التى توارثناها أن هذا الجد كان مشاغبا.. فأعجب ذلك محمد على باشا لأنه وجده يخرج عن المألوف.. فضاعف له حجم إقطاعيته، ابن هذا الجد أصبح قاضيا وكان يقضى نصف العام فى باريس والنصف الآخر في مصر – هذا الجد مات وابنه (والدى) عمره ٣ سنوات أى لم يره – شقيقة أبى الكبرى والوحيدة.. تزوجت إسماعيل باشا صدقى، وكانت هناك صلة قرابة تربطنا بإسماعيل صدقى الذى لم يكن اسمه الحقيقي (صدقى) بل شكرى.. فالعائلة كده غريبة تعرف أنا أشعر بالخجل وأنا أقول هذا الكلام.. لكن إنت بتورطنى فى حاجات غريبة.

اللقاء مع أنور عبدالملك

* من الأشياء التى تستهوى السؤال هو كيف توفر لك مثل هذا الوضع الطبقى ثم هذه الحالة العلمية المتفوقة.. ثم بعد ذلك يتم اجتذابك لأكثر الأيديولوجيات الفكرية تطرفا وشبهة خاصة فى الأربعينيات؟

** المعلم الفرنسى فى المدرسة والذى كان يساعدنى فى الإعداد للبكالوريا (الفرنسى) لعب دورا هاما فى ذلك.. فقد كان شيوعيا وكان يقوم بتدريس الأدب الفرنسى ثم درّس لى المنهج الماركسى ثم بعد ذلك درسنا الفلسفة.. يضاف إلى ذلك أننى أسير لفكرة المعرفة.. كان لدى فضول معرفي عميق فاجتزت الطريق بسرعة.. وأتذكر أننى جعلت من الماركسية موضة أولاد الأغنياء آنذاك!! وكان التقليد ملحوظا!!، لكن أكرر أنه فى حالتى أنا كنت أبحث عن الاتساق العلمي..كنت مشغوفا للتفتح على العلم والإدراك..وكان لدى إحساس بأننى وُلدت في الموقع الخطأ.. وكان هذا هو السبب وراء القسوة التى عاملت بها أهلى.. كنت أذوب حبا لوالدى وخاصة أمى ورغم ذلك اختفيت داخل مصر دون أن يعلموا مكانى.. ظللت مختفيا منذ عام ٤٨ ثم ذهبت إلى باريس وعدت لأواصل الاختفاءحتى تم القبض علىّ بعد حريق القاهرة.. ولو عدت لسؤالك حول كيفية جذبي.. فإننى أعود لأستاذ فرنسى آخر كان يتميز ببعض الاندفاع نصحنى ذات مرة قائلا:

شريف، فيه حاجة اسمها مركز الأبحاث العلمية ـ وكان غطاء علنيا لأنشطة شيوعية فى شارع لاظوغلى ـ اذهب لهناك فستجد أنشطة تهمك!! بالفعل أخذت دراجتى لأننى كنت أخجل من ركوب سيارتنا ـ وذهبت لهناك..رفضوا دخولى وشكوا فى.. (الجدع ده جاى منين ولكن شاءت الصدف أن شاهدنى أحد أصدقاء أستاذى الفرنسي.. فقال اتركوه يدخل ونظر إلىّ وقال: أنا كنت عارف إنك هتصل هنا فى يوم من الأيام!! وإن هذا الشخص هو الدكتور أنور عبدالملك المفكر المعروف والكاتب بالأهرام اليوم والحائز على جائزة الدولة التقديرية العام الماضى ـ عدت بعد هذه الزيارة لأستاذ الأدب الفرنسي الآخر وكان اسمه (جرينيه) وأخبرته بما حدث.. فلم يكن سعيدا.. وقال لى أشعر بأننى سببت لك متاعب قادمة.. بس مش عارف أعمل إيه.. شايفك تسير فى اتجاه ومنفتح عليه وأنا عاجز عن أن أمنعك.. هذا وسط سياسى واجتماعى بعيد تماما عنك وعن ظروفك الاجتماعية.. المهم أننى دخلت عالما مختلفا كنت أعود لمنزلى وأنا أفكر فى المقاييس الاجتماعية تفصل بين رائحة الزهور فى شارعنا.. والغبار فى (وش) مركز الأبحاث العلمية.. كانت المسائل ملتهبة فى ذهنى أعوام ٤٦ و٤٧ و٤٨.. وكلما تذكرت تلك السنوات أبتسم.

* وهل تبتسم عندما تتذكر الباشا عباس سيد أحمد؟

** عندما أتذكره يندفع لذاكرتى حجم المفاجأة التى عاش فيها.. فقد وصلته خطابات من البوليس غير موقعة تلفت نظره نحو ابنه الأكبر (أنا) ـ تكلم معي بصراحة وقال لى سأصدق كلامك أنت.. فنفيت أى شيء!!

وذهبت مسرعا لأخبر أعضاء التنظيم الذين رأوا أن ينظمونى فى خلايا سرية.. وأن أبتعد عن العلنية واستمر هذا الوضع حتى تم القبض علىّ فى عام ٤٩ ومن القصص الطريفة أن أبى كان من الصعب عليه أن يزورونى فى السجن.. فقد كان محافظا للقاهرة.. ومحافظا لبورسعيد وعضو برلمان.. لم يلتق بى سوى مرة واحدة لسؤالى: إنت بعد السجن هتعمل إيه.. هترجع الكلية؟ يقصد كلية الهندسة؟ فأجبته: سوف أسأل الحزب!! واحتياطى أنا عاوز شقة بعيدا عن منزلنا.. وبالفعل استأجر لى شقة على النيل بجوار متحف قصر محمد على فى المنيل على أساس أنها منطقة شعبية تناسب أفكارى!!! ولكن جاء حريق القاهرة فذهب وكيل وزارة الداخلية لوالدى.. الذى طلب منه أن أظل فى السجن حتى تهدأ الأمور.. طبعا لم يخبرنا بذلك.. لكن وكيل الوزارة أخبر رئيس الوزارة بذلك وكان نجيب باشا الهلالى الذى حكى الواقعة على الغداء فنقلها للحزب ابنه نبيل الهلال (المحامى).. فتقرر فى الحزب أن اقاطع والدى على أساس أن هذا وسيلة للضغط عليه وفى نفس الوقت كى يرسل أوراقى مرة أخرى للكلية حتى لا أخرج من السجن فيتم تجنيدى فى الجيش!! وبالفعل عادت أوراقى للكلية وسرعان ما قامت ثورة يوليو وكان والدى وقتها فى أوروبا.. وأطلق سراحنا وإن كنت لم أخرج فى نفس اليوم بسبب أوراقى.

* هذا الملمح الإنسانى يوفر لنا مدخلا طبيعيا لقراءة بعض ملامح جيلك ليس حبا فى الوقوف عند شاطئ الذكريات الذى بات ظاهرة فى حياتنا هذه الأيام.. ولكن بسبب أن جيلك مازال فى مقدمة المسرح حتى اليوم.. وكأنه مكتوب على مصر أن تعيش فى معطف الخمسينيات وهى تدخل القرن الواحد والعشرين؟

** شوف.. لدى رؤية نظرية تحل جزءا كبيراً من إشكالية سؤالك وهى أن يكون هناك جيل يهيمن على أجيال أخرى دائما.. إنه الجيل الذى يكون قد عاش أحداثا كبرى.. يعنى جيل الحرب العالمية الثانية فى أوروبا هو الجيل الذى حكم أوروبا أكثر من ٤٠ سنة بعد ذلك، من ديجول إلى تشرشل، إنه الجيل الذى حكم أجيالا تالية من الشباب نمت وتركزت فى ظله.. إذن فالأحداث تصنع الأجيال.. فيظل جيل يحكم حتى تأتى الأحداث بجيل آخر.. وبدون أحداث كبرى فإن الأجيال المتتابعة تظل خاضعة لجيل مميز.

وبصراحة فإن الجيل المميز ليس جيلى.. ليس جيل الحرب العالمية الثانية.. لأن هذه الحرب لم تكن حدثا استثنائيا فى مصر.. لكن الحدث الجديد كان عبدالناصر وثورة ٢٣ يوليو.. وجيل ثورة يوليو هو الذى يحكم مصر بعد الحرب العالمية الثانية.. هذا الجيل يحكم حتى اليوم بالرغم من أن كل السياسات تغيرت من النقيض إلى النقيض تقريبا ونفس رجال الجيل هم الذين يقودون السفينة وليس مطروحا بديل لهذا الجيل حتى اليوم ولكن المسألة أن هذا الجيل ينقرض بحكم البيولوجيا، بحكم الموت، فما هو المصير؟ هذه نقطة.. نقطة أخرى.. أن الجيل الذى سبق ٢٣ يوليو تميز بأنه كان على مستوى العالم وليس على مستوى مصر.

* كيف تقيِّم علاقة جيلك طبقا لهذه الرؤية بجيل ثورة يوليو؟

** بداية.. فإن جيلى فشل.. وحتى أكون دقيقا.. فإنى سأركز الكلام على اليسار المصرى الذى كنت أنتمى إليه وأقول إن الفشل كان مصيرنا لأن الشيوعية فى مصر لم تنشأ من الحركة العمالية.. بل من يهود معينين من الطبقة المتوسطة وأفراد من الأرستقراطية المصرية.. وأقول بصراحة إنه ليس صدفة تجنيد أمثالنا فى الحركة الشيوعية مثلى ومثل نبيل الهلالى.. فكلنا نتذكر نهاية الثلاثينيات ووجود جالية يهودية مهمة فى مصر وكيف خرج منها مثقفون - وبعيدا عن التفسير التآمرى لأننى أؤمن بأن التاريخ يسبق المؤامرة - أقول إن هؤلاء اليهود كانوا قد بدأوا يسمعون بموقف النظم الفاشية والنازية والتى ضمها المحورتجاه اليهود وبدأت أخبار معسكرات الإبادة تتناقل وتتحرك ببطء.. ثم يصل روميل إلى الأبواب فى العلمين والخطوة التالية من الطبيعى أنه فى حالة انتصار الألمان كانت أقرب.. فى هذه الظروف فإن السؤال: ما هى الأيديولوجية التى لو انتشرت فى مصر تعطي حماية للطائفة اليهودية؟ إنها الشيوعية..! إذن فهؤلاء أناس ليس لهم صلة علي الإطلاق بالعمال أو الطبقات المحتاجة لكنهم يبحثون عن حماية على الأقل فى هذا الظرف.. لو عملوا صهاينة لن يحصلوا على عطف أحد

لكن كشيوعيين ممكن!! وظهر ذلك التناقض صراحة فى حرب فلسطين عندما أطل السؤال: إنت فين؟ هنا أم هناك؟ فحدث الانفجار.. إذن حرب فلسطين أعطت البعد القومى للحركة الوطنية وبادر الجيش وأمسك بزمام المبادرة.

* إذن غربة هذا المشروع.. يمكن أن تفسر انتصار المشروع الدينى.. التراثى فى الشارع المصري، بعد ذلك؟ ومن ناحية أخرى تستدعى إعادة نظر الكثيرين من جيلك قد تصل لحد الأسف؟

** هذا سؤال بالغ الأهمية.. ولكن بداية أقول إن فيه تبسيطا شديدا للأمور.. حركة التاريخ لا تسير فى خط مستقيم أو أنها دائما للأمام.. لا.. المخرجات حصيلتها خط ما.. لكننا دائما نعيش جزءا فقط من هذه المنعرجات فنعتقد أننا عند هذه النقطة فقط.

نقطة أخرى أن هناك مصالح فرضت نفسها بنفسها ليس بدافع التآمر ولكن بغرض المصالح.. اليهود امتطوا ظهر اليسار الشيوعى بسبب ظروف تاريخية معينة.. اليوم انهارت الشيوعية فعلا فى القرن العشرين.

* أنت كنموذج لمثقف من الجيل الذى نتحدث عنه.. أين يكمن الندم الذى تشعر به؟

** أنا لا أشعر بالندم.. لأنه طالما أن الخطأ نتاج فكرى وأننى لم أتخل عن نفسى فلا أعتبر نفسى مخطئا.. أنا كنت دائما مستقيما مع نفسى.. أخطائى موضوعية.. برجاء أن تراعى ذلك.. الاستقامة مع النفس هى الجوهر.. وأنا كنت حريصا على ذلك..أخطأت موضوعيا لأننى كنت أسير حركة غزت العالم كله.. العالم المتخلف - كما أدركت فيما بعد ما كان يجب أن يكون سببا للثورة فى العالم المتقدم.فترتب على ذلك مصائب فى مقدمتها انقسام العالم إلى كتلتين.. وبدلا من أن يصبح العالم طبقة ضد طبقة أصبح صاروخا ضد صاروخ أى أن الطرفين نظيران وليسا متضادين، والقرن العشرون انهار بسبب تدمير جوهر الأمور فى حركة التاريخ وأنا لا أتحمل ذلك وحدى.

ياسين سراج الدين

باشــوات وفلاحـــون

رجل وامرأة وبينهما التاريخ

هذا المعنى فرض نفسه على حوار بالغ الدقة والرقة مع ياسين سراج الدين (٧٤ عاماً .. أصغر عضو برلماني عام ١٩٥٠ .. الرجل الثاني في حزب الوفد .. شقيق الباشا فؤاد سراج الدين رئيس الوفد .. رئيس الهيئة البرلمانية للحزب في مجلس الشعب اليوم) .

حوار كان تجربة خصبة وخاصة .. فهو رجل شديد المودة .. شديد الترحاب يوحي لكل ما حوله بالدفء الإنساني .. وحتى عندما فرض الماضي بظلاله على حديث يستهدف المستقبل كنت أستشعر أن جيلي قد ينظر لما سيقال بتأمل لايصل لدرجة الاقتناع .. وبابتسامة لاتخلو من تفهم لايرتقي إلى درجة الاقتناع وتقدير للأمس لايصل إلى مستوى الفيبوية عن الحاضر واحترام للتاريخ يصل بالمعرفة والمعايشة إلى اليقين بأن مصر تغيرت كثيراً .

كانت مصر التي في خاطري مختلفة عن تلك التي يتذكرها الأستاذ ياسين سراج الدين الذي ظللت طوال الحوار أحس بدفء وصدق إحساسه حتى لو اختلف عقلي مع بعض مايطرحه .. وساهم وجود السيدة زوجته في تقديم أبعاد جديدة للحوار .. مدى إنساني .. ورؤية بين جيلين.. أو حقيقة حياتية بين رجل .. وامرأة، من ناحية أخرى كنت أتساءل داخلي: هل الحنين للماضي يعوقنا عن القراءة الدقيقة للمستقبل ؟ السؤال صعب .. فالحنين حاجة إنسانية وقراءة المستقبل ضرورة حياتية .

وهل حياتنا المعاصرة تنتمي للماضي أكثر أو للمستقبل بصورة أكبر ؟

سؤال أكثر صعوبة .. ونراه في حياتنا السياسية على سبيل المثال .. أحزاب تمسك بضوء أشعله رجال مخلصون منذ أوائل القرن الحالي .. رجال ما زالوا يقودون قطاراً تغيَّر ركابه واحتل عرباته مسافرون جدد .. بل تغيرت خطوط سيره أكثر من مرة ولكن مازالوا يقودونه .. أكثر أحلامهم حضوراً تنتمي لذكريات تبدو بعيدة على ملايين من الشباب ولدوا في نهاية قرن استجدت عليه أسئلة لم يجدوا إجاباتها .. فلم تعد الذكريات تسمح بالتأمل أو العبرة .. ولم تعد الحقائق تشفي الغليل .. زمن آخر .. تتطلب بدايته ترويض الحنين حتى نرى بصورة أفضل.

وفى هذا الحوار ورغم الانحياز الذى أحمله للفصحى .. إلا أن اللغة الدارجة التى انسابت وياسين سراج الدين يتحدث كانت تحمل رائحة خاصة حرصت عليها .. وبنفس الحرص كانت هناك أسئلة عديدة سماعها أكثر جاذبية من كتابتها فتركت مكانها علامة استفهام تفى بالغرض ! وأسئلة أخرى عديدة حرصت على حذفها والاكتفاء بالإجابة أو التعليق لأن الحوار بتدفقه كان أفضل .. وأسئلة ثالثة حررتها من خصوصية الجلسة لتحمل عمومية الفكرة .. وفى كل الحالات كان الحوار خاصاً .. ودافئاً .. ومعبراً .

لم يترك لى الأستاذ ياسين سراج الدين نقطة البداية .. بل اختارها هو عندما قرر أنه من الفلاحين .. وقرر أنه ليس من الإقطاعيين وأنه مازال يحن لمسقط رأسه كفر الجرايدة مركز بيلا بمحافظة كفر الشيخ .. وكان موقفاً متوهجاً وهو يرغب فى تصحيح بعض مايراه غير دقيق: كنا من أصحاب الأملاك الكبيرة .. وأتذكر أننى ناقشت واحداً من هؤلاء الذين وصفونا بالإقطاع قلت له .. أنت لازم تفهم الإقطاع بحقيقته .. الإقطاع معناه أمراء أصحاب الملك ولهم ولايات وجيوش ومحاكم خاصة وقوانين خاصة .. ويملكون الأرض ومن عليها .. وكان الإقطاعى يدخل بالعروس فى ليلة دخلتها وبدون ذلك لايشعر أنه نال الشرف !! أما نحن فنسمى بأصحاب ملاك.. وقلت فى مجلس الشعب .. إن جدى لم يكن بهذا الثراء .. لكن بجهده وعرقه استطعنا أن نجعل من شمال الدلتا أرضاً خصبة .. ووالدى سراج الدين باشا وأبونا باشا .. واسم سراج الدين يتكرر فى كل جيل . أنا أتكلم أربع لغات وحاصل على ليسانس فى القوانين المصرية ودراسات عليا فى القانون العام .. ولكن كنت أذهب إلى (الغيط) وأنا (لابس) جلابية مثل الفلاحين وده كان اللبس الرسمى بتاعنا .. كان الواحد ينزل الصبح ويرجع الساعة السابعة موحل من التراب .. وأيامها كنا نشرف على جمع القطن .. أو محاربة الدودة .. وبتربية الماشية .. وأتذكر أن وقتها كان كل فلاح يمكن أن أتغذى عنده .. وكان الفلاح يحلف بالطلاق علشان أتغذى عنده .. فكنت أضطر .. وأتغدى .. وأتغذى كويس .. يعنى يجيب لك مشلتت وعسل وقشطة .

حركة ٢٣ يوليو

واستمر ياسين سراج الدين فى تدفق الحنين : مش قادر أنسى الخضرة الجميلة والهواء النقى وهو ما نفتقده .. أنا عايش اليوم على النيل فى أرقى مكان فى مصر لكن أين رائحة الأشجار .. وأين لون القمح .. طبعاً الدنيا تغيرت لم أعد أذهب لبلدنا، صحتى لم تعد تساعدنى على السفر .. وإذا سافرت للعزاء أعود فى نفس اليوم .. لأن كمان مفيش مكان .. السراى بتاعتنا أخذوها واتهدت واتعملت مدارس وإحنا سعداء أن البلد بتتقدم .. إحنا أكثر ناس طحنتنا الثورة وسحقتنا .. مخلوش عندنا حاجة .. الأطيان إللى إحنا عملناها أخذوها .

لم أرغب فى قطع لذة الذكريات لأن الحنين عامة مسألة إنسانية ولم أرغب فى مناقشته هل كان فى مصر إقطاع أم فقط كبار ملاك فى ثياب ملائكة .. فهذه مسألة تجاوزها الزمن وأصبحت جزءاً من ملفاته .. ولم أشعر برغبة فى بث القلق فى جلسة رقيقة فى الدور الثانى من منزل ياسين سراج الدين بجوار منزل الرئيس الراحل السادات وأمامنا نيل القاهرة .. الصامت الصابر الجميل .. ولكنى كنت شغوفاً بأن تنضم للحوار زوجة ياسين سراج الدين .. السيدة عواطف .. فقد كانت تجلس تستمع بإصرار الذى يرغب فى إعطاء الذكرى سنداً من الأيام .. نعم .. فهى من جيل الثمانينيات تخرجت من قسم التاريخ بآداب القاهرة عام ١٩٨٠ .. وكانت مشاركتها بالتالى تحمل أكثر من معنى وأكثر من سبب للجاذبية .. انضمت السيدة عواطف للحوار .. وواصل ياسين سراج الدين حواره وكأنه يجيب عن أسئلة فى الذهن قبل أن يترجمها اللسان :

شوف سيبك من صورة الأفلام بأن الباشوات كان بيضربوا الفلاحين بالكرابيج كل هذا غير صحيح، كنا لانستطيع العيش بدون الفلاحين ليه ؟ .. مين كان يمسك الفاس ويزرع ؟ .. إذن أنا أعتبر الفلاح من ضمن الأدوات التى أستطيع بها زراعة آلاف الأفدنة .. ولذلك الفلاح إللى كان يمرض كنا ندخله المستشفى .. ماتت جاموسته نشترى له جاموسة .. بيتزوج نهديه بفلوس علشان يعمل فرح كويس .. لكن لما يكون فلاح حرامى نعاقبه .. ممكن أكون ضربت فلاح لكن مش بكرابيج .. لكن هذا لايمنع إن كان فيه واحد مثل الأمير يوسف كمال كانت تصرفاته إقطاعية فى آلاف الأفدنة .. وكان فيه تصرفات من الفلاحين لا ذنب لنا فيها يعنى. لما أكون راكب عربيتى .. وكنوع من الأدب والاهتمام نجد أن الفلاح نزل بنفسه عن الحمار لغاية العربية ما تمر .. هوه أنا قلت له تنزل عن الحمار؟ .. بصدق .. صدقتنى ..

* إيه رأيك يامدام (موجهاً السؤال إلى السيدة عواطف) ؟ متفقة مع رئيس الهيئة الوفدية فى إيه ومختلفة فى إيه ؟

** أيوه كويس .. خليها تشترك .. هى تعد الماجستير فى التاريخ الحديث .. كان أستاذها د. صلاح العقاد ثم الدكتور عبدالعظيم رمضان .. وحالياً الدكتور يونان لبيب رزق - كما تدرس حقوق .. فهى فى السنة الرابعة ..

** السيدة عواطف : متفقة معاه فى كل حاجة .. وإللى بيقوله ياسين بيه صحيح .. كان علاقتهم بالفلاحين علاقة طيبة .. كان فيه فلاحين بيزرعوا الأرض ويطلعوا خير .. الثورة دى قضت على الفلاحين يعنى مبقاش فيه فلاحين (!!!) قضوا على القرية إللى كانت بتوفر للمدينة كل حاجة وللمجتمع كل متطلباته .

* هل تنتمين أنت أيضاً - مثل الأستاذ ياسين - لعائلة من كبار الملاك وعشت هذه التجربة ؟

** لا .. أنا عمى لواء وأبى كان وكيل وزارة وأنا منتمية للطبقة المتوسطة ولست منحازة له ولا حاجة .. والدى مع طبقتهم تماماً .. ووالدى كان بيقول كل الكلام إللى إتقال ضد باشوات زمان غلط .. والدى كان بيتكلم صح وبيقول ياريت تعود أيامهم .

* كان مصدر معلوماتك الأستاذ ياسين أو والدك .. أو كيف كونت وجهة نظرك ؟

** أنا أولاً تزوجت ياسين بيه عام ٨٤ .. معلوماتى كانت دائماً صح لأنى درست تاريخ حديث وأساتذتى صلاح العقاد وعبدالعظيم رمضان علمونى صح .. الدكتور عبدالعظيم رمضان كون شخصيتى .. وهو رجل يسارى .. والدكتور صلاح العقاد وهو رجل ليبرالى .. وكنت تلميذة فى الماجستير عند د. عبدالعظيم رمضان .

* وماذا عن تكوينك الفكرى .. وماذا عن ارتباطك الاجتماعى كيف تم ؟ كيف تم زواجك من الأستاذ ياسين سراج الدين ؟

** كان التاريخ هو السبب أيضاً .. كنت بأعمل بحث عن حزب الوفد .. وتزوجته .. وأعتقد أننى كنت فاهمة صح .. وجيلى لما يفهم صح أو تصله معلومة صح سوف يرى الماضى صح .. أنا تزوجت ياسين بيه وأنا مؤمنة بهم وكان لى شرف الفوز بموعد مع فؤاد باشا سراج الدين علشان أعمل بحثى .. ولذلك لما تقدم ياسين بيه قبلت الزواج به بدافع وطنى أولاً .

قصة زواج

ياسين سراج الدين : (ضاحكاً من قلبه) .. رغم أننى عجوز .

* يا مدام .. بمناسبة التاريخ والزواج .. ألم تشعرى بتناقض بينك ـ بنت الطبقة المتوسطة .. وبين ابن الباشا .. فى البيت يعنى .. فى الحياة ؟

** إطلاقاً .. هوه إنسان بسيط جداً .. ويرتبط بنا .. وبأسرتى جداً ..

** ياسين سراج الدين : شوف .. اسمحوا لى أتدخل .. فقد طرحت عليها الزواج ولذلك قصة .. أولها شعورى بأنها لم تعان من الانبهار ليس من منزلى بل بقصر جاردن سيتى ـ أعظم قصر فى مصر ـ ويعيش فيه فؤاد سراج الدين الآن .. لم تكن مبهورة بأنها ستقابل فؤاد سراج الدين والذى اضطررت لمقابلتها بدلاً منه بعد أن قال لى عبدالعظيم رمضان إن الباشا أعطاها ميعاد وسافر إلى الإسكندرية فأرجوك أن تحدد لها موعداً لتحصل على المعلومات التى تحتاجها عن الوفد.. خرجت من اجتماع لمقابلتها فوجدتها تقف فى شموخ .. وباحترام لشخصيتها .

* هل سبب عدم القلق أنها نشأت فى ظروف لم تسمع فيها عن الباشا فلما عاد .. لم تستشعر شيئاً جديداً مثلها كأبناء جيلها ولاسيما أن كثرة الحديث عن شخوص التاريخ فى

زمن مختلف تجعل حضورهم فى الذكريات اقوى منه على الأرض ؟

** المدام مقاطعة : لا .. أنا إنسانة مثقفة .. ومعرفتى بالقصر الذى كنت ذاهبة إليه لإجراء بحثى كان أدعى لأن يصيبنى القلق فأنا عارفة تاريخهم الحقيقى .. وكان ذلك يمكن أن يجعلنى أكثر انبهاراً به .. لكن هذه شخصيتى أنا .. يمكن عبدالعظيم رمضان كان مبهور أكثر .. لكن أنا شخصياً مبهورة بنفسى أولاً .. أنا كسيدة طول عمرى لى وضعى .. ثقتى فى نفسى أولاً .. آه .. سمعت عنه إنه ابن كذا .. وابن كذا .. لكن جاين بالتعامل مكانش أخذ الدرجة المناسبة .. علشان كده هوه فهمنى .. وعرف أن الدخول إلى قلبى لابد أن يكون عن طريق عقلى .

بعد ١٥ سنة عزوبية

* لقاء العقل بينكما كيف تم ؟

** ياسين سراج الدين : أنا كنت مجتمع مع لجنة الوفد العامة فى غرفة الطعام فى البيت الكبير ـ قصر جاردن سيتى ـ وهذا كان من أعظم قصور مصر .. وكان فى الأساس معداً للإمبراطور غليوم لكى يقضى فيه الشتاء وقيل لى يومها أن الدكتور عبدالعظيم رمضان فى (الهول) وعاوز يشوفك ؟ وأنا أقدر الدكتور عبدالعظيم رمضان وأحترمه .. فى الحقيقة خرجت فى الحال ورحبت به ووجدت عواطف تقف باعتزاز بنفس غير مبهورة بالعظمة المنتشرة فى القصر.. قدمها لى الدكتور عبدالعظيم يومها وقال إنها تلميذته وكانت على موعد مع فؤاد باشا الذى اضطر للسفر المفاجئ .. فهل يمكن أن تحدد لها موعداً آخر ؟ قلت له إن ذلك يسعدنى وأعطيتها موعداً فى نفس القصر بعد يومين من هذا اللقاء .. لم يبهرنى جمالها لأننى اكتشفت الجدية التى كانت تتعامل بها .. وفى اللقاء المحدد أطلعتها على المعلومات التى كانت تسأل عنها فى جلسة استمرت ساعتين .. وتكرر اللقاء لاستكمال الحديث .. وقد لفتت نظرى رجاحة عقلها .. واتساع ثقافتها وإلمامها بتاريخ الوفد منذ أيام سعد زغلول وصولاً إلى سراج الدين .. فى هذا الوقت كنت أعيش وحيداً بعد انفصالى عن زوجتى السابقة التى أنجبت لى الدكتور أحمد الذى يعيش حالياً فى بوسطن بالولايات المتحدة .. وكنت عازفاً عن الزواج منذ ١٥ سنة وكنت سعيداً بحريتى فى هذا البيت الذى يضم عشرين غرفة .. ولكنى فى لحظة فكرت .. يعنى فيها إيه لما أعرض عليها الزواج ؟

* بعد أى لقاء فكرت فى ذلك ؟ وقبل ذلك ما الدافع .. أو كيف تبلورت الفكرة ؟

** فى ثالث جلسة .. كنت خايف جداً تكسفنى لأن فيه فارق سن كبير .. لكنى أيضاً كنت أشعر أن مفيش أحسن منى كثير ، ربنا خلقنى بخلقة سوية .. مستقبلى موجود .. ومن

الناحية المادية كويس .. ومركزى السياسى كويس .. وكان أحد الدوافع إلحاح شقيقاتى الكبار الله يرحمهم ومن فؤاد سراج الدين .. وكانت صحتى فى حاجة لحد يبقى جنبى .. و ١٥ سنة عزوبية كثير .. وكل شىء له نهاية .. وعند سن معينة لابد من الاستقرار .. أيضاً كانت بدأت تدخل عقلى وقلبى معاً .. وقد لخصت موقفى بلباقة وفى صيغة سؤال وجهته لها :

* لو تقدم لك راجل فى نفس سنى وعرض عليك الزواج تقولى إيه ؟

** فأجابت : إنها تحترم كبير السن لأنه أكثر حكمة وأكثر فهماً لدوره كزوج وقد تقدم لها (خُطاب) ولكنها رفضت .

** قاطع مع سؤال المدام التى أجابت :

** طبعاً .. شعرت إنه ممكن يكون بيلمح .. بدأت أفكر فى السؤال .. ولكنى لم أطرح ذلك على أحد .. نعم .. ما تسأل عنه كان فى شكل علامة استفهام : هل يمكن أن تكون بيننا علاقة زواج ناجحة ؟ ومداها إيه ؟ أى ما بعد الارتباط ؟ .. نعم .. مع التلميح .. بدأت أفكر .. ولكن الموضوع كان محتاجاً لوقت .

** ياسين سراج الدين : أخبرتنى بأن (عرسان) كثير طلبوها .. بل أن أحدهم كان قد خطبها بالفعل وكان مدرساً بالجامعة ولكنه كان ضعيف الشخصية ودللت بذلك عن وجهة نظرها .. وأنا شخص يحترم تفكير الناس ويسعد بهم وأنا لا أنام على حسد .. ولا أعرف الحقد .. ولذلك لم يظهر علىّ السن أبداً .. وطبعاً .. بينى وبينك أعرف أننى كنت وسيماً من ١٥ سنة .. ولولا مرضى الحالى لما عرفت حقيقة سنى .. المهم .. أنها بالتأكيد قد انتبهت لوجودى .. جايز شكلى فيه عظمة .. فيه تاريخ .. مع تواضع .. مع إنسان أفكاره سليمة .. يمكن لفت كل ذلك انتباهها ، فى الجلسة الرابعة سألتها مباشرة : لو أن الشخص إللى ضربت به المثل هو أنا .. إيه رأيك ؟ فأجابت بأنها ستفكر .

* التفكير : استمر وقت ؟

** لا .. مش كتير ..

الأسرة كانت زمان

** قاطع ـ مع سؤال السيدة عواطف التى قالت :

استمر تفكيرى فى العرض بينى وبين نفسى نحو أسبوعين .. وبدأت أحكى للأقارب من إخوتى .. نحن ثلاث إخوة وثلاث أخوات وأنا الكبيرة .. بدأت أراجع أحاسيسى .. وكنت عارفة أن القرار قرارى فى النهاية .. كانت فيه حاجات تقلقنى .. ولكن كنت عارفة إنى سوف أتغلب على أية معوقات .. أنا مقاتلة ولست مغرورة .. المهم .. البداية عقلية لكن بعد ذلك

نشأت بيننا قصة حب ..

كان والدى يعرف فؤاد باشا لكن لم يتعرف على ياسين بيه قبل ذلك .. أمى لم تقبل أو لم توافق فى البداية .. أخوتى .. أخذوا فترة حتى يقتنعوا .. أى أسرة تقلق عند زواج بنتها .. وكان فارق السن يشغلهم .. والمصريون يحبوا الاستقرار .. فكانوا خايفين عليّ .. ورددت عليهم بالحجة .. قلت إن السن حاجة بتاعة ربنا .. ممكن أتجوز واحد صغير تقع له حادثة ويموت، سألوا أنه يمكن ما يخلفشى .. أجبت ميخلفش ليه .. ؟ ما هو سبق وخلف ، وبرضه ممكن أتجوز واحد صغير وميخلفش وأيضاً لن أتركه .. كانت لدى أسرتى تحفظات عديدة .

* .... ؟

** حتى لو كنت ابنة لأسرة من قرية ياسين بيه قبل الثورة يعنى من الفلاحين كانت هتكون لأسرتى برضه تحفظات عليه .. يعنى .. كان فيه ديمقراطية قبل الثورة ، وكنا ممكن نرفض أو نقبل.. بعد عبدالناصر كان بابا بيخاف يتكلم .. يعنى .. أنا فاهمة سؤالك .. بتقول أسرتى بترفض وتفكر لأن الدنيا غير دنيا الأربعينيات .. وأنا شايفة أن موقف أسرتى كان ممكن يكون نفسه أيام سراج بيه ما كان عضو مجلس نواب عام ١٩٥٠ .. ويمكن من الحاجات إللى قربتنى من ياسين بيه قناعتى بإن زمان كان فيه ليبرالية حقيقية وأن الثورة الحقيقية هى ثورة ١٩ .

ملحوظة : «غواية الاسترسال الإنسانى كانت أقوى من مناقشة صحة الليبرالية قبل يوليو ومغزى أن يحكم الوفد ٩ سنوات طوال تلك المرحلة .. والإنجاز الحقيقى لثورة ١٩ .. كانت رؤية التاريخ بعيون مختلفة أكثر غواية من النقاش حول حقائقه» .

وواصلت السيدة عواطف استرسالها : كانت وطنية ياسين بيه سر جاذبيته .. مالياً لم يكن يملك حاجة .. لو حد يقول إنها إتجوزت واحد أكبر منها علشان فلوسه أقول لك لم يكن يملك حاجة .. أمامه .. بجد .. الدكتور إللى كنت مخطوبة له كان غنى .. أمى من عائلة غنية .. عندها قصر من القصور القديمة فى الحلمية .. أمى لها جذور هناك .

* .... ؟

** لأ .. معندناش الكلام ده .. شبكة بسيطة جداً جداً .. زملائى وأساتذتى انقسموا حولى .. عبدالعظيم رمضان وصلاح العقاد كانوا معى .. وكان هناك من قال : آه .. هى بتسعى لمستوى مادى مرتفع ورد عليه عبدالعظيم رمضان وقال : دى كانت أغنى واحدة فى الدفعة وأشيك واحدة .. وعندها سيارتين .. ومعندهاش ظروف متعسرة تقتضى أن تتزوج ومن حد أكبر منها علشان فلوسه .. وبصراحة هى الثورة تركت لهم حاجة .. كل يوم أكتشف إن أنا وهو مُلتقين فى كل حاجة حتى فى عيوبنا .. ولو رجعت الـ ١٥ سنة للخلف كنت أتزوجه هو

.. وكنت أختار نفس الحياة .. ولو كنت إتجوزت واحد في نفس عمرى كنت بالتأكيد سأفشل .. عقليتي مختلفة .. كنت طول عمرى أبحث عن الفكر .. أى راجل كنت عاوزه أعرف إزاى بيفكر .. أيضاً .. الجواز نصيب وقدر .. أبرز عيوبنا المشتركة الملل . هو بيغير وظيفته أو عمله كثيراً وأنا كان نفسى أعمل أستاذة جامعية .. ثم إلتحقت بالحقوق لأعمل محامية .. وهو أيضاً : محام .. تاجر .. سياسى .. منتج أفلام سينمائية .. أنشأ دار نشر كاملة .. هو عصبى .. وأنا مش عصبية .. هو أطيب منى .

ابن الباشا يتذكر

ويعود الأستاذ ياسين سراج الدين للحوار : أحسست أنها لم يكن يمكن أن ترفض عرض مثل ذلك الذى قدمته لها ـ لأنه لن يتوفر لشخص كل الصفات الموجودة عندى مادام أن فرق السن لم يشغلها .. السن كان حاجز الصوت ومادمنا تجاوزناه فلاتوجد مشكلة .. تقابلنا أنا وأحد أخوتها وكان صريحاً وقال : يسعدنا ويشرفنا هذا الزواج .. بس أنا شايف فيه فرق فى الطبقة الاجتماعية وأخشى أن إحنا لسنا فى مستواكم .. فأجبته إننى عندما يصبح لدى بنت فإننى لا أحب أن تتزوج واحد أقل منها .. لأن الرجل هو الذى يرفع زوجته إلى طبقته .. ولذلك فإن عواطف موضع احترام عائلة سراج الدين والبدراوى وكل هذه العائلات !

* .... ؟

** لم يعترض عليها أحد من عائلتى .. كانوا عاوزين أتجوز .. وقلت لأخوها أنا معنديش العنجهية بتاعة الأرستقراط .. كنت اشتراكى قبل ٢٣ يوليو .. فى السفر أتناول طعامى فى أى مكان وعلى المائدة المجاورة للسائق بتاعى .. ليس لدى غرور .. وأتذكر أننى قلت لأخيها إن الطبقة المتوسطة هى الأفضل أخلاقياً .. فالطبقة العليا قد تعانى من الترف والاستهتار والغرور .. والطبقة الفقيرة مطحونة فتصبح متنازلة شوية فى مسألة الشرف (!!) لكن الطبقة المتوسطة تحافظ على شرفها جداً .

*** هذه الأفكار عن الفروق الأخلاقية بين الطبقات قديمة أم أنها جزء من ثقافة الزمن الجديد ـ الثقافة الاجتماعية التى ضربت العالم كله بعد الحرب العالمية الثانية وازدادت فى ظل المنافسة بين المعسكرين فى نهاية الخمسينيات ؟**

** لا أستطيع إلا أن أعترف بأن التراكم الثقافى حدث خلال سنوات ولما تزوجت من الطبقة التى أنتمى إليها .. لم أكن سعيداً .. لقد كانت زوجتى الأولى عايدة هانم ابنة محمود باشا الديب .. وهى سيدة طيبة ومحترمة وغنية جداً .. وتعتبر جميلة ـ مش فى جمال عواطف طبعاً ـ ولكن عيبها أنها كانت غيرتها علىّ شديدة قوى ولذلك كنت أحس بالاختناق فى وقت كان عمرى لايتجاوز ٢٢ عاماً .. وقد أنجبت ابنتى البكر وأنا فى السنة الرابعة بكلية الحقوق

اسمها ليلى وهى متزوجة .. وأنجبت عايدة هانم أيضا ابنى طارق وابنتى هدى .. تركت عايدة هانم وتزوجت مرة ثانية من سيدة أرملة ابنة لواء وأنجبت منها احمد الذى يعيش فى بوسطن منذ ١٣ سنة .. وبعد ذلك عزفت عن الزواج حتى التقيت بعواطف .. علاقتها بأولادى جميلة .. لم آخذ رأى أحد منهم .. لقد أخبرتهم .. ليلى قالت أن المهم أنى لا انجب علشان (الميراث) عقليتها كده .. أنا عارف بنتى .. لكن هدى غير كده لأنها مثقفة .. ليلى سيدة أعمال نشطة .. وهدى فى مجال الترجمة .. طارق ابنى كان منشغلا بحياته الخاصة وهو فى منصب وكيل وزارة .. أما ابنى احمد فقد رحب وحضر مع أولاده .. والحقيقة عواطف علاقتها بأولادى طيبة جدا ودائما تساندهم فى مطالبهم .. هى تحبهم مثلما أحب أنا أهلها .. ويكفى أن أقول أن فؤاد باشا يستريح جدا وهو يسرد ذكرياته القديمة لها .. وهو لا يفعل ذلك مع أى من زوجات أشقائه .

١٠٠ ألف جنيه فى السنة

* كيف تبلور موقف أسرتها من طلبك بالزواج منها ؟ وكيف نتذكر وقائع الزواج ؟ وماذا صنعت الأيام فى الزواج بعد مرور قطاره على محطات الأيام ؟

** الحقيقة أن أحد أشقائها ظل عامين يرفض هذه الزيجة .. وهو الآن احبهم إلى قلبى .. ويزورنى مع أطفاله الذين احبهم جدا .. لم يكن مقتنعا وقتها بنجاح الزواج .. أتذكر الآن أن الزواج تم فى أضيق الحدود بحضور والدها وشقيقها وشقيقى زكى سراج الدين واثنان من أصدقائى وكان حفل عشائى فى منزلى هذا .. والحمد لله .. أنجبنا سراج الدين (١٣ سنة) وهبه الله (١١ سنة) وقد أظهرت عواطف مهارة كبيرة وقد تحملت عنى ثلاثة أرباع الحركة الانتخابية عام ٨٤ فى أعقاب زواجنا يعنى تقدر عنها : هيلارى بس من غير كلينتون .

ومن يومها وهى تشارك فى معاركى الانتخابية باستمرار .. ولها نشاط اجتماعى فهى مثلا منظمة (زكاة شهرية .. تتوجه كل شهر لبيوت معينة .. وفى الأعياد .. وفى رمضان اخترعت الكيس الذى يضم تمرا وطعاما بدلا من فلوس يمكن أن ينفقها الرجل على الشيشة ، وبصراحة بعد مرور السنين لا نختلف فى الأمور المادية .. يعنى مصروف البيت طلباتها .. هى التى تتصرف .. فعندها سعة .. ولذلك فعندنا ما شاء الله احلى ملابس فى مصر من أجود الماركات وكذلك من الإكسسوارات والمجوهرات وعندنا أيراد .. فهى نائب رئيس مجلس إدارة مدارس الشرق التى امتلكها وأيضا مدارس ٦ أكتوبر .. وهى تحصل على دخل يصل إلى ١٠٠ ألف جنيه فى السنة .. (ضاحكا) .. أنا مش عارف مين الموظف عند الثانى .. أنا ولا هى .

هى المسئولة عن كل شئ .. وأنا أحيانا أفاجأ بأنها قادمة ومعها نوع جميل من

(الكرواسون) مخصوص .. وهي كل ماتشوف حاجة حلوة تجيب لي منها قبل نفسها وقبل الأولاد .. وهي تحب الموسيقى والقراءة زيي .. وبعد ما حكيت لها بقت تكره عبدالناصر زيي .. هي من جيل عبدالناصر وكانت الدعاية مسممة دماغها برضه .. وفيه ناس لغاية اليوم متأثرين ومتعصبين لعبدالناصر .. يعني متحمسين للمعتقلات وصلاح نصر والدفن في الصحراء .. إحنا الوفد أيدنا عبدالناصر بسبب المبادئ الستة المشهورة .. ولذلك جاء فؤاد سراج الدين ومصطفى النحاس يوم الثورة الساعة الثالثة صباحاً وذهبوا للتهنئة في مجلس قيادة الثورة .. تأييدنا للثورة حافظ عليها .. كانت هشة في بداياتها .

* عندما تطل على النيل من نافذة هذه الشرفة الجميلة أو تزور مدارسك أو تزور كفر الجرايدة.. أو تمشي في شوارع القاهرة .. ألا تشعر بأنك أحياناً تتكلم عن زمن مختلف لزمن آخر جرت في أنهاره مياه كثيرة .. زمن صعدت فيه الطبقة المتوسطة وتزوجت منها وأنت متردد في هل ستقبلك أم سترفضك العروس .. والأصوات التي تحصل عليها في الانتخابات من هذه الطبقة.. وكل مظاهر الحياة الثقافية والفنية والاجتماعية والملايين الذين تخرجوا من الجامعات والملايين الذين يعملون والريف الذي لم يعد فيه فلاح ينزل من على حماره لأنه على الأرجح يسرع لمشاهدة التليفزيون أو الفيديو .. هذه الدنيا .. التي تغيرت .. تبدو أحياناً وكأنها غريبة عنك ألا تخشى من ذلك .. ألا يقلقك في علاقتك بالمستقبل ؟

** سؤال عميق وصادق وغني بالمعاني والأفكار .. ولكن أحب أقول لك إنني قادر على التكيف .. بعض أشقائي ماتوا كمداً .. شقيقي جميل سراج الدين الله يرحمه وكان وكيل البرلمان قبل الثورة ــ أو قبل الحركة المباركة .. هنا في منزلي وجدته ذات مرة يتطلع إلى السماء ويقول (يارب اختارني) وكان السبب واقعة حقيقية أنه زار أرضنا في مسقط رأسنا وجلس على حصيرتين ثلاثة وخلفه الفلاحون وفجأة شم رائحة سيجارة فوجد ولد من الفلاحين تجرأ ودخن أمامه .. ودي كانت عيبة كبيرة .. دول كانوا بيحترموا عربيتنا حتى لو كانت فاضية وينزلوا من على الحمار ويسموها (عربية الدايرة) ولك أن تتخيل صدمة أخي .. فأقسم بالا يعود إلى هناك لأن أيامها كان الكلام الفاضي بتاع صلاح سالم (كانت لكم أرضكم وأرض جدودكم) ومحدش فاهم يعني إيه كانت أرض آبائهم وأجدادهم .. نفس الواقعة حدثت لي بصورة مختلفة .. كنت في المعتقل وكان أحد الخدم عندنا واسمه الحاج مرسي معتقل معي بدون سبب عام ٦٥ ومرة لقيته بيقول الروس تساوت .. عبدالناصر اعتقلنا كلنا معاً ونحن على الأسفلت معاً .. فابتسمت وقلت له : طيب ياحاج مرسي بذمتك لو تم الإفراج عنك بعد ساعة .. وبكرة قابلتني في الشارع مش هتبوس إيدي وتأخذ الجنيه ؟

قال : آه .. وعايش الحاج مرسي وأنا عامل له مرتب شهري وهو وفدي وطلعته يحج على حسابي .. كلمته خدتها بدون حساسية .. أنا كنت قادر على التكيف .. لكن شقيقي لم يستطع

وكان حساس زيادة عن اللزوم .. أنا تكيفت ولذلك يقال عنى أنى رئيس معارضة موضوعى وعلاقتى بالحكومة والوزراء طيبة .. وعندما أؤيد الحكومة أكون على ثقة بأن ماتواجهه هو لصالح مصر .. والعكس .. لذلك كنت ضد تخصيص البنوك وشركات التأمين .. وقلت إذا كان قانون المرور استهلك عشر جلسات فإن من المعيب أن يكون موضوع يمس الاقتصاد القومى يتم حسمه فى جلسة واحدة .

* ماذا حدث لشقيقك صاحب الدعاء الصعب .. وما الفرق بين تكيفك أنت وتكيف فؤاد باشا سراج الدين مع متغيرات الدنيا ؟

** شقيقى زكى توفى بعد شهرين من الدعاء لله أن يختاره بعد أن صعب عليه ما حدث حولنا ـ من ناحية أخرى .. فإن سؤالك يجيب عليه ما كنت أقوله له : أنت لديك صفات وأنا لدى صفات ثم أنا تعلمت منك صفات .. والدى توفى وأنا فى سن الثالثة عشرة .. وكان فؤاد باشا هو الوصى علينا وكنت مثل ابنه ولاسيما أنه أنجب ثلاث فتيات توفيت إحداهن رحمها الله ـ كنت أقول له أنا أكثر منك كرماً .. وأنت لديك دهاء .. وبهذا المعيار ـ أى الدهاء ـ فإنى أفشل سياسى لأننى صريح وجرىء وواضح .. وأنت تقابل الأعداء بالأحضان وأنا لا أعرف ذلك .. وأنا قارئ أكثر منه وسافرت إلى بلاد أكثر منه بكثير .. فأنا ملول من الزمان والمكان .. لذلك كنت أسافر كل شهرين .. وأنا اسمى فؤاد باشا شيخ حارة مصر .. ففى الانتخابات يعرف العائلات جيداً .. طبعاً حاولت أن أتعلم منه الحلم .. فهو شديد الحلم والصبر ..

نعم أخطأنا بالتعاون مع الإخوان المسلمين

* نقطة الغواية الأخرى التى علقت أمامنا وفرضت نفسها على الحوار تساؤل منطقى : كيف أصبح ياسين سراج الدين مليونيراً مرة أخرى .. هل البراعة الذاتية أم الزمن المناسب أم الاثنان معاً؟ أم أن هناك فى تجربة الرجل مايمكن الاستئناس به أكثر من ذلك ؟

** وتأتى الإجابة بمودة هى أكثر وأجمل ما يميز الرجل :

مارست العديد من المهن فى رحلة حياتى .. ولم أنظر خلفى أبدا .. اشتغلت فى مجال التعليم .. فأنشأت مدارس خاصة منذ عام ١٩٥٤ .. لدى مكتب محاماه .. لدى بعض الأنشطة الاقتصادية مثل شركة سوبر فوسفات فى السويس .. واليوم ننتظر تشريعاً بتعويضات حول أراضينا التى أخذوها منا .. ولدى محلات تبيع الفاكهة والخضروات فى سوق العبور .. ولدى مدارس فى الزمالك و ٦ أكتوبر ، والمنيب .

عواطف مراتى لها رأى بأننى ظهرت قبل جيلى بقرن .. وأن تعدد الأنشطة منعنى من التخصص فى مهنة بعينها ولو كان هذا ما حدث لتفوقت على مستوى الشرق الأوسط .. وأنا

طوال عمرى غاوى شغل وأحب النجاح في حد ذاته.. ورغم أننى عانيت فى الستينيات إلا أننى لم أستسلم وكنت أمارس عمل أى حاجة أستطيعها .. تصدق أنا صدرت إلى أوروبا الفلفل الأخضر .. وكنت أسافر إلى السودان .. وعندما أنجح فى عمل اتفاقات كانوا يمنعونى من السفر فتنهار مشروعاتى .

وكنت أعاود البحث عن فرصة أخرى .. كنت أقوم بتأجير شقتى هذه بمبلغ ٧٠٠ جنيه وأستأجر أخرى صغيرة فى الشارع الخلفى بمبلغ ١٥٠ جنيهاً وأعيش من الفرق .. بالإضافة إلى أن الحراسة كانت تعطينى مبلغ ١٥٠ جنيهاً فى الشهر وكنت بذلك من المحظوظين لأن ابن خالى عبدالعزيز البدراوى والذى كان يملك ٥ آلاف فدان نصيبه من الحراسة وبعد الإصلاح الزراعى خمسة جنيهات !! وكان لنا صديق من أثرياء الصعيد كان راتبه ثلاثة جنيهات ! وكانوا يرسلون له إنذار كل ٣ شهور بأنه إذا لم يحضر لاستلامه سوف توضع فى الأمانات !! أخى الأكبر فؤاد باشا.. اشتغل بالديكور والتحف وكان يبيع تحف قصر جاردن سيتى قطعة قطعة لكى نعيش .. كنا نحاول طوال الستينيات أن نظل على أرض الحياة وزيارة لقصر جاردن سيتى حتى الآن تكشف كيف كان حالنا .. فى هذا القصر سجادة يصل حجمها إلى ١٢ متر × ٨ - !! ولكن ما تم بيعه كان الكثير واستفاد من ذلك التجار اللبنانيون .. كانت القطعة التى تساوى ١٠٠ ألف جنيه كنا نبيعها فى الستينيات بعشرة آلاف !! وكان الباشا يوزع على كل منا نصيبه ليساعدنا على أن نعيش .. القصر حالياً فاضى من الحاجات المهمة وقرار منع بيع القصور خفض سعره كثيراً .. استمر هذا الوضع حتى مجيء أنور السادات وانفرجت الأمور بعض الشيء وكما ذكرت كنت أمارس العمل فى أى مجال تتاح فيه الفرصة .. فى التصدير قمت بتصدير الفلفل الأخضر .. وكنت آخذ (مصارين الحيوانات المنزلية) وأصدرها للخارج للاستخدام فى صناعة السجق أو (الهوت دوج) .

صدرت كذلك أبصال زهور .. أى حاجة أجد من يحتاجها وظهر أصدقاء ساعدونى بالنصيحة .. ولكنى لم أستطع أن أصبح ثرياً خلال انفتاح الرئيس السادات مثل هؤلاء الذين عرفوا طريقهم فى ظل سياسته .. وأعتقد أن تأسيسى لمدرسة الشرق فى منتصف الخمسينيات وكان شريكى هو أستاذى الذى كان يحصل على ٢٠٪ نظير قيامه بالإشراف وكانت لدى مدرسة أخرى فى الزمالك عادت إلى بالقضاء بينما لم أنجح فى استعادة مدرسة الشرف بالمنيب .. ولكنى ظللت دائما أسعى فى دروب الحياة لكى أعيش وأعمل وأنجح وكان معروفاً عنى أننى أستخدم التاكسى فى تنقلاتى ولا أمتلك شقة للصيف فى الإسكندرية لسنوات .. وفى نفس الوقت كان أصدقائى يزودونى بقضايا كبيرة كانت تحقق لى دخلاً يتضاعف مع الوقت .

* يبدو فى سردك وكأنك حريص على أن تقول لنا أحياناً أن الأقدار تلعب فى حياتك الدور الرئيسى وأنك تستجيب لها ؟ وأنك فى أحيان أخرى تحاول ولاتمل وتعمل بدون يأس ؟

** آه والله .. تصدق .. بالنسبة للأقدار دى تظهر فى موضوع أولادى .. أنا عندى سراج الدين وهبة الله من زوجتى الحالية السيدة عواطف وهما قريبان منى جداً .. ولكنى أعاملهما بحزم .

فى المدرسة مفيش حاجة إنى أبوهم صاحب المدرسةبالعكس فهما أكثر عرضة للمسئولية .. وأنا شخصياً معهما شديد الحنية .. ولا أتصور أننى أستطيع الحياة بدونهما ولكنى أيضاً فى منتهى الحزم .. والحقيقة إن قصة إنجابهما موضوع غريب .. فأحياناً أشعر وكأن هناك أمراً من السماء بأن أنجب نعم فلقد تزوجت عواطف وصارحتها بأننى كبير فى السن وعندى أولاد كبار ولديهم أبناء وكان رأيى أنه ليس هناك داع لكى أنجب !! وإذا ربنا اختارنىَ .. فأنت فى عز شبابك ويمكنك الزواج مرة أخرى ..فأجابت : ومن الذى يستطيع أن يحل مكان ياسين سراج الدين ؟ فقلت لها : على أية حال مش هنخلف ؟ وكان إخوتى يقولون : يا أخى ده من حقها .. واحدة بتحبك لازم تخلف !! فأرد ومين هيعلم ويربى الأولاد .. وسبحان الله .. كان هذا الكلام عدم إيمان .. ولذلك فوجئت برؤية غريبة جداً بأننى أحمل سراج ابنى هذا بين يدى عارياً ولسه مولود وأمامى بحيرة والرسول صلى الله عليه وسلم على شمالى ويقول لى : إرميه فى البحيرة لاتخف وبالفعل وضعته على الماء فطفا !! إنها مثل قصة سيدنا موسى تماماً وكانت هذه الرؤية سبباً فى إنجابى سراج الصغير وعمره الآن ١٣ سنة وجايز أحضر جوازه ، أما هبة الله .. فإنها أجمل خطأ غير مقصود فى حياتى .. ولا أستطيع تحمل بداية يومى بدون رؤيتها أولاً .

* حتى نتجاوز بداية الحنين أعرف أنك تعشق الأكل الجيد والصحبة القريبة لنفسك .. ماذا بقى من الاثنين ؟

** تعرف يا أستاذ محمد أننى شديد الحنين لحاجات كثيرة من الأمس وأرى أنها رائعة ولم يتم تعويضها .. على فكرة .. الحنين مش عيب .. طيب والله أنا بحن لـ (السوبيا) .. والسوبيا كانت شراب تعده البيوتات الكبيرة .. وكان ملطفاً جداً للحرارة فى الصيف .. وكانت تصنع من ماء الأرز وتحمل اللون الأبيض مثل الحليب .. ما أعرفش ليه محدش بيعملها رغم أنها غير مكلفة.. أيضاً أفتقد الملوخية (البرانى) .. كلنا نحب الملوخية ولانختلف حولها إلا من حيث جودة الصنعة .. فهناك ملوخية تشم رائحتها من الجيران .. وهناك ملوخية بدون حضور زى المثل الباهت .. لكن الملوخية (البرانى) فتطبخ بورقتها كاملة وكانت موجودة زمان ولكن الطهاة الممتازين باتوا قلة .. أيضاً الشركسية من أكلات زمان التى لا أقاومها وهناك أيضاً

حاجة أحبها اسمها كشك الفقرا .. وهو عبارة عن صنف حلو .. مهلبية داخلها شرائح من صدور الفراخ ..!! إنها محاولة من الأغنياء لتقديم حاجة مختلفة .. فالمهلبية يعملها الناس كلهم لكن في كشك الفقراء محاولة للتميز أنا باحب أكثر المهلبية السادة .. بيني وبينك مش معناه إني بأحب الفقر ولكن يعني إيه الحلو إللي فيه فراخ .. !! .. أنا شخصياً أعمل (مكرونة سباجيتي) رائعة وتعلمتها في إيطاليا .. ولكن ظللت أتذكر طباخ مشهور كان عندنا وإسمه (أبو سمرة) كان بيعمل لنا صينية أرز بـ (البشمل) وداخلها لسان مخ وكلاوي وحاجات من هذا النوع وكانت مشهورة في قريتنا كفر الجرايدة وكنا نفضلها على أي حاجة تانية .

في مقابل الأكل هناك الناس الذين لا أنساهم أيضاً .. وهنا أحب أن أقول لك أن لدى أسلوباً يعتمد على التفرقة بين المعارف والأصدقاء .. والصديق طول عمره حاجة نادرة .. وزمان كانت عائلتي متميزة .. وكان حولي زملاء كثيرون وكنت أتحمل مسئوليات الرفقة في زمن الدراسة وكان بعضهم حولي إما لأنني غني أو لأنني من عائلة كبيرة .. ولكن أذكر أحد أصدقائي كان لديه ٣ أفدنة ورثهم عن أبيه .. وكان مادياً في مستوى ضعيف .. وكنا نتمسك بصداقته .. مازلت أذكر عندما خطبت زوجتي الأولى وكانت من عائلة الديب باشا من الإسكندرية لم أكن قد نهضت بحياتي بصورة مستقلة بل كنت ما أزال طالباً وكان وقتها شقيقي الأكبر فؤاد سراج الدين وصياً علينا وكان مصروفي منه بسيطاً ولايكفي مستوى واحدة من عائلة غنية .. فما كان من صديقي هذا إلا أن قام بتضحية ضخمة .. إذ فوجئت به يبيع الثلاث أفدنة ويعطيني قيمتها كقرض حتى أستقل بحياتي ويزود الباشا حصتي .. !! ..

لقد نشأت وأنا أقرض الآخرين ولكن هذا الصديق كان أول من أقرضني .. والغريب في الأمر أنه بعد أن تم تقسيم التركة .. واستقلالي بحياتي المادية لم يحاول هذا الصديق أن يسترد قرضه.. ومن الحاجات التي تضايقني أنني ظللت طوال سنوات أتمنى أن أخدمه ، لكن للأسف لم أعرف أين هو أو ماذا يفعل أو كيف ألتقيه .

هناك شخصيات لعبت أدواراً لا أنساها في حياتي مثل أحمد ماهر الذي كان رئيساً للحزب السعدي أطلق سراحي من إقامتي المحددة مع فؤاد سراج الدين وطلب أن يراني في مجلس الوزراء فذهبت إليه وأحسست بالزهو ثم فوجئت به ينصحني بكل حنان بأن أتوقف عن ممارسة السياسة لشهور قليلة حتى انتهائي من امتحان الليسانس !! وظللت على قناعة أن هذا الرجل لو عاش ولم يُقتل على يد محمود العيسوي رحمهما الله .. فكلاهما وطني ولكن سوء الفهم كان وراء المأساة.. العكس من ذلك النقراشي باشا الذي قُتل أيضاً ولكن هناك فرقاً بين بكائي على أحمد باشا ماهر .. وبين مشاهدتي لجنازة النقراشي وأنا لا أشعر بشيء .. لأنه حرمني من الامتحان واعتقلني بتهمة الاشتراك في مقتل أحمد ماهر .. وكانت تهمة مفككة وراءها مكرم عبيد الذي يحمل كراهية عميقة لشقيقي الأكبر فؤاد سراج الدين .

أغنياء زمان

* وقفت فى مجلس الشعب تحذر من سيطرة رجال الأعمال .. وبدا من كلامك أن هناك فرقاً بين أغنياء الأمس .. وأغنياء اليوم .. فهل هذا صحيح ؟ وما هو مغزى تحذيرك من سيطرة رجال الأعمال على الحكم ؟

** والله .. الفرق كبير جداً .. أغنياء زمان أب عن جد .. ليس هناك غرابة أو دهشة من ثرائهم .. يعنى مفيش تغيير فى سلوكهم .. أغنياء هذه الأيام أغنياء جدد استفادوا من الظروف السياسية والنظام القائم خاصة أيام الرئيس السادات وكان صاحب عبارة شهيرة «إللى مايبقاش غنى فى أيامى عمره ما هيبقى غنى !!» وهى عبارة تكشف من هم أغنياء اليوم .. أغنياء الأمس.. مش محتاجين منظرة إنما أغنياء اليوم فى حاجة لذلك !! أنا معنديش عربية شبح أو عربية خنزيرة .. عندى واحدة مرسيدس لزوجتى .. وواحدة بيچو أفضلها وهى فى الصيانة الآن .

* تغيير مصر منذ مرحلة الانفتاح وحتى الآن وظهور مصر فى السوق أو الحرية الاقتصادية .. هل تتناقض أو تختلف مع مصر التى قبل ٢٣ يوليو ؟

** مصر قبل ٢٣ يوليو كانت غنية كدولة .. وكان المقياس قوة عملتها كان غطاء العملة المصرية ذهب وسألت وزير المالية عن ذلك يوم افتتاح جلسة مجلس الشعب .. وفؤاد سراج الدين قال فى خطابه الأخير أن الغطاء الذهبى الذى كان يبلغ ٦٥ مليون جنيه ما بين عشرة ملايين جنيهات ذهبية والباقى سبائك ذهبية وذلك حتى ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ قد سُحبت .

وراثة التاريخ

* من يقرأ هذا الكلام قد يشعر بالحيرة .. إنك تبدو وكأنك على نقيض مع الانفتاح والخصخصة واقتصاد السوق بالرغم من أن نقدك الأثير هو للإصلاح الزراعى والتأميم وللاشتراكية.. فهل أنت تشعر بهذا التناقض أم أنك بالفعل ضد الخصخصة ـ كعنوان للمرحلة ـ وفى هذه الحالة سيحتاج الناس لبعض التفسير ؟

** لا .. أنا لست ضد الخصخصة ولست ضد الانفتاح ولا أتناقض فى ذلك .. بل أقول أن هناك بعض الهيئات لايجوز خصخصتها لأن لها اتصالاً مباشراً بمصالح الناس .. لذلك فإننى ضد خصخصة البنوك وضد خصخصة شركات التأمين وضد أن تُنظر فى جلسة واحدة وتمر فى جلسة واحدة .

* هل يمكن أن نتغاضى عن كونك الرجل الثانى فى حزب الوفد ونتساءل عن تقييمك الحقيقى وليس الحزبى ـ لدور الأحزاب فى حياة الناس ولاسيما أن لديك ذاكرة تاريخية من جانب وتجربة معاصرة من جانب آخر ؟ وهل بداية هناك أحزاب حقيقية فى مصر ؟

** فى تقديرى أن الحزب الحقيقى هو حزب الوفد ليس بسبب تجربته الحالية ولكن بسبب تاريخه الطويل من أيام سعد زغلول .. حزب يحمل تاريخاً ممتداً عبر ٨٠ سنة .. وهناك قوى أخرى لابد من الاعتراف بوجودها هى قوى التيار الإسلامى، باقى الأحزاب كلها من أم واحدة .. الحزب الوطنى هو الاتحاد القومى أيام الخمسينيات !! أما حزب العمل .. فمن المعروف أن الرئيس السادات هو مؤسسه .. فقد استدعى المهندس إبراهيم شكرى وطلب منه أن يعمل الحزب ووفر له ٥٠ نائباً والله يرحمه عديله محمود أبو وافية الذى كان فى المقدمة ! بعد ذلك هناك مصطفى كامل مراد وكان ضابطاً .. وسار على نفس الدرب وهكذا يمكن أن نجد أحزاباً عاجزة عن تسديد أجرة الشقة التى تجتمع فيها !! وقد سألت الوزير صفوت الشريف ذات مرة إن كان يتذكر أسماء أكثر من ٦ أحزاب برؤسائها من العدد الموجود الذى يبلغ تقريباً ١٥ حزباً وأكد رأيى .. ونتائج الانتخابات تكشف الكثير من المؤشرات .. ففى انتخابات ٨٤ دخل من الوفد ٥٦ نائباً للبرلمان .. وعام ٨٧ كنا ٣٦ نائباً ثم انقطعنا عام ١٩٩٠ وكانت غلطة فى رأيى لأن عمل أى حزب هو دخول الانتخابات تحت أى ظروف لأن هذه هى الفرصة المتاحة للاحتكاك بالجماهير مما صنع فجوة .. وفى عام ١٩٩٥ فاز ٦ نواب، انفصل عنا الدكتور أحمد أبو إسماعيل وانضم للمستقلين فأصبحنا خمس نواب .

* هل الوفد الذى تراه وريثاً للتاريخ هو نفسه الوفد بتراثه الليبرالى ؟ وهل الوفد الذى تحالف مع الإخوان المسلمين ـ مثلما يرى بعض نقاده ـ يمكن أن يكون هو الوفد الذى نراه أقوى المرشحين لكى نراه كحزب حقيقى وبصورة أخرى .. فإن الرئيس السادات كان دائم الاتهام لكم كحزب بأنكم تريدون العودة لمصر قبل نصف قرن وكأن مصر ظلت فى مكانها لم تتحرك فى انتظار عودتكم التى تمت على يد أحد ضباط يوليو ؟

** كان رأى الدكتور وحيد رأفت رحمة الله عليه وكان نائباً لرئيس الوفد ـ أن التحالف مع الإخوان المسلمين خطأ لأنه ليس من الشرف والعدل أننى كوفدى أعطى صوتى لشخص أرفضه بسبب نظام القائمة وبالنسبة لى كنت حريصاً ألا يخرج أحد من الأخوان المسلمين عن ثوابت الوفد ولكنى أتفق معك أن الوفد قد تنازل آنذاك عن إحدى ركائزه الفكرية المهمة بهذا التحالف ولذلك تغلب الرأى المطالب بالانفصال عنهم بعد ذلك من عام ١٩٨٧ ـ بالنسبة لبقية سؤالك .. فإننى أعترف بالفعل بأنه لايمكن الرجوع بسهولة لما قبل ١٩٥٢ .. ولو جرت انتخابات حرة ونزيهة لن يستطيع الحصول على النسبة القديمة زمان أى ٨٠ أو ٩٠٪ .. ولكنه يمكن أن يحصل على أغلبية ولو بفرق ١٪ ولذلك أقول معك أن مصر تغيرت كثيراً .. ولكن لاتنس أيضاً أن الحزب الحاكم موجود فى السلطة منذ أكثر من أربعين عاماً .

* ألا تشعر بالغيرة من أن حزب كرة القدم أكبر من جماهير كافة الأحزاب الموجودة وكأن الأحزاب على قمة هرم منعزلة والناس تعيش فى عالم آخر ؟

** برجاء أن تعطى الأحزاب بعض العذر لأن وجود قانون الطوارئ الذى يجعل اجتماع أكثر من خمسة أشخاص تجمهراً !! القوانين الاستثنائية تقيد حركة الأحزاب .. الوفد احتفل بعيد الجهاد فى مركز الحزب الجديد الذى اشتريناه ولولاه لما أمكن حضور الناس بالصورة التى حدثت ، فكيف نصل للناس يا أستاذ .

أحزاب كبار السن

* تتكلم عن ظروف تعوق أداء الأحزاب ولكن ألست معى أن جزءاً كبيراً يقع على عاتق أحزاب مازالت محكومة من داخلها بأساليب غير ديمقراطية ـ مثلما يقول بعض أعضائها أنفسهم؟ بل إن البعض يصاب بالدهشة بأن هذه الأحزاب مازالت مستندة للتجربة الماضية سواء كانت من اليمين أو اليسار قبل اعتمادها على التجربة الحاضرة .. البعض يرى أن الماضى هو الذى يحكم الأحزاب وليس المستقبل ؟ إنها أحزاب يحكمها الشيوخ ؟

* بداية فإن هناك شخصيات كثيرة انتقلت إلى رحمة الله .. ثم إن شخصية مثل فؤاد سراج الدين لاتفرض نفسها بل يتم اختياره .. هو لايفرض نفسه .. وهو فقط يختار هيئة مكتبه ، ولكن فيه أجيال جديدة نشجعها مثلما أشجع فؤاد البدراوى لكى ينجح فى الحياة السياسية .. وأنا أيضاً معك فى نظراتك .. ولكن لاتنس أن منع الطلاب من ممارسة العمل السياسى قد أثر فى تقليل أعداد الكوادر السياسية .. طلاب زمان كانوا يسقطون حكومات مثلما حدث لحكومة صدقى .. كلامك مضبوط .. ولكن لاتنس أن هناك ناس عايشة تحت الإعلام الناصرى لغاية الآن ومش عارفين أن الناصرية معناها اعتقالات وصلاح نصر وحمزة البسيونى .. حاجة غريبة رغم أن أحد أقارب أصدقائى كان أحمد أنور مدير البوليس الحربى ـ الله يرحمه ـ وصلاح سالم الله يرحمه كان معجباً بنجاحى فى اليمن وزارنى فى منزلى وتناول الإفطار فى رمضان معى مرتين .

السادات والتامر

* يبدو كأن تجربتك الاقتصادية الذاتية بدأت فى عهد الرئيس السادات ودورك السياسى الجديد اتضحت معالمه فى ظل حكم الرئيس مبارك .. كيف ترى ذلك ؟ .. من ناحية أخرى .. هل من العيب وأنت الرجل الثانى فى الوفد .. أن ترى شيئاً جيداً تم على أرض مصر وأن تبدى إعجابك به .. هل هناك من حرج فى ذلك ؟

** بداية فإن تجربتى طوال رحلة العمر تسمح لى بالرؤية الجادة لرحلة مهمة فى تاريخ

مصر .. وأرجوك أنت ألا تراني باستمرار كجزء من الماضي .. إنني أعيش مع الناس .. من ناحية أخرى .. بالنسبة للرئيس السادات فإنني رأيته دائماً كمحترف سياسي وشخصية وطنية قاوم الإنجليز .. تكونت خبرته من خلال الممارسة السياسية وليس لأنه ضابط .. لقد قاوم الإنجليز وحاربهم واغتال منهم من استطاع ـ بل لقد حاول أيضاً اغتيال مصطفى النحاس واعترف بذلك ، ولكن مشكلته أنه كان يفضل أسلوب التآمر وقيل عن ذلك أشياء كثيرة .. لكنه كان جريئاً وشجاعاً في خطوته نحو السلام وفي توقيعه اتفاقات كامب ديفيد .

والرئيس مبارك أحمل له كل التقدير والاحترام والمودة لأنه يستقبل الناس بقلبه ويحمل كل الحب لوطنه ويتميز بسماحة تجاه المعارضة لم تتوفر عند أي رئيس مصري آخر .. الرئيس مبارك نؤيده جميعاً ولم يختلف حوله أحد .

بالنسبة لبقية سؤالك .. فإنني أيدت قوانين ومشروعات عديدة قدمتها الحكومة وكل ما أراه لصالح مصر أؤيده حتى جاء وقت اتهموني بأنني أهادن الحكومة !! فتساءلت : هل أعارض فقط .. وهل لو فعلت الحكومة أمراً فيه خير لمصر أرفضه علشان يقولوا فقط إني من المعارضة !! هذا لا أرضاه لنفسي مثلما كان يفعل بعض نواب الوفد ، وعلى فكرة .. يكفي مشكلة مجلس الشعب اليوم أن ٥٠٪ من الأعضاء عمال وفلاحين !! كان زمان حتى الفلاح الذي كان يدخل البرلمان كان عليه القيمة ! .. ولذلك نطالب بإزالة هذا النص لأنه لا مثيل له في أي دولة ديمقراطية في العالم وبالمناسبة فإن وكيل مجلس الشعب من العمال والفلاحين السيد راشد شخص مثقف وجاد وهناك من الـ ٥٠٪ عمال وفلاحين قاهمين .

محمد فائق

كيف يوقع رجال جمال عبدالناصر على الكشف الختامى للقرن العشرين ؟

شغلتنى هذه الأسئلة وأنا ألتقى بالأستاذ محمد فائق وزير الإعلام الأسبق مثلما شغلتنى قدرته على الاحتفاظ بعلاقاته المتعددة والمتباينة مع فريق كبير من المثقفين والمفكرين والمبدعين فى مصر وفى الوطن العربى .. وشغلتنى بنفس الأهمية حقيقة ألا أبحث عن حكايات عن ثورة يوليو التى كان أحد رجالها ولا أفتش عن «حواديت» تدعى الكشف عن أسرار .. فلم يعد هناك خفايا .. ولكن مازالت هناك حقائق تستحق أن نحدد موقفنا منها حتى ندخل القرن الجديد بأقل قدر من العاهات النفسية نحو الأمس أو بسبب الغد .. لذلك اقتنعت بأن إسهام الجميع فى التوقيع على كشف حساب عن قرن يستعد للرحيل فـ يمكن أن يصبح أجمل هدية يقدمها الجيل الذى قاد مصر منذ الخمسينيات وحتى الآن للجيل الجديد ؟

وتبلور الحوار سريعاً عندما قال محمد فائق : أتفق معك .. المستقبل أجدر بأن يفتح المجتمع صدره للحوار حوله .. وأنا نفسياً أفضل الحديث عن الغد .. معظم اللقاءات التى كنت طرفاً فيها خلال سنوات كانت تتساءل عن أخبار وحكايات الأمس . معك لنحاول أن نبدأ بالتفكير فى (بكرة) .. وبداية لا يمكن ذلك بدون تحديد موقف أن الأوان لنستوعبه وهو أن الاستقطاب الحاد تجاه تاريخ مصر قد استمر أكثر مما يجب، لقد ساهم بعض المثقفين فى تعميق هذا الاستقطاب بين ماحدث وبين مايحدث – وأحب أن أقول أنه ليس من أجل فتح مجالات جديدة للغرب أن أبصق على تاريخى .. هذا خطأ لأننا وبدون تاريخنا لن نفوز باحترام العالم .. إن التنكر للتاريخ سيلحق بنا خسارة كبيرة فى معركة المستقبل بالإضافة إلى إضعاف حاضرنا – إن نقد الماضى ضرورة وتصويب الخطأ حق للأجيال . ولكن ليظلل الجميع الوعى بأنه لاتوجد فترات حالكة الظلام وأخرى ناصعة البياض هناك تداخل بين كل القنوات وإدانة تاريخ الأمة هو ضرب لمشاركات البشر ولجهدهم الإنسانى . هذا ما يجب أن يعلمه الجميع .

* مع كل ذكرى ثورة ٢٣ يوليو ترتفع الأصوات بين التمجيد والتحقير .. بعيداً عن الرؤيتين.. ماذا بقى من ٢٣ يوليو يمكن أن تحمله مصر فى حقيبتها إلى القرن الجديد دون أن يكون عبئاً على اختياراتها وانطلاقاتها إلى آفاق أرحب ؟

** يبقى شيء مهم لايجب نسيانه .. ولايجرؤ أحد على ذلك وهو ما أسميه (الفخر القومى) . لقد أمكن تعبئة الأمة حول أحلام عظيمة . وكان جيلنا معبئاً واسعاً من هذا الجيل وكانت بالفعل ثورة تحرير ليس فقط بالنسبة لمصر ولكن ـ كشأن الثورات الكبرى ـ فى محيطها العربى والأفريقى ـ الفخر بالدور تتناقله الأجيال والاستقبال الحافل الذى قوبل به فيلم (ناصر ٥٦) كان سببه أنه تعبير عن فترة الكبرياء والشموخ بالدور!الذى لعبته مصر فى مواجهة قوى كبرى عاتية!.. لذلك فإن كبرياء الأمة وثوابتها التى أحيتها ثورة يوليو هى التى ستنظم حركة المستقبل.. وستظل هذه الثورة بإنجازاتها ـ مع مراعاة نكساتها ـ نقطة وثوب وتعبير عن قدر قومى نحتاجه بالفعل من أجل الغد .

الثمن باهظ

* ولكن هناك الكثير الذى يجب أن تتركه مصر خلفها بعدتجارب طويلة ، هناك أيضاً الكثير الذى اكتشفنا أهميته بعد أن دفعنا ثمناً غالياً ألا ترى ذلك ؟اوالجدل الطويل الذى عشناه حتى يكون لدينا إجماع على أن مأزق الديمقراطية كان ثمنه باهظاً لايمكن أن ننساه ؟

** البعض حاول توصيف نظام عبدالناصر على أنه نظام ديكتاتورى ـ هذا غير صحيح ولكنه كان نظاماً شمولياً وهناك فرق كبير ، وأحب أن أقول إنه فى عهد عبدالناصر كانت مؤسسات، واحترام كبير لدورها كانت هناك مثلاً .. اللجنة التنفيذية العليا وهى القيادة العليا فى التنظيم الواحد آنذاك (الاتحاد الاشتراكى) .. وثبت فى العالم كله أن هذا التنظيم الواحد لم يعد مرشحاً لدور فى المستقبل .. وهذه قضية غير قابلة للجدل .. لم يعد هناك مجال للحزب الواحد .. ولكن فقط حتى لانجلد أنفسنا بدون إدراك علينا أن نتذكر أن الوقت فى تلك السنوات كان مختلفاً عما نحن فيه الآن .. كنا نعيش فترة الشرعية الثورية ، وكانت الرغبة السائدة هى تعبئة الأمة ضد الاستعمار من جانب ، ثم نقل العلاقات الاجتماعية وتغييرها .. وعادة ما تتغير هذه العلاقات فى زمن الثورات بالعنف ولكن كان الحزب الواحد هو البديل ، أيضاً كان هناك تصور سائد فى تلك الحقبة أن التخطيط المركزى هو الذى يحقق الأهداف المرجوة ، وكانت النماذج الكبرى أمامنا تؤكد ذلك ـ خاصة مع الحرب الباردة التى اقتربنا خلالها من الاتحاد السوفيتى ـ وقد لعب التهديد الإسرائيلى دوراً مهماً فى هذا الاقتراب لأن المعادلة البسيطة التى كانت سائدة أنه مادام أن الولايات المتحدة والغرب مصدر تسليح إسرائيل فلن يحدث توازن إلا من خلال القوى العظمى الأخرى وهى الاتحاد السوفيتى آنذاك .. وهذه كلها عوامل تاريخية لايمكن نسيانها، إن تأثيرها فى سيادة الرؤية الشمولية ـ أيضاً ساهم المثقفون والمفكرون فى التبشير بذلك .. فكان توفيق الحكيم يكتب عن الديكتاتور العادل ـ وثبت أنه لايوجد ديكتاتور عادل، أيضاً يجب أن نعرف أن الحكم العسكرى كان مطلباً شعبياً فى معظم أرجاء المنطقة وهذا يفسر كيف تحول الانقلاب العسكرى ليلة ٢٣ يوليو

١٩٥٢ إلى ثورة ، كان التغيير مطلباً ضرورياً وكان الجيش أحد القوى المرشحة للقيام بذلك، وهذه الظروف كلها لايمكن تجاهلها ونحن نضع توقيعنا على كشف حساب ختامي يمكن أن يفيد المستقبل .

* أتخيل أن هذا التوقيع لن يكتمل بهذا الطرح .. فأنت بحديثك عن الانتظار الذى كان قائماً للحكم العسكرى تلغى كفاح فئات الشعب المصرى ومؤسساته الأهلية منذ عرابى وتلغى أدواراً وطنية لأحزاب وقيادات ضحت بالكثير قبل ١٩٥٢ ؟

** بداية هناك خطأ فى التعبير .. فأنا أقصد التغيير بالجيش وليس حكم الجيش .. وحديثى عن الجيش ودوره لايلغى كفاح الأحزاب والتنظيمات الوطنية الكثيرة التى ناضلت من أجل الاستقلال ـ لكن لايمكن تجاهل ما جاءت به الثورة من بعد اجتماعى لم يكن موجوداً ضمن ملفات الأحزاب والقوى الموجودة على الساحة آنذاك .. وكان التصور السائد أن البعد الاجتماعى ممكن أن تكون له الأسبقية ـ حتى لو كان على حساب البعد الديمقراطى وهذا فى اعتقادى الخطأ الوحيد الحاسم فى تجربة الثورة .. لأن الأحداث أثبتت أن الحاجة للبعد الاجتماعى كانت ضرورة فى مجتمع يمتلك مقدراته النصف فى المئة وهذا النصف هو الذى يمارس الحياة على أرض مصر والباقى كله ملغى .. وكان الفقر سمة الحياة حتى أن الحديث عن المستقبل فى تلك الأيام كان يعنى الحديث عن مقاومة الحفاء !! إذا كنا نتحدث فى نهاية التسعينيات عن مستقبل الأجيال الجديدة وعلاقتها بالتكنولوجيا .. فإن فى نهاية الأربعينيات كان ثلاثة أرباع الشعب المصرى يعانى من (الحفاء) .. فى أوائل الخمسينيات جاءت الثورة على هذه الأرضية ـ ولكنى أعترف أنه رغم أهمية هذا الواقع الاجتماعى فإن العلاج لا يجب أن يكون على حساب الديمقراطية السياسية والمجتمع المدنى وإن كنت أحب أن أؤكد أيضاً حتى لاننسى أن حجم المشاركة السياسية فى عهد عبدالناصر كان أكبر مما كان قبل الثورة ، لأن قاعدة المشاركة اتسعت وانضمت فئات لم تكن تحلم لا بالتعليم ولا بالسياسة ولا حتى بالتفكير ولم يكن لها نصيب من أى شىء فى المجتمع .

* أجد أنك حولت الإجابة عن المستقبل إلى دفاع عن عبدالناصر والثورة ؟ أيضاً ألا ترى أن المستقبل فى حاجة لنفكر فيه بجسارة أكبر ؟

** هذا ليس دفاعاً ولكنه تفسير . إننا نقول اليوم ياريت عبدالناصر اهتم بالجانب الديمقراطى والمدنى فى المجتمع مثل الاهتمام بالقضية الاجتماعية والاقتصادية ولكن يجب ألا نتناسى الظروف التى بدأت فيها الثورة مشروعها، وبهذه الرؤية أستطيع أن أقول أن الجسارة الحقيقية فى النظر للمستقبل تتطلب منا أن نعترف بأنه لايمكن أن يوجد مستقبل بدون ديمقراطية حقيقية وأقصد الديمقراطية بجميع أركانها السياسية والاقتصادية والثقافية .. وإذا كانت الأمانى القومية فى الخمسينيات والستينيات قد تركزت فى التحرر والاستقلال فإن الأمانى القومية للشارع العربى اليوم هى الديمقراطية واحترام حقوق الإنسان . وأحب أن

أقدم مثالاً على صحة رأيي بنموذج مانديلا .. فقد ولد في نفس العام الذى ولد فيه جمال عبدالناصر وبدأ بنفس الأفكار حول التحرر الوطني .. اليوم يتحدث عن قضيته الأساسية وهى الديمقراطية وحقوق الإنسان – وفى تصوري أن عبدالناصر لو كان بيننا اليوم لكانت قضيته اليوم هى الديمقراطية ولا سيما أنه كان شديد الالتصاق بأماني الناس .. وإذا كانت هذه الأماني في الأمس هى التحرر فإنها اليوم الديمقراطية ولاسيما أنه لايوجد طريق آخر للتقدم بديلاً للديمقراطية .. خاصة مع التطورات التى حدثت في وسائل الاتصال وثورة التكنولوچيا والمعلومات حتى أن الناس باتت تعيش قريباً من بعضها البعض ولم يعد هناك مكان لإقامة جدار يفصل البشر عن بعضهم البعض .

* كنت مسئولاً في أكثر المواقع حساسية منذ قيام ثورة يوليو .. ومن أبرز هذه المواقع أنك كنت وزيراً للدولة للشئون الخارجية – ووزيراً للإعلام والإرشاد .. ألا تعتقد أنك والنخبة التى قادت مصر منذ ٥٢ قد ساهمت في إشاعة ثقافة وفكرة (الرجل الأوحد) والتى توارثتها النخب التالية بعد ذلك مما جعلنا نلهث في سبيل إشاعة ثقافة التعدد والتنوع ؟

** أنا معك .. ولكن لابد من تصحيح مسألة مهمة وهى أن فكرة الرجل الأوحد غير صحيحة .. ولكن الصحيح أنه كان هناك التنظيم الأوحد وبالتالى لم تكن هناك ديكتاتورية ولكن كان هناك الحزب الشمولي – أيضاً .. لاتنس أنه في ذلك الوقت ساد التصور بأن الحزب الواحد هو القادر على تحقيق الأماني ومواجهة التحديات الداخلية والخارجية وعلى أساس أن هذه مرحلة استثنائية وعبدالناصر تكلم في بيان ٣٠ مارس عن مواجهة العدوان ، وأيضاً عن الديمقراطية وإذا كنت تشير إلى تحديداً كما يبدو من سؤالك أنني إذا كنت بقيت في منصبي كوزير ست سنوات ونصف فإنني ظللت عشر سنوات في السجن بسبب أفكاري ورأيي، وقد تطورت أفكاري كثيراً داخل السجن ولم تكن قضيتي عبدالناصر والسادات وأنا سجين ولكن التفكير فيما حدث وتوصلت إلى أن أزمتنا هي أزمة نظام، والدليل أنني دخلت السجن ليس لأنني فقط اختلفت مع أنور السادات .. بل كنت أدافع عن بعض تصوراته ولم تكن هناك مواجهة بيني وبينه، ولكن كل ما هنالك هو رأيي المخالف لمسألة الوحدة مع ليبيا أو تأجيل الحرب – أو رؤيته أن المشكلة مع إسرائيل يمكن حلها بدون حرب بينما كنت أرى أن لا وسيلة غير القوة للحل ودفعت ثمن رأيي عشر سنوات كاملة من عمري .. وعرفت بالفعل داخل السجن أهمية حقوق الإنسان كقيمة حضارية لابد أن تسود، وقد منحت حياتي منذ خروجي بالفعل لهذه القضية عن اقتناع بأن المستقبل مرتبط بإشاعة ثقافة وقيم حقوق الإنسان وأيضاً على سبيل التفسير وليس التبرير أقول بأن الظروف التى كانت سائدة أيام عبدالناصر كانت في كثير منها تعوق التحول الديمقراطي الحقيقي وكان هو ينظر للديمقراطية على أنه لايمكن تحقيقها بدون تحرير لقمة العيش ونصف المقولة صحيح بمعنى أن لقمة العيش ضرورة ولكن ليست هى كل مايطلبه الإنسان .

* فى أكثر من موقع من هذا الحديث تحدثت عن العلاقة والترابط مع الناس ولكن هناك من يرى أن هذه النخبة التى أطاح بها السادات فى ١٥ مايو كانت معزولة تماماً عن الناس حتى أنهم لم يتأثروا على الإطلاق عندما استيقظوا على انتصار فريق على آخر فى الصراع حول السلطة ؟

** إطلاقاً .. هذا ليس صحيحاً .. وفى ذلك الوقت لم ينس الناس ما حدث .. وفى ١٨ و ١٩ يناير ولو كان السادات على اعتقاد كامل بأن هذه المجموعة التى أدخلها السجن فى ١٥ مايو ليست لها علاقة بالناس .. ومنقطعة الأثر والتأثير فى الشارع المصرى لأطلق سراحها .. بالعكس هذه المجموعة لم تكن معزولة عن الناس لكن لاتنس حاجة مهمة أنه كانت هناك معركة أهم وهى معركة الأرض والتحرير .. لقد تقدمنا باستقالاتنا وقلنا لنترك الرجل يحارب بمجموعة أخرى أو يفكر مع مجموعة أخرى .. لقد كان الهدف هو المعركة وهذا ماشغل الشارع المصرى فى الأساس.

* إذا كانت تجربة السجن قد كشفت لك أهمية الديمقراطية .. فهل بلورت بنفس القدر رؤيتك لصورة المجتمع ترى أنها ضرورة فى القرن الواحد والعشرين ؟

** تبلورت صورة المجتمع المدنى بصورته الحقيقية وأنه ضرورة وجودية .. فلن توجد ديمقراطية حقيقية .. ولن تكتمل ملامح اقتصاد السوق بدون مظلة المجتمع المدنى ـ فليس من المعقول أن تكون هناك «خصخصة» وبجانبها قيود على النقابات المهنية أو اتحادات العمال وحق الأحزاب .. أيضاً لابد أن تتخلق مؤسسات المجتمع المدنى ولا أقصد بذلك الأحزاب ولكن أقصد المنظمات غير الحكومية والتى تتصوره معظم الحكومات العربية حتى اليوم أنها بالضرورة ضد الحكومات وهذا غير صحيح، فإن هذه المنظمات لابد أن تتعاون مع الحكومات فى كثير من المسائل .. والمجتمع المدنى تزداد أهمية أن يصبح حقيقة فى حياتنا بعد التطور العالمى وبدء تنفيذ اتفاقات تحرير التجارة العالمية «الجات» وما سيؤدى إلى ذلك من استقطاب شديد فى الفقر أيضاً ، والمجتمع المدنى ـ أو مؤسساته ـ مطالب ببعض التصحيح لهذه المشاكل، وإذا لم تكن هذه المؤسسات خاصة الأهلية قوية ومتعاونة مع الحكومات فإن سلبيات كثيرة ستتراكم وتزداد التوترات، أيضاً لايمكن أن ننسى ونحن ننظر للمستقبل أن المجتمع المدنى ينشأ بصورة تلقائية الآن بسبب العالمية .. وقد تجد بعض مؤسساته التمويل اللازم من الخارج وقد يجد حمايته أيضاً من الخارج ـ وهذه ظاهرة خطيرة .. لأن هذا معناه ظهور مجتمع مدنى عشوائى بسبب رفض الحكومات التى تعودت على نظام الحزب الواحد لفترة طويلة .

* ابتعدت عن العمل الحزبى بعد خروجك من الحزب الناصرى .. ولكن يظل السؤال قائماً ـ وأنت تتحدث عن المجتمع المدنى، عن أهلية الأحزاب المصرية لدخول المستقبل ؟ .. وكيف يمكن أن تتحدث عنها وقياداتها كلها تعانى من الكهولة، والأداء بداخلها فى أحيان كثيرة ليس له علاقة بالديمقراطية ؟ وأى دور ورؤيتها لموقع المرأة فى قمتها غير واضح ؟

** الأحزاب المصرية شكلية .. ولا أستطيع أن أقول بأن هناك حياة حزبية حقيقية ما لم يكن هناك فرصة أمام أى حزب على الساحة للوصول إلى الحكم، وبدلاً من السائد فى العالم من أن حزب الأغلبية هو الذى يشكل الحكومة فإن الحكومة لدينا هى التى تشكل حزب الأغلبية وهذا خلل فى الديمقراطية لدينا .. ويكفى كمثال على العقبات التى تواجه الأحزاب أنه لايوجد حزب يستطيع أن ينظم مؤتمراً جماهيرياً كبيراً مفتوحاً ـ بل المسموح هو تنظيم المؤتمر داخل مقر الحزب.. وفى أحيان يكون الحزب عبارة عن غرفتين !! صحيح لدينا نقطة جيدة وهى حق الحزب فى إصدار الصحف ولكن بعض الأحزاب أصبحت مجرد صحيفة ! أيضاً فإن حرية الانتخابات منقوصة وتلك مشكلة أخرى .. المهم أننى مصمم على أن الأحزاب محجمة وليست أمامها حريات حقيقية مما يؤثر فى تطورها، وقبل أن نلوم حركتها لنتأمل أوضاعها، ولنتذكر أن أهم الدروس التى خرجنا بها هى أنه لا ديمقراطية بدون معارضة حقيقية .. وللأسف فإن نتيجة الانتخابات فى معظم أرجاء الوطن العربى تؤدى بنا إلى الحزب الواحد ـ وإذا حاولت مرة أخرى الرد على حزمة الأسئلة التى يضمها تساؤلك .. فإنى أقول إن الصراع داخل الأحزاب ظاهرة صحية لأنها سعى لبلورة تقاليد ديمقراطية .. و رغم أننى بعيد عن الحزب الناصرى فإن للشباب فى اجتماعاته حضوراً مهماً بل إن سبعة أثمان الحزب من الشباب، ولكنى معك فى قضية المرأة وهى قضية المجتمع .. ولابد أن نقف عندها لأن الوضع فى العديد من الأقطار العربية غير سليم .. صحيح أن المجتمع المصرى فى هذه القضية أفضل حالاً لكن لأى نظرة على عدد المرشحات لأى حزب يجعلنى أمام مشكلة بالفعل وإذا سألت أى حزب يرد عليك بأن الناس لن تنتخب المرأة المرشحة عن الحزب ! فهناك مشكلة إذن فى المجتمع، وهناك كذلك مشكلة فى المرأة ذاتها لأنه ثبت أن المرأة لا تنتخب المرأة، وأعود وأكرر أن القانون يمنح المرأة حق الانتخاب والترشيح .. ولكن فى الواقع الفعلى فإن المجتمع لا يتحمس ولايثق فيها . وهذا يعنى أن المسألة أكبر من القانون .. إنها مسألة الثقافة السائدة والمفاهيم الموروثة .

ثقافة الكفاءة

* علاقاتك بالمثقفين والمبدعين قديمة وأخذت أشكالاً مختلفة سواء كنت وزيراً أو عندما أسست دار النشر الخاصة بك .. ما مدى ـ فى رأيك ـ مسئولية المثقف فى مصر عن سيادة الفكر الشمولى .. وما ملاحظاتك على علاقة المثقف بالحاكم ؟

** تعدد المنابر يمنح المثقف الفرصة للتعبير عن وجهة نظره .. وكلما تعمقت أفكار الديمقراطية وحق الاختلاف والتباين اتسعت مساحة الحركة أمام المثقف .. والحقيقة فإنه يبدو أنه فى المجتمعات النهرية مثل بلادنا ومن زمن قديم كنا نعبد الحاكم .. وكان السلطة لها بريق معين ، ولكن بتعميق الديمقراطية يمكن أن نتجاوز ذلك، أيضاً تم استخدام الدين لفترة طويلة لتأييد الحاكم .. وكذلك كانت هناك الثقافة التى تلتف أو تحتمى بالحاكم ، وهناك فى تراثنا وليمة شعرية كبيرة فى مديح الحكام .. ويبدو أن هذا الموروث القديم كان وراء تعميق فكرة الرأى الواحد فى بلادنا وإحاطة الحاكم بهالات ضخمة .. وعلى أية حال فإنها ظاهرة إنسانية موجودة وعلاجها يتم بتعزيز الحريات وثقافة التنوع .

* إذا كنت ومن خلال تجربتك تؤكد الحاجة اليوم لثقافة التنوع .. ألا تعتقد أيضاً أننا فى حاجة إلى ما يمكن تسميته بثقافة الكفاءة التى لم يؤسس جيلك تقاليد لها حتى باتت مشكلة جيلى اليوم والأجيال اللاحقة هى الحديث عن ثقافة (الواسطة) أو ثقافة المحسوبية بدلاً من ثقافة القدرة والتميز ؟

** أنت متأثر فى هذا المفهوم الذى تختزله بتركيز خطير فى إطار سؤال بالجملة الضارية التى قالت إن ثورة يوليو كانت تعتمد على أهل الثقة بديلاً لأهل الخبرة ، وأؤكد أن ذلك لم يكن صحيحاً إطلاقاً والأمثلة كثيرة : الدكتور عزيز صدقى كان كفاءة عظيمة وليس له علاقة بالجيش، ومحمد حسنين هيكل، ولبيب شقير، والدكتور محمود فوزى، والدكتور محمد عبدالجليل العمرى، والدكتور إسماعيل صبرى عبدالله والشرباصى، ورمزى استينو وعشرات من الأسماء والنجوم فى الصحافة والإعلام وحتى السلطة التنفيذية والتشريعية كانوا أصحاب خبرات وليست لهم علاقة بالجيش أو بفكرة الثقة .. إننى أؤكد أنه خلال حكم عبدالناصر كان الاعتماد على الخبراء والتكنوقراط أكثر من أى فئة أخرى .

ياعزيزى .. السد العالى أنشأه أهل الخبرة وليس أهل الثقة .. وبالتالى فهذه مقولة غريبة وبعيدة عن الثورة التى استعانت بالخبرات الحقيقية .. بل إن معظم نجوم الثورة كانوا من الخبراء المدنيين، ولكنى فى قضية تأمين الثورة حيث كانت تحتل بعض الأولوية وكان هذا وضعاً طبيعياً بسبب خطورة التحديات الداخلية والخارجية ، ومن ناحية أخرى .. فإنه كان من الصعب أن تحقق الثورة هذه الإنجازات الضخمة لو أن مقولة تفضيل أهل الثقة على أهل الخبرة حقيقية - أيضاً فإن التجربة الشخصية ليست كافية لإصدار الأحكام وتعميمها .. ولذلك فإن من لديهم مرارة من الثورة لأسباب مختلفة قد تشوب أحكامهم النقص .. وبأمانة .. لقد حرصت شخصياً وأنا فى السجن ألا تكون لدى مرارة نحو السادات حتى أستطيع أن أراه بدقة .. لذلك أرى كثيراً من الإيجابيات قام بها رغم أننى مازلت أقول أن هناك أخطاء عديدة ارتكبها .. ولكن تظل المسألة ألا تكون المرارة الشخصية هى مصدر أحكامى .

* الحديث عن ثقافة الكفاءة لا يجعل أمامنا مفراً من التساؤل حول الفرق بين رجال

عبدالناصر ورجال السادات وكنت وزيراً مع كل منهما ؟

** أعرف فقط وبدقة رجال عبدالناصر .. وقد لاحظت اهتمامه بكفاءة المحيطين به وبنزاهتهم بشكل كبير حتى أننى أعتقد أنه لايوجد حاكم شغلته نزاهة من حوله بهذه الدرجة ـ أقصد بالمحيطين به هؤلاء الذين يعملون معه مباشرة .. أيضاً قضية الأخلاق كانت تشغله .. طبعاً لاتقطع حديثى لتذكرنى بالمشير عامر .. لأن هذا موضوع مختلف لأنه ـ أى المشير ـ كان قيادة كبيرة وكانت هناك ندية بينه وبين عبدالناصر وهذا موضوع آخر .. ولكن أقصد برجاله هؤلاء الذين يعملون معه وبقوا معه وتنطبق عليهم تلك الصفات، وبعد رحيله ظلوا خارج الشبهات تماماً، أيضاً كانت هناك مساحة من الحرية تسمح بالاختلاف فى الرأى ـ أنا شخصياً كانت لدى وجهات نظر مختلفة أحياناً خاصة بالنسبة للموضوع الذى كنت مهتماً به وهو أفريقيا وللأمانة لم يكن يستأثر برأيه، وكان يحب أن يأخذ رأى المؤسسات ولايوجد مشروع كبير قام بتنفيذه اعتماداً على رأيه وحده أو بدون الرجوع لآراء مختلفة ومتنوعة .. أيضاً فى أيام عبدالناصر لايوجد ولو حالة واحدة تشير إلى استفادة أبناء المسئولين المحيطين به من أية امتيازات .. الحقيقة أن موقف الأجيال ودورها المستقبلى كان مسألة محسومة بفكرة تكافؤ الفرص .. وبغض النظر عما حدث فى مجانية التعليم، فإن المجانية كانت باباً واسعاً لتدخل منه شرائح عديدة للمشاركة فى البناء بدون عوائق بسبب الأصل الاجتماعى أو الطبقى .. كيف ننسى ذلك ولانستفيد منه ونحن نتساءل عن المشاركة الأوسع للناس فى بلدنا .

* ألم يتسرب إليك الندم وأنت فى السجن حتى عام ١٩٨١ .. أو عندما عدت إليه مرة أخرى فى حملة سبتمبر من نفس العام على اختيارات قمت بها ؟ وألم تشعر بذلك وأنت ترى الزمان يكمل دورته على مستوى الوطن العربى على العكس تماماً مما خرجت من أجله كضابط مدفعية ليلة ٢٣ يوليو ؟

** الإنسان الذى يستغرق فى الندم ـ خاصة فى السجن ـ يفقد نفسه ولكن ذلك لايعنى ألا يراجع الإنسان نفسه وتصوراته وبديهياته، ولكن ياعزيزى ماحدث فى مصر لايمكن أن يكون هباء إطلاقاً .. لأن معنى ذلك أننا ضد الحياة نفسها فى تطورها، مثلاً مساعدة مصر لحركات التحرر ودور القاهرة من أجل أفريقيا لايمكن أن يكون هباء وبدون مردود بدليل أن من يذهب إلى أفريقيا اليوم سيجد لمصر رصيداً حقيقياً .. وحتى اليوم تأتينى دعوات من رؤساء أفريقيا وأزور كل عام أحد بلدانها وكلها دعوات تعكس تكريماً لمصر .. ويعلم ذلك المسئولون اليوم ويتصرفون على هذا الأساس ـ أيضاً لمصر رصيدها العربى الكبير .. ورصيدها فى العالم الثالث يرجع فى جزء كبير منه إلى ما تم فى الحقبة التى يعتقد البعض أننا يمكن أن نندم على ما حلمنا به خلالها .

* إذا كان الندم بعيداً عن الرؤية فإن هناك من يتساءل أليس التراجع عن أيديولوجية

الأمس للتعامل مع تكنولوجيا اليوم جديراً بالتفكير وألسنا جديرين بالتفكير فى جديد ندخل به العصر ؟

** هذه آراء للبعض بغرض تشويش الأفكار .. فليس هناك بلد يتحرك بدون مشروع قومى ولايعنى ذلك إعادة عجلة التاريخ للوراء .. ولكن قراءة التاريخ تفيدنا فى ذلك .. ففى وقت من الأوقات كنا أصحاب مشروع قومى عن الوحدة العربية وهكذا .. المشروع نفسه تعثر .. ولكن فكرته لم تسقط .. والدليل على ذلك عصرنا نفسه .. فلم يعد هناك مكان للكيانات الصغيرة ولابد أن يضمنا كيان كبير .. ومصر دولة لها احترامها فى العالم ولكنها بدون العرب دولة فى حجم متوسط جداً لكنها بالعرب قوة وأى تفكير إستراتيجى لابد أن يراعى ذلك ، وأعتقد أن الرئيس حسنى مبارك مدرك لهذه الحقيقة بصورة كاملة للإنصاف ـ بل إننى عاصرت جهود الرئيس مبارك بعد خروجى من السجن، وكانت المشكلة الرئيسية أمامه منذ أن تولى المسئولية هى كيف يعيد العلاقات المصرية العربية لأنه يعلم أهمية مصر للعرب وحيوية العرب لأمن وانطلاقة مصر ـ النقطة الثانية .. وحتى لايقفز البعض لفرض الحصار على، فإننى أقول إن ذلك لايعنى العودة لنفس الرؤيات القديمة بل معناه أن المشروع العربى لابد أن يتغير ويتطور ـ بمعنى أننا فى مرحلتنا ظلمنا الخصوصية القطرية واليوم لابد أن ندرك أنه لاتناقض إطلاقاً بين الخصوصية القطرية وأن يكون العرب كياناً واحداً .. وهنا لابد أن تلاحظ أننى أستخدم لفظ «الكيان الكبير» وليست الوحدة بمعناها السابق لأن التفكير فى الوحدة العربية على نمط الوحدة المصرية ـ السورية يعتبر ضرباً من الخيال الآن، ولكن كعرب لابديل لنا عن الطريق الأوربى أى الذى سارت فيه أوروبا لتصبح كياناً مؤثراً فى العصر الذى نعيشه .. أيضاً .. لامفر من أن يقتنع العقل العربى بإسقاط فكرة أن الوحدة العربية يمكن أن تتحقق بالقوة .. لأن قبول فكرة القوة كوسيلة للوحدة فإن ذلك معناه ضرب الأمن القومى .. وعلى هذا الأساس لابد من تكرار الاعتراف بأن غزو العراق للكويت كان خطيئة كبرى وأساء للوحدة العربية ـ وبالمناسبة أيضاً للتذكرة وحتى لانقلل من شأن تجارب مصر التاريخية فإننا لابد ألا ننسى أن عبدالناصر رفض استخدام القوة ضد الانفصال فى سوريا بالرغم من أن هناك من يلوم عبدالناصر حتى اليوم على ذلك ايضاً فإن أى مشروع مستقبلى لابد أن يراعى الوحدة الحضارية وهذا يعنى أن يكون لنا مشروعنا الثقافى ورؤية واضحة للتعامل مع الآخر من جانب ومع العصر من جانب آخر .. وأن نقلل من جلد الذات وأن نقتنع بأن كل ما بذلناه بالأمس لم يضع هباء .. ولنتذكر أن الحلول البديلة لمشروعنا القومى الذى أسسته الثورة المصرية قد سقطت وتركت سؤالاً كبيراً هو .. كيف نواجه إسرائيل فى المستقبل بدون هذا المشروع الكبير ؟

لقد تعاملت إسرائيل معنا كدولة منفردة ونعانى هذا اليوم ..

* أعتقد أنني لابد أن أقطع استمرار أو تدفق الحوار لأقول بأن هناك فريقاً يرى أن المشكلة تكمن في هذه الرؤية التي تطرحها في المستقبل لأنها تنسى السلام مع إسرائيل وتتعامل معها بعقلية الحرب .. ففي مشروعك المستقبلي ـ مازلت تستبعد إسرائيل ؟

** هذا تشويش وخلط للمفاهيم تعكسه رؤية هذا الفريق الذي تشير إليه .. وفكرة هذا الفريق تعبر عن المشروع الإسرائيلي الذي تناقض مع المشروع العربي .. وبداية أحب أن أؤكد أنني مع السلام الدائم ولن يكون كذلك بدون أن يستند إلى العدل أما الذين يتحدثون عن أن تصبح إسرائيل جزءاً من المنطقة فإنهم يعبرون عن المشروع الإسرائيلي الذي يناقض المشروع العربي ـ وهذا الأخير .. لابد أن تكون مصر في الرأس والقلب منه .. مصر بحجمها وبثقافتها وتاريخها وحضارتها .. أما مشروع الشرق الأوسط فإن المفروض أن تكون إسرائيل هي محوره .. والمستهدف هي مصر .. لذلك سيظل الصراع قائماً بين المشروعين والتاريخ معنا في ذلك ولايمكن أن نتنازل عن دورنا .. وكوننا نقبل إسرائيل في المنطقة فهذا يطرح أسئلة بالجملة على الذين يروجون لذلك : كيف نقبل إسرائيل وهي تحتل الجولان ؟ كيف نقبلها وهي ترفض عودة اللاجئين؟ كيف نقبلها وهي تعتدي يومياً على حقوق الشعب الفلسطيني ؟ ولابديل أمام إسرائيل إذا أرادت أن تصبح جزءاً من المنطقة من أن تعترف بالحقوق العربية وليس باعتبارها دولة انتصرت بصورة نهائية على خصومها ، ولن يقلل من ذلك أن تقول إن إسرائيل في موقف أقوى بالفعل حالياً وذلك بسبب الخلافات العربية ولأنها الحليف الإستراتيجي لأقوى دولة في العالم وهذه كلها أوضاع لن تستمر للأبد وأنا أتحدث عن أجيال وليس عن عشر سنوات مثلاً .. إذاً فالصراع ممتد .. وهو في جوهره صراع يستهدف تهميش دور مصر وأن تأخذ إسرائيل دور الدولة المحورية في المنطقة ـ وإذا كنا نتكلم عن المستقبل فنحن الأقوى بالرغم من الحالة المتدنية التي يحياها العرب .. ولكن بالتأكيد فإنهم يدركون خطورة الموقف .. ولابديل آخر عن الصراع إذا لم يتم إعلاء قيمة العدالة كمفهوم أساسي في المنطقة .

* يختلف معك بقوة فريق من أصدقائك يرى أن ماتطرحه هو عبارة عن رؤية للمستقبل ـ في قضية الصراع ـ بعيون الماضي، ويرى أن التقارب الشعبي كفيل بإذابة الحساسية بين العرب والإسرائيليين وقد تحرك هذا الفريق وذهب إلى كوبنهاجن اقتناعاً منه بأنه يعمل لمستقبل آمن في علاقة العرب بالإسرائيليين ؟

** اسمح لي أن أصف هذه الرؤية بأنها تهاون في حق الوطن لأنني أتهاون مع عدو يحتل الأرض ويعذب البشر ويفرض شروطه ، أنا لا أرفض السلام .. وقلت عن آخر الجهود في تلك المسيرة وأقصد اتفاقية أوسلو إنها لم تحقق أحلام الفلسطينيين أنفسهم والدليل على ذلك مايحدث اليوم في الأرض المحتلة .. وأوسلو وضعت ياسر عرفات في وضع بالغ الدقة

والصعوبة ونتائجه تظهر أمامنا .. أما ما يقوله فريق كوبنهاجن من الحوار حول السلام الآن فإننى أرد وأقول بأنه حوار لايحترم حقوقى لأنه سلام بدون عدل حتى أنه توجد منظمة عالمية فى إيطاليا اليوم تحمل عنواناً هولاسلام بدون عدالة .

فالسلام الآن الذى يدعو إليه البعض تحت مظلة أننا ضعفاء وليس فى الإمكان أروع مما هو مطروح وأننا لابد أن نسير على هذا الطريق بدون أن نفكر فى مدى عدالة المطروح هو جريمة !

وأقولها صراحة إن قصة كوبنهاجن انتهت بكشف مصالح بعض أبطالها وأهداف البعض الآخر .

* قلت إن كوبنهاجن أدت مهمتها أو الهدف منها وانتهت ، ماذا تعنى بهذا الكلام ؟ .. يبدو للبعض أن رفضك الشديد لسعى البعض إلى تيسير الظروف من أجل الخروج من نفق الصراع العربى ـ الإسرائيلى وكأنك تمنع فريقاً من الاجتهاد ؟ .. من ناحية أخرى ، يبدو وكأن جيل مابعد الحرب العالمية الثانية يريد أن يستكمل دوره على أبواب القرن الواحد والعشرين .. أليس كذلك؟

** بصراحة .. ليس من حق جيل أن يحرق فرص جيل آخر ، الذى لا أستطيع الحصول عليه لأترك جيلاً آخر يحاول ذلك .. والمسألة أن البعض يعتقد أن هناك فرقاً بين نتانياهو وبيريز .. والحقيقة ليس هناك اختلاف فى الرؤيات إنما فى الأسلوب فقط .. والحقيقة أن الفكرة الحقيقية وراء كوبنهاجن تكمن فى أن رجل الأعمال المصرى إبراهيم كامل كان يرغب فى القيام ببعض المشروعات الاقتصادية مع الإسرائيليين وكانت مجموعة كوبنهاجن هى المقدمة كنوع من التأمين ، ولذلك لم نسمع لهم صوت داخل إسرائيل والفريق الإسرائيلى الذى تم الالتقاء معه كان يضم رجل مخابرات إسرائيلى .. فهل هذا هو الفريق الذى أسعى للحوار معه ؟ وأنا شخصياً ليس لدى مانع من الحوار مع أى إسرائيلى بشرط أن يعلن عن استعداده لإعطاء الفلسطينيين جميع حقوقهم.. أين هذا الإسرائيلى الذى يرى أن الحياة تقوم على العدالة وليس على القوة ؟ .. أين الإسرائيلى الذى يمكن أن يعترف بوجودى ويحترمه ؟ هذه هى الأسئلة .

الشعارات أم المستحيل ؟

* هناك من يرى أن هذه الرؤية التى تطرحها هى رؤية الذين يطالبون بالمستحيل كله دون التفكير فى الممكن المتاح أمامهم .. وهى الرؤية التى أضاعت الكثير من الحقوق العربية طوال سنوات الصراع العربى الإسرائيلى بسبب الشعارات الحماسية التى لايمكن ترجمتها إلى واقع ؟

** هذا ليس بصحيح .. ياعزيزى كان الشعار إعلاناً عن رؤية لتعبئة الناس مثلما كنا نقول أن مصر والسودان بلد واحد .. كان شعاراً فى وقت وأيضاً رؤية . المسألة أن لا أحد يريد تعبئة أحد اليوم !! فيذهب من يريد أن يتفاوض مع العدو بدون أى شىء يربطه بأى شىء ! .. ولذلك كنت أتساءل حول غضب لطفى الخولى وأقول ألا يريد من يقول له حذار ! أيشعر بالضيق لمن يحاول منع الاندفاع بدون احتجاج .. لسنا ضد السلام .. ولكننا مع الإيمان بأنه لا سلام بدون عدالة .. وبصراحة إن إسرائيل تسعى للقضاء على بقية حالة الرفض السائدة فى الروح العربية .. والذين يقولون أن هذا غير حقيقى بدليل التطبيع مع مصر ، أقول لهم هذا غير دقيق .. لأن التطبيع الذى تقوم به إسرائيل مكلف لها للغاية .. فهو لايتم بالصورة التى ترضاها ، إنها تريد تطبيع (سداح مداح) .. وهذا لم يحدث فى مصر أبداً ، وبصراحة لايتعامل مع إسرائيل إلا من يفضل مصالحه الشخصية على مصلحة الأمة .. ولذلك فإنه يشعر بالقلق ويحتاج التشجيع فيجد من يقول له : بلا وطن .. بلا شعارات .. بلا أيديولوچيا .

* لو ظهر من يرد على هذا الكلام ويقول أن الأستاذ محمد فائق يتحدث عن الصراع العربى – الإسرائيلى بمنطق مشروع .. فشل أو سقط، ويرفض نفسياً تبنى مشروع آخر لحل هذا الصراع .. فماذا تقول ؟ .

** هذا غير صحيح .. أى مشروع رفضته ؟ .. المشروع الإسرائيلى ؟ نعم أرفضه .. لن أقبل المشروع الإسرائيلى الذى يجعل العرب درجة ثانية ، لن أقبل أى مشروع يهمش دور مصر ليتربع هو على عجلة القيادة ، ولن أقبل الدور الذى يجعل إسرائيل الدولة المحورية فى المنطقة على حساب العرب .. وبصراحة لايستطيع أحد أن يقبل ذلك علناً ! وهل يقبل أحد أن يفرط فى الحقوق الفلسطينية تحت أى مسمى ؟ .. وهل يقبل أحد أن يفرط فى القدس ؟ .. أنا لا أتكلم فى الماضى ، ولا أعيش فى الأمس ، أنا أتحدث عن المستقبل .

* الحديث عن المستقبل لايمكن أن يتجاهل الواقع وفى مقدمته أن العالم تغير وأن صورة الوطن العربى تغيرت وأن رؤيته تغيرت وأن قصة السلام باتت قصة مفروضة لايمكن تجاهلها بعدم قراءة فصولها التى تجرى حولنا ؟ .

** أوافق على كل ما قلت .. ولكن أتحفظ فقط على قصة السلام ! أى سلام الذى أصبح واقعاً ؟ .. السلام لم يصبح حقيقة ونظرة على مايحدث فى الأرض المحتلة ، ونظرة أخرى على سلوكيات إسرائيل تؤكد أن السلام لم يصبح حقيقة .

* ولكن إسرائيل حقيقة .. ولايمكنك تجاهل ذلك بعد كل هذه السنين ؟ وهل مازلت ترى أنه لابديل عن مشروع الستينيات فى المواجهة ؟ .

** نعم إسرائيل حقيقة .. ولكن تطلب منى أن أتعامل معها فلابد أن تكون هى مهيأة لذلك بأن تعترف بحقوقى وأن يكون التعامل على مستوى الندية وليس على أساس أن إسرائيل هى

الدولة المنتصرة التى تملك الحل والربط .. من ناحية أخرى فإن لكل مرحلة طريقة المواجهة الخاصة بها ولاتحاصرنى فى مربع ضيق بغرض أن أضطر للتسليم بالمشروع الإسرائيلى !! أنا مع السلام وأنا أفهم أن هناك دولة موجودة اسمها إسرائيل ، ولكن هل يعنى ذلك أو يترتب عليه التفريط فى القدس ؟ .. لا أظن .. وبصراحة : هل كل رؤية مختلفة مع السائد ننظر إليها ونصفها بأنها من الماضى وأننا يجب أن نتعامل مع الواقع ، لا .. الواقع ليس معناه قبول كل مايُفرض علىّ .. إنما الواقع هو أن أبدأ بمعرفة ما هو قائم ولا أنكره .. فإسرائيل فى وضع أقوى اليوم ، والعالم تغير .. هذا واقع .. ولكن أن أدعو إسرائيل لقيادة المنطقة وأن أتراجع أنا فهذا موضوع ليس له علاقة بالواقع ! .. إن أعظم شىء فى الشعب العربى هو إحساسه القوى بالحياة .. مثلاً حدث انقسام حول كامب ديفيد بين مؤيد ومعارض .. ولكن حدث إجماع من الشعب ضد التطبيع ولم تنجح إسرائيل حتى اليوم فى الوصول إلى قلوب المصريين .. إن مصر هى الهدف الذى لايغيب عن إسرائيل . فهل أنا أنتمى إلى الماضى لأننى أقول أنه لامفر من أن تملك مصر مشروعها الذى يجمع شعبها ؟ وإذا كنت تطالبنى بالواقعية ، فلماذا لاتطالب نفسك ببعض منها يسمح برؤية الأخطار التى تبدو واضحة .

* حدثت تغيرات عديدة فى اختيارات بعض ضباط يوليو وكان اتجاهك للاهتمام بقضايا حقوق الإنسان منذ أوائل الثمانينيات وأنت الآن أمين المنظمة العربية لحقوق الإنسان .. كيف تبدو صورة الوطن العربى وبماذا تبرر تجاهل جيلك لهذه القضية الحيوية ؟ وكيف تفسر الإحساس بأن حركة حقوق الإنسان تبدو وكأنها ظهرت بتأثيرات غربية أساساً ؟ وأنها أشكال للمعارضة ضد الحكومات السائدة بصورة غير مباشرة ؟ .

** صورة حقوق الإنسان فى الوطن العربى شديدة التخلف .. بل الأكثر تخلفاً فى أحيان كثيرة من أمريكا اللاتينية وآسيا وبعض البلاد الإفريقية . وهناك ارتباط بين الديمقراطية وحقوق الإنسان .. وغياب الأولى يعوق نمو الثانية ، ولكن الديمقراطية كقيمة مثل السعادة قد تختلف حولها وجهات النظر ولكن تشعر بغيابها فور حدوث ذلك . أما الحديث عن حقوق الإنسان يعنى الحديث عن أمور محددة .. وقد باتت هناك اتفاقات دولية تتحدث عن ذلك وفى مقدمتها اتفاقية العهد الدولى الخاص بالحقوق السياسية والمدنية والعهد الآخر الخاص بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، وهما اتفاقيتان أجمع عليهما العالم بحضاراته المختلفة وأصبحت معظم الدول مصدقة عليهما .. إن الحديث عن حقوق الإنسان يعنى أموراً محددة مثل عدم جواز الاعتقال بدون محاكمة .. وإذا حوكم يكون أمام قاضيه الطبيعى .. أما التجاهل الذى تشير إليه فإنه يتناسى ان الثورة كانت عملاً استثنائياً . من جانب آخر فإن قضايا حقوق الإنسان واتفاقياتها لم تصبح نافذة إلا فى السبعينيات وبالتالى لاداعى للإيحاء فى متن السؤال .. وأعود وأقول لك أن

اختيارى لقضية حقوق الإنسان كقضية حياة لإيمانى بأنها القضية الأساسية التى تقود للديمقراطية لأنها تقر حق الإنسان فى الانتخاب والتعبير وغيرها .. وبتطبيعها سنصل إلى المجتمع المنشود ، ورغم سوء الأوضاع على مستوى الوطن العربى إلا أن هناك تفاوتاً .

أما الحديث عن الخصوصية وأن هذه المنظمات تبدو امتداداً لمثيلاتها فى الغرب ، فأقول لك إننا فى مؤتمر فيينا ركزنا على مسألة الخصوصية الحضارية ، ولكن هذه الخصوصية لاتعنى الإفلات من القواعد . إن الخصوصية تسمح لك بتطبيق هذه الاتفاقيات بمفاهيمك وبدون تعارض مع قيمك الدينية والثقافية .. والخصوصية تعنى أن أفهم جيداً أن الدين الإسلامى أعطى حقوقاً للإنسان أوسع مما أعطت القوانين الوضعية وبالتالى فالطريق أمامى مفتوح . وبالنسبة لمشكلة الإحساس بأن حركة حقوق الإنسان محسوبة على المعارضة ، فإنها مشكلة الحكومات لأن منظمات حقوق الإنسان لاتسعى إلى السلطة، ونحن حريصون على الفصل بين ما هو حزبى وما هو قانونى .. ومنذ توليت مهامى ابتعدت عن كل عمل حزبى حتى لايحدث خلط وأن المنظمة لخدمة اتجاه معين .. نحن فقط نقلق مع أى انتهاك لحقوق الإنسان وفى حالة حدوث إيجابيات نشير إليها .. ونعرف جيداً الفروق من دولة إلى أخرى . ففى قُطر نتحدث عن حق المرأة فى قيادة سيارة .. وفى قُطر آخر نتحدث عن حقها فى أن تكون رئيسة جمهورية ، وفى بلد آخر مثل الجزائر نفهم خصوصية الحالة هناك ونسعى ونفهم أن الإسلام هناك هوية والمشكلة أن الهوية الجزائرية لم تتشكل وهذا عكس مصر .. بينما فى الجزائر نجد وطناً منقسماً يريده الإسلاميون على صورة ، والعلمانيون على صورة أخرى ، والفرانكفونيون على صورة ثالثة ، والبربر يريدون شيئاً مختلفاً .. لذلك فإن مايحدث هو نوع من الحرب الأهلية وكل طرف يسعى لنفى الآخر . لذلك ننظم قريباً ــ المنظمة العربية لحقوق الإنسان ، مؤتمراً عن التسامح .. وكيف تسود ثقافة أنا والآخر وليست أنا أو الآخر .. وبأمانة فتلك مشكلتنا فى كل الوطن العربى وكيف أننا نتجاهل تراثنا الذى قال على لسان أبو حنيفة «رأيى صواب يحتمل الخطأ» ومشكلة سيادة ثقافة نفى الآخر ترجع أحياناً للجانب السلبى فى التراث وفى أحيان أخرى لانتشار ثقافة الحزب الواحد التى انتشرت مع حركة التحرر الوطنى وآمنا بها جميعاً فى ذلك الوقت .. أتفق معك على أن هناك التباس يحيط بقضية حقوق الإنسان فى الوطن العربى حتى أن رئيس رابطة حقوق الإنسان فى الجزائر ــ وهى فرع المنظمة العربية لحقوق الإنسان ــ قُتل ولم نعرف القاتل .. ولكنه قُتل وهو يسعى للتوفيق بين الأطراف المتصارعة تحت مظلة التسامح ! لم يتقبل البعض هناك فكرة الحديث عن التسامح والتعايش .

* هذا يعنى أن تغييراً واسعاً حدث وأصبح المثقفون العرب فى حاجة لتقديم اجتهادات جديدة، وأذكر أن بعض هؤلاء يرى أن أبرز ماحدث فى حياتنا هو سقوط الفكر القومى العربى وأنه آن الأوان للبحث عن بديل ، وذلك بأثر رجعى منذ نكسة يونيو ٦٧ ؟ .

** بداية لاينكر إنسان أن نكسة يونيو كانت صدمة كبيرة للإنسان العربي في كل مكان ، ولكنها أيضاً كانت ظلماً للجندى العربي الذى حُرم من فرصة حقيقية للقتال . ولكن لايجب نسيان أن لهذه النكسة أسبابها العديدة ومنها العنصر الخارجي الذى لم يعد خافياً .. وأيضاً لايمكن تجاهل الأسباب الداخلية للنكسة أيضاً ، فإن ما حدث في يونيو ٦٧ كان كافياً لإسقاط النظام ، ولكن الشعب المصرى والعربي أعاد الشرعية لهذا النظام وبسرعة فائقة .. ولكن هل يعني ذلك أن أصل لنتائج تفترض سقوط هوية الأمة ؟ .. بالعكس إن الفكر القومى جدير بالدفاع عنه اليوم في ظل المتغيرات العديدة وأن نكون فاعلين في النظام الدولى الحديث بدون رؤية تفترض أن الترب كياناً قوياً وواحداً وليس العكس .. وبالمناسبة لا مجال للخلاص الفردى وأن إهمال الرؤية العربية الواحدة ستعود بالخسارة على الجميع .

سيجار لعشر سنوات

* الناس في بلادنا علاقة خاصة بالسلطة ولمقعدها جاذبية والضوء حولها فاعلية في جذب القلوب والتأييد .. ولكن تتغير أمور كثيرة بعد أن تدير الأيام ظهرها .. وبعد أن يتم الإعلان عن انطفاء أضواء أفراح السلطة .. ويبقى للمسئول في أحيان كثيرة إما المرارة مما حوله ، أو الندم على خطأ تقدير في الماضى .. ويظل الناس مشكلته ، وأنت أمضيت عشر سنوات في السجن .. قبلها كنت نجماً لامعاً إعلامياً وسياسياً ووطنياً .. كيف عشت تجربة الخروج من تحت الضوء ليس إلى الظل بل إلى ما هو أصعب ؟ .

** الحمد لله .. لقد كنت محظوظاً وعاملنى الناس بدفء شديد ومعظم الرؤساء الأفارقة بعثوا برسائل وبمندوبين إلى بيتى يعرضون المساعدة ومن رجال الإعلام والصحافة كان الكثيرون حريصون على الاتصال والتخفيف عنى والتعبير عن مشاعرهم الطيبة .. كان هناك المرحوم أحمد بهاء الدين وكان هناك المرحوم موسى صبرى الذى كان يعبر عن مشاعره بدفء حقيقى ودائم السؤال عنى والحديث بصورة طيبة .. وبالنسبة لهيكم التقينا معاً في السجن بعد أحداث سبتمبر وتم امعتاب على أشياء كثيرة وتجاوز أشياء كثيرة .. أيضاً ظل الكثيرون من الإذاعة على اتصال وإرسال الدطابات .. وأنا معروف أننى أدخن .. وقد ظللت طوال عشر سنوات أدخن السيجار الكوبى مجاناً حيث كان يرسله زملائى وأصدقائى من وزارة الخارجية !! .. الدكتور أسامة الباز لم يكن يتردد في الاطمئنان المستمر على أحوالى .. السيدة جيهان السادات كانت لاتذكرنى إلا بالخير في الوقت الذى بعث لى الرئيس السادات - بعد خمس سنوات من السجن - من يقول لى أن الرئيس قرر الإفراج عنك واكتب له رسالة فيها طلباتك مع اعتذار عما حدث .. فقلت له أن هناك من يجب أن يعتذر فهو السادات نفسه ، ولو كتبت هذه الورقة سوف أفقد نفسي للأبد .. ولكن لو كان هناك عمر فسوف أخرج

من السجن مرفوع الرأس .. ووصلت هذه الكلمات إلى السادات وكانت سبباً فى غضبه ، ولكن بالأمانة ظلت آراء السيدة چيهان المشجعة والطيبة حولى تصلنى وأحس بالتقدير لها .

* ولكن يبدو أن هناك مرارة أو ثأراً مع السادات بعد كل هذه السنوات ؟ .

** إطلاقاً .. لم أشعر بمرارة ويعلم الله لم أحس فكراهية أبداً له ، ولم أعش فى انتظار الشماتة . ولعل ذلك يعود أيضاً إلى الوعى الذى جعلنى بمجرد دخولى السجن أن أنظر للمجموعة التى سجنت فى أعقاب نكسة ٦٧ ومحاكمات الطيران ومابعدها مثل صدقى محمود وجلال هريدى وغيرهما .. نظرت وتساءلت ما هى الأمراض التى أصابتهم ويجب أن أتجنبها .. ومنضمن ما اكتشفت أن هناك كراهية لعبد الناصر بينهم بطريقة لايمكن شرحها لدرجة أنهم وهم يفسرون الأحداث داخل السجن يقولون أن حرب ٦٧ نظمها عبدالناصر للخلاص من عبدالحكيم عامر ! .. إذن فالكراهية تمنع من الرؤية - ولهذا حاولت تجنب ذلك فخرجت من السجن بدون مرارة .. وبعد خروجى من السجن قوبلت بطريقة عوضتنى عن الكثير ، سواء كان ذلك داخلياً فى أوساط الإعلام والصحافة أو فى أوساط وزارة الخارجية ، ولقيت الكثير من التكريم عربياً وأفريقياً .. ومنذ اللحظة التى خرجت فيها من السجن استقبلنى الرئيس مبارك بصورة طيبة للغاية ولقيته مرات عديدة وكُلفت بأشياء عديدة عربياً وأفريقياً .. بالعكس . الذهن المصرى التقليدى سمة رائعة تذيب الكثير من المشاعر السلبية .. ولاتوجد شخصية أشعر أننى أذكرها بأحاسيس سلبية .. و السادات نفسه عرفت أنه كان يبحث عن مخرج لى ومشكلته أنه كان يرغب فى أن أعتذر وقال ذلك لمحمد حسن الزيات «قريبك ما بعتش اعتذار».

* قد يتساءل البعض ما المشكلة فى أن يعتذر إنسان أمضى خمس سنوات فى السجن والعمر يمضى ورئيس الدولة غاضب عليه .. وغضب الرؤساء فى العالم الثالث مصدر المتاعب الدائمة؟.

** ويضحك محمد فائق من قلبه : أعتذر عن إيه بالضبط ؟ . إنت صدقت إن كان فيه مؤامرة ضد الرئيس السادات .. بالمناسبة لا أحد يصدق ذلك منذ وقت طويل .. والمجموعة التى أتهمت فى هذه القضية ليست مجموعة واحدة وبينها اختلافات عديدة .. وأنا لم أخطىء فى حق أحد حتى يكون الاعتذار هو الثمن .. كل مافعلت أننا أعلنت الإستقالات بعد وصولها إليه.

* ولكن يبدو أنك أردت إحراج الرئيس أو الضغط عليه ؟

** صدقنى إطلاقاً لم يحدث ذلك . المشكلة أننى كنت أحس بضيق شديد ، فقد كنت مسئولاً عن الإعلام .. وأتولى شحذ نفوس الناس من أجل المعركة وهو يمارس كل ما يؤخر هذه المعركة .. فقلت له فى خطاب الاستقالة أنه بالأمانة مع نفسى ومعك لا أستطيع الاستمرار .. وأيضاً أردت إخبار الناس أن هناك إختلافاً وأن هناك فريقين وهذه هى الصورة

الحقيقية .. وأن من حق الرئيس أن يختار الناس الذين يعمل معهم وأن يبتعد المختلفون معه ، وبيني وبينك لم أتخيل أنني سأقضي عشر سنوات في السجن ! فلم تم دث أيام عبدالناصر .. فقد دخلت السجن بسبب خلاف سياسي وكنت أعتقد أنه بعد وقت قليل سيفرج عني .. ولكن يبدو أن حالة الرئيس السادات كانت شديدة التوتر ، وهذا يفسر إصراره على بقائي في السجن كل هذا الوقت .

والهوى أفريقي

* محمد فائق أحد عشاق أفريقيا .. وشديد الإيمان بدور مصر فيها ، ويعتبر دوره داخل هذه القارة من أهم الأدوار التي قام بها في حياته .. ربطته علاقات واسعة بقادتها وأبطالها وزعمائها .. ومازال يتذكر بشغف ذلك اللقاء الذي تم بينه وبين نيلسون مانديلا الذي جاء خصيصاً للالتقاء مع عبدالناصر الذي كان مشغولاً في ذلك الحين بزائر مفاجيء .. وتم الاتفاق بين محمد فائق ومانديلا على أن يكون اللقاء بعد أسبوعين .. وسافر مانديلا إلى جنوب أفريقيا وعاد إلى مصر بعد أكثر من ٢٧ عاماً قضاها في السجن .. حضر إلى القاهرة رئيساً لجنوب أفريقيا وعندما التقى مع محمد فائق ذكره بأن اللقاء مع عبدالناصر قد تأخر ٢٧ عاماً ولكنه لم ينس الموعد أبداً !! .. ولكن إذا كان مانديلا قد تأخر كل هذا الوقت ، فإن محمد فائق مازال عاشقاً بعنف لأفريقيا بالرغم من أن فيلسوف أفريقيا ومفكرها الكبير الدكتور على المزروعي خرج مؤخراً ليدعو الدول الإستعمارية الأوروبية للعودة لأفريقيا التي ينهشها الفقر وتمزقها الحروب القبلية .. فهل يخفف ذلك من حماس محمد فائق للنضال على الطريقة الأفريقية ويجعله ينظر لأفريقيا بعين مختلفة؟ .

** بالعكس ياعزيزي .. أفريقيا ليست كلها رواندا وبوروندي والصومال ، أنظر ماذا يحدث في الكونغو ، لومومبا يعود مرة أخرى إلى هناك من خلال الأفكار وبدأت تعود كدولة أفريقية بعد أن تم اختطافها بواسطة رئيسها المخلوع موبوتو والمساندة البلجيكية والأمريكية والفرنسية .. جنوب أفريقيا وعودتها للعائلة الأفريقية ، التطورات التي تحدث في كينيا .. رئيس زامبيا ترك موقعه بالرغم من أنه من الآباء المؤسسين ، هناك نهضة تحدث ، وهناك أزمة وحروب بسبب التطورات العالمية وانتهاء الحرب الباردة التي تركت خلفها كميات ضخمة من الأسلحة في أيد متعددة .

* أعرف حماسك لسياسة مصر الأفريقية طوال الستينات .. ولكننا إذا كنا نسعى لكتابة شيء مفيد على خريطة المستقبل ، فلا مفر من أن نتساءل حول ما قاله البعض ، ومنهم أساتذة للدراسات الأفريقية من أن طريق مصر إلى أفريقيا كان على جناح المخابرات وبالتحديد من خلال شركة النصر للاستيراد والتصدير ، ولعل ذلك كان وراء بعض الإخفاقات

فى مواجهة إنجازات إسرائيلية حقيقية هناك ؟ .

** هذه رؤية غريبة لدور مصر ومساهمتها العظيمة فى حركة التحرر الوطنى الأفريقى . وأفريقيا نفسها لاتنسى ذلك وأصبح هذا الدور رصيداً لمصر حتى اليوم ، ويمكن سؤال المسئولين فى وزارة الخارجية المصرية عن الميراث العظيم الذى تركته مصر هناك . والحديث عن المخابرات كلام لا أساس له من الصحة ، فالقاهرة كانت قاعدة لحركة التحرر الأفريقى .. ومصر لعبت دوراً مهماً فى تأسيس منظمة الوحدة الأفريقية ، ويكاد أن يكون مشروعها هو المصرى الذى تقدمنا به، وأول ما نتج عن هذه المنظمة هو لجنة التحرير ، وهى فكرة مصرية وكانت تضم ٩ دول أفريقية وكان مقرها دار السلام .. وكانت أول مرة فى التاريخ يُعلن عن لجنة باسم دول المساندة العسكرية لحركة التحرير .. وكان ذلك بسبب أن مصر جعلت من مقاومة الاستعمار بالكفاح المسلح حقاً معترفاً به .. وللحقيقة فإن أفريقيا نفسها تشعر بالامتنان لدور مصر . ولذلك فليس من حق أحد ـ مهما كان اختلافه مع ثورة يوليو ـ أن يقلل من هذا الدور لأن من يفعل ذلك يضر بمصر .. فالتاريخ ليس صناعة أفراد ولكنه حركة مجتمع ، وماقدمته مصر لايحق لإنسان أن يتناوله بخفة لأنه حق الوطن والأجيال المتتالية .

هوامش من الأحلام والمستقبل

بعد ستة أكواب من القهوة وأكثر من ساعتين من الحوار ، ظلت الحياة الخاصة للأستاذ محمد فائق بعيدة عن الغرفة ، وظلت الذكريات بعيدة ـ بقدر الإمكان ـ عن هواء المكان ، وكان السؤال الذى يشغلنى باستمرار مابين الملامح الشخصية لابن مدينة المنصورة والضابط الذى حاصر عابدين ليلة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ ، والوزير الذى تولى الإعلام والإرشاد ثم وزيراً للدولة للشئون الخارجية عام ١٩٧٠ ثم وزيراً مرة أخرى للإرشاد القومى بعد تولى الرئيس السادات ثم متهماً فى قضية القوى عام ١٩٧٩ ـ كان يشغلنى كيف يفكر هذا الجيل اليوم على أبواب القرن الواحد والعشرين.. وكانت الهوامش المتناثرة التى يتحدث فيها محمد فائق عن نفسه محاولة لاستكمال الصورة .. أو تقديم إطار :

قرأت معظم مذكرات الزعماء الذين دخلوا السجن ، قرأتها بإمعان وعرفت أن الأحلام هى التى تحمى الإنسان وتوفر له المناعة ، وإذا أشفق الإنسان على نفسه داخل السجن يضيع .. ولكن إذا تحدى الظروف المحيطة وصمم على الاستمرار لابد أن يتجاوز ما هو فيه .. وكان لدى ـ بالإضافة إلى ذلك ـ قضية ، كان من حقى أن أقدم استقالتى وإعلان الاستقالة حق من حقوقى أيضاً .

أكثر الشخصيات إلحاحاً على ذاكرتى طوال وجودى فى السجن كان جمال عبدالناصر .. لأننى لم أكن أتصور أنه بكل هذه العظمة التى تأكدت بعد غيابه ..

لا .. غير صحيح .. المشكلة كانت عند الرئيس السادات نفسه فى البداية .. وإن كان ذلك قد تغير بعد ذلك عندما بدأ يقول أنه آخر الفراعنة .. كان يقول ذلك لعبد المحسن أبو النور .

نحن مجتمع زراعى نهرى تنطبق علينا الكثير من سمات هذه النوعية من المجتمعات التى تشعر بالارتباط والحاجة للسلطة التى يمكن أن تمنع عنه المياه ، ولذلك يظل قريباً من هذه السلطة.. على عكس الحال فى المجتمعات الجبلية التى يشعر فيها الفرد أنه بعيد عن متناول السلطة وأنه فى حماية الطبيعة القاسية ، لذلك نرى فى المجتمع النهرى الضبط والربط مثلما الحال فى ضبط حركة تدفق المياه .

لايوجد مقياس واحد نحكم به على البشر ، ففى أحيان كثيرة تظهر السلطة أسوأ ما فى الإنسان .. هى لم تخلق السوء لكنها كشفته .. فالعيب ليس فى مقعد السلطة ، بل فى الإنسان نفسه ، وفى أحيان عديدة يكون الشخص المتميز فى مجال ليس كذلك فى مجالات أخرى عديدة . فالأستاذ الجامعى البارز قد لايستطيع أن يكون وزيراً ناجحاً وهذا ما لم ندركه أحياناً فأدى إلى أخطاء .. فالوزير لابد أن تتوافر له روح القيادة والرؤية الأشمل والقدرة على تجنب الغرق فى التفاصيل الرفيعة .. ولذلك نقول أن وزير الإقتصاد ليس بالضرورة أن يكون عبقرياً فى الاقتصاد بقدر ما يستطيع تحريك الآخرين ، وأن يقود العمل وأن يستفيد من نتاج جهد الآخرين ويوظفه لرؤية شاملة .

لايهل أمامنا على أبواب عصر جديد من الموازنة بين الأصالة والعصر ، فالأصالة وحدها لن تحل مشاكلنا والانطلاق للعالم بدون ضوابط لن يحل المشكلة .. ولكن التوازن بين متطلبات التقدم وواجبات الحفاظ على الهوية والشخصية القومية وتحديد متطلباتنا أو تعاملنا مع التكنولوجيا التى مازلنا مستهلكين لها فقط ولاسيما أن المنافسة العالمية سوف تزداد عنفاً بعد توقيع اتفاقية تحرير التجارة وعند انتهاء فترة السماح ، فإذا لم أكن مستعداً سوف أواجه بمشاكل عديدة .

هذه مشكلة مفتعلة .. لأن الحكاية ببساطة أن يأتى نظام يريد أن يكون منقطع الصلة تماماً بما سبقه .. وهنا يُقال مشكلة الأجيال ، لكن المسألة هى العلاقة بين الماضى والحاضر ، وأنه لابد أن تسود فكرة أساسية فى ثقافتنا العقلية والنفسية وهى أن التبرؤ من الماضى لايصنع حاضراً ولايقود المستقبل .

كلمة أخيرة

«قضية حقوق الإنسان جديرة بأن أكرس بقية عمرى من أجلها .. إنها الحقيقة الجديرة بالتضحية والعطاء من أجل عرب بلا مهانة» .

على الدين هلال

علاقات مصر العربية أهم من المعونة الأمريكية

بقليل من الصبر .. سنكتشف أنهم هنا .. وبقليل من التأمل سندرك أنهم لعبوا ـ ومازالوا ـ أدواراً بالغة الأهمية في الحياة العامة .. حتى عندما أصابهم الإحباط أو عندما أرقتهم الطموحات المجهضة أو عذبتهم الآمال التى تبخرت فوق سحابة صيف يونيو .. عندما حدث ذلك كانوا دائماً هنا .. ومازالوا حتى اليوم .. إنهم أبناء جيلى ـ يخطئ البعض عندما ينظر إلى أنهم غير موجودين. أو أن يستمر فى تذكرهم على أنهم أبناء لحظة عابرة ولم تكن صحيحة فى تاريخ الوطن .

إنهم أبناء جيل مازال متحركاً فى الحياة ولكنها حركة جديرة بأن نعرف ـ نحن أبناء جيل آخر ـ كيف كانت وهل كانوا أبناء الهزيمة الذين يقفزون إلى عربة الانتصار ؟ أم أنهم أبناء تجمع كانت له اختياراته التى استبدلها باختيارات بديلة وفى الحالتين تحت ضوء العلانية ؟ هؤلاء هم أبناء جيل الستينيات والدكتور على الدين هلال المفكر وعالم السياسة والأكاديمى وعميد واحدة من أعرق الكليات فى الوطن العربى ـ كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ـ واحد من رموزهم وأحد الذين أثيرت حولهم الأضواء والأسئلة .. فمن هو ؟ وماذا يمكن أن نعرف من خلاله ؟ وهل من الممكن أن نرى جيله ومأساته أو أزماته من خلاله ؟ وهل يمكن أن يكشف لنا حقيقة مايتردد عن علاقة الأستاذ الجامعى الطموح بكرسى الوزارة ؟ وهل يمكن أن يعترف بصوت مرتفع أنه وهو الذى كان اشتراكياً بالأمس قد اعتذر اليوم ولذلك هو موجود ؟ أم أننا نخطئ إذا كتبنا السؤال بهذه الصيغة؟.

أسئلة عديدة .. يثيرها الدكتور على الدين هلال ـ النجم الذى حافظ على لمعانه .. بالرغم من أنه كان وحتى السبعينيات يُحاسب على يساريته .. ولكنه أيضاً اليوم أحد هؤلاء النخبة الفكرية الثقافية التي اقتربت من الرئيس مبارك منذ توليه السلطة بعد اغتيال الرئيس السابق أنور السادات .. وكانت هناك العديد من التوقعات تحيط باسمه .. وعديد من التعليقات .. ولكنه ظل دائماً قابضاً على الخيط الواصل بين الأكاديمى والسلطة من جانب .. والمفكر المشارك في الحوار العام ـ طبقاً لرؤيته ـ من جانب آخر .

لذلك كانت نقطة البداية .

* من أنت يادكتور بالضبط ؟ هل أنت المثقف الذى تربى فى أحضان التجربة الناصرية ؟ أم ابن النخبة العربية الطموحة دائماً ؟ .. من أنت يادكتور ؟

** أنا أحد أبناء جيل أصفه بأنه كان جيل الأحلام الكبيرة والآمال التى بدت لنا وكأنها بدون سقف حتى أننا تصورنا أننا نمسك الدنيا بأيدينا وأننا وبلدنا قادرون على فعل كل شيء .. لذلك عندما حدثت هزيمة ٦٧ وماتلاها ثم ظهور حقبة السبعينيات .. فإن العناصر النشطة من هذا الجيل تبعثرت وبعضها تمزق بحدة، وبعضها عمل (للخلف در) وغير بوصلته، وبعضها دفع ثمناً باهظاً لما كان يعتقد فيه ولعلها إرادة القدر هى التى تولت حمايتى على المستوى الشخصى/من مصير الكثيرين من أبناء جيلي حيث سافرت خارج/مصر منذ يوليو ٦٦ وعدت فى أغسطس ٧٣ .. وتشاء الظروف أنه نتيجة تدهور العلاقات مع أمريكا حينذاك/فذهبت إلى مونتريال بكندا حيث حصلت على الماجستير عام ٦٨ ثم على الدكتوراه عام ٧٢ – وأمضيت الفترة من ٦٨ إلى ٧١ بدون العودة إلى مصر !! وكانت أول عودة فى رحلة طلابية ثم العودة النهائية عام ٧٣ ويتضح دور القدر عندما أتذكر أنه بعد مغادرتى مصر بثلاثة شهور تم القبض على كل المجموعة التي كنت أعمل معها فى منظمة الشباب واتهموا بمؤامرة داخل المنظمة، والأرجح أنني لو كنت موجوداً في مصر في ذلك الوقت لحدث الشيء نفسه لي ! .

ولا أعرف أيضاً ماذا سيكون رد فعلي على هزيمة ٦٧، لو أنني كنت في مصر آنذاك، فوجودي في الخارج جعلني في مواجهة مع الحقيقة مباشرة .. وساعدني على رؤية بلدي من بعد ومعرفة قدر أكبر من المعلومات عكس ما هو متاح لك في الداخل .. واستيعاب تجارب أخرى تستدعي المقارنة والتفكير .. لذلك أعتقد أن مستقبلي كان سيتغير تماماً لو أنني لم أسافر عام ٦٦ – وأتذكر في هذا السياق أن أول معيدين في المعهد العالي للدراسات الاشتراكية في عام ٦٥ كان أحدهما حسين عبدالرازق رئيس تحرير جريدة الأهالي بعد ذلك، والثاني علي الدين هلال .. وكتبنا بحثين في المعهد .. كان موضوعي عن التجربة الاشتراكية في كوبا .. وحسين كتب عن التجربة الاشتراكية في بورما .. في هذا الوقت جاء المعهد بعثات إلى يوغسلافيا للحصول على الدكتوراه والعودة كأساتذة بالمعهد، وكنت وحسين من أوائل المرشحين .. ووقتها شعرت بأنني أمام لحظة اختيار أساسية : هل أنا أرغب في الاستمرار في العمل الجامعي أم سأدخل العمل السياسي ؟ وكانت أبوابه مفتوحة أمامي سواء من خلال منظمة الشباب التي كنت الشاب الوحيد في اللجنة التحضيرية التي سبقت ظهورها، أو من خلال الدولة مباشرة وبالتحديد مكتب رئيس الوزراء .

وهنا أشير إلى أننى التحقت بالجامعة وعمرى أقل من ١٦ عاماً وتخرجت فيها وأنا أقل من العشرين – ومابين العشرين والرابعة والعشرين كانت هذه الأحداث – وقد لعب والدى وزكريا

محيى الدين دوراً مهماً فى اختيار طريقى الأكاديمى الطبيعى وأن أقاوم إغراء أضواء العمل السياسى وأؤجله لما بعد إنهاء دراساتى الأكاديمية .

عبدالناصر لابد أن يعرف

* كيف قدمت أوراق اعتمادك الجديدة بعد ٧٣ .. وكيف قدمت نفسك للنخبة السياسية هل من خلال اعتذار كامل عن مشاركتك فى تجربة سياسية وحزبية أدينت سياسياً أو إعلامياً بعد مايو ٧١ .. أم بتوقيع صك ضمنى بأنك تخليت عما كنت تمارسه فى منتصف الستينيات أم بتقديم مهارات جديدة كان الواقع السياسى الجديد فى حاجة إليها ؟ هذا السؤال يهم الجيل الحالى لكى يتعلم كيف تصنع النجوم ؟ وكيف يتم التحرك السياسى والثقافى فى بلدنا!؟

** بداية .. ليس عندى ما أعتذر عنه سواء خلال تجربة عملى فى مكتب رئيس الوزراء زكريا محيى الدين أو فى مكتبه كأمين للعاصمة أو فى منظمة الشباب فقد كنت أتخذ دوماً ما أعتقد أنه الصواب وتحملت فى هذا مشاكل عديدة .. لقد اتهمت فى منتصف الستينيات بأننى أكثر يسارية مما ينبغى ولم تشعر النخبة القديمة تماماً بالراحة إزاء هذا الشاب لذلك منعت من دخول التنظيم السرى (الطليعى) .. وفى هذا الوقت كان هناك عدد من الأشخاص لهم آراء فيما يحدث فى مصر آنذاك. هذه المجموعة ـ أو هذا الفريق كان كامناً ولم يتنبه الكثيرون إلى أن هذا الفريق لعب دوراً رئيسياً فى إضعاف التجربة مثلما أثبتت الأيام بعد ذلك .

ملحوظة : رفض الدكتور على الدين هلال أن يحدد بالأسماء هؤلاء الذين لعبوا أدواراً متناقضة وكانوا يخفون موقفهم الطبيعى ولكنهم كانوا يمارسون دوراً سلبياً ويواصل : وأتذكر الآن أننى ذهبت مع الدكتور أحمد كمال أبو المجد والدكتور أحمد الشقيرى إلى شعراوى جمعة ـ وكان أميناً للتنظيم ثم وزير دولة فى حكومة زكريا محيي الدين ـ وقلت له إن لدى آراء فى كذا .. وكذا .. وما أريده أن يعرف عبدالناصر ، ومازلت أذكر جيداً أننى كنت أكتب وقتها سلسلة من المقالات عن جذور التفكير الاشتراكي فى مصر وقد تبين أن هناك كتاباً صدر عام ١٩١٣ عن هذا الموضوع وأن مؤلفه حي واسمه مصطفى حسين المنصورى فذهبت إليه فى قرية اسمها (الشواشنة) ونشر الكاتب الكبير أحمد بهاء الدين يقدم لهذه السلسلة قائلاً إنها مقالات يكتبها شاب صغير وأعتقد أنه له مستقبل باهر .. كان ذلك عام ١٩٦٥ وفي نفس هذه الفترة كنت أكتب مقالاً فى مجلة «الأهرام الاقتصادى» ـ وأقصد بهذا السرد أننى كنت شاباً جاداً ومخلصاً وأيضاً أمارس العمل العام بقدر لا بأس به من البراعة مثل أغلبية جيلى، وهذا ما يجب أن يتذكره اليوم الكثيرون .. وما يجب أن يكون أمامنا الآن وأنت تسأل هذا السؤال الحاد وكأنك تقفز فى قلبى، لذلك عندما وقفت أمام لجنة تحقيق آنذاك كان فى يدى ملف كبير

بالإضافة إلى ملف آخر لديهم عن أنشطتي وخرجت من التحقيق وأنا موضع عدم راحة لكن أيضاً تنويه بأنني موضع ثقة وبالتداعي أعود لسؤالك وأقول إنني نادماً تركت مصر مسافراً للخارج لم أكن قد كتبت أو عايشت أفعالاً أشعر نحوها بالاعتذار وأنه إذا كانت هناك أخطاء في التجربة التي عاشها جيلي وظهرت بعد ذلك ـ فإنني كنت أحد الناس الذين تنبهوا إليها مبكراً .. إذن أنا لا أعتذر عن مشاركتي في العمل العام في الستينيات .. ولا أعتذر عن دوري في منظمة الشباب وتبقى هذه المنظمة إحدى العناصر الإيجابية في تاريخ هذا الشعب وفي تراث العمل السياسي لهذا الشعب ـ أكثر من ذلك .. لا أعرف شخصاً جيداً في هذه الفترة ولم يكن عضواً في المنظمة .

تصفية حسابات

* بنفس الوضوح الذي تقدم به رؤيتك فإنني أسألك بماذا تفسر أكبر عملية تأنيب ضمير جمعي للأمة حدث منذ منتصف السبعينيات بتهمة أن هذه الأشكال السياسية التي تدافع عنها اليوم كانت أقرب لأخطبوط ضار بعقل وصحة الوطن ؟

** لدي تفسير متعدد .. ولكن بداية أشير إلى أن الذين يقودون الحياة الفكرية والسياسية اليوم كانوا شركاء في منظمة الشباب أو في الاتحاد الاشتراكي أو في التنظيم الطليعي .. لذلك فإنني ضد التفسيرات الساذجة أو الأحادية لما حدث .. لكن جزءاً مما حدث من تأنيب ضمير وقسوة ـ في تقديري ـ يعود إلى هزيمة ٦٧ .. ومن الخطأ المتعمد أو الغفلة التي تقود للجحيم أن نقلل من آثار هذه الهزيمة على النفس والروح المصرية ـ فهي لم تكن مجرد هزيمة عسكرية .. فقد كنا نقول إننا أكبر قوة ضاربة في الشرق الأوسط وفجأة تستيقظ على عكس ذلك .. ثم يموت نائب رئيس الجمهورية .. وتحدث محاكمات لمجموعة قريبة من قمة السلطة في أعقاب ذلك فيهتز اليقين لدى جيل من الشباب كنت جزءاً منه .. ولذلك أقول للأمانة .. إن أغلبية الشباب الذين كانوا يمارسون العمل السياسي في ذلك الحين كانوا كتيبة من المثاليين ولم يحققوا أي امتيازات وكانوا يتحركون بدوافع مثالية وإيمان بالمستقبل وأن هناك أحلاماً كبيرة تنتظر هذه الأمة ـ وفجأة.. يحدث ما تم في ٦٧ لذلك لم يكن غريباً أن الذين قادوا تظاهرات ٦٨ كانوا من منظمة الشباب، ولم يكن غريباً أن يصدر القرار السياسي بحل المنظمة قبل عام ٧٠ ـ النظام بدأ مخلصاً تجربة ثم فجأة ولأول مرة باتت هناك كوادر سياسية في مصر ملتزمة بمبادئ .. ولذلك تمرد بعضها عندما اكتشفت أن هناك شيئاً ما خطأ .. وقد ترتب على ذلك أن جزءاً من هذه الكتيبة كفر بالعمل العام وأزمهم شعور عنيف بأنهم ضللوا وأن المبادئ المثالية التي انطلقوا على أساسها لم تعد قائمة،الجزء الآخر للرد

على سؤالك يرتبط بما بدأ يحدث منذ منتصف السبعينيات عندما ظهرت نغمة ما سميته أنت بالتأنيب الجمعى حقيقته تصفية حسابات ورغبة لدى فريق فى التقرب من النظام الجديد .. أو ـ حتى أكون دقيقاً ـ أن الرئيس الجديد كان يريد أن تكون له شرعية مستقلة .. أن يخرج من مظلة شرعية عبدالناصر .. فقدم أفكاراً جديدة مثل دولة العلم والإيمان .. سيادة القانون .. أخلاق القرية .. رب الأسرة .. ولكى تكتمل العملية ـ من وجهة نظر هؤلاء ـ كان لابد من تصفية فكرية .. لذلك بدأ الحديث عن صنم الاشتراكية .. وأن القطاع العام ليس مقدساً وتوفيق الحكيم يتحدث عن عودة الوعى .. وخرجت عناصر من السجون لكى تساهم فى هذه المسألة .. ولذلك نحن ندفع اليوم الثمن الغالى للعبة التوازن التى حدثت فى منتصف السبعينيات ـ فالرئيس السادات حدد أعداءه بالناصريين والماركسيين وبدأ يخلق قوى سياسية أخرى لتحدث التوازن السياسى فى تقديره ونسى أن القوى الجديدة التى مولتها الدولة ودعمتها فى هذه السنوات سوف تستدير لتضرب الدولة .

* كيف انعكست هذه التغيرات الذاتية والاجتماعية والسياسية على أبناء جيلك ولاسيما أنهم ما زالوا يملأون الساحة ؟

** ليس كل البشر ملائكة .. فهناك البعض من أفراد جيلي انصرفوا بمنطق أنه إذا كنا فشلنا في بناء الوطن فلنبن الاسر ولنعلم الأبناء وهذا ليس بخطأ ، والآخرون قالوا إن العمل السياسي الذي كنا نمارسه لم يكن كذلك لأننا عاطلون بدون موهبة أو عمل .. وبدأ كل منهم يفكر : أنا مهندس .. أنا ميكانيكي .. أنا طبيب . وإذا كان العمل السياسي (كخه) فلنتجه للبراعة في أعمالنا .. لذلك فإن بعض أفضل الدبلوماسيين في الخارجية المصرية كانوا من جيلي .. وهكذا .. ثم هناك بعض آخر استمر في العمل السياسي وبعض هؤلاء انضموا للحزب الوطني ومازالوا رموزاً ساطعة في كل الأحزاب ـ وعلينا أن نحترم اختيارات كل هؤلاء مادامت لاتحمل سوء القصد ويعني الا تكون اختيارات الناس هي السير مع الموجة الفائزة . ولذلك أعود لأؤكد لك لن أعتذر عن تجربتي السياسية ولن أنظر خلفي بخجل ولن أقدم اعتذاراً لأحد ، لقد عدت لموقعي في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بمجرد عودتي بعد حصولي على الدكتوراه عام ١٩٧٢ .. كما توليت رئاسة وحدة النظم السياسية بمركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام وكان المركز يضم نخبة متميزة برئاسة حاتم صادق .. وكان معنا جميل مطر وعمرو محيي الدين وحازم الببلاوي والسيد ياسين وهي المجموعة التي قادت المركز في حقبة السبعينيات ـ مع الثمانينيات ظهر جيل جديد في المركز .. وفي هذه الفترة كنت أكتب فى الأهرام بشكل منتظم ولكن لم أشتغل بالعمل الحزبى منذ عودتى وحتى اليوم .

* ولكن أعتقد أنك ومجموعة من المفكرين والمثقفين حاولتم العودة للعمل السياسى بعد

رحيل الرئيس السادات من خلال ما سمى بالمنبر الديمقراطى أليس كذلك ؟

** لا .. المسألة انه فى عام ٨٣ مع بدايات حكم الرئيس مبارك كانت لدينا ملاحظات على التركيبة الحزبية المصرية وأنها برموزها وشخوصها وبأسلوبها تساعد فى تنشيط الحياة الفكرية والثقافية وفكرنا فى إنشاء مبنى للحوار السياسى اقرب لمنتدى للحوار والفكر الديمقراطى وان يسجل فى وزارة الشئون الاجتماعية أى انه كان عملا ليس حزبيا أو سياسيا .. وكان يقودنا احمد بهاء الدين والدكتور مرسى سعد الدين وآخرون .. وكانت الفكرة هى تنشيط الحوار الديمقراطى فى مصر وتعميق القيم الديمقراطية . وقد تقدمنا بطلب لوزارة الشئون الاجتماعية وبعد ثلاثة شهور جاء الرد بالرفض لمخالفة ذلك للآداب العامة !! .. ولم نتحمس لرفع قضية على هذا الموقف مثلما نصحنا البعض لأن منا كان يشعر أن هذه الفكرة لن تضيف له مكانة أو دورا أو ميزة .. كان عملا تطوعيا ليس اكثر من ذلك .

مصريون عرب ومسلمون

* يبدو من كلامك انك فككت ارتباطك بالعمل الحزبى ولكن ظلت تمارس العمل السياسى العام وتزامن ذلك مع التغيرات التى حدثت وجئت من الخارج لتراها تتحرك بسرعة أمامك .. وكنت مفسرا سياسيا فى بعض الأحيان ..فهل كان ذلك تنازلا فكريا منك عن الاشتراكية التى كنت تبحث عن جذورها فى الستينيات أم مواءمة بينك وبين الواقع الجديد بحثا عن دور على مسرح العمل الذى تقلدت الرأسمالية الجديدة دور البطولة على خشبته أم ماذا .

** كل إنسان هو ابن المؤثرات الثقافية التى خضع لها وابن الظروف التى نشأ فى أحضانها وابن المناخ السياسى الذى عاش تحت مظلته ثم ابن تجارب الحياة .. أى كيف اعتركته الحياة وكيف اعترك الحياة ، ولذلك فإننى أتساءل : هل المناخ السياسى والظروف الثقافية والاجتماعية المحلية وأيضا المؤثرات الدولية فى نهاية التسعينات مثلما كانت منذ ثلاثين عاما أو اكثر ؟ بالقطع لا . أيضا كلمة الاشتراكية هل هى الهدف فى حد ذاتها ؟ بالقطع لا .. وإنما الجوهر هو العدل الاجتماعى وأن أبناء الوطن الواحد يجب أن يقتسموا ثرواته وخبراته .. وبهذا المنطق فأن المسألة ليست أصناما بل قضية العمل الوطنى وكيف نحيى فى إطار التغيرات السريعة والواسعة ثوابت هذا العمل .

* ما هى هذه الثوابت التى تحددها كى نحملها معنا للمستقبل الذى يطل علينا تحت لافتة قرن جديد وإعلان عالمى كاسح بأن العالم يستقبل الفائزين فقط ؟

** بدون ترتيب .. ففى مقدمة هذه الثوابت أننا مجتمع مصرى عربى مسلم.. وهذه

الحقيقة ليس لها علاقة بالنظام السياسي السائد لأنها جوهر أساسي ـ المسألة الثانية هي العدل الاجتماعي فإننا مجتمع فقير ولا يمكن أن يتنكر لتلك القيمة الأساسية ـ المسألة الثالثة هي الحاجة لنظام سياسي يكفل للمواطن المشاركة في اتخاذ القرار ولابد أن تسعى النخبة لتقريب المجتمع لتحقيق هذه الثوابت والحفاظ عليها .

* هل يمكن أن أرتب على هذا الكلام أنه ليس هناك ما يدعو للخجل من إعادة التفكير ومراجعة الذات وتصحيح الاختيار ؟ وبالتالي فمن حق البعض أن يختلف مع كلامك ويرى أن حكاية العدالة الاجتماعية تعود لزمن (الانغلاق) وأن العروبة التي تتكلم عنها هي من الذكريات المكلفة في رأي البعض وأن الإسلام لدى البعض الآخر دين يحدد علاقة الفرد بربه وليس هوية .. وهذه الرؤيات موجودة فكيف تراها ؟

** لا بديل عن احترام حق الناس في التعبير عن رأيهم إنما هذا الكلام الذي أعرف أنه يقال أحياناً ويعلنه أصحابه لايقود البلد إلا للجحيم .. جحيم عدم الاستقرار السياسي وجحيم عدم الاستقرار الاجتماعي وجحيم المهانة الدولية .. ثم إن هؤلاء يعبرون عن فكر ليس له أساس في العالم كله .. وأتحدى أن يأتينا أحد أصحاب هذه الرؤيات بمفكر رأسمالي محترم يقول (انسوا حكاية العدل الاجتماعي) .. حتى الفكر الأمريكي ـ الأوربي يتحدث عن دولة الرفاهية .. وعن الحد الأدنى لأجور العمال .. وعن المعاشات وعندما يقال إن هناك عاطلاً أمريكياً فإن ذلك لايعني أنه لايتقاضى أجراً .. إنه يحصل على معاش يكفي احتياجاته الأساسية .. إذن مفهوم الرأسمالية تغير أيضاً .. الذين يقولون لنبتعد عن العرب وكفاية تكاليف .. أسألهم وماذا يبقى عندما تقطع مصر جذورها بارتباطها العربي ؟

هذا حلم القوى المعادية لمصر وذلك بناء على مصالح مصرية بسيطة .. ولنتخيل أن مصر معزولة عن السودان، الذي هو معبرها لدول حوض النيل ، معزولة عن الإطار العربي الذي يمثل الدخل الرئيسي لمصر .. الذي يتمثل في العمالة المصرية في الدولة العربية، فكل عامل يسافر يوفر فرصة عمالة في السوق المحلية لآخر .. ويوفر ضغوطاً مختلفة اقتصادية واجتماعية ثم بعد ذلك يحول فلوساً، ثم هناك السياحة العربية وهي أكثر من نصف السياحة الإجمالية لمصر ثم هناك الدعم المالي العربي ـ لذلك أقول إن علاقات مصر العربية أهم من المعونة الأمريكية، ثم نأتي للذين يريدون تجنيب الدين من المعادلة .. ونقول لهم إن في كل الأديان هناك تفسيرات تؤدي للتخلف.. لكنني أزعم أنه لايمكن لنظام عربي أو أيديولوجية عربية أن تلقى رواجاً أو تكون لها شرعية إذا فهمت على أنها معادية للدين ـ إن الدين جزء أساسي من وجدان الشعب المصري .. لكل ذلك أرى أن إعلاء قيمة العقل هي التي تجعلنا ندرك أهمية هذهً الثوابت وحيويتها .. فلايوجد شعب يمكن أن يتقدم وهو يتنكر لتاريخه أو

ثقافته . ولايمكن لشعب أن يبتكر بغير لغته .. اليابانيون ابتكروا بلغتهم بعد أن تعلموا لغات أخرى وهكذا ولكنى أعود وأقول إنه مادمنا اتفقنا على أهمية الحرية فى المجتمع وحرية الصحافة بعد ذلك فلابد أن نقبل التجاوزات كضريبة لابد من دفعها وفى نفس الوقت لابد أن ندعم الأخلاقيات التى يتحرك على أرضيتها الحوار .. وأن تصبح مهمة النقابات حماية هذه الأخلاقيات قبل حماية المشتغلين بالمهنة فقط .

* يبدو أن النشاط النقابى يشغل جزءاً كبيراً من تفكيرك ؟

** نعم .. لأننى لاحظت فى الفترة الأخيرة وكأن مهمة النقابات هى الانغلاق على أبناء المهنة وتقديم الخدمات لهم وتجاهل أخلاقيات ومفاهيم المهنة .. وهذا مظهر متخلف أى أن تكون فكرة حماية المصالح سابقة على أى شىء آخر .. وهذا تفكير المجتمع المملوكى الذى كان ينقسم لمجموعة (طوابى) وكل فئة لها رئيس ويصبح الهدف الوحيد كيف تأخذ أكبر قدر من الكعكة لكن قضية مستويات الأداء ليست فى جدولها .. لذلك نقرأ عن طبيب قام بعملية جراحية ليس لها علاقة بتخصصه .. أو صحفى يكتب بلغة هزيلة أو مهندس معمارى يتسبب فى انهيار عمارة .. كلها أحداث جديرة بأن تكون فى مقدمة اهتمام النقابات .

* كلامك يعزف على نغمة الأزمة .. وأنت عاصرت مرحلتين منفصلتين فى تاريخ مصر المعاصر .. كنت ممارساً حيناً بالعمل المباشر .. وأكاديمياً فى أحيان أخرى .. فما هو تقييمك للقيم والرؤيات السائدة ونحن على أبواب مرحلة جديدة يتحدث الجميع عنها ويلهثون بحثاً عن طريق لها ولامفر من الانشغال بها ؟

** هناك أزمة قيم أو رؤيات جعلت الأمور (ملخبطة) .. مثلاً .. النجاح الفردى الذى بدا كهدف وحيد منعزل عن المجتمع فكانت المشكلة .. فالعلاقة بين الفرد والمجتمع فى بلادنا تحتاج توجيهاً وترشيداً .. إذ لابد أن يعرف الجميع أن النجاح الفردى فى ظل فشل مجتمعى لا قيمة له، فما أهمية أن أكون أستاذاً لامعاً فى مجتمع تبلغ الأمية فيه حوالى ٦٠٪ !! .. وما قيمة ممثل عبقرى فى بلد نصف شعبه لاتتوفر له دور سينما !! كبار ممثلينا عرفهم الناس من التليفزيون .. عادل إمام قال لى إن الشعب عرفنى من التليفزيون .. أى أن التليفزيون هو أداة توصيل السينما للناس وهذه ليست مهمته ! وهكذا .. فإن أخطر ما حدث أن كل إنسان بدأ يبحث عن خلاصه الفردى .. الذى عنده أزمة يسافر لبلد عربى لتحسين مستوى معيشته .. لكن الوطن يظل فى أزمة !

حاجة ثانية .. قيمة العمل والتعليم .. ففى أيامى وفى جيلى كان التعليم هو الأداة الرئيسية للحراك الاجتماعى .. وكان حلم الفلاح أو البواب هو تعليم أولاده متصوراً أن ذلك ينقله اجتماعياً وكان النموذج هو الشخص المتعلم .. اليوم اختلفت الصورة .. لقد أصبح النموذج

لاعب الكرة أو المغنواتي أو الممثل وتراجع الإحساس بأن العمل هو جواز مرور الإنسان في المجتمع وأصبح السائد أن الأجيال الجديدة تسعى للحصول على أكبر قدر من الربح بأقل قدر من الجهد وأقل قدر من الوقت .. وتلخيص ذلك في أغنية (كامننا) عايز أبقى نفسى .. حبيب وبيه .

أشرب كازوزة في العجوزة

والدش والموبايل والحتة الكوبيه

يادنيا بتعاندينا ليه

إنها كلمات تعبر عن جيل وعن قيم مختلفة عما تربى عليه جيلنا ـ تأتى بذلك مسألة تراجع قيمة التفوق .. والتجويد، (الكلفتة) أصبحت سمة . أو ضعف الأداء لم يعد يقلق أحداً !! .. تردى مستوى الأداء أصبح سمة ترتبط من ناحية بالنظام التعليمى .. ومن ناحية أخرى قيم المجتمع.. فإذا كان المجتمع لايشجع الامتياز فلا تسأل عن تفوق !!

لذلك أطالب الرئيس مبارك بأن يعيد مرة أخرى الاحتفال بعيد العلم، ولكنا نذكر أن الرئيس عبدالناصر كان يقف ساعتين ليكرم الأوائل .. وهنا أن الرمز ـ رئيس الدولة ـ يصافح الشاب ذا الستة عشر عاماً .

* حديثك عن التغير الذى حدث في المجتمع يدفعنا لسؤالك وأنت أستاذ العلوم السياسية الذى لم يتوان عن متابعة ما يحدث ويشارك بصور مختلفة عما حدث للنخبة ـ وأقصد بها القطاع العريض من أصحاب القرار على القمة وليس الرئيس ـ من تغيرات خلال نصف القرن الأخير حتى ندرك بالضبط ما حدث ؟

**خلال الـ ٤٥ عاماً الأخيرة هناك أمور ثابتة منذ ثورة ٥٢ وحتى اليوم مثل دور رئيس الجمهورية في اختيار النخبة المحيطة ـ وتبعيتهم له بغض النظر عن الأسماء والأشكال وهل هناك رئيس مجلس وزراء أم لا .. ظل التوجيه هو دور رئيس الجمهورية ـ أيضاً غلبة الطابع التكنوقراطى على النخبة ففكرة الوزير السياسى غير واضحة عندنا .. يعنى فؤاد سراج الدين وزير الداخلية مثلما كان قبل ٥٢ ، أى ليس هناك علاقة بين التخصص ووظيفة الوزير . فليس مطلوباً أن يكون وزير الصحة طبيباً .. ولكن سياسى يطبق سياسة .. وتكون الشخصية الإدارية الأولى هى وكيل الوزارة .. هذا غير موجود الآن وتحول الطاقم الوزارى إلى منفذين .. رئيس الوزراء قد يكون له قدر من الحركة خاصة في عهد الرئيس مبارك .. ولكن الوزارات غلب عليها الطابع التقنى، أيضاً.. ففى إطار التفكير في سؤالك فإننا نكتشف أنه في عهد الرئيس عبدالناصر كان جميع سفراء مصر بالخارج من العسكريين .. وكانت الغلبة

للعسكريين بصفة عامة .. وكان المصدر الرئيسي للمدنيين في عهده هم أساتذة الجامعة ، والسمة الثالثة هي صغر السن للوزراء في عهد عبدالناصر – أما في عهد الرئيس مبارك فقد بدا إضفاء الصفة (المدنية) على الوزارة وأغلب رؤساء الوزارة باتوا من المدنيين، وتنوعت المصادر .. فلم تعد الجامعة وحدها مصدر توفير أفراد النخبة – أيضاً في عهد مبارك تحققت سمة مهمة وهي استقرار الوزارة واستمرار عدد من الوزراء في مواقعهم على عكس التغيرات المستمرة التي كانت تحدث أيام عبدالناصر والسادات .

* مازال حديثك يدور في إطار الشكل .. ولكن ماذا عن المضمون .. ماذا حدث من تغيرات ولاسيما أنه قد صدر لك مؤخراً كتاب مهم يتحدث عن النظام السياسي في مصر من ١٩٠٣ إلى ١٩٩٧ ؟

** من أبرز الأمور في مسألة المضمون هو تصاعد فكرة المصالح هذه الأيام .. ففي الماضي القريب وفي جيلي بالتحديد كانت مصلحة المسئول أن يعين ابنه مهندساً في مكان ما .. ولكن لم يكن الانحراف هو الاختلاس .. ما نتحدث عنه الآن هو العلاقة بين السلطة والقطاع الخاص وهي قضية مهمة لأنها يمكن أن تؤثر في شرعية النظام السياسي ، وأن تؤثر في نظرة المواطن للقائمين بالسلطة وكانت تسمى قبل ٥٢ بنزاهة النظام .. فالصراع بين مكرم عبيد والنحاس باشا والكتاب الأسود .. هذا كله كان يدور في إطار معركة نزاهة الحكم – الأصل في الأمور أنني عندما أشغل منصباً عاماً فإنني أقوم بواجب عام نيابة عن المجتمع وبمقتضاه لدي سلطة واختصاص .. والقضية كيف نحمي هؤلاء المسئولين من الإغراء أو الانحراف .. وهذه القضية عالمية .. ولكنها في النظم المستقرة لها قواعد لأن النظام الرأسمالي فيها عمره (٢٠٠ سنة) .. لكن في بلادنا عمرة (١٥ سنة) لذلك حتى الآن ليس لدينا قانون منع الاحتكار وضمان المنافسة .. لأن احتكار القطاع الخاص أسوأ .. لذلك أنا ضد أن يباع احتكار الدولة ليصبح احتكار فرد وإلا يصبح الخاسر النهائي هو المواطن العادي .. ولابد من تنظيم العلاقة بين الدولة والقطاع الخاص .. فهناك قانون له آليات من منع ممارسة المسئول للتجارة إلى إقرارات الذمة المالية .. فليعمل القانون آلياته يصبح الحل هو الشفافية . أي العلانية .. عندما يقال إننا نبيع شركة – مثلاً – لا أريد أكثر من بيان صحفي يقول إن الأصول تم تقديرها بواسطة لجنة من التالي أسماؤهم وقدروا أن الشركة تساوي كذا .. وتمت مناقصة اشترك فيها العدد التالي والذي فاز – الذي قدم أعلى سعر – هو فلان وهذا يعطي شرعية للنظام ، ثم إن المواطن يصبح شريكاً في القرارات التي تمس مستقبل الوطن ومصيره أي أننا لابد أن نشحذ نفسية المجتمع ضد الانحراف وأن تكون أعصاب المجتمع متحفزة ضد الخطأ مما يمنع وجود مناخ استرخاء أخلاقي (الدنيا كلها فساد والناس كلهم حرامية !!) .

فى الوقت نفسه فإن السؤال المنطقى : هل من الطبيعى أن تحرم ابن المسئول من العمل الخاص المتاح للجميع ؟ لا أظن ذلك .. ولكن الخلل الذى يجب أن نحذره أن ابن المسئول يحصل على معلومات أو مزايا تجعله لايتنافس بعدالة مع الآخرين .. بالإضافة للعلانية .. فإننا نقول ربنا يبارك لكل الناس ..

بحثاً عن مقعد الوزارة

* يادكتور البعض ـ ومنهم تلاميذك ومن المريدين ـ يرون أنك نموذج للأستاذ الأكاديمى الذى يحرص على عدم الاشتباك مع مشاكل عديدة فى الحياة ـ حتى إنه يختار فيما يشارك .. وفيما يتجاهل ومتى يقترب ومتى يبتعد وذلك أملاً فى الفوز بمقعد الوزير . وإن رحلة كفاحك الطويلة وممارستك للعديد من الأدوار السياسية كان يدعم هذا الطموح الذى لم يتحقق . وأنت تسعى إليه منذ عودتك إلى مصر فى السبعينيات ؟

** أتحدى أن أكون قد تحدثت مع مسئول ـ طوال حياتى ـ حول رغبتى فى أية سلطة، ولم يحدث قط طوال تاريخى سواء الجامعى أو العام أن تحدثت فى ذلك حتى عندما كانت تتزايد الترشيحات .. ولم يحدث قط أن طرحت ذلك ، وأنا من هؤلاء الذين تشرفوا بلقاء الرئيس مبارك مرات عديدة .. ولقاء كافة قيادات الدولة بصفة متكررة .. لم يحدث قط أن تحدثت صراحة أو تلميحاً عن رغبتى فى شغل منصب معين، ولن يحدث ذلك .. ربما ذلك لأننى بدأت حياتى ككاتب وكثير من الناس يعرفوننى، كمؤلف ومحلل سياسى وليس شاغل منصب، وأعتقد أن المبدع ينبغى أن تنبع مكانته من عطائه الإبداعى ، وأسوأ وضع أن تأتى للإنسان قيمته من (الكرسى) الذى سوف يهجره فى وقت من الأوقات ..

* الحقيقة أن علاقة الدكاترة بالوزارة والمناصب جديرة بالدراسة ولاسيما أن الأكاديميين الجامعيين لعبوا أدواراً عديدة حيناً بالتبرير وأحياناً بصك القوانين التى يتطلبها الواقع .. وبالتالى فإن طموح الأستاذ الجامعى فى مقعد الوزارة يحتاج تأملاً ؟

** أنا أفضل الحديث ، عن السؤال بصورة شخصية ولاأريد الكلام فى هذه القضية بصورة عامة .. وأحب أن أشير إلى أن الإنسان العام . إذا رشحته دولته لمنصب عام لخدمة البلاد لابد أن يستجيب مادام أنه قادر على العطاء .. وبالتالى فإننى أطبق ذلك .. لقد طلب منى حزب العمل المشاركة فى بعض ندواته وكذلك الحزب الوطنى .. والعديد من الجمعيات الأهلية وأساهم فى ذلك شعوراً بالمسئولية وفى ضوء الأهداف التى أحددها لنفسى ـ ولذلك أكون شاكراً لو أحضرت مقالاً لى فيه شبهة عرض الذات أو شبهة النفاق، وهنا أحب أن أشير لعلاقة ذلك بسؤالك إلى أن التغيرات التى تحدث فى مواقف الناس يجب النظر إليها

أحياناً بموضوعية .. فهناك رموز انتقلت من المواقع اليسارية إلى المواقع الإسلامية ولايمكن التفكير لبرهة أنها فعلت ذلك لمنفعة ، وما يجب ألا ننساه هو الخبرة الإنسانية والتجارب البشرية وأن ما أخشاه شخصياً هو الانتقالات الفجائية التى تحيطها الشبهات .. وشخصياً أكرر أننى من الداعين إلى التسامح .

* استكمالاً يادكتور للسؤال السابق حول تجنبك للاشتباك مع الواقع وحرصك على دور (المُنظِّر) أو الفيلسوف السياسى والبعد عن الممارسة المباشرة .. يرجع بعض تلاميذك ذلك لقربك من الرئيس مبارك وحرصك على أن تكون عضواً فى النخبة السياسية العليا وبدون اختيارات صعبة ؟

قد تكون الملحوظة سليمة .. بمعنى أننى لا أدخل المعارك الصغيرة .. بمعنى أننى أنظر للواقع وأرى يومياً معارك صحفية .. وفى ضميرى أن المنتصر والمهزوم فيها سيان .. وفى أحيان أخرى يستقر فى ضميرى أنها لاتهم الشعب ولكنها تشغل النخبة المثقفة فقط .. لكن فى القضايا الكبرى أنا مشتبك مع الواقع .. مثلما هو الحال مع قضية إلى أين تسير مصر .. وهناك كتاب مهم أصدره الأهرام العام الماضى عن مستقبل مصر .. قدمت فيه إسهاماً خاصاً حول الديمقراطية ومستقبل النظام السياسى وشاركت لمدى ثلاث سنوات فى جهد بحثى مع مركز البحوث الاجتماعية والجنائية عن مستقبل الطبقات الاجتماعية .. ولا أريد أن أقول إن ما أفعله أفضل مما يفعله الآخرون .. إنما أحياناً يأتينى الشعور بأننى كأستاذ جامعة منذ ثلاثين عاماً وكمثقف استثمر المجتمع فيه دور الأستاذ ـ فإننى يجب أن أتعامل مع دورى وأترك أدواراً أخرى لآخرين هم مؤهلون عنى فى القيام بها .

هوامش ضرورية

أغلق الدكتور علىّ الدين هلال جهاز الكاسيت مرتين .. وعندما وصلت لأذنيه الاتهامات التى يرددها البعض ضده ، كان حاسماً : «لدينا مشكلة عربية وهى أننا بارعون فى تحطيم الرموز حيناً ، ومن يحاولون تقديم شىء أو المساهمة ، هناك رغبة سادية فى تعذيب وتدمير النخبة الثقافية العربية .. لصالح من يتهمون كل الرموز الثقافية العربية حيناً بالخيانة ، وحيناً آخر بالعمالة؟ .. لماذا لايتسع القلب العربى للخلاف ولتباين وجهات النظر .. ولماذا ندور فى حلقة انتقام ضد الذات .

العروبة ليست سلعة فى منافسة مع سلع أخرى .. صدقونى هناك رغبة قديمة فى تحطيم ارتباط مصر العربى .. وسيدفع ثمنه إذا حدث الجميع .

خطيئة العراق فى نهاية القرن العشرين بشعة ، ولكن قتل أطفاله كما يحدث الآن مهزلة وجريمة دولية ، لأن العقاب تحول إلى انتقام .. ولعلنا هنا نشيد بدور الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رئيس دولة الإمارات العربية لأنه من أوائل من أدركوا وبحسه العروبى الخالص .. هذا الخيط الفاصل بين العقاب والانتقام .

أكبر أولادى بهاء ـ تيمناً بأحمد بهاء الدين الذى تعرفت عليه وكان عمرى ١٧ عاماً عندما ذهبت إليه وكان رئيساً لتحرير أخبار اليوم . وقد رحب بى بمجرد أن طرقت بابه . وأستطيع أن أقول أنه تبنانى فى أشياء كثيرة وظلت علاقتى به حارة ومستمرة حتى وفاته . وقد تعلمت منه الحذر من الحماس الشديد ومن فقدان الصبر ، لذلك فإن ما يحدث لنا وحولنا يجب ألا ينسينا أن تاريخ هذه الأمة العربية ممتد فى أعماق التاريخ وأن مايحدث أحياناً ونعتقد أنه صعب وثقيل ، هو أقل من سطر فى كتاب التاريخ ؟ ولدى أيضاً ابنة هى نورا خريجة كلية الصيدلة بتقدير جيد جداً ومتزوجة ومتفرغة فى المنزل لتربية ابنها .. وأحفادى سارة ٣ سنوات ويوسف سنتان .

أكثر ما أخشاه فى المستقبل أن ينمو أحفادى فى مجتمع أقل تسامحاً وأكثر تزمتاً . المجتمع ليس الدولة ولكنه الأفراد ، وهؤلاء قد يكونون أكثر قسوة وأخطر فى حصارهم للفرد من الدولة .. والمجتمعات الصحية تقوم على التعايش والنسبية .

مصطفى الفقى

الابن البار للجيل المسروق

لأكثر من ١٥ عاماً وهو يلعب دوراً محسوساً على المسرح السياسى فى مصر ولكن ظل الأكثر إثارة فى هذا الدور أنه لم يستطع التخلص من غواية المشاركة فى الحوار الذى يدور حول التاريخ والهوية والطريق الذى يجب أن يسير فيه العرب، حتى عندما قفز - ببراعة وتفوق - إلى القمة عندما عمل سكرتيراً للرئيس مبارك للمعلومات .. ظلت الغواية فى المشاركة كمفكر ومثقف فى الجدل الدائر أقوى من إرادة المنصب فى الحيلولة بين الدكتور مصطفى الفقى - سفير مصر السابق فى ڤيينا - وبين الابتعاد ولو قليلاً عن الصخب .. ولكن تكشف الأيام أن هذا الدور لم يأت من فراغ .. فالرجل ابن بار لجيل فتح عينيه على نكسة يونيو وفتح أذنيه وتوتر عقله وتحمس للحديث المرتفع الصوت مع انتصار أكتوبر وبدأ يعيد النظر فيما عاش يقرأ عنه وما بدأ يحدث حوله منذ أن فتح السادات مجرى جديداً تتدفق عبره مياه الصراع العربى - الإسرائيلى مخلفة وراءها اختلافات مستمرة وهذا الجيل ما زال يصطخب بالحركة والقلق والحماس ما بين الفكر القومى الذى تربى عليه ورياح التجزئة التى هبت على المنطقة منذ منتصف السبعينيات - لكل هذا الملامح .. يصبح للحوار مع الدكتور مصطفى الفقى من الغواية الكثير ومن الضرورات الكثير ومن الأهمية الكثير.. ليس بحثاً عن شهادة تاريخية عما حدث تصبح بمثابة صك مرور لحوار صحفى يضم (خبزاً بارداً) ولكن كشهادة على جيل مازال يعانى مشكلة .. وكمشاركة فى البحث عن إجابات لدى رجل يعمل بالفكر والثقافة قبل أن يصل للنخبة العليا للمجتمع .. ثم يظل بعد ذلك حريصاً على أن يكون طرفاً فاعلاً فى المشهد الوطنى الذى تعيشه مصر.

هل تكفى هذه النظرة لكى يمثل الدكتور مصطفى الفقى جيله فى الحوار نحو القرن الواحد والعشرين الذى نؤمن بأن أبرز الطرق المؤدية له هو ذلك الطريق الذى يسمح بالتواصل بديلاً للانقطاع ؟ وللحقيقة مكانها بديلاً عن الوهم ؟ وللعلم بالوطن وحقائقه أهمية أكثر من التغنى به بأناشيد لا تسمن أو تغنى من جوع ؟ نعم .. تكفى .. ولاسيما أننا مطالبون بداية بأن نحدد موقفاً من ذلك الحوار المتصل الذى تعيشه المنطقة منذ سنوات حتى لاتصبح كما قال خلال اللقاء: إنه أقرب فى بعض الأحيان إلى حوار الطرشان .

* تعيش المنطقة العربية عامة .. ومصر خاصة ومنذ سنوات حواراً متصلاً مع النفس .. حاضراً وماضياً .. يصطخب الحوار حيناً .. ويشتعل فى أحيان أخرى ويلقى الجميع فيه

بمشاركاتهم .. وأنت كمثقف كنت طرفاً في هذا الحوار .. لم تغب عنه .. ولكنك الآن رغم مشاركتك فإنك تطل على هذا الحوار من فيينا .. فكيف تراه ؟

** حرصت على أن أكون طرفاً في الحوار الدائر في المنطقة سواء كنت خارجها أو داخلها – وحينما حكمت الظروف أن أكون سفيراً في فيينا فإنني لم أبتعد عن المشاركة أبداً ولذلك تنطلق ملاحظتي من شعور بالاستمرارية خلال السنوات الأخيرة .. وألاحظ أن هذا الحوار يحتاج إلى نوع من الترشيد بمعنى أن يتم التركيز على قضايا جوهرية تدور حولها كل إمكانات الحوار الوطني، وقد يقول قائل إن استشراف المستقبل يمثل الجوهر العام في هذه المرحلة ولكني أرى أننا لازلنا نمارس عملية أشبه بطواحين الهواء .. بمعنى أن قدراً كبيراً مما نفكر فيه لايتم تنظيمه ولاتجرى عملية الاستفادة منه .. فالقاهرة كعاصمة عربية لم تعد مدينة الألف مئذنة .. بل باتت مدينة الألف ندوة أو أكثر !! وأتساءل ما هي الفائدة ؟ الكل يتحدث ويحاضر والكل يكتب .. ولكن الجزء المؤثر في كل هذا محدود للغاية لأن أطراف اللعبة السياسية في الحوار لايتعاملون بالضرورة على نغمة واحدة .. بل أستطيع أن أقول أن الحوار يبدو أحياناً أقرب إلى حوار الطرشان .. كل يضرب في هدف ويتكلم في اتجاه ولاتتم أي عملية بلورة من أجل استخراج صيغة للعمل الوطني سواء كان سياسياً أو اقتصادياً أو ثقافياً.

* لو تحررنا بصورة أكبر من الشكل وأمسكنا بخيط يقودنا للمضمون فإننا سوف نكتشف أن مصر خلال الثلاثين سنة الماضية لم تتوقف عن التساؤل حول (الذات) .. لم يتوقف القلق حول العلاقة مع التاريخ ومع المستقبل ووصل الحال بالبعض يهاجم تجربة مصر منذ ٥٢ !ويدعي أنه آن الآوان للإعلان الرسمي عن دفنها أي الاعتذار عنها في أضعف الأحيان .. وأن ذلك هو الوسيلة الوحيدة لدخول القرن الجديد بأقل الأعباء الممكنة .. ما رأيك في ذلك كأكاديمي ومثقف في قلب هذا الحوار ؟

** أنا أنظر لسؤالك بقدر كبير من المودة .. لأنني أرى أنه تم تصوير العديد من الأمور أمام الأجيال الصاعدة بقدر كبير من التشويه .. فقد خضع التاريخ الحديث للأهواء في الكتابة سواء قبل ٢٣ يوليو أو بعدها . ولكن الملاحظ أن بعد ٢٣ يوليو جرت عملية تشويه حقيقية لكتابة التاريخ .. وبدت ٢٣ يوليو في نظر البعض كما لو كانت مجرد انقطاع في المسار الطبيعي للتطور – ولعل السبب في كل هذا هو أن تاريخنا كله يعود إلى مرجعيات .. فلو نظرت على الساحة السياسية لوجدت أن كل التجمعات أو القوى تنطلق من مرجعيات معينة .. أي أصداء لمرحلة أخرى من تاريخنا .. فحزب العمل امتداد لمصر الفتاة .. حزب الوفد امتداد للوفد القديم .. والناصريون تعبير عن الحقبة من ٥٢ إلى موت عبدالناصر .. ويمكن القياس على ذلك باقي الأحزاب .. فالتجمع بقايا فلول الماركسيين مع بعض الاعتدال وبعض القوى الوطنية وهكذا .. فإن السؤال هو: هل هناك مجتمع يسمح بأن تكون كل أفكاره

مرجعيات ؟ لايحدث أبداً .. والمرجعيات يقصد بها الرجوع إلى فترات زمنية معينة واعتبارها فترة الأساس للقياس عليها ـ ضع لى تصوراً للمستقبل واختلف عليه .. فهذا طبيعى !! ولكن مايحدث هو العكس، كنت أتصور أن يظهر حزب يرى أن عروبة مصر قضية أساسية وأن ارتباطنا بالعالم العربى قضية ملحة، ويبرره ويتبناه ويسعى للوصول للحكم على هذا الأساس، وفى مقابله يكون حزب آخر يحمل رؤية مختلفة وأن مصر مختلفة وأنها ذات منفصلة وأن الأمة المصرية كيان ينهض وحده ولاداعى لحمل أفكار أخرى .. وهى كلها رؤيات أو سياق لدخول القرن الجديد مثلما يحدث فى بريطانيا على سبيل المثال حيث نجد حزب العمل يدعو للوحدة الأوربية وآخر ضدها .. ولكن للأسف فعندنا لاتوجد فروق حقيقية بين الأحزاب المصرية .. فكلها تدور حول شعارات عامة ومبهمة .. وكلها تتغنى بالوطنية المصرية فى إسراف لكن بدون دلالات حقيقية .. نحن مغالون فى التفكير العصرى بعملية إحياء العقل بصحوة حقيقية تسمح لنا بأن نفكر مثلما نفعل .. لأن المشكلة أننا نقول غير ما نفعل وننفذ عكس ما نعلن !!

الحرية والإبداع

* بالإضافة إلى ماقلت يادكتور .. يظل سؤالى السابق بدون إجابة فى جزء مهم منه خاصة للأجيال التى يجب أن تضع قدمها على طريق المستقبل وتتحرك للأمام بدون جراح فى الظهر ؟

** استكمالاً لسؤالك السابق أقول إن ثورة يوليو حدث مهم فى تاريخ مصر والمشكلة أنه قد أسىء استخدام هذا الحدث بدرجة كبيرة جداً .. فلم تتمكن هذه الثورة من إيجاد مناخ الحرية فى أقرب وقت .. وأنا ممن يعتقدون أنه إذا كانت الحاجة أم الاختراع فإن الحرية هى أم الإبداع وبغير الحرية لايمكن أن تتفتح زهور الفكر أو تنطلق المبادرات التى تسمح للبعض بطرح أفكار حتى لو لم تكن مقبولة فى وقتها تقبل فيما بعد ـ كل الأفكار العظمى فى التاريخ كانت إرهاصات منبوذة .. حتى الاختراعات كانت مرفوضة فى بداياتها ـ لذلك أقول أنه مهما كان الاختلاف حول ثورة يوليو فإنها تعزيز للجانب الوطنى والقومى فى شخصية مصر .. وهى نقلة نوعية وضعت مصر على خريطة العالم الحديث ـ ولو لم تحدث ثورة ٢٣ يوليو لكانت التداعيات الطبيعية ستؤدى إلى درجة مشابهة جداً لما نحن فيه الآن .

* إجابتك تدفع بنا بالضرورة للتساؤل عن حجم الانقطاع أو الاستمرار بين ١٩٥٢ ـ وعام ١٩٩٧ .. وكيف ترى الصورة ؟

** أرى أن عوامل الاستمرار أكبر وعكس مايقوله الكثيرون .. ودليلى فى ذلك أن شرعية النظام القائم تنطلق من يوليو ٥٢ ، والمناخ السياسى والثقافى ورغم التحولات فيه لازال يحسب أيضاً على ٢٣ يوليو شئنا أم أبينا ، والخطوط العريضة للسياسة الخارجية المصرية

مازالت تمضى فى إطار الخطوط العريضة التى رسمتها ٢٣ يوليو ٥٢ ـ أيضاً كان لهذه الثورة بعد ثقافى غائب فأنا آخذ على الثورة ضعف البعد الثقافى فيها بخصوص منهج دراسة التاريخ ـ رفع الآثار من أماكنها ـ تغيير أسماء الشوارع .. إلخ .. وباستثناء ظاهرة ثروت عكاشة لانكاد نجد فى ٢٣ يوليو حساً ثقافياً رفيعاً يمكن أن يصنع فلسفة للنظام السياسى يمكن أن تستمر وتبقى .

* قد يتناقض مع كلامك هذا مايراه البعض من أنه لم تندلع ظواهر أو مظاهر ثقافية فى المسرح والقصة القصيرة والرواية وفى كافة أشكال التعبير الثقافى بالمعنى الواسع مثلما حدث فى الستينيات ـ حتى فى الغناء والسينما مما دفع بمخرج سينمائى ليجعل من موت عبدالحليم حافظ نهاية لحقبة ويصبح فيلمه أحد علامات تاريخ السينما العربية وأقصد به فيلم (محمد خان «زوجة رجل مهم») .. ؟

** لامفر أمامى من الاعتراف بأن الإبداع الثقافى فى الستينيات مازال هو المدد الذى نعيش عليه من أكاديمية الفنون إلى الباليه إلى الفرق الفنية إلى المسارح .. كل هذا هو نهضة الستينيات.. وأستطيع أن أقول إن هذه التجربة تكشف أن القضية الوطنية تصنع حماساً شبيهاً بما يحدث فى مناخ الحرية .. وأستطيع أن أقول إنه وحتى عام ٦٧ كانت شعبية عبدالناصر كاسحة بمنطق حر ولو جرى استفتاء حر لحصل على الأغلبية المطلقة .. لدرجة أن عبدالناصر تخيل أن شعبيته هى بمثابة استفتاء جماهيرى يغنيه عن اللجوء للديمقراطية، ولكننا لابد أن نتذكر أنه فى ظل بعض النظم الشمولية نمت العديد من الفنون مثلما حدث فى الاتحاد السوفيتى السابق، لذلك تظل الحرية هى الأم الحقيقية للإبداع الكامل ولكنى أعود وأقول إن المناخ الوطنى فى مصر فى الستينات كان بديلاً لغياب الديمقراطية ـ فنحن لم نشعر بغياب الديمقراطية فى الستينيات إلا الآن، وقتها لم يعان المصريون غياب الديمقراطية مثلما نتحدث الآن ـ لم تكن بنا حاجة للديمقراطية فى الستينيات مثلما نشعر بها الآن .. والخطأ أننا نقيس الخمسينيات والستينيات بفكر التسعينيات.. وننسى أن الدنيا تغيرت والعالم تغير والظروف الحضارية الإنسانية تبدلت وبتنا نكتشف احتياجات جديدة لا مفر من إشباعها .

* أعرف أنك تخرجت من كلية الاقتصاد والعلوم السياسية عام ١٩٦٦ ـ وحصلت على الدكتوراه عام ٧٧ بعد مرور سنوات على عملك الدبلوماسى، أين يقف جيلك على مسرح الحياة فى مصر اليوم .. أين تقع مسئولياته .. كيف يمكن أن نحاسبه .. أو بمعنى أدق على أى شىء نحاسبه ؟

** بداية أحب أن أقول إننى مهموم شخصياً بسؤالك بل إننى مشغول به تماماً .. ومن هذا الموقع أقول إنه إذا كنا نستطيع أن نقول إنه لايوجد عندنا صراع طبقات بالصورة الكلاسيكية فإننا لابد أن نعترف وبقوة أنه يوجد صراع أجيال ـ والمشكلة أننى شخصياً

أنتمى لجيل مسروق .. إنه الجيل الذى تفتحت عيونه على النكسة .. وقيل له لابد أن تؤجل كافة طموحاتك حتى تنقضى آثار النكسة .. ولكن المفاجأة أنه بإزالة آثار العدوان فوجئنا بظهور طبقات جديدة سرقت طموحاته وأصبحنا الآن أمام جيل أغلق كافة الأبواب أمام الأجيال القادمة وحرمها إمكانية التحرك والصعود. مصر فيها مشكلة اليوم وهى أنه لايوجد تواصل بين الأجيال، ثلثا سكان مصر تحت الثلاثين ولكن مشاركتهم فى العمل العام والحياة السياسية لاتزيد على ٥٪ والأغلب الأعم من أصحاب القرار السياسى فى مصر جاوز الستين - وإن كان من المنطقى أن يكون هناك استثناء واحد وهو رئيس الدولة لأنه عادة يكون شخصية نادرة فى أى مجتمع، وحتى فى المجتمعات المتقدمة يمكن أن يظل فى الحكم لما يجاوز الثمانين .. إنما ما عدا ذلك لابد من أن تتم عملية فتح الأبواب لتسمح بعمليات صعود تبادلى .. ويكفى أن تعلم أن رئيس الولايات المتحدة يختار وهو فى منتصف الأربعينيات، رئيس وزراء بريطانيا فى أوائل الأربعينيات، متوسط أعمار الوزراء فى أوروبا بين الثلاثينات والأربعينات - ولكن الحال هنا مختلف للغاية، وهذه قضية جديرة بأن نعيد النظر فيها .

* إجابتك يادكتور تخلق من الأسئلة أكثر مما تمنح من الراحة .. ولذلك أسألك: هل يمكن القول إن النخبة العريضة فى المناصب الأولى فى مصر هى نفسها منذ ٥٢ وحتى الآن .. وما تفسيرك ؟

** بداية هذا حقيقى .. وتفسيرى أننا نقبل فى العمل العام من يسعى إليه لامن يصلح له .. لذلك نجد أن من يدخلون الحياة السياسية هم أصحاب المصلحة فى ذلك وليس بالضرورة أنهم الأصلح لخدمة المجتمع كله أو لتطور الدولة بشكل عام - فى نفس الوقت ليس لدينا أحزاب تكون مدارس للكوادر الإدارية والقيادية لكى تغذى المجتمع بقيادات سياسية، وهذه قضية خطيرة - وأقصد بها غياب الرؤية، وأتساءل: ما هى الفائدة فى أن يكون المسئول على وعى فنى (تكنوقراط) ولكنه لايمتلك رؤية للمستقبل. قبل ٥٢ كان الوزير سياسياً وكان وزير المواصلات (حقوقيًا) أى صاحب رؤية - لأن دراسة القانون تجعل الفرد على دراية بالعلاقة بين الفرد والدولة.. والفرد والآخرين، أما اليوم فالقضية مختلفة - وإذا تأملنا حولنا سنجد أن عدد السياسيين الحقيقيين على المسرح الحياتى يعدون على الأصابع - وربما بعضهم تربوا فى فترات أخرى معينة - وما عدا ذلك فإن هناك عملية تسطيح للعقل المصرى .. إنها قضية خطيرة بالفعل .

رجال الرئيس

* بقدر خطورة القضية التى تطرحها بقدر الإغراء بالتساؤل عن تقييمك لكيفية الاختيار للمناصب أو للمواقع المتقدمة بصفة عامة ؟ وهل اختلف فى الخمسينيات عن السبعينيات عنه فى التسعينيات ؟

** دعني أعترف أمامك أن هناك مشكلة حقيقية وهي أن كثيراً من العناصر المتميزة تبتعد عن العمل العام ولاتقبل على المناصب وهذه الظاهرة نتجت عن بعض الظروف التي صاحبت ٢٣ يوليو ـ فتأسس في ذهن البعض أن البعد عن المناصب الكبيرة قد يكون أكثر أمناً وراحة بدلاً من الوقوع تحت الأضواء بدلاً مما تجلبه من مشاكل على أصحابها في بلد مثل بلادنا ـ ولكن الملاحظ أيضاً أن إجراءات الاختيار مازالت بشكل أو بآخر هي نفسها منذ ٢٣ يوليو، لأن هناك غياباً للأحزاب السياسية القوية والفاعلة يخضع الاستفتاء للسيرة الذاتية للأشخاص بغض النظر عن الانتماءات والأحزاب، كما أن عملية (الغربلة) تتم من خلال الأجهزة الخاصة بالمعلومات عن الأفراد ـ وبالتالي تصبح المسألة في النهاية بيروقراطية روتينية وليست عملية اختيار سياسي على الإطلاق، والصعود السياسي قضية أخرى تعتمد على القدرات الفردية التي تؤهله لتولي المقاعد القيادية، ويتم فيها إعمال قانون الاختيار الطبيعي أي صعود الأفضل وتقدم الأصلح. هذا الأمر لايتم حتى الآن في مصر، والوطن العربي لأسباب خاصة بتركيبة المجتمع المدني وظروف ما بعد ٢٣ يوليو وهناك مشكلة حقيقية في ذلك لابد أن أعترف بها وتؤدي في النهاية إلى تضييق وعثرة الاختيار، لذلك نجد المساحة التي يتم الاختيار داخلها محدودة للغاية وليس فيها من الرحابة مايمكن أن يشمل كل التوجهات والأفكار والانتماءات والاتجاهات، والسبب مرة أخرى لايقع على الدولة وحدها أو على كاهل النظام السياسي ولكن يشاركهما عزوف الشخصيات القادرة على اختراق سلك الحياة السياسية .

* لعل التداعي الذي لايمكن التمرد عليه يدفعنا لنسألك: ما هو الفرق بين رجال عبدالناصر ورجال السادات ورجال مبارك ؟

** رجال عبدالناصر هم شركاء الثورة ويجمعهم الإحساس بالندية عند الاختيار ـ أما اختيارات السادات فأنا أزعم أنه كان صاحب رؤية غير تقليدية في الاختيار فهو الذي قدم إسماعيل صبري عبدالله وعبدالعزيز حجازي والدكتور الإمام ومصطفى خليل .. كلهم وغيرهم دفع بهم السادات لمقدمة الصفوف ولعل ذلك ارتبط بسرعة التغيير في عهده مما أتاح الفرصة لأعداد كثيرة للتحرك والتنوع .. ويكفي أن أقول أن رجلاً بحجم إسماعيل صبري عبدالله ليس هيناً أن يكون في مقدمة العمل السياسي العام والرسمي ولكن في عهد السادات كان وزيراً للتخطيط ـ وبالنسبة لعصر الرئيس مبارك فإن التركيز يقوم على جانبين : جانب التميز التكنوقراطي للشخص، ثم ألا يكون الشخص متطلعاً للموقع، فهناك تطبيق الآن للقاعدة العربية المشهورة : (طالب الولاية لايولى) على الرغم من أن الطموح السياسي حق للأفراد، والشخص الذي يسعى للعمل السياسي، إذا كان نظيفاً وفاضلاً ـ هو أفضل ممن لايسعى إليه، لأن الذي يسعى يكون قد عمل نفسه للحياة السياسية ـ بينما الذي لم يسع كان منفصلاً عن مجتمعه بما يحدث فيه .

* ونحن ندق أبواب المستقبل ونحاول أن نتخفف من أكبر قدر من الأسئلة الصعبة بالبحث

عن إجابات تفتح لنا أو تمهد طرقاً أرحب نفاجأ بـ (الإرهاب) كظاهرة تقفز على سطح حياتنا بدون انتظار .. ولعل ذلك يجعلنا مطالبين بأن نُوصِّف الواقع ـ الأزمة ـ حتى نستطيع أن نعالج هذا المرض الذى جاء فى غير وقته ؟

** أستطيع أن أزعم أن مصر لاتستحق مشكلات العنف السياسى التى اندلعت مؤخراً لأسباب كثيرة أهمها أن المصرى لايتوقع العنف عموماً .. فهو يعيش على أرض منبسطة وحدود مفتوحة وزراعة قديمة ورى منظم وكلها أمور تصنع إنساناً سوياً قد يكون راضياً وقانعاً إلى حد كبير ـ لذلك فإن التمرد على أسلوب الحياة أمر غير مألوف فى تاريخنا، وهؤلاء الذين يعتبرون بمثابة الخوارج الجدد الذين يعيثون فى الأرض فساداً أو ظلماً ويجسدون واحدة من أقبح ظواهر التاريخ الحديث فى العالم كله وهى ظاهرة الإرهاب .. هؤلاء يضربون المستقبل فى مصر ويحاولون تعطيل التقدم .. مصر مستهدفة تاريخياً .. ففى أيام محمد على حين نشطت وبسطت نفوذها على شرق البحر المتوسط وجنوبه ومنابع النيل وسواحل البحر الأحمر، والشام وهضبة الأناضول . فى ذلك الوقت تكالبت عليه كافة القوى وأجبرت محمد على عام ١٨٤٠ على الانكماش والانزواء ونفس الأمر حدث فى عهد عبدالناصر بصورة مختلفة، ولكن مع فارق مهم وهو أن نكسة ٦٧ تختلف عن اتفاقية ١٨٤٠ ـ المهم أن مصر وطن مستهدف .. وها هى تواجه عنفاً لم يكن منتظراً، ولكن لحسن الحظ أن مصر دولة مركزية قوية يعيش على أرضها شعب قديم ولها قوات مسلحة متماسكة ولديها تقاليد سياسية قديمة .. لذلك أعتقد أن الإرهاب غير قادر على مواجهة مصر والنيل منها ـ من ناحية أخرى تطالبنى بمزيد من التوصيف حتى نتجه للمستقبل على هدى الحقيقة وحدها، لذلك أذكرك بأن الإسلام السياسى يرى أن الدنيا والدين معاً يجدان المنبع فى الشريعة الإسلامية وهذا صحيح .. ولكن حركة الإخوان المسلمين ظلت منذ ظهورها حركة هادئة إلى أن اعتمدت العنف أحد أساليبها فى النصف الثانى من الأربعينيات ومنذ ذلك الوقت ونحن نشعر فى مصر بأن ما يحدث لايمكن أن يعبر عن طبيعة هذا الشعب ـ لقد تم تفريغ الجذور الأولى للعنف بهزيمة ٦٧ .. ومنذ ذلك الوقت فقد ظهرت عوامل جديدة تساعد على تنامى ظاهرة العنف السياسى أو الإرهاب الأسود .. فى مقدمتها أنه من المتعارف عليه أنه فى أعقاب الحروب تظهر مثل هذه الظواهر أيضاً مع عملية الانتقال من الريف إلى الحضر وهى واسعة فى مصر ثم مع عملية التطور الصناعى وهو أمر ملموس فى مصر .. إذن فهناك عوامل أدت إلى ازدهار حركة العنف أو الإرهاب الأسود ويعنى ذلك أن ما جرى لم يصدر فراغ ولم ينشأ من العدم لقد كان الإرهابيون الأول خريجى السجون المصرية لأسباب سياسية والآن أصبح هؤلاء الذين يمارسون الإرهاب مجموعات ليست لها علاقة بصحيح الدين ولاتعبر عن فكر سياسى رشيد بل تقوم بأعمال إرهابية ضد النظام بقصد إجباره على تغيير سياسته وقبولها [illegible] فى

اللعبة السياسية وهو ماترفضه الدولة لأنها لايمكن أن تقبل عملية ابتزاز معدة سلفاً مرتبة مسبقاً .

* فى لقاء مع المشير محمد على فهمى قائد قوات الدفاع ومهندس حرب الصواريخ فى عام ٧٣ تساءل مندهشاً عن السر فى جعل ٦٧ حائطا قبليا بالرغم من انتصار أكتوبر .. وأتذكر نفس المعنى الآن وأنت ترد جذور الإرهاب الأسود للهزيمة .. فهل من توضيح ؟ ومارأيك فيمن يقول أن هناك ظاهرة دينية اندلعت فى المنطقة ووصلت لنا ووصل لنا لهيبها ؟

مصر هى المسئول الأول

** بداية أقول إن ٦٧ لايمكن تجاوزها لأن الأثر النفسى الذى تركته فى الشعب المصرى لا علاقة له بأى انتصارات أخرى لقد سقطت أمامنا تداعيات لمثل وقيم عشنا نتغنى بها، أنا من جيل عاش انتصارات عبدالناصر وصفق لها وعاش هزائمه وبكى معها ولازلت أعتقد أن تجربة عبدالناصر تجربة أمينة فى التاريخ العربى ويجب أن ندرك أنها ليست مجالاً للدراسة بمعايير اليوم ـ عبدالناصر مثل ضمير هذه الأمة أفضل تمثيل ولازلنا نرى الكثير من أطروحاته صحيحة من الناحية النظرية .. الموقف الأمريكى هو نفسه المؤيد لإسرائيل، إسرائيل هى نفسها بسياساتها التوسعية .. العلاقات العربية ـ العربية وأهميتها هى نفسها .. إن عبدالناصر ترك بصمة قوية حتى على الأنظمة المعادية له، من ناحية أخرى أحب أن ألفت النظر، وهذا كله من أجل المستقبل الذى كان أساس الحوار الذى يدور بيننا الآن ـ إلى أن مصر هى المسئول الأول عن تصدير حركة الإسلام السياسى للعالم كله، ولم تبدأ إلا مع حسن البنا وكل المقلدين ليسوا إلا مجددين لفكر البنا وجماعة الإخوان المسلمين .. فهذه الجماعة هى الأصل الذى تفرعت منه الاتجاهات التى تعبر عن الإسلام السياسى.. وقد مارس البعض منها العنف والعكس .. حتى أبو الأعلى المودودى وأبو الحسن الندوى وغيرهما أخذوا عن فكر الإخوان المسلمين، ولذلك أقول نحن لا نأخذ من أحد .. بل نعطى .. مصر لها الريادة فى كل الأفكار التى ظهرت فى هذه المنطقة من العالم .. كل الأفكار المحورية فى المنطقة تبدأ من مصر .. مواجهة التتار .. محاربة الصليبيين .. قيادة الأمة من أجل الصحوة والاستنارة .. الحركة الوطنية فى مصر اقترنت بالتيار الإسلامى وليس بالإرهاب الأسود أو العنف السياسى ـ بينما اختلف الوضع فى الشام حيث كان البحث عن عنصر العروبة لأن العدو كان مسلماً (الأتراك) وكانت الحركة الوطنية هناك قومية عربية بينما كانت فى مصر حركة وطنية إسلامية .. لذلك أخطأ المدعون من الإرهابيين الذين يريدون فصلنا عن جذورنا .. ليس لها علاقة بالإسلام ـ الإسلام مكون أساس فى ضمير شعبنا .. وشعبنا مخلص فى إيمانه، صادق فى توجهاته صادق فى اختياراته الكبرى .. فأحمد عرابى لايستطيع أن يواجه

المحتل إلا بالحصول على بركات الوالى العثمانى ـ وحين سحب منه هذه البركات انفض عنه جنوده !! مصطفى كامل كان يتصرف تحت عباءة الإسلام وبمباركة من الخليفة العثمانى الذى منحه رتبة الباشوية ـ لم يحدث انفصام بين الحركة الوطنية المصرية والشخصية الإسلامية لمصر إلا مع ثورة ١٩ التى دمجت المسلمين والأقباط فى بوتقة الوطن المصرى وبدأنا نتحدث لأول مرة عن حركة وطنية خالصة يعود الفضل فيها للمصريين وحدهم وليس لعباءة الإسلام التى يستظل بها المسلمون، وهكذا .. فإن ما حدث ويحدث صور عن عوامل واضحة لابد أن ندرسها حتى نجد طريقنا نحو الغد .

* وهل الديمقراطية مسئولة عن الإرهاب باعتبار أنه ضريبة ثقيلة للحرية أو ثمن باهظ للانتقال لمجتمع جديد ؟

** بالتأكيد .. فلا يظهر التطرف إلا فى المجتمعات التى تأخذ بقدر من الديمقراطية .. أما المجتمعات القمعية فلا يظهر الإرهاب أو التطرف، وانظر حولك وسوف تكتشف صحة هذا الكلام ـ يمكن وقف الإرهاب فى مصر فى فترة وجيزة بعنف بالغ وعزل شامل للأماكن التى يتخفى فيها والعودة للوراء إلى المربع رقم ١ مع البطش العنيف حتى باستخدام القوات المسلحة .. ولكن هذه الأساليب لاتتمشى مع شخصيتنا وسوف يكون الثمن فادحاً ومعناها أيضاً العودة لسنوات العزلة والانغلاق فى عصر لايسمح بذلك .. وتجربة الجزائر تعطينا خبرة أخرى أن القوة وحدها لاتكفى وأن الأساس هو موقف كيان الأمة كله من هذه الأحداث .. والحمد لله ففى مصر فإن الضمير الوطنى والروح العامة والنظرة الجماعية كلها مضادة لهذا العنف الأسود وفى ذلك كل القوة التى تحتاجها مصر طبقاً لاختياراتها الديمقراطية للقضاء على ذلك المرض اللعين .

طابق بلا أسانسير

* هناك تعبير ألقى بظلاله على لقائى معك وهو تعبير الجيل المسروق الذى وصفت به جيلك.. ألا تعتقد أن هناك بعض الظلم الذى تلقى به على هذا الجيل بهذا التوصيف ؟ وهل هناك فئات أخرى تنظر إليها بهذا التشاؤم ؟

** إطلاقاً .. وبالمناسبة فهذا الوصف أقرب لتعبير الطابق المسحور فى العمارات إنه الدور الذى لايتوقف الأسانسير عنده ويضم تجهيزات الكهرباء ومواسير المياه .. نحن مثل هذا الدور !! وأعتقد أن معنا جيلين يضمان الذين ولدوا فى الخمسينيات والستينيات لحقتهم اللعنة ـ أما بالنسبة للفئات الاجتماعية .. فإننى أقول إن الطبقة المتوسطة هى الأخرى قد أصيبت باللعنة فقد جرى تهميشها فى الآونة الأخيرة .. بل أقول إنها باتت على شفا الاضمحلال لأن التركيبة التى نشأت على التوزيع الجغرافى والاقتصادى فى السبعينيات أدت

إلى تفتت هذه الطبقة، وأصبحنا اليوم أمام من يملكون بغير حدود ومن لايملكون بغير حدود، والطبقة المتوسطة ـ للعلم فقط أقول ـ إنها صانعة القيم، وصاحبة التحول ورائدة التغيير ـ وهذا الوضع يفسر الكثير من الجمود في حركة المجتمع المصري في السنوات الأخيرة .

* هذا التوصيف يقودك للقلق أم للأرق أم للتشاؤم ونحن على أبواب قرن لايحتمل إلا الحقيقة بعد أن أصبحت حركة المجتمعات وتقدمها ضرورة وعكسها هو الضياع ؟

** حققت مصر في عصر الرئيس مبارك إنجازات اقتصادية هائلة وليست هذه شهادتي بل شهادة المنظمات الدولية المعنية بالاقتصاد المصري ودراسته، أيضاً استطاع مبارك أن يحدث نقلة نوعية في طبيعة الحياة في مصر من حيث: المرافق العامة، التقدم في الكثير من أنواع الخدمات، الازدهار في بعض مصادر الرفاهية في المجتمع ـ ولكن بقت قضية أخرى هي قضية تكوين الإنسان نفسه .. فالتقدم بشري في الدرجة الأولى وليس تقنياً فقط، فالإنسان في بلادنا يحتاج تقويماً وتوجيهاً لحركته فمثلاً مازلنا نجد أساليب عمل تعود لعقلية القطاع العام ولكنها هي التي تقود العمل في القطاع الخاص .. وهناك كوادر في العمل السياسي اليوم تعمل بعقلية الاتحاد الاشتراكي!! بالرغم من أن الدنيا تغيرت .. ولهذا نرى أحياناً تناقضات غير قابلة للتفسير ولنأخذ قضية التطبيع مع إسرائيل كنموذج .. الخلاف حولها مضحك .. فالقضية غير مطروحة .. فالقضية أنك لابد أن تنظر لإسرائيل على أنها دولة مجاورة ولك بها علاقات قانونية سليمة شأن كل دولة أخرى .. بعد ذلك .. دع الأمر للناس ولمشاعرهم الحقيقية .. لاتضع قيوداً على الحركة.. لاتفرض على الناس أن يقاطعوا إسرائيل أو عكس ذلك مثلما تفعل بعض النقابات .. دع الأمر للناس .. قد أكون شخصاً من غير المتحمسين للحركة .. ولكن مع حرية الناس ..

* أفهم من ذلك أنك من دعاة أو ترى صواباً في الدعوة للحوار مع إسرائيل مع بعض قطاعاتها مثلما يدعو البعض ؟

** أنا مع حرية الناس في الحركة ومن أراد ماتذكر فليفعل ومن لم يرد فلا يفعل .. أيضاً لا أتصور أن توجد قوانين تميز العلاقة بين مصر وإسرائيل مثل تلك التي تضعها النقابات لتمنع أو تحرم التعامل مع الإسرائيليين ـ فالمجتمع المصري ولسنوات طويلة لاتوجد قيود على حركته ورغم ذلك لم يتحمس ويقبل على التطبيع مع إسرائيل .. لذلك البعض يضع وصاية على الناس وهم لايحتاجونها، حس المصري وضميره قوي، فالكنيسة المصرية والتي كانت تعتبر الجناح ذا الإحساس الأقل بالعروبة في ذهننا تاريخياً هي التي أخذت الخط المتشدد في موضوع التطبيع ـ لذلك أقول أن محاولات بعض النقابات لفرض الوصاية على حركة الناس هي نموذج لعملية التسطيح التي يتم بها تناول العملية ـ لا فائدة ولاداعي لهذا الجدل .. ليذهب إلى إسرائيل من يرغب وليمتنع من يرفض .. في النهاية التيار الغالب هو الذي سيسود، هناك إحساس بعدم الرغبة في التعامل مع إسرائيل ثقافياً في ظل ما يلقاه الشعب

الفلسطينى من قهر .. هذه قضية مرتبطة بضمير الإنسان المصرى ولذلك كان المصريون هم أول من وقع ولكن على مايبدو سيكونون آخر من يطبع !! وعكس المتصور لأن الضمير المصرى ضمير أبوى فى المنطقة لديه إحساس مبالغ فيه فى الشعور بالمسئولية نحو الآخرين.

* الحديث عن التطبيع ـ وأنت الدبلوماسى المثقف والمفكر صاحب الرؤية التحليلية والسياسية ـ يفرض علينا اليوم، وقد مرت فى صمت غريب مبادرة السادات، أن نتساءل: هل فتحت المبادرة مجرى جديداً فى المنطقة قد تعانى حركة المياه فيه عثرات ولكنها ستواصل تدفقها أم أن هذه المبادرة قد تركت شرخاً فى الضمير بين ما حدث وما كان يمكن أن يحدث وبين ما نتمنى أن يحدث .. أتصور أن سؤالاً لايمت للماضى بقدر ما يرتبط بالمستقبل لأننا بالفعل على أرضية مختلفة اليوم عكس ما كنا قبل عشرين عاماً حتى ادعى البعض غير ذلك ؟

** لو أردنا تقييم هذه المبادرة من جانب الرئيس السادات باعتباره رئيس مصر المنتخب وفقاً للدستور فقد فعل شيئاً مفيداً لمصر .. فقد أخرجها من دائرة الصراع .. ولو نظرنا لها بمعيار الضمير العربى لقد أدت إلى متاعب حقيقية على المستوى العربى فى التعامل مع القضية لأنها فرغت القضية فى أحد طرفيها من أهم عناصرها وهى دولة المواجهة وهى مصر ـ ولكن لحسن الحظ أن مصر حين اختارت السلام أسلوباً لم تنس باقى الأطراف ولا زالت هى حتى الآن الضمير القومى الحارس للمصالح الفلسطينية فى المفاوضات والمواجهات مع إسرائيل حتى اليوم ، وما أحب أن أذكر به الآن مرة أخرى أن السادات عندما ذهب للقدس لقى إجماعاً شعبياً .. هذه حقيقة حتى ولو كانت النخبة المثقفة ترفض ذلك فالجماهير التى حاربت أربع حروب وضاقت بالأسلوب العربى فى التعامل معها وتدنت أحوال معيشتها بشكل غير مقبول وكلنا يتذكر شكل الأتوبيسات فى شوارعنا فى السبعينيات كمثال واختفاء السلع وغيرها من مظاهر المعاناة .. لذلك تعتبر زيارة السادات للقدس فى نوفمبر ٧٧ واحدة من أهم عشرة أحداث فى القرن كله .

* من أين إذن جاء التناقض الذى يعيشه الجيل الحالى الذى سمع عن الحرب وشاهد السلام ولم يشارك فى صناعة الأمرين ؟

** حدث التناقض الذى تشير إليه عندما اكتشف المصريون بعد فترة أن كل أحلامهم كانت بالضرورة موضع تحقيق لأن نصر ٧٣ جرت بعض السرعة فى حصد نتائجه .. ورغم أن السادات اتخذ خطوة إعجازية فى اختراق الطرف الآخر إنما لم تكن ردود فعل إسرائيل على نفس المستوى .. فإسرائيل لم تفهم الرسالة التاريخية للسادات ولم تعطه على المستوى العربى ما كان يستحق ـ إنما أستطيع أن أقول إنه استرد التراب المصرى كاملاً والذى استكمله الرئيس مبارك باستعادة طابا ـ وهى مسألة جوهرية، فالسادات زعيم (منوفى) يؤمن بقيمة الأرض للمصرى وارتباطه بها، لذلك كان يؤجل كل شيء من أجل تحرير الأرض .

* استخدامك تعبير (الجيل المسروق) لوصف جيلك هو الخيط الذى مازال ممتداً على مائدة اللقاء بيننا .. وهو يحمل من الدلالات الكثير من أجل المستقبل .. وليس الأمس ؟

** أشعر كثيراً بالدهشة وأنا أسأل أقراني .. أين نحن الآن من فكر منتصف الستينيات .. انظروا الكم الهائل من التحولات التي جرت على أرض الوطن .. ولكنى أعود وأقول أنه من حسن الحظ أن التحولات التى حدثت في مصر قد واكبتها تحولات عالمية ضخمة أعطتها تفسيراً وشرعية تبدو بها مقبولة ـ ويعدين عايز أقول لك حاجة مهمة جداً .. وهى أن التعود على الإحباط يصبح عادة .. والتعود على الهزيمة كاد أن يصبح عادة لولا نصر أكتوبر ٧٣ . لذلك أعتقد أننا جيل يعانى الإحباط .

* هكذا يفصح د. مصطفى الفقى عن أحاسيسه ولكن من المصلحة العامة أن نعرف من أين هبط طائر الإحباط ؟

** أنا لا أتحدث عن المسألة الشخصية ولا عن الطموحات الشخصية ـ ولكنى أريد أن أقول أننا جيل تمزق على أسنة الأحلام .. أنت لا تتصور الأحلام التى ملأتنا فى الستينيات، كنا نتصور أننا أكبر قوة ضارية فى الشرق الأوسط، كانت زعامة عبدالناصر كاسحة وكانت له كاريزما غير قابلة للنقاش .. كل هذا جرى اكتساحه فى ظل مؤامرة دولية كبرى لضرب عبدالناصر ونظامه مما أدى إلى ردة وما زلت أتذكر بكل ألم فترة نكسة ٦٧ وما تلاها وتأثيرها حتى الآن .

تجديد .. أم إحياء ؟

* هذا الإحباط الذى تصف به جيلك يجعلنا نتساءل .. كيف يتواكب هذا الإحباط بسبب ما حدث مع سعيك لما تسميه بتجديد الفكر القومى وقد كتبت فى ذلك كثيراً وصدر مؤخراً كتاب لك حول هذه القضية .. أى فكر قومى ذلك بعد أن اتضح ـ كما يرى البعض ـ أنه سقط وانهزم، وبات لكل قطر الحق فى البحث عن مظلة تقيه متاعب السير تحت سماء العولمة ؟

** أريد أن أكون واضحاً فى أننى عندما فكرت فى الاهتمام بموضوع تجديد الفكر القومى مع بداية التسعينيات كانت الظروف السائدة آنذاك تتلخص فى حالة إحباط عربى عام بعد حرب الخليج الثانية ـ وتنام للتيار الإسلامى على حساب التيار القومى وإحساس بشيوع مفهوم الشعوبية والقطرية فى العالم العربى حتى وجدنا إنزواء فى الخليج العربى، وإنكفاء فى المغرب العربى وإحساساً بكثير من التوتر فى العلاقات العربية ـ وباعتبارى شاهد عصر على تجربة الخمسينيات والستينيات رأيت من واجبى أن أسعى إلى إحياء الفكر القومى ثم عدلت عن ذلك إلى تجديد الفكر القومى لأن الإحياء يعنى استعادة الأفكار على ماكانت عليه بينما التجديد يعنى التطوير والتحويل لهذه الأفكار بحيث تتماشى مع الواقع الجديد وهو ما آمنت

به .. لذلك توصلت إلى عدة مفاهيم أساسية في مقدمتها أن البناء على مفهوم العاطفة في تكوين أمة عربية أمر تجاوزته الدنيا كلها ـ إنما البناء على المصلحة في مفهوم أمة عربية أمر آخر، والمصريون منقسمون تاريخياً بين عروبيين ولا عروبيين والواقع أن المصلحة الوطنية تقتضي الالتحام بالعروبة لأنها المجال الحيوي لمصر ـ كيف يهيئ لك أن تقود ٢١ دولة ثم تتنازل عن ذلك طواعية وتنسحب منه وتنكفئ على ذاتك .. لذلك أرى أن دورنا ريادي في إحياء الفكرة القومية وتجديدها ولكن على أسس جديدة في مقدمتها أنها أخذ وعطاء وأنها مصلحة وليست مجرد عاطفة وأنها لاتقوم على أسس دينية وعقائدية وإنما تقوم على أساس ثقافي بالدرجة الأولى، وهذا ليس بغريب، فلدينا ـ سواء رضينا أو غضبنا ـ اللغة العربية وهي وعاء ثقافي وفي هذا السياق أتذكر أنني عشت في الهند أربع سنوات ورأيت كيف أنه رغم تعدد الديانات والثقافات واللغات توجد أمة واحدة في ظل دولة مركزية وفقاً لنظرية الضرورة ! بينما نحن العرب من فرط ما لدينا من مقومات الوحدة لابد أن تعترف بأن هناك كياناً قومياً ثقافياً واحداً في هذه المنطقة من العالم ـ واليوم تبرز على المسرح العالمي فكرة التوحد والتكتل بصورة أكثر إلحاحاً لذلك تجد أوروبا في ظل ثقافاتها ولغاتها المتعددة وصراعاتها المعروفة .. كل هذا يتم صهره في وحدة أوروبية ولانستطيع نحن أن نفعل شيئاً ؟ وقد رد عليّ البعض قائلاً : أنت مثل من يذهب إلى شخص عارٍ ويشتري له رباط عنق !! وينصحونى بأن الوحدة ليست لها الأولوية وليست أيضاً مطروحة .. وأنا أوافق أو وافقت على ذلك ولكني مازلت أقول أن التنسيق السياسي وخلق نوع من الانسجام العام على أسس تتصل بالاقتصاد والثقافة هي أمور لازمة بل ضرورية في هذه المنطقة من العالم، وبدأت أضع شروطاً وأسساً لهذا التجديد وفي مقدمتها مفهوم اختلاف النظم السياسية، وعدم دس الأنف في شئون الآخرين مثلما حدث في عصر عبدالناصر حيث كان التصنيف بين رجعي وتقدمي، بعد ذلك قبول خصوصية بعض الدول العربية بظروفها ثم الاقتناع بأن الكيانات الأصغر لاتتعارض مع الكيان الأكبر، وتشجيع أفكار مثل وادي النيل والخليج العربي والشام الكبير والمغرب العربي .. فكلها في النهاية كيانات أكبر تسمح بسهولة فكرة الاندماج على المستوى القومي الأكبر من الجميع ـ أيضاً .. قلت ومازلت أقول أننا يجب أن نعطي للأقليات هامشاً أكبر من الحركة داخل الأمة العربية ويعتبر ذلك بمثابة تعددية وتميز لهذه الأمة .. أي أن يوجد فيها أكراد وجنوب السودان وبربر .. وغيرها .. وقد وضعت تعريفاً للعربي لم يسبقني إليه أحد حيث قلت أن العربي من كانت العربية لغته الأولى بغض النظر عن أصله سواء كان أرمنياً أو غير ذلك لأني من المؤمنين بالمعيار الثقافي فالثقافة سلوك ومنهج تفكير وأسلوب تعامل، وبذلك .. فإن الحضارة العربية الإسلامية هي مظلة يحتمي بها كل من يتحدثون العربية حتى ولو لم يدينوا بالإسلام .. لأن اشتراك غير المسلمين في بناء الحضارة الإسلامية كبير مثلما دور الموارنة في الأدب العربي دور لاينسى كذلك دور مسيحيو الشام في نهضة الفكرة القومية .

* يسأل البعض ونحن على أبواب قرن جديد .. أليست هناك خشية من أن تكون دعوتك تلك تحمل قدراً من التناقض بين فكر قومي تتكلم عنه واحتياجات ديمقراطية واحترام لحقوق الإنسان وتدعيم لأفكار المجتمع المدنى يتطلبها العالم الجديد ؟

** ضمانة عدم حدوث هذا التناقض هو ما أدعو إليه من القيام بدراسة نقدية لتجربة الخمسينيات والستينيات .. وهي بالمناسبة تجربة مزدهرة في تاريخنا ـ وبصراحة حتى لاننسى الحقائق العلمية فى ظل طوفان الكلام الطائر والسريع فإن القومية فكرة عصبية .. إنها فكرة ارتباط قوم بأرض . وهي فكرة لاتخلو من التعصب ومن يقول بغير ذلك يخادع .. لذلك أنا أريد أن أخرج بها من هذه الدائرة لأنني من المؤمنين بالمقولة الفقهية الشهيرة أن ما لايدرك كله لايترك كله ـ فدعني آخذ الممكن .. تنسيق ثقافى .. اندماج اقتصادى بريادة مصر لأن هذه هى أغلى سلعة يمكن لمصر تصديرها .. مصر غابت عن العالم العربى عشر سنوات وقادته بالثقافة حين غاب دورها السياسى بحكم قطع العلاقات .. لذلك أرى أن الثقافة مهمة قيادية من خلال مصر، لذلك أتساءل : لماذا نضيع نحن العرب ما فى أيدينا بكاء على الحليب المسكوب .. لماذا تعذبنى بالإحباطات وتضييع الممكن وأرى الشماتة دون رؤية بقية الكوب الذى يحمل احتمالات ممكنة وواعدة .. لماذا ننسى أن الأوروبيين ظلوا أكثر من أربعين سنة فى محاولاتهم من أجل الوحدة وبالتحديد منذ اتفاقية روما عام ٥٧ حتى تم تتويجها الآن بفتح الحدود وإلغاء الجمارك .. لم نعد فى حاجة لتجربة مثل تجربة مصر وسوريا يصيبها الانهيار بعد سنة ونصف .. إن ما أطالب به ألا نسلك سلوكاً ضد طبيعة الأشياء وبعيداً عن العنف من أجل آفاق أرحب .

* هذه الدعوة التى تبحث أو تشجع جوانبها المضيئة ألا تتناقض مع العصر مثلما يرى البعض وألا تخشى أن من سيقرأ كلامك قد يرى فيه تشجيعاً على قدر من العصبية ؟

** سيدى هذا الكلام الذى يشير إليه البعض غير دقيق، سيدى نحن فى عصر القوميات لقد حدثت عملية عكسية، إن التفتت الأيديولوچى الذى حدث بانهيار الكتلة الشيوعية فتح الباب على مصراعيه للقوميات .. إننى سفير اليوم فى النمسا وفى أربع دول كل منها قومية صغيرة لايزيد تعدادها على مليونين مثل كرواتيا أو سلوفاكيا .. الاتحاد السوفيتى نفسه انقسم إلى عشرات القوميات .. الأمة العربية تجاوزت ذلك ولايمكن أن تعود إلى الوراء لذلك أطالب بطرح قومى عصرى يعايش ظروف العصر الجديد يقوم على تكتل اقتصادى وانصهار ثقافى وتنسيق سياسى ـ لا أتحدث عن الوحدة ولا أطرح شعار اندماج دستورى ولا أتحدث عن دولة واحدة لأن ذلك أمر صعب فى ظل تفاوت الثروة والحساسية المتبادلة ونظرة الشك المعروفة وبعض تجارب تاريخنا الحديث المريرة وأثرها .

* يخشى البعض من كلامك على أساس أن مضمونه غير المعلن هو الحفاظ على استمرارية الصراع العربي ـ الإسرائيلي الذى قلنا أن مجرى جديداً قد تم شقه له منذ مبادرة السادات وأنك بهذا الإحياء أو التجديد القومى تتعامل مع المتغير الذى حدث فى الشرق الأوسط كأنه لم يحدث.. فما رأيك ونحن نحتاج لوضوح رؤية يقلل من حجم الغيوم التى تحيط بالثوابت فى حياتنا ؟

** المشكلة فى هذا الكلام أنه لايعبر عن الأحداث التى تجرى حوانا، ياعزيزى لقد فشل هذا الكلام الذى ترجمته العملية أنه دعوة للقيادة بدون عروبة ـ الشرق أوسطية سقطت ياعزيزى وهذا هو الدرس الأول الذى يجب أن يتصدر موائدنا التى نستعد لها مع القرن الجديد .. هذا هو الدرس الذى لايجب نسيانه إذا كنت تبحث فى سلسلة حواراتك تلك عن أفق لرؤية القرن الجديد .. أكرر لم ولن يتحقق أبداً مسألة شرق أوسطية تقود فيه قوى مع تفريغه من مضمون العروبة وما يحدث الآن هو خير دليل على ذلك ـ يمكن القبول بإسرائيل كشريك فى المنطقة فى ظل سلام شامل واعتراف بسيادة العروبة ـ التيار الأقوى والسائد فى المنطقة حتى لو تفوق الإسرائيليون اقتصادياً ـ علمياً إنما تظل الكتلة الأكبر هى العرب ولاتستطيع إطلاقاً تسميات معينة تواكب الجدل المثار لأسباب مختلفة ـ فلاتستطيع أن تقول أن العرب شرق أوسطيين ـ فالاسم لا يعطيه لك الآخرون بل هو نتاج تاريخ طويل .. الحضارة العربية الإسلامية هى صاحبة السيادة فى هذه المنطقة من العالم شئنا أو لم نشأ .

* ألا تغير التركيبات المستخدمة فى المنطقة من هذا اليقين ؟ وألا تشعر برد فعل لمناخ عالمى يدعو كل من يرغب فى طريق أن يسير فيه تحت مظلة ثقافة كونية واحدة ؟

** إطلاقاً .. وبالعكس فى ظروف الريبة يتمسك الإنسان أكثر بالثوابت .. فعندما يضيع شخص فى شارع .. فإنه يمسك بهويته الشخصية بحرص ـ نحن أيضاً نعيش فى عصر فيه غموض للأفكار والتيارات ولذلك لابد أن نتمسك بالثوابت أكثر بمظلة الحضارة العربية الإسلامية ـ والإسلامية التى أقصدها المعنى الثقافى وليس الدينى والتى يستظل بها كل سكان المنطقة مهما اختلفت دياناتهم .. هى حضارة السيادة فى هذه المنطقة، أما إشارتك لما تسميه ثقافة كونية واحدة .. فإننى أقول لك .. هل تعرف أن العنف الذى نشهده هو نابع عن صدام ثقافى حقيقى.. أسلوب مختلف .. فكره رفض النموذج السائد وأسألك .. لماذا ننسى أن حركة الإخوان المسلمين ظهرت فى مدينة الإسماعيلية لأن الإمام حسن البنا كان يرى صباحاً ومساء وجوداً أجنبياً فى المدينة .. ! لذلك يحدث أن يتصاعد الإحساس بالبحث عن الذات ورفض الغير فى مناطق التماس .. وهى فكرة شوفينية غير مقبولة .. بل آثمة .. فجماعات العنف السياسى

تتعامل بأسلوب العصور الوسطى تجاه من لايدينون بنفس الدين ولايعتنقون نفس الثقافة أو نفس الحضارة، إنه رفض للغير وهذا مناقض لروح العصر تماماً .. ولكن ما أطالب أنا به .. هو إحساس ثقافي متزن متسامح يؤمن بالتواصل والاندماج والتأثير والتأثر والتعامل مع حضارة اليوم .

طه حسين .. والعقاد

* فى أحد جوانبك المتعددة يكمن هناك دور الأكاديمى .. والأكاديميون لديهم مشكلة ـ فى رأى البعض ـ وهى عشقهم للزواج السريع بالمناصب السياسية فهل هذا صحيح ؟

** لا أعتقد أن هذا الأمر أصابنى لأننى حظيت بالنجاح العلمى والسياسى فى سن مبكرة .. لقد كنت سكرتيراً للرئيس للمعلومات فى مطلع الأربعينات من عمرى ، وبالتالى فإننى بالتأكيد لست مشتاقاً !! وإنما أستطيع أن أقول أن لدى مايمكنى أن أقدمه لوطنى شأن الكثيرين من أبناء هذا الوطن .. إذا حصلوا على الفرصة فقط .

* اقترب أساتذة الجامعة (حاملو الدكتوراه) من عبدالناصر ومن السادات ومن مبارك .. ما الفرق بينهم فى كل مرحلة ؟

** فى عصر عبدالناصر اشتغلوا كأدوات للتبرير ـ وفى عصر السادات اشتغلوا فى عملية توزيع الأدوار .. وفى عصر مبارك وقفوا يتطلعون لما يدور ببعض الارتياح، ولكن بكثير من الشوق لأن مناخ الحرية أعطاهم أملاً فى إمكانية الانضمام للمشاركة فى العمل العام وعملية اتخاذ القرار السياسى .

* الحديث عن الأكاديميين لا مفر من أن يشمل دور المثقف أو طبيعة اللحن الذى يعزفه فى كل مرحلة خاصة فى بلداننا العربية ؟

** علاقة المثقف بالرجل الأول علاقة قديمة .. ولأوفر عليك جهد الأسئلة غير المباشرة أقول لك لو تذكرت نموذج طه حسين والعقاد واقترابهما أو بعدهما من عبدالناصر تذكر خطبة العقاد يوم فوزه بجائزة الدولة التقديرية وهو يصافح عبدالناصر شامخاً ويقف بصورة لطيفة بينما تعامل طه حسين بصورة مختلفة فى العام السابق على هذه المناسبة !! نفس الشىء أو المنطق ينطبق على كافة المثقفين والمفكرين الذين عاشوا ٢٣ يوليو فى مراحلها وحتى اليوم ولكن الجديد أن بات التعايش أمراً منطقياً اليوم .. فلم تعد القضية المطروحة هى الصدام بين الشعب والسلطة إنما هى صدام بين الدولة كلها والعصر .. والدولة بكل معطياتها من شعب وأرض ونظام سياسى لتضعه فى دائرة القرن الواحد والعشرين وليتعامل مع العصر الذى نعيشه لامفر من أن يصادف مشكلة !

* ما هى تلك المشكلة أو المعضلة التى تعوق عبور الدولة بكل معطياتها إلى القرن الجديد ؟ وكيف ترى المنطقة وهى تدق أبواب هذا العصر ؟

** إنها تلك التى نتكلم فيها عن مسألة التنوير والترشيد والعلاقة بالغير والاعتراف بالمتغيرات الدولية والموازنة بين الثوابت والمتغيرات، كل هذه العناوين جزء من قضية أو معضلة كبرى تواجهها مصر وهى تسعى للقرن الجديد ـ لذلك أرى أن هذا الوطن يواجه المستقبل وهو فى حالة جدل عميق بين كل التيارات والاتجاهات ولكن أعتقد أيضاً أنها تدخل هذا القرن وهى أفضل بكثير من سنوات مضت وباستثناء عقبة الإرهاب والعنف . كانت مصر فى وضع أفضل وأنا ممن يعتقدون بأن مواجهة الإرهاب ليست مواجهة أمنية إطلاقاً، إنها المرحلة الأخيرة . ولكن هناك حلولاً تسبق هذا مثل التنمية الاقتصادية والتغيرات الاجتماعية وفهم روح العصر وأن تسود ثقافة عامة جديدة تقول أو تعلم المسلمين أنهم لايعيشون وحدهم فى العالم .. وأن هذا العالم خلق لنا ولغيرنا وأن رحابة الإسلام فيها من السماحة ما يجعلنا نقبل الآخرين كما هم .

الرئيس شديد الموضوعية

* أعتقد أن الحقيقة هى أفضل نفى للإشاعة وبالنسبة لك قيل الكثير عن خروجك من منصبك السابق بعد أن أمضيت فيه نحو ثمانى سنوات ؟ وفى تقديرى وبعيداً عن الإغراء الذى يكمن فى الحكايات أو الملابسات المرتبطة بدخول أو خروج مسئول من وإلى موقع السلطة فإن الدلالات هى الأكثر أهمية ؟

** كل ما قيل عن هذا الموضوع مجرد اجتهادات .. والمسألة أنه ربما أننى لم أكن منضبطاً أمنياً بالمعنى المطلوب .. فأنا شخص يفتح مكتبه واتصالاته التليفونية للجميع .. ويسعى لخدمة الجميع بدون تردد . وقد تصادف أن إحدى هذه الخدمات لم تكن لمن يستحق أو لمن له اتصالات أخرى فى اتجاه آخر ولم تكن لى أى نوازع أو دوافع سيئة فى ذلك .. فأنا مثل الكتاب المفتوح الذى يعلن عن نفسه الأمس واليوم وغداً . وبالعكس كان خروجى من موقعى السابق فى توقيت طيب وبشكل فيه تكريم .. وأعتقد أن الرئيس مبارك بما عُرف عنه من رؤية عميقة وحس صادق ومشاعر راقية .: قد ظل يرعى مسيرتى بعد خروجى بكل حب ومودة . وقد تعلمت منه شخصياً الكثير مثل الصبر والمثابرة والموضوعية ، وللأمانة فإن الرئيس مبارك إنسان شديد الموضوعية ـ أيضاً من أجل الوضوح فإنه يجب أن يكون معروفاً أننى منذ البداية كنت طالباً مرموقاً متفوقاً ورئيساً لاتحاد طلاب كليتى وشاركت فى العمل السياسى فى فترات مبكرة من حياتى فى منظمة الشباب حيث كنت مسئولاً عن التثقيف فى

القاهرة وكنت عضواً فى اللجنة المركزية للمنظمة، وبالتالى يمكن القول أن التربية السياسية هى التى تسمح بإمكانية الثقة فى عملية الصعود، وهذا لايحدث للكثيرين للأسف الشديد .

* يادكتور .. هل كنت ترشيح كفاءة أم ترشيح أجهزة ؟

** طوال عمرى كنت تعبيراً عن الكفاءة ولم ترشحنى أجهزة معينة .

* قبل الترشيح . ألم تكن صناعة أجهزة ؟

** إطلاقاً لم يحدث .. لم أكن صنيعة لجهاز أو جهة . كنت دائماً إنساناً قادراً على التفكير بشجاعة وبصدر مفتوح وقلب ينبض بحيوية وكنت كفؤاً والحمد لله فى كافة المواقع التى وصلت إليها وبمعنى آخر .. أنا صنيعة الأحلام الكبيرة .. وهذه النوعية يشغلها الوطن ويعشش فى جنبات روحها ولذلك أقول عن جيلى أننا أبناء الأحلام بتربية الأجهزة السياسية وليست الأجهزة الأمنية / أنا ابن منظمة الشباب .. ابن مرحلة من مراحل الاتحاد الاشتراكى ابن التجربة الناصرية.. وابن ٢٣ يوليو بما لها وما عليها .. ولكننى لست أبداً ابن الأجهزة الأمنية مثل الكثيرين الذين يعرفون جيداً من هم !!

هنا ولبرهة ضئيلةسرحت عينا الدكتور مصطفى الفقى وتلكأ تدفقه .. ثم ابتسم برحابة وهو يقول : لقد كانت مشكلتى أحياناً أننى لست ابنا للأجهزة .. بمعنى أننى محترف للعمل العام ولا أجيد العمل فى الحجرات المغلقة وربما كان ذلك أحد السلبيات لدى البعض !!

* بصعودك السياسى والوظيفى تم ابتعادك عن موقع بالغ الأهمية كسكرتير للرئيس للمعلومات .. هل تعتقد أنك كوفئت أم عوقبت خلال الرحلة ؟

** الاثنان معاً فهناك قوى ترى أن هناك بعض ظلال لفترة يرفضون استعادتها فى مصر برغم التحولات التى حدثت، وآخرون يرحبون باعتبار أنها صدى لفترة فيها قدر كبير من الطهارة السياسية فى تاريخ هذا البلد .

* أى أنك صعدت لتصبح ضمن النخبة وأنت مشدود بين رؤيتين متقابلتين أو كأنك بين حجرى رحا إذا صح التعبير ؟

** الحقيقة أننى كنت أشعر بموضوعيتى من خلال استقبالى للنقد من الجميع .. على سبيل المثال البعض كان يرى أننى كنت ناصرى النزعة والاتجاه، والواقع أننى مازلت أقول أن الإطار النظرى للفكر الناصرى خصوصاً فى السياسة الخارجية سليم للغاية حتى الآن ، والبعض الآخر كان يرى أننى تحاملت على الناصرية فى بعض الدراسات النظرية التى كتبتها - ولقد تلقيت رسائل من الناصريين بعد مقال لى عن ثورة ٢٣ يوليو يقولون أنهم لم يكونوا

يتوقعون منى أن أكتب ذلك بينما أرى أننى تعرضت بكافة الجوانب السياسية والثقافية والاجتماعية للثورة بكل موضوعية وتجرد وأعطيتها حقها كاملاً ومازلت أرى أن عبدالناصر بطل قومى لايجب محاسبته بالمعايير الطبيعية للسياسيين ورجال الدولة فى هذا العصر - وأقول إن السادات صاحب رؤية واجتهاد ومازلت أرى بنفس الموضوعية العصر الملكى وبعض جوانبه التى أنجبت لمصر لطفى السيد وطه حسين ومحمد حسين هيكل، ومازلت أنظر لهذه الحقبة وأقول وهذه نقطة هامة جداً .. لأن الوضع مختلف تماماً الآن .. فرجال السياسة موظفون !!

* .... ؟

** لقد أديت واجبى بكل أمانة وإخلاص وكفاءة . وليس الغريب أننى خرجت ولكن الغريب استمرارى ثمانى سنوات .. فأنا متحدث ورجل عام وملتحم بالجماهير - ووظيفة سكرتير الرئيس للمعلومات تحتاج إلى قدر من الحذر والتحفظ وهى ليست من صفاتى .

* هل أنت نادم على ما فعلت وأدى إلى خروجك من هذا الموقع المهم ؟

** إطلاقاً . فليس لدى أبداً ما أخجل منه فى تاريخى كله سواء فى عصر عبدالناصر أو فى عصر السادات أو فى عصر مبارك - وصفحتى بيضاء أستطيع أن أقدمها فى كل وقت وأجيب عن أى أسئلة فى أى وقت، ولست ممن يدعون البطولات الزائفة .. لذلك لم أدع أننى خرجت بسبب ضغوط أمريكية وأستطيع أن أقول أن علاقتى بالسياسيين الأمريكيين طيبة .

* لا أستطيع مقاومة سؤالك .. هل لو كنت مازلت سكرتيراً للرئيس .. كنت ستتكلم بهذه الصورة المتدفقة الواضحة ؟

** يجب أن أعترف لك أن الرئيس لديه من رحابة الصدر ما أعطانى خلال الثمانى سنوات التى عملت فيها إلى جانبه هامشاً للتحرك والتحدث فى الندوات والمحاضرات والكتابات داخل مصر وخارجها .. ولم يحجر مرة على رأى رغم كافة المكائد التى كانت تدبر وسوء التأويل .

* المكيدة وسوء التأويل .. هل هى مشكلة فى قمة الإدارة فى بلداننا العربية مما يحتاج إلى وقفة حتى يمكن أن نجعل الأرض ممهدة للكفاءات بالمنافسات الحرة بدلاً من الضرب تحت الحزام ؟

** للأسف فإن هناك تصوراً بأن السياسة ترتبط دائماً بالمكيدة اعتماداً على فصل ميكافللى بين السياسة والأخلاق - والمكيدة هى تعبير عن الغيرة الإنسانية والغيرة المهنية .. أو الغيرة السياسية وهو أمر وارد فى كل الأنظمة بغير استثناء ولكنى أستطيع أن أقول أنه من

حسن الحظ أن الرئيس مبارك يتمتع بقدر كبير من الموضوعية حرم مراكز القوى من أن تصنع (شللاً) قادرة على التأثير في الحياة السياسية ولذلك فإذا عدت لتجربتي فإنني أستطيع أن أقول أنني كنت صوتاً مختلفاً داخل المؤسسة التي يصعب أن يوجد فيها شخص بكل هذا الانفتاح في ظل الظروف السياسية في العالم الثالث كله ـ وأيضاً في ظل المستوى الصحفي أو الإعلامي السائد .. وقد تستغرب ذلك ولكني سأقدم لك مثالاً شخصياً .. فقد كنت ألقي محاضرة ووجدتهم يلتقطون بعض الأفكار الضعيفة المتهافتة دون الفهم العام للموضوع .. وقد عانيت شخصياً من ضعف أجهزة الاستقبال للأفكار أثناء حركتي الواسعة لطول الجبهة الفكرية والثقافية والإعلامية وإخراج الأفكار بشكل غير موضوعي .. مما أساء إلى سياسيين عديدين .

من أنت ؟

.... ؟

لدي ابنتان إحداهما متزوجة ولدي حفيد (سليم) والثانية حديثة التخرج .

والله لايوجد في حياتي ما أندم عليه .. إنما ربما كان يمكن أنني لو اخترت العمل العام من البداية لتوفر عليّ الكثير من التمزق وكنت أفضل دائماً أن أكون صحفياً .. وقد كنت رئيساً لتحرير جريدة الشباب العربي التي كانت تصدر عن منظمة الشباب آنذاك .

زوجتي حاصلة على الماچستير (صحافة) من كلية الآداب .. وقد جمعتنا الرؤية السياسية المشتركة أثناء وجودنا معاً في منظمة الشباب الاشتراكي .. وهي صاحبة رؤية وموقف ككل جيلي ، وهي أكثر حنيناً لتلك الأيام وأكثر تمسكاً بها وأنا أكثر تطوراً عنها .. ولعل موقفها يرجع إلى أن المرأة أكثر تمسكاً بما اختارت وأحبت وحلمت في مرحلة ما .. من الرجل، كما أن المرأة أكثر تمسكاً بالواقع الذي تحركت فيه وأقل قدرة على التجدد من الرجل .

عبدالرءوف الريدى

وزارة الخارجية ليس لها علاقة بمفاوضات كامب ديفيد

الدبلوماسية ليست ربطة عنق أنيقة وابتسامة مطبوعة وكأس بللورية فى اليد وحسناء فى الخلف . إن هذه الصورة من صنع الأوهام فى العالم الثالث والأفلام فى العالم الأول !

إن الدبلوماسية هى فن تحقيق أهداف الوطن الخارجية .. وطبقاً لهذا المعنى كان اللقاء مع أحد أبناء مؤسسة الخارجية السفير عبدالرءوف الريدى على مائدة لها ثلاثة قوائم : الأول : أنه من أبناء النخبة التى مازالت على سطح الحياة فى مصر منذ منتصف القرن الحالى ، والثانى: أنه شاهد على ما جرى خلال ٣٧ عاماً فى كواليس السياسة الخارجية المصرية وماحدث من تغيرات وما طرأ من وقائع . وثالثها: أنه كان هناك ولأكثر من ثمانى سنوات فى واشنطن شاهداً ومشاركاً ومحاوراً وسفيراً .. يعاد ومازالت علاقاته بالبعض فى الإدارة الأمريكية من القوة بصورة تلفت النظر !

قصة السفير عبدالرءوف الريدى .. قصة جيل صفق للحرب وابتسم للسلام .

صورة كبيرة على الجدار .. غيرت بدايات الحوار.. وبمعنى أدق فرضت صورته الإنسانية .. صورة على الجدار حملها السفير عبدالرءوف الريدى فى قلبه وفوق كتفه وظل يتحرك بها من القاهرة إلى نيويورك إلى باكستان إلى واشنطن .. صورة لم يتركها خلفه أبداً وكانت نقطة البداية لأنها تجعلنا نفكر ونتأمل سلوك أحد أبناء المجتمع المصرى .. لعب دوراً وشارك بجهد وشهد على تحولات .. أحد هؤلاء الذين لم يملكوا أبداً نبوءة بما سوف يحدث فى الخمسينيات أو السبعينيات ولكنهم لم يتخلفوا عن المشاركة بإخلاص .. ولكن قطار الزمن جعلهم يضيقون لحظة ويتساءلون : كل هذا حدث ؟ .. وذلك بالضبط ما فعله عبدالرءوف الريدى عندما اختنقت ڤيلته الأنيقة فى شارع هادئ خلف حديقة المريلاند بحى مصر الجديدة .. اختنقت بسبب ناطحات السحاب العملاقة التى بدأت تحاصرها .. فالذين كانوا صفوة بالأمس وأنشأوا هذه الڤيلات الرقيقة .. لم يتنبأوا بذوق الصفوة الجديدة الذى يرتفع لأعلى بسرعة التضخم فى سوق العقارات .

كانت زوجتى تشعر بأن إيقاع أقدامها يرن فى هدوء هذا الشارع زمان .. خلفنا ڤيلتا هدى ومنى كريمتى الرئيسعبدالناصر .. (الڤيللا) الأولى بيعت ومكانها عمارة عالية .. وبجوارى (ڤيللا) محمد فائق وزير إعلام عبدالناصر .. وهناك ڤيلات أخرى .. كنا نمثل حياً

رقيقاً هادئاً .. اليوم تغير كل شيء .. عمارات شاهقة تبتلع الشارع .. بصراحة .. أخجل عندما يزورني ضيوف ولا أجد مكاناً لسياراتهم .. فعلاً .. كل شيء تغير وبسرعة وكأننا كنا نياماً واستيقظنا فجأة .

هكذا فرض التغيير نفسه .. مع كلام السفير عبدالرءوف الريدى .. ولكن كانت البداية صورة :

* صورة والدك بالطربوش والجلباب البلدى التى تحتل مساحة كبيرة من الجدار فى غرفة مكتبك لايمكن إلا أن تجذب الحوار إليها .

** هذه الصورة معى منذ وفاة أبى عام ٦٣ .. أحملها معى أينما أذهب وكأنى أحمل عنوانى وتاريخى .. وأشم فيها رائحة مسقط رأسى فى عزبة البرج .. عزبة الصيادين ومواسم السردين فى دمياط ورأس البر .. لقد نشأت فى هذا الموقع ومازالت السفن الشراعية تهز قلبى .. تلك السفن التى كانت تربط بين موانئ دمياط .. وموانئ شرق البحر الأبيض المتوسط .. وكانت رحلاتها تزدهر فى موسم السردين عندما كان يكتسح ماء البحر سد فارسكور ويصبح مجرى النيل لمسافة ٣٠ كيلو متر مسرحاً لماء البحر .. وهنا تكتمل صورة والدى التى لفتت نظرك على الحائط .. فقد كان أول من قام بالاتجار فى السردين الذى كانت تأتى قوافله فى مواسم معروفة من البحر لتشرب ماء النيل الغنى بالخيرات وتكون جاهزة لتلتقطها المراكب وتعود بها لتخزينها فى براميل خشبية داخلها ملح خشن ومحاط بـ (الخيش) وتحفظ لمدة عامين وتوزع بعد ذلك فى كافة أنحاء مصر - على الشاطىء المقابل لدمياط .. كان هناك مصيف رأس البر .. الذى أراه بعيون الأربعينيات كمصيف لا مثيل له فى العالم .. وقد ازدهر بعد تقدم الألمان على الساحل الشمالى .. وانتقلت العائلات إلى رأس البر ليصبح هذا المصيف معرضاً للجمال والأناقة والرقى ولنشاهد فيه ونحن أطفال أم كلثوم ومحمد التابعى وعبدالوهاب وكافة شخصيات المجتمع .. وصدقنى .. عندما أزور الآن «نيس» و «كان» بفرنسا أتذكر رأس البر والقوارب الشراعية تظل معلقة أمامى كأننى أعود لطفولتى .. صورة فريدة .. لا أنسى فيها أبداً والدى الذى عمل فى البحر منذ كان عمره ١٥ عاماً .. وفى سن الخامسة والعشرين يبدأ العمل فى التجارة فى أدوات البحر .

الإستنارة

* أليس غريباً من رجل ارتبطت حياته بالبحر والتجارة أن يتجه تفكيره لكى يعلمك فى الجامعة المصرية ؟

** أعتقد أن ذلك بسبب استنارته وكان محباً للعلم .. وكان للعالم - رغم أنه كان مقصوداً بها الشيخ المعمم - مكانة مميزة وكان أبى - وهذا غريب - لديه وعى حاد بالناس وبالمجتمع

ومن هنا قد تدهش عندما أقول لك إنه كان لديه إيمان قوى بالخدمة العامة .. ولذلك كان قائد البلدة .. وانتزع ذلك بالعمل .. فقد شيد مسجداً قبل أن يشيد أول منزل متكامل لنفسه ، والمستشفى الوحيد الموجود اليوم فى عزبة البرج شيده أبى! وكانت نصيحته التى يكررها لاتنتظر الشكر من الناس على ما تقوم به .. الخير نعمله لأننا مؤمنون به ! ولكن للأمانة أيضاً فإن أمى ـ ابنة مدينة الإسكندرية التى تزوجت أبى بعد أن ماتت زوجته الأولى ـ قد لعبت دوراً مهماً فى دفعه للاهتمام بتعليمى كانت كما يبدو متطلعة لتطوير الحياة التى تعيشها فى عزبة لاتعرف إلا الصيد .. وأتذكر الآن أن أرقى أنواع التكنولوجيا كانت (الكلوب) الذى يضىء بالغاز تعملت أستذكر دروسى على (اللمبة الجاز) لم تكن لدينا مياه جارية .. ولكن الطموحات القوية فى قلب أمى جعلتها تصمم على سفرى للدراسة فى دمياط والخروج من عزبة البرج .. وكنت بالفعل ضمن أول مجموعة خرجت للدراسة ضمت أختى وحوالى ثلاثة آخرين.. ولم يكن قبلنا سوى مجموعة ضئيلة درست تعليماً أزهرياً، وأستطيع أن أقول اليوم إننى التقيت بالكثير من قادة امعالم وشخصياته المبهرة .. ولكن لم يؤثر أحد فىّ مثلما فعل والدى ـ ولكنى بالطبع لا أنسى الدكتور محمد عصفور رجل القانون والحريات المعروف .. لقد ظل هذا الرجل وهو أستاذى مخلصاً لمبادئ الديمقراطية وارأيه بأن حكم ٢٣ يوليو هو حكم عسكرى .. أيضاً هناك محمد فوزى وإسماعيل فهمى ومحمد حسن الزيات كل هؤلاء كان لهم نوع من التأثير .. ولكن بعد والدتى كانت خبرتى ودراساتى مصدر معرفتى ، أيضاً هناك مؤثرات أخرى موضوعية فى شخصيتى .. منها سفرى المبكر إلى نيويورك للعمل أو للانضمام للبعثة المصرية فى الأمم المتحدة وكنت فى الثالثة والعشرين من عمرى .. لقد ذهبت إلى هناك مروراً بالقاهرة التى لم أمض بها أكثر من أربع سنوات للدراسة .. وقد أثرت نيويورك فى بصورة عميقة .. فهى مدينة عالمية متنوعة رحبة غنية بالثقافات والمتناقضات.

وأتذكر أننى خلال وجودى فيها قد تابعت ردود الأفعال بعد إطلاق الروس لأول قمر صناعى مما دفعنى لكتابة رسالتى للماجستير حول الاستخدامات السلمية للفضاء .. أيضاً فقد نسجت هناك سلسلة واسعة من العلاقات ويبدو أن هذا ليس بغريب على أبناء السواحل المتصلين بالعالم والحضارات بدون قلق، وقد توقفت تجربتى أو علاقتى مع نيويورك مؤقتاً مع عودتى لمصر عام ٦٠ عندما عدت للقاهرة وعملت مع المرحوم محمود رياض الذى كان مستشاراً للرئيس عبدالناصر ـ أنذاك ـ للشئون السياسية وقد رشحنى للعمل معه المرحوم إسماعيل فهمى وزير الخارجية الأسبق .. وبعد ذلك عُين محمود رياض مندوباً دائماً لدى الأمم المتحدة عام ٦٢ فكون الفريق من المجموعة التى رأى أنها على دراية بشئون الأمم المتحدة فأخذ معه إسماعيل فهمى وأشرف غربال ومحمد رياض وأحمد توفيق خليل .. وأنا رغم أننى كنت سكرتيراً ثانياً فعدت مرة أخرى إلى نيويورك .. ووقعت فى حب المسرح الأمريكى والفضول لمعرفة الثقافة الأمريكية ووفقنى الله فى أننى عملت مع سفير عظيم هو

المرحوم عمر لطفى كان يشجعنى على الدراسة والاطلاع ويزودنى بخبرته .. وأتذكر أنه كان يدعونى إلى منزله ويتحدث طويلاً عن أسفه لأن عبدالناصر يلهث وراء العرب .. بينما يجب أن يجرى العرب خلف مصر .

أوجاع جيل

* يبدو جيلك أحياناً وكأنه قد واجه نفسه مبكراً ولاسيما أنه عاش نهاية القرن العشرين التى جاءت بغير توقعاته .. فكيف ترى هذه العلاقة بين هذا الجيل والنصف الثانى من القرن الحالى ؟

** النصف قرن الأخير من القرن العشرين الذى تسألنى عنه ترك بصمة لايمكن أن تتجاهلها فى حياة جيلى .. بل من القسوة أن تنظر لجيلى بعيداً عن مرحلة المخاض الصعب الذى عاشتها مصر منذ الأربعينيات .. كيف تحاسبنى على شعورى بالتعب أو صمتى وتأملى لتواريخ الأچندة.. وتنسى عاماً بالغ الأهمية مثل عام ٤٦ العام الذى بلغت فيه الحركة الوطنية المصرية أوجها .. كيف تنظر بقسوة لجيل تألقت على قمته لجنة العمال والطلبة وتم فتح كوبرى عباس على الطلبة والإعلان عن الجامعة العربية ووجود إسماعيل صدقى على رأس الوزارة وخروج الوفد إلى المعارضة .. لقد كانت مصر تنبض وصدى نبضها يصل لكل أطرافها .

لقد خرجت أنا وزملائى على رأس التظاهرات فى دمياط عندما سمعنا بالمظاهرات المؤيدة للوفد والمعارضة للقصر والأقلية والإنجليز، كانت البلدة كلها وفدية ولكن النوافذ كلها مفتوحة .. فنقرأ فى يوم لأحمد حسين – وفى يوم آخر لكاتب يتحدث عن الإخوان المسلمين .. وفى يوم ثالث نتبادل المعلومات عن جرنال جديد اسمه (أخبار اليوم) .. وجرنال آخر اسمه (الجماهير) وثالث (الملايين) .. مصر كانت تفور ويزداد الفوران ونحن نسمع عن وعد بلفور ومشكلة فلسطين .. وكان المجتمع كله يندمج فى تيار وطنى واحد يطالب بالجلاء والحفاظ على وحدة وادى النيل .. وكنا نسير وقلوبنا قبل شفاهنا تردد : وطن واحد – شعب واحد – ملك واحد – نيل واحد. وبجوار هذا التيار .. كان هناك تيار آخر يدور حول القضية العربية ويزداد ظهوره مع تعقد مأساة فلسطين ، كل ذلك على أرضية من المشاكل الاجتماعية الحادة .. كانت الساحة مزدحمة بكل الأفكار والأحداث .. ولكن حرب فلسطين فجرت العلاقة بين الملك والشعب وأدت إلى انهيار النظام وقيام ثورة ١٩٥٢ .

تحالف روسى إسرائيلى

* ذكرت أن مشكلة فلسطين تركت أثراً فى جيلك .. ولكنك لم تذكر لنا .. ماذا كشفت لك الأيام بعد تلك الرحلة الطويلة فى دهاليز الدبلوماسية ولاسيما فيما يتعلق بفرص حل هذا النزاع ؟

** نعم .. قضية الصراع العربي - الإسرائيلي تركت بصمة هائلة على جيلي .. وأستطيع أن أقول بعد أكثر من ٣٧ عاماً في مجال الدبلوماسية أن الروح العاطفية التي حكمت السياسة المصرية والعربية قد أضاعت بعض فرص الحل السلمي لهذه المشكلة .. وأستطيع أن أقول إنه في عام ١٩٥٥ كان يمكن لعبد الناصر أن يتوصل إلى حل .. وكانت أمريكا في عهد أيزنهاور تريد ذلك .. لكن السبب الذي أعاق تحقيق ذلك هو دور بن جوريون الذي أمر بالهجوم على غزة ووجد عبدالناصر نفسه في حاجة للسلاح ولم يجد أمامه سوى الشرق . فدخلت إلى الحلبة قوة أخرى هي الاتحاد السوفيتي والتي سعت أيضاً إلى توسيع الفجوة بين مصر وأمريكا - وحدث تحالف موضوعي بين التيار التوسعي في إسرائيل والذي كان يمثله بن جوريون والاتحاد السوفيتي من أجل هذا الهدف، أي زرع التوتر بين مصر وأمريكا - أيضاً فإننا لايمكن أن ننسى أنه في هذا العام (١٩٥٥) كان عبدالناصر لم يبرأ تماماً من آثار أزمة ١٩٥٤ وعدم شعبيته .

لقد شاهد بوعي أننا - أي جيلي - كنا نهتف بعودة الجيش المصري لثكناته، وبتأييد محمد نجيب، كما أننا اعتبرنا ما حدث في عام ٥٤ ردة .. وأنا شخصياً لم أنس آخر يوم ظهرت فيه جريدة المصري .. لكن عبدالناصر بدأ يحس بطعم الشعبية مع صلابة موقفه المضاد للأحلاف في المنطقة .. ثم جاء تأميم قناة السويس ليصبح عبدالناصر في قمة شعبيته .. وهنا أيضاً كان أيزنهاور موجوداً في البيت الأبيض وكانت لديه رغبة في حل النزاع العربي - الإسرائيلي ولكن كان الشارع العربي بحماسته هو العنصر الثالث الذي منع عبدالناصر من البحث عن جسور للالتقاء مع أمريكا لحل المشكلة .

متطلبات المهنة .. أم .. ؟ ..

* رؤيتك تلك - وأنت شاهد في موقع الأحداث - تفرض سؤالاً لايمكن تجاهله وهو : هل المصريون والعرب ضحايا مشكلة نفسية مع أمريكا والغرب وأسرى الشعور بالاضطهاد من تلك القوى ؟ أم أن هناك أسباباً موضوعية لهذا التناقض الذي مازلنا نبحث عن حله حتى اليوم ؟

** لا .. بالتأكيد هناك العديد من الأسباب الموضوعية للتناقض فهناك ميراث من المعاناة بسبب الغرب الاستعماري في كل الوطن العربي ازداد بالمأساة الفلسطينية .. وبات لدى العرب مخزون من الإحباط بسبب الغرب وأيضاً مخزون من الأمل والبحث عن بطل .. وجاءت للشارع العربي الفرصة بظهور عبدالناصر .. وبعد مرور سنوات عديدة أستطيع أن أقول إن الصراع العربي - الإسرائيلي أقرب لمارد أطلق سراحه من القمقم وأصبح من المستحيل حتى

على من أطلقوه أن يعيدوه مرة أخرى .. والذى تصدى حقيقة لهذا المارد وحاول أن يأخذ خطوة حقيقية فاعلة كان الرئيس السادات .

* فى غرفة مكتبك صورة لشهادة تقدير حرصت أنت على أن تشير إليها على أنها من عبدالناصر .. وحرصك هذا يرتبط بما حكيته عن وعيك الذى نما فى إطار الحركة الوطنية ضد إسرائيل .. ثم تمر الأيام لتكون فى المقعد الأمامى وأحد المفاوضين الأساسيين مع الإسرائيليين فى اجتماعات ميناهاوس بعد زيارة الرئيس السادات للقدس .. هل هى متطلبات المهنة .. أم مقدرة الدبلوماسى على التكيف .. أم أن الدبلوماسى بلا موقف حقيقى ؟

** لا .. قبل كل ذلك فإن المسألة واجب وطنى .. فى ديسمبر ٧٧ وبعد مبادرة الرئيس السادات قيل إن هناك مجموعة من الخارجية سوف تعمل فى موضوع السلام .. قبل هذه المجموعة كان الدكتور أسامة الباز يعمل مباشرة مع الرئيس السادات .. أما هذه المجموعة فقد كانت تضم عبدالرءوف الريدى ونبيل العربى وأحمد ماهر السيد مدير مكتب محمد إبراهيم كامل .. وقالوا إن أول لقاء سيكون مع الوفد الإسرائيلى فى ميناهاوس .. لقد عشت أزمة نفسية كبيرة جداً وظللت أتساءل : كيف سألتقى مع الإسرائيليين ؟ .. وتحولت الأزمة إلى كارثة عندما قالوا إن هناك وفداً سيسافر إلى إسرائيل لتكوين لجنتين إحداهما سياسية تجتمع فى القدس والعسكرية تجتمع فى القاهرة .. وبدأت أعانى مأساة حقيقية .. وتنازعنى عاملان : شخصى يتساءل كيف أذهب لإسرائيل التى هى فى حقيقتها ليست إلا عدواناً على أرض فلسطين .. وكيف أذهب للقدس وألتقى مع موشى ديان الذى يُعد رمزاً للعدوان والصلف .. كيف ؟ ولكن هناك عامل آخر.. ليس أننى موظف .. ولكن الشعور بأنه إذا كان البعض يرى فيّ وفى آخرين القدرة على القيام بمهمة من أجل مصر .. فكيف أرضى بالتراجع ؟ .. رئيس الوفد محمد إبراهيم كامل تراجع.. نعم لكن بعد أن استمر لمدة سنة .. وكنت معه فى كامب ديفيد وشعرت بأزمته .. كانت نفس المأساة التى شعرت بها قد عاشها هو .. محمد إبراهيم كامل ابن الحركة الوطنية ضد الإنجليز والذى عاش ونحن مثله تحت مظلة حلم وطنى قوى واسع .. واجه المأساة بصورة مضاعفة لأنه كان وزيراً للخارجية ، ولو أن هناك كاتباً مسرحياً بارعاً يمكنه أن يجسد أو يكتب المأساة أو التراجيديا التى عاشها وزير الخارجية محمد إبراهيم كامل فإنه سيجد الكثير !! هذه المأساة تتلخص فى الصراع بين معتقداتك الشخصية وواجبك الوطنى .. وحسم محمد إبراهيم كامل الصراع بالاستقالة فى كامب ديفيد .. بالنسبة لى لم تكن الأزمة بنفس الطبيعة .. كان وزيراً فى مأزق خانق .. كان يصرخ فى داخله صوت يتساءل : أنا محمد إبراهيم كامل الذى سُجن فى زنزانة ضد المستعمر .. أنا أصبح وزير خارجية كامب ديفيد ؟

وأتذكر أننى يوماً كنت أسير معه فى منتجع كامب ديفيد وقلت له : والله يامحمد بيه ..

أنا رأيى ألا تستقيل فأجاب : لا ياعبدالرءوف .. إزاى .. مقدرش وبعدها تركنى وأكمل المشى معى السفير محمد شاكر وزيرنا المفوض فى واشنطن آنذاك وسفيرنا فى لندن بعد ذلك وأخته زوجة محمد إبراهيم كامل وقال لى بصراحة : أنا شايف أن محمد إبراهيم كامل سيستريح أكثر لو استقال .

وفى هذه الحالة وافقت ـ مؤيداً ـ وتذكرت ظروف محمد إبراهيم كامل .. كان سفيراً لمصر فى بون وحضر لقضاء إجازة واستعداداً لزيارة شميث المستشار الألمانى لمصر .. وفجأة وجد نفسه وزيراً للخارجية وأنه مطالب بالدفاع عن سياسة خارجية غير مقتنع بها ـ كان العبء فظيعاً .. ولكنى أنا كنت فى ظروف أفضل، جيلى عاش المأساة فى كامب ديفيد وحاولنا تقديم شىء .. بإخلاص من أجل مصر .

السادات هو المفاوض الوحيد

* هذه الصورة الدرامية التى ترسمها لواحد من أهم الأحداث فى تاريخ المنطقة فى القرن العشرين، وأقصد به عملية السلام التى بدأت فى كامب ديفيد، تفرض السؤال : هل يعنى كلامك أن الخارجية .. أو المؤسسة بصورة عامة .. لم تكن شريكة فى صناعة الحدث ؟

** بوضوح كامل .. السلام عملية صنعها الرئيس السادات .. خطط لها ونفذها وكان المفاوض الوحيد حول بنودها .. والتاريخ صنعه وحفر مجراه شخص واحد ـ نعم .. بغض النظر عن الرغبة أو الرفض ـ أنور السادات حفر مجرى السلام فى المنطقة ولم يشاركه أحد .. كان تحركه جارفاً حتى أن وزير خارجيته الحقيقى إسماعيل فهمى (من ١٩٧٣ ـ ١٩٧٧) كان أعتى من أن يتحمله !! .. وكان يرى أن السادات يقفز إلى المجهول فابتعد .

* بعد مرور هذه السنوات العديدة .. وبعد ما يتراءى من أحداث ومايتحرك فيه المنطقة هل كانت قفزة السادات إلى المجهول أم بذوراً أثمرت بما كان يتوقعه ؟

** الإجابة عن هذا السؤال صعبة .. لكن أقول إن السادات نجح فى شق مجرى السلام .. كان الأمل أن ينجح أكثر من ذلك لو أنه كان قد نجح بعد حرب ٧٣ فى الحفاظ على العلاقات العربية خاصة مع سوريا واستطاع أن يأخذ العرب معه إلى كامب ديفيد لكان نجاحه باهراً ـ لكن التشتت كان النتيجة .. وعلى الجانب تظل الحقيقة أنه شق هذا المجرى فى هذه المنطقة وترتب على ذلك عقد اتفاق السلام بين مصر وإسرائيل، وبموجب ذلك استردت مصر أرضها كاملة، واسترداد التراب الوطنى بالكامل إنجاز كبير ـ مصر اليوم تجنى ثمار السلام وخاصة بعد عملية الإصلاح الإقتصادى، المشكلة اليوم تكمن فى إسرائيل .. أى أن أنور السادات استطاع أن يصدر هذه المشكلة إلى إسرائيل التى مازالت فى حالة غير سلمية مع نصف جيرانها بينما مصر فى سلام مع إسرائيل ومع كل بلدان المنطقة .

* فى كلامك السابق يبدو بعض النقد لسلوك السادات لأنه لم يستطع جمع شمل العرب حول توجهاته .. ولكن باقى السطور تدفع للتساؤل : هل تستطيع مصر أن تسعد بالسلام وبالحياد فى المنطقة بعيداً عن المشاكل ؟

** لا مصر .. ليست محايدة .. ولكن مصر يجب أن تحدد المصلحة القومية المصرية ومتى يخرج الجيش المصرى للحرب .. الجيش المصرى يحارب من أجل أرض مصر .. يجب أن يكون هناك تحديد للمصحلة القومية بحيث لايحدث خلط مع الأهداف والسياسة العربية .. مثلاً .. مصر وقفت ودعمت اليمن .. ولكنى أعتقد اليوم أن إرسال القوات المصرية إلى هناك كان خطأ.. لابد أن تكون لدينا عقيدة مصرية حول المصلحة القومية المصرية .. هذا الموضوع كان واضحاً عند أنور السادات وهو أرض مصر .. استرجاع الأرض .. ولم يجعل هناك مكاناً لفيتو عربى على استرداد أرض مصر .

* ماذا تقول لو نظر أحد أبناء هذه الأيام إليك وقال - ونحن على أبواب قرن جديد - إن جيلكم لم يحقق بالحرب النصر الذى يحسم مشاكله ولم يصل بالسلام إلى الشاطئ الذى يفخر به ؟

** هنا لابد من التفرقة بين مصر والمنطقة العربية .. مصر خرجت من هذا الصراع وقد استعادت أرضها .. وأصبح فى الضمير المصرى أن الحفاظ على السلام وعلى الأرض المصرية قضية لا تقبل النقاش .. السلام لم يحقق أهدافه المرجوة بالنسبة للمنطقة العربية وجزء من المسئولية يقع على بعض الأطراف العربية مثل منظمة التحرير الفلسطينية التى رفضت حضور مؤتمر ميناهاوس وعلى سوريا التى رفضت حضور مؤتمر جنيف عام ٧٣ !! .. وهذا كله أدى إلى إعادة صياغة الموقف المصرى بصورة جديدة .. فلم يعد مثلما كان عام ٤٨ أو عام ٦٧ والذى كان قائماً على أن مصر جزء من العالم العربى والقرار فيمايتعلق بأرض مصر كان عربياً .. لا .. القرار أصبح مصرياً بحتاً فيما يتعلق بالأرض المصرية .

* لا مفر من التساؤل : وهل كان قرار مصر فى وقت من الأوقات بعيداً عن إرادة مصر المستقلة أو كان متأثراً بالعواطف العربية أكثر من حسابات مصر واحتياجاتها الموضوعية ؟

** لا .. يعنى .. أقصد .. مثلاً .. قرار عام ٤٨ بدخول الجيوش العربية إلى أرض فلسطين وتعهد قيادة هذه الجيوش الملك عبدالله فأصبحت القوات المصرية والأرض المصرية ليست خاضعة تماماً للقرار المصرى .. أنور السادات أعاد مرة أخرى الارتباط بين القرار المصرى والإرادة المصرية .

* المجرى الجديد الذى تم حفره بعملية السلام .. كيف ترى السفن التى ستعبره فى القرن الجديد .. وما رأيك فى أن سفينة القيادة الإسرائيلية فى الانتظار وأن باقى القوارب ستلحق بها ؟

** قرأت هذا المعنى فيما قاله شيمون بيريز حول دور إسرائيل فى قيادة المنطقة .. وهو كلام غير واقعى .. ويعكس قصر النظر .. وليس أدل على ذلك سوى ما حدث لبيريز نفسه بل ولرابين .. فإسرائيل لاتستطيع بحكم تكوينها أن تحل مكان مصر ـ ستظل مصر رغم كل شيء تقود هذه المنطقة .. وإسرائيل ستظل ترى على أنها كيان غريب أقحم فى هذا الجسم العربى .. ولن تستطيع أن تكون الدولة القائدة للمنطقة، ولعل ما حدث فى تجربة الغزو العراقى للكويت إشارة لذلك فكل ما طلب من إسرائيل ألا يكون لها دور !! لكن دور مصر كان فاعلاً وحيوياً فى كل ما حدث وأدى إلى تحرير الكويت .

* مع مرور الوقت تتزايد الاجتهادات فى شكل المنطقة الجديد خلال السنوات القادمة ولاسيما أن هناك حقائق أفرزتها عملية السلام لايمكن تجاهلها .. وفى مقدمتها كيف تكون صورة التعاون مع إسرائيل وليست صورة الصراع ؟

** أعتقد أنه يمكن أن يوجد شرق أوسط جديد فى المرحلة القادمة ولكن ذلك يتوقف على حدوث توافق وطنى داخل إسرائيل حول أن الكيان الإسرائيلى باتت له حدود وأن على إسرائيل أن تتوقف عن النزعة التوسعية، فالمشكلة هى سيطرة النزعة التوسعية داخل إسرائيل .. واستمرار إسرائيل بهذه الصورة سيفجر المزيد من التناقضات داخلها بين التيار الدينى المتشدد الذى يدفع نحو التوسع والآخر العلمانى الذى يدعو للتعايش فى حدودها وسيزداد أيضاً التناقش بين إسرائيل والشعب الفلسطينى .. ومن حقنا كمصريين أن نحافظ وسط كل هذه الأمواج على الطريق الذى اخترناه .. ويُحسب للرئيس مبارك أنه أبعد مصر عن كافة الدوامات .. وعلينا أن نتأمل ونتساءل: إلى ماذا سيصل هذا الكيان الإسرائيلى ؟ .. ومامستقبله ؟ .. إن الكيان الإسرائيلى كدس أسلحة نووية وحدّث آلة حرب رهيبة ويعيش فى فوبيا .. ويعانى من انقسامات ضخمة جداً فإلى أين سيصل ؟ وهل ستستطيع الدول الكبرى ترويض هذا الكيان أم أنه سيظل معلناً العصيان ؟

* من سيقرأ هذا الحوار سيكتشف عند هذه النقطة أن الذين يدعون السلام والحفاظ عليه وتجربته مع إسرائيل هم أكثر الناس تشدداً فى رؤية إسرائيل أيضاً وهذا عكس ما قد يردده البعض ؟

** ليست لدى أوهام نحو إسرائيل .. ولا أؤمن بإسرائيل (ماما القوية التى تهذب العاق وتساعد الطيب وتكافىء المجتهد وتمسح بيدها القوية على كتف خاطبو الود) .. لا أؤمن بذلك.. إننى أرى أن إسرائيل يمكن أن تصل لمأزق داخلى صعب ويؤكد ذلك أن هذا الكيان الصغير يمتلك فى نفس الوقت آلة حربية جبارة وفى نفس الوقت يعجز عن اتخاذ قرار : هل يخرج من الخليل أم لا ؟ ماذا يفعل بالضبط ؟ وأسئلة أخرى .. إنه أمر غريب وأقرب للمسرح العبثى ..

ويعيد للأذهان ما حدث كثيراً لليهود وهو إمكانية أن تتحول إسرائيل إلى مجرد (جيتو) أو جيب معزول .. إلى ماذا ؟ .. ثم فقدان السيطرة على هذا الكيان إلى ماذا ستؤدى ؟ .. أسئلة لايمكن تجاهلها .

لست رجل أمريكا فى القاهرة

* مصر وأمريكا .. سؤال بدأنا نقترب منه منذ بداية اللقاء .. فقد كانت هذه العلاقات إما نقمة وإما نعمة .. وما بين المعنيين ظلت علامات الاستفهام تتجدد ؟

** العلاقات المصرية الأمريكية دائماً ماتكون فى الوسط منها العلاقة الأمريكية الإسرائيلية وتلك الأخيرة جزء من السياسة الداخلية الأمريكية حيث إن اليهود الأمريكان لهم دور كبير جداً في صياغة الموقف الأمريكى تجاه كل مايتعلق بالشرق الأوسط، فأصبحت بذلك علاقة مصر بأمريكا ليست علاقة بين دولتين تحكمها المصالح المشتركة وإنما تتأثر بطرف ثالث هذه هى المعضلة، العامل الآخر اختفى بدور أنور السادات الذى أنهى الوجود السوفيتى فى المنطقة ثم بانهيار الاتحاد السوفيتى نفسه، ولكن ظل العامل الإسرائيلى عاملاً مهماً، هناك أيضاً عامل مهم .. أننا لفترة زمنية لم ننتبه للقوى التى تعمل على تخريب هذه العلاقة ولا سيما دور الرئيس بن جوريون والذى أشرنا إليه فى السابق ـ وأستطيع أن أؤكد أن الهجوم الإسرائيلى فى فبراير ١٩٥٥ على غزة كان يستهدف دفع عبدالناصر إلى المعسكر الاشتراكى وقد وصلت العلاقات المصرية الأمريكية إلى أدنى مستواها فى الستينيات .

* هل يعنى هذا الكلام .. أن مصر يمكن أن تكون اللاعب الأساسى الذى تعتمد عليه أمريكا فى المنطقة كبديل لإسرائيل .. إن هذا المفهوم يبدو فى حوارك ويبدو لدى الكثيرين .. رغم أن هناك علامة استفهام أو تساؤل حول هذا الأمل ـ أو الوهم ؟

** بأمانة .. إسرائيل تعمل على أن تكون هى بمثابة الامتداد الأمريكي ومصر لايمكن أو لاتستطيع أن تكون بديلاً لإسرائيل عند الأمريكان ـ مصر هى الدولة الإقليمية التى تقود المنطقة العربية والتى تقوم بدور إقليمى يتحاور ويتعامل مع الدور الأمريكي .. وأكبر أو أبرز تعبير عن ذلك ما حدث فى أزمة غزو العراق للكويت، وقتها مصر رفضت أن تكون جزءاً من الحلف الأمريكي .. وللتوضيح .. مصر عبدالناصر قادت المنطقة فى صدامها مع أمريكا ـ ومصر السادات قفزت لقلب التعاون مع أمريكا بدون حدود .. فامتدت أساليب التعاون من زائير إلى ليبيا إلى جلوس السادات مع كيسنجر ليتحدث معه عن أهمية ممارسة العداء مع الاتحاد السوفيتى !! ثم مصر مبارك .. وهى مصر أخرى أكثر موضوعية .. حريصة على التوازن الدقيق بين المصالح القومية العليا للعرب وبين كيفية إدارة الحوار أو العلاقة مع قوة

عظمى باتت مهيمنة على الخريطة السياسية العالمية، سياسة مبارك أنهت أو تجاوزت سياسة الصدمات التى انتهجها السادات ومن أمثلتها الواضحة أنه فى يوم من الأيام قال إن مصر يمكن أن تنضم لحلف الأطلنطى !!

طبعاً .. هذا كلام غير عقلانى .. وأتذكر أنه فى تلك الآونة كنت مندوب مصر فى مؤتمر نزع السلاح .. والتف حولى سفراء الدول العربية يسألوننى عما يقول رئيس مصر آنذاك !! طبعاً لا أجد تعليقاً !! وكان من البديهيات أن الشعب المصرى لايمكن أن يكون جزءاً من حلف الأطلنطى، ولكن السادات كان يحاول كسب أمريكا إلى جانبه ــ هذه مرحلة انتهت وجاءت طريقة مبارك المتزنة فى إدارة العلاقات الدبلوماسية ، والتى أدت إلى محافظته بكل قوة على عملية السلام دون اللعب على الطريقة الأمريكية، وأتصور أن إدارة الرئيس مبارك لأزمة الغزو العراقى للكويت هى مثال بارز على رؤيته وواقعيته .

* تستخدم فى كلامك لفظة (الواقعية) كثيراً، ما دلالة أو مغزى هذه الكلمة ؟

** أفسرها لك من خلال بعض المواقف .. ففى الأربعينيات كان التيار الشعبى المؤيد للحق الفلسطينى مصمماً على دخول الحرب ضد اليهود .. وأتذكر أن فؤاد سراج الدين قال لى فى لقاء معه منذ خمس سنوات أن الوفد أيد قرار دخول مصر حرب فلسطين وعارضنا موقف إسماعيل صدقى الذى طرح عدة أسئلة مهمة وواقعية حول مدى الاستعداد للحرب والنتائج المنتظرة والاحتمالات الواردة .. كانت أسئلة ورؤية واقعية .. رفضها الحماس الشعبى وبرزت اتهامات التخوين التى مازالت تستخدم فى القاموس السياسى حتى اليوم والتى أراها مصادرة على حق الشعب فى الاستماع إلى وجهة نظر أخرى ـ وهذا حدث بعد ذلك فى حرب ٦٧ .. فلم يستمع أحد لصوت واقعى ويحلل الصورة بعيداً عن الحماس الزائد أو الانفعال المبالغ فيه .. إذ إن الرغبة فى امتطاء موجة المشاعر الشعبية جعل الوفد يتجاهل الرؤية الواقعية .. وجعل عبدالناصر يفكر بصورة مختلفة وللأمانة فإن السادات هو الذى تحرر من عقدة الحماس الجماهيرى وحاول تطويعها لوجهة نظره الواقعية .

أنا عندى نكتة !!

* الصور العديدة على جدران منزلك عامة وغرفة مكتبك خاصة تعكس نجاحك فى صياغة علاقات متميزة مع الرؤساء الأمريكيين .. كارتر وريجان وبوش .. ماذا تحمل فى ذاكرتك عن رؤية هؤلاء الرؤساء وأساليب تفكيرهم ؟

** بالفعل كانت لدى علاقات طيبة نسجتها خلال ثمان سنوات من الوجود كسفير فى الولايات المتحدة الأمريكية .. أتوقف أمام ريجان .. فقد قال لى صديق فى مجلس النواب أن

البعض يظن أن ريجان يمثل دور الرئيس فى مسرح البيت الأبيض ولكنه لايحكم .. ولكن هذا غير حقيقى !

احتفظت بهذه الكلمات وبدأت بجهدى الشخصى أدرس ريجان وتبين لى أن اهتمامات ريجان كانت محددة جداً ولم يكن من بينها علاقته بمصر أو الشرق الأوسط ، ريجان دخل البيت الأبيض بقناعة أساسيةوهى أن الاتحاد السوفيتى هو مملكة الشيطان – وأى حكومة هى نوع من الشر وأن أفضل شيء هو فض الحكومات وإطلاق الحرية الكاملة للفرد ولو كان بيده لقام بخصخصة الهواء !! وما كان مشتركاً بينه وبين السادات هو النظر السوفيت على أنهم أساس الشر والأحقاد على الأرض !! وهذه باختصار أولوياته .. وباقى القضايا تركها الشغيلة من شولتز إلى غيره .. يعملون مايريدون من فضيحة إيران – كونترا إلى غيرها من المشاكل .. بينما يخرج للشعب الأمريكى معلناً نظافة يديه من مثل هذه العمليات !! ريجان هو الرئيس الأمريكى الوحيد فى اعتقادى الذى كان يستيقظ فى الحادية عشرة ليعمل لمدة ساعتين على الأكثر وقد حضرت اجتماعاته بالرئيس مبارك .. فبينما يكون الرئيس المصرى على دراسة ومعرفة تامة بملف ريجان وبالقضايا التى ستناقش .. فإن ريجان كان يسرح أثناء الاجتماعات .. وعندما كان يواجه مأزقاً .. فإنه يلتفت حوله معلناً أن لديه (نكتة) يريد أن يُسمعها لأصدقائه !! كان شخصية لها حضور قوى بين أبناء الشعب الأمريكى ولذلك لم يسمحوا بفضيحة إيران – كونترا أن تنال منه أبداً . عكس ذلك كان الرئيس بوش .. فقد كان شديد الاهتمام بالسياسة الخارجية .. وكان يؤمن بأن موضوع الشرق الأوسط لابد من حله، ودخل البيض الأبيض ولديه تصورات عن المشكلة تكونت أثناء عمله كمندوب دائم للأمم المتحدة من ١٩٦٨ إلى ١٩٧٠، وكان أول من شرح أبعاد المشكلة له هو المرحوم الدكتور محمد حسن الزيات .. وكان مندوباً دائماً لمصر فى المنظمة الدولية، وحدث بعد ذلك العلاقات الدبلوماسية بين القاهرة وواشنطن .. وتابع ذلك الدور الدكتور عصمت عبدالمجيد الذى خلف الدكتور الزيات – وقد زار مصر وهو نائب للرئيس عام ٨٦ وارتبط بعلاقة طيبة بالرئيس مبارك كان لها أثر كبير على العلاقات المصرية الأمريكية بعد دخول بوش إلى البيت الأبيض .. وقد ساعد ذلك على تجاوز مصر لأزمتها الاقتصادية التى استمرت حتى أوائل عام ٩٠ .. بوش طالب بإلغاء الديون العسكرية على مصر، ولعب الكونجرس الأمريكى دوراً مهماً فى الدعوة أيضاً لكي تلغى أو تخفض باقي الدول ديونها على مصر ، وتمت الاستجابة وساعدنا بوش فى التوصل إلى اتفاق للإصلاح الاقتصادي بالتعاون مع صندوق النقد الدولي وخرجت مصر من أزمتها وبدأ الاقتصاد المصرى يسترد عافيته – أما الرئيس كارتر والذي إلتقيته لأول مرة فى مجتمع كامب ديفيد عندما كنت أبحث عن مقر إقامتي وأرشدني بنفسه إليه فقد كان شخصية لها سماتها الخاصة .. ومازلت أتذكر أنه فى الاجتماعات الأولية لمباحثات كامب ديفيد كان كارتر يمسك بقلم يدون به كل كلمة يقولها أى فرد فى الوفد المصرى .. كان شديد التركيز فى

البحث والتفكير فى أبعاد مشكلة السلام فى الشرق الأوسط .. وهناك كان ينسى الصورة الكلية للمشكلة ويغرق فى التفاصيل وذلك عكس ريجان الذى كان يمتلك صورة كلية للأمور ويبتعد عن التفاصيل، كارتر كان لديه دافع ديني ـ بجانب طبعاً مسئوليته عن المصلحة الأمريكية ـ فى البحث عن حل لمشكلة الشرق الأوسط .. وكان لديه اقتناع بأنه المرشح لنشر السلام فى أرض السلام .

* بهذه المناسبة .. أعتقد أن نظرة المواطن العربى خاطئة فى أوقات الأزمات ـ كثيراً ما يتساءل كيف تصنع أمريكا قرارها ؟

** القرار فى أمريكا محصلة تفاعلات وتوازنات .. ويدخل فى ذلك دور الرئيس وإلى أى حد هو مهتم بموضوع معين .. مثلاً بوش كان شديد الاهتمام بموضوع المستوطنات الإسرائيلية حتى إنه ربط المساعدة الموجهة لإسرائيل لبناء المساكن بتوقفها عن تشييد المستوطنات ، أيضاً يدخل ضمن موضوع صناعة القرار .. معتقدات الرئيس حول القضية المطروحة .. يتداخل مع ذلك رأى المستشارين ثم رؤية المؤسسات .. ولكن يظل للكونجرس دور أساسى سواء من خلال لجانه التى تدرس الموضوع المطروح أو من خلال الجو العام السائد .. وهذا العامل الأخير يفسر تأثير إسرائيل فى قرارات الكونجرس وتأثير المناخ الناتج من ذلك على قرار الرئيس نفسه .. هناك كذلك مراكز الأبحاث التى تفرخ الأفكار وتطرح البدائل وكل جماعة لها مصلحة معينة تؤسس مركز أبحاث يلعب دوراً وتأثيراً فى المجتمع الأمريكى ـ هناك كذلك الإعلام الذى يخلق المناخ الملائم أو المعاكس .. كل هذه عوامل متداخلة ويمكن من خلالها النظر لصناعة القرار فى المجتمع الأمريكى، لذلك فإن سفير مصر فى أمريكا لابد أن يخاطب كل هذه المؤسسات وإقامة علاقات وصداقات واختراق حواجز عديدة ثم التعامل مع ٥٢ دولة تضمها أمريكا .. وولاية مثل كاليفورنيا هى ثامن الدول اقتصادياً فى العالم !!

* بالرغم من المعرفة النظرية بهذه الحقائق .. فإن التساؤل الدائم هو لماذا نفشل فى التوصل إلى لغة ناجحة للحوار مع العقل الأمريكى ؟

** هذا الفشل العربى الذى تسأل عنه هو جزء من نجاح إسرائيل .. ويكفى أن أقول أن الجالية اليهودية هناك تضم المستوى العلمى الرفيع ، والتنظيم الهائل بالإضافة إلى الدافع القوى .. وبعد ذلك فإنها جالية لديها وفر سياسى مرتفع جداً ولديها دور فى المجتمع على مختلف النواحى .. فلاتوجد قضية حيوية ومطروحة على المجتمع الأمريكى لاتشترك فيها الجالية اليهودية .. أما العرب فإن تجربتهم كانت مرتبطة بالصدام مع أمريكا حتى منتصف السبعينيات فجاءت نقطة البداية العربية متأخرة .. وكان العقل الأمريكى قد بدأ واسنوات يستقبل ببساطة الرأى اليهودى وجاء الرأى العربى متأخراً محاطاً بصور ذهنية سلبية حيث ســـــاد الرأى بأن العـــــرب مـــــتــــخلفـــــون أو أنهم

يعيشون فى ظلال حكومات غير ديمقراطية .. وهكذا .. تعثرت اللغة المطلوب الدخول بها إلى العقل الأمريكي .. والأكثر من ذلك أن ما تراه أنت أنه كان واضحاً نظرياً فإنه لم يكن كذلك منذ ٢٠ عاماً .. فكانت فكرة الدخول إلى المنظمات الأمريكية وإلى مراكز صناعة القرار مسألة غير واضحة فى الذهنية العربية .. لذلك دائماً كنت أقول أنه قبل التساؤل حول خلق لوبى عربى فى أمريكا علينا أن نتساءل حول كيفية التخاطب مع الأمريكان .. ولذلك فقد اقترحت إنشاء مركز للدراسات الأمريكية لحل مشكلة عدم وجود تراث لدينا فى التعارف الثقافى مع أمريكا .. فلدينا جيل كتب وعاش وتأثر وتفهم وتحاور مع أوروبا وكتابات كبار أدبائنا ومفكرينا من أيام الطهطاوى إلى أيام طه حسين إلى توفيق الحكيم ، وغيرهم حتى اليوم تزودنا بفهم أوروبا الثقافية .. ولكن لايوجد ذلك فى العلاقة مع أمريكا .. بالإضافة إلى أننا نحمل ـ تاريخياً ـ توجهاً سلبياً تجاه أمريكا .. تلك مشكلة ويجب فتح قنوات للحوار الواسع مع دولة لديها تراث علمى وحضارى وثقافى لايمكن تجاهله .. نعم عمرهم قصير ولكنهم يملكون أقوى دولة فى العالم وأنجح نظام سياسى وأبرز إنجازات تكنولوجية .. وهكذا لايمكن تجاهلهم لأسباب نفسية أو أيديولوجية .

* الصورة السلبية التى يحملها العرب نحو أمريكا .. ألا تعتقد أنها تقابل صورة سلبية يحملها الأمريكان للعرب ؟ أليس غريباً أننا لانعرف كيف يرى كبار المثقفين والمبدعين الأمريكان مصر مثلاً ؟

** أتفق معك .. ولكنى أرى إمكانية حدوث تجاوز لهذا الأمر .. وأتخيل أن الجهد المشترك يصنع جسوراً للقاء .. وهنا أذكر لقائى مع الكاتب الأمريكي الأسود إليكس هيلى والذى عرفناه فى مصر بسبب عمله البديع (الجذور) لقد زار هذا الأديب مصر مرتين .. مرة بمناسبة إعداد كتابه (السيرة الذاتية لمالكولم إكس) والأخرى للمشاركة فى تكريم أديبنا العظيم نجيب محفوظ بمناسبة حصوله على نوبل .. فى لقائه معه قال: إن لمصر سحراً خاصاً يكمن ـ بالإضافة لحضارتها ـ فى شعبها الطيب ومجتمعها الذى انصهر عبر قرون فى شخصية واحدة ذات عمق روحى وفلسفة تفاؤلية .. وهى شخصية ودودة وسمحاء لاتعرف التعصب. ولقد لفت نظرى شغفه بصور الحياة فى الريف المصرى .. ومدى انتشار التليفزيون ولذلك كان شغوفاً بحديثى عن المطرب الشعبى أو المنشد فى الريف المصرى ، والذى يحكى قصصه على أنغام الربابة وقد حكى له هو عن زيارته لأسوان .. وعن التوليفة الطيبة التى يتكون منها النسيج المصرى والتى تجسدت هناك .. وكان شديد الرغبة فى أن يعيش هناك الفترة من الوقت حتى يستطيع كتابة رواية عن هذا المجتمع أو تستمد رائحتها منه .. وأتذكر الآن أنه خلال أكثر من لقاء كان إليكس هيلى يعقد المقارنات بين الحياة الأسرية فى المجتمع المصرى .. ومثيلتها فى الجنوب الأمريكي الذى ينتمى إليه .. كذلك أبدى اهتمامه بصورة الإسلام المشوهة فى أمريكا وتحدث عن وجوب تغيير هذه الصورة الظالمة ـ هذه الصورة التى

أسهمت فى شرح بعض ملامحها تكشف حقيقة مهمة وهى أن العلاقة بين الشعوب والدول ليست محكومة بقدر من المواجهة أو المواءمة لايمكن تغييره .. من ناحية أخرى أن صناعة صور إيجابية متبادلة بين الشعوب هو فى الأساس مهمة ثقافية وحضارية وشعبية .. إن المثقف الأمريكى ليس محكوماً بأمر نهائى بتجاهل ثقافتنا .. وكذلك المثقف العربى .. ولكن مطلوب فقط هذا الجهد الحضارى الثقافى .. فليس هناك أخطر من القطيعة النفسية والثقافية بين الشعوب .

اكيلى لاورو

* أعرف أنك عاصرت العديد من الأزمات الصامتة التى مرت بها العلاقات المصرية الأمريكية.. ما هى أبرز هذه الأزمات ودلالتها ؟

** أول أزمة واجهتنى مع بداية عملى كسفير كانت أزمة اكيلى لاورو .. السفينة التى اختطفها الفلسطينيون .. وبذلت مصر جهودها لحماية وإنقاذ ركاب الباخرة .. ولكن كان المختطفون قد ألقوا راكباً يهودياً أمريكياً مقعداً فى البحر فى الوقت الذى نفى فيه ربان السفينة حدوث أى عنف عندما سألته السلطات المصرية وذلك حتى تستقبل السفينة وتطلق سراح الركاب فى مقر خروج المجموعة الخاطفة وتسليمهم لمنظمة التحرير الفلسطينية لمحاكمتهم بمعرفتها.. وكان الأمريكان مستعدين لقبول ذلك .. ولكن بعد أن تكشف موت الراكب .. اعترض الأمريكان على خروج المختطفين .. وفى لحظة جنون أمريكية تم موافقة ريجان على اعتراض الطائرة المصرية المدنية التى تحمل هؤلاء الناس .. وحدث بالفعل وتم إجبار الطائرة على الهبوط فى إيطاليا وقبلها بأربع وعشرين ساعة كانت مصر قدمت أكبر خدمة إنسانية بإنقاذ الأبرياء .. بينما تسيطر على العقل الأمريكى الرغبة فى العقاب السريع .

واجهت أنا فى تلك الأيام موقفاً عصيباً أمام الإعلام الأمريكى فبعد أن كانت الصورة إيجابية لأننا ننقذ الأبرياء فقد تحولت إلى صورة الإرهابيين !! وقد اعتذر الأمريكان بعد ذلك لمصر ولإيطاليا . وأتذكر أيضاً أن من الأمور التى ساهمت فى تعقيد الموقف هو السفير الأمريكى فى القاهرة آنذاك الذى استخدم تعبيرات حادة عندما وصف الفلسطينيين بأنهم (أولاد السفاح) خلال حديثه من بورسعيد بالراديو .. وأعود أقول .. إن واقعية السياسة المصرية كانت حبل الإنقاذ للعلاقات وكان النضج المصرى فى احتواء الأزمة عاملاً مهماً فى تجنب منحنيات عديدة ـ أما الأزمة الثانية .. والتى أشرت إليها أثناء الحوار والخاصة بالقبض على بعض الأشخاص ومنهم مصرى بتهمة نقل تكنولوجيا صواريخ متقدمة إلى مصر فإننى أرغب فى تجنب الحديث عنها لأنها تمس مصلحة وترتبط بأسئلة مازالت معلقة .

* عملت فى الأمم المتحدة .. تلك المنظمة الدولية التى تركت فى نفوس العرب الشعور بالإحباط فى أكثر الأحيان .. وفى أوقات أخرى العجز عن الفهم أو التصديق .. حتى أن الكثيرين يتساءلون عن أهميتها على أبواب قرن جديد بعد أن باتت غطاء لشرعية القوة منها أداة لشرعية العدالة الدولية ؟

** نعم .. دخلت الأمم المتحدة لأول مرة فى منتصف الخمسينيات وظللت أعمل وأتأمل حركة هذه المنظمة الدولية لسنوات طويلة وهى تضم هيئات عديدة تمتد من سكرتيرها العام إلى مجلس الأمن إلى الجمعية العامة إلى مجالات منظماتها وهيئاتها الدولية المتخصصة وباختصار فإن قراراتها خاصة داخل مجلس الأمن ـ هى قرارات للتعبير عن التوافق بين القوى الكبرى .. وبدون هذه الدول لاتوجد قرارات دولية .. ومايردده البعض عن ضرورة إلغاء (الفيتو) كلام خيالى .. لأن الفيتو تعبير عن موقع مؤثر فى الساحة العالمية .. الفيتو انعكاس لأوضاع عالمية وليس من صنع تلك المنظمة الدولية .. ومن الوهم تجاهل قراءة خريطة العالم تحت أى مسميات .. لكن مقابل ذلك لايكون اليأس لأن الأمم المتحدة هى أيضاً مسرح عالم، شرعية دولية للقضايا ولولا وجود الأمم المتحدة لحدث هجوم أو ضغط عسكرى أمريكى جديد على العراق خلال الأزمة الأخيرة .. الأمين العام للأمم المتحدة لعب دوراً مهماً فى خلق توافق أمريكى روسى ـ أوربى بأنه يمكن إيجاد مخرج، ونحن لانتوقع أن تفرض الأمم المتحدة قراراً على قوى كبرى .. ولكن تظل أكبر مؤسسة يمكن أن تساهم فى خلق رأى عام حول قضايا عديدة من حقوق الإنسان إلى المرأة والبيئة إلى المجاعات إنها مؤسسة دولية مهمة لأنها مقياس ومنبر للممارسة الديمقراطية فى المجتمع الدولى .. قد لاتستطيع أن تعلق عليها الآمال الكبار ولكنك أيضاً لايمكن أن تدعو للتخلص منها وأتصور أنه من مصلحة العالم الثالث أن تزداد هذه المنظمة الدولية تأثيراً وقوة فى العالم .. فمازالت هى الصيغة أو السقف الذى يمكن أن يتحدث تحته الجميع حتى لو فرض الأقوياء شروطهم فإن للآخرين فرصة للاحتجاج .

* يعنى هذا أننا لابد أن نقرأ حقيقة العصر الذى نعيشه قبل قراءة إحدى نتائجه (الأمم المتحدة) فكيف تقرأ أنت القرن الجديد ؟

** بالضبط .. سؤالك يحمل التلخيص الدقيق لرؤيتى حول الأمم المتحدة .. والعصر الذى نتحدث عنه .. أو ستتحرك خلاله قاطرة العالم خلال القرن القادم هو القرن الأمريكى .. الولايات المتحدة تزداد حركة وتأثيراً كقوة عالمية وحيدة على أرض الواقع .. ولايعنى ذلك تسليم قيادة العالم لأمريكا .. ولكن معرفة كيف يمكن التعامل مع أمريكا أو مع هذه الحقيقة ـ فأمريكا ليست بلداً مغلقاً .. وليست باباً موحداً وليست كياناً سياسياً محكوماً بديكتاتورية أيدلوچية أو حكومة نازية .. إنها مجتمع يستمد جاذبيته من أنه أرض مفتوحة صنعها كل من

دخلها .. ويمكن أن يؤثر فيها كل من يعرف كيف يتحادث معها !! أمريكا ساحة واسعة لمن يعمل .. وبقدر ما تعمل بقدر ما تحصد .. هذا هو الدرس الأول الذى يجب الوعى به فى القرن الجديد .

أمريكا الفارس

* تتحدث عن أمريكا وكأنها الفارس الرومانسى الذى يمد يده ليحمل أى حسناء خلفه على ظهر حصان وجهته الوحيدة هى أرض الأحلام !! هذه الرومانسية تتجاهل مصالح أمريكا كقوة عسكرية وواقع ثقافى .. لذلك فإن أمريكا تتغاضى عن حقوق الإنسان عندما يشتد غزلها الاقتصادى مع الصين ويسرع كلينتون إلى بكين ليس كفارس ينقذ الحسناوات من قطاع الطريق ولكن كاقتصادى يقرأ خريطة الأموال والصناعات ؟

** توصيفك أكثر قسوة على رؤيتى من رؤيتى نفسها .. إننى أتفهم أن أمريكا ليست ولن تكون الملاك الحارس .. وأفهم أيضاً أن القرن الجديد سيشهد قدراً من التوازن على الساحة الدولية التى أصابها الاهتزاز بعد سقوط الاتحاد السوفيتى .. فهناك الصين قوة صاعدة .. وهناك اليابان .. وهناك أوروبا .. وماتقوله أنت هو تأكيد فى نفس الوقت لرؤيتى بأن العالم يعيش على مائدة الاقتصاد وتكنولوجيا المعلومات وعصر الإنترنت .. وكيف أن خلل نيران المدفوعات أخطر على الدولة من أى شعار وما أطرحه أنا كيف يستفيد من كل هذه المعطيات .. وكيف نعظم إمكاناتنا .. ومصر لديها إمكانات عظيمة فضلاً عن موقعها القيادى وطاقتها البشرية .. مصر لديها إمكانات ثقافية وتراث حضارى مهم للبشرية كلها .. وهى إمكانات لها سحرها على نفوس شعوب العالم .. لذلك كان من أجمل مايحدث لى فى أمريكا هو زيارة معرض رمسيس الثانى الذى كنت أصاحبه فى التجوال فى أنحاء أمريكا .. وكان لقائى الأول مع كلينتون عندما كان حاكماً لولاية أركانسو وكان وقتها معرض رمسيس فى ممفيس تنيسى .. يعنى .. أقول أن الورقة الثقافية المصرية ورقة مهمة جداً .. دور مصر القيادي فى العالمين العربى والإسلامى ليس ورقة ضائعة فى القرن الجديد حتى أمام قوة عظمى ستظل وحيدة لسنوات على المسرح الدولى .

سلام بارد وموت مؤجل

* من ينظر لدعاة السلام من المصريين ومنهم السفير عبدالرءوف الريدى يرى فى حديثهم جانباً من التفاؤل بالسلام الذى تم ولن يتغير .. وجانباً آخر من التشاؤم بالمجهود الذى لايستطيعون أن يصدقوا أن نيتانياهو هو التعبير عنه ؟

** لدى تفسير شخصى ـ بصراحة ـ لسؤالك الذى يحمل رؤية أكثر من تعبيره عن علامة

استفهام .. فأنا مسكون بتفاؤل من ناحية مصر .. فإذا ظلت مصر تسير في الاتجاه العقلاني غير الديماجوجي والذى يظل فيه القرار بالنسبة لأرض مصر قراراً مصرياً ـ أما فيما يتعلق بالمنطقة وإسرائيل فإننى أرى علامة استفهام حول مصير الصراع الإسرائيلى ـ الفلسطينى ـ أو بين إسرائيل والمنطقة المحيطة ـ طبعاً فى أكثر من معنى أنت سألتنى: أليست مصر جزءاً من المنطقة؟ طبعاً .. وممكن أن تحدث سيناريوهات بهدف جذب مصر، لكن مصر يجب أن تكون حريصة .

* أنت مدافع قوى عن عملية السلام ومشارك بصورة أو أخرى منذ اجتماعات ميناهاوس عام ٧٨ مع الإسرائيليين .. ورغم ذلك لم تنضم إلى مجموعة كوبنهاجن أو جماعة السلام الجديدة المنبثقة عنها ؟

** أنا أرى أن الأهم هو العمل على الساحة المصرية .. وليس هناك مبرر ـ من وجهة نظرى ـ لإنشاء مثل هذه التجمعات، أنا مع أفكار السلام ولكن لابديل أمامى عن التحفظ فى مقابل أعمال نتنياهو، ولا أعتقد أن مثل هذه الجماعة ستستطيع أن تقوم باختراق للموقف .. (ملحوظة: طلب عبدالرءوف الريدى، إغلاق جهاز التسجيل ليقول تعليقاً لايرغب فى نشره .. ثم عاد للحوار) ، لكنى رغم ذلك فإننى ضد إشهار سلاح الخيانة فى الاختلاف مع أصحاب هذه الفكرة أو هذا المشروع .

* كلامك تغير عن حالة السلام .. فهو حالة تفتقد حرارة الحياة والحركة .. ولم تصل إلى برودة الموت ؟

** بالضبط .. هذا ما أقصده .. والسبب أن الإسرائيليين لم ينفذوا ماتم الاتفاق عليه من اتفاقات بالنسبة للقضية الفلسطينية ، ولم يمت السلام بسبب إصرار مصر على المحافظة على معاهدة السلام بينها وبين إسرائيل، لأن هذا الموقف هو تعبير عن المصلحة القومية المصرية .

ونحن نحاول معاً استقراء بعض الملامح التى تقودنا ليس للنبوءة ولكن للقراءة الواعية للمستقبل .. هل تعتقد أن إيقاع السلام الحالى الذى نحاول تفسيره سيدفع ابنتيك للنظر لاتفاقات مصر على أنها كانت قيداً على حركة الأجيال الجديدة أم الفرصة الوحيدة التى يجب الاعتراف بها ؟

هذا السلام جزء من شبكة العلاقات المصرية ـ الخارجية وهو يصيب فى مصلحة مصر مادامت أرض مصر لم تنتهك .. من ناحية أخرى .. فكل شىء فى الدنيا قيد .. كل ارتباط قيد .. كل التزام على مستوى الفرد أو الجماعة هو قيد ولكننا نقبل القيود من أجل مصلحة أكبر ـ أيضاً .. فإن المسألة ليست مبهمة .. فعلاقات مصر الخارجية متوازنة ، وكل يوم تخلق حركة جديدة تمتد من أفريقيا إلى أوروبا إلى اليابان، مصر تقدم نفسها، كل يوم للعالم فى شكل أكثر حضارة وعكسها إسرائيل التى تبدو فى شكل الدولة ـ العصابة أو الجماعة الخارجة على الشرعية .

* الكثيرون فى حوارهم أو حديثهم عن عبدالرءوف الريدى .. يشيرون إليه ولآخرين على أنهم النخبة التى ولدت على أرض عربية ولكنها تعلمت على مائدة الثقافة الأمريكية وتشربت اتجاهاتها .. ويبحثون عن اللغة المشتركة مع أمريكا .. ولكنهم لم يسألوا عن لغة العدل التى يجب أن تسود فى الحوار مع أمريكا .. بصراحة هل أنت رجل أمريكا فى مصر ؟

** «يضحك» .. أنا ابن عزبة البرج فى أمريكا وليس العكس .. أنا نتاج قرية مازلت مرتبطاً بها وظللت أكثر من ثلاث سنوات رئيساً لمجلس مدينة دمياط الجديدة .. وأنا فى أمريكا .. كان الصيادون يكلمونى بالتليفون لو أن هناك مشكلة وأحاول حلها .. أنا أكثر من نصف وقتى موجه للعمل التطوعى فى مكتبة مبارك العامة .. دمى وحياتى فى بلدى .. وليس لى مقام أو قبر أو أمل خارج بلدى .. لست من دعاة التغريب .. لست الرجل الذى يبشر بالحلم الأمريكى أو يسعى لتوزيع قبعات أو بنطلونات جينز على أبناء قريته .. لست المدافع عن السياسة الأمريكية ، ولم أكن أبداً رجل أمريكا فى مصر ولكننى قارئ مجتهد لتوجهات السياسة الأمريكية .. أنا رجل واقعى كالصيادين .. كنا نغنى للفيضان ونعشق الازدهار الموسمى ولكننا لاننسى أن هناك ما هو غامض فى النهر أو البحر .. كنا نعرف أن هناك مواسم رواج وأيضاً مواسم قحط كنا نشم رائحة البحر ومازالت فى أنفى رائحة السمك .. ولكنى كنت أعرف أننى تعلمت على لمبة جاز وكان (الكلوب) أعلى مستويات التكنولوجيا .. أنا ابن جيل يمكن أن تقرأه من هذه المفردات .. هل تمدك بالحكم الذى تبحث عنه ؟ هل تزودك بكيف كنا نحلم ؟ .. لقد حلمت .. وكنت ابناً للتجربة الوطنية المصرية التى اندلعت فى الأربعينيات ولكن لاتحرمنى من حق إعادة النظر فى الهزيمة العربية .. لقد فكرت فيها منذ الأربعينيات واليوم تغيرت أشياء كثيرة .. أنا أقرأ ماحدث وأتأمله .. بالمناسبة لست سعيداً بالكثير الذى أقوله ولكنى أحترمه كحقيقة .. نحن أصبحنا جزءاً من عالم مترابط تلعب فيه الولايات المتحدة دوراً مهما ولأن (أبى) علمنى الصدق مع النفس والآخرين فإننى أقول أننا يجب أن نعمل على أن يكون هذا الكيان الكبير متفهماً لمطالبنا العادلة ـ مرة أخرى لست رجل أمريكا فى مصر .

* كنت سفيراً لمصر فى باكستان عام ٧٩ كيف كانت الصورة المصرية بين دول العالم الإسلامى فى هذه المرحلة ؟

** واجهت فى باكستان ذروة العمل العربى ضد مصر بهدف عزلها .. وكانت الثورة الإسلامية قد اشتعلت وانتصرت فى إيران .. وفى أفغانستان كان الحزب الشيوعى قد استولى على الحكم .. وبمجرد وصولى كانت أزمة غريبة فى انتظارى .. فقد سحبت باكستان سفيرها فى القاهرة! استجابة للضغوط العربية .. وكانت فى طريقها لقطع العلاقات مع مصر

استجابة لضغوط عربية فى مقدمتها الضغوط السعودية وأيامها أرسل لى الدكتور بطرس غالى وكان وزيراً للخارجية بالنيابة برقية يطلب فيها عودتى للتشاور ـ فرددت عليه بأن رأيى عدم العودة للتشاور لأننا لو فعلنا ذلك نكون قد حققنا مايريده الذين يعملون على تخفيض العلاقات بين مصر وباكستان .. خاصة أننى لاحظت أنه فى الوقت الذى يريد وزير الخارجية الباكستانى إغا شاهى قطع العلاقات مع القاهرة فإن الرئيس ضياء الحق يعمل على الحفاظ على هذه العلاقات .

واستجاب بطرس غالى ، ولكن قمة الدراما التى واجهتها كانت مع تفجر أزمة الرهائن الأمريكيين فى إيران ودعوة الرئيس السادات لشاه إيران الحضور إلى مصر وماقاله الخمينى عن أن اقتحام الحرم على أيدى بعض السعوديين قام به الأمريكان .. مما أدى إلى اشتعال الموقف فى باكستان وهاجم الناس السفارة الأمريكية والمنشآت الأمريكية بما فيها المدرسة التى كان فيها أولادى .. ولا أنسى اللحظة التى ذهب فيها طبيب سودانى لإخراج أولادنا من بدروم المدرسة فى سيارة الجيش الباكستانى امتدت هذه التظاهرات لتهاجم سفارتنا فى إسلام أباد ونددت بموقف الرئيس السادات لأنه استقبل الشاه مما أدى إلى تكثيف الحراسة على السفارة .. ولكى يتم ذلك كنت أقابل الباكستانيين وخاصة ضباط القوات المسلحة وكانوا جميعاً يشيدون بموقف مصر وإيواء الرئيس السادات للشاه .. وكانوا يتعجبون من عدم قيام باكستان بذلك بالرغم من إيواء الشاه لسلاح الطيران الباكستانى مرتين وحمايته من الدمار أثناء الحرب مع الهند .

فى هذه المرحلة كانت رائحة الحصار هى التى تسود المناخ الدبلوماسى وكانت هناك جهود فظيعة لحصار الصورة المصرية .. ففى هذه المرحلة كانت مصر عضويتها معلقة فى المؤتمر الإسلامى.. الذى عقد فى باكستان لبحث الغزو السوفيتى لأفغانستان .. ورغم عدم حضور مصر إلا أن كافة أخبار المؤتمر كانت تصل إلىّ .. وحدثت واقعة لايعرفها أحد .. فقد حضر وزير خارجية إيران أنذاك صادق قطب زاده وفى جلسة مسائية قدم مشروع قرار يندد بالرئيس السادات وباستقباله للشاه فى مصر ووصل به الأمر إلى أن نص فى هذا القرار على مطالبة الشعب المصرى بالقبض على الشاه وتسليمه إلى الإيرانيين ! وكان رئيس الجلسة وزير خارجية باكستان نفسها فسأل هل هناك معترض ! فلم يعترض أحد !! وهذا يعكس الديماجوجية وخطورتها .. كان الوقت فجراً .. وأتذكر أن أعضاء الوفد السعودى اتصلوا بوزير الخارجية السعودى الأمير سعود الفيصل وأبلغوه بالقرار الذى يطالب بالقبض على الشاه واغتياله أو تسليمه لإيران .. خرج سعود الفيصل مسرعاً من غرفته وذهب للمؤتمر .. ومر على جميع رؤساء الوفود وأخذ منهم توقيعات بإلغاء هذا القرار وقُدمت الورقة لرئيس المؤتمر .. فى الوقت الذى كان رئيس الوفد الإيرانى قد سافر معتقداً أن القرار صدر !! ولكن ماهى إلا عدة أسابيع حتى دارت الدوائر وفوجئنا بأن صادق قطب زاده يُحاكم فى طهران ويُعدم !!

* هل هذه التجارب تفسر رأى البعض فى أنك لست متعاطفاً مع القضية العربية عامة .. والعلاقات المصرية العربية خاصة ؟

** أحب أن أقول إن هذه الفترة التى هاجمت فيها الدول العربية مصر كانت قاسية .. لقد سعى العرب بقسوة لعزلنا على كافة المستويات .. وتركت هذه السياسة آلاما نفسية حادة عند أبناء جيلى من الدبلوماسيين والذين أمضوا حياتهم ولسنوات طويلة فى الدفاع عن القضايا العربية على كافة المحافل الدولية ، وأتذكر أننى بعد ترك باكستان أمضيت عاماً فى جنيف كمندوب دائم لدى الأمم المتحدة .. وعندما وصلت هناك وجدت أن الهم الأساسى للمجموعة العربية هو عزل مصر عن المواقع المؤثرة .. ومن بين هذه الحملات كان العمل على إخراج أو نقل كل مكاتب الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة التى تعمل فى مصر أو تتخذ من مصر مركزاً إقليمياً .. وكان أهم أهداف هذه المجموعة بالذات بعد نجاحهم فى ذلك نقل مكتب منظمة الصحة العالمية بالإسكندرية .. وكان يتزعم هذه الحملة وزراء الصحة بالعراق (رياض الحاج حسين) والكويت (عبدالرحمن العوضى) والسعودية (حسين الجزائرى) ، وكانت بالنسبة لى معركة حاسمة وألا ينتقل المكتب .. وكانت أغلبية الدول العربية مع هذه المجموعة ولعلها الكتلة السوفيتية والكتلة الآسيوية .. وكان للدول العربية تأثير كبير .. ومن خلال مناورات إجرائية وقانونية بما فى ذلك طلب الرأى من محكمة العدل العربية أمكن لمصر الإبقاء على هذا المكتب فى الإسكندرية وعدم نقله، والمثير للمفاجأة أن الذى يرأس هذا المكتب الآن فى الإسكندرية هو نفس وزير الصحة السعودى (حسين الجزائرى) أما الدكتور العوضى ـ وهو صديق ـ فلم أقابله منذ ذلك الحين إلا يوم الغزو العراقى للكويت فى اجتماع مجلس وزراء الخارجية العرب يوم ١ أغسطس ١٩٩٠ حيث كان هو الذى يمثل الكويت فى ذلك الاجتماع والحمد لله أن الموقف المصرى فى هذا الاجتماع كان حاسماً فى دعمه للكويت . أما الثالث العراقى، فللأسف أن الرئيس صدام حسين أطلق عليه الرصاص بدعوى أنه سمح باستيراد أدوية فاسدة !

ولكن أقول لك : إن المرارة لاتمنع من حقيقة أننى لست ضد العلاقات مع العرب أو عدم الاهتمام بهذه العلاقات .. ولكن المرارة إنسانية وطبيعية عندما تعطى مصر كل ما أعطت ويكون المقابل أحياناً .. صعباً !!

الصياد والفريسة

* أتصور أن الأزمات الصامتة فى العلاقات الأمريكية ـ المصرية كثيرة وصعبة .. وأتصور أن تفسير بعضها.. قد يحل مشكلة للعقل المصرى الذى تعب من السؤال كيف نتعامل مع أمريكا؟

** بداية .. لابد من الاعتراف بأن الأزمات الصامتة هى اختيار صعب للكفاءة حينا .. وللنيات الطيبة حيناً آخر .. وأيضاً كشف للمصالح المتعارضة ، وقد استوعبت فى أمريكا أن أهم أدوات صناعة الأزمات أو انتقالها أو تكريس الضوء حولها .. هو الإعلام ولاسيما التليفزيون الأمريكى الذى يشكل رؤية الناس .. إن وصول حدث أو خبر أو مشكلة للشاشة الصغيرة هو تأكيد بأنه أصبح حقيقة وهذا ما حدث فى أزمة السفينة أكيلى لاورو وأتذكر أنها أزمة لعب عليها التليفزيون الأمريكى بقسوة .. ومازلت أتذكر المذيع الأمريكى الذى دعانى للحوار وقبل الدخول إلى الأستوديو طلب إجابة عن سؤال ووعد بأنه لن يطرحه على الهواء .. فأجبته .. ولكن أثناء الحوار على الهواء فوجئت به يعيد السؤال وكانت لحظة حرجة وتعكس الأسلوب غير الأخلاقى الذى يستخدم أحياناً فى أجهزة الإعلام الأمريكية – وهذا ما جعلنى أكثر حرصاً فى الأزمة التالية وهى التى ادعى فيها الإعلام الأمريكى بأن المصريين يهربون مواد حساسة تستخدم فى صناعة الصواريخ، أيامها كنت أحضر مؤتمراً فى بلدة جميلة «ليمربيرج» على بعد ٤ ساعات من واشنطن وذهبت إليها مع زوجتى بالسيارة وكانت الأمور جذابة لأننا كنا فى إجازة نهاية الأسبوع ولكن بمجرد استعدادنا للدخول لقاعة المؤتمر بعد الانتهاء من تناول الغذاء فوجئت بتليفون من السفارة يبلغنى بأن هناك مشكلة كبيرة .. وقد استدعت الخارجية الأمريكية وزيرنا المفوض فى السفارة وأخبرونى أنه كانت هناك مواد معينة سوف يتم شحنها على طائرة مصرية وأن هذه المواد محظور خروجها من الولايات المتحدة وقد تم التحفظ على الطائرة !! وأن المصريين الذين أشرفوا على ذلك مطلوب التحقيق معهم .. وفى لحظات قررت البحث عن مطار للعودة لواشنطن .. وجدت مطاراً صغيراً على بعد ساعة من المدينة وتوجد به طائرة .. وبالفعل توجهت إلى هناك مباشرة ووصلت إلى واشنطن فى أقل من ساعتين .. وكان هدفى الأول هو الابتعاد عن شبكة الشر أو الإثارة التى ستنشرها أجهزة الإعلام خاصة كاميرات التليفزيون وهى صياد يبحث عن فريسة يلهث وراءها والناس معه .. وكان لابد من تضييع الفرصة على هذا الصياد وهى استغلال أجازة نهاية الأسبوع تلك فى سفر هؤلاء الأشخاص من المستهدفين كصيد إعلامي وساعدنى فى ذلك وجود قنوات اتصال قوية بالقاهرة .. بالإضافة إلى علاقتى ببعض الأطراف الأمريكية التي تحرص على العلاقات بين واشنطن – والقاهرة والتى غضت الطرف من خروج هذه المجموعة فى طائرة لمصر للطيران – إننى أستطيع أن أقول إن هذه الأزمة الصامتة تؤكد ما أردده دائماً من أن هناك قوى داخل الإدارة الأمريكية تسعى لإضعاف العلاقات المصرية الأمريكية .. وتلك كانت ترفع الصوت بأن المصريين يهربون مواد تكنولوجية تدخل فى صناعة الصواريخ .. وهناك قوى أخرى ترى أهمية هذه العلاقات وأهمية الحفاظ عليها وأن نسعى دائماً بالطرق الدبلوماسية إلى تجاوز أية عقبات وأنه بجانب جهاز دبلوماسى يسعى لتوطيد العلاقات فإن هناك جهازاً آخر داخل الإدارة الأمريكية وتمثله وزارة العدل يسعى لممارسة سلطة القانون .. فالمجتمع

الأمريكى مجتمع مؤسسات وهذا مايجب أن نتعامل معه .. وهذا ما استوعبته جيداً عندما ادعوا بأن هناك عالماً أمريكياً من أصل مصرى سرب مواد كربونية تدخل فى صناعة الصواريخ إلى مصر وفجروا هذه الأزمة التى حاولنا نحن أن نمنع وصولها إلى نقطة الانفجار التى تهدد العلاقات بين البلدين .

* هذه القضية التى كانت لها تداعيات كثيرة صامتة وترفض أنت الاستمرار فى تفاصيلها تدفع للسؤال المباشر : هل هناك (فيتو) أمريكى دائم على تسلح مصر أو على تفوقها التقنى ؟ أو على استفادتها الفعلية من الترسانة التكنولوجية الأمريكية مساواة بإسرائيل ؟

** هناك قرار أمريكى شامل وحاسم بأن تكون لإسرائيل قوة عسكرية وتكنولوجية تفوق كافة الدول العربية .. لذلك فإن أمريكا تغض الطرف عن التسلح النووى الإسرائيلى ـ ومصر عندما طلبت من مؤتمر مراجعة اتفاقية منع انتشار الأسلحة النووية إصدار قرار بضم إسرائيل للاتفاقية .. أمريكا عارضت هذه الجهود على لسان رئيس وفدها مادلين أولبرايت (وزيرة الخارجية الحالية) .. نعم .. هناك غض الطرف وهناك قرارات على أعلى المستويات بتزويد إسرائيل بالمعلومات والتكنولوجيا والأسلحة التى لاتصل لغيرها .

* يأتى فى إطار هذه الأزمات الصامتة أزمة باتت صارخة وهى افتعال أمريكى حول المشكلة الدينية أو حريات الأقليات ؟

** تذكر أن هذه المسألة ليست جديدة فهناك فى الولايات المتحدة منظمات دينية متطرفة وهذه المنظمات كانت ترسل مبشرين لنشر مفهومهم للمسيحية .. وكان يحدث أن يتم القبض عليهم وأفاجأ هناك بالعديد من المنظمات فى الكونجرس يرتفع صوتها بالشكوى والاتهام والحديث عن الاضطهاد الدينى !! وأذكر رجل فرجينيا فى الكونجرس (وولف) الذى فوجئت به يحدثنى مرة أثناء وجودى فى بوسطن قائلاً : إن هناك موضوعاً خطيراً سيثيره فى الكونجرس على نطاق واسع وسألته إيه الحكاية ؟ فرد بأن هناك اثنين من شمال المغرب العربى تم القبض عليهما فى مصر بتهمة التبشير بالمسيحية التى اعتنقاها مؤخراً .. فسألته إذا كان فيه أشخاص خالفوا القانون فإنه من الطبيعى محاسبتهم ولم يقتنع وظل يحاول كثيراً حتى توصلت إلى أن أفضل شىء هو طرد هذين الشخصين خارج مصر .. وهذا بالفعل ماحدث ولكن فوجئت به يتصل يطلب عدم طردهما لأنهما فى تلك الحالة التى يواجهها الدبلوماسى . وعينه على العلاقة بين بلده والدولة التى يعمل فيها .. لقد تركنا هذين الاثنين فى مصر ـ وعلى ما أتذكر فقد حوكما ! وكل ما تأكدت منه أن بعض أعضاء الكونجرس يرعون بعض هذه المنظمات الدينية الأمريكية المتطرفة .

* المعونة الأمريكية تبدو تارة كطوق نجاة لابديل عنه .. وفى أحيان أخرى كرياح عذاب خفى مابين المعنيين عاصرت أنت تفاصيل مكتوبة عديدة ـ ونفس المنطق حكم إسقاط الديون عن مصر ـ التى لم تنشر تفاصيل صعبة وأيضاً صامتة أحاطت بها ؟

** بداية لابد من الاعتراف بالحقيقة بأن المعونة الأمريكية لعبت دوراً هاماً طوال السنوات الأخيرة وقد بلغت المعونة العسكرية ملياراً و ٣٠٠ مليون دولار بالإضافة للمعونة الاقتصادية التى بلغت ٨٠٠ مليون دولار وكلها أرقام كبيرة والرئيس مبارك تكلم عن الوضع الاقتصادى قبل عام ٩٠ وفى نفس الوقت كانت فوائد الديون وأقساطها تمثل عبئاً فظيعاً لايمكن تجاهله ، يضاف إلى ذلك أنه كان هناك قانون أمريكي يجيز قطع المعونة مباشرة إذا مرت سنة بدون أن تسدد الدولة المدينة الأقساط المحددة عليها تلك كانت تعكس أزمة صامتة لايشعر بها أحد إلا العاملون فى الموضوع لقد سعينا لتجاوز ذلك .. وكانت هناك عدة محاولات ومقترحات أمريكية للتخفيف من هذه الديون ولكن كل هذه الاقتراحات كانت لاتتعامل مع هذه القضية بشكل حاسم ــ ولم نوافق عليها ولكن هناك ظروفاً جديدة مواتية طرأت وظهر فيها دور مصر الإقليمى بوضوح وكان على مصر أن تنتهز هذه الظروف لتطرح هذه القضية بقوة على أساس أن الحل لايكون من خلال إعادة الجدولة ولكن بإلغائها بالكامل، والتاريخ فإن الرئيس مبارك المبادرة الأساسية من خلال صلته القوية بالرئيس بوش .. حيث تقدم الرئيس الأمريكى للكونجرس بطلب إلغاء هذه الديون .. وانتقلت المعركة من الإدارة إلى الكونجرس ، ولحسن الحظ كان لمصر رصيد ممتاز فى الكونجرس والرئيس مبارك تربطه علاقات قوية مع قيادات الكونجرس، ولم يكن يتردد عندما نطلب منه أن يجرى اتصالاً مع أى منهم لدعم موقفنا، فى الوقت نفسه وظفت السفارة كل رصيدها الإنسانى وعلاقاتها مع أعضاء الكونجرس ومساعديهم الذين يلعبون دوراً مهماً فى تسيير أعمال الكونجرس فى إقناع أغلب الأعضاء بالتصويت لصالح إلغاء الديون العسكرية الأمريكية لدى مصر .

إننى أتذكر الآن تلك اللحظة التاريخية التى أبلغت فيها الرئيس مبارك بأنه آن الأوان للتخلص من هذا العبء وأن مصر دفعت الكثير من أجل استقرار الخريطة العالمية .. وبالفعل كان الاتجاه القوى فى هذا المجال، وأتذكر أن أعضاء الكونجرس الأمريكي تساءلوا كيف يمكن إسقاط ديون مصر فى الوقت الذى لايسمح فيه القانون الأمريكي بإسقاط الديون عن المزارعين الأمريكيين ؟

وأتذكر وقتها أننى حضرت لقاء أحد أعضاء الكونجرس مع بعض المزارعين من أبناء دائرته للإجابة عن ذلك السؤال وأتذكر أننى قلت لهم إن مصر القوية هى التى تستطيع أن تقوم بدور رئيسى فى استقرار أوضاع الشرق الأوسط الذى يعتبر منطقة حساسة لمصالح الولايات المتحدة، وبالمناسبة فإن هذا العضو هو چون كيسيك أحد مرشحى الحزب الجمهورى المحتملين للرئاسة الأمريكية عام ٢٠٠٠ .

* أتصور أن السعى فى هذه المرحلة لإلغاء الديون الأوروبية ارتبط أيضاً باحتقان شديد وأزمة صامتة لم تعرف تفاصيلها الكاملة ؟

** هذا التوصيف دقيق .. ولكن قبل التفاصيل أحب أن أشير إلى دور مهم لعبه الكونجرس الأمريكى وبالذات النائب ديفيد أوبى الذى أصر على ألا يقتصر الأمر على إلغاء الديون الأمريكية بدون شروط ولكن أيضاً مطالبة الدول الدائنة الأخرى بتخفيض نصف ديونها على مصر وألزم وزارة الخارجية الأمريكية بأن تدعو إلى مؤتمر فى باريس تحضره هذه الدول لهذا الهدف .. وأتذكر أيامها أننى كنت على اتصال بالرئيس مبارك وكان تعليقى : إنها لحظة تاريخية ياريس. وبالفعل ألقت مصر بثقلها فى هذا الاتجاه .. ولعب وكيل وزارة الخزانة الأمريكية دوراً مهماً ودخلت مصر فى مباحثات وكانت الصعوبة الأساسية أن الدول الأوروبية اشترطت أن يكون هناك برنامج للإصلاح الاقتصادى يتم الاتفاق عليه بين مصر وصندوق النقد والبنك الدولى .. وكان من أهم الشروط أو البنود الساخنة ـ طلب البنك برفع أسعار الطاقة بنسبة ١٠٠٪ وأتذكر أيامها أننى اتصلت بالرئيس مبارك وكان رد فعله : الناس دى عايزة إيه ياعبد الرءوف ؟ وإزاى أحمل المواطن المصرى العادى هذا العبء ؟ كان الرئيس مشغولاً بأوضاع الناس الاجتماعية فى مصر ؟ وطبقاً لتوجيهاته بدأت سلسلة شاقة من المباحثات أسهم فيها الأمريكان .. عدنا بعدها للاتصال بالرئيس وقلت له : لقد أمكن التوصل إلى أن تكون الزيادة فى أسعار الطاقة بنسبة ٥٠٪ وفى مرحلة ثانية تزيد بنسبة ٥٠٪ أخرى .

وأبدى الرئيس ضيقه مرة أخرى من أجل الناس وحرصاً على أحوالهم الاجتماعية .. وأتذكر يومها أننى قلت له بصراحة: ياريس دى فرصة تاريخية، وإذا تم زيادة النسبة الأولى فإننا نستطيع عدم تنفيذ هذا البند فى المرحلة الثانية إذا كانت هناك صعوبات تواجهنا ، إن الظروف الاستثنائية تمنع تنفيذ بنود أى اتفاق قد تؤدى إلى أزمات، وسألنى الرئيس : هل تظن ذلك ياعبد الرءوف ؟ وأجبته بصدق : نعم ياريس .

كان الرئيس مهموماً بأحوال الناس .. وكانت لحظة كشفت عما يربطه بإيقاع الشارع وأحوال شعبه .. وقد حسمت اتصالات الرئيس مبارك بالرئيس بوش الكثير من الأمور وأمكن التوصل إلى برنامج متوازن وعلى مراحل لتحقيق الإصلاح الاقتصادى ومعالجة عجز الميزانية ووافقت الدول الدائنة على تخفيض نصف مديونيتها على ثلاث شرائح، وحقق البرنامج نجاحاً أشاد به الجميع وذهبت إلى غير رجعة تلك الأيام التى كانت حصيلة البنك المركزى تزيد قليلاً على الصفر وأصبح هناك أكثر من ٢٠ مليار دولار كاحتياطى .

مراد غالب

لست خائناً .. ولكن عبدالناصر كان على صواب !

لكل زمان أبطاله .. ولكن المهم ألا تكون البطولة حالة طارئة ولكل زمان أحداثه .. ولكن الأهم أن يحتفظ الناس بالحقيقة بديلاً للأوهام .

ولكل عصر قضاياه .. ولكن تظل الأهمية لما تجمع عليه الأمة فى لحظة التحدى .

ولكل مجتمع رجاله .. ولكن من المفيد أن يعرف الناس أين كان الرجال فى تلك اللحظة الحاسمة من حياة المواطن .. وللمستقبل أسئلته .. بعضها يفتح آفاقاً جديدة لعل الغد يكون أفضل من الأمس .. وبعضها يكشف بعضاً من الحقيقة لعل فيها ما يفيد الأجيال اللاحقة .

والدكتور مراد غالب وزير الخارجية الأسبق ـ وأكثر السفراء إقامة فى موسكو .. ومدير مكتب عبد الناصر للشئون السياسية وأحد أبناء الطبقة المتوسطة المصرية الذين تألق وعيهم منذ الأربعينيات .. وعبروا عن ذلك من خلال انضمامهم مبكراً للنخبة التى حكمت مصر منذ ٥٢ .. لم يضع الطريق من أقدامهم طولاً .. فكان ذلك موضع تساؤل من الكثيرين .. ولم يقدموا الأجوبة المطلوبة كافة .. وكان ذلك موضع لبس وريبة .

مراد غالب .. باختصار شديد .. كان رجل عبد الناصر فى موسكو .. وكان الاشتراكى الأنيق الذى خرج من أسرة ميسورة وظل حريصاً على أناقته الفكرية والأخلاقية والسلوكية فى زمن الاشتراكية .. وفى زمن الرأسمالية .

* ماذا حدث بالضبط لجيله .. ومن أين جاءوا ولاسيما أنهم ظلوا على قمة حياتنا طوال النصف الأخير من القرن العشرين ؟ .. وماذا حدث فى موسكو .. العاصمة التى أحاطتها الريبة دائماً رغم شائعات الصداقة الكثيرة والأوهام فى أوقات أكثر .. ماذا بالضبط ؟

** بأناقة الدبلوماسيين التى تحرص على وجود حاجز يعوق الاقتحام الكامل ويشجع على الاقتراب الحذر .. تكلم الدكتور مراد غالب .. وكانت الرغبة .. رغبته هو .. فى أن يبدأ من هناك .. من لحظة كاشفة تلقى بالضوء على جيله كله .. «لعل الأجيال الحالية تدرك الفروق التى كانت وزالت» هكذا .. بدأ :

جيلى خضع لتأثير عاملين مهمين أولهما الاحتلال البريطانى ثم تاريخ الشعب المصرى وميراثه فى الكفاح ضد المحتل الأجنبى ـ وأتذكر اليوم أن الاحتلال البريطانى كان مستقراً إلى حد كبير ولا يمكن أن تفهمه الأجيال التالية .. كان (الكونستابل) الإنجليزى هو الذى

يحكم شوارع القاهرة.. كان الوجود الإنجليزى لابد أن يصدم عيوننا فى كل مكان وكان الإنجليز أنفسهم حريصين على أن يشعروا المصريين بأنهم غير مستقلين وبدون كرامة .. وقد استشعرت شخصياً ذلك مبكراً .. فرغم أننى ولدت فى إحدى قرى الشرقية بمركز أبو حماد ولكنى نشأت فى حى (مصر الجديدة) بالقاهرة .. وقد لعب هذا الحى دوراً مهماً فى حياتى فأتذكر أنه كانت هناك مدرسة ثانوية وناظرها رجل وطنى جداً ولكنه كان يحرص على تعليمنا أن الألمان فوق الجميع، وكان شديد الإعجاب بوطنية الألمان وكان يغرس فينا الوطنية على الطريقة الألمانية وأن مصر يجب أن تكون فوق الجميع فنشأنا ونحن نؤمن بتحرير الوطن وأن مصر يجب أن تكون فى القمة، من ناحية أخرى .. فإننى فى سن الثانية عشرة بدأت أزور قريتى وأمضى فيها عطلتى الصيفية مما أتاح لى الاختلاط بالفلاحين .. وهناك بدأ إحساسى بالعدالة الاجتماعية يتعمق .. ورغم أن جدى كان عمدة القرية وكنا من عائلة تحكم أو تتوارث حكم القرية منذ سنوات طويلة إلا أن هناك مشهداً جعلنى أتمرد على هذه الجذور وظل عالقاً فى ذاكرتى من تلك المرحلة .. فقد شاهدت جدى العمدة جالساً ثم بعض الأفراد يحضرون شخصاً .. ما أن يقترب حتى يقف جدى لصفعه بعنف على وجهه حتى طارت (العمة..) لباس الرأس ـ من فوق رأس جدى !! اندهشت من قسوة جدى وسألت عن السبب .. فعلمت أن هذا الشخص كان يركب حماره ويمر من أمام مجلس جدى على مسافة ٥٠ متراً ولم ينزل من فوق الحمار !! فى الحقيقة أثرت تلك الحادثة فى نفسيتى .. وعرفت من ذلك الحين ماذا تعنى عنجهية الحكم .

مصر الجديدة

* كيف تصاعد وعيك منذ تلك اللحظة حتى وصلت إلى الخروج عن طبقتك المتوسطة وتصبح (الأنيق ـ المعارض) فيما بعد ؟

** لقد لعبت القرية دوراً مهماً فى تشكيل وعيى .. فهناك أدركت ـ فى ذلك الحين ـ أن الناس .. تعيش فى وضع غير آدمى .. وكان موعد سوق الأربعاء أقرب إلى بانوراما أقرأ فيها بعيونى ماذا يأكل الناس وكيف يعيشون .. وبدأت أدرك أننى أعيش فى بلد ليس فيها أى شكل من العدالة .. وبدأت أنظر لحالتى وأقارن .. أنا ابن المدير المالى بوزارة الخارجية الذى يعيش حياة طيبة فى القاهرة .. ويحكم جده القرية !! .. قد بدأت أحس بالأسى لأن هناك خطأ يدفع ثمنه هؤلاء الفلاحون الجوعى . من ناحية أخرى أن الدعوة لتحرير الوطن كانت الهواء الذى نتنفسه آنذاك ولم يكن البعد الاجتماعى مطروحاً بشدة إلا من أحزاب معينة مثل حزب الوفد ولاسيما جناحه اليسارى ـ والوفد كان جبهة أكثر منه حزباً .. جبهة ورثت قضية تحرير مصر .. ولكن تظل هناك مرحلة مهمة فى تبلورى الفكرى وهى مرحلة التحاقى بمدرسة القبة الثانوية وكان معى مجموعة من الأصدقاء الذين يعيشون فى نفس الحى (مصر الجديدة)

أو في نفس المدرسة .. مثل المهندس إبراهيم شكرى، الدكتور حلمى مراد، الأستاذ فتحى رضوان .. وكنت مرتبطاً بمجموعة من الشباب المتحمس منهم الراحل كمال الدين رفعت وحسن التهامى .. وصلاح الدسوقى ـ وكانوا يمثلون أول تعامل لى مع العمل السياسى المنظم ، حيث كنا مشغولين بقضية التحرير ولم تكن لنا علاقة بالتنظيمات السياسية الموجودة آنذاك .. إلا أن شقيقاً لكمال الدين رفعت كان على اتصال بالمجموعات اليسارية والماركسية وقد حضرت مع كمال وشقيقه بعض اجتماعات هذه المجموعات لكن لم أكن شريكاً فى عمل سياسى منظم .. كنت فقط فى حالة بحث عن طريق وعن فكر .. وهذا يفسر بعض تنقلات بعض أبناء جيلى بين الأحزاب ولاسيما مصر الفتاة .. وحماسنا لمشروع القرش وغيره من المشروعات .. ومع النضج وانتقالنا للمرحلة الجامعية انضمت أغلب هذه المجموعة الوطنية من الأصدقاء إلى الجيش (كمال رفعت ـ حسن التهامى ـ وصلاح الدسوقى انضم للبوليس) وأنا الوحيد الذى انضم إلى كلية الطب ـ وكان عزيز باشا المصرى أسطورة بالنسبة لجيلى .. البطل الذى حارب من البلقان إلى اليمن .. والذى ناهضه الإنجليز .. عزيز باشا الذى كان رئيساً لأركان حرب القوات المسلحة المصرية .. والذى كان مديراً لكلية البوليس .. وهو أول من فكر فى الصقر، كرمز لكلية البوليس .. عزيز باشا المصرى كان بالغ الأهمية فى حياتنا .. وكانت مجموعتنا الرباعية إحدى خلاياه .. وكان عبدالناصر ومجموعة معه إحدى خلاياه .. وكانت خليته تضم كمال رفعت وأيضاً حسن التهامى .. فكانا الحلقة التى ربطتنا أو قربتنا من مجموعة الثورة ـ وأتذكر الآن أننا كنا نقوم بعمليات عديدة ضد الإنجليز وضد القوى المحلية المؤيدة لهم .. بل ضد بعض الدول التى أيدت الإنجليز فى موقفها ضد مطالب مصر التى عرضها النقراشى باشا فى الأمم المتحدة .. كان العنف أحد الوسائل التى نمارسها آنذاك .

* يبدو فى صوتك عدم الحماس لذكر بعض تلك الوقائع العنيفة ضد الإنجليز وأتباعهم فى ذلك الوقت .. فهل أنت نادم على ما فعلته آنذاك ؟

** نادم ـ وغير نادم .. نادم لأن العنف لا يأتى بنتائج .. العنف كإرهاب لايحقق شيئاً .. وما كنا نمارسه كان إرهاباً مشروعاً ضد المحتل ومن أجل الوطن .. وهنا لابد من التفرقة بين الإرهاب المشروع الذى يستهدف التحرير وجميع العمليات التى يمكن أن يقوم بها شعب من أجل استرداد حقوقه المشروعة ـ الإرهاب غير المشروع الذى يستهدف الآخرين المختلفين معك فى الرأى .. وأتذكر اليوم أن مصر قدمت أو أنجبت أبطالاً كباراً لعبوا أدواراً عظيمة فى تلك المرحلة مثل كمال الدين رفعت وصلاح دسوقى وحسن التهامى .

* اسم حسن التهامى يثير الفضول لقطع الاسترسال التاريخى والتساؤل .. هل كانت ملامح حسن التهامى الحالية والتى تجمع بين (الدروشة) والمهام السياسية السرية لها بذور فى تلك الأيام؟

** لقد تربينا معاً فى مدرسة مصر الجديدة التبتدائية وكان والده معلماً لنا .. وكان حسن

له فكر غير تقليدى .. وإن أستطيع الحديث عنه لأنه صديق عمر ، ولكن لعب دوراً مهماً فى التمهيد لاتفاقات كامب ديفيد .. وهذا الدور ليس بجديد !! ولاسيما أنه بات معروفاً أنه التقى مبكراً مع موشى ديان فى المغرب قبل أى حديث عن مفاوضات مصرية ـ إسرائيلية .. وأيضاً لم تكن تلك الرؤية طارئة فى فكر حسن التهامى بل لها جذور قديمة.

تأثير راشد البراوى

* الطبقة المتوسطة المصرية .. مثلما أفرزت حسن التهامى الذى اتخذ رؤية دينية فى مرحلة متقدمة .. أفرزت د. مراد غالب .. الطبيب الذى تبنى رؤية يسارية مناقضة لحسن التهامى .. كيف حدث ذلك وهل تم من خلال انضمامك لبعض أحزاب تلك الفترة ؟

** لم أنضم فى حياتى إلى حزب من الأحزاب .. ولعل ذلك يعود إلى (طباعى) الخاصة .. فأنا لا أستطيع أن تكون لدى حواجز أتحرك داخلها .. وكان من الصعب أن أكون داخل إطار معين.. وفى تقديرى أن تلك مسألة خاطئة لأن من يريد عمل شىء له فاعلية لابد أن ينضبط وينتظم فى تجمع سياسى يسعى لتحقيق أهدافه لكن الفرد وحده لا يصنع شيئاً .. ولذلك يؤسفنى القول أننى لم أنضم إلى حزب سياسى محدد .. حتى فى التنظيم الطليعى فى آخر أيام عبدالناصر انضممت بعد إلحاح عام ٦٨ ـ ٦٩ أما الفكر اليسارى فقد كان نافذتى لإدراك أبعاد القضية التى شغلتنى مبكراً وهى قضية العدالة الاجتماعية .. ودراستى للطب زادت من إيمانى بأهمية القضية الاجتماعية وأنا أشاهد الناس لا تحصل على حاجتها الضرورية من الرعاية الصحية أو أنها تدفع حياتها ثمناً لتدهور وتخلف الخدمة الصحية آنذاك .. ساهم ذلك أيضاً فى اندفاعى وراء قضية العدالة اللازمة لكى تستمر حياة الناس .. وبالمناسبة كانت هذه القضية واحدة من المفاتيح الأساسية التى عمقت صلتى بالرئيس عبدالناصر .. لقد كان بالغ الحساسية تجاه مطالب الناس الاجتماعية وهذا ما صنع تلك العلاقة الخاصة بينه ـ كزعيم ـ وبين الكتلة الواسعة من الجماهير .. فقد كان رغيف الخبز .. أو الشاى والسكر .. أو كيلو الأرز .. أو الزيت .. كلها كانت قضايا حيوية لذلك تحقق ذلك الاتصال الهائل بين عبدالناصر والناس وبين عبدالناصر وتلك الفئات الوطنية من أبناء الطبقة المتوسطة الذين كانوا ينشدون العدالة .

* لكن فى منتصف الأربعينيات وكنت طبيباً شاباً .. كيف وصلت إلى محطة الاشتراكية ؟

** الحرب العالمية الثانية انتهت بنتائج لفتت أنظارنا ودفعتنا للتفكير فى الخريطة العالمية ولاسيما الاتحاد السوفيتى الذى كانت لدينا معلومات متباينة وشديدة التناقض عنه .. فهناك من يقول إن السعادة تبدأ من هناك وهناك من يقول أن الجحيم ذاته هناك !! وكنا كمصريين نحلم بهزيمة الإنجليز بأية صورة خلال تلك الحرب .. ولكن هزيمة المحور وصعود الحلفاء بعد

تدخل الاتحاد السوفيتي جعلنا نفكر في هذه القوة التي انتصرت .. وماهي حكاية الاشتراكية التي يتحدثون عنها ؟ .. وما هو هذا الفكر الذي انتصر ؟ هذا التفكير حفزني للقراءة في الفكر العالمي وفي الاشتراكية بالذات وأنا هنا مدين بمعرفتي والكثيرين من جيلي لكتابات الدكتور راشد البراوي الذي قام بترجمة الكثير من الكتب عن التجربة الاشتراكية عن رأس المال .. وغيره .. ورغم كل هذه القراءات ظللت بعيداً عن أي أحزاب أو تنظيمات شيوعية سرية .. وظل ارتباطي بتلك المجموعة القديمة التي تدين بالولاء لعزيز باشا المصري .. وظلت معرفتي بأخبار (حدتو) مثلاً من خلال بعض الأصدقاء مثل شقيق المرحوم كمال الدين رفعت .. ولكن ظل هناك اسم عالق في ذاكرتي رغم مرور السنوات .. إنه الدكتور عبدالفتاح القاضي وكان من أركان التنظيم الشيوعي المعروف بـ (حدتو) .. التقيت به مرتين أو أكثر لكي تتسع مساحة الرؤية لدي عن الفكر الذي أقرأ عنه ـ وكان لنا زميل آخر كان أكثرنا نقاء وثورية .. واسمه كمال الدين حسنين وأيضاً كان من مدرسة مصر الجديدة الابتدائية ومن نفس الحي وهذا يدعو للدهشة بسبب تأثير (مصر الجديدة) علينا .. فقد كانت ضاحية صغيرة جداً .. حتى أننا عندما كنا نركب المترو ونمارس أي نوع من الشقاوة كان الكمسارى يحذرنا من أنه سيبلغ آباءنا، المهم أن هذا الزميل (كمال الدين حسنين) كان اشتراكياً .. وكان مهموماً مثلنا بالعدالة الاجتماعية .. وللأمانة التاريخية .. فقد كان من أكثر الأشخاص الذين أثروا فيّ أيضاً .

* ألم تفقد حيادك الذي كنت تشيد به منذ قليل بسبب تأثرك بالشيوعية في هذه المرحلة..؟

** لا .. ويمكن اكتشاف دليل ذلك من خلال القضية الفلسطينية التي التقت حولها وجهات نظر الشيوعيين المصريين مع الإسرائيليين وكانوا يرددون نفس الشعارات التي يقولها الإسرائيليون وهي أن المعركة الحقيقية ضد الإنجليز .. بينما اختلفت أنا وكمال حسنين وغيرنا مع هذا المنطق .. الفكر الاشتراكي لم يحولنا إلى الشيوعيين ولم يحولنا إلى مُجندين أو إلى أبواق للسياسات ـ ولكن كان هناك فرق بين السياسة والفكر .. فسياسياً التقى الشيوعيون المصريون مع الإسرائيليين ـ وكانت المسألة بأمانة تمييعاً عن قصد للقضية الفلسطينية !! وأن المعركة ضد الإنجليز مشتركة بين المصريين والإسرائيليين ، كانت هذه العناصر ـ في تقديري ـ مخدوعة لأنها اعتقدت أنه ستقام دولة ديمقراطية في فلسطين تضم اليهود والعرب .

* ألم تقع أنت في أسر هذا التحليل ؟

** بتاتاً .. لأن المشكلة بالنسبة لي ولأصدقائي كانت واضحة وهي أن هؤلاء اليهود يغاصبون أرضنا .. فكيف يمكن أن يُقال عن المغتصب أنه ديمقراطي ؟ هذه الرؤية التي آمنت بها .. هي التي دفعت الراحل كمال حسنين ليكون متطوعاً في أول أيام الحرب مع إسرائيل ..

أريد أن أصل من ذلك كله إلى أن جيلى كان مهموماً بالبحث عن الحقيقة وعن اكتشاف طريق وعن الفكر الذى يمكن أن يقود فى قضايا التحرير أو القضايا الأخرى التى تهم المجتمع المصرى .. ولم يكن الأساس هو الانضمام إلى حزب ما .. وبتجربتى أن حرية التفكير الإنسانى هى أهم مايجب أن يحرص عليه الإنسان ..

العمال عندكم احسن

* يبدو أن علاقتك بالحركة الشيوعية المصرية كانت علاقة رومانتيكية إذا صح التعبير ؟

** لا .. لا أستطيع أن أقول ذلك .. فأنا لست عدواً للماركسية ولم أكن ضد الأحزاب الشيوعية .. وكذلك لم أعتبر نفسى ضد حزب الوفد .. وكانت الحركة الشيوعية فى الكثير من أنحاء العالم متعاطفة مع الاتحاد السوفيتى .. وأنا للأمانة كنت متعاطفاً مع الاتحاد السوفيتى ولكن لا أقبل نظريتهم كلية ، لم أقبل أن أتحول من (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم) إلى القول (قال لينين ...) ولم أرض أن أترك مكانى أمام قبر النبى صلى الله عليه وسلم لكى أقف فى طابور أمام قبر لينين ! كانت هناك مساحات وتمايز كبير بينى وبين الشيوعيين المصريين ـ فلم أقبل أبداً نظرية ديكتاتورية البروليتاريا .. وبالتجربة الحقيقية لم يحكم العمال فى الاتحاد السوفيتى .. كان الحزب الشيوعى هو الذى يحكم نيابة عن العمال، وكانت اللجنة المركزية تحكم نيابة عن الحزب الشيوعى والعمال، وكان المكتب السياسى يحكم ـ فى الحقيقة ـ نيابة عن اللجنة المركزية والحزب والعمال !!، وكان السكرتير العام للحزب الشيوعى السوفيتى هو الذى يحكم حقيقة نيابة عن كل هؤلاء السابقين !!

وسأحكى لك عن قصة قصيرة .. ففى عام ١٩٥٥ كنت سكرتيراً للسفارة المصرية فى موسكو مع عزيز باشا المصرى الذى كان سفيراً لمصر هناك .. وأتذكر أننى ركبت تاكسى فسألنى سائقه : العمال عندكم عايشين أحسن مننا ؟ فقلت له : عندنا عمال عايشين أحسن .. لكن الكثيرين عايشين فى ظروف صعبة ! .. فقال لى : إنت يبدو تعمل دبلوماسياً .. أنا مثلاً أحصل على ٤٠٠ روبل والجنرال يحصل على راتب أكبر منى بعشر مرات ويقولوا إننا نعيش فى ظل حكومة عمال!! عمال إيه ! إنت عارف أن راتبى لايساعدنى على شراء بالطو عادى لابنتى الصغيرة !! يومها ازداد يقينى أن هناك مشكلة وأن المسألة ليست نظريات بل أن أعظم نظرية ممكن تصبح فى أرض الواقع مسخاً مشوهاً لايفيد أحداً بشىء .

* طريقك إلى موسكو كيف بدأ .. ؟ .. وكيف أصبحت رجل عبدالناصر هناك مثلما كان يقال عنك فيما بعد ؟

** لم أتعرف بعبد الناصر قبل الثورة بالرغم من أن مجموعة أصدقائى الذين أسميهم جماعة مصر الجديدةوالذين كنا معاً نكون مجموعة وطنية تنتمى لعزيز باشا المصرى كانوا

على علاقة به.. حتى أننى أتذكر أنهم كانوا يختفون فجأة .. وبعد الثورة عرفت أنهم كانوا يجتمعون بعبدالناصر فى منطقة (الكُربة) بنفس الحى .. لكن تعرفى به بدأ بعد الثورة مباشرة .. ولكن موسكو كانت بداية تعميق هذه المعركة .. فقد تم تعيين عزيز باشا المصرى سفيراً للقاهرة فى موسكو عام ١٩٥٢ فقال لن أسافر إلا إذا كان معى كمال الدين رفعت وحسن التهامى وصلاح الدسوقى ومراد غالب .. فأجابوه بأنهم يستطيعون الاستغناء عن المدنى الوحيد فى هذه الأسماء وهو أنا .. وهذا ما حدث بالفعل وبدأت دراستى المكثفة للاتحاد السوفيتى .. فتعلمت الروسية وأجدتها قراءة وحديثاً .. وبدأت أتعامل مع السوفيت كشعوب وثقافةوهناك حدثت لى أول صدمة عندما شاهدت جحافل الروس يمشون فى شوارع موسكو يرتدون ملابس قاتمة كلها تتلخص فى ثلاثة ألوان : الكحلى والأسود والبنى الغامق وعلى الوجوه ملامح أسى وتحت مناخ قارس من البرد .. وشاهدتهم فى حالة معاناة .. فتساءلت : هى الاشتراكية أن يعيش الشعب هكذا ؟ وبعد وقت بدأت أتردد على (البولشوى) وكانت أول زيارة أثناء عرض (جزيل) وهى قطعة باليه من أمتع ما يمكن لم أكن أعرف عنها شيئاً فى ذلك الحين ولكنى صادفت إعجازاً فنياً فى الملابس والألوان والتمثيل والتعبير الموسيقى بالحركة الفنية والموسيقى الهائلة .. فبكيت من شدة المتعة .. وعدت أتساءل : هل هؤلاء الذين يسيرون فى الشوارع هم هؤلاء ؟ وألا يستطيع من يفعل ذلك الإبداع أن يجعل حياة الناس أفضل وتتناسب مع هذه العظمة .. وبدأت أتساءل حول ذلك وأجابنى الروس وقتها أنهم لا يستطيعون تحقيق هذه المعادلة لأنهم يواجهون تهديداً وحصاراً من الغرب بقيادة أمريكا وأن لديهم تاريخاً يؤكد هذه المخاوف التى يأخذونها بجدية ــ وجعلونى فى مواجهة منطق له وجاهته .. فالغرب بالفعل كان يحاصر السوفيت .. وهناك رأسمالية ترغب فى القضاء على تجربتهم أو أية تجربة تنادى بضرورة أخذ البعد الاجتماعى بعين الاعتبار، المهم أننى أخذت عملى بجدية خلال السنوات الثلاث الأولى فى موسكو وهذا ما ساهم فى تطور علاقتى بعبد الناصر .. فأتذكر أننى أرسلت تقريراً عن سياسة القواعد العسكرية الأمريكية ــ وكان عبارة عن رصد لهذه القواعد حول الاتحاد السوفيتى وكيف أن منطقة الشرق الأوسط لم تدخل بعد فى إطار هذه القواعد .. وأيامها قلت (هنا يوجد فراغ فى حلقة القواعد الأمريكية) .. وقصدت بهنا منطقة الشرق الأوسط، هذا الكلام كتبته عام ٥٤ .. وبعد ذلك بدأت معركة كبرى حول القواعدورفض عبدالناصر لوجودها .. وكانت تلك إحدى معاركه الكبرى والبارزة لأنه تنبه إلى أن الاستعمار يستهدف تغيير وضعية الاحتلال بوضعية حلف .. المهم .. أن عبدالناصر قرأ تقريرى .. وتفهم ملاحظاتى ولا أستطيع أن أقول إن هذا التقرير كان وراء اختيارى كمدير لمكتبه للشئون السياسية .

* ألم يكن غريباً وأنت اليسارى الأنيق أن تترك قطار الزمالة الذى كان يتعثر فى علاقته بثورة يوليو المفاجئة للكثيرين بما فيهم أصدقاؤك ــ وتلتحق بقطار الثورة أو السلطة مبكراً وألم

يخلق تناقضاً لديك وأنت تنعم بثمار السلطة ورفاقك يتذوقون طعام السجون ؟

** للأمانة هناك حقائق للتاريخ لابد أن أذكرها في مقدمتها أنني اكتشفت عندما ذهبت إلى الاتحاد السوفيتي وجدتهم هناك ينظرون لثورة يوليو على أنها ثورة تحت الرعاية الأمريكية .. ولم يكونوا يعرفون جمال عبدالناصر الذى كنت أعرفه جيداً من الداخل .. كان نموذجاً للوطنية .. ونموذجاً للاستقلالية وكانت لديه حساسية مفرطة بالنسبة للسيطرة .. وبصرف النظر عن اليساريين الذين كانوا في السجون .. أقول لك بصراحة أن عبدالناصر كان رجلاً لايقبل الضغط عليه لذلك رفض محاولات الشيوعيين إلى جره نحو الاتحاد السوفيتي وعلى ذلك اصطدم معهم .. كان عبدالناصر واعياً للبعد الاجتماعي جداً .. ولذلك فلمعرفتي بعبدالناصر ودوافعه الداخلية استطعت أن أفهم كيف تصرف مع اليساريين وكيف رفض ضغوطهم للسير على موجة الاتحاد السوفيتي ـ ولذلك كنت متعاطفاً مع موقف جمال عبدالناصر وكنت على وعى بأى المواقع سوف يستقر في النهاية هذا الزعيم .. وكنت على وعى بظروف هذه المرحلة الصعبة من تاريخنا .. ولم تكن القضية لمن انحاز .. ولكن هي خروج الإنجليز من مصر ..

* ماذا كان يريد عبدالناصر بالضبط ولاسيما أن كتب التاريخ تعددت وكثرت حتى أدت إلى إصابة الرؤية بالإحباط في بعض الأحيان ؟

** عبدالناصر كان يريد ـ مبكراً ـ علاقات مع الاتحاد السوفيتي وأرسلنا لذلك خصيصاً .. وكانت له تعليمات ثلاثة لنا كفريق دبلوماسي يسافر إلى موسكو بعد الثورة : أولها قضية السلاح من الاتحاد السوفيتي ـ وكان يشك في مساندة السوفيت له في هذه القضية آنذاك .. وفعلاً رفض السوفيت تقديم سلاح لمصر عام ١٩٥٣ ـ ثانياً : البترول .. فقد رغب في تأمين احتياجاتنا منه من الاتحاد السوفيتي ولاسيما أن مصادره في مصر كانت تحت قبضة الإنجليز آنذاك وثالثاً : القطن .. أن نفتح سوقاً لتجارته مع السوفيت لتجنب الحصار الغربي .. عندما نظرت لهذه التعليمات الثلاث وجدت نفسي منحازاً لعبدالناصر ، نعم .. زعيم يبحث عن بدائل تحمي بلده من الحصار.. فماذا أقول عنه ؟ .. أقول عنه ما قاله الشيوعيون المصريون من أنه رجل يعمل مع الأمريكان !! .. أكثر من هذا فإن السوفيت كانوا يرون أن الخلاف بين عبدالناصر ومحمد نجيب كان صراعاً بين الإنجليز والأمريكان .. !! .. هناك شيء مهم تعلمته مبكراً وهو عدم الاقتناع برؤية الظواهر .. بل الفكر الذى يحكم الظواهر .. لذلك كان واضحاً أن الأمريكان يرغبون في وراثة الدور البريطاني .

* لكن هذه الرؤية .. هل منعت أصدقاءك الشيوعيين من أن يتهموك بالخيانة لهم في تلك المرحلة ؟

** لم تمنعهم .. لقد اتهموني بأنني تخليت عن أصدقاء الأمس وأصبحت مع السلطة ..

لكن لم يتهموني بالخيانة .. وأنا أيضاً لم أكن طرفاً في الحرب ضدهم .. شوف .. التاريخ أثبت أنني كنت علي صواب لأنني كنت أعرف من هو عبدالناصر الرجل الذى أتناول الغداء فى منزله البسيط أكثر من مرة فى الأسبوع .. كنت أجلس فى صالون استقبال يمكن أن تجده فى بيت أى موظف حكومى عادى .. رجل كان يرتدى ملابس عادية جداً ونفس المنطق فى طعامه .. ومازلت أتذكر ذلك التقارب النفسى والعقلى الذى حدث بينى وبينه منذ أول لقاء طويل معه عام ٥٣ .. لقد اكتشفت أن الرجل لديه هم واحد أساسى وهو استقلال وكرامة وطنه .. لذلك رفض الأحلاف العسكرية عام ٥٤ وكان يدرك أن الولايات المتحدة الأمريكية أيضاً ضده وأن الإنجليز ضده .. ومع ذلك تمسك بموقفه المعادى للأحلاف العسكرية أيضاً .. فإن أحد مفاتيح فكر عبدالناصر هى قدرته التحليلية التى دفعته لقراءة خريطة العالم فى ذلك الحين والسعى للاتصال بنهرو .. لقد بدأ يحس بعولمة قضية التحرير وهذا ما ذهب به إلى مؤتمر باندونج فى أبريل عام ١٩٥٥ .. وفى هذا المؤتمر التقى مع شواين لاى وتحدث معه حول تسليح مصر وأخبره أن السوفيت يرفضون تسليح مصر .. وكانت الغارة الإسرائيلية على غزة عام ٥٤ وقتل ٤٠ جندياً مصرياً تعبيراً عن حصول إسرائيل على الضوء الأخضر من الغرب حتى نبدأ بطلب الحماية .. لذلك كانت البداية الحقيقية للسعى لتسليح الجيش المصرى فى مؤتمر باندونج .. ثم بدأت معركة السد .. ثم معركة ١٩٥٦ .. كل هذا شاهدته وعاصرته وشهدت عليه .. فكيف ألتقى مع الشيوعيين المصريين وأقول عن عبدالناصر إنه (بتاع الأمريكان) ؟ ..

* هل تعتقد أن هذا التقارب وحده يمكن أن يفسر اختيار عبدالناصر لك عام ١٩٥٧ كمدير مكتبه للشئون السياسية أم أن الاختيار كان أيضاً دلالة على اتجاهه ناحية السوفيت ؟

** بداية فإن حركتى فى موسكو من ٥٣ إلى نهاية ٥٦ لاقت صدى عنده وكانت خطواتى متمشية مع فكره .. فلم يرسل لى تعليمات إطلاقاً بعد القواعد الثلاث التى طرحها قبل سفرنا إلى موسكو مع عزيز باشا .. كان هناك توافق عجيب بينى وبينه .. كنت أراه صوفياً فى وطنيته .. تلك الوطنية التى تنفستها فى مدرسة مصر الجديدة الابتدائية على يد ناظرها إسماعيل توفيق - لا لم أنس اسمه .. ويستحق من قام بدوره أن يذكر اسمه باستمرار من أجل تثبيت قيمة وإعلاء معنى العطاء للوطن، لذلك عندما وجدت إنساناً يجسد لى هذه الوطنية أسرعت نحوه .. واستشعر عبدالناصر ذلك ثم جاءت تجارب عملية .. فى مقدمتها عملية التسليح عام ١٩٥٥ وأول صفقة مع تشيكوسلوفاكيا وأتذكر واقعة حدثت فى يونيو عام ٥٦ - فقد ذهبت لمقابلة عبدالناصر فالتقيت بمدير مكتبه آنذاك (السيد على صبرى) الذى قال إن السوفيت سوف يزودنا بسلاح متفوق نمسح به إسرائيل وبدأ يتحدث عن الأسلحة المتطورة التى ستصلنا منهم .. وهنا قلت له اسمح لى بالاختلاف معك .. فتسليح السوفيت لنا ليس لتحقيق هذا الغرض .. بل لزيادة صعوبة القضاء على الثورة المصرية وليس لمحو إسرائيل -

لأن محو إسرائيل معناه المواجهة مع الولايات المتحدة الأمريكية من جانب .. ومن جانب آخر تعني نظرياً الاستغناء عن الاتحاد السوفيتي .. فعلاقتنا بالاتحاد السوفيتي كقوة بديلة كان له غرض ومبرر وهو التحدى الإسرائيلى.. وبالتالى انتفاء السبب لهذه العلاقة !! وفى اليوم التالى لهذه المقابلة التقيت بعبدالناصر .. وفى أول لحظة فاجأنى بقوله «على فكرة أنا متفق مع كلامك» !! كان مدركاً جداً للمسألة وأستطيع أن أقول إنه كان شديد الوعى بزمانه ولديه رؤية مستقبلية بالرغم من أن لى العديد من المآخذ عليه .. ومثلما لم أقبل فى بدايات حياتى أن أكون أسيراً لنظام حزبى .. فلم أقبل أن أكون أسيراً لرؤية واحدة تمنعنى من النظر لكافة جوانب الصورة كافة ـ وبالنسبة للإشارة في سؤالك عن أن اختيارى كمدير لمكتبه للشئون السياسية دلالة على اتجاهه ناحية السوفيت أو الإعلان عن بداية ذلك فإننى أنفى ذلك تماماً لأن هناك فكرة كلية كانت تحكم عبدالناصر وهى مصر واستقلالها .. والدليل أننا وقعنا مع الاتحاد السوفيتي بشكل عنيف وحاد، مثلما حدث بعد الوحدة المصرية ـ السورية .. وبعد ثورة العراق .. عبدالناصر كان يريد تعظيم حركته السياسية على كافة الجبهات ويزيد من أوراقه على مستوى العالم .

* أنت شاهد مباشر على لحظة مهمة فى العلاقات المصرية ـ السوفيتية وهى اللحظة التى خرج فيها الإنذار السوفيتي أيام عدوان ٥٦ .. بعد هذه السنوات .. وبعد أطنان الورق الذى كتب عليه الكثير من التحليلات .. مازال السؤال قائماً : ما هى القيمة الحقيقية لهذا الإنذار ؟ وهل كان الروس يقصدونه بالفعل أم أنه كان وهماً من أوهام السوفيت التى صدروها ورغبنا نحن فى تصديقها ؟

** هذه قضية للأمانة لم تحسم .. وأعتقد أنه من الصعب أن تحسم لأن الاتحاد السوفيتي بعد العدوان الثلاثى ظل حتى يوم ٤ نوفمبر لم يتخذ قراراً رغم أن شكرى القوتلى زار موسكو والتقى خروشوف بوجود الجنرال زوكوف الذى نشر خرائطه وتساءل : كيف تطلبون منى مساعدة عبدالناصر وماذا يمكن أن أفعل بالضبط ؟ .. وهنا انفعل الرئيس شكرى القوتلى وقال : مارشال زوكوف .. مارشال زوكوف .. أنت تريدنى أنا أن أقول لك ماذا تفعل ؟ فى اليوم التالى لهذا اللقاء .. زارنى مدير إدارة الشرق الأوسط بالخارجية السوفيتية وكان لدى مجموعة من الدبلوماسيين الغربيين .. وقال لى : مراد .. موسكو سوف تتدخل ، وحدث الإنذار السوفيتي .. هذا الإنذار الذى أكد خروشوف أنه كان إنذاراً حاسماً وقال : إن جى موليه وزير الخارجية الفرنسى عندما سمع بالإنذار السوفيتي جرى ناحية التليفون وقد نسى أن يرتدى بنطلونه !! وعندما ضحكت من هذا الكلام .. رد على خروشوف : مراد إحنا عارفين فيه إيه هناك وعندنا ناس مهمين هناك !! المسألة الأخرى .. أن خروشوف أخبر السفير الهندى آنذاك بأن السوفيت يستطيعون إغراق الأسطول الإنجليزى بدون خسارة جندى واحد !

وعندما زار عبدالناصر الاتحاد السوفيتي عام ٥٨ .. ألحوا على أن نشاهد فيلماً حول كيف تستطيع طائرة تي ـ يو ـ ١٩ المجهزة بصواريخ جو ـ أرض أن تغرق السفن .. ولكن للحقيقة أيضاً.. لم يصدر السوفيت إنذارهم ضد الإنجليز والفرنسيين والإسرائيليين إلا بعد أن تأكدوا تماماً من الموقف الأمريكي .

مابين موضوعية الرؤية وحساسية القلب يتحرك الدكتور مراد غالب ويكشف بعض الأوراق عن أهم أدواره وهو ذلك الذى قام به في موسكو خلال عمله الطويل المدى .. العميق الأثر هناك فى تلك العاصمة التى كانت دائماً ومنذ انتهاء الحرب العالمية الثانية فى موقع الريبة حيناً والغموض فى أحيان أخرى .. ولكن ظلت هذه الأوراق محاصرة دائماً بشخصية الدبلوماسى التى تجمع مابين الدماثة والحرص وما بين الأناقة وعدم الفضح وكانت ورقة الثقافة هى التى جذبته ليستكمل من خلالها الحوار :

تأثرت جداً بوجودى فى الاتحاد السوفيتي كسفير خاص على المستوى الثقافى . فقد كانت هناك إبداعات موسيقية على درجة بديعةوكان هناك فن باليه بالغ الرقى .. وهذا الفن بالذات أثر فىّ .. فقد كانت لحظة مهمة فى حياتى وأنا أشاهد الموسيقى وهى تتجسد فى حركة وإلى علاقة أمامى .. ففى الباليه نحن نرى أيضاً الموسيقى .. أيضاً فقد كنت شديد الإعجاب بالكتاب الروس.. وهنا لابد من الانتباه .. أنه لم يوجد كاتب سوفيتى حقيقى إلا شولو خوف وباسترناك.. ولكن ما كان يستحق التقدير هو الأدب الروسى وعلى قمته تشيخوف .. ديستوفسكى .. تولستوى .. وأيضاً الشعراء الكبار مثل بوشكين .. ولكن ظل ديستوفسكى عندى هو المميز وأفضل من صور النفس الإنسانية .. فى نفس الوقت فإن النظام السوفيتى لم يتح الفرصة للإنسان السوفيتى لكى يبدع ويقدم أدباً حقيقياً ـ وكان المطروح هو ذلك الأدب الرسمى لذلك كانت أعمال ديستوفسكى ممنوعة ، وكان تنكر السوفيت لمثل هذا الأديب وغيره موضع دهشتى ـ وأتذكر أننى عندما ذهبت سألونى عن الأدباء المصريين .. فذكرت لهم أسماء عديدة.. وعندما سألتهم نفس السؤال لم يكونوا سعداء !! وقال أحدهم .. إن لدينا أدباً للشعب وألقى محاضرة أيديولوجية طويلة.. لكن ما لم يستطع أن يراه ذلك المسئول أنهم لم يكونوا أصحاب أدب عالمى فى ظل النظام السوفيتى .

الفشل

* هل منعك الإعجاب المسبق أو رؤيتك الفكرية عن القدرة على تقييم هذه التجربة .. وبمعنى آخر .. عندما أتى عليك أكتوبر سنة ١٩٧١ عندما تركت موسكو لتعود للقاهرة وتبدأ مهامك كوزير خارجية هل كانت قد اكتملت رؤيتك لهذه الدولة العظمى ؟

** لقد كونت فكرة متكاملة منذ زيارتى المبكرة للاتحاد السوفيتى .. وتوصلت إلى أن

النظام هناك يحمل الكثير من المتناقضات العنيفة والعميقة فى داخله . وأنهم بقدر ما أنشأوا دولة عظمى.. بقدر ما فشلوا فى تنشئة إنسان عظيم ـ وكان الفكر السائد فكر دولة .. وحتى الاشتراكية التى رفعوها شعاراً لم تكن سوى رأسمالية دولة !! ولم يكن عندهم فكر اشتراكى يجذب الناس أو يحركهم بوازع داخلى .. وكنت دائماً على اقتناع بأنه خطأ كبير التضحية بالفرد من أجل المجتمع . والعكس أيضاً ليس بصحيح وأقصد أن يصبح الفرد هو كل شىء ، فالفردية التى تغفل البعد الاجتماعى تضر بالمجتمع كله وتسبب سلبيات عديدة .

* تعاملت مع زعماء روس كثيرين .. ماذا تتذكر من هذه العلاقات لعله يلقى الضوء على الكثير من الأسئلة التى تملأ الأذهان حول هذه الدولة العظمى سابقاً ؟

** كنت قريباً جداً من خروشوف . ولم يحدث ذلك من فراغ .. بل من عمل صبور وقد أحببت هذا الرجل .. وأتذكر أننى كنت السفير الوحيد الذى ذكره فى مذكراته بعنوان (خروشوف يتذكر) وكان شخصية جذابة ـ كان يمثل صورة الفلاح الروسى بكل صفاته .. فيمكن أن يصبح فى بعض الأحيان تلقائياً وعاطفياً جداً وفى أحيان أخرى عنيفاً إلى درجة الشراسة وله فضل كبير فى تغيير وجه الاتحاد السوفيتى .. ويرجع هذا إلى ذكائه الحاد وهذا نفس رأى نيكسون .. وقد عرفته عائلياً وكانت زيارة هدى عبدالناصر لروسيا عام ٦٣ ـ كانت فرصة لكى اقترب منه .. وأتذكر أنه دعانى لزيارة منزله الريفى وهناك أثناء التجوال قال : تعال لأريك مزرعة الدواجن .. فذهبت فوجدت أرانب !! فاعتقدت أنه لايعرف شيئاً عن الطيور والحيوانات المنزلية فسألته : من أين يشرب هذا الأرنب وكل شىء هنا يتجمد تحت الصفر ؟ ضحك من قلبه وقال «شوف الأفريقى طبعاً الأرنب (بيلحس الثلج) وأتذكر أننى قلت له إننى أحب الأرانب فما كان منه إلا أن نادى زوجته لإعداد أرنب لى !! كل هذا وهو رئيس ثانى دولة فى العالم !! .. أيضاً ربطتنى صداقات بمعظم القادة السوفيت وكنت صديقاً لجرينشكو وزير الدفاع وكنت حريصاً على ذلك بسبب أهمية التسليح للجيش المصرى .. من الأسماء التى ترددت بعد ذلك بقوة (أندروبوف) وكان سكرتيراً للجنة المركزية للعلاقات الخارجية ومع الأحزاب وكان رئيساً للمخابرات السوفيتية لمدة طويلة ولكنه فى الحقيقة كان مفكراً من طراز بديع .. وهذا ما لا يعرفه البعض ـ وعندما كنا نتحدث معه عن العالم كان يقول : «لقد كانت المهمة سهلة أيام ستالين .. كنا نضع ميكروفوناً فى كل حجرة وكنا نقول للناس إنهم يعيشون أحسن ما يمكن ولم تكن لديهم وسيلة للتحقق من صحة هذا الكلام .. لكن بعد الحرب العالمية الثانية .. فإن أى شخص عنده ترانزستور صغير فإنه يستطيع أن يسمع العالم ـ أيضاً فإن هناك ١٢٠ ألف سوفيتى يغادرون ويعودون للبلاد سنوياً .. إنهم كانوا يشاهدون ويحكون عما يشاهدونه .. وتلك مسألة مهمة .. «ثم يقول وهذا الكلام عام ٦٨» أما فى المستقبل فإن أى شخص لديه تليفزيون لن يسمع فقط بل سيرى .. لقد آن الأوان لرفع مستوى معيشة الإنسان .. «لقد كان لديهم إحساس عنيف بالمشاكل التى وقعوا فيها .. وأتذكر نائب أول

رئيس الوزراء فى عهد برجنيف وهو يقول لى «هناك ٣٠ مليون سوفيتى عند حد الفقر !!» وأستطيع أن أقول إننى كنت محظوظاً فى عملى كسفير .. لأن السفير لاينشئ علاقات جيدة إلا إذا كانت هى نفسها موجودة بين بلدين ـ وأقول إن جمال عبدالناصر لعب دوراً رئيسياً فى تأسيس العلاقات الوطيدة مع الاتحاد السوفيتى .. وعلاقتى القوية بالرئيس عبدالناصر لفتت أنظار السوفيت وكانت المعاملة مختلفة عن التعامل مع أى سفير آخر ، وأنا كنت محظوظاً فى شيء ثان .. وهو أننى عشت فى الاتحاد السوفيتى فى قمة نجاح التجربة السوفيتية ـ فقد كانوا أول من أطلق قمراً صناعياً فى الفضاء وأول من أطلق إنساناً فى الفضاء .. وكان لديهم أكبر قنبلة ذرية تم تفجيرها .. كانوا دعماً لحركات التحرير فى آسيا وأفريقيا فى تلك السنوات .. قدموا لنا نحن المصريين مساعدات لايمكن لأحد أن ينكرها .. بل أستطيع أن أقول قدموا مساعدات حيوية للشعب المصرى وكانت أسلحتهم هى الأساس الذى حاربنا به فى ثلاث حروب .. وكانت بسعر رمزى .. ومازلت أتذكر أن الرئيس عبدالناصر زار موسكو عام ٦٥ ـ ٦٦ وخفض نصف ديوننا وكان ثمن الطائرة هو (٢٠٠ ألف جنيه) !! والاتحاد السوفيتى هو الذى بنى السد العالى وخطوط الكهرباء ومصانع الحديد والصلب والترسانة البحرية ومصانع النسيج وأول مصانع للأدوية فى أبو زعبل واشترك فى إصلاح وزراعة ٢٠٠ ألف فدان .. وأيضاً هناك المئات من الطلاب الذين حصلوا على درجاتهم العلمية من هناك .. الآن معظم رؤساء الجامعات والكليات من خريجى الاتحاد السوفيتى .. وبالتالى فلا مفر من تقييم هذه العلاقة بشكل موضوعى ودقيق .

الخطأ .. أم الخيانة ؟

* من ضمن العلامات الاستفهامية الصعبة هى موقف السوفيت من أمور مصيرية مصرية كثيرة.. يرى البعض أنه تم تجاهلها لأغراض سياسية مثل علامة الاستفهام حول دور الروس ضد الوحدة المصرية ـ السورية التى يجرى الاحتفال بذكراها الأربعين ؟

** بدون شك أن الاتحاد السوفيتى لم يكن مؤيداً لهذه الوحدة .. فالوحدة المصرية ـ السورية عندما حدثت كان هناك نفوذ كبير للشيوعيين والمعسكر الاشتراكى فى سوريا ـ وكانت هناك معركة محتدمة بين الشيوعيين والقوميين فلما حدثت الوحدة كانت ضد الشيوعيين وكانت إنذاراً بتقليل الوجود السوفيتى فى سوريا .. وبالتالى فلم يكن السوفييت راضين عن الوحدة ، وأستطيع أن أقول إن فى قضية الانفصال كان لهم دور لم نكن واعين له بشكل جيد .. فالثورة العراقية فى يوليو ١٩٥٨ .. التف الشيوعيون حول عبدالكريم قاسم، وكانوا ضد أية وحدة بين العراق

والجمهورية العربية المتحدة وكان تصوير الوحدة يتم على أنها سيطرة مصرية .. وكانت هناك قوى فى سوريا تتكلم عن دور استعمارى لمصر !! وبالتالى فقد حدث هجوم من نواح كثيرة ضد الوحدة المصرية ـ السورية .. أيضاً لاتنس أن كل قادة الانقلاب ضده ، كانوا يعملون فى مكتب المشير عبدالحكيم عامر ـ وأستطيع أن أقول إنه كان للسوڤيت دور غير مباشر فى النيل من الوحدة.

* بنفس الأهمية .. يبدو أيضاً أن هناك خيانة سوڤيتية حديثة وكانت وراء ما حدث فى يونيو سنة ١٩٦٧ .. وأن السوڤيت كانوا حريصين على ألا تخرج مصر كقوة مستقلة بعيداً عنهم اذا انتصرت على إسرائيل ؟

** لقد ساد فكر خاطئ وترجمة خاطئة تقول بأن السوڤيت سيكونون معنا فى الحرب ضد إسرائيل .. لم يعلن السوڤيت أبداً ذلك .. ولم يعلنوا أبداً قبل ٦٧ أنهم سيدخلون معنا المعركة ضد إسرائيل .. بالعكس .. لقد قال كوسيجين لشمس بدران الذى كان وزيراً للحربية فى مايو ٦٧ قبل الحرب بأسبوعين : «الحشود بينكم أنتم وإسرائيل ستولد خطورة هائلة .. وكلامكم عن إغلاق مضيق تيران، فإن هذا أيضاً بالغ الخطورة ولقد أعلنت الولايات المتحدة الأمريكية أن أسطولها سيمر من المضيق .. وبالتالى فإن هذه الحشود قابلة للاحتكاك ، ولكنكم نجحتم فى أشياء كبيرة أولها أن إسرائيل أعلنت أنه ليست لديها نية الهجوم على سوريا وبدا أمام العالم أن حشودكم على الحدود هى السبب فى منع إسرائيل، ثانياً أنتم أخرجتم القوات الدولية من مضيق تيران ومن جزر صنافير وأيضاً وعلى الحدود، وكان هذا آخر بقايا حرب ٥٦ ـ عليكم أن تحافظوا على هذه المكاسب بتهدئة الموقف وفك التداخل على الحدود».. فلم يحدث أبداً أن أكد السوڤيت وقوفهم معنا قبل حرب ٦٧ والترجمة التى تمت لمباحثات شمس بدران فى موسكو خاطئة ـ والتاريخ فإن الروس هم الذين أخبروا مصر بالحشود الإسرائيلية ضد سوريا وعندما ذهب إلى هناك الفريق فوزى وعاد نفى وجود حشود وفى نفس هذا اليوم كان الإسرائيليون قد أسقطوا ست طائرات سورية !! .. السوڤيت اندهشوا لهذا الكلام .. وأصروا على رأيهم فى هذه المسألة التى كانت من العناصر المهمة فى تفاقم الأزمة .. المسألة الثانية أنهم صدقوا الأمريكان فى كلامهم عن منع المعركة وقالوا ـ أى الروس ـ لعبد الناصر : سنكون ضد من يطلق النار وتلك كانت عملية خداع كبيرة لكى تكون ضربة ساحقة ونتذكر أن الرئيس الأمريكى جونسون قام بخداع إستراتيچى عندما طلب من الرئيسعبدالناصر استقبال هيوبرت همفرى وأنه سيستقبل السيد زكريا محيى الدين فى يوم ٥ يونيو ٦٧ !! .. مسئولية الروس أنهم لم يعطونا فكرة عن الحشود ضدنا نحن !!

* جاء الرئيس أنور السادات إلى قمة السلطة .. ومازال البعض حتى الآن لا يستوعب الحقائق الكامنة خلف علاقته المعقدة مع السوفيت ؟

** بدون شك أن الرئيس السادات كان لايقبل السوفيت .

* لايقبلهم شخصياً أم سياسياً ؟ .. بمعنى هل كان ذلك لشعوره بأنهم لايقدمون لمصر ما تحتاجه من أجل تحرير أرضها ؟

** سؤالك له طابع نظرى لأنه لايمكن الفصل بين الموقف السياسى والموقف الشخصى .. فالرئيس السادات بعد ثورة التصحيح فى ١٥ مايو كان يشعر بأن السوفيت كانوا فى جانب مراكز القوى ضده لكن ما لايعرفه الكثيرون أن السيد محمود رياض وكان وزيراً للخارجية زار موسكو فى صيف عام ٧١ وطلب إبعاد السفير السوفيتى فينوجرادوف من القاهرة لأنه كان يتصل بـ (الأولاد إياهم) طبقاً لكلام السادات وكان رد برجنيف بالرفض وأنه لايوجد سفير يفعل ذلك بل إن وظيفته هى تنفيذ سياسة بلاده فقط ـ وأن الكلام عن اتصال السفير بمراكز القوى مسألة غريبة لأن الرئيس السادات هو الذى أرسل كُلا من سامى شرف والآخرين تحت وصف زميلى وصديقى!!؟ وبالتالى فكل واحد فى مراكز القوى كان زميله وصديقه !! ومن هذه اللحظة تعقدت الأمور تماماً وظل لدى الرئيس السادات الشعور بأن هناك مؤامرة ضده يشارك فيها السوفيت .

* هل تعتقد أن السوفيت لعبوا دوراً فى فقد ثقة السادات فيهم ؟

** لقد شعروا بأشياء كثيرة متناقضة .. ولكنهم لم يتوقعوا التراجيديا الكبرى التى تمثلت فى طرد الخبراء السوفيت وكنت وقتها وزيراً للخارجية . وقلت للرئيس السادات إنهم يفخرون فى الاتحاد السوفيتى جداً بجنودهم ودعنا نفكر فى أسلوب لإخراج القرار ووافق على ذلك على أن نطرح وجهات نظرنا أمام اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى ولكن فى الاجتماع تم الاكتفاء بكلامه وحده وألغيت كلمتى أنا والراحل حافظ إسماعيل مستشار الأمن القومى حول هذه القضية ـ وكان كل تفكيرنا أنا وحافظ فى كيف يتم إخراج الروس بشكل كريم، لكن السادات كان فى قمة عصبيته وحساسيته نحوهم .

* بعد مرور السنين .. ألا تعتقد أن الرئيس السادات كان على صواب لأننا حاربنا بدون الخبراء الروس وانتصرنا ـ وأنك كنت على خطأ فى تقدير العواقب ؟

** يا أستاذ محمد .. لقد حاربنا عام ٧٣ ومعنا خبراء سوفيت وحاربنا بصفقة أسلحة جديدة قام بعقدها المشير أحمد إسماعيل وجاء مع هذه الأسلحة خبراء سوفيت ـ وكان هناك

خبراء سوفيت فى بعض المطارات أثناء الحرب .. وأتحدى من يقول غير هذا الكلام لأننى أعرف هؤلاء بالاسم !! ويوم ١٥ أكتوبر ٧٣ جاء كوسيجين رئيس الوزراء السوفيتى آنذاك ومعه رئيس الأركان ـ وقدم الأخير للسادات صوراً لمعدات عبور إسرائيلية وقال له : عليك أن تجمع كافة القوات لضرب هذه القوات ومنعها من تشييد رأس كوبرى، ولكن كلام السادات كان غريباً !! فى تلك الأثناء كنت وزيراً فى حكومة الوحدة المصرية الليبية .. وقمت مع وزير الطيران المدنى أحمد نوح آنذاك بالإشراف على أن تصبح ليبيا هى القاعدة الخلفية أو الاحتياطى الإستراتيجى ـ ولذلك كنت أشعر دائماً بأهمية العلاقة الثلاثية بين مصر والسودان وليبيا ـ ومن ناحية أخرى .. وفى إطار قراءة تطور العلاقات المصرية السوفيتية فى عهد السادات فإننى أقول إن هذه القضية خضعت أيضاً للفكر السياسى للسادات ولميوله الاجتماعية والعامل النفسى الذى جعله يرى أن الاتحاد السوفيتى كان طرفاً فى المؤامرة ضده ـ وكان يرى فى نفس الوقت أن حل المشكلة فى الشرق الأوسط فى يد الولايات المتحدة.

* يبدو أن وقائع التاريخ تؤكد صحة نظرته ؟

** بالتأكيد رؤيته كانت صحيحة .. وللأمانة فإن السادات رجل وطنى .. وقد استوعب الصورة بعد حرب أكتوبر وتداعيات الجيب الإسرائيلى غرب القناة والدعم الأمريكى غير المحدود لإسرائيل والذى كان واضحاً أثناء الحرب عندما كانت تهبط الدبابات بأطقمها لدعم القوات الإسرائيلية ـ وأيامها قال الرئيس السادات كلمته المشهورة : «إننى لا أستطيع أن أحارب الولايات المتحدة الأمريكية» .. ولذلك اختار الحصان الذى أعتقد أنه الرابح ولم يكن هناك اختلاف شديد على الأقل من ناحية البعض وأنا منهم إلا على شيء واحد .. كنا نقول ليختر الحصان الذى يراه.. ولكن بشرط ألا يكون ذلك على حساب بقية الخيول !!! وكانت هناك قاعدة تقول إن مستلزمات الحل السياسى هى نفسها متطلبات الاستعداد للحرب .. وما لم تكن لديك القدرة على الحرب فلن تستطيع الحصول على سلام عادل ـ وهنا الاختلاف .. فليس هناك حل سياسى يهبط فجأة.. والسياسة هى استمرار للحرب بوسائل مختلفة .

* مابين ربية الأصدقاء القدامى .. وحساسية موقعك فى السلطة وقربك من عبدالناصر وعملك كوزير مع السادات .. ومابين الاشتراكية التى كنت تقرأ عنها فى نهاية الأربعينيات إلى موسكو التى بدأت فيها رحلتك الدبلوماسية فإننا نسأل: ما الحقيقة فيما تردد من اتهامات عديدة فى فترات متباينة عن مساعدات من السوفيت للشيوعيين العرب بما فى ذلك المصريين .. أيضاً استخدم لفظ (العمالة) كثيراً حول علاقة بعض الشيوعيين المصريين بموسكو ـ كيف ترى هذه القصة ؟

** الاتهامات سهلة جداً فى هذه المنطقة من العالم .. فمن السهل اتهام شخص بالعمالة

للأمريكان .. وبنفس المنطق للسوفيت .. لكن بدون شك أن إخراج السوفيت من المنطقة وانفراد أمريكا بالحل أزعج موسكو جداً ـ وأتذكر أن الرئيس السادات عندما قابل تيتو فى بلجراد .. قال له تيتو إننا نضع أكثر من سيخ حديد فى النار .. إننا نتعامل مع واشنطن وموسكو وسياستنا ستستمر فى ذلك ـ رغم أن السوفيت ساهموا فى تأسيس حزب شيوعى من خلف ظهورنا ـ ومازال الكلام لتيتو ـ ورغم ذلك نحافظ على العلاقات مع الاتحاد السوفيتى .. طبعاً .. هذا كلام سياسى ويعرف خطورة أن تنفرد بالعالم قوى واحدة .

* يظل سؤالى قائماً حول حقيقة الدور السرى لموسكو ؟

** لا أستطيع أن أثبت أبداً مثل هذه الاتهامات .. فى فترة عملى كسفير هناك كان لدى ٦ مكاتب تكون أقرب لوزارة وكانت مجموعة العمل المصرية على أرقى ما تكون .. وأنا وأى شخص آخر لابد أن يتصور حدوث اختراقات من جانب السوفيت .. هذا لابد أن يحدث ولكن أية حاجات تحدث كان يتم إخبارى بها .. وكنت أقوم بتوجيه المصريين وكنت أبلغ الرئيس عبدالناصر شخصياً بكل هذه الأمور .. لأن النظرية أنك إذا عاقبت أحداً فأنت بذلك سببت أضراراً بالغة وكنت مساعداً للاختراق .. لأن الشخص الذى يتورط إذا قمت بالتنكيل به وأعدته إلى بلده فإنه سيزداد إحساساً باليأس والتهور .. ولكنى كنت أتعامل مع الاختراقات على أنها شىء متوقع مع الدول العظمى .. وهذه السياسة يمكن تفهمها .

* هل يمكن التداعى من هذه الإجابة والقول بأن الروس اخترقوا الأحزاب الشيوعية المصرية ؟

** أعتقد أنه كان هناك توافق أكثر منه اختراق .. وأسألك هل هناك شيوعى مصرى كسب وأصبح مليونيراً من خلال أيديولوجيته ؟ .. لا أعتقد .. لكنى رأيت أناساً تعاملوا مع الولايات المتحدة الأمريكية وأصبحوا مليونيرات .. أكثر ما كان يحصل عليه الشيوعيون هو إقامة طيبة أثناء زيارتهم لموسكو .. بل أكثر من ذلك لايوجد شيوعى تعامل مع موسكو تجارياً .. والأكثر تعاملاً ونجاحاً فى التجارة مع الروس كانوا من غير الشيوعيين .. والذين كسبوا من هناك كانوا من غير الشيوعيين .. وهؤلاء كسبوا أموالاً طائلة ومعروفون .

* ولكن فى ظل أزمة العلاقات .. وفى ظل الصراعات مع وبعد الإطاحة بالفريق المناوئ للرئيس السادات .. واشتراك وسائل الإعلام فى ذلك اتهم أحد كبار المسئولين فى مكتب الرئيس عبدالناصر بالعمالة وأقصد السيد سامى شرف ؟

** سامى شرف رجل وطنى .. لايخرج عن تعليمات عبدالناصر .. اذكر أى اسم وأنه لم يكن يطبق كلام عبدالناصر .. إلا سامى شرف الذى لم يكن يتحرك أو يتكلم أو يهمس بدون أوامر عبدالناصر .. لقد قرأت مثل هذا الكلام ولا أشعر إلا بالأسف لذلك .

* ألم تصب بمثل تلك الاتهامات الموسمية ؟

** لحسن الحظ لا .. وإن كنت قد اتهمت بالماركسية وما شابه ذلك .. وأنا أعتقد أن الماركسية أحد روافد العلم والثقافة فى العالم .. ولعبت دوراً مهماً فى حصول العمال فى الدول الرأسمالية على حقوقهم ـ وحتى لاننسى .. فإن الثورة الصناعية خلف النظام العالمى الخاص بها وكان هذا النظام هو تراكمات الرأسمالية أى الاستعمار ثم الماركسية كرد فعل .. وعاين أقول لك حاجة .. لقد لفت نظرى ما كتبه الرئيس الإيرانى الجديد خاتمى عن الماركسيةوقال إنها أحد روافد المعرفة الإنسانية ـ وقد نشرت صحيفة «الحياة» اللندنية هذه المقالات .. لذلك أتمنى أن نجيد قراءة العالم حولنا بموضوعية وبأعين مفتوحة وقلوب غير متذمرة وعقول متسامحة وأن نقبل الآخر بدون قلق من اختلاف الرأى وأن الدنيا تتسع لنا جميعاً .. وأننا إذا كنا نؤمن برب واحد للكون فإننا لابد أن نثق فى حكمته فى أن تصبح الدنيا بكل هذا التنوع والتعدد حتى يتم إعمار الكون وتظل عجلة الإنسانية تتحرك للأمام .

* رغم كل هذه التجربة الطويلة مع آخر إمبراطورية فى قرننا هذا هل كنت تتوقع أن يتحول الاتحاد السوفيتى من دولة عظمى إلى فضيحة عظمى ؟

** بصدق .. لم أتوقع ذلك .. كنت أتصور أن جورباتشوف سيدير التغيير بالطريقة الصينية العاقلة ـ وألا تترك مفاتيح التغيير بشكل مدمر ولكن بطريقة مستمرة محسوبة .

* هل يمكن القول أن الأيديولوجيين العرب تعاملوا بعواطفهم أكثر من المنطق مع الإمبراطورية السوفيتية .. ومن هنا كانت المفاجأة لهم ؟

** مهما قلت عن العقل والمنطق فأعتقد أنه كان من الصعب على الكثيرين التخيل بسقوط الدولة السوفيتية .. طبعاً المسألة لاتخلو من عاطفة .. والعالم الثالث من أوائل الذين خسروا بوفاة اللتحاد السوفيتى .

* ظللت جزءاً من النخبة العليا فى الإدارة لسنوات طويلة وتعاملت مع الرئيسين عبد الناصر والسادات .. هل تتفق مع قول ردده البعض .. أن الرئيس هو فقط الذى يعلم ما هى الخطورة القادمة ؟

** إلى حد كبير هذا دقيق .. ومؤخراً كتب الدكتور بطرس غالى كيف أن الوفد المصرى كان بعيداً عن الحوارات الفوقية بين السادات وبيجين وكارتر .. وقراءة كتابه تكشف أسلوب الإدارة المصرية .. لكن بالنسبة لعبدالناصر لابد أن أذكر أنه كان قارئاً متميزاً لكل كلمة وكان يرد على أى تقرير يصله فى نفس اليوم وكان أسلوب السادات يختلف كثيراً عن ذلك .

* ولكن ألا يتفق ناصر والسادات فى أنهما كانا صاحبى القرار وحدهما فى الخطوة التالية وأن موقف النخبة الحاكمة كلها هى أن تتبعها مباشرة ؟

** أوافق تماماً على ذلك .. والسادات كان يعرف بالضبط هدفه .. ولايهتم بالأسلوب سواء كانت هناك تنازلات أو لا .. كان محكوماً بهدفه الأساسي .. وعبدالناصر كان بهذه الصورة وكان أستاذاً في التحليل السياسي وتقدير الموقف .. كنت أظل أتحدث لمدة ساعتين وهو يستمع بإتقان شديد بدون أي قطع .

* فى أكثر من لحظة اتضح على وجهك الكثير من العواطف وأنت تتذكر عبدالناصر .. ولكنك قلت لي من قبل إنك لاتقبل أن تكون بدون حرية الرؤية مهما كانت جاذبية الفكر أو عظمة الزعيم .. بنفس المنطق .. قلت إن هناك الكثير من الملاحظات لديك على عبدالناصر .. ما هي تلك الملاحظات ؟

** الحقيقة لا أحب الكلام في ذلك .. وسأقول لك بصراحة إن السبب في ذلك أننا لم نصبح ناضجين إلى الدرجة التي نتقبل بها مثل هذا النقد، فأعداء عبدالناصر سيستخدمون ما سأقوله لتشويه كل ما قدمه عبدالناصر .. فالموضوعية لم تعد بعد جزءاً من حياتنا .. العكس من ذلك تشرشل الذى حقق للإنجليز أعظم انتصاراتهم والنقد لاينتقص من عظمته .. وعلى أية حال .. من ملاحظاتي الأساسية هي مسألة أهل الثقة وأهل الخبرة .. وكانت مسألة الثقة مهمة في عهد عبدالناصر واستمرت بعده .

هوامش إنسانية

لست ضد الثراء .. لقد نشأت في أسرة تتوارث حكم قرية وكنت أراقب كيف يأكل الناس وكان الوجع ينتابني في أيام المواسم عندما أرى أهمية قطعة اللحم للفلاح البسيط بينما لاتخلو مائدتنا من كل أنواع اللحوم ..

الثراء جميل .. ولكن العدالة أجمل .. الانفتاح رائع ولكن التوحش مُر .. حلوة قيم العائلة التي تعني الاحترام المتبادل وسلوكيات الوفاء .. ولكن ليست جميلة قيم العائلة التي تعني سلوكيات العشائر البعيدة عن أسس الدولة الحديثة .

التغير الذى حدث في مصر في السنوات الأخيرة كان كبيراً ولم يراود أحلام أحد .. كان به الكثير من الصعوبات .. وما يلفت النظر فيه أن الرئيس السادات بدأ يفتح الباب للرأى والرأى الآخر .. ولكن وحتى الآن .. وكما قال الرئيس مبارك فإننا نسير على طريق الديمقراطية .

لا أستطيع الحياة خارج القاهرة .. أو بعيداً عن مصر . لدى بنتان مقيمتان في كندا .. ولكني شخصياً لا أستطيع ذلك .. ابنتاى عاشتا في الخارج لفترات طويلة .. ولذلك لم يحملا

مثل أبناء الدبلوماسيين ذلك الالتصاق الشديد ثقافياً وحضارياً بالوطن الأصل .

ذهبت موسكو عام ٥٣ متزوجاً .. وقد تزوجت عن حب نشأ بسبب الجيرة فى الإسكندرية .. لقد كانت قصة حب .. جيلنا كان يعرف كيف يحب .. والإنسان الذى لايحب ليس بإنسان .. وأعلى مراتب الشعور الإنسانى هو الحب .. ومع مرور الزمن يتغير الحب من حيث إنسانيته وعلاقاته .. وظهور أولاد وأشياء كثيرة تشارك فى هذا الحب .

الحب مثل كافة المشاعر الإنسانية .. يمكن أن تخفت حدته فى لحظة ويمكن أن ينتهى سريعاً أو بعد مرحلة .. ليس هناك علاقة بين الحب وبقائه وبين الزمن .

هناك قتلة كثيرون للحب .. منهم تلك النظرة المبالغ فيها للحب والتى تختلط فيها الأمنيات بالخيالات .. ومع الواقع يحدث الصدام أو المفاجأة .. نفس الشىء مع توهم أن يستمر الحب بنفس تدفقه وعنفه فى كل مراحل الحياة .. وهذا طبعاً يؤدى إلى الإحباط .. هناك عوامل أخرى هامة فى قتل الحب مثل عدم التوافق .. أو اختلاف الطباع .. أو الفروق الثقافية .. عدم وجود أهداف مشتركة واختفاء النظرة المتعاونة للمستقبل .

أحمد حمروش

دموع ضابط مثقف

يلعب الرجال دوراً فى صناعة التاريخ .. ولكن التاريخ لايمكن أن ينسى التوقيع على كشف حسابهم الأخير .

وهناك مجموعة كبيرة من هؤلاء الرجال كانوا قريبين من دائرة صناعة التاريخ .. ولذلك لا مفر أمامهم من أن يستسلموا لأسئلته ومن هؤلاء أسماء عديدة من جيل الأربعينيات فى مصر .. الذين خرجوا من قلب الحركة الوطنية التى كانت تطالب بالاستقلال ليصبحوا هم الحكام الجدد الذين ظلوا موجودين كجزء من النخبة الممتدة طوال النصف الثانى من القرن العشرين الذى خلفه أكبر قدر من الخسائر يتركها قرن .. خسائر فى كافة ممتلكات وميراث القرن السابق من أفكار ومعتقدات ورؤيات وتجارب .. ومن بين هذه الأسماء .. يطل اسم أحمد حمروش .. الضابط الذى اشتغل بالصحافة حيناً .. وبالمسرح فى أحيان أخرى .. وبالسياسة فى كل الأوقات .. وظل دائماً أحد ضباط يوليو الذين لابد أن نحاسبهم حيناً ونتأملهم حيناً آخر من أجل مستقبل بدون غموض .. ومن أجل ماض لا تعزله عنا هالات التقديس ولاتقربه منا شباك الصيادين .. فقط من أجل مستقبل بدون أوجاع تعطل حركته ، ومن أجل جيل يتحرر من أكبر قدر من السلبيات التى أعاقت من قبله .

*** ومن البحث عن نقطة التقاء تقودنا للغد .. كانت بداية الحوار مع أحمد حمروش .. رئيس لجنة التضامن المصرية اليوم .. وعضو (حدتو) بالأمس ..وأحد ضباط يوليو منذ يوليو أول أمس والذى مازال مخلصاً للكثير الذى تغير يقول :**

** القلق على المستقبل أمر حيوى ومشروع .. ليس لدىّ ما أخفيه .. ليس لدى ما أخشاه.. والحقيقة فإننا نعيش لحظات تحول واسعة .. ولدى رغبة فى أن أستمر فى تقديم ما هو مفيد للحياة حولى .. وأعرف جيداً أن إرهاصات القرن الجديد ظهرت منذ الانتقالات الكبرى التى حدثت سواء بغزو الفضاء أو بثورة الاتصالات .. وبالنسبة لنا فى مصر لا مفر ولا بديل عن الاعتراف بالتغيير الذى أصاب كل شيء .

*** إذا كان الاعتراف بالتغيير بداية طيبة للنظر للمستقبل.. فكيف تقرأ ملامحه فى عيون رجل عاصر وشارك فى تغير واسع فى منتصف القرن العشرين وهو ما حدث فى مصر مع ثورة يوليو؟**

** بداية .. لامفر من الاعتراف بأن قيماً كثيرة تغيرت فى المجتمع المصرى بتأثير من التغيرات العالمية التى حدثت .. وأعتقد أن سقوط الاتحاد السوفيتى واختفاء الأنظمة الشيوعية وانتهاء الحرب الباردة كان له تأثير على البلدان كافة لأن الحلم بالاشتراكية قد صُدم بعجز التطبيق وإن كان فكر الناس مازال قلقاً نحو قضية العدالة ـ ولكن الحقيقة أن القيم الجديدة قد اكتسحت القديم .. إنها قيم الخصخصة ـ والسوق الحرة والكسب السريع التى تتجول فى أنحاء حياتنا ولكنها مع غيرها لم تستقر بعد ، نحن فى مرحلة تحول مابين قيم كانت مستقرة إلى قيم جديدة سوف تستقر بالنقد والمعارضة ، والأمور سوف تأخذ وقتها ولكن لابديل عن استقرار نموذج للقيم يعبر عن المجتمع .. وأتذكر هنا الحديث الدائم عن انطلاقة نمور آسيا التى كانت تسعد قلوب العالم الثالث.. ولننظر لما يحدث الآن هناك من معاناة بسبب هبوط أسعار عملات هذه الدول بسبب سحب المستثمرين الأجانب لاستثماراتهم وتلاعبهم بأسعار العملات والفروق بينها ـ ثم تصاعد أو تزايد الفروق الاجتماعية مما خلق مفاجآت اجتماعية مؤلمة كانت مصدر دهشة للكثيرين .. وظهرت التساؤلات : هل هذه التغيرات السريعة ستفتح الباب للاستقرار أم للقلق ، وهنا لابد من الإشارة إلى أن أفكار العدالة الاجتماعية التى كانت وراء نضال البشرية لسنوات وقرون طويلة .. لم تسقط ـ لقد انهزم التطبيق الاشتراكى أو انهزمت الأنظمة الشيوعية .. لكن فكرة العدالة الإجتماعية ستظل تلهب ظهر البشرية .. والجديد الذى سيصبح جوهر العالم الجديد هو أن تطبيق العدالة الاجتماعية سيتم بواسطة الديمقراطية .. وشخصياً أرى أن التطور يصيب كل شىء بما فى ذلك الاشتراكية نفسها وإلا بِمَ نفسر مايحدث فى الصين الشيوعية التى قفزت فيها معدلات التنمية إلى مستويات عالية جداً حتى أن المطلب هو تخفيض هذه المعدلات !

وهذا يؤكد أن النظرية التى لاتتطور تتجمد!

* إذن .. يمكن القول: إن السقوط المدوى للاشتراكية فى نهاية القرن العشرين كان انعكاساً لإصابتها بالجمود ؟

** بلا جدال أن الاشتراكية كانت قد وصلت إلى حالة من الجمود بالرغم من أنها حولت روسيا من بلد زراعى إلى بلد صناعى عالمى سبق أمريكا فى غزو الفضاء وحقق مستويات علمية وثقافية لفتت الأنظار، ولكن حرمان الشعب من حق الكلمة كان الخطأ الكبير الذى نتذكره بعجب ودهشة لأن الاشتراكية كانت للشعوب .. فكيف يمكن تفسير الحرمان ؟ ؟ !

* هل يمكن تفسيره من خلال قراءة موضوعية لمسئولية جيلك عن الكثير مما حدث ؟ .. أو على الأقل عن تراخيه فى تثبيت قيم كبرى تصمد بعيداً عن الطموحات السياسية السريعة ؟

** أرجو وأنتم تفتحون ملفات جيلى ألا تتناسوا أننا نشأنا فى بلد محتل .. تحت ظل نظام ملكى خاضع للاستعمار ويتفنن فى إهدار أى نوع من الديمقراطية بدليل أن الوفد لم

يصل للحكم من عام ٢٣ إلى عام ٥٢ إلا لمدة خمس سنوات تقريباً !! .. نشأنا ونحن نسمع أن المصريين يعانون أمراضاً أساسية هي الفقر والجهل والحفاء !! تحمل جيلنا كل ذلك ، وخاض كفاحاً مسلحاً ضمن جميع الفئات بما فى ذلك رجال البوليس .. طوال الأربعينيات .. هذا الجيل الذى تتحدثون عنه اليوم قام بثورة يوليو وتعرض لضغوط خارجية ضخمة استنفدت طاقته فى بناء مصر الحلم كما ينبغى .. فى ٥٦ عدوان ثلاثى .. بعدها مؤامرة الانفصال ثم عدوان ٦٧ .. ثم حرب أكتوبر المجيدة .. لقد تعرضنا لضغوط متواصلة عرقلت جيلى كثيراً عن إكمال الحلم أو تحقيقه كاملاً ـ ومع ذلك فإنى أعترف بأن جيلى لم يستفد من الفرصة الذهبية التى أتيحت له بعد قيام الثورة وإنجازاتها فى أن يحقق الديمقراطية ـ ولو كان ذلك قد تحقق ولاسيما منذ الخمسينات لازدادت قوة الثورة .. ولكن هذه السلبية أعاقت تطورنا للأسف ..

* ألا تعتقد أن هذه السلبية التى أصابت رجال يوليو كانت فى بعض أسبابها سمة للجيل كله .. لأن هذه الثورة كانت هدفاً لجميع الفئات من الماركسيين إلى الإخوان المسلمين بغرض السيطرة عليها أو ابتلاعها بدون أن يشغل باله بماذا تقدم هذه الثورة ـ سلباً أو إيجاباً ـ وأن الصراع كان الأساس ؟

** بالعكس أعتقد أن فئات كثيرة كانت تسعى من أجل وحدة وطنية .. ولكن الإخوان المسلمين أول من خرج على ذلك الهدف وحاولوا السيطرة على الثورة من خلال محمد نجيب ثم باعتدائهم على جمال عبدالناصر ـ ولكن الماركسيين ذابوا فى حركة الثورة فكرياً واجتماعياً ولم يشكلوا فى أى وقت من الأوقات أى خطر على ثورة يوليو .. ولكن الكثير من القلق الذى نشأ يعود فى أوجهه إلى أن التغير الذى أحدثته الثورة كان جديداً أيضاً على المجتمع ولم تكن القيم الجديدة قد استقرت ولم تكن لدينا تجارب كاملة يمكن الاستعانة بنتائجها .. كل هذه الظروف ترسم صورة ـ إلى حد ما ـ لجيلى ومشاكله .

حرام عليك !!

* كنت عضواً فى تنظيم شيوعى يعرف باسم (حدتو) خلال الأربعينيات التى شهدت انتشاراً للتنظيمات اليسارية التى كانت أقرب للموضة الفكرية .. ألا تعتقد وأنت تطل على نهاية هذا القرن أن هذا اليسار كان منعزلاً عن الناس ويتكلم بلغة لايفهمونها لذلك لم يستشعروا حتى الحاجة للإعلان عن اختفائه اليوم ؟

** لا .. بالعكس فى تقديرى أن كل الذين تبنوا رؤية اليسار هم لايفكرون ولايتكلمون إلا بلغة الناس ومن أجلهم .. لا أحد يتبنى الاشتراكية أو العدالة وهو يفكر فى ذاته !! ولذلك يمكننا تفسير أن الثورة المصرية التى قامت يوم ٢٣ يوليو أصدرت يوم ٩ سبتمبر قوانين الإصلاح الزراعى .. إنها نفس الرؤية المهمومة بالآخرين .. بالأغلبية .. ثم توالت الإصلاحات

الاجتماعية .. بالعكس مرة أخرى .. أنت تتهم جيلى كله وليس فئة معينة بتهمة لم تكن حقيقية .. كان جيلى يقف فى مواجهة عدو واضح ، كانت هناك أرض محتلة .. وإنجليز أعداء ونظام ملكى منعزل ولكن المشكلة هى فى جيلكم أنتم لأنكم تعيشون فى وطن يحكمه المصريون .. فليست هناك معركة وطنية .. ومنذ حرب ٧٣ وحتى اليوم .. أى ٢٤ عاماً وليس هناك معركة تمس تراب الوطن ويدور حولها جيلى ..

لذلك فإن أزمة جيلكم أنه لايعرف ما الطريق الذى يسير فيه ولكن الظروف الصعبة التى يعيشها هذا الجيل ستتكشف وستتبلور ـ بفضلكم أيضاً وبعد معاناة طويلة ـ رؤية تحكم المجتمع فى توجهه للمستقبل .. ولكن ستظل المشكلة الأساسية هى ضرورة مواجهة التطرف الذى تمارسه عصابات منظمة تسمى نفسها الجماعات الإسلامية وهى تعمل ضد الدين ولا هدف لها إلا الوصول للسلطة .

* من يستمع لك يعتقد كأن غياب الديمقراطية فى مصر وكأنه خطأ غير مقصود .. أو إنفلونزا أسيوية أتت للبلاد فى ظل مناخ بارد مفعم بالتوتر .. بينما الحقيقة ـ كما يعتقد البعض ـ أنَّ جيلك لم تشغله أبداً هذه الحسناء (الديمقراطية) .. وبالتالى فغيابها لم يكن وافداً على جيلك بل شىء طبيعى ؟

** أولاً .. والله حرام عليك .. وأنا بصراحة عندما أتحدث عن جيلى فأنا لابد أن أتكلم عن أهم إنجازاته على الإطلاق وهو ثورة يوليو .. يا أخى مازلنا نعيش تحت علم الثورة .. وهذه الثورة استطاعت أن تطوِّر نفسها تبعاً للظروف التى تحيط بها .. ففى عهد عبدالناصر كانت دول العالم الثالث فى مرحلة تحرر وطنى لعبت مصر فيها دوراً كبيراً .. وقبل ثورة يوليو .. كانت مصر تلعب دوراً يناسب ظروفها ولاسيما على المستوى العربى.. فى فترة السادات بدأ الاتجاه نحو السلام، وسار فى طريق جديد ـ نتفق أو نختلف معه ـ لكنه اتجاه واضح حتى وإن كانت مشكلة هذا السلام أنه ليس سلاماً شاملاً أو عادلاً .. ولكن لايمكن تجاهل أن حركة مصر فى هذا الاتجاه كانت تكيفاً مع الأوضاع الدولية الجديدة بعد سقوط الاتحاد السوفيتى مثلما كان الاتجاه نحو الديمقراطية مرتبطاً بعصر شامل جعل قضية الديمقراطية موضوعاً رئيسياً فى حياة الشعوب ، ونحن نعتز بذلك.. إذن فنحن حتى اليوم نعيش فى ظل ثورة يوليو ، والرئيس حسنى مبارك يردد فى كل مناسبة أنه مع المحرومين والفئات المطحونة وهذه أفكار ثورة يوليو بعيون التسعينيات وليس بلغة الخمسينيات .. إنها شرعية واحدة ممتدة .. شرعية تستند لمبادئ بسيطة صاغتها ثورة يوليو تعبيراً عن مطالب الشعب المصرى فى العدالة الاجتماعية ـ وليس فى الاشتراكية بالمناسبة لأن كلمة الاشتراكية كانت مبرراً للاضطهاد فى الأربعينيات حتى قامت هذه الثورة .. وبالمناسبة .. لنتذكر شيئاً مهماً حتى ننظر لشعبنا بما يستحق من تقدير .. وهو أنه عندما سقطت ثورة ١٩١٧ فى الاتحاد السوفيتى باختفاء النظام

الشيوعى هناك .. سقط المجتمع كله وغرق فى تجربة غريبة وتحول المجتمع إلى شىء معادٍ لتاريخه بينما فى بلادنا لم يحدث ذلك واستمرت الثورة تعدل طريقها باستمرار .

* كنت ضابطاً ينتمى لشريحة لعبت دوراً مهماً فى تاريخ مصر .. وأيضاً كنت يسارياً تمت صياغة توجهاتك في ضوء فترة الأربعينيات .. كيف تم ذلك ؟ .. وكيف أثر هذا التكوين وظروفه عليك ؟

** أنا من قرية (الخوالد) بالتوفيقية بمحافظة البحيرة ـ وقد عشت مع الفلاحين كثيراً .. وكان اهتمامى الرئيسى هو ذلك الفلاح البسيط .. كان لدى وعى اجتماعى حاد بالفروق بين هذا الفلاح ومالك الأرض .. ولذلك فعندما قرأت أن محمد بك خطاب عضو مجلس الشيوخ تقدم بمشروع لتحديد الملكية الزراعية أصابنى الفرح الشديد .. و أرسلت بخطاب له أطلب معرفة تفاصيل مشروعه .. وأنا فى ذلك أفكر في أهلى بالقرية فأرسل لى بخطاب يدعونى لمقابلته وذهبت إليه بالفعل وانبهرت بثقافته .. كان قد مضى على تخرجى كضابط عدة سنوات ولكن ما سمعته عنده كان جديداً ومدهشاً وأتذكر أنه أعطانى يومها كتاباً لسفير الولايات المتحدة الأمريكية فى موسكو أثناء الحرب العالمية الثانية وطلب منى قراءته ثم الحضور لندوته فى دار الأبحاث العلمية فى السيدة زينب .. وحدث ذلك بالفعل .. وكان بداية لاطلاعى على الفكر الاشتراكى واختيارى للاتجاه اليسارى ـ وهذا دليل على أنه كان فى كل وقت هناك أفراد يتطلعون للمستقبل ويفكرون فى حل لجعل حياة الناس أفضل وكان منهم ذلك الرجل الثرى مثلما كان الحال مع كامل باشا البندارى وكيل الديوان الملكى ـ وسفير مصر فى موسكو ـ ولكن قبل ذلك كانت هناك مؤثرات أتذكرها بدهشة منها مثلاً أننى كنت تلميذاً فى المرحلة الثانوية عندما فوجئت بأننى مفصول مع ٣٥ تلميذاً آخرين بسبب الاشتراك فى المظاهرات والتى لم نكن نعرف ما تتحدث عنه ولكننا كنا نجدها فرصة للخروج من المدرسة واللعب مع الزملاء فى الشارع .. ولكن تدريجياً .. بدأت أتساءل : لماذا تم فصلى .. وإيه حكاية التظاهرات التى تتحدث عن دستور ٢٣ .. وهكذا .. وعلى إيه تم استقطابى للجماعات اليسارية بعدما انتظمت فى حضور ندوة السيدة زينب .. وأتذكر أنهم كانوا يعطوننى كتاباً كل أسبوع بغرض مناقشته فى الأسبوع التالى وأعجبنى ذلك لأننى كنت أحب القراءة .. ومن جيلى والذين انضموا مثلى للحركات اليسارية فى هذه الفترة : الراحل شهدى عطية الشافعى ـ الدكتور عبدالمعبود الجبيلى ـ الشاعر كمال عبدالحليم ـ وظهر بعدى الدكتور فؤاد مرسى والدكتور إسماعيل صبرى عبدالله ـ وآخرون وكنت مسئول قسم الجيش فى الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى (حدتو) .

ملحوظة : ضحك أحمد حمروش من قلبه وهو يرفض ذكر أسماء كل مجموعة الضباط الذين كانوا معه فى هذا التنظيم السرى الذى كان قائماً قبل الثورة لأن هناك أسماء لم تُعرف

حتى اليوم وليس من حقه أن يكشف أسماءها وتأكيداً لذلك واصل حواره قائلاً : عبدالناصر نفسه لم يستطع أن يعرف هذه الأسماء .. فهذه المجموعة ارتبطت بتنظيم الضباط الأحرار ، عن طريق أحمد فؤاد ـ الذى أصبح رئيساً لبنك مصر ـ فقد كان مندوب قسم الجيش وتنظيم الضباط الأحرار وكانت علاقتنا بعبد الناصر علاقة تعاون وثيق .. ولكنه ـ أى عبدالناصر ـ لم يحاول أن يعرف منا بقية أسماء أعضاء التنظيم من العسكريين ولهذا السبب أفضل الاحتفاظ بها .. وإن كنت أشير مثلاً أن الصحفى عبدالمجيد نعمان كان ضمن التنظيم !! وهو فى الأساس كان مسئول اللاسلكى بسرب الطيران الملكى وكان معنا فى التنظيم !! وغيره كثيرون.

* هذه الحركة السرية التى تتكلم عنها لايمكن المرور على تفاصيلها بمنطق الذكريات ـ لأن هناك اسماً مثل هنرى كورييل .. أرى لك صوراً عديدة معه فى باريس .. إنه الشيوعى اليهودى الذى يذكرنا باتهام تردد كثيراً وهو أن الشيوعية فى مصر نشأت فى أحضان اليهود مما جعلها دائماً موضع شبهة وتحت علامة استفهام كبيرة ؟ بل إن تعاطف بعض الشيوعيين مع فكرة الحوار مع إسرائيل ـ ولاسيما مع اليسار هناك ـ وتفسيراتهم القديمة وخلافاتهم حول هذه القضية لايمكن تفسيره ـ فى رأى البعض ـ بعيداً عن أحضان النشأة فى حضن اليهود القديم ؟

** هذا غير صحيح .. لأنك لايمكن أن تتجاهل أن هناك فكراً يسارياً مصرياً كانت إرهاصاته واضحة لدى سلامة موسى وآخرين وكان هناك حزب شيوعى مصرى فى العشرينيات لايضم شيوعيين .. من ناحية أخرى لايمكنك أن تمنع يهودياً من أن يكون شيوعياً !! وبنفس المنطق يمكن النظرية لهنرى كورييل .. فمن حقه أن يكون اشتراكياً وهو الرجل الثرى الذى تبرع بمنزله ليصبح سفارة للجزائر.. أحب أيضاً ـ وأنت تحاول صياغة شهادة عن زمن يمضى ليترك مقعده لزمن جديد مثلما تقول ـ أن أقول إننا كنا نناضل من أجل مصر فقط ـ وهؤلاء الذين تشير إليهم فى سؤالك كانوا يتعاملون مع حقائق الحياة كمصريين .. وأذكر أن هنرى كورييل كان من أبرز دعاة تمصير الحركة الشيوعية المصرية .. ففى البداية لعب هذا الرجل دوره فى جذب الكثيرين للشيوعية ولاسيما أنه كان من أسرة ثرية ويمتلك مكتبة ضخمة فى ميدان مصطفى كامل .. وبعد ذلك بدأ يتراجع للخلف .. وبالنسبة للصراع العربى الإسرائيلى ـ فإن (حدتو) كانت تؤيد قرار التقسيم الذى صدر عام ١٩٤٧ ـ وأعتقد أن كل عربى عاقل كان يجب أن يوافق على ذلك لأن ما حدث فى عام ٤٨ كان بتخطيط بريطانى لإشعال المنطقة ـ ولو كان التقسيم قد تم قبوله لاختلف الوضع تماماً ، ولاتنس أن إسماعيل باشا صدقى رئيس وزراء مصر كان مع هذا القرار وعناصر من الوفد ـ أيضاً كان هناك اقتناع بأن ذلك الاتجاه يمكن أن يؤدى للسلام .. والسلام فى صالح الشعوب .. ولاتنس أن القرار صدر برضا القوتين العظميين وكان يمثل الخيار الأفضل ـ والحوار الآن حول قضية

التسوية والدولة الفلسطينية هل يعادل قرار التقسيم ؟ وأيضاً للأمانة .. ولأنها نقطة حساسة تنساب بنعومة فى سؤالك ـ فإنه مع اندلاع حرب ٤٨ بدأت تظهر الأفكار التوسعية التوراتية فى إسرائيل مما طور مفاهيمنا فى أننا نواجه دولة عدوانية ـ وتأكد ذلك فى حرب ٥٦ عندما كان الكثيرون من أعضاء هذه الحركات ضمن الفدائيين فى منطقة القناة .

ضرورات الحوار

* يقول البعض إن الرغبة الدفينة لدى الكثيرين من اليسار فى الحوار مع اليهود قد عادت مرة أخرى مع أحاديث السلام فى المنطقة وأن الخلافات حول هذه القضية هو امتداد لخلافات قديمة حول نفس الموضوع ؟

** أتصور أن كل إنسان عاقل يعمل بالسياسة يرى ضرورة الاتصال أو الحوار مع أية قوة إسرائيلية مؤمنة بحق الشعب الفلسطينى وبالسلام الشامل العادل من أجل الضغط على الحكومة الإسرائيلية ولايمكن القول بأن المجتمع الإسرائيلى كله أبيض ـ أو كله أسود .. تماماً مثل المجتمع المصرى الذى توجد فيه جماعات إسلامية مسلحة وفيه الحباك وفيه غيرهما .. وكذلك المجتمع الإسرائيلى .. ومن الخطأ إغلاق قنوات الحوار مع القوى الإسرائيلية التى تستطيع الضغط .. يمكن القول بأن الأسلوب فيه خطأ أو المنهج غير صحيح مثلما حدث بالنسبة لمجموعة كوبنهاجن .

* قد يبدو التناقض فى هذا التشبيه .. فأنت من دعاة الحوار ومن المؤمنين به .. ولم تفعل مجموعة كوبنهاجن سوى ذلك على ما أعتقد ؟ فما الفرق بينك وبينهم ؟

** لا .. أنا أتحدث عن حوار .. لكن ما قامت به هذه المجموعة هو تنظيم أطلقت عليه (تحالف كوبنهاجن) .. ولم أدع أنا للتحالف مع الموساد مثلما فعلت هذه المجموعة ومع حزب (جيبنشر) اليمينى !! .. أيضاً .. كيف يمكن اتخاذ مثل هذا الموقف بعيداً عن التنظيمات التى ينتمون إليها ؟ .. لذلك حدث ما حدث من تجاوزات .. وأنا أتحدث عن الحوار مع قوى السلام فى إسرائيل وليس فى إقامة تحالف تنظيمى مثلما فعل لطفى الخولى وأن يكون الحوار برضى من جميع الأطراف المشتغلة بالسياسة فى مصر فى إطار السلام ولاتنسَ أن أنصار السلام عانوا كثيراً من الهجوم على كوبنهاجن وظن الناس أن كل من يدعو للسلام مثل مجموعة كوبنهاجن . والفرق بينى وبينهم أننى لا أتحرك على أى طريق إلا مرتبطاً بالقوى السياسية المصرية الساعية للسلام .

* أنت وآخرون .. تكتبون كثيراً عن ضرورة تعاون قوى السلام العربية والإسرائيلية فى مقاومة الإرهاب وتدخلون فى هذا السباق الكثير من الجماعات فى الأراضى المحتلة .. فكيف تساوى بين جماعات أو أفراد يدافعون أو يسعون لحقوقهم التى اغتصبت .. و بين إرهاب دولة

أو أفراد قاموا باغتصاب واعتداء ؟

** من قال ذلك ؟

* أنت كتبت ذلك مرات عديدة تدعو الباحثين عن السلام فى الوطن العربى ـ وفى إسرائيل للتعاون ضد الإرهاب والتطرف فى المنطقة ؟

** بصراحة .. فإننى أرى أن حركات التطرف دائماً مريبة ولاتخدم اختيارات الشعب .. فإذا كانت حماس ـ مثلاً ـ وأنت تقصدها بهذه الأمثلة تناضل ضد المحتلين فإن هذا من حقها المشروع.. ولكن أن تقوم بمهاجمة الأبرياء فأنا لست مع ذلك ـ كنا نناضل ضد الإنجليز فى منطقة القناة ولم نكن نقتل النساء !! ومع هذا فإن سياسة نتانياهو هى التى فجرت كل شيء .. وأنا ضد نتانياهو وضد سياسته المتطرفة ولست ضد نضال الشعب الفلسطينى من أجل حقوقه ولن يكون هناك أمن حقيقى للجميع بدون سلام حقيقى .

* يقول البعض إن موقف أحمد حمروش وغيره من الإسلام السياسى الذى أصبح القوة الوحيدة على الساحة العربية بعد اختفاء اليسار وإزالته من الواقع يرجع للإحباط الذى يعيشه أكثر من أى شيء ؟

** ليس لدى قناعة بأن اليسار اختفى .. أمام الإسلام السياسى فهو قوة متطرفة إرهابية تستهدف السلطة !! وفى تقديرى أن معظم الأحزاب الموجودة على الساحة من الحزب الوطنى إلى حزب العمل هى أحزاب يسارية .. أما الجماعات التى تتخفى وراء الدين فإنها ستظل فى دائرة الاتهام والريبة .. من قال إن فى الإسلام قتلاً مثلما يحدث فى الجزائر ؟ والذين يأخذون على موقفى أقول لهم إننا لم نعرف الإرهاب إلا من خلال الإخوان المسلمين عندما قتلوا أحمد ماهر والنقراشى وحاولوا قتل عبدالناصر . هؤلاء ليسوا مسلمين ! وما هو موجود فى أفغانستان ليس قصيراً أو نموذجاً وكذلك الحال مايحدث فى السودان أو فى إيران ! الإسلام جاء لتغيير التقاليد البالية وليس لترسيخ التخلف وإلغاء العقل .. وبصراحة .. يعنى الإخوان المسلمون هم المسلمون.. وأنا إيه ؟ يعنى من يصف نفسه بـ (الإسلام) ويجعله لافتة سياسية له وحده ألا يحتكره عن الآخرين .

ومرة أخرى .. كفاية المصيبة التى حدثت فى الجزائر .. كفاية مصيبة واحدة .

* يبدو أن هذه (المصائب) طبقاً لوصفك تقع فى إطار مسئولية جيلك الذى هيمن على الحياة السياسية وفرض عليها رؤية شاملة .. ولم يتح للآخرين ليظهروا .. بل عاقبهم بقسوة أحياناً .. لذلك عندما أطاح قطار الزمن والتغيير المضاد .. ظهر الجرحى يثأرون من كل شيء؟

** لاشك أن غياب الديمقراطية عن حركات التحرر الوطنى كان مصدراً لأوجاع كثيرة تحت الجلد العربى .. ظهرت بعنف عندما ضعف هذا الجسم .. وهذا ينطبق على ثورة يوليو

التى عانت من نقص فى الديمقراطية بالطريقة التى كنت أتطلع لها .. للأسف .. عانت الجماهير مع ثورة يوليو ولكننا لم نستغل هذا .. وكلما تذكرت جنازة عبدالناصر أقول لو إنه عمل مشروعاته العظيمة من خلال التعدد الديمقراطى لاختلفت أوضاع عديدة .

* كتبت واحداً من أهم الكتب عن ثورة يوليو .. تحكى فيه تاريخ الثورة فى ثمانية أجزاء .. تكلمت فيه .. وتكلمت فى مواضع أخرى عن عبدالناصر الذى تعرفه .. ماذا عن عبدالناصر الذى تسمع عنه ؟

** عبدالناصر كان شخصية وطنية وكان متطلعاً للارتقاء بالشعب المصرى .. وكان إنساناً شديد البساطة وأيضاً الذكاء .. وقد نجح فى جمع معظم القوى حوله من الإخوان إلى الشيوعيين وكلهم ارتضوا قيادته .. ومثال لشخصيته أنه أمر بتشكيل اللجنة المصرية للتضامن فى أغسطس ١٩٥٧ ــ جاءت لتعبر عن أفكاره حيث شخصيات من مختلف الاتجاهات فكان هناك طه حسين ويوسف السباعى وإحسان عبدالقدوس والعقاد وخالد محيى الدين ومحمد حسنين هيكل وأحمد بهاء الدين وبرئاسة أنور السادات !! وهذا يعبر عن فكرته فى تجميع كافة الاتجاهات السياسية ! .. وتلك كانت ميزته أيضاً فإن عبدالناصر لم يكسر علاقته بأحد أبداً .. وقد لاحظت ذلك يوماً .. كان لديه قناعاته ولكنه لم يتنكر لعلاقاته التاريخية ودليل على ذلك أنه لم يخرج أحد من مجلس قيادة الثورة ولكن هناك من استقال لاختلافاته وهناك من اعتقل مثلى عام ١٩٥٣ ولكن ظلت العلاقة قائمة مع عبدالناصر .

* كيف ؟

** تم اعتقالى بتهمة انضمامى لمجموعة تعمل على قلب مجلس قيادة الثورة ولم تكن لى بهم صلة !! ولكن رغم ذلك التمست العذر لمن قام بهذه الإجراءات .. لأن عبدالناصر كان لديه قلق تجاه فكرة الانقلابات .. فمثلما وصل للسلطة بانقلاب خلال ساعات يمكن أن يفعل ذلك الآخرون !!.. ولكن هذا ليس تبريراً للاعتقالات ولكنه قراءة للواقع الذى يؤكد أيضاً أن الكثيرين اختلفوا وابتعدوا .. فعل ذلك يوسف صديق وخالد محيى الدين وآخرون وهكذا .. كانت اختيارات تؤدى لصدام فى مرحلة قلق وانتقال وسلطة لم تستقر بعد .

دراما محمد نجيب

* وتأتى فى هذا السياق دراما محمد نجيب ؟

** محمد نجيب كان على ارتباط بالإخوان المسلمين .. وماحدث فى أزمة مارس ١٩٥٤ كان صراعاً قوياً لايمكن تجاهله .. أو إلغاؤه .. والناس الذين خرجوا فى يوليو لم يكونوا كلهم أصحاب رؤية مشتركة فى كافة التفاصيل .. ومحمد نجيب كان شخصية شجاعة وقام بدور مهم فى نجاح الثورة عندما قبل أن يكون وجهاً للثورة ولكنه لم يكن منضماً لتنظيم الضباط

الأحرار .. وتم الاتفاق بينه وبين عبدالناصر على أن يظل فى بيته ليلة الثورة ليظل بعيداً ـ وكانت علاقته طيبة بالكثيرين ولكن لاتنسى اختلافات الأجيال فقد كان فى الخامسة والخمسين من عمره بينما كان عبدالناصر فى الرابعة والثلاثين .. فكانت هناك فروق حقيقية ولكن مهما كانت الأوضاع فإن عبدالناصر مسئول عن اعتقال محمد نجيب فى ضاحية المرج كل هذه السنوات بل إنه فى تقديرى مسئول عن الاعتقالات التى وقعت بصفة عامة ـ وأتذكر أننى قابلته بعد خروجى من المعتقل فسألنى : «عملت إيه» ؟ فأجبته : «مسكونى» فقال : «روح قابل زكريا علشان تعرف إيه اللى حصل» .. وفعلاً ذهبت لأكتشف أنهم كانوا يراقبون ضابطاً فى نفس العمارة التى أعيش فيها وكانت له مجموعة من أصدقاء السوء الذين يمارسون بعض السلوكيات المنحرفة أخلاقياً .. وأصابنى التقرير !! ولكن هذا لاينفى مسئولية عبدالناصر .

* عبدالناصر والصحافة والضباط .. كنت رئيساً للتحرير أكثر من مرة .. مرة عام ١٩٥٢ .. و أخرى عام ٦١ كرئيس تحرير لروزاليوسف .. وعلاقة عبدالناصر بالصحافة فى حاجة للتقييم، ويكفى مثالاً أن أحمد أبو الفتوح الذى أبلغ ضباط يوليو باحتمالات القبض عليهم .. كان من أوائل من اصطدمت بهم الثورة ؟

** عندما كلفت بإصدار مجلة التحرير ومعى عبدالرحمن الشرقاوى وحسن فؤاد وعبدالغنى أبو العينين وسعد لبيب وصلاح حافظ وغيرهم .. صدرت المجلة خلال أسبوعين وكسرت رقم الـ ١٠٠ ألف فى توزيعها وهذه حقيقة وليس دعاية بأثر رجعى .. وأتذكر أننى ذهبت بالنسخة الأولى لعبدالناصر الذى طلب عرضها على أعضاء مجلس قيادة الثورة .. وللأمانة والتاريخ .. كانت ملاحظات عبدالناصر أكثر تقدماً بمراحل من كافة زملائه وهذا لا ينفى أننى عزلت من المجلة بعد ثلاثة شهور بسبب المعارضة القوية ضدى داخل المجلس .. وقرأت خبر تولى الدكتور ثروت عكاشة للمسئولية فى جريدة المصرى !! ولكن للأمانة كان عبدالناصر لديه وعى شديد بأهمية الصحافة وأتذكر أننى عندما ذهبت لإدارة التعبئة وأصدرت مجلة (الهدف) ووصلت إليه فقد عبر عن سعادته بها .. وهو بعد ذلك الذى عيننى رئيساً لتحرير روزاليوسف وكنت قبلها مديراً «لمؤسسة المسرح وفنون الموسيقى» .. فوجئت بقراره .. وللأمانة لم أتلق توجيهاً منه أبداً بالكتابة فى موضوعات والابتعاد عن موضوعات أخرى بالعكس قمنا بحملات صحفية قوية مثل الحديث عن تزييف ميزانيات القطاع العام .. وتهريب الأراضى .. وكانت الحملة القوية عن جفاف آبار الوادى الجديد الذى أنفقوا عليه نحو أربعين مليون جنيه .. وقد تساءل عبدالناصر بحيرة شديدة : هل هذا الكلام صحيح ؟ فأرسل طائرة تضم ١٢ وزيراً و ٨ من أمانة الاتحاد الاشتراكى للتأكد مما نشرته روزاليوسف وكان يبحث عن الحقيقة .. وكانت له رؤية وهى أن الصحافة مادامت فى أيد وطنية فإنها عيون لكشف هذه الحقيقة .. أى مثل الرقابة الشعبية وهذه تجربة ذاتية .. ولكن هذا لاينفى وجود رقابة خاصة بعد ٦٧ والصدام الذى وقع لأحمد أبو الفتح يرجع فى تقديرى لارتباطاته بالوفد

والإجراءات التى اتخذت ضده وكذلك بسبب علاقات شقيقه محمود أبو الفتح ـ وهو صاحب الجريدة ـ وكانت عليها علامات استفهام بالإضافة إلى القلق الذى يصاحب تغيير نظام .. وهذا فى تقديرى يفسر ماحدث تجاه جريدة المصرى .. وتبقى أيضاً .. حقيقة لايمكن تجاهلها .. أنه لم تكن هناك حرية صحافة فى هذه الأيام .

* هل يرجع اختفاء هذه الحرية مثلما تقول إلى أنكم كنتم ضباطاً ؟

بما يعنيه ذلك من معاداة الحريات حيناً والتحسس من الثقافة والمشتغلين بها فى أحيان كثيرة ؟

** كلامك فيه الكثير من الحقيقة .. فالضابط يدفع ثمن عيوب المهنة التى تجعله أكثر انضباطاً .. والثقافة ليست واردة ضمن مكوناته الأساسية .. والحريات تتعارض مع الحزم العسكرى .. ولكن هناك بعض الضباط الذين لعبوا أدواراً مهمة فى المؤسسة الثقافية .. مثل الدكتور ثروت عكاشة أيام عبدالناصر ويوسف السباعى الذى جاء أيام الرئيس السادات وهو أيضاً اختيار يتناسب مع توجهات السادات ثم كان هناك الدكتور عبدالقادر حاتم الذى كان متحمساً للإعلام وعلى العكس من ذلك تجاه الثقافة .. وقد أثر ـ بصورة عامة ـ وجود الضباط العسكريين فى الحياه المدنية ـ بالإيجاب حيناً وبالسلب فى أحيان كثيرة .. ولاسيما أنهم حصلوا فى بعض الأحيان على مناصب كنوع من الثقة والرغبة فى وجودهم ولكن هناك أيضاً وللأمانة إنجازات تمت فى قطاعات وُجد فيها الضباط .. ولكن علينا فقط أن نتذكر أن التصميمات فى هذه القضية قد تكون ضارة لأن العسكريين لم يتولوا مناصب ـ خاصة فى الثقافة والإعلام ـ بكثافة أكثر تجعلنا نتوقف كثيراً لتأملها. والذى يذكر كمؤثر فعال هو الدكتور عكاشة وعلينا أيضاً أن نتذكر أن الضباط كانوا عماد الثورة وكلهم لم يكونوا من الضباط الأحرار .. وأقول لك شيئاً إن الذين لعبوا أدواراً واسعة فى الحياة العامة كانوا من خارج تنظيم الضباط الأحرار !! كانوا مجموعة (مريحة) يمكن ألا تسبب قلقاً باستقلالها بالرأى وكانت مخلصة فى عطائها .

(ثروت .. ضابط مثقف)

* حتى لانظل أسرى للذكريات .. وحتى نستطيع التقاط بعض الأفكار الأساسية التى قد تنير مساحة من الطريق ماذ يبقى من الأمس للأيام القادمة ؟؟

** ويرد ضابط يوليو .. والمثقف الذى تولى هيئة المسرح القومى ورئيس تحرير روزاليوسف عام ٦٧ .. وصاحب أهم موسوعة عن ثورة يوليو (٨ أجزاء) قائلاً : سيبقى الكثير من تاريخ نضال العرب يحملونه معهم للقرن الجديد .. وستبقى زعامات عديدة تركت بصمتها على وجه القرن العشرين وفى مقدمة هذه الزعامات صورة عبدالناصر .. وقد سألنى أحدهم

مؤخراً مع من تجلس هذه الأيام من الضباط الأحرار ؟ فقلت له أجلس أوقاتاً كثيرة مع عبدالناصر !! وهذا حقيقى، فكثيراً ما أفكر فى جمال عبدالناصر أكثر من الأحياء الذين لا أشعر بتأثيرهم .. لذلك أعتقد أن دوره وإنجازاته خالدة فى ضمير الوطن العربى .. تماماً مثلما نتحدث عن محمد على .. فلو لخصناه فى مذبحة المماليك نكون قد ظلمنا أنفسنا أكثر من ظلمنا له .. وبنفس المنطق أرى به عبدالناصر .. وفى تصورى أن أعظم ما كان فيه حرصه على أن يعمل لصالح العرب جميعاً ، ولصالح مصر خاصة ، وأكبر أخطائه أنه دخل مصيدة حرب ٦٧ . لقد كان ضد الحرب ، ولكن الخطة نجحت فى اصطياده .

* هل يمكن اعتبار الهزيمة أنها كانت نهاية لمشروعه ولنظامه بالشكل الكامل ؟

** هذا ما حدث بالتأكيد . ولكن بقدر قسوة سؤالك لماذا لانتساءل عن سر تمسك الشعب المصرى ؟ .. ولماذا لم نتوقف أمام اندلاع إرادة الأمة العربية للاحتفاظ به ؟ .. أتصور أن خبرة الشعوب هى المعيار .. الشعوب ليست نائمة فى أوهام ، خبرة الشعب العربى كانت تحتفظ بصورته كرجل وطنى وحريص على الوطن ومصالحه . ثم لنتوقف أمام جنازته الدرامية الهائلة والتى كانت تعبيراً عن إدراك الشعب العربى لما قدمه ، ويكفى جهده لاستعادة الثقة بالذات وبناء القوات المسلحة من خلال تجربة الدم فى حرب الاستنزاف التى كبدت إسرائيل خسائر كبيرة .. والإعداد لعبور قناة السويس . وفى نفس الوقت كان يكشف عن استعداده للسلام من خلال قبوله لمبادرة روجرز .. كان الفرق بين الهزيمة والموت هو إحساس الشعب بأن هذا الرجل هو القائد .. لم يفعل شيئاً ضد الناس فحافظ عليه الناس فى لحظة الانكسار وفى لحظة الرحيل .

* يرى البعض أن قبول عبدالناصر لمبادرة روجرز كان مؤشراً لأمور كثيرة .. وأن هناك أسراراً عديدة لم تكشف بعد حول الاتصالات العربية ــ اليهودية لإيجاد طريق نحو السلام .. فما مدى صحة ذلك ؟ .

** قبول عبدالناصر لمبادرة روجرز تعبر عن رغبة حقيقية فى السلام بالرغم من أنه كان يثق فى أن إسرائيل سترفض هذا الاتجاه .. ولاتوجد أسرار حتى اليوم فى هذه القضية . ولكن أتذكر أننى أثناء زيارة لفرنسا التقيت ببعض اليهود المصريين هناك وفهمت منهم أن هناك فى المجتمع الإسرائيلى فريقاً من الناس يؤيد السلام وأنه من الأفضل الاتصال بهم من أجل تحريك الأمور داخل إسرائيل .. فعدت وكتبت مذكرة لعبد الناصر بذلك فوافق على الاتصال بهذه العناصر وذلك عام ٦٨ ، ثم تطورت الأمور عندما أبلغنى الصحفى الفرنسى أريك رولو ــ والذى عمل سفيراً فيما بعد لبلاده فى تونس ــ أن ناحوم جولدمان رئيس المجلس اليهودى الأعلى يرغب فى مقابلتى .. فالتقيته فعلاً فى فرنسا بمبادرة خاصة وأبلغنى أن لديه دعوة من جمال عبدالناصر ــ عن طريق تيتو ــ لزيارة مصر ومطلوب تذكيره بها ،

فقلت له لا بأس سأقوم بذلك وسافر ناحوم جولدمان إلى إسرائيل وقال لجولدا مائير أنه سيسافر إلى مصر بدعوة فرفضت الموافقة على ذلك . وقرأت ذلك فى صحف الصباح أثناء عودتى من باريس للقاهرة بعد لقائه بناحوم جولدمان ، فعدت مسرعاً ولم أذهب لبيتى ولكنى اتجهت إلى مكتب سامى شرف حيث تركت مذكرة بما حدث خاصة أننى لم أكن أبلغت عبدالناصر !! .

فى نفس الوقت كانت الصحف العربية تتناول القضية الداخلية فى إسرائيل ورغبة فريق من الشعب هناك فى السلام .. حيث كانت حرب الاستنزاف مشتعلة ، وتكبد الإسرائيليون خسائر فادحة يومياً – بعد أيام فوجئت بتأشيرة عبدالناصر على المذكرة بضرورة سفرى إلى باريس لعقد صداقة شخصية مع جولدمان وبالفعل تحركت فى هذا الاتجاه وكان الهدف هو الوصول للسلام الشامل فى المنطقة القائم على العدل، أيضاً فإنه كان يستخدم هذه الصلات للضغط على الحكومة الإسرائيلية .. أيضاً للأمانة فقد كانت هناك بعض الصلات مع اليهود أيام ثروت عكاشة وعبدالرحمن صادق ويوسف حلمى فى باريس وكان موسى شاريت يعمل على أن يكون هناك سلام ودعا إلى عودة ١٠٠ ألف لاجئ فلسطينى .. وكان صقور إسرائيل ضد ذلك . المهم أن عبدالناصر كان يعلم بذلك وقد أشار فى خطابه فى عيد العمال عام ١٩٧٠ إلى أن هناك عناصر سلام داخل إسرائيل ، وهذا يعنى أننا فى مصر كنا على وعى ورغبة فى السلام العادل منذ سنوات طويلة .

(المطبخ السياسى)

*** هل يعنى ذلك أن عملية السلام التى أطلقها الرئيس السادات ليست غريبة على المطبخ السياسى وأنها ليست نغمة نشاز فى النشيد الرسمى ؟ وأن السادات لم يكن نقيضاً لعبد الناصر فى السعى نحو السلام ؟ .**

**** طبعاً .. وكل الخطأ الذى ارتكبه السادات هو أنه جعل عملية السلام (عملية مصرية فقط)** ولو أنه أصر على جعلها عربية وشاملة لانتهى الموضوع . ودليلى على ذلك أنه منذ اتفاقية السلام المصرية – الإسرائيلية عام ٧٩ وحتى الآن لم يحدث سلام !! ، من ناحية أخرى فإن السادات كان نقيضاً لعبد الناصر فى السعى لهذا الهدف ، فالأخير كان يستخدم عاملين هما القوة والضغط السياسى ، بينما الأول لم يحسن استثمار نتائج القوة أى نتائج حرب ٧٣.

* أعرف أن هناك أسماء عديدة تركت بصمات على صفحة ذاكرتك .. ماهى أبرز هذه الأسماء التى تدلنا على ملامح النصف الأخير من القرن العشرين أو على الأقل تنقل لنا بعض سماته ؟.

** ربطتنى علاقات وطيدة بأسماء عديدة مثل أرنستو جيفارا .. الذى التقيت به ولفت نظرى قدرته على المواءمة الشخصية مع كافة المجتمعات التى يحضرها .. فقد شاهدته فى اللقاء كرجل دولة ، ثم جمعنا منزل محمد حسنين هيكل فكان سياسياً ومثقفاً من طراز رفيع ، وفى منزل إحسان عبدالقدوس كان هناك فنانون وفنانات وكان على مستوى اللقاء .. وعندما التقينا فى منزل عبدالحميد حمروش كانت جلسة حميمة حضرها فتحى غانم وآخرون .. جلسنا ليلتها على أرض الغرفة وتحدث هو بتداع إنسانى عن طفولته وبداية علاقته مع كاسترو .. وكيف سافر وهو الطبيب الأرجنتينى المريض بالربو إلى جبال كوبا ليبدأ تجربته اللافتة للنظر .

أيضاً ربطتنى معرفة خاصة بالرئيس السادات .. أتذكر بداياتها عندما كنت أُصدر مجلة التحرير ، وفوجئت بمجيئه إلى دار الهلال مع جمال الليثى وجلسنا وأمسك بأحد الأعداد ونظر إلىّ قائلاً : «المجلة بيقولوا عليها حمرا يا أحمد» .. فضحكت وقلت له : «أبداً دى حتى لونها أزرق» .. وكان الغلاف عبارة عن فلاحين وتحتهم عنوان عن تحديد الملكية .. فعاد وسأل ولكن هناك حمامة فى أعلى الصفحة فضحكت وقلت له (ده حمام زغلول) فضحك من قلبه .. وعملت معه فى جريدة الجمهورية وربطتنا صداقة طيبة .

أيضاً ظلت هناك شخصيات ثقافية قريبة لقلبى مثل الدكتور حسين فوزى والأستاذ يحيى حقى والفنان حسن فؤاد وعبدالرحمن الشرقاوى وصلاح حافظ رحمهم الله وكذلك عبدالغنى أبو العينين .. لقد ارتبطت بهم فى حياتى الثقافية وكانت كل شخصية منهم تحمل لنفسى مشاعر خاصة .. ومن الضباط يحتل خالد محيى الدين الذى كان أبرز مايميزه الوداعة والوطنية مكانة خاصة فى قلبى ، وكان هناك المرحوم يوسف صديق وكان فناناً وشاعراً .. هذا الضابط الذى لعب أبرز الأدوار ليلة الثورة حتى أنه لو لم يقم بدور بمبادرته فى اقتحام قيادة الجيش لضاعت الثورة ، وكانت أكثر مواقفه السياسية تطرفاً محكومة دائماً برؤية الفنان .. طبعاً لم أذكر عبدالناصر لأنه لم يكن حياً معى فى الماضى .. بل مازال عبدالناصر معى حتى الآن .

* المرة الثانية تتحدث بمسحة حب لعبد الناصر ، لا أعرف كيف أنقلها أو أرسمها وأنا أصنع أسئلة ولكن ألخصها فى تعبير وحيد هو أنك تغازل صورة عبدالناصر وكأنها تتحرك أمامك فى ملعب الكروكيه بنادى الجزيرة الذى تجلس بجواره ويبدو غارقاً فى بركة مياه رقيقة .. ولكنى أعرف أنك كنت صديقاً للمرحوم شُهدى عطية . صديقاً له فى تنظيم سرى (حدتو) من قبل الثورة .. كيف لم تهتز صورة (الزعيم) بعد موت الصديق فى السجن ؟ .

** يضحك أحمد حمروش وهو ينظر لبعيد وهو يردد : تشبيهاتك غريبة .. ثم يرد : بالفعل

كان شُهدى عطية صديقى . وأتذكر أنه كان أول مفتش للغة الإنجليزية فى مصر ، وأتذكر أننى أُصبت بوجع حقيقى عندما تم القبض عليه . وقد حدثت الاعتقالات للكثيرين من اليساريين عام ٥٩ وكنت وقتها مسئولاً عن المسرح القومى فحدثت لى حالة إحباط غريبة .. وكان التساؤل داخلى : كيف أمارس عملى الثقافى الطليعى ، ورفاقى الذين أؤمن بوطنيتهم وإخلاصهم لمصر داخل المعتقلات ؟ لكن أعمل إيه ؟ أستقيل ؟ .. ممكن أُعتقل أنا كمان .. أو ماذا كانت الفائدة التى ستتحقق لو تركت موقعى ؟ .. أعمل إيه .. والله لا أخفى عليك .. وفى هذه الأوقات كنت لا أشعر بأى حرص على أن تكون صالة المسرح القومى مليئة بالكامل مثلما كنت أحلم باستمرار ، لأنى كنت أعانى إحباطاً عميقاً ، ومازلت أتذكر نعمان عاشور بعد أن تم فصله أننى أخذته بين أحضانى وأنا أبكى فى مكتبى (عند هذه النقطة .. سبحت دموع رقيقة بين مآقى أحمد حمروش وتوقف الكلام .. وسبح فى هواء المكان إحساس عميق بالأسى ، وبرزت الصورة الرقيقة للكاتب المسرحى الراحل نعمان عاشور .. وشعرت أنا شخصياً بالأسى حيناً ، وبالقلق أحياناً أخرى وكيف أن أدق ما أبحث عنه فى هذا الحوار قد انبثق فجأة وأن هذا الجيل كله يحتاج أن نراه وليس أن نتوقف فقط عند حكايات تاريخه) ..

وعاد للحوار صوته: ولكن لم يكن هناك مفر من أن يكبت الإنسان عواطفه ، ومع اقتناعى بأن هذا الموقف الذى أُتخذ من صفوة المثقفين كان خطأ ، لكن كان هناك مايقول لى : تمهل .. ولاتدمر كل شىء فى لحظة غضب .. والحقيقة أن هذه المجموعة من المثقفين كانوا أعلام استنارة للمجتمع ولم يكن بينهم عدو للثورة . ولقد كلفنى الرئيس عبدالناصر بنفسه عندما كنت عضواً فى طليعة الاشتراكيين بضم التنظيمات الشيوعية إلى الاتحاد الاشتراكى عام ٦٤ .. لذلك الدهشة كانت صاعقة بالقبض على الكثيرين من أبناء اليسار بدون ذنب .

*** ماتفسيرك لذلك ؟ .. وهل شعرت بنفس هذا الشجن على ماحدث للإخوان المسلمين ؟**

**** كان خطأ بسبب الحسابات الخاطئة ضد نظام عبدالكريم قاسم أو تجاهه من الطرفين .. فبعض العناصر الشيوعية فى مصر تخيلت أن وصول عبدالكريم قاسم السلطة فى بغداد هو تغيير كبير له ما بعده فى المنطقة .. والنظام فى مصر اعتبر أن وصول عبدالكريم قاسم ضرب للقوميين ، لذلك دفع الكثيرون ثمناً باهظاً بسبب التأثيرات الخارجية . أما سؤالك عن الإخوان فأنا كنت ضد مظاهر التعذيب الذى تعرضوا له .**

* مازلت أتساءل عن موقفكم مما حدث لهم .. لأننى أعتقد أن التفرقة فى المبدأ سر البلاء وأن كل فريق ينظر لما حدث له .. لذلك تجاهل الكثيرون من أبناء اليسار ماحدث للإخوان .. وكان ماحدث ـ كما يرى بعض الباحثين ـ هو بداية ظهور تيار العنف فيما بعد ؟ .

** أكرر لك بأننى لم أؤيد أبداً القسوة مع الإخوان المسلمين ، لكن لا تصدق أن العنف

وافد على الإخوان المسلمين ، لقد كان لديهم جهاز سرى مبكراً .. وكان حسن البنا يتحدث عن الإصلاح مستنداً لآيات القرآن وفى نفس الوقت كان يدبر عمليات الاغتيال .. وكان سيد قطب هو أبرز مُنظِّر للإرهاب تحت عباءة الدين . وأحب أن ألفت نظر من يتجاهلون حقائق التاريخ أن الإخوان كانوا أقرب جماعة للثورة حتى أنه تم إلغاء كافة الأحزاب وبقيت جماعتهم . ولكن هؤلاء كانت عيونهم على السلطة ونظروا للثورة على أنها خطوة أو مرحلة يمكن ابتلاعها ، والعكس من ذلك كان موقف اليساريين الذين أيدوا الثورة من أول ليلة .. بعد ذلك حدث تغير فى المواقف لأن اليسار لم يقبل الحكم الأوتوقراطى وكانوا يطالبون بحرية فى الحياة السياسية والعامة ولم يخرج من اليساريين طلقات رصاص بل كلمات .

نادى الطبقة المتوسطة

* ما هو فى تقييمك أخطر ما سنحمله معنا ونحن نطرق أبواب زمن جديد ؟ .

** أخطر ماسيدخل به مجتمعنا القرن الجديد هو ذلك التغير الواسع النطاق الذى حدث بسبب قوانين الانفتاح التى كانت تستهدف إحداث تغيير واسع اقتصادى واجتماعى على أسس علمية وأخلاقية ، ولكن ما حدث منذ السبعينيات أهدر كافة القيم والأسس التى صاغتها ثورة يوليو خلال الخمسينيات والستينيات .. لأن ما حدث جعل وكأن الأساس فى الحركة هو إهدار القيم وذلك الخطأ الكبير الذى تم .. ومايحدث فى التسعينيات من تغيير قيمى فادح يعود للسبعينيات .. يكفى أن قيم الرأسمالية نفسها لانستطيع أو لم نستهدف الأخذ بها .. هناك فى الدول التى نُعجب بها فإن الضرائب قيمة تمس الشرف ولاتسقط بالتقادم .. الرقابة الشعبية هناك بواسطة الإعلام والرأى العام .. ونسق القيم السائد هناك جهاد المناعة ضد سقوط المجتمع مصاباً بفيروس الفساد .. بالنسبة لنا فالمسألة صعبة ، فظاهرة ممدوح الليثى أو ظاهرة العباك هى تعبير عن فساد مستتر يحتاج لضوء قوى لكشف مايختفى منه .. إن أخطر مايمكن أن نحمله معنا القرن الجديد هو الاعتقاد العام بأن هذه النماذج هى الجديرة بالاحتذاء كمعنى وتعبير عن النجاح!! أيضاً أرجو أن يصلك ما أقصده عندما أقول أن السؤال هو : هل الفساد قاعدة أم استثناء ؟ القابض على نفسه اليوم مثل القابض على جمر !! .

* البعض يعتقد أن ماتشير إليه هو الآثار الجانبية للحرية ؟ .

** بالتأكيد هناك ثمن لاقتصاديات السوق ، ولكن الاعتراض على فداحة الثمن .. الاعتراض على إهدار الثوابت الأخلاقية أو القيمية .. الاعتراض على إعلاء قيمة الثراء مهما كان مصدره .. الاعتراض على أن يصبح الوطن سوقاً للكسب السريع ، الاعتراض على أن رحلة المواطن على هذه الأرض أسيرة معيار وحد وهى القفز فوق أعناق الحقيقة أو الإنجاز

الذى اشتقد منه الأجيال القادمة .. نحن فى مرحلة انتقال مليئة بالمتاعب ، ولكن لابد من التوقف من أجل إيقاظ القانون والضمير العام !! .

* لو أخذنا نادى الجزيرة ـ كقطاع عشوائى ـ أنت تعاصره منذ عام ١٩٥٥ وحتى اليوم ، ماذا حدث داخل هذا النادى ؟ .. من كانوا الأعضاء بالأمس الأول ؟ .. ومن كانوا بالأمس القريب ومن هم اليوم ؟ .

** نادى الجزيرة بالفعل يمكن أن ننظر إليه من خلال منطق هذا السؤال .. ففى مرحلته الأولى بعد الثورة دخله المصريون ووصلوا لمجالس إدارته ، وتم الحفاظ على القيم الرياضية والاجتماعية لفترة طويلة .. وظل الالتحاق بالنادى متاحاً للجميع طبقاً لقواعد العضوية التى كان أبرزها إعادة النظر فى المسألة مرة أخرى أمام مجلس الإدارة .. لكن ماحدث أن أى شخص يستطيع دخول نادى الجزيرة مادام يمتلك المال، بالأمس كانت هناك معايير ، اليوم المال هو المعيار الرئيسى ، ووصل الأمر إلى أن المحسوبية باتت أمراً طبيعياً يسمح بدخول أعضاء بدون دفع الاشتراك أساساً !! .. ثم أضيف لك شيئاً تبحث عنه فى حواراتك وهو الديمقراطية .. ففى الجزء الأول من الحوار اعترفت لك بأنه ليس من تقاليد الضباط الديمقراطية ، ولكن أقول لك اليوم .. وماذا تُسمى موقف طبيب كبير ورئيس مجلس إدارة ناد رياضى اجتماعى عريق يرفض الأخذ بالرأى وينفرد برأيه هو فقط؟.. مسألة محيرة أليست كذلك ؟ .. العيب ليس فى الضباط وحدهم أليس كذلك ؟ .. الانفراد بالسلطة فى النادى نموذج مصغر يمكنك دراسته على مهل .. وبالمناسبة نادى الجزيرة ليس نادى الأغنياء الذين يعملون أنديتهم الجديدة الآن .. بل هو نادى المثقفين وصفوة الكفاءات ورجال الأعمال والأكاديميين .. أى الذين يقودون حركة المجتمع ، حتى أعضاء مجلس قيادة الثورة كانوا ومازالوا أعضاء فى النادى على أساس أنهم أبناء الطبقة الوسطى التى تعانى فى النادى اليوم !! .

* نادى الجزيرة جزء من المجتمع المصرى ، الذى هو جزء من المجتمع العربى .. وأنت ربطت مابين الضابط الذى يتحسس من الديمقراطية والطبيب الكبير الذى ينفرد بسلطة .. هل تعتقد أن الانفراد بالسلطة تراث عندنا ؟ .

** دعنى أعترف بأنه منذ ٢٣ يوليو والقرار الفردى هو الأعلى صوتاً فى جميع المراحل حتى وصلنا للتعددية الحزبية ولكنها ـ أى التعددية ـ لم ترسخ قواعد الديمقراطية . فالدور الحزبى مازال غائباً عن المجتمع .. وبدون أحزاب قوية لن يتم تداول للسلطة وستظل اللعبة السياسية محدودة . ولكن لابد من الاعتراف بأن الإحساس بالانفراد بالسلطة فى المجتمع العربى يتراجع وفى مصر خاصة بحكم هذه التعددية وبسبب مناخ الديمقراطية العالمى الذى يدق كافة الأبواب .

* بالرغم من تقديرك لأهمية الحزبية فى المجتمع من أجل صحة حركته السياسية فأنت لست عضواً فى أى من الأحزاب ، فهل لذلك علاقة بتجربة اعتقالك فى الخمسينيات ؟ وإذا كنت تأمل فى تداول السلطة فى المجتمع العربى اليوم ، فكيف كان يتم الانتخاب للنخبة أو للسلطة أو للمسئولية بالأمس ؟ .

** هذا صحيح .. وإن كان ذلك يرجع لرئاستى للجنة المصرية للتضامن التى حرصت على أن تكون أقرب للجبهة التى تضم الجميع بدون التعبير عن اتجاه حزبى ما ، أيضاً فقد ذكرتنى باعتقالى عام ٥٢ .. فقد كان هذا الحدث للأمانة سبباً فى انتزاع نفسى من أى عمل تنظيمى ، وأحسست أننى بهذه الصورة أكثر فائدة للمجتمع . وكثيراً ما أتذكر الحوار بينى وبين زكريا محيى الدين بعد اعتقالى فى ٥٣ عندما قال لى : «والله يا أحمد إحنا كنا بنفكر نفرج عنك ، بس إحنا منتظرين شوية !» .. فضحكت وتساءلت «ليه» فأجاب : «يمكن هو يجيب اسمك أو سيرتك !!» .. لم أنس هذه الكلمات ، ولم أنس أيضاً أن الشلة المحيطة بالشخص المرموق أو المسئول ظلت لفترة طويلة هى القاعدة التى يتم من خلالها الاختيار للحكم أو للمسئوليات القيادية . وفى ظل الحكم الفردى لايصبح لشخص مستقل الرؤية مكان.. هذه حقيقة ، فأنت تُقرب من يدغدغ أفكارك ، والولاء يصبح أهم من النبوغ . وبالمناسبة أحب فقط أن أقول إن هذه المعانى العامة تنطبق على الحكم الفردى فى كل مكان وزمان ، ولكن للأمانة أيضاً فقد كانت لعبد الناصر خاصية التواصل مع الناس متجاوزاً أموراً وأشكالاً عديدة .. أنا شخصياً عندما تم اختيارى لمسئولية المسرح القومى فوجئ بذلك عبدالناصر وقال للمرحوم فتحى رضوان (مش كنت تقول لى) .. ولم يعترض وكان هو والسيدة حرمه من رواد المسرح القومى الدائمين ، ومازلت أتذكر أنه بمجرد اتصال يحيى حقى بى يبلغنى باختيارى ، أننى ذهبت للمرحوم يوسف وهبى مع عبدالمنعم الصاوى وكان من أجمل اللقاءات حياتى وكان هذا العرض منى لأنه كان رئيس الفرقة المصرية للتمثيل والموسيقى و التى رُشحت لتولى مسئوليتها وأصبحت (المسرح القومى) .

(هذه القسوة)

* ينتاب البعض الدهشة عندما يستعيدون أخبار قسوة نظام يوليو تجاه المثقفين حتى أن ناقداً مثل رجاء النقاش كتب مؤخراً باحثاً عن تفسير ؟ .

** لم يكن لثورة يوليو موقف ضد المثقفين ، بل كان لها موقف سياسى مع الآخرين ، فهذه الثورة هى التى قدمت نعمان عاشور وازدهر تحت خيمتها يوسف إدريس وسعد الدين وهبه وألفريد فرج وميخائيل رومان وغيرهم .. وثورة يوليو هى التى فتحت النوافذ أمامهم ..

أما الإجراءات التى حدثت ضدهم أو الصدام معهم فكان صداماً سياسياً اتخذ أشكالاً عنيفة غير مبررة ، ولكنه ليس ضد الثقافة . وبصراحة الاهتمام بالثقافة لم يبدأ بصورته الحقيقية إلا مع ثورة يوليو ، وأكرر أن القسوة فى الإجراءات كانت تستهدف كافة العاملين بالسياسة وليس المثقفين ، ولم يعاقب المثقفون بسبب إبداع ما ولكن بسبب موقف سياسى ما .. ولأنه كان سلوكاً خاطئاً ولم يكن صداماً فكرياً بين الثورة وهؤلاء ، فإنه بعد خروجهم من السجن اندمجوا فى الحياة وفى مواقع قيادية عديدة ولم يكن ذلك خيانة فكرية ، لأنه لم يكن هناك صدام على المبادئ .

* أتصور أنك لم تهرب من هذه الرؤية التى تؤيد الفردية .. ففى عام ١٩٨٩ وكان التغيير قد ضرب العالم وبدأت رياحه تكتسح الكثير من الحدود ، كتبت أنت عن صدام حسين تصفه بأنه بطل قومى يجسد آمال العرب .. أليس كذلك ؟ .. وهل مازلت تعتقد أن هناك شعارات «قومية» يمكن أن تلهب الخيال بعد كل ما حدث ؟ .

** شوف .. صدام حسين قبل العدوان على الكويت غير صدام الذى كشفه العدوان .. «معلهش» صدام قبل الاعتداء السافر كان زعيماً وطنياً فى بلاده ويعلن عن تمسكه بشعارات كبيرة ويعبر عن نيات تصب فى مجرى القومية العربية .. لذلك وقتها وصفت صدام بأوصاف البطولة . وبالمناسبة لم أكن نغمة نشاز فى ذلك .. كنا جميعاً نعتقد ـ أو الأغلبية ـ أنه بالفعل يمثل شيئاً ما .. ولكن منذ أن أخطأ أو ارتكب جريمته فى ٢ أغسطس ١٩٩٠ تبين فعلاً أنه مسئول عن كافة أخطاء الأمة العربية .. و لكن هذا لاينفى أننى كنت ومازلت أؤمن بأن هناك تياراً للقومية العربية وسيبقى معبراً عن وجود أمة عربية واحدة .

* بعض الكتّاب اليوم يصف هذه المعانى بأنها «أساطير» وأن هناك شرق أوسط جديد .. وأنكم تحت شعارات القومية أضفيتم البطولة على الطغاة على حساب الناس ؟ .

**** الأساس هو القومية العربية ، والأساطير هى تلك الرؤية التى تعتقد أن الشرق أوسطية هوية.. لايمكن القفز على الأرض والتاريخ والماضى والمستقبل المشترك والمصلحة الواحدة .. كيف يمكن إلغاء اللغة أو الدين أو التراث .. نحن متميزون بقومية فريدة لايمكن أن تندثر مهما كانت الظروف الضاغطة .. صحيح أن الحلم قد ضُرب .. لكن لايمكن إلغاؤه .. ولايمكن أن تُذكرنى بخطأ رؤيتنا لصدام حسين كتعبير عن فشل القومية أو عدم مستقبليتها !! .. هذه مبالغة وقسوة لا مبرر لها .. صدام حسين عضو فى مجلس التعاون العربى .. ارتكب جريمته فأصبح أعضاء نفس المجلس أعضاء فى التحالف العسكرى ضده .. إنها أخطاء سياسية لايمكن أن تُحاسب عليها المشروع القومى .. وفى كلامك الكثير من الصحة بالفعل حول مسألة التجاوز عن حقوق الفرد لحساب الحماس للمشروع القومى ، وتجاهل متطلبات الديمقراطية**

مثلاً .. لكن بعدما حدث ، فإننا نقول إن حقوق الإنسان والحريات الديمقراطية هى أهم ضرورات الإنسان مهما كانت الأعلام المرفوعة .

* أنت رئيس اللجنة المصرية للتضامن ، وقد ظلت العديد من هذه المنظمات واللجان محاطة لزمن طويل بشبهات الرعاية السوفيتية لاستخدامها فى الحرب الباردة مما جعلها موضع شك لدى الكثيرين فى الوطن العربى .. ومما أثر فى تقديرى بالسلب فى نمو الجمعيات أو المنظمات الأهلية فى الأقطار العربية .. ما مدى صحة ذلك ؟ .

** فى هذا الكلام الكثير من الصحة ، ولكن للتاريخ أقول إن اللجنة المصرية للتضامن أسسها عبدالناصر عام ١٩٥٨ وسنحتفل هذا العام بعيدها الأربعين وستتم دعوة الكثير من زعماء بلدان العالم الثالث من آسيا وأفريقيا . وهذه اللجنة هى التى عقدت أول مؤتمر لتضامن الشعوب الأفرو آسيوية . وفى هذه المرحلة كانت العلاقات المصرية السوفيتية قد شهدت تطوراً ملموساً ، وكانت مصر حريصة على الاستفادة من علاقتها بالسوفيت ، فحدث نوع من الاتفاق الضمنى على أن يلعب السوفيت دوراً ما ، وكان فى هذا الوقت يوسف السباعى هو سكرتير اللجنة المصرية وسكرتير منظمة التضامن وهيمن الاتحاد السوفيتى على المنظمة وليس على اللجنة .. وظل هذا الوضع حتى مجيء عبدالرحمن الشرقاوى ، عندما قررنا أن نتخذ موقفاً مضاداً أو على الأقل محايداً نحو السوفيت ، وكان الاختبار الأول هو مؤتمر لهيئة رئاسة المنظمة العالمية للتضامن فى بنغازى .. وأرسل السوفيت طائرة تضم كافة لجان التضامن فى آسيا واجتمعنا جميعاً فى لارنكا ، وبعد أن ركبنا الطائرة متوجهين إلى بنغازى فوجئنا بالطيار ينادى على بعض الأسماء للنزول .. وعرفنا أنها أسماء فلسطينية وأن القذافى قد طلب استبعادها ، فما كان منا إلا أن نزلنا جميعاً بالإضافة إلى رئيس البرلمان القبرصى ، وصممنا على مساندة الوفد الفلسطينى ولم يُعقد المؤتمر وكان ذلك أول صدام عام ٧٤ . وقد ظلت اللجنة المصرية مستقلة وميزانيتها من وزارة الخارجية المصرية ولاتقبل أى دعم من أى دولة أو هيئة .

* بمناسبة الرجال أعرف أن هناك علاقة خاصة تربطك مع «أبو عمار» .. وفى أرشيفك الشخصى شاهدت العديد من الصور وأنت تحتضنه وخلفك صورة المسجد الأقصى .. لماذا ؟ وهل استمرت صورة اللقاء الأول بينكما لم تتغير ؟ .

** أنا أحب «أبو عمار» لأنه يتحمل مسئولية شعب يعيش فى أصعب ظروف يمكن أن يتعرض لها بشر .. وطوال سنوات طويلة ظل يسعى للتعامل مع كافة المتناقضات والأنظمة المتعارضة فى زمن الحرب الباردة .. وظل زعيماً لشعب داخله عديد من الفصائل المتناقضة .. لهذه الأسباب أحترمه منذ لحظة اللقاء الأول فى منزلى عندما حضر هو وأبو جهاد وأبو إياد

عام ١٩٦٧ لزيارتى .. أما تساؤلك حول استمرار صورة العلاقة حتى اليوم ولاسيما بعد اختيارات أبو عمار الجديدة .. فأقول لك أن اختيار السلام شىء والعقبات التى يضعها المتطرفون الإسرائيليون وعلى رأسهم نتانياهو شىء آخر .. ويمكن بعدما تُعلن دولة فلسطين نستطيع أن نختلف معه بصورة أقوى .

(بدون علامات استفهام .. الكروكيه .. والدموع .. وأشياء أخرى)

«عام ٦٣ اشتريت شقة فى الإسكندرية تطل على نادى سبورتنج وبالتحديد على ملعب الكروكيه .. أخذت أشاهد الناس وهم يلعبونها .. فما كان منى إلا أن ذهبت أنا وزوجتى لمشاهدتها وكانت بداية مازالت مستمرة حتى اليوم ، وأتذكر أنه لم تكن تُمارس سوى فى ثلاثة نواد . اليوم أكثر من عشرين نادياً .. وأبرز لاعبيها عبداللطيف البغدادى ، واليوم معنا فى النادى عدد كبير ولكن من الملتزمين نسبياً الدكتور عاطف عبيد .. وهى لعبة غير مكلفة مثل لعبات أثرياء اليوم . فهى كانت تكلف فى الماضى (٢٥ قرشاً) ، اليوم حوالى جنيه للساعة .. وليست لعبة أرستقراطية بل لعبة يمكن أن تكون شعبية ، فهناك فريق فى مصنع سكر الحوامدية من أفضل الفرق .

«زوجتى كانت بطلة مصر فى الكروكيه ، ربطنى بها الحب عندما شاهدتها لأول مرة ومابين الرؤية والزواج ٦ شهور ، وهذا ماحدث يوم ٥ فبراير ١٩٤٤ ، والحب مثل كل معطيات الحياة يتطور ، ففى مرحلة الشباب له شكل ومعان مختلفة تتغير مع حركة الزمن حتى يصل مع الزمن إلى الترابط والشعور بالأمان .

«عندما دخلت السجن عام ٧٥ ، كانت تحضر لزيارتى ومعها الطعام وفى يدها علاء ابنى رحمه الله .. (للمرة الثانية تطفو الدموع تعبر بين رموش أحمد حمروش) .. مع فقد ابنى علاء أحسست أننى فقدت سندى فى الحياة ، وإذا بى أنا المسئول عن أولاده . كان من أكثر أولادى ارتباطاً فكرياً بى، وأتذكر أننى فوجئت به كرئيس اتحاد طلاب الجمهورية عام ٦٧ ـ ٦٨ ، واشترك فى مظاهرات الطلاب أيامها .. وكان طالباً بكلية الآداب . عام ٧٢ تم تجنيده بالجيش وحضر حرب ٧٣ وقد ظللت طوال عمرى أشاهده يتحرك للأمام بدون أن أكون «واسطة» له فى شىء . وعندما توفى فجأة ، كان قد أصبح رئيساً لقسم الفلسفة بكلية آداب بنها ، ورئيساً لمركز ثقافة الطفل .. وفوجئت شخصياً بأنه ترك هذه البصمات خلفه وأن وعيه السياسى كان يدفعه لخدمة المجتمع الذى يعيش فيه .. وجاء نعى السيدة سوزان مبارك له ليكشف أن المجتمع المصرى لايتجاهل هؤلاء الذين يعبرون عن أحلامه .

«لدى ابنتان ، إحداهما زوجة لشقيق يوسف إدريس ، والثانية مذيعة فى إذاعة صوت

العرب ، وابن حاصل على الدكتوراه فى الچيولوچيا من جامعة فرچينيا فى الولايات المتحدة ومدرس فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة .

«أجمل مافى الحياة أن يكون هناك أصدقاء وألا نُقدم على شىء لانحبه .

«زمان كنت أخاف من الموت جداً ، لكن يبدو أن التطور يصيب أيضاً الأحاسيس.. اليوم لا أخاف .. لأن الموت أصبح هو الطبيعى الذى أنتظره ، ولكنى بصراحة أخاف فقط من أن أكون سبباً لآلام الذين يحبوننى مثل زوجتى أو أولادى .

«ليس لدى شعور بالندم على شىء لأنى دائماً أتساءل : هل كان قرارى فى تلك اللحظة مواكباً للظروف ولشخصيتى .. ولكن الحاجة اللى كان نفسى أستمر فيها هى مجال الثقافة .

«حركة أنور السادات نحو السلام كانت قائمة على فكر ورؤية .. والمشكلة أنه لم يتنبه إلى أن مصر مرتبطة بالأمة العربية شئنا أم أبينا ، وأن خروجها يُفقد مصر الكثير من دورها . ولكن مازلت أيضاً أرى السادات على أنه رجل محنك سياسياً وشديد الدهاء ، وكان يعرف بالضبط ماذا يريد، ولذلك استخدم محمد حسنين هيكل فى عملية ١٥ مايو ثم تخلص منه بعد ذلك . والحقيقة أن الرئيس السادات كان متآمراً من طراز متميز .. لقد لعب كافة أدواره ببراعة سواء فى الحرس الحديدى ومع الألمان ومع ضباط يوليو .. وظل بجوار أقوى رجال الثورة «عبدالناصر» يؤيده ويمالئه بصفة مطلقة .. واستمر هكذا واختياره نائباً لرئيس الجمهورية هو التعبير الطبيعى عن حكم الفرد .. أى عندما يستريح الزعيم لمساعدة الذى لايقول : لا .. فى ظل غياب الديمقراطية والمؤسسات .

محمد عبدالغنى امجمسى

هناك حرب قادمة مع إسرائيل

ما بين اللحظة التى اندفع فيها المشير محمد عبدالغنى الجمسى إلى دورة المياه فى فندق كتراكت بأسوان ليزيل عن عينيه آثار الدموع التى ترقرقت فيهما أثناء مواجهته مع هنرى كيسنجر.. واللحظة التى التقيته فيها ليخبرنى بأنه اضطر لبيع أرضه الزراعية التى ورثها عن أبيه من أجل زواج أولاده .. خيط رفيع واحد .. وما بين اللحظة التى اضطر فيها لدخول الخيمة فى الكيلو ١٠١ ليجرى مفاوضات فك الاشتباك الأول مع الإسرائيليين .. واللحظة التى التقيته فيها ليقول بوضوح : لا علاج لمشاكل السلام اليوم إلا بالحرب .. أيضاً خيط واحد .

وما بين اللحظة التى رفض فيها وزير الدفاع عام ١٩٧٧ قبول الطالب مدحت محمد عبدالغنى الجمسى فى الكلية الحربية واللحظة التى قال فيها: «العسكرية فى دمي وأثرت على كل تصرفاتى» أيضاً خيط واحد. ومن بين هذه الخيوط وغيرها كثير تتضح ملامح (جريشكو مصر) كما كان يسميه الرئيس السادات .. وتتكشف مدى أهمية الاستماع إليه وإلى آخرين من أبناء العسكرية المصرية .. فهؤلاء الرجال دفعوا ثمن الحرب كاملاً .. وأيضاً ضريبة السلام .. وظلت المؤسسة التى ينتمون إليها مصدراً مهماً لتوفير أفراد النخبة العليا .

* هذا رجل شديد الانضباط .. هذا ما نبهنى إليه أحد الذين يعرفون المشير محمد عبدالغنى الجمسى عن قرب ، وقد تأكدت من ذلك عندما قفزت الابتسامة إلى شفتيه عندما وجدنى أصافحه قبل الموعد المحدد بخمس دقائق .. وتساءلت أنا هل هذا الانضباط هو الذى حافظ على ابتعاده عن الكثير من الشكوك التى تحيط عادة بالقادة المميزين ؟ .. أم أنه كان قائداً يعرف كيف يسير بين خطوط النار ؟ .. وكيف يرى الآخرين ؟

** من هذه النقطة بدأ وزير دفاع مصر الأسبق يتكلم :

لقد احترفت العسكرية منذ كان عمرى سبعة عشر عاماً ، وعاصرت أحداث الحرب العالمية الثانية ثم ما تلاها حتى وصلت لمنصب وزير الدفاع ووجدت أن الوسيلة الوحيدة للنجاح فى القوات المسلحة أن يحترف إنسان العمل بإخلاص ، وأن يبتعد عن كل ما يتعارض مع الحرفة ، من ناحية أخرى ـ لقد كنت على علم بكل الحركات والتفاعلات والآراء التى تجرى فى الكواليس دائماً، وكان قرارى دائماً أن كل هذه الأمور لا طائل منها وتأكد هذا الظن عندما

شاهدت الصراع على السلطة فى بداية السبعينيات ، لقد اعتقد الفريق أول محمد فوزى وزير الدفاع أنه يستطيع أن يفعل شيئاً فدخل السجن ، وأصاب الرزاز محمد صادق واستوعبت .. هذه التجربة .. وقبلها تجربة عبدالناصر وعبدالحكيم عامر .. وتفهمت حساسية الرجل الأول فى مصر نحو موقف وزير الحربية .

* فى هذا الإطار ما مدى دقة ماقيل من أنك طلبت من الرئيس السادات عند بداية تكليفك كوزير للدفاع ألا يطلب منك نزول الجيش للشارع ضد الناس ؟

** لم أطلب ذلك من السادات ولكنى لم أتبرع باقتراح مثل ذلك .. وقد طلب رئيس الوزراء آنذاك ممدوح سالم أن ينزل الجيش للشارع فى مواجهات ١٨ و ١٩ يناير ورفضت، وآخرون اقترحوا نفس الطلب ولكنى رفضت .. وظللت على هذا الإصرار لأننى أفهم القانون تماماً وأن القوات المسلحة لاتنزل الشارع إلا بعد ضياع جميع سلطات الدولة المدنية بما فى ذلك الشرطة .. وهذا ما حدث .

* هل كان ذلك الموقف منك التزاماً بالقانون أم التزاماً أمام من ؟

** كان التزاماً منى أمام الشعب أولاً ولاسيما أن القوات المسلحة أصبح لها اسم كبير بعد حرب أكتوبر ٧٣ وأنا أحد أبناء القوات المسلحة الذين ظهروا بعد هذه الحرب المجيدة ولم أكن أرضى بفقد ثقة الشعب فى قواته المسلحة ، وقد أخبرت الكثيرين الذين كانوا يديرون أزمة ١٨ و ١٩ يناير أن اهتمامى الأساسى هو ألا يشعر الشعب أبداً أن القوات المسلحة ضده بل إنها جزء عزيز منه ولكنها تنفذ الأوامر ! وتلك هى المعادلة الصعبة التى كان يجب أن أقوم بها بدقة .. وتلك كانت مهمة صعبة بعد أن تم إعلان حظر التجول ونزول الجيش .. لقد كنت أتجول فى الشوارع ليلاً وأشاهد الناس المدنيين وأتابع أحوالهم .. وأذكر مثالاً على ذلك أننى ذهبت ليلاً إلى محطة مصر للسكك الحديدية حيث دخل المحطة أحد القطارات بعد الحظر وتجمع المدنيون فى الفناء وليس هناك وسيلة للحركة خاصة أن القاهرة كانت مغلقة ! وطبقاً للقانون العسكرى لابد من إرسالهم للسجن ! وكان من المستحيل أن أتصرف بهذا الشكل ، ولذلك أمرت مدير الشرطة العسكرية أن يحضر سيارات ضخمة من الجيش ، ويتم نقل الناس إلى بيوتهم فى أمان وسلام .. وهذا ما حدث . ولكن الحقيقة أيضاً فإن الكثيرين انتظروا هروب السادات إلى السودان ! والبلد لم تكن فى حاجة لأكثر من بيان فى الإذاعة !

* بعد ثورة ٢٣ يوليو ـ تم فتح المجال العسكرى أمام أبناء الشعب ولكن بعد ذلك شعر الكثيرون أن هذه الشريحة باتت مميزة مقارنة بباقى القطاعات .. ما مدى صحة ذلك ؟

** نعم هذا صحيح ـ والثورة هى التى صنعت ذلك .. وكلمة ثورة تعنى أنه لايستطيع أحد أن يقف فى طريقها .. اسم رئيس الثورة يخيف الجميع ! .. ورجل الثورة يستمد قوته من

القوات المسلحة ، فشعرت هذه القوات بأنها شيء مهم وبالتالى فإنها هى التى أدارت التغيير والتى ساعدت فى إحداثه ، وبناء على ذلك فإنه وضع طبيعى أن النفوس تتغير .. فالبشر .. بشر !

* ما تقييمك لهذا الدور الذى لعبته القوات المسلحة فى الحياة المدنية (سلباً أو إيجاباً) ؟

** القوات المسلحة باعتبارها أداة التغيير ـ كما قيل عنها بعد قيام الثورة ـ كانت تسعى نحو الأفضل طبقاً لرؤية الثورة ، ولكن الثورة انشغلت وشغلت معها الجيش بالسياسة ولم تعط العسكرية المصرية حقها فى الاحتراف العسكرى .. وفى نفس الوقت بدأت السياسة تتوغل فى القوات المسلحة ، وإذا توغلت السياسة فى الجيش أفسدته خاصة فى الدول النامية ، أما فى الدول الكبرى فإن الجيش يحترف العسكرية فقط ولكنه يؤدى الدور السياسى ، لأن الوزير منصبه ودوره الأساسى سياسى وينفذ سياسة الحزب الذى يمثله ! ، وأحد هؤلاء الوزراء تعاملت وتباحثت معه وأذكر أنه كان حاصلاً على الدكتوراه فى الكيمياء وكان يتحدث فى إستراتيجية بلده !! وعندما يتطرق الحديث للتفاصيل العسكرية كان لديه رئيس أركان أو مجموعة رؤساء أركان متخصصين فى كافة التفاصيل هم الذين يتكلمون ، وهذا هو الأسلوب الإنجليزى وبمعنى آخر أن السياسى لايتقمص شخصية العسكرى وهذا الأخير لايرتدى معطف الأول ! ولكن ما حدث لدينا أن القوات المسلحة ابتعدت تدريجياً عن العمل العسكرى ـ وأن السياسة أفسدت العسكرية المصرية مثلما كشفت حرب ٦٧ .

* وأنت أحد أبطال حرب أكتوبر .. هل كنت تتوقع أن تسفر حرب العبور العظيمة عن المشهد السياسى الذى حدث بعد ذلك ؟

** لا .. كنا نشتغل فى المسألة العسكرية كمحترفين وهدفنا كان تحرير سيناء من العدو الإسرائيلى الذى لم ننسَ لحظة اعتداءاته علينا منذ كان عمرى ١٧ سنة .. جيلى لم ينسَ أبداً أن إسرائيل هى العدو الذى يعتدى علينا دائماً .. الجيل الذى هزم فى حرب ٦٧ كان قلبه مليئاً بالمرارة لما حدث .. إنه جيلى الذى عاد وانتصر فى ٧٣ بفاصل زمنى ٦ سنوات ، إنه نفس الجيل وهذه حقيقة .. ولكن لم أتصور أن تحدث هذه النتائج السياسية التى تمت بعد ذلك .

* لماذا ؟

** لأننى كنت عضواً فى مجلس الأمن القومى المصرى برئاسة رئيس الجمهورية ، وبعد الحرب بدأت السياسة تلعب دورها .. وبات السؤال كيف يمكن الاستفادة من نتائج الحرب سياسياً .. وكفاءة السياسة تظهر فى أن تستغل نتائج الانتصار العسكرى لتحقيق الأهداف العليا .. خروجى من الوزارة بعد كامب ديفيد بـ ٢١ يوماً فلم توضع هذه الاتفاقية موضع

التنفيذ ! ولم تأت بالتفاصيل ! ولا ما حدث ! ووجدت التغيير الوزارى قد حدث ! لقد أبلغنى السادات بالتغيير الوزارى فى ٣ أكتوبر عام ١٩٧٨ الساعة الحادية عشرة صباحاً وقال لى (إحنا داخلين مرحلة جديدة فى تاريخ مصر ياجمسى والمرحلة الجديدة بعد كامب ديفيد تستدعى منى كرئيس دولة أن أغير الوزارة ثم أغير رئيس مجلس الشعب ثم أغير القيادة العسكرية) كان فى ذهنه مرحلة جديدة استعد لها .

* ولكن يظل السؤال قائماً : هل لم تستشعر التغيير الكبير الذى كان يطل ببطء ؟ وللسؤال أسباب أهمها أنك الجنرال المصرى الذى انتصر وأيضاً الذى التقى بالإسرائيليين فى مفاوضات الكيلو ١٠١ ؟

** أنا اجتمعت مع الجانب الإسرائيلى بناء على قرار صدر من الأمم المتحدة وموافقة مصر برئاسة السادات وموافقة إسرائيل برئاسة جولدامائير .. تم الاتفاق على أن يكون اللقاء بين وفدين عسكريين ـ خذ بالك من كلمة عسكريين ـ (ملاحظة من الجمسى أثناء الحوار) فى منطقة ما وهى الكيلو ١٠١ لحل المشاكل بين الطرفين وفك الاشتباك بينهما، أى إبعاد القوات عن بعضها ولضمان تنفيذ قرار الأمم المتحدة ٣٣٨ الخاص بإيقاف إطلاق النار ، إذن فالمباحثات أخذت الطابع العسكرى ـ وفى هذه الأثناء عقد الرئيس السادات اجتماعاً حضره الفريق أحمد إسماعيل وزير الدفاع وحافظ إسماعيل مستشار الأمن القومى وآخرون واستمر الاجتماع حتى الفجر كما علمت حيث لم أحضر، وكان النقاش حول من يتولى هذه المفاوضات وتم الاتفاق على أن أتولى أنا الاشتراك فى هذه المفاوضات ـ أبلغنى بذلك أحمد إسماعيل فى فجر نفس اليوم فأخبرته بأننى لا أرغب فى الذهاب فتساءل : ليه ؟ قلت : «معقولة بعد أن حاربت اليهود وشتمت فيهم أربعين سنة أذهب فى الآخر للسلام عليهم والجلوس معهم ، لا .. أى واحد آخر يذهب .. وأحب أقولك حاجة إن إحنا حنروح ونجلس مع بعض لكن الحرب ستستأنف مرة أخرى وأنا لا أثق أنهم سيقبلون هذه الأوضاع العسكرية الحالية ، رد على أحمد إسماعيل قائلاً : إن القرار لرئيس الدولة وإحنا وجدناك أنسب واحد للمهمة لأنك رئيس هيئة عمليات القوات المسلحة وتعلم بحكم المنصب أوضاع قواتنا وأوضاع قوات العدو. فسألته : هل ذلك أمر ؟ فأجاب : نعم أمر فأجبته : إذن سأقوم بالمهمة ـ وبالفعل تحركت للذهاب وكان معى العميد فؤاد هريدى وطلبت مدنياً فجاء مستشار من وزارة الخارجية وكان السؤال عندما نلتقى بهم ماذا نفعل ؟

كنا تحت علم الأمم المتحدة وفى حضور مندوبها ولكن ظل السؤال قائماً .. وقلت للمجموعة المرافقة لى إنهم إذا خرجوا وأدوا التحية العسكرية إذاً كوفد عسكرى مصرى أصبح ـ طبقاً للقواعد العسكرية ـ لزاماً أن نرد هذه التحية ، وإذا لم يتقدم أحد فلن نرد ، وإذا تقدم للسلام باليد سوف نرد وإذا لم يحدث قلت (تنكسر رقبتهم) عندما وصلنا .. قابلنا الوفد ويضم ٦

عسكريين برئاسة الجنرال ياريف والذى سرعان ما أدوا التحية فكان الرد بالمثل ثم تقدم الجنرال ياريف بالمصافحة والحقيقة فإن إحساسى بهذه اللحظة لايزال ماثلاً أمام عينى .. لقد كنت ألتقى بهم وأنا أشعر أننى منتصر بعد حرب ٧٣ ، وأتذكر أننى تكلمت عن فض الاشتباك بين القوات ، بينما رد ياريف بالحديث عن السلام وأن نحافظ على شعوبنا من الحروب وكان ردى أن هذا اللقاء من أجل فك الاشتباك وأنا لم أحضر للتفاوض حول السلام ، ومثل هذه الموضوعات من اختصاص السياسيين وليس العسكريين ـ وحاول ياريف أكثر من مرة العودة لنفس الموضوع ، ولكن كنت رافضاً للخروج عن الموضوع العسكرى الذى حضرت لأجله ، ثم استمرت المباحثات بعد أن تمت إقامة ثلاث خيام تحت علم الأمم المتحدة .

* ألم تستشعر فى لحظة بعد أن تكررت الاجتماعات بأنك تقوم بعمل سياسى أو من أجل عمل سياسى ؟

** إطلاقاً .. وكنت ملتزماً بما فهمته من قرار وزير الدفاع المصرى .. وقد حدث فى إحدى مراحل هذه المباحثات أن طالب الإسرائيليون بحضور شخصية سياسية لرفع مستوى المباحثات ، ورفضت ـ واقترح ياريف حضور ديان من طرفهم وأحمد إسماعيل من عندنا لحل كافة المشاكل التى بدأت تتصاعد فقلت له : حتى لو كانت هناك حاجة لحوار آخر .. فإننى محمد عبدالغنى الجمسى الذى سوف يحضر بالملابس المدنية ولن يحضر غيرى .

* من يقرأ هذه الملاحظات السريعة التى يستعيدها المشير محمد عبدالغنى الجمسى الذى كان وزيراً للدفاع فى مصر وقبل ذلك أحد أبطال حرب أكتوبر وأحد الشهود على تاريخ العسكرية المصرية منذ الحرب العالمية الثانية لابد أن يتساءل : هل كانت كل الرؤيات الخاصة بمرحلة مابعد الحرب وسيناريوهاتها لايعرفها إلا الرئيس .. هل هذا الانطباع دقيق؟

** بالطبع .. هذا صحيح .

* يبدو من الكلام وكأن مجلس الأمن القومى وبقية الوزراء فى انتظار آراء الرئيس ؟

** هذا بالضبط ما حدث .. ولكنه كان غلط !! غلط !! ـ وهذا يكشف الفرق بيننا فى العالم الثالث ودول كبرى .. فقد تعاملت مع الولايات المتحدة الأمريكية وعرفت كيف أن مجلس الأمن القومى الأمريكى هو الذى كان يدير الموقف ويرسم سياستهم أثناء حرب أكتوبر، وكان كيسنجر ـ بحكم رئاسته لهذا المجلس ـ يعطى البدائل ويطرح الخيارات أمام نيكسون ليقرر أو يضيف مايرى .. لكن إحنا فى بلدنا مفيش حاجة بالشكل ده .

* أى أن الرئيس كان يقوم بالدور كله ؟

** هذا صحيح .. وكان يتكلم فى تصوراته التى يعتقد فيها .. وكان يطرح وجهات نظره فى مجلس الأمن القومى أكثر من مرة ، ولكن الملاحظة الأساسية أن حوارات المجلس لم يكن يجرى تسجيلها !! وإن كان قد تم تغيير ذلك فيما بعد وبدأ يتم تدوين ملاحظات .

* السادات وكيسنجر وأنت ثلاثى اللحظات الحرجة التى غيرت وجه المنطقة .. كيف كان ذلك ؟

** سؤالك يعود بى إلى عام ١٩٧٤ عندما حضر كيسنجر فى إطار سياسته المكوكية بيننا وبين إسرائيل من أجل تحقيق فك الاشتباك وكان أسلوبه خطيراً وكنا نشعر بالتضرر من أسلوبه خاصة أنا ووزير الخارجية آنذاك إسماعيل فهمى لأنه كان يحضر للحديث مع رئيس الدولة فقط ! والسادات عرف ذلك وأحب ممارسة هذا الأسلوب وحتى لايكون أقل من عبدالناصر !! المهم أن الهدف من فك الاشتباك فى رأى كيسنجر هو تقليل القوات التى تواجه بعضها البعض فى سيناء وتقليل حجم النيران المتواجهة وعدد المعدات ، وقد جاء من إسرائيل إلى مصر وقد حدد عدد الدبابات المصرية فى الضفة الشرقية وكذلك المدافع وبدأ يناقش الرئيس السادات ـ قبل ذلك كنت اتفقت مع الوزير أحمد إسماعيل على حجم الدبابات والمعدات التى ستكون فى الشرق ـ ذهبت إلى أسوان بهذه الرؤية وأنا رئيس أركان حرب القوات المسلحة وضمن وفد برئاسة إسماعيل فهمى وزير الخارجية، والتقينا بكيسنجر فى أسوان وبدأنا الحديث حتى وصلنا للنقطة الخاصة بتوزيع وأعداد القوات المصرية فى الشرق ففوجئت بكيسنجر يقول إن هذه القوات يجب أن تقل بدرجة كبيرة لتوفير الأمان للجانب الإسرائيلى، وأضاف أنه سيكون لمصر ٣٠ دبابة فى الضفة الشرقية !! شعرت بالصدمة وتحفزت لمواجهته وسألته : من قال ذلك ؟ فبدأ يشرح وجهة نظره مرة أخرى فيما يسميه الأمان للإسرائيليين ! فرددت عليه بأن حقى أيضاً أن أقدر الأمان الضرورى لقواتى مثلما تتكلم عن الأمان من وجهة نظر إسرائيل .. والرقم الذى ذكرته لن أوافق عليه ، لأنه عدد لا يؤمن قواتنا هناك وقلت له : أنت تعطى الأمن الكامل للجانب الإسرائيلى وتحرمنا عامداً من الأمن ! فصمت كيسنجر وبدأ إسماعيل فهمى يتحدث ، وفجأة صدمه كيسنجر بطريقة صعبة وقال : أنا اتفقت مع السادات على ٣٠ دبابة .. فقلت إذا كنت اتفقت مع السادات على ذلك فأنا لا أستطيع الدفاع عن ذلك الموضوع وكرئيس أركان حرب قوات لايمكن أوافق على ذلك .. فرد على: عزيزى الجنرال نحن نتحدث عن الإستراتيچية البعيدة بينكم وبين إسرائيل فقلت له

فى السياسة والإستراتيچية يمكنك أن تتحدث مع إسماعيل فهمى ولكنى أنا أتحدث عن الحرب الموجودة الآن وتأمين قواتى .. وفوجئت به يكرر نفس ما اتفق عليه مع السادات وهنا اختنقت عيناى بالدموع وقمت مباشرة بترك مقعدى دون استئذان من إسماعيل فهمى ودخلت الحمام وأنا أشعر بعيونى شديدة الاحمرار حيث غسلت وجهى وعدت مرة أخرى لمقعدى فى صمت ، ورفض إسماعيل فهمى هو الآخر هذا الاتجاه فى المحادثات وانتهى الاجتماع لأذهب مباشرة للسادات فى استراحته وأخبرته بما حدث وقلت له إننى قلت فى الاجتماع إننا لايمكن أن نقبل هذا الأمر .. فتركنى حتى أنهيت حديثى ثم سألنى : ليه ؟ فبدأت أشرح له من الناحية العسكرية أبعاد هذا الموقف ـ فرد علىّ : لا .. أنا مش موافق على ما تقول ! فقلت له بينى وبين سيادتك الوزير أحمد إسماعيل وإذا قرر أن ٣٠ دبابة كافية لتأمين قواتنا يصبح هو المسئول لأننى لا أستطيع أن أكون المسئول عن ذلك القرار ! فقال : لا .. إنت المسئول ! وما عملته فى حرب أكتوبر بالصواريخ يمكنك عمله مرة ثانية ولكن الـ ٣٠ دبابة فى الضفة الشرقية ممكن ! فأجبته : لا .. مش ممكن فقال : هذا ما وافقت عليه وهذا ما سيكون ! قلت له إن وزير الدفاع أحمد إسماعيل يمكن أن يحضر لأسوان خلال ساعة ونصف الساعة لتسمع رأيه .. فرفض .

اتصلت بعد ذلك بأحمد إسماعيل وأخبرته بما تم ولم يكن من الممكن فعل شيء آخر .. وكانت هذه أول مرة أبكى منذ دخولى العسكرية ! وقد ترك هذا الموضوع أثراً عميقاً فى نفسى حتى اليوم .

* كيف ؟

** مازلت أشعر بالمرارة على الجهد والعرق والدم الذى بذلناه كقادة وضباط وجنود للعبور للجانب الآخر من القناة .. لقد توليت رئاسة هيئة العمليات من يناير ١٩٧٢ وقبل ذلك كانت هناك مواقع أخرى وكان هناك قادة وضباط ورجال بذلوا الجهد لست سنوات قبل حرب أكتوبر حتى يتحقق الإنجاز .. بعد كل ذلك التعب وفجأة يصدر قرار غير مفهوم ؟ .. لم أقتنع يومها .. لازلت حتى اليوم غير مقتنع بما حدث .

تفاوض نعم .. سلام لا

* أنت غير مقتنع رغم أن هناك من يرى أن تاريخاً جديداً للمنطقة يكتبه أبطال السلام بعد أن انتهى زمن أبطال الحرب ؟

** أى سلام هذا ؟ أين هو ؟ وهل تقصد السلام بين مصر وإسرائيل ؟ أنا لا أعتقد أن

هناك سلاماً .. تفاوضنا نعم .. من الناحية الرسمية نعم فيه سلام .. ولكن عملياً ليس هناك سلام .

* بديل أو عكس السلام هو الحرب هل تعتقد بذلك ؟

** بالتأكيد هناك حرب قادمة ١٠٠٪ وإذا لم تحدث حرب لن تحل المشكلة ! العلاج الوحيد للمشكلة اليوم هو الحرب. إن موقف الدول العربية الحالي - بصرف النظر عن وجود نتانياهو - واستقرار الأوضاع مع إسرائيل لايتم إلا بحرب أخرى ، وإن إسرائيل هى القادرة حتى الآن على فرض شروطها ووجودها العسكرى والاجتماعى والاقتصادى وإنها بصفقات السلاح المتطور الذى تحصل عليه من الولايات المتحدة الأمريكية تستعد بالفعل لحرب جديدة عام ٢٠٠٠ - لايمكن أن يجيء القرن الحادى والعشرون بدون أن تفتتحه إسرائيل بحرب تؤكد فيها تفوقها ! ولاسيما أنها بالإضافة للأسلحة التقليدية المتقدمة التى لازالت تنهال عليها فإنها الوحيدة التى تمتلك الأسلحة النووية .

وحتى لاننسى فإن الرأى السائد فى إسرائيل يقوم على لاءات ثلاث : لاتقسيم للقدس لأنها ستظل عاصمة أبدية لإسرائيل ، لا للدولة الفلسطينية ، والثالثة لا لإعادة الجولان كاملة .. إذن أى سلام هذا الذى يتحدثون عنه ؟ وكيف نحل هذه المشاكل الثلاث ؟ فى رأيى بالحرب وحدها ولا بديل .

وأنا قلت منذ سنوات إننى من المتشائمين بالنسبة لنتائج المفاوضات الجارية فى المنطقة .

* متى يقول القائد العسكرى .. لا ؟

** وزير الدفاع منصبه سياسى .. ولكن كلمة القائد العسكرى قد تمتد لقائد منطقة أو قائد سرية أو قائد كتيبة ولايمكن لأحدهم أن يقول لا .. ولكن كوزير من حقى أن أقول رأيى - وتظل المسألة فى النهاية أننا لابد أن نتذكر أن النظام الغربى يقوم على الديمقراطية بمعناها الواسع وكان لدينا نظام مشابه قبل ثورة يوليو ولكن بعد الثورة أصبح وزير الدفاع قائداً عاماً للقوات المسلحة أى صاحب موقعين : أحدهما سياسى وآخر عسكرى .. فإذا كان قد اتفق فى مجلس الوزراء على أمر إذن يجب ألا يرفض كعسكرى ماتم الاتفاق عليه .

* بعد أن خلعت الزى العسكرى .. هل تطمح للقيام بدور سياسى فى مصر فى ظل التعددية القائمة ؟

** لم أقتنع سياسياً بأشياء عديدة .. وقد عرض علىّ الكثيرون بعد خروجى من الجيش أن أمارس دوراً سياسياً ولكنى لم أتحمس لأسباب عديدة .

* قد تكون خلعت الزى الرسمى ولكن ماذا عما هو أبعد من ذلك داخلك ؟

** لقد احترفت العسكرية منذ سن السابعة عشرة وشهدت حروباً عديدة وبالتالى أصبحت العسكرية فى دمى وهى الطاغية على تصرفاتى المدنية .. ولذلك لو كنت أفكر فى العمل السياسى كان يجب أن يكون ذلك من وقت مبكر عن الآن .

* حديثك عن العسكرية يجعل المواطن المدنى يتساءل : هل القائد العسكرى لايفهم إلا لغة السلاح والجيش ؟

** لا .. إنه مواطن عادى يفهم أوضاع بلده ولابد أن يكون على وعى بآراء الناس ومعرفة بالرأى السائد خاصة فى المواقع العليا – لابد أن يكون على دراية بواقعه .

* ما أكثر الشخصيات التى تركت بصمة فى حياتك ؟

كنت شديد الإعجاب دائماً بروميل .. وأيضاً أعجبت بمونتجمرى .. لأنه يمثل المدرسة الإنجليزية التى تعلمنا فيها وتركت آثارها فى الجيش المصرى .

* شخصية أخرى محلية أو إقليمية ؟

** لن أتكلم ! الإجابة صعبة جداً ، الفترة من الثورة وحتى اليوم غيرت المجتمع كله ، وأيضاً انقسمت الآراء بحدة جداً ! وتعددت وجهات النظر فى أى قضية !

* كقائد عسكرى .. هل تقلق من اختلاف الآراء وتعدد الرؤيات ؟

** لا أبداً .. الأمل الحقيقى فى الديمقراطية وأن تكون هناك حرية مطلقة للناس ليعيشوا حياتهم بمطلق إرادتهم .. لا تزعجنى الاختلافات الحادة مثلما فهمت من السؤال .

* حتى لو اختلفت هذه الآراء الحادة معك ؟

** بالطبع .. المشكلة أن الناس تعتقد أن العسكرية هى صوت واحد وهذا ليس دقيقاً !

* كيف تنظر للواقع المصرى الذى كنت شاهداً عليه ؟

** ليس هناك اختلاف على أن عبدالناصر والسادات لعبا دوراً بالغ التأثير فى تغيير الواقع المصرى وسوف يدخل حسنى مبارك تاريخ مصر أيضاً .. كل واحد له بصمة . (يعقب الإجابة صمت طويل يصاحب إغلاق جهاز التسجيل) .

* هل هناك كتاب ترك أثراً فى تكوينك ؟

** (صمت آخر طويل) الكتب التى أقرؤها عسكرية إستراتيجية وأى نوعية أخرى تأتى فى المرحلة التالية .

* كيف تمضى يومك فى هذه المرحلة ؟

** هذا أصعب ما عشته فأثناء الخدمة العسكرية كنت أعمل نحو ١٨ ساعة بعد ذلك فوجئت بوقت فراغ طويل أصبح مشكلة ولم تستطع أوقات القراءة والكتابة أن تملأ علىّ هذا الفراغ وهذه معاناة .

* وماذا عن الرياضة التى تمارسها ؟

** المشى هو رياضتى الأساسية طبقاً لنصيحة الأطباء .

* وماذا عن الأصدقاء ؟

** لدىّ عدد كبير منهم .

* عسكريون فقط ؟

** لا .. ومدنيون أيضاً وأسعد بلقاء الفريقين ويبدو أن لديك فكرة صعبة عن العسكريين .

* إلى أى حد كانت أسرتك قريبة أو بعيدة من حياتك العسكرية ؟

** لدى ولد وبنتان .. كنت أراقبهم باستمرار طوال فترة تعليمهم حتى تخرج الابن (مدحت) من كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ويعمل حالياً فى بنك فيصل الإسلامى ـ والبنت (ماجدة) تخرجت فى كلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية وعملت لفترة قصيرة ثم تفرغت لبيتها بعد الزواج ، الثالثة (مها) خريجة نفس الكلية ونفس القسم وتفرغت أيضاً للبيت .

* والزوجة ؟

** تحملت الكثير ولاسيما أن الحياة العسكرية تنطبع على البيت فى نواح كثيرة وتصبح مزعجة للأسرة من حيث الغياب المتكرر أو السفر المفاجئ أو مشاكل الطوارئ قبل الحرب وبعدها وقد انعكس ذلك كله على الأولاد وأمهم الله يرحمها لأنها مرضت وماتت بعد خروجى من الخدمة بثلاثة شهور عام ١٩٧٨ .

وأتصور أن الآثار السلوكية لطبيعة عملى أن أحترم الوقت وانتظام العمل والحركة الضيقة للحياة الاجتماعية للأسرة حتى لاتنفلت المعايير .. كل ذلك بات طبيعة للأسرة .

أيضاً فقد كان لى رأى فى أصدقائهم الذين أتأكد منهم ومن أخلاقهم .

* أى أن الأصدقاء بجوار الأبناء كانوا تحت رقابتك ؟

** نعم .. رقابتى المستمرة .

* ألست نادماً على شىء ما تتذكره بين الحين والآخر ؟

** فكر ابنى بعد حصوله على الثانوية العامة الالتحاق بالكلية الحربية ـ وكنت وزيراً للحربية فى ذلك الوقت ـ ونجح فى القبول ووصل الكشف بالأسماء إلى مكتبى فقمت بشطب

اسمه !! وكان العذر الذى أخبرته به أنه إذا كان شاهدنى بالملابس العسكرية الأنيقة فهو لم يعرف الطريق الطويل الذى مشيته .. وبالتالى فالأفضل له أن يعيش حياته العادية فى المجتمع ـ من ناحية أخرى هو الابن الوحيد بين بنتين ومن المهم أن يكون قريباً دائماً منهم . هذا ما اتخذته فى ذلك الحين وبالفعل ندمت عليه فيما بعد .

* لماذا لم تعمل فى أحد المجالات المدنية فى ظل الانفتاح السائد والفرص المتعددة اليوم ؟

** الرئيس السادات كان قد وعدنى بأنه سيكلفنى بعمل ما على المستوى الوطنى ـ ولم يبح لى بنوعيته ولكن كان من المستهدف أن يكون عملاً مفيداً لى من كافة الجوانب .. ولكن لم تتوافر الفرصة للرئيس السادات لتنفيذ ذلك .

* وماذا عن مجال المشروعات الخاصة ؟

** كانت لدىَّ قطعة أرض زراعية ورثتها عن والدى فى محافظة المنوفية وفكرت فى زراعتها ودرست الموضوع بالفعل وهيأت نفسى لذلك ولكن الظروف لم تساعدنى .

* تردد أن هناك عرضاً للعمل فى بعض الشركات فى بعض الأحيان ؟

** مشكلة وزير الحربية أن الاسم صعب والمنصب أصعب وبالتالى فإن قبول أى عمل لابد أن يكون بحرص شديد .

* هل تشعر ببعض الضيق لعدم ممارستك أى عمل ؟

** كنت أتمنى أن تكون الحياة السياسية مناسبة لكى أمارس دوراً ـ وقد اتصل بى البعض بالفعل ولكن لم تتح الفرصة ومن المؤكد أن ممارسة دور أفضل من الفراغ الذى يقتل روح المواطن فى البلدان النامية .

* هل تشعر بأنك دفعت ضريبة الحرب وكذلك مصروفات السلام ؟

** صحيح .. آه .. بالطبع .

* هل لديك إحساس بالمرارة ؟

** إحساس بالضيق .. أشعر به .. مفيش كلام ! لكن الزمن الذى عشته كان فترة صعبة فى تاريخ مصر منذ عام ١٩٤٠ حتى نهاية خدمتى .. وعندما حدث ذلك وجدت حولى الحياة وقد بدت أسهل وأفضل ولكن لم يكن لى فيها أى دور !

* ولكن يبدو أن هناك وزراء دفاع حظوظهم لاتدفع بهم إلى السجن ولا إلى الفراغ ؟

** (يضحك) طبعاً .. المسألة متاحة ولكن صاحب السلطة فى مصر هو الذى يتحكم فى

هذه الأمور وهناك أناس يعيشون بالفعل حياة رغدة أنا بأمانة لست نادماً على شيء ولكن كنت أتمنى لو كنت مشغولاً الآن بطريقة أكثر فائدة للحياة ولنفسى ، وإن كان من ينطبق عليه سؤالك خضع للحظ أكثر من أى شيء آخر ، وقد كنت عينته أحد مساعدى وزير الدفاع كنوع من التكريم قبل خروجه من الخدمة العسكرية بثلاثة شهور آنذاك .. ولكن خلال تلك الشهور الثلاثة تغير تاريخ حياته كلها لأن السادات بنفسه طلب منى ترشيح أحد الضباط لمنصب وكان هو أيضاً الذى أمامى فذهب . المهم أن الحظ يلعب دوراً مهماً فى حياة الأفراد .

* تكررت كلمة الحظ بيننا كثيراً وهذا غريب ؟ وهل يعنى ذلك أن المصادفة لها دور حيوى فى حياتنا ؟

** هذا صحيح .. هذا صحيح .. ولكنى أتفق معك أنه خطأ .

* ولو أن ما تم وتحكى عنه ياسيدى صار معياراً للاختيار تصبح المسألة سبباً للقلق ؟

** بالفعل .. بالفعل .. مفيش كلام !! خصوصاً مفيش كلام - وأعتقد أن هذا الكلام ينطبق على الدول النامية وليست الدول المتقدمة . «وهنا وللمرة الثالثة يتم إغلاق جهاز التسجيل ويتطرق الحديث للكثير الذى يكشف أن فى قلب المشير الجمسى بعض الحزن ولكنه مازال كما كان شديد الانضباط مهما كانت المرارات . ولكن تبقى بعض العبارات المطلقة :

لا .. لم أحزن على خروجى من الوزارة (وضحكة من القلب) وكل ما هناك الفرق بين عمل دائم يلتهم معظم ساعات اليوم وثمة سنوات .. ثم فجأة فراغ منذ اليوم الثالث .. السؤال : كيف أعيش فى هذا الفراغ الذى يختلف مع طبيعتى التى تتجه للوحدة .

* .... ؟

** لايزال ارتباطى بقريتى فى المنوفية قائماً حتى الآن وعائلتى هناك .. وأحافظ على بيتى هناك ولدىّ أرض زراعية أخذتها بالوراثة ولكن لظروف اقتصادية ضاغطة فقد قمت ببيع نصيبى من الأرض هناك ، فقد كان الأولاد على وشك الزواج وكنت ملتزماً أمامهم كأب ولم يكن معاشى يكفى .

تعليق :

عندما يبيع وزير سابق وقائد عسكرى أرضه التى ورثها ليساعد أبناءه فهذا وسام آخر يضاف إلى أوسمة عديدة حصل عليها فى زمن صعب .

الجمسى :

ليس هناك شيء آخر .. سوى الحمد لله .. قانع وراض عن قدرى .. الحمد لله .

مدكور أبو العز

الچنرال مازال يقول .. لا

قلت له إن هذه الحوارات تستهدف المستقبل ولاتبحث عن حكايات المقاهى التى انتشرت حتى باتت كالطعام «البارد» الذى فقد طعمه.

استمع لى وصمت !

قلت له أن هناك أجيالاً تريد الحقيقة من أجل الغد .

فاستمع وصمت .

قلت له إن أعظم مايمكن أن يقدمه جيله للأجيال التالية هو رؤية لما حدث حتى يمكن امتلاك رؤية جديدة تعين على معرفة الخطأ وتجنبه والصواب واتباعه .

فاستمع وهز رأسه بالموافقة .

قلت له .. إذن لنبدأ بالحديث ، فقال : «وماذا عن الماضى» .. كان صوته مشحوناً بالأسى والمرارة والوجع .. وفى هذه اللحظة أدركت أن الكثيرين مازالوا أسرى هناك بعد مرور كل هذه السنوات على حرب يونيو وأن فى مقدمة هؤلاء الأسرى (الفريق مدكور أبو العز) قائد سلاح الطيران المصرى ، وأحد رجال العسكرية المصرية الذين قال عنهم المشير محمد على فهمى وأنا أتحدث معه : مشكلته كانت أنه رجل (دوغرى) .

وتساءلت: كيف يمكن أن تصبح مشكلة قائد عسكرى أنه رجل مباشر يمارس عمله بجدية؟.. وما هى طبيعة النظام الذى يخدم فيه الرجال ؟ .. إن الرجل هو الأسلوب .. والنظام فى أى دولة أو النخبة الحاكمة فى ظل رؤية تحدد لكل منهم دوره أو هدفه .. وإن العسكرية المصرية جديرة بالدراسة من هذه الزاوية ، أى اكتشاف قانونها الخاص لقد انهزمت العسكرية المصرية وأيضاً انتصرت .. نفس الرجال .. نفس الأرض .. نفس السلاح .. فماذا يحدث بالضبط ؟

ومن هذه الأرض قررت أن أبدأ رحلتى مع الفريق مدكور أبو العز قائد القوات الجوية بعد هزيمة يونيو .. مع رجل عسكرى مازال مخلصاً ــ مهما اختلفنا معه ــ لقيمة عليا فى حياته هى فكرة المسئولية وشرف الجندية وأمانة الموقف . وفى منزله فى ضاحية المعادى وبنظرة واحدة سريعة للمنزل الهادئ حيث يعيش منذ أكثر من أربعين عاماً أدركت كيف أن هناك

رجالاً فى مصر يعيشون بشرف ، وهذا الشرف من اليسر اكتشافه مع أول نظرة عليه .

* وكانت نقطة البداية هى الدهشة .. فالجيل الذى انهزم فى ٦٧ هو نفسه الذى حارب فى ٧٣ وانتصر .. إنهم نفس الرجال لماذا لانستشعر التجاوز ؟ لما هذه البكائية المريرة التى نرددها سنوياً ؟ لماذ جلد الذات ؟ لماذا يظل العار غير قابل للتصحيح ؟

** كان ذلك ما يدور داخلى والفريق مدكور أبو العز ينطلق بدون توكف مستعيداً كل المرارات :

هزيمة يونيو ٦٧ عار فى جبين كل الذين خدموا فى القوات المسلحة فى الماضى وفى الحاضر وفى المستقبل .. هزيمة لايمكن نسأنها لأننا فقدنا خيرة شباب الوطن ، وتهاوت كرامة القوات المسلحة.. فقدنا أسلحة بنحو أربعة مليارات جنيه .. أى ما يفوق ثمن الأرض الزراعية فى مصر كلها بأسعار تلك السنوات .. فالهزيمة كانت قاسية ومريرة ولايمكن نسيانها ولايمكن النظر للمستقبل بدون النظر للماضى .

وقيادات الهزيمة لايمكن أن تكون قيادات النصر ، وقد واجهت العديد من المآسى والمرارات التى تشمئز منها النفس بسبب قيادات الهزيمة مثل الفريق محمد فوزى وقد كان عبدالناصر نفسه فى حالة قرف شديدة من الكثير من هذه التصرفات .. وكنت أتساءل : ياريس وأنت تعرف كل هذه السلبيات التى تعوقنى عن أداء واجبى من أجل بناء القوات الجوية كيف تتركه ؟ .. ولم أجد إجابة شافية ولم أجد تفسيراً لكراهية الفريق فوزى للقوات الجوية التى تعتبر الأساس فى الحروب التقليدية مع إسرائيل وفى كل الحروب التى خضناها كانت هذه القوات هى الهدف الأول للعدو.. ففى حرب ٥٦ تم الهجوم على طائراتنا وهى على الأرض وفى حرب ٦٧ حدث نفس الشىء وفى ٧٣ تم الانتباه لذلك فكان سلاح الطيران هو صاحب الخطوة الأولى على طريق النصر .. لكن ما يحزننى باستمرار أن الطيران كان يتهم بأنه سبب الهزيمة، بينما السبب فى الهزيمة عام ٦٧ هو قيادات القوات المسلحة بالإضافة إلى أخطاء القيادة السياسية التى لم تعرف : هل قدرت الموقف بدقة ؟ هل كنا أمناء فى تقدير ظروفنا ؟ أشك فى ذلك، كانت وجهة نظر واحدة هى السائدة لم يكن هناك أحد يستطيع التساؤل بصوت مرتفع عن حقيقة الأمر ولاسيما أن معظم القيادات العسكرية كانت تستطيع أن تكشف تقصيرها إذا سألها عبدالناصر هل أنتم على استعداد للمعركة ؟ لذلك أقول: إن ٦٧ كانت هزيمة قيادات وليست هزيمة جيش .

المسئولية

* أجريت العديد من الدراسات حول هزيمة ٦٧ ولاسيما داخل قطاعات القوات

المسلحة.. فهل تعتقد أنه بالرغم من كل ذلك لم تتوصل لتحديد المسئولية حتى يمكن تجاوز ما حدث ؟

** الحقيقة هى الجديرة بأن نبحث عنها، التاريخ الحقيقى لابد أن يخلو من المجاملة تقول أنهم عملوا دراسات عن الهزيمة لكن أحب أن أقول «إنهم لايريدون الإساءة الماضى والبعض الآخر يدعونا لنسيان الماضى .. كيف أنسى الماضى ؟ .. كيف أتجاهل أن عبدالناصر هو المسئول الأول عن الهزيمة ؟ وأنه أخطأ تقدير الموقف ولاسيما عندما أبلغه الروس بوجود حشود إسرائيلية تستعد لمهاجمة سوريا فأرسل محمد فوزى الذى عاد ونفى ذلك !! بل أكثر من ذلك أنه فى صباح يوم العدوان تطلب روسيا من مصر عدم المبادرة بمهاجمة إسرائيل فكيف يوافق على ذلك وهو يعرف أنه لن يتحمل الضربة الجوية الأولى ـ ولاسيما أنه كان لابد من توافر مطارات عديدة حتى لاتضرب كلها أو يصبح من الصعب ضربها كلها فى آن واحد ، أيضاً لابد أن توجد «دشم» لحماية الطائرات .. وكان الدفاع الجوى ـ وكان يتبع سلاح الطيران فى ذلك الوقت ـ يعانى من الصعب بسبب الموقف المتعنت من قيادات القوات المسلحة

وفى ذات مرة ـ وأنا رئيس أركان حرب القوات الجوية قبل حرب ٦٧ ـ طلبت مبلغاً معيناً لبناء دشم لحماية الطائرات من المسئول عن تحديد الميزانيات قبل عرضها فقال لاتوجد مخصصات فأجبته إذن ليست هناك حرب وأغلقت الأوراق وطبعاً هذا الأسلوب غير مطلوب ! المطلوب دائماً هو إرضاء القيادات !! .. كيف ؟

المشكلة فى حياتنا ومن خلال تجربتى ومعاناتى أن هناك دائماً قيادات غير شرعية وهى القيادات التى تتوفر لها الثقة فى مقابل أهل الخبرة البعيدين عن الدور الحقيقى ، وقبل ذلك كنت قائد هيئة التدريب .. وقبل ذلك قائد كلية الطيران .. وأعرف الاحتياجات الحقيقية للطيران لذلك تم الشكوى لقائد القوات الجوية آنذاك الفريق صدقى محمود الذى أبلغ المشير عامر الذى لم يستجب أيضاً هو الآخر لطلبات صدقى .. أتذكر أننى أخبرتهم أنكم تسعون لشراء مدمرة ولكن من سيحميها ؟ وبالفعل ضربتها إسرائيل فى أول رحلة !!

وفى كل أزمة حدثت لى أثناء قيادتى للقوات الجوية بعد أن استدعانى عبدالناصر بعد الهزيمة أتذكر أنه قال لى : «أمانة البلد فى يدك» وكنت أقول له : ماذا فى يدى ياريس بدون تأييدك ؟ فيرد : «كل الدولة وراءك وكل الإمكانات تحت أمرك» .. ولكن فى أرض الواقع هناك أمور أخرى ومازلت أضحك يوم اتصل بى الفريق فوزى تليفونياً بغرض اقتسام المبالغ المخصصة للطيران مع نواحٍ أخرى فى الجيش يومها صرخت : «ياسيادة القائد أنا قادم من أسوان ـ حيث كنت محافظاً هناك ـ من أجل أن أشتغل وليس لمناقشة أمور مالية وإذا لم

تتوفر المبالغ المطلوبة لن أستمر في موقعي» .. وأغلقت التليفون وتذكرت لقائي مصادفة بالسيد أمين هويدى وكان وزيراً لشئون مجلس الوزراء يوم ٢٨ مايو عام ١٩٦٧ عندما بادرنى بالسؤال (وكنت مازلت محافظاً لأسوان) : مارأيك ؟ فأجبته سريعاً : لم نتحمل الضربة الأولى والإمكانات المتوفرة للدفاع الجوى لا تكفى ؟ تذكرت ذلك كله بعد إغلاق سماعة التليفون وأخذت على نفسى عهداً إما أن أكون جديراً بمسئولية حماية وطن أو أبتعد بشرف !

* وصفوك بأنك رجل (دوغرى) ويبدو أن هذا الوصف بقدر إيجابيته بقدر مشاكله هل هذا صحيح ؟ وماذا يحدث بالضبط هناك فى قمة المسئولية قائد عسكرى مثلك ليظل يتجرع الألم بعد على هذه السنوات ؟ .. وما هو الخفى فى هزيمة يونيو الذى يجعلك تلهث كل هذه المدة ؟

** لست أفضل الناس ولكن المرارة التى تلمح لها كانت بسبب إحساسى بأننا ندفع ثمناً باهظاً لديكتاتورية القرار فى المسائل المصيرية التى تهم البلد آمنت دائماً بأن مايمس مصلحة الوطن فوق الأشخاص لذلك كنت أصرخ برأيى كنت عدواً للأخطاء كنت خصماً مباشراً للتهاون فى كافة مراحل حياتى البعض يعتقد أن مدكور أبو العز الذى تمرد على عبدالناصر واستقال بسبب عدم رضائى عن الأداء وبسبب الحصار الذى فرضوه على .. البعض اعتقد أن ذلك سلوك جديد.. لا .. لقد فعلت ذلك وأنا قائد للسرب الملكى وهددت بتركه بسبب السلبيات المقيتة، طوال عمرى كنت صاحب موقف واضح من الخطأ .. وأثبتت الأيام صدق موقفى الذى أعلنه باستمرار المأساة فى حياتنا .

كان غياب ديمقراطية القرار .. لا إصلاح ولا نصر بدون قيادة تحترم آراء المرءوسين، لايمكن الوصول للصواب فى مجتمع يحتكر فيه الرأى شخص واحد مهما بلغ من الزعامة والحكمة لقد صرخت : كيف أدخل حرباً ضد إسرائيل وجيشى فى اليمن ؟ ومازالت الصرخة قائمة ويجب محاسبة النظام السياسى على ذلك يجب تبرئة القوات الجوية المصرية من المهانة التى حاولوا بها لقد ظللت قائداً للكلية الجوية نحو سبع سنوات وتخرج على يدى ٦٠٠ طيار وفى ٦٧ استشهد الكثيرون ولكن ماقاموا به تعرض للتشويه بسبب الهزيمة التى كان مسئولاً عنها القيادات وفى مقدمتهم محمد فوزى الذى قال عن نفسه بعد ذلك أنه كان «طيشة» ! وجزء من عدائه للقوات الجوية كان فى الأساس ضد صدقى محمود الذى كان يتميز بقدرته على الفوز بحب الناس وجذبهم إليه على العكس منه هو .. وأتذكر أننى قلت له ذات مرة : ياسيادة القائد .. أنا مدكور أبو العز وإذا كان صدقى محمود ـ فيما بعد ـ قد قصر فى شىء فأنا اليوم مسئول على أن تصبح قواتى الجوية على أهبة الاستعداد للمعركة وقلت له إن القوات الجوية والدفاع الجوى هما أهم العناصر فى القوات المسلحة ، وهما ضمان للقوات المسلحة

كلها وفي حرب الصحراء الأخيرة لعبت القوات الجوية الأمريكية والمتحالفة دوراً كبيراً وأساسياً في سحق كل شيء في العراق وبعد ذلك بدأت العمليات الأرضية التي لم تستمر أربعة أيام، عكس ذلك حدث لنا في هزيمة ٦٧ لم تكن هناك مطارات كافية ولا إيرادات تغطي أنحاء الجبهة وكانت هناك طائرات للعدو تتسلل وتضرب الطيارين وهم في طائراتهم في انتظار الأوامر وهكذا وأيضاً آن الأوان للاعتراف بأن الاتحاد السوفيتي لم يكن حليفاً نزيهاً أبداً ولم يوفر لنا احتياجاتنا الحقيقية .

صنف ملعون

* تبدو أغلب الأحيان أنك من هؤلاء الذين يؤمنون بأن كل شيء يجب أن يكون كاملاً ومتوفراً .. ولكن أيضاً لايجب أن تتجاهل أنك خرجت مبكراً من قيادة القوات الجوية التي استمرت في طريقها ونهضتها وحققت إنجازاتها بعد ذلك في حرب ٧٣ إذن فمن جاء بعدك استطاع أن ينجز الكثير بنفس الإمكانات ؟

** كسبنا الحرب في ٧٣ بسبب النهضة التي حدثت في كافة المجالات العسكرية بما في ذلك الطيران وكما قال الرئيس مبارك فلم تضرب طائرة لنا على الأرض .. لقد كان هناك إنجاز عسكري وحضاري انعكس على الأداء العام للجيش وكل مايهمني أن يصل للناس أن القوات الجوية بريئة من الهزيمة .

* أرجو أن تطمئن فالقوات الجوية تعيش أزهى عصورها منذ حرب أكتوبر والناس على دراية بذلك فلا تقلق والمطلوب أن تتحرر أنت من آلام السنين حتى يمكن أن نخرج بنتائج أشمل وأكثر فائدة اسمح لنا أن نسألك وأنت بدأت حوارك بالهجوم على القيادات ومسئوليتها كيف كان يتم الاختيار لمواقع القيادة ؟

** لا تسألني عما هو موجود ولكن لابد أن تكون هناك دروس مستفادة يمكن الأخذ بها من أجل مصر بعيداً عن الأشخاص .

* بالضبط لذلك تكلمت أنت عن خلافات الفريق محمود فوزي مع صدقي محمود ثم مشاكلك معه ثم الحديث المرير الذي أستمع إليه الآن وقبل ذلك من خلال مكالمات تليفونية طويلة معك وكلها اتهامات لقيادات .. هل يعني ذلك أنك تتهم هذه القيادات بأنه لم يتم اختيارها طبقاً لمعيار الكفاءة ؟

** لا أستطيع أن أنفي ذلك ولا أستطيع تأكيده يعني !! كان فيه ناس عندها كفاءة وناس ليست لديهم خبرة وهذا صنف (ملعون) ولكن هناك كفاءات لم تكن تستطيع أن تقول أو تشير

الخطأ وإذا أشار للخطأ لايستمر فى موقعه مثلى .. هذا ما حدث بالضبط عندما قالوا أن الروس طلبوا خروجي وبعد ذلك سمعت أخيراً أن الفريق فوزى هو الذى تقدم بطلب للرئيس عبدالناصر لعزلى ـ والغريب أن هناك حاجات مريرة .. مريرة .. هناك مليون مثال على ذلك .

* كلما استمر بنا الحوار يظهر غضبك على الفريق فوزى وكلما حاولت الابتعاد عن ذلك تعود بى إلى هناك حتى أننى إلى الآن لا أجد مفراً من سؤالك : ما هو سر العداء القوى بينك وبين فوزى؟

** السر يكمن فى عداء فوزى للقوات الجوية وفى عداء الروس لى لقد كشفت الروس وتهاونهم وعدم إخلاصهم لقضيتنا عندما سألونى : لماذا تريدون طائرات بعيدة المدى ؟ لماذا لاتتركون إسرائيل تعيش ؟ أصابتنى الدهشة أنتم (أى الروس) تسمعون ماتقوله أمريكا كل يوم إنها لن تسمح بهزيمة إسرائيل وإنها ستجعلها قادرة على مواجهة الدول العربية مجتمعة .. وعبدالناصر ـ يرحمه الله ـ يكرر أن أمريكا هى إسرائيل وبعد ذلك يفكرون بهذا الأسلوب لقد كشفت موقف الروس وأيضاً يضاف إلى ذلك عداوة فوزى الذى أعاقنى كثيراً حتى أننى تقدمت بثلاث استقالات لعبدالناصر وهو يرفضها قائلاً : «أنا ما عنديش حد يستقيل .. ثم يعود ليقول : اصبر يامدكور .. اصبر يامدكور وسوف تتحسن الأمور ولم تتحسن أبداً» .

* ألا تشعر بالندم اليوم فى أنك كنت مبالغاً فى مشاعرك وحساسيتك تجاه ماتسميه بموقف الآخرين منك ولاسيما أن هناك قائداً آخر جاء بعدك واستمر ؟

** أولاً لاتوجد مبالغة فى الشعور بمسئولية الوطن واحترامها وجعلها فى مقدمة الأهداف، لم تكن لى أبداً أهداف شخصية إطلاقاً وأتحدى، دخلت القوات الجوية وخرجت وأنا أسير على طريق مستقيم يحترم الواجب ويقدس المسئولية والإيهام بأن هناك آخرين أتوا بعدى فى قيادة الطيران واستمروا فهذا غير حقيقى، جاء بعدى الفريق الحناوى ولم يستمر أكثر من عام ونصف وبعده على بغدادى عام ونصف إذن هناك خطأ فى الأوضاع لاتقلل من موقفى تحت وصف (المبالغة) إطلاقاً، والدليل على ذلك أن فوزى نفسه قال للحناوى إحنا تخلصنا من مدكور أبو العز يطلع لنا مدكور آخر ! لم أفعل شيئاً أكثر من أننى حاولت أن أكون على حجم المسئولية التى كلفنى بها عبدالناصر عندما قال أن أمانة البلد فى يدك .. وفى أحيان كثيرة أُدعى لحفلات سنوية للطيارين حتى اليوم وفى هذه الحفلات ألتقى بتلاميذى ولايشعرون إلا بالسعادة نحو الحزم الذى كنت أمارسه نحوهم ودائماً يقولون أنهم قد تربوا تربية عسكرية صحيحة فأنا لست بنادم، أنا لم أفعل إلا ما هو صواب من أجل القوات الجوية اسألوا أكثر من ٦٠٠ طيار تخرجوا وأنا قائد للكلية الجوية، الحزم والانضباط من أجل هدف عظيم لايدعو للندم أبداً .

ولكن مأساة ٦٧ كان سببها قيادات الثقة وانتشارهم أكثر من قيادات الخبرة وكان أهل الثقة قادرين على إزاحة أى فرد من خارج (الشلة) والمأساة أن الجيش كان يعانى من ذلك وهذا يحتاج دراسة مستفيضة .. بل إننى أدعى أن انتشار هذه الظاهرة فى القوات الجوية كان أقل منه فى باقى أفرع القوات المسلحة أهل الثقة أزاحونى من أسوان أزاحونى من قيادة القوات الجوية منذ تم تعيينى رئيساً للأركان وكان المفروض أن أعين رئيساً للقوات الجوية وهناك مشاكل ! عبدالناصر أراد تعيينى رئيساً للقوات الجوية وعامر طلب تأجيلى لمدة عام كنوع من المكافأة لصدقى محمود ولعل ذلك كان وراء (الزوغان) من لقائى !! المهم أننى اكتشفت تأثير مجموعة الضغط فى القيادة فى بلادنا بالتجربة المباشرة إذ بمجرد تعيينى رئيساً للأركان وصل إلى مكتبى اثنان من كبار الضباط أحدهما اللواء إسماعيل لبيب والثانى مدير مكتب المشير عامر وبعد التهنئة تكلما مباشرة على أنه يجب ألا يتخذ قرار إلا بالاتفاق معهما !! فقلت : «نعم! ماذا؟ الزيارة انتهت مع السلامة» .

لم أخبر صدقى محمود أيامها بذلك لأنه هو أيضاً كان خاضعاً لهما !! كان هناك خلل ضخم فى فكرة الإدارة و فكرة الشخصية المستقلة كان هناك خلل لذلك أعقب ذلك نقلى إلى أسوان كمحافظ وللتاريخ فقد كنت صديقاً لصدقى محمود قائد القوات الجوية ولكنى كنت أيضاً ضده على طول الخط فى نظام العمل وكنت أحترم فيه ذلك الموقف وأتذكر أن عامر سأله : ياصدقى مين بعدك يمسك القوات الجوية ؟ فأجاب : «مفيش غيره» قال له : مين فأكمل : «مفيش غير مدكور أبو العز» وقد حكى لى المشير ذلك الكلام وهو يشرح لى أن وجود صدقى مفيد فى التعامل فرددت عليه : ياسيادة المشير صدقى محمود صديق عظيم .. ولكن فى العمل ليس بالكفاءة المطلوبة كان رجلاً خدوماً للجميع بالنسبة لى لا أخدم إلا من كان فى الموقع الصحيح لا أخدم إلا من له الحق فى هذه الخدمة .

شقيق عبدالناصر

* هناك رأى آخر يرى أن ماتسميه أنت بالحزم كان مبالغة أدت إلى حدوث شبه تمرد عسكرى ضدك لماذا لاتتذكر هذه الواقعة ؟

** لا .. لم تكن بهذه الصورة إطلاقاً، القصة كلها أنه بعد ضرب الطائرات على الأرض والشعور بالأزمة تغيب مجموعة من طلاب الكلية الجوية أو بمعنى أدق لم يحضروا من أجازاتهم واجتمعوا فى ميدان التحرير، بعضهم بالزى العسكرى والبعض بالزى العادى - وكان منهم شقيق عبدالناصر ويسمى مصطفى وقد تمردوا على العودة للكلية وكان لديهم إحساس بالضياع وأنه لاتبدو بارقة أمل للتخرج وهنا كان لابد من موقف حازم نحو هؤلاء لأن

البلد لم تكن تحتمل مثل هذه الأفعال وقد قسمناهم إلى ثلاثة أقسام قيادات ـ ومنصاعين ـ وفريق ثالث هم السلبيون وقد وقعت عليهم جزاءات رادعة وفى مقدمتهم شقيق عبدالناصر وعندما أرسلت بالنتيجة وبالجزاءات إلى المشير عامر فقالوا له : ولكن بينهم شقيق عبدالناصر رد عامر للأمانة : وليكن، شقيق عبدالناصر لابد أن يكون قدوة. لذلك أنا سعيد بكل مافعلت .. سعيد بالحزم والضبط الذى انتشر على يدى داخل القوات الجوية ولأنه يعنى إطاعة الأوامر عن رغبة وليس عن رهبة .

وأكرر لك حتى تصبح الأمور فى مكانها الصحيح لقد اختارنى عبدالناصر لأنى كنت كفاءة ولكن هناك آخرون كانوا موضع ثقة ومنهم الفريق فوزى الذى كان عبدالناصر لديه وثائق تدينه وقال عبدالناصر ذلك لى شخصياً وقد ذهبت أشكوه ذات مرة فغضب عبدالناصر مندهشاً ووصف فوزى بأوصاف قاسية ولكنه تركه فى الجيش وبالنسبة لى ـ خاصة بعد موقف السوفيت ـ كان لابد أن أرحل وحدث ذلك وخرج معى ٢٢ لواء !! طبقاً لطلب السوفيت

ناصر والسادات ونظام واحد

* أعرف أنه تشكلت لجنة تقصى حقائق فى مجلس الشعب أيام المهندس سيد مرعى لبحث أسباب هزيمة يونيو ٦٧ وتحديد المسئولية وكنت وقتها عضواً فى مجلس الشعب فهل لم تحقق هذه اللجنة أهدافها ؟

** لقد كان الدكتور حلمى مراد هو صاحب الدعوة لتشكيل لجنة تقصى الحقائق بعد أن بدأ الحوار فى المجتمع المصرى حول تلك المسألة وبعد أن قال فوزى أن لديه وثائق حول ما حدث وقلت وقتها لابد أن تكون الوثيقة حقيقية حتى يمكن الأخذ بها ووافق المرحوم سيد مرعى على تشكيل اللجنة التى اقترحها الدكتور مراد وجعل لها مقرراً المرحوم حمدى عاشور ولم يكن اسمى ضمن اللجنة !! وقد دفع ذلك بالبعض إلى سؤاله ، فأجاب : «هو إحنا ناقصين انفعالات» ودفعنى ذلك للتساؤل من ناحية أخرى : هل تعفنت أرواح الناس حتى لاتنفعل حول واقع الوطن ومستقبله؟ فمتى تنفعل ؟ .. ننفعل إنها ليست خسارة شخصية يمكن تجاوزها بالنوم مبكراً .. إنها خسارة ضربت الدولة وهزيمة منكرة للعسكرية المصرية وضياع لثروة الوطن لذلك كتبت خطاباً إلى رئيس مجلس الشعب آنذاك المهندس سيد مدعى قلت فيه أنه إذا لم تتوصل اللجنة إلى الإجابة عن ١٩ سؤالاً حددتها فى خطابى فإنها لايمكن أن تصل للحقيقة ومرت الأيام وانتهت دورة مجلس الشعب والتقيت مع حمدى عاشور وأرانى تقريره عن النكسة وكله سب وقذف فى الفريق صدقى محمود قائد القوات الجوية وقت الهزيمة فقلت له :

ياحمدى أنت لك تاريخ معروف بالعطاء وأنصحك ألا تقدم هذا التقرير لأنه يسىء لك .. وأكملت : هل أعطاك سيد مرعى الخطاب الذى حددت فيه الأسئلة الرئيسية أمام اللجنة ؟ فأجاب بالنفى ولكنى شخصياً أثق فى أن سيد مرعى أعطاه الخطاب ولكنه نصحه بأن يهمله . !!

* حتى تستطيع أن تصل لليقين الذى تبحث عنه وحتى تستطيع أن تتخلص كقائد عسكرى من كل الآلام التى أشعر أنها تحاصرك كيف الخلاص من كابوس ٦٧ ؟ بل اسمح لى أن أسألك ما هى أسئلتك التى طالبت بالإجابة عنها دون الوصول إلى نتيجة منذ أيام الرئيس السادات وحتى اليوم ؟

** سأكشف لك وللمرة الأولى عن الأسئلة التى بعثت بها إلى المهندس سيد مرعى ومازلت أرى أن الخلاص مما تسميه كابوس ٦٧ مرهون بالإجابة عنها، لقد طالبت ومازلت بمعرفة هل كانت القيادة السياسية تعنى الحرب ؟ وهل كانت بالفعل على دراية بالواقع أم أن هناك عملية (غش) تمت حتى لاتبدو الصورة الحقيقيةواضحة ؟ أيضاً فإنه حينما تبينت القيادة السياسية عدم وجود حشود على الحدود السورية الإسرائيلية ـ ومع أن ذلك كان فى وقت متأخر نسبياً ـ فلماذا استمرت فى الاندفاع وتصعيد الموقف؟ وإذا كان مصدر أنباء هذه الحشود الكاذبة هو الاتحاد السوفيتى فلماذا استمر الاتجاه العام وهو الثقة به والاستجابة إليه حينما طلب سفيره مقابلة عاجلة للرئيس عبدالناصر ليحمله على عدم بدء الهجوم : فأعلنت القيادة السياسية أن مصر لن تكون البادئة فى الهجوم بمعنى أنها أعطت المبادأة للعدو ـ وكان لايخفى على الاتحاد السوفيتى أننا لن نتحمل الضربة الأولى؟

* لماذا تعتقد أننا لم نكن نستطيع تحمل الضربة الأولى ؟ .. وإلى ماذا تستند فى تقرير مثل هذه الحقائق ؟

** أنا رجل طيران وأفهم جيداً ماذا تعنى الضربة الأولى وعندما أتساءل اليوم عن صدق نصيحة الاتحاد السوفيتى لمصر بتحمل الضربة الأولى لأننى أعرف ـ والاتحاد السوفيتى كان يعرف ـ أن مطاراتنا محدودة العدد مما تسبب معه فى اكتظاظ الطائرات بها وتكديسها فسهل ذلك للعدو مهاجمتها فى وقت واحد دون عناء كبير ودون الحاجة إلى عدد ضخم من الطائرات لتدميرها كما أن الأجهزة الرادارية التى كانت متاحة لنا كانت محدودة العمل فلم تكن تغطى أماكن عديدة بما فى ذلك المناطق الحيوية فنشأت ثغرات بل إنها ـ أى أجهزة الرادار ـ كانت قصيرة المدى لاتكشف الطيران المعادى إلا فى وقت متأخر لايعطى الفرصة لطائراتنا للتصدى بالإضافة إلى أن قدرتها على الكشف الرأسى كانت محدودة فلم تكن تغطى الارتفاعات المنخفضة، أيضاً فإن الدفاعات عن المطارات كانت هزيلة، كما أن تسليح

القوات المنوطة بالدفاع عنها كانت غير مؤثرة أيضاً كانت الطامة الكبرى أن الطائرات كانت منتشرة على الأرض كالبط النائم .. وقد تم طلب العديد من الاعتمادات بعد عام ١٩٥٦ بدون استجابة ويتحمل فى ذلك الفريق أول متقاعد محمد فوزى مسئولية خاصة لأنه لم يأخذ درساً مما حدث عام ١٩٥٦ وللأسف الشديد كانت عقدة الجيش بالنسبة للطيران هى السبب إذ كيف يأخذ الطيران ميزانية ضخمة بينما الجيش وهو الغالبية العظمى لايكون له النصيب الأكبر فى الميزانيات .

وقد حاول محمد فوزى بعد هزيمة يونيو وبعد أن تلقى درساً ثانياً عنيفاً حاول المساومة فى الاعتمادات التى قررها رئيس الجمهورية لهذا الغرض ولكننى صددته بعنف تجاوز كل شيء، الأمر الذى جعله يرضخ لطلبى دون مناقشة .. وشخصياً اهتممت ببناء العديد من المطارات والدشم ولم أفرط ـ وتم تطوير الدفاعات عن المطارات فى عهدى، وأصبح تدمير الطائرات على الأرض عاراً نذكره لكن لانسمح بتكراره ولهذا تمكنت القوات الجوية من إثبات دورها فى حرب أكتوبر بجدارة وشرف .

* لو تابعنا التساؤل حول علامات الاستفهام التى تم تجاهلها والتى لم يسع حتى نظام السادات لتفسيرها بتحديد المسئولية وكما تقول أنها مازالت فى مجلس الشعب بدون إجابة .. فما هى ؟

** لقد تساءلت ومازلت لماذا بقيت العديد من القيادات العسكرية المسئولة عن النكسة ؟ وإذا لم تكن الدولة مستعدة للحرب .. كيف سمحت القيادة السياسية للقيادة العسكرية بأن تغلق مضايق تيران عند شرم الشيخ؟ وهل استعدت الدولة لتنفيذ هذا القرار الخطير ؟ وهل تفهمت القيادة السياسية خطورة ذلك؟ وهل كان تكليف القيادة العسكرية بإبلاغ قائد قوة الطوارئ الدولية هو الطريق السليم ؟ أيضاً فإن إبرام الاتفاقية العسكرية بين مصر والأردن كان قراراً خطيراً وكان معناه الوجود العسكرى المصرى فى الأردن بما يمثله من تهديد لإسرائيل لم يكن يمكن أن تسمح به وفى اعتقادى أن تلك كانت مصيدة وقعنا فيها وكان ذلك وراء الحرب .

* ألا تتغاضى بذلك عن أن سوريا أيضاً كانت ضحية للعدوان الغادر فى ٦٧ ؟

** لقد تساءلت أيضاً عن ذلك ولكن من وجهة نظر أخرى وقلت كيف تم التنسيق العسكرى بين مصر وسوريا ؟ وهل كانت الثقة متبادلة بين القيادتين ؟ أيضاً هل كانت ضمن الخطط الجوية لمواجهة العدو فى حرب يونيو أى خطط للانسحاب؟ وإذا وجدت لماذا لم تطبق ؟ ومن المسئول عن عدم تطبيقها ؟ وإذا لم توجد فلماذا لم توضع ؟ ومن المسئول عن عدم وضعها ؟

ولاسيما أن خطط الانسحاب لاتقل أهمية عن الخطط الجوية والدفاعية !! إنها تكون أكثر أهمية فى حال اختلال التوازن بين الطرفين المتحاربين اختلالاً خطيراً ، ولم يكن الموقف يسمح بغيرها كما حدث فى يونيو ٦٧ بل أقول إن خطط الانسحاب إذا أعدت بإحكام فإنها تفوق العمليات الهجومية الناجحة لأنها تحمى القوات والمعدات ولاسيما أن الانسحاب الفاشل يحدث ذعراً فى صفوف القوات المسلحة ويدمر القوات بأفرادها ومعداتها وهذا للأسف الشديد ما حدث فى يونيو ٦٧ .

لقد سألت لجنة تقصى الحقائق أن تبحث عمن أصدر أوامر الانسحاب وكيف تم إبلاغ القوات بذلك ؟ حتى اليوم لانعرف من المسئول عن الانسحاب الفاشل ! بل أكشف حقائق جديدة وأتساءل : عندما صدرت الأوامر مرتبكة مترددة بعبور وحدات القوات المسلحة مرة أخرى بهدف التمسك بالمضايق فى سيناء، هل كلف الفريق أول متقاعد محمد فوزى رئيس هيئة أركان حرب القوات المسلحة آنذاك ـ بمهام معينة من قبل المشير عامر للذهاب إلى الإسماعيلية والبقاء فيها ولايعود ؟ وماذا كان تصرف الفريق أول فوزى عندما سمع باقتراب العدو إلى الضفة الشرقية للقناة؟ هل بقى فى المنطقة كما صدرت إليه الأوامر أم أخذ حقيبته وتوجه إلى القاهرة بدون أوامر؟ هناك من يعرف حقيقة ذلك ولابد أن يتكلم ! .

* أسئلتك عن الاتحاد السوفيتى السابق ، يرى البعض أنها ابنة شرعية للمرارة فى علاقاتك بالخبراء الروس أثناء وجودك كقائد للطيران ؟

** المرارة لاتصنع التاريخ ولاتقدم الإجابة .. لا يا عزيزى، الحقيقة وحدها لذلك مازلت أتساءل ولن أسكت أبداً حتى نعرف ماهى حقيقة رحلة شمس بدران وزير الحربية السابق إلى موسكو قبل الهزيمة .. هل أخذ وعداً بالوقوف بجانب العرب ؟ وإذا كان وعداً ولم يتم فلماذا يقول الرئيس عبدالناصر فى مجال الحديث عن الموقف المعيب للسوفيت : «روس إيه .. الروس .. الروس ودونا فى داهية» .

وفى مجال آخر يقول عبدالناصر : «اتحاد سوفيتى إيه ؟ وحياد إيجابى إيه؟ .. الاتحاد السوفيتى غير مؤثر» .

وبصراحة فإن كلمة «لا» عن حق لو نطقت بها القيادة العسكرية من أجل مصر .. كانت يمكن أن تمنع الهزيمة المنكرة .

الوحيد والديكتاتور

* طوال حديثى مع الفريق مدكور أبو العز ظللت أتأمل أوجاعه التى لم يتخلص منها حتى

بعد عضويته بمجلس الشعب .. ورغم قناعتى الشخصية بأن حرب ٧٣ كانت بنفس الرجال وأنهم سعوا إلى تجاوز الهزيمة منذ معركة رأس العش وتداعيات حرب الاستنزاف إلا أننى ظللت أسمع باهتمام للجنرال الذى ظل يقول لا .. لأى نسيان، وكنت أخفف عبء الذكريات بتأكيدى لنفسى أن القضية ليست فى شخص من ارتكب هذا فقط، ولكنها فى أي إدارة تسود وأى رؤية كانت سائدة وتستحق التوقف والمراجعة .. ورؤية لم تكن صناعة ترد ـ حتى لو اعتقد ذلك ـ إنها الرؤية التى تنظر بشك للاستقلالية فى الاختلاف وبتوجس للمعارضة .. إنها رؤية مجتمع عربى آن الأوان لإعادة النظر فى بعض مفرداته وكنت طوال الحوار أفكر : إن تحرير الفريق مدكور أبو العز من سجن يونيو هو تحرير لجيل كامل ومن هنا استمر الحوار .

* حددت مايجب أن نبحث عن إجابة له حتى تتجاوز أول فصل للحقيقة فما هو تفسيرك لتجاهل صراخك الذى استمر كل هذه السنوات ولاسيما أنك ذكرت أسماء عديدة كانت فى قمة المسئولية مع الرئيس السادات ؟

** الرغبة فى إخفاء أو تجاوز قضية تحديد المسئولية عن ٦٧ لم يكن أحد على استعداد لذلك حتى الرئيس السادات نفسه لم يكن يرغب فى ذلك لأنه كان مديناً بصعوده لقمة السلطة لعبد الناصر، كان هناك سلوك فى السادات نوعاً من الوفاء، كان الجميع (فوق) مش عاوزين تعرية النظام .

* أى نظام وقد تغير كل شىء وجاء الرئيس السادات ؟ الذى ألغى ما قبله ؟

** لا .. لا .. كان النظام مستمراً، الوهم أن يعتقد البعض أن نظام السادات لم يكن امتداداً لنظام عبدالناصر صدقونى إنه نظام واحد بألوان مختلفة، صدقونى كانت هناك رغبة فى حماية شكل النظام نسوا أن الحاجة للحقيقة من أجل الأجيال القادمة أهم من مسألة شكل نظام الحكم وكان السادات حريصاً على أن يعلن أنه خليفة عبدالناصر بالرغم من أنه حطم الكثير مما شيده عبدالناصر وتلك المعادلة الصعبة !

* تعاملت مع رئيسين ـ عبدالناصر والسادات ـ ترى أن النظام الثانى كان امتداداً للأول بصورة ما، ولكن من المؤكد أن هناك فرقاً بينهما ما هو ذلك بعينيك أنت ؟

** جمال عبدالناصر كان حاكماً وحيداً صريحاً .. لكن السادات كان يخفى ديكتاتوريته خلف ستارة من القوانين التى ينسجها هو بنفسه فيخلق قوانين العيب أو حماية القيم وكلها غطاء وهذه هى شخصية السادات ولكنه على المستوى الإنسانى كان ألطف وأظرف الناس الذين يمكن أن يجلس المرء معهم، وبالمناسبة عبدالناصر لم يفعل فى شيئاً سيئاً لكن الذى فعل هو السادات !! ذلك أننى كنت أرسلت إليه عريضة من ٤٧ صفحة بعنوان خبرتى مع

السوفيت وكنت قد اشتركت فى عريضة أخرى اشترك فيها عبداللطيف البغدادى وكمال الدين حسين والسيد الشرباصى وعصام الدين حسونة وزير العدل - والدكتور مصطفى خليل ونقيب المهندسين عبدالخالق الشناوى ونقيب الأطباء آنذاك وآخرون على حكاية الصبر والصمت التى كان يتكلم عنها قبل الحرب، وكان السادات قد علق على الخطاب الأول لهيكل بأنه صحيح مئة فى المئة لكن هذا لم يمنعه من أن يصف موضوع العريضة الثانية أنه انقلاب وسرعان ما طلب منى أحد ضباط أمن الدولة الذهاب لمقابلة النائب العام بدر المنياوى حيث وجدت ثلاث جنايات فى انتظارى أولها إفشاء أسرار عسكرية وثانيها أننى أؤسس حزباً برئاستى وثالثاً أنى أتآمر عليه، وقد تألمت جداً لأنه بذلك ضمنى تحت لائحة اتهام عقوبته الإعدام !! وقد نفيت الادعاءات كلها وقلت أننى لم أسع للحكم وقت أن كان النظام كريشة فى مهب الريح بعد هزيمة يونيو ! فكيف أفكر فى ذلك الآن وأنا أرتدى الثياب المدنية وقلت للنائب العام كنت أستطيع ذلك وأنا فى القوات الجوية ولم أفعله فلماذا اليوم ؟ فرد بأن ذلك هو تقرير رئيس المخابرات آنذاك وكانت مفاجأة بالنسبة لى ودهشت لأن رئيسه كان اللواء أحمد إسماعيل ! وسبحان الله تمر الأيام ويختلف السادات مع الروس فيقابلنى السيد حامد محمود وكان وزيراً للإدارة المحلية ويقول : أنت كنت قدمت للسادات عريضة عن خبرتك مع الروس لازم تنشر ! فقلت له بشرط عدم حذف حرف واحد فوافق وتم بالفعل ذلك فى جريدة الأخبار - وقد تحسنت علاقتى بالسادات بعد ذلك لاسيما أننى أيدت مبادرته بصدق وقلت ذلك فى كلمة أمام مجلس الشعب استمرت ساعة ونصف أبلغنى عثمان أن السادات استمع لها بالكامل - ولكنى أستطيع أن أقول بأمانة اليوم أننى منحاز لتجربة حكم الرئيس مبارك ولا أجامله ولكن سياسته تقوم على التروى والتأمل فهو لايعطى قراراً قبل دراسته وهذا شىء مهم .. بأمانة مبارك ليس ديكتاتوراً وهذا أبرز سماته وهو بصراحة يعمل لمصلحة البلد ولايوجد مكان لايذهب إليه ولايوجد شىء لايعرفه ولديه طاقة عظيمة للتحرك تجاه مواقع الحياة فليس من عشاق الأبراج العالية، لديه رحابة صدر ومعى أنا شخصياً كان دائماً شديد الكرم وقد طلبت منه ذات يوم علاج أحد العمال البسطاء فى بلدتنا بعد أن سقط من فوق مئذنة المسجد وفعلاً لم يتردد وأشار إلى أن هذا الشخص إذا لم يتحقق له الشفاء الكامل يمكن إرساله للخارج لاستكمال العلاج، فعل ذلك لقناعته بقضية الخير وشفقة على الإنسان البسيط والصغير وإحساسه الإنسانى تجاه البشر ولديه عاطفة صادقة نحو شعبه .

* من يقرأ هذا الحوار فإنه سيشغله بعيداً عن التفاصيل مايتردد بين السطور وفى المقدمة منه أنك تنظر بعين نافذة وقاسية للقمة - أقصد لنخبة القيادات، وذلك موضوع يستدعى مزيداً من الحقيقة من رجل عسكرى مثلك لأنه يلقى ببعض الضوء لعلنا نستفيد منه فى المستقبل

الذى لانمل الحديث عنه دون أن نتساءل ولو للحظة واحدة ما هى قوانينه ؟

** وفى تقديرى أن هناك قيادات عديدة غير جديرة بمنصبها وفى رأيى أن المشير أحمد إسماعيل كان أدنى مستوى من القادة ـ وهذه حقيقة للتاريخ وليست حقداً عليه ـ وأتذكر أنه يوم ١٤ يوليو عام ٦٧ اتصلت صباحاً بالفريق فوزى وقلت له أن لدى معلومات بأن الحال على الجبهة ليس على مايرام، لماذا لم تصلنا أوامر ـ كقوات جوية ـ للتدخل ؟ وطبعاً كان لم يمض على وجودى أكثر من أربعين يوماً فى موقعى، ونفس الفترة منذ حدوث الهزيمة ؟ فقال : أنت عارف إن إحنا مش عاوزين نصعد لأننا فى مرحلة إعادة جمع قوتنا بينما العدو مستعد «فصمت وقلت: مؤكد أنه أدرى بالظروف من كافة الجوانب، ولكن لم يمض سوى وقت بسيط ورن التليفون وكان المتحدث هو أحمد إسماعيل ـ وكان وقتها قائداً للجبهة ـ وكان فى حالة انهيار شبه كامل وهو يشكو أنه ليست لديه السيطرة على القوات وأن هناك مناوشات عنيفة من الإسرائيليين بالأسلحة الثقيلة وهناك هياج بين قواته وبدأ يقول : وحياة أولادك اتصرف وشوف حل ثم بدأ يبكى وهنا أحسست بالقلق والضيق وبدأت أفكر ماذا يجب أن أفعل .

ملحوظة : عند هذه الكلمة نظر الفريق مدكور أبو العز ناحيتى وقال .. يا أخ محمد .. وعاوزنى ألا أتكلم فى الماضى .. عاوزنى ألا أحكى ما حدث عاوزنى ما أنكرش اللى فات والله هذا لايصح منك وعاد مرة أخرى لسرده : المهم قلت له طيب أنا جايلك ؟ قال : يعنى إيه ؟ قلت له: «جايلك ملكش دعوة، وفعلاً كان داخلى إحساس عنيف بأننى لابد أن أنقذه وأساعده ـ اتصلت مباشرة بفوزى لأنه قائد عام القوات المسلحة، وقلت له : ياسيادة القائد ما سمعته الآن عن الحالة فى الجبهة لايجعلنى أجلس دقيقة واحدة على مقعدى وأنا أبلغك قبل ما أنفذ !! فقال : يعنى إيه ؟ قلت له : هل عندك أهداف معينة ؟ فأجاب : «لا والجبهة أمامك» هنا عرفت أنه لاتوجد قيادة ! وحقيقة كنت مدركاً أننى يمكن أن ألتقى بالسلاح الجوى الإسرائيلى المتفوق ونحن مازلنا نلعق جراحاً تنزف بغزارة وأوضاع متردية، ولكن هل أترك القوات منهارة نفسياً ؟ وهل أسمح بأن يقال مرة أخرى بأن الطيران لم يستجب للظرف الطارئ؟ .

ومن سيقرر وقتها أنه ليس لدى مطارات أو دشم لحماية الطائرات العائدة أو أن تدفع إسرائيل بقوات جوية مضاعفة للانقضاض ؟ أسئلة متداخلة لكنى حسمتها سريعاً بأن توجهت إلى القواعد وطلبت من الطيارين أن يبرهنوا على براءتهم من الاتهامات الظالمة وأن ينطلقوا مباشرة وبالفعل كانوا جبابرة، والله كانت الضفة الشرقية مشتعلة وكان ذلك يوم البراءة للطيارين وبسبب قلة الطائرات والطيارين كان الطيار يقوم بما يزيد على ١٣ طلعة جوية وهى معدلات مرتفعة جداً وفى المساء وبعد منتصف الليل بساعة اتصل بى فوزى وقال إن مجلس الأمن منعقد وإسرائيل تطالب بوقف إطلاق النار فقلت له موافق .

ملحوظة ومرة أخرى يتوقف مدكور أبو العز عن الاستمرار فى الرد ويتساءل : هل سمعت عن هذه الضربة ؟ لم يسمع بها الكثيرون وتقول لى نتكلم عن الغد أى غد هذا بدون معرفة إيه إللى حصل أمس .

وواصل بعد ذلك : أين أحمد إسماعيل بعد ذلك ؟

أقول إنه مدير المخابرات الذى تقدم بتقرير يتهمنى فيه بأننى أقوم بتكوين حزب مضاد للدولة قبل حرب ٧٣ يومها ممدوح سالم قال للسادات : «ياريس لو حاكمته مدنياً هيطلع بطل» وكان يقصد بذلك أن يتجاوز السادات القضية وينساها، ولكن فجأة تقدم أحمد إسماعيل وقال له : «ياريس تحاكمه عسكرياً فى غرفة ويأخذ عشر سنوات فى السجن» !! .

ظللت سنوات بعد ذلك أفكر فى هذا الكلام وكيف يمكن تجاوز العدالة فلم تكن هناك قضية ولكن المأساة هى فى الرجال، المأساة فى القادة الذين تسأل عنهم، أحمد إسماعيل كان يرغب فى إرضاء السادات على أشلاء أو على أشلائى الحقيقية .

* هل تمنع هذه الواقعة ـ المريرة ـ من القول بأنه كان قائداً عسكرياً متميزاً ؟

** ما أعرفش لكن أعرف أن عبدالناصر عزله بعد سرقة محطة رادار فى البحر الأحمر وكان هو وقتها رئيس الأركان !! والإشارة فى سؤالك عن دوره فى حرب ٧٣ أقول لك بوضوح حرب ٧٣ كلها بتاعة الجمسى كان العقل المفكر للحرب ـ وكان رجلاً عسكرياً من طراز محترم .. وشخصاً يحترم كلمته .. وأتذكر أننى التقيت معه فى مجلس النواب المصرى السودانى وحضر مع السادات كمستشار له وقال لى هل استدعوك فى لجنة كتابة التاريخ ؟ فأجبته بالنفى فقال : والله أنا وضعت اسمك نمرة ٣ !! تسألنى لماذا ؟ لا أعرف ولكنى أعرف شيئاً واحداً أنها ليست (عزبة) للبعض وأننى لا أنحنى إلا لما فيه مصلحة بلدى ولن أقول أبداً ما يخالف الحقيقة .

* هل مازلت مؤيداً للسلام حتى اليوم ؟ وألا تشعر بالحاجة لتغيير وجهة نظرك بعد ما حدث على أرض الواقع ؟

** شوف أمريكا لن تسمح بهزيمة إسرائيل وعبد الناصر كان يقول أمريكا هى إسرائيل وأمريكا سوف تستمر فى تسليح إسرائيل بما يجعلها تتفوق على كل البلدان العربية، والولايات المتحدة لن تتخلى عن إسرائيل فى أي معركة لهذا كله كنت أرى أنه لا مفر من السلام ولكن تأييدى لمبادرة السادات لم تمنع معارضتى له فى كل القوانين المعيبة التى أصدرها ورغم أننى وفدى لحماً ودماً إلا أننى فضلت دائماً الاستقلال عن الأحزاب لأنى صاحب رأى وتجربتى الوحيدة عندما كنت عضواً فى حزب مصر ثم فجأة انتقل الحزب بوزرائه وقواعده إلى الحزب الوطنى قبل إنشائه بصورة (مش طيبة) فما كان منيأنا و ٢٠

شخصية إلا أن رفضنا ذلك، لكن أحب فقط أن أعود لأكرر أننى مازلت أرى أن السلام هو الحل الوحيد للمشكلة مع إسرائيل .

* ليس هناك اختلاف على الحاجة الإنسانية السلام ولكن أى قارئ للأحداث هذه الأيام وما قدمه العرب من تنازلات لتحقيق السلام والرد الإسرائيلى السلبى على تلك التنازلات جعل الكثيرين يعيدون النظر فيما كانوا يرددونه فما رأيك أنت ؟

** الموقف الأمريكى من دعم إسرائيل بلا ضابط أو رابط موقف (سخيف) ولاسيما أنها تلعب دور الوسيط أحياناً ولكنها تظل دائماً منحازة ولكن مع النفس الطويل فى عملية السلام

صورة رجل شريف

لقد اعتقلت يوم ٢٣ يوليو وأنا فى طريقى للقاعدة كان يوماً عادياً ذهبت فيه للقاعدة حيث التقيت بالمرحوم حسن إبراهيم ووجدت دبابات تحيط بالمكان ووجدته يقول لى: من الأفضل أن تعود للبيت لأن النظام تغير. فأجبته : نظام إيه يا حسن ؟ هو أى حد يقول ارجع بيتك، أرجع بيتى لا .. لابد أن أعرف، فأخذنا فى سيارته إلى مجلس قيادة الثورة وهناك سمعت صوت عبداللطيف البغدادى والتقيت به وكان قائد جناح وقال إن الملك أيامه انتهت وجاء جمال سالم وتكلم بصورة غير لطيفة واعتذر عنها فيما بعد بل وبكى وقال البغدادى يوم واحد معنا وبعد ذلك اتفضلوا وستصبح أنت ـ يقصدنى ـ قائد محطة، وبعد ذلك أصبح طيارو السرب الملكى مقربين من عبدالناصر ومجلس قيادة الثورة ـ احترموا موقفنا المتمسك بالشرعية .

كنت أشعر دائماً بأن عبدالناصر يقدرنى ولكنه لايجب أن أعمل معه لأنى صاحب رأى وتلك مشكلة فى بلادنا فالحاكم لايريد الشخصية المستقلة .

لست حزيناً على أى شىء فصدقنى فأنا قد استنفدت كل الفرص التى أتيحت لى والحمد لله لست فى حاجة لشىء صدقنى أشعر بالسعادة .

ابنى الكبير يعمل فى الرقابة الإدارية والثانى فى أعمال حرة .

لدى ١٣ فداناً أمتلكهم بالوراثة لم أحقق مكاسب مادية ولكنى سعيد بحب الناس عندما يلتقون بى ويقولون هذا مدكور أبو العز هذا التقدير أعظم وسام على صدرى .

عرض على الرئيس عبدالناصر أن أتولى مسئولية الطيران وأيضاً الطيران المدنى ولكنى رفضت كان لدى اقتناع بعدم جدية الأمر أو بصراحة كان داخلى قدر كبير من الضيق .

السادات لم يعطنى شيئاً وأنا كنت غير منتظر لأى موقف منه فيه نوع من التقدير .

لايوجد مايسمى بالشرف العسكرى . الشرف ليس له ألوان أو يمكن نسبته لوظائف . الشرف واحد لذلك أنا فى الجندية مثلى الآن فى المدنية نفس الإنسان .

الحمد لله ربنا سترها الحمد لله ربنا أعطانى ولدين فى منتهى الأخلاق الطيبة وحياة مستقرة.

أزرع أرضى بنفسى وهذا سبب وجودى كثيراً خارج القاهرة حيث أعود إلى دمياط ـ محافظتى ـ باستمرار وقد زرعت الأرض (عنباً) ولكنى فشلت وبدأت أزرع (حبوباً) .

لا والله مش سعيد فى هذه المسألة !! لأن الكفاءة أصبحت نادرة والعامل يشتغل ٣ ساعات ويكتفى بذلك !! والسبب فى ذلك الرئيس عبدالناصر يرحمه الله ـ لأنه أعطى الناس حقوقاً لايستحقونها !! وأنا صغير كنت أشاهد زرافات من الناس ذاهبين فى الفجر للعمل فى الحقول ويستمرون فى العمل حتى بعد العصر كنت تسير بجوار الحقول فتجدها مزروعة أولاد وبنات بملابسهم الملونة يعملون اليوم لايعملون، إلا فترة الصباح بالإضافة للاستغلال السيئ للكهرباء فى الريف حيث يظل الناس أمام التليفزيون حتى بعد منتصف الليل فمتى يستيقظون ؟ .

ملاحظة لابد منها

* من لايعرف قيمة العمل والاجتهاد فى حياة الفريق مدكور أبو العز قد يعتقد أنك تطل على بسطاء الناس وترى أن مهمتهم فى الحياة لاتحتمل أن يعيشوا كثيراً أو يستمتعوا بحقوقهم الآدمية؟

** إطلاقاً لست ضد سعادة الناس لست طبقياً لكن أحترم العمل أفهم أن الحياة مسئولية وأن العمل عبادة، بصراحة هذا ما أفهمه لكن الكلام عن الطبقية هذه المعانى ليست فى خاطرى لأننى لست من الأرستقراطية ولم أحقق امتيازات مادية .

عندما دخلت مكتبى كقائد للقوات الجوية لأول مرة وقف سكرتيرى وكان اسمه حسن عمارة ينظر إلى بعد أن قلت (بسم الله الرحمن الرحيم) ثم شاهدنى كيف تعاملت مع (المقعد) الذى سأجلس عليه فقال لى «ليه يا افندم إنها نعمة ! فقلت له : أنا أكثر البشر شكراً لله على نعمته ولكنى أقول أيها (المقعد) أنت لاتساوى إلا (شوية جلد وشوية خشب) ولن يكون ذلك سبباً فى أن أخطىء التقدير أو الحكم على الأشخاص» .

لست عنيفاً هذا حكم غير دقيق إننى أحترم فكرة المسئولية نحن نكره أو نحب ما يرتبط بالوطن .

محمد على فهمى

حائط الصواريخ وسام على جبين العسكرية العربية

اليقين .. هو ذلك المعنى الذى يؤرق العقل العربى وبدونه تظل الأسئلة معلقة على حبال الشك وتظل الحيرة بحراً متلاطماً تغرق فيه أى محاولة للنهوض .

والمشير محمد على فهمى (القائد العسكرى) الذى شيّد حائط الصواريخ الشهير وشارك فى الحروب الحديثة منذ الحرب العالمية الثانية إلى حرب أكتوبر ١٩٧٣ هو أحد هؤلاء الرجال الذين يمكن أن نتلمس عندهم ذلك الخيط الفاصل بين الحقيقة والوهم .. فقد كان هناك عندما وقعت نكسة يونيو ١٩٦٧ .. وكان هناك عندما حدث العبور عام ١٩٧٣ .. ومابين الهزيمة والنصر مازالت أسئلة عديدة معلقة .

قبل وفاته بنحو عامين وتحديداً فى أحد أيام مايو ١٩٩٧ كنت أدخل فيلا أنيقة، فى أحد أحياء مصر الجديدة كان اللقاء .. صالون كلاسيكى .. ألوان هادئة .. إضاءة خافتة .. ورئيس أركان حرب القوات المسلحة الأسبق وأحد أشهر قادة الحروب الألكترونية بملابسه الأنيقة البسيطة ووجه مرحب ولكن لايعرف أن ما سمعته كثير وأن ما أبحث عنه الكثير .. حتى أننى قلت له وهو يسألنى : لماذا الحوار ؟ وأجبته : لأننى أؤيد أن المزيد من الحقائق يعنى مزيداً من القدرة على الحكم على ما حدث واختيار الطريق نحو ما يجب أن يحدث وأن المستقبل الذى نتحدث عنه لن يتحول من فكرة إلى حقيقة إلا بعد أن نستطيع أن نرى أكبر مساحة من الطريق المؤدى إليه .. ومع بداية اللقاء تساءلت داخل نفسى لماذا يوجد فى قاع بعض الشخصيات التى لعبت أدواراً مؤثرة عسكرياً أو سياسياً ـ قدر من المرارة ؟ سؤال تردد داخلى ولم أعلن عنه بصوتى المرتفع ولكن بداية الحوار .. وتداعى الحديث كشف أن السؤال فى مكانه وأن المرارة بدأت من هناك : قبل الحرب بستة شهور طلبنا الرئيس السادات أنا ـ واللواء حسنى مبارك (قائد القوات الجوية آنذاك) للذهاب معه فى رحلة إلى ليبيا وسوريا وقال أنه طلبنا لأننا أكثر القادة تحملاً للأعباء فى القوات المسلحة وأن هذه الأعباء ستزداد مع الاستعداد لتحرير الأرض وأضاف : أنا طلبت حضوركم علشان تكون الرحلة أقرب للراحة الإجبارية وفى نفس الوقت تطمئنون على أولادنا الذين يتدربون فى ليبيا وسوريا .

قرار الحرب

وأذكر أنه أخبرنا فى تلك الجلسة بأنه اتخذ قرار الحرب وأن المعركة ستحدث خلال خمسة

شهور ولابديل عنها لأن الغرب يعتقد أننا جثة هامدة ولا مفر من الحرب لتحريك القضية وقال : أنا أعتبر قواتك ياحسنى .. وأنت يامحمد هى المسئولة عن توفير التغطية لأولادنا وبدأت بشرح السيناريو ، وأضاف (اعملوا معركة مشرفة وأنا سوف أكرمكم فى مجلس الشعب ، كما أنكم سوف تستمرون فى القوات المسلحة مدى الحياة ، وأظن أنك يا حسنى وأنت يا محمد أن أولادكم صغار وأحب أن تطمئنوا أن أولادكم وأولاد أى مقاتل هم أولادى وستتكفل بهم الدولة وأنا أعطيكم الحرية فى استخدام قواتكم بالطريقة الأمثل وأنا مسئول عن النتائج).

ويستمر القائد الذى حصل على رتبة المشير بمناسبة مرور ٢٠ عاماً على حرب أكتوبر : ما حدث بعد ذلك أنه تم تكريمنا وحصلنا على النياشين ولكن تغير أمر استمرارنا فى الجيش .. وأذكر أنه أيام التعديل الوزارى الذى تم بمجيء وزارة ممدوح سالم أن أخبار اليوم نشرت اسمى على أننى مرشح وزيراً للحربية وقد أصابتنى الدهشة لذلك الأمر لأن ترشيحات الوزارة لاتتم بهذه الصورة .. وبعد وقت اعتبرتها بالونة اختبار من الرئيس السادات الذى كان قد اتخذ القرار بتغيير القيادات العسكرية وقد أخبرت الجمسى أن السادات قرر أن يقلب الصفحة .. وهو قادم على مرحلة مختلفة وسوف يقوم بتغييرنا علشان يعطى انطباعاً للعالم الخارجى أن المجموعة التى ستقود السلام غير تلك التى يمكن أن يقال أنهم صقور الحرب ، وقد غير السادات بالفعل القيادات السياسية والعسكرية ، واحتفظ بنا كمستشارين !

* ما هو الشعور الذى بقى معك حتى اليوم من هذه اللحظات ؟

** كانت هناك مرارة من الأسلوب الذى خرجت به من القوات المسلحة .. فقد فوجئت بالمسألة تماماً .. فقد كان آخر ما قمت به هو حضورى لبروفة العرض العسكرى كرئيس أركان وأذكر أننى قمت آنذاك بالاتصال بالجمسى وكان وزيراً للدفاع وأخبرته بالتعديلات التى قمت بها حتى يلاحظها فى بروفته هو ثانى يوم .. فقال : لا .. الأمور تطورت .. تعال نشرب فنجان قهوة ونتكلم .. فقلت له سأغير ملابسى وأحضر .. وبالفعل ذهبت إليه فوجدته يخبرنى بأن الرئيس السادات طلبه وأخبره أنه سيغير القيادات العسكرية كلها وفى مقدمتها الجمسى ومحمد على فهمى ليصبح كمال حسن على وزيراً للدفاع – وبدوى رئيساً للأركان ! فقلت له : عموماً ليس لدى تعليق .. وإن كان كلامى تحقق – وسألته : هل طلبنى ؟ .. فأجاب الجمسى : لا .. أنا قلت له محمد سيحضر لمقابلتك فقال لا .. بلغه أنت .. وكان ردى : خلاص .. أنت بلغتنى وأنا سأجمع أوراقى وأمشى .. وخرجت من موقعى بهذه الصورة ! الأسلوب كان المشكلة فلم أتوقعه.. ولاسيما أنه تم إبلاغى الساعة الواحدة ظهراً وبدأت إذاعته مباشرة من الساعة الثانية بشكل مستمر .. أقول مرة أخرى أن الأسلوب كان يمكن أن يكون أفضل مما حدث !

* هل هذا الأسلوب هو المعتاد مع القادة فى المؤسسة العسكرية المصرية ؟

** لا .. مفيش قاعدة .. إنها مسألة أسلوب ، فأسلوب السادات يختلف عن أسلوب عبدالناصر .. فالقائد الأعلى له أسلوبه .. ولكنى أكرر أننى كنت أتوقع الخروج من موقعى .

* الخبر المنشور فى أخبار اليوم كان وراء إحساسك بالتغيير القادم ولكن ألم تشعر برياح التغيير وأنت توقع اتفاقية الاشتباك مع الإسرائيليين ؟

** الواقع الطبيعى أن الحرب كانت من أجل السلام .. كانت معركة السلام معركة أخرى وقد قالها لى تشاوشيسكو رئيس رومانيا فى تلك الأوقات .. قال : أنا رجل عسكرى وأحب أن تعرفوا أن معركة السلام أصعب من الحرب ولن تجدوها سهلة وهذا ما حدث بالطبع . وهنا لابد أن نتذكر أن الحرب أداة من أدوات السياسة يستخدمها رئيس الدولة لفرض إرادته عندما تتعذر الوسائل الأخرى .. نحن حققنا بالحرب الهدف المباشر ولكن تحرير كامل التراب قد تحقق من خلال المعركة السياسية ـ قبل ذلك حررنا جزءاً من الأراضى وحركنا القضية وأوقعنا خسائر بالعدو وأقنعناه أنه لابديل عن السلام وأن الحرب لا تحل المشكلة وأنه لايمكن أن يحتفظ بالأراضى والسلام معا .

* تتحدث عن أن الحرب كانت لتحريك القضية .. وفى حوار لى مع المشير الجمسى أكد أن الرئيس السادات وحده هو الذى كان يعرف بالضبط ماذا يريد ! لذلك فوجئ الكثيرون بالتغيرات السريعة التى حدثت .. فما رأيك ؟

** الكلام قد تعوزه النظرة الصحيحة .. ففى حرب أكتوبر حررنا الأرض أى أن تحرير الأرض كان نتاج حرب أكتوبر .. فالعدو بعد الحرب أصبح على اقتناع بألا يتجه نحو حرب أخرى .. وقال أحد جنرالات إسرائيل تعبيراً عن ذلك أن العرب لو أطلقوا طلقة سنرد باثنتين ولكننا لن نذهب للحرب معاً .

إذن فنحن حركنا القضية سياسياً ولكن عسكرياً تم التحرير .. هدفنا كان واضحاً وكانت إمكانياتى العسكرية لاتساعدنى على تحرير كامل التراب الوطنى عسكرياً .. والغرض بصراحة كان تدمير قوات العدو .. وبعد ثلاثة أيام نجحت فى ذلك .. فخسرت إسرائيل طائرة كل ساعة ودبابة كل ربع ساعة حتى أن كيسنجر عندما اتصل بجولدامائير يوم ٨ أكتوبر مساء ليعرف منها الأوضاع أخبرته بالخسائر فرد عليها : YOU ALLREDY IOST THE WAR . (لقد خسرتم الحرب) وانتابه القلق على إسرائيل، وابتدأت أمريكا فى إقامة الجسر الجوى يوم ٩ أكتوبر وبلغ ذروته يوم ١٣ ـ وتكلف ٨٨ مليون دولار كوسيلة نقل فقط، وتتحدث جولدامائير عن تقريرها وقالت أننا لن ننسى طائرات أمريكا التى أعادت للشعب الإسرائيلى الحياة .

* الحقيقة هى التى تجعل اليقين كاملاً .. وحرب أكتوبر تحتل مكانها فى حياتنا بالحقائق وغير ذلك ينوب مع شمس الأيام .. مازال هناك ـ على الطرف الآخر ـ من يقول لم ينتصر العرب ولم تنهزم إسرائيل ومازال هناك فى الغرب من خرج مؤخراً ليقول نصف نصر للعرب ونصف هزيمة لإسرائيل .. ماذا تقول أنت فى شهادتك للتاريخ ؟

** هذا هو هدف أمريكا الذى اتضح من موضوع الثغرة، ولذلك أقول أنها مقولة غير سليمة ورؤية غير صحيحة فالعملية من وجهة نظر الغرب كانت صراعاً بين السلاح السوفيتى والسلاح الأمريكى وكيسنجر قال لن نسمح بانتصار سلاح الروس، وكانت الثغرة وسيلة إعلانية لترويج هذا المعنى، على أرض الواقع كانت الثغرة نقطة ضعف ولم تكن نقطة قوة وفى الدراسات الخاصة بنتائج حرب أكتوبر قال الأمريكان أنفسهم أن الاختراق القلمى ـ أى على جبهة ضيقة ـ فى عمق العدو لكى ينجح يجب أن تكون القوات الجوية لصاحب الاختراق هى المسيطرة وقادرة على عزل أرض المعركة ومنع أى هجمات مضادة على القوات التى قامت بالاختراق، والقوات الإسرائيلية لم تكن قادرة على تحقيق ذلك بدليل أنه كان لدينا خط (شامل) لتصفية هذا الجيب، وقالوا هم فى دروسهم .. أن القوات التى تقوم بالاختراق إذا لم يتوافر لها ما سبق ذكره فإنها ستجد نفسها فى موقف خطير مثلما كان حال موقف القوات الإسرائيلية بين الجيشين الثانى والثالث المصرى بعد الثغرة .

* وهل كان الإنجاز السياسى الذى تم بعد ذلك قريباً مما كنت تأمل أو تتوقع ؟

** لقد تحررت الأرض .. ونحن بذلك حققنا الهدف بغض النظر عن الوسيلة .. وأنا أرى أن أكتوبر كان زلزالاً وما نعيشه حتى اليوم هو توابع الزلزال .. وتحرير باقى الأراضى العربية هو هدف تابع لحرب أكتوبر .

* يرتبط بهذه المعانى ما سبق أن صرحت به من أنه لن تكون هناك حروب أخرى .. فهل مازلت على هذا الاقتناع رغم مانشاهده على المسرح الشرق الأوسطى من تعنت إسرائيلى حيناً .. واستعراض للقوة حيناً آخر ؟

** الحرب ليست لعبة .. إنها باهظة التكاليف ـ وحرب الخليج مثال على ذلك .. ففى تلك الحرب نرى أن أقوى دولة فى العالم كانت تعتمد على قيام دول الخليج بتحمل النفقات .. والحرب لايقدم عليها سوى مغامر ولكى نوقفه عن مغامراته لابد أن يكون هناك عامل ردع، أى قوات قادرة على أن تمنع البلاء قبل وقوعه أى نمنع الحرب بالردع .. ولكى نحتفظ بقوات عسكرية قوية لتؤدى هذا الدور لابد من اقتصاد أقوى وهذه هى سياسة حسنى مبارك ـ وبصراحة لا أعتقد أن إسرائيل ستتحرك عسكرياً بدون أن تمنحها أمريكا الضوء الأخضر فهل من مصلحة أمريكا أن تكون هناك حرب فى المنطقة : لا أعتقد .. إذن لِمَ تسمح لإسرائيل

بإشعال حرب ؟ .. أما إشارتك لتصريحات نتنياهو فإننى أقول أن الكلام سهل .. ولكنى مهتم بما يمكن أن يحدث وما هى التوقعات القادمة .. فاليوم ظروف المنطقة تغيرت .

وهنا وللمرة الأولى يطلب المشير محمد على فهمى إغلاق جهاز التسجيل ورغم إشارتى إلى أن ما يثيره قد تحدثت عنه تقارير إخبارية عديدة وأن الدول التى يشير إليها اعترفت بصحة هذه التقارير وأن ما كنا نخشى الإشارة إليه على أنه يسىء لمعانى الوطنية فى زمن بات أمراً يمر بدون تعليق إلا أنه ظل متحفظاً فى مطلبه !! ـ ثم عاد الحوار لمجراه :

وأستطيع أن أقول أن المنطقة تغيرت خلال العشر السنوات الأخيرة وترتب على ذلك تغيير فى التفكير السائد لأن الضوابط اليوم غيرها منذ سنوات لذلك لا بديل عن أن يكون السلام عن طريق التفاوض ويجب ألا ننسى أنه كان هناك تعنت إسرائيلى معنا أكثر مما هو يحدث الآن ولكن كل مشكلة لها حل والسلام مشوار صعب ملىء بالأشواك ويحتاج من العرب وحدة الصف ووحدة الكلمة وأن يكون العمل فى اتجاه تحقيق هذا بهدف الحرب، فى المقابل لن تحقق سوى مزيد من الكراهية والضعف ومزيد من التدهور الاقتصادى ومزيد من الإرهاب .

* بهذه الرؤية تطرح وجهة نظرنا كعرب فى أهمية السلام .. ولكنك لم تطرح رؤيتك لوجهة النظر المقابلة ؟ وهل يعنى ذلك أنك ترى حرب أكتوبر آخر الحروب ؟

** أنا أتكلم أيضاً من وجهة نظر إسرائيل !! فليس من مصلحة الشعب الإسرائيلى عكس السلام .. فعندما أقول هناك إرهاب فهو ضد من ؟ وعندما أقول هناك تدهور اقتصادى فهو ضد من ؟ .. ضد إسرائيل أيضاً لأنها ضمن المنطقة .. وهذا ليس من مصلحة إسرائيل ـ من ناحية أخرى فإننى أقول إن الجيل الحالى لن يشاهد حرباً مثل حرب أكتوبر وحروب المستقبل لن يكون فيها منتصر وكلا الطرفين سيتحطم والأسلحة كلما تطورت مثلما يحدث الآن أصبحت وسيلة ردع ولكن فى تصورى أيضاً ـ فإن الحروب الإقليمية سوف تستمر لأنها تعود بالفوائد على مافيا السلاح التى تسخن بؤر التوتر لإنعاش سوق السلاح .

بكائيات يونيو

* تقترب ذكرى حرب ١٩٦٧ .. ولا بديل عن ذكريات عما تم لاسيما أنه يبدو أحياناً أننا لم نتجاوز هذه الهزيمة المريرة .. فما رأيك أنت وكنت شريكاً كقائد عسكرى آنذاك وهل عبرنا هذه الأزمة بالفعل ؟ وهل تم تقييم الأداء العسكرى المصرى بعيداً عن الدعاية المضادة ؟

** الحرب أداة من أدوات السياسة إذا أسىء استخدامها كانت النتائج سلبية .. والذى يستخدم هذه الأداة هو القيادة السياسية فإذا دخلت هذه القيادة الحرب وهى غير مستعدة أو فى غير الزمان والمكان الملائمين إذا لم تحسب بدقة كافة الظروف الملائمة لكى تحقق هذه

الأداة النصر فإن النتائج تأتى عكسية ـ وهذا ماحدث فى ١٩٦٧ ـ وبعيداً عن التفاصيل فإننا دخلنا الحرب والأسئلة التى ظهرت عقب ذلك عديدة : هل كان التوقيت مناسباً أم لا ؟

هل القوات كانت جاهزة أم لا ؟ .. غيرها من الأسئلة التى يقدرها الرجل السياسى الذى يستخدم هذه الأداة .. هذا لم يحدث ولذلك حدثت النكسة

* وهل تعتقد أن كلمة نكسة تكفى ؟

** نحن نطلق عليها نكسة لأننا لم نخسر عسكرياً ولكن خسرنا سياسياً .. لو قلنا أننا تعرضنا لهزيمة وليس لنكسة فإن ذلك كان يعنى أننا جلسنا لنوقع صك الاستسلام ولكن هذا لم يحدث .. بل إننا بعد النكسة بوقت قليل كنا نقوم بتدمير المدمرة الإسرائيلية «إيلات» ونخوض معركة جوية كبيرة ونقوم بعمليات برية واسعة ـ كل ذلك كان دليلاً على أن العسكرية المصرية لم تسقط فى البئر ! وأكررها العسكرية المصرية لم تنحن بعد ١٩٦٧ إطلاقاً .. لقد كانت هزيمة سياسية لأن استخدام الأداة العسكرية لم يكن دقيقاً .. أكرر أنه كان فشلاً سياسياً ـ أنا كعسكرى ظلت المعركة مستمرة وكرجل دفاع جوى شيدنا حائط الصواريخ وبدأنا نحاصر التفوق الجوى للعدو ـ إن البكائية السنوية و (الندب) على يونيو ٦٧ خطأ .. تشرشل قال إن جميع معاركنا لم تبدأ بالانتصارات لكن كلها انتهت بالنصر ـ كعسكريين تعلمنا درساً مهماً من هذه المعركة .. ولكن الحرب استمرت حتى تحرير الأرض .. وفى هذه المرحلة كانت هناك شهادتان لميلاد الدفاع الجوى: الأولى عندما اتخذ قرار بإنشاء سلاح الدفاع الجوى ندباً من المدفعيةوتم تعيينى رئيس أركان لهذه القوات عام ١٩٦٨، والثانية بعد عام عندما صدر القرار الجمهورى بجعلها قوة رابعة وتعيينى أول قائد لهذه القوة المستقلة .

* أنت من القادة العسكريين الذين يتميزون بالحرص والتحفظ وقيل لذلك أنك تحافظ على العديد من علاقاتك ومنها علاقتك مع الفريق أول محمد فوزى .. ما مدى صحة ذلك ؟

** الفريق أول محمد فوزى كان وزيراً للحربية عندما صدرت القرارات السابقة . فهو الذى أبلغنى بالقرار الجمهورى بتعيينى قائد قوات الدفاع الجوى ـ وفى اليوم الثانى صحبته للذهاب إلى منزل الرئيس جمال فى منشية البكرى الذى هنأنى بالمركز فى نهاية حديثه أتذكر أنه قال : يا محمد أنا أشفق عليك من المسئولية وهذه الكلمة شجعتنى وضايقتنى فى نفس الوقت .. فالقائد الأعلى يعرف مدى المسئولية التى ألقاها على كاهلى، وفى نفس الوقت كان علىّ أن أبذل مجهوداً فوق طاقة البشر لأثبت جدارتى، وخاصة أن النفوس كانت لاتزال مرهقة بسبب النكسة والأعصاب مشدودة والمجال الجوى مستباح .. وكان علىّ أن أقود هذه القوات فى تلك الظروف الصعبة ضد أقوى سلاح لدى إسرائيل وهو القوات الجوية . وكانت إسرائيل تؤسس رؤيتها على إنهاء أى معركة فى سماء القاهرة . وكان الهدف إسقاط النظام عن طريق نشر اليأس فى الجبهة الداخلية وبذلك تنتهى الحرب سريعاً وأذكر أنه فى أوائل السبعينيات

قال ديان أمام اجتماع حزبى فى تل أبيب: أمريكا أعطتنا الضوء الأخضر فى أن نضرب بقوة لإسقاط النظام المصرى ولابد أن يحدث ذلك فى أشهر قليلة وإلا ستتحول المنطقة إلى فيتنام أخرى ـ لذلك تحملنا مع القوات الجوية العبء الأكبر لأن إستراتيجيتنا كانت تقوم على هاتين القوتين، ولذلك كان هم جمال عبدالناصر أن تقف هاتان القوتان على أقدام ثابتة لمواجهة التحدى .

حائط الصواريخ فى حرب أكتوبر

وسام على جبين العسكرية العربية

* عندما يذكر اسمك يتبادر للذهن حائط الصواريخ وحقيقته بعيداً عن الدعاية ـ والدعاية المضادة .. أليس كذلك ؟

** حائط الصواريخ إنجاز شعب قبل أى شىء آخر .. لقد تبلورت فكرته فى مايو عام ٧٠ وبدأ تنفيذه فى يونيو من نفس العام وذلك من خلال ثلاث وثبات: الأولى تبلورت فى ٣٠ مايو من نفس العام وكان الحد الأمامى لمسافة ٥٠ كيلو من قناة السويس ـ وفوجئ العدو بهذه العملية التى أدت إلى إسقاط العديد من الطائرات للعدو وكانت أول طائرة فانتوم تم إسقاطها فى نفس اليوم ٣٠ يونيو وخلال هذا الأسبوع أعلنا عن سقوط ١٦ طائرة ويومها قال المشرف الأمريكى على رعايا بلاده فى مصر لأحد المسئولين «لقد قللتم كثيراً من الخسائر التى أوقعتوها بالعدو» وهذا شجع على إتمام الوثبة الثانية فى آخر يوليو وأصبحنا على مسافة ٣٠ كليو من القناة ـ وليلة ٨/٧ أغسطس ١٩٧٠ وهى تاريخ وقف إطلاق النار وبدء تنفيذ مبادرة روجرز التى قبلها عبدالناصر ليعطى الفرصة للدفاع الجوى لاستقبال واستيعاب المزيد من المعدات اللازمة لحائط الصواريخ ـ فى هذه الليلة أصبحنا على بعد ١٢ كيلو من القناة وأتذكر أنه فى صباح ذلك اليوم أبلغنى الفريق أول محمد فوزى بأننا قبلنا المبادرة ولن نستطيع بعد الثانية عشرة تحريك شىء على الجبهة وسيتم تسكين الأوضاع .. فبدأت منذ تلك اللحظة تحريك أكبر عدد من القوات قبل بدء سريان الاتفاق ونجحنا بالفعل تحريك ٥ كتائب صواريخ زيادة على ما كان لدينا وعند منتصف الليل توقف كل شىء ـ ولقد اشتكى الجانب الإسرائيلى فى نهاية الشهر فاستدعى الرئيس عبدالناصر الفريق أول محمد فوزى وكنت معه وأعطانا تقريراً أمريكياً وآخر إسرائيلياً ، يتكلمان عن أننا حركنا المزيد من كتائب الصواريخ بعد منتصف تلك الليلة .. قرأت التقريرين وظهر على وجهى الابتسام فنظر إلى الرئيس جمال متسائلاً فأجبته أن التقريرين خطأ وأن الإسرائيلى أدق من الأمريكى وهذا يدل على أن خطة الخداع التمويهى نجحت على الطرفين ـ فقال : خلاص يافوزى بلغ محمود رياض (كان وزيراً للخارجية) أن يبلغ الجانب الأمريكى بأنه لم يحدث خرق للاتفاقية ، ورغم أن هذا حقيقى إلا

أن أمريكا لم تأخذ بهذا الكلام وقرر نيكسون فى سبتمبر إعطاء إسرائيل ١٨ طائرة فانتوم تعويضا لها عما قيل أنه خرق مصرى للاتفاقية !! ورداً على ذلك سألنى عبدالناصر عن عدد الكتائب الصاروخية التى خارج الحائط ؟ فأجبته بأن لدى ١٨ كتيبة ـ فقال : هم أدخلوا ١٨ طائرة وأنت كمان دخل الـ ١٨ كتيبة ! وبالفعل حدث ذلك وبات لدينا حائط صواريخ حقيقى وضخم ومنذ ذلك التاريخ تمت السيطرة على حركة الطيران الإسرائيلى فى المنطقة ـ تشييد هذا الحائط نقطة تحول فى معركة الدفاع الجوى، تماماً مثلما قال تشرشل أن معركة العلمين كانت نقطة تحول فى الحرب العالمية الثانية .. فقبل هذه الحرب لم نكن نعرف إلا الهزائم وبعد معركة العلمين لم نعرف سوى الانتصارات .. نفس الرأى ينطبق على حائط الصواريخ المصرى .

* العسكرية المصرية ليست معركة .. ولكنها جزء مهم من جسد الشعب المصرى ودفاعك عن جنودك وحرصك على توصيف مأساة ١٩٦٧ فى حدود النكسة لاينفى مايراه بعض المحللين من أن العسكريين المصريين فى مصر فى مرحلة ما كانوا فئة مميزة ولعبت دوراً أكبر مما كان ينبغى على حساب المجتمع المدنى والمؤسسات المدنية وأصبح ابتعادها عن النقد جزءاً من التقاليد السائدة.. هذه العوامل ضمن غيرها ـ كانت وراء ما حدث من نكسة أو هزيمة وهذا ما اكتشفناه فجأة .. أليس كذلك ؟

** القوات المسلحة لها دور واحد هو حماية تراب الوطن ولو تعددت الواجبات بما يشتت هدف القوات المسلحة لأصبح ذلك على حساب هذه القوات !! والتميز يرجع إلى أنها فى جميع دول العالم مميزة ـ فهى سيف الدولة .. وهذا السيف لابد أن يكون مميزاً ، فهؤلاء الناس هم الذين يقدمون أرواحهم حماية للوطن .. وفى الوقت الذى يكون الآخرون فى حياتهم العادية يكون رجل القوات المسلحة فى خندقه .. فهو رجل يستحق التميز الذى تقدمه البلد طواعية لأولادها لأنه الطليعة ، من ناحية أخرى .. فإن العسكرية نظام لابد أن يحافظ على طبيعته .. لا ديمقراطية ولا ديكتاتورية إنما عسكرية فقط ونظامنا العسكرى يبيح لنا أن نقدم الرأى والمشورة حتى اتخاذ القرار بعد ذلك انتهى الأمر وأصبح واجب التنفيذ .

* يرتبط بالتساؤل السابق أن أصبح حديثنا مع القادة العسكريين الكبار مثلك يتجنب الاقتراب من الحديث عن الجندى المصرى ومشاكله ومعاناته مع أن نفس الكلام قد يتردد بصورة جانبية ومع أن الزمن الذى نعيشه والعصر الذى نقبل عليه يكرس فكرة العلانية والمكاشفة بعد أن ثبت أنها العلاج الوحيد لمشاكل المجتمع ـ أى مجتمع ـ فما تعليقك ؟

** الرسول عليه الصلاة والسلام قال إننا خير أجناد الأرض وأننا فى رباط إلى يوم الدين ـ وهذا يحسم الأمر تماماً ـ لكن مونتجمرى قال أنه مهما كانت الخطط جيدة فإنها تصل فى النهاية إلى الجندى الذى يطلق السلاح ولذلك فإن النصر يكون دائماً مع الجانب

الأفضل تدريباً والأحسن فى الروح المعنوية .. والروح المعنوية لدينا تنبع من قيمنا الروحية وإيماننا بأننا أصحاب قضية ندافع عنها، وبصراحة لا يجب أن يهمل أى حديث أننا تعلمنا من الحرب وخاصة من حرب الاستنزاف الكثير مثل المبادأة والمحافظة عليها، ولكن ليتذكر الجميع أن أصول الجندى المصرى تطورت كثيراً ـ وهذا ما يبحث عنه سؤالك .

ومثال واضح أن أحدهم قال فى كتابه أن ١٠٠ جندى إسرائيلى يقابلون ١٧٠ جندياً مصرياً وهذه المقولة تستند إلى أن هناك مستوى تكنولوجياً حققه الإسرائيلى ويمثل فجوة بيننا وبينهم ـ ولكن تغير ذلك ـ وأتذكر أنه بعد حرب أكتوبر زارنى فى مكتبى رئيس تحرير إحدى المجلات الأمريكية المتخصصة فى الشئون العسكرية وأعطيته فرصة لزيارة الكلية الفنية والمعهد الفنى وإحدى قواعد الصواريخ فعاد مندهشاً من المستوى الذى شاهده وقال : لم يكن لدينا فكرة عن مستواكم بسبب انغلاقكم وكنا ننظر دائماً للأمور من خلال النظارة الإسرائيلية .. أو من خلال الجانب المنفتح الذى يواجه جانبكم المنغلق، ولكن بعد هذه القاعدة الفنية التى شاهدتها فإننى غيرت الكثير من الآراء .. وسوف أسافر إلى إسرائيل فى إطار جولتى وسوف أقول لهم إن الفجوة التكنولوجية بينكم وبين مصر قد تلاشت، وأن الوقت فى صالح العرب ولابد أن تتحركوا بسرعة نحو السلام وإلا سيكون الوقت متأخراً وأحب أن أكرر أننا لم نختبر قبل ٧٣ ؟؟ ، ٦٧ ليست الامتحان الحقيقى للعسكرية المصرية .

* كيف نجوت من تراچيديا القادة وصاحب القرار مثلما هو الحال بين عبدالناصر وعامر أو السادات وفوزى ؟

** لو التزم كل واحد بخطوط مسئوليته .. فالسياسى فى ملعبه .. والعسكرى فى موقعه فلن تحدث تراچيديا .. لكن اختلاط الأمور .. والسعى للعب أكثر من دور والتداخل بين السياسى والعسكرى أو العكس لابد أن يحدث الصدام، ولايمكن أن نقول أن هذا نمط لامفر من حدوثه ولكن الطبيعى هو الفصل بين الأدوار، وكان بومبيدو (رئيس فرنسا الأسبق) يقول أن رئيس الأركان هو الأقدر على ترجمة كلماتى السياسية إلى إستراتيچية عسكرية، أنا لا أريد الإشارة إلى أسماء معينة ولا أحب التحدث عن وقائع محددة !

* هل تؤمن بفضيلة الحرص وتجنب التحديد دائماً ؟

** ليس الحرص وراء ذلك .. ولكن أتحدث عن خطوط عامة وأقدم نتائج خبرة شخصية فقد خدمت مع عبدالناصر ومع السادات ومع حسنى مبارك فى خندق واحد وفى نفس الوقت أحرص على المتابعة الثقافية والفكرية الدائمة وأمنت باستمرار بفكرة الالتزام بالدور الذى أنا فيه وأنه لايجب الخلط بين العسكرية والسياسة، ولكن ما يحدث عندنا أن القائد السياسى قائد عسكرى.. والقائد الأعلى للقوات المسلحة هو قائد سياسى .. وإن كانت مشكلة عبدالناصر مع عامر قد أدت إلى صدور قرار رئيس الجمهورية العربية المتحدة بالقانون رقم ٤ لعام ٦٨ بشأن

القيادة والسيطرة على شئون الدفاع عن الدولة وعلى القوات المسلحة موضحاً العلاقة بين القائد الأعلى والقائد العام ورئيس أركان حرب القوات المسلحة وصلاحيات كبار القادة . وأتذكر أنه أثناء زيارة مونتجمرى لمصر سأل عن عامر فقيل له كان (صاغ) وتمت ترقيته إلى رتبة جنرال .. فعلق : إنه جنرال سياسى .

* ما بين المرارة التى ظهرت فى صوتك عند بداية اللقاء بسبب أسلوب خروجك من القوات المسلحة وما بين كفاءتك العسكرية التى أشار إليها الكثيرون خيط ما .. ما هو هذا الخيط ؟

** الخيط الأساسى أننى اخترت العسكرية ومارستها بعشق وأدركت مبكراً أننى لن أحقق ذاتى إلا من خلالها .. فقد كنت من المتفوقين فى آخر بكالوريا فى مصر والتحقت بكلية الهندسة جامعة فؤاد وكان من زملائى صلاح سالم (عضو مجلس قيادة الثورة) وصديق آخر اسمه سيد الجنزورى التحق فيما بعد بالطيران واستشهد فى حرب فلسطين .. نحن الثلاثة كنا فى إعدادى هندسة عندما زارنا الفريق محمود باشا شكرى رئيس أركان الجيش المصرى أيامها واجتمع بنا فى مدرج الكلية وتحدث عن أن مصر قادمة على حرب ونحن نسعى لبناء الجيش المصرى بصورة حديثة ونحتاج للطلاب النابهين من كلية الهندسة وتحدث عن الجيش الذى سيحمى تراب الوطن.. فقررنا نحن الثلاثة أن نترك الهندسة ونلتحق بالكلية الحربية بالرغم من أن هذا القرار كان ضد رغبة الأهل .. وقد تمت الإجراءات دون أن يعلموا وتعرضت للوم ولكن كان قرارى .. ولم أندم عليه لأن الظروف وقتها تستدعى من أى شاب متحمس أن يأخذ هذا القرار، ولو عادت الأيام سوف أسير فى نفس الطريق رغم صعوبته وقد حاولت أن أبعد ابنى الأكبر عنه مثل أى أب ـ وأتذكر أنه كان يرغب فى الالتحاق بكلية الطيران، وأيامها اللواء حسنى مبارك كان قائد القوات الجوية قال لى أرسله لإقناعه. وبالفعل ذهب إليه وأخبر ابنى بأن الطيران مشقة ونحن نحاول إبعادكم عن تلك المشقة .. ولكن الأيام أثبتت أنه لم يقتنع فبعد التحاقه بكلية الطب لمدة ثلاث سنوات عاد ليخبرنى أنه لم يجد نفسه فى دراسة الطب وأنه لن يكون طبيباً ناجحاً .. فقلت له : إذن التحق بالدفاع الجوى لتحصل على شهادة الهندسة وذلك ما حدث بالفعل وتخرج وهو حالياً برتبة مقدم ويدرس حالياً فى كلية أركان الحرب الأمريكية .. وأعتقد أنه تشبع بالروح العسكرية التى كانت سائدة فى المنزل.

الجانب الآخر ..

نحن بشر .. والعدل الكامل صعب .. وهل أنا كقائد أثناء الحرب أعطيت كل واحد حقه كاملاً ؟ أنا أعتقد لو أننى مارست فكرة العدل بنسبة ٨٠٪ يصبح هذا شيئاً جيداً .. ولكن من المؤكد أنه سيظل هناك ٢٠٪ يصرخون من أحكامى .

أمضيت خمس سنوات فى رئاسة شركة الملاحة البحرية ولكنى أعتقد أننى لو بقيت فى القوات المسلحة مدى الحياة مثلما كان وعد السادات لكان أفضل لى .. وكان ذلك سيرضينى أكثر، اليوم ماذا أفعل ؟ .. صحيح أنا رئيس نادى التوفيقية للتنس ـ وأكتب مذكراتى ولن تنشر إلا بعد وفاتى .

لا أعرف لماذا أنا محظوظ أو لماذا يعتقد البعض أننى محظوظ .

أنا لا أتمنى شيئاً ولا أفرض نفسى على شىء .. ولا أندم على شىء والندم لايترك خلفه سوى الحقد وكراهية الناس .

أبى أكثر شخصية أثرت فى حياتى ومازلت أتذكر عندما كنت فى المرحلة الابتدائية بدأت مدرستى بالإعلان عن تكوين فريق كرة قدم وتحمست مع الكابتن عبدالكريم صقر ـ زميلى فى الدراسة ـ إلا أن والدى نصحنى بأن أجعل الرياضة هواية لكن لا أنضم لفريق لأنه سيضر بمستقبلى الدراسى وواصل أبى قائلاً : لقد كنت فى فريق الكرة بمدرستى الثانوية وكان معلم اللغة العربية عندما يدخل الفصل يأمر بطرد الفريق خارج حصته !! ورغم أننى لم أكن مشاغباً إلا أن بعض أعضاء الفريق كانوا مشاغبين ولذلك أخذونى معهم !! فلا تجعل نفسك فى فريق دائم وكان أبى يقول .. الإنسان مظهر ومخبر .. وبالاثنين معاً تفوز باحترام الناس .

أنا من الجيزة ! وسؤالك يذكرنى بصحفى ألمانى زارنى وأنا رئيس أركان وقد سألنى : بالمناسبة ألست من المنوفية ؟ فأجبته : لماذا ؟ فقال أسأل لأن رئيس الجمهورية من المنوفية ونائب رئيس الجمهورية من المنوفية ووزير الحربية أيضاً من المنوفية .. فقلت له : أنا استثناء !

كان أحد القادة الذين خدمت معهم واسمه حافظ بكرى ـ الله يرحمه ـ وقد تعلمت منه الكثير .. وكان على علم وخلق ويحب عمله ويتفانى فى أداء واجبه .. ثم هناك مونتجمرى وروميل .. وبحثى فى كلية أركان الحرب كان عن مونتجمرى .

جيلنا تعلم من الإنجليز .. ففى عام ٤٥ حصلت على دفعة فى مدرسة المدفعية الإنجليزية فى حيفا .. كانت هناك بعثة بريطانية فى الجيش المصرى وسافرت فى دراسة الجيش وطبيعة العسكرية فيه إلى روسيا عام ٦٤ ـ ٦٥ لمدة عام ونصف العام .

الصلة موجودة .. ويعتبرونى الأب الروحى لهم .. والحق يقال أن القوات المسلحة حتى اليوم تهتم بى .. ففى عيد ميلادى تصلنى التهنئة وفى كل المناسبات يتم ذلك .. ولكن إيقاع الحياة تغير وأصبح سريعاً .

الحرص على ماذا ؟ .. سوف أعفيك من الحرج وأقول لك أننى رجل ملتزم وأعرف حدودى جيداً ولا أتعداها .. هناك من يتجاوزون حدودهم معى ولكنى دائماً أتسامح .

أنا صادق معك .. ولا أقول سوى الحقيقة .. ولا أدرى شيئاً ـ ولا أدعى شيئاً ـ وأتذكر أن

أحد الوزراء السابقين قال لى : معروف عنك أنك ضابط أرستقراطى .. فقلت له : لست أرستقراطياً .. ولكن أحب أن أعيش نظيفاً وآكل «كويس» وأظهر بصورة حسنة، وأنا محمد على فهمى حتى لو بعت (لوترية) فى شارع فؤاد الأول سوف أظل محمد على فهمى لن أتغير .. إنها طبيعة وتكوين .

كنت أنفق معظم راتبى على المجلات الأجنبية ـ وكنت كثير التردد على المكتبة الأمريكية .. فالقراءة تزيد أفق الإنسان اتساعاً .

أنا من الناس التى تتأقلم مع التغيير وأتكيف سريعاً وأسعى لتطوير نفسى مع الحياة .

كنت متردداً فى الزواج .. وقد أجلت الزواج حتى تنتهى الحرب العالمية الثانية ثم قلت لنفسى أحصل على درجة أركان حرب أولاً وحدث ولكن بعد ذلك حدثت حرب ٥٦ وكنت فى هيئة عمليات القوات المسلحة وأعتقد أننى سأظل بدون زواج حتى تنتهى الحرب ولكن وجدت المسألة مش عملية.. فتزوجت !

تعرفت على زوجتى بالمصادفة .. فقد التقيت بأحد أصدقائى مع زوجته فى ميدان التحرير وشجعنى على التردد على زيارته بعد ذلك .. وأذكر أن والد زوجته كان صديقاً لوالدى الله يرحمه وهذا مما ساعد فى تعميق هذه الصداقة .. حتى جاءت لحظة سألتنى فيها زوجته : لماذا لم تتزوج حتى الآن ؟ فقلت لها : إيدى على إيدك ! وبالفعل كانت السبب فى تعرفى على زوجتى وهى من العائلة الأباظية ! وكان من الصعب فى ذلك الوقت أن تتزوج فتاة من خارج العائلة وأن تتزوج ضابطاً ولكن النصيب !

لعبت دوراً مهماً فى رعاية الأسرة والاهتمام بالأولاد فى ظل واقع أننى ضابط وغير موجود بالمنزل والحمد لله .. فقد قامت بدورها وتخرج الأولاد من الجامعة .. أحدهم مقدم دفاع جوى والثانى محاسب والفتاة تخرجت من كلية التجارة والآن متزوجة .. وبالنسبة لى كانت توفر الرعاية الكاملة أثناء أجازاتى ولم أر منها سوى كل الود والحنان وقد انعكست طبيعتنا على الأولاد .. فالأول شديد الالتزام على الطريقة العسكرية ـ والثانى لم يحب العسكرية وله اهتمامات رياضية وإن كان أيضاً ملتزماً ولكن لم تنتقل له رغبة فى العسكرية .

نعم أؤمن بالحظ .. ولقد لعب فى حياتى أدواراً عديدة .. ولكن تعلمت أنه كلما عملت زاد نصيبك منه .. ولكن من الأمثلة الواضحة أن التحاقى بالجيش حظ ! .. أيضاً فقد تم ترشيحى لرئاسة مكتبنا العسكرى فى غانا أيام نكروما .. وكان ذلك فرصة جيدة .. وقد رشحنى عامر وأبلغنى بذلك فوزى .. ولكن فجأة ألغيت وفاز بها صاحب النصيب ! ولكن تعينت للإشراف على مشروع عامر للصواريخ ـ وكان الحظ ! ثم رشحت للعمل فى مكتب الاتصال الدولى فى غزة.. ولكن للأسف جاء أحد المقربين وفاز بالموقع وتم استبعادى .. ولم أندم على شىء .. لأنه يبدو وبصورة قدرية أن هذا حدث لأتولى قيادة الدفاع الجوى .. وأتذكر أنه فى عام ٦٦ أننى

ألقيت محاضرة فى أثناء عرض للرماية حضره فوزى وصدقى محمود وعامر وبعض القادة وقلت فى هذه المحاضرة طبيعة العمليات المنتتظرة .. وطبيعة الهجمة الإسرائيلية المنتظرة على دفعات منخفضة وأن السلاح المصرى عليه أن يراعى شروطاً معينة .. وطرحت جميع التوقعات . وبعد أن حدثت النكسة رشحني محمد فوزى لأكون قائداً للصواريخ والمدفعية وقال لى : يامحمد فاكر المحاضرة إللى أنت قلتها قبل النكسة مازلت أتذكرها .. ونحن فى حاجة لكى نستفيد من خبرتك ونطبق ما تعلمت في مجالات الصواريخ .. وكان ذلك أول محطة على طريق قيادة الدفاع الجوى.

فى الحياة العملية كلما زاد الجهد زاد نصيبنا من الحياة هذا ما أؤمن به ـ ولدى اقتناع بأن مايميز أى مسئول هو براعته فى اختيار معاونيه والقادة العاملين معه .. إنها إحدى نقاط النجاح .. أن حسن اختيار الرجل المناسب فى المكان المناسب هو محرك النجاح .. ونحن نعانى فى بلادنا سوء اختيار من يقوم بالاختيار فى أحيان كثيرة .. هذا شكله ظريف .. وذاك ثقيل الدم .. وثالث لا أستطيع (بلعه) إنها مشكلة .. على العكس هناك فى البلاد المتقدمة مثلما حدث عندما أرسل تشرشل بأحد قواد المدفعية إلى مونتجمرى ليعمل معه .. وكان صديقا لتشرشل ويلعب معه الجولف .. ولكن مونتجمرى الذى كان يعرف أن هذا الضابط غير كفء أعاده إلى لندن مرة أخرى وقال لتشرشل من الأفضل أن يلعب جولف معك فى لندن ويترك لنا الحرب فى العلمين !

رتوش لابد منها

خلال ثلاث ساعات من الجلوس مع المشير محمد على فهمى قائد قوات الدفاع الجوى فى حرب أكتوبر ورئيس أركان حرب القوات المسلحة بعد الحرب .. طلب منى إغلاق جهاز التسجيل مرة ثم أغلقته أنا مرتين ! ومابين الاقتراب والابتعاد .. كانت تتبدى شخصية قائد عسكرى على درجة عالية من الكفاءة والحذر .. وقد تبدت أجزاء من الصورة عندما ذكر أنه لم ينضم لفريق كرة القدم فى المدرسة بسبب نصيحة والده حتى لايصبح معرضاً للعقاب الجماعى الذى يناله الفريق كله مثلما حدث لوالده .. !! وظل من يومها وهو ينتمى إلى عمله بتفاصيله الدقيقة يعرف الخطوط الفاصلة بين الأدوار والبشر بدقة بالغة .. لذلك عندما تمردت على استخدامه الجنرال الإنجليزى مونتجمرى كمثال دائم وطالبته بأمثلة عربية كان واضحاً «لا أحب أن أجرح أحداً لذلك لا أحسب أن أذكر أسماء وإن أذكر أسماء .. لكن حصل نعم حصل أن تمت اختيارات داخل الجيش ولم تكن صحيحة وأدت إلى نتائج معروفة وأصحابها معروفون ومفيش داعى الواحد يضع النقاط فوق الحروف .. سوء اختيار يؤدى إلى نتائج سيئة .

كما تكشف جزء آخر عندما كان يتذكر طوال الحوار .. كيف كان يستقبله الناس العاديون بعد خروجه من القوات المسلحة : الشعب العربى يثق بمن يعمل بصدق ويمنحك التقدير الصادق ولاينسى شيئاً .. وبصراحة كنت محل تقدير فى جميع المراحل .. فرتبة المشير منحها لى الرئيس مبارك بمناسبة مرور ٢٠ عاماً على حرب أكتوبر .. وكان الرئيس السادات قد منحنى وشاح النيل فى ٨١ .. وأذكر أنه كان فى معسكر للرماية وكانت المعدات تمر أمامه ووقف سيد حمدى وكان قائداً للدفاع الجوى أيامها ـ ليشرح التعديلات التى أضيفت للأسلحة وأن هناك كشفاً بالأوسمة للذين ساهموا فى إحداث هذه الإضافات وقال أنه للحق فإن أساس هذه التعديلات هو محمد على فهمى ونحن أكملنا عليها .. فرد السادات : محمد على فهمى حاجة ثانية ويارب تكونوا وجهتوا له الدعوة اليوم فأجابه بأن ذلك حدث .. فطلب إحضار كشف الأوسمة والنياشين ولما أحضره أبو غزالة له أضاف السادات اسمى فى مقدمة الكشف وقد منحنى وشاح النيل .

وما بين السعادة بالتقدير والإحساس بالزمن الذى لايتوقف يواصل محمد على فهمى رياضة المشى الصباحى بديلاً للتنس فى نادى التوفيقية .. وأيضاً كتابة مذكراته التى لم تهرب من رقابته فقرر ألا تظهر إلا بعد وفاته !!

وهو لاينسى أن يعترف : ليس كل مايقال يكتب .. وليس كل ما سوف يكتب يمكن أن يقال الآن .. ولكنها ستضم حقائق معروفة للبعض ولكن لايعرفها الرأى العام .. وستكون من أجل مصلحة الوطن وحده الحقائق التى أعرفه ولكن لن أحدد مسئوليات لأننى لست التاريخ ولست جهة تحقيق .. أيضاً ليس فى العمر بقية للجدال بل إن الحقائق هى الحقائق .. فأنا لا أبحث عن مكسب أو شهرة .. لذلك لن تظهر إلا بعد وفاتى !

ومابين الحرص والالتزام يظل فى النفس الكثير من الذكريات التى يرفض الإفصاح عنها : لم أحصل على شىء بالقفز للأمام .. مشيت الطريق من أوله .. ما حصلت عليه كان بذراعى وليس بالواسطة لم أهبط بالبراشوت على موقع .. بعد نهاية الحوار عرفت ـ على المستوى الإنسانى ـ لماذا نجح المشير محمد على فهمى كقائد للدفاع الجوى .. إنه رجل لا تستطيع أى هجمات مضادة أن تخرجه عن نظامه الدفاعى الذى رسمه لنفسه بدقة .

سمير سرحان

والله العظيم .. لم أدفع ثمناً لصعودى

الأكاديمى الذى يلعب على مسرح الثقافة والمثقف الذى يلعب على أرض المسئولية العامة وابن الطبقة المتوسطة الذى تربى فى حضن مشروع ثقافى .. ويسهم اليوم فى نشر أو دعم مشروع ثقافى آخر .. وصاحب الطموح الشخصى الذى ظل يغازل مقعد الوزارة حتى الاعتراف «كنت أفكر فى ذلك من عشر سنوات أما الآن : فقد نسيت ذلك الطموح .. لدى طموحات ثقافية أخرى» . إنه الدكتور سمير سرحان .. الأكاديمى والمسرحى والناقد ورئيس الهيئة العامة للكتاب الذى تثير تجربته منذ عام ٦١ حتى اليوم الكثير من الأسئلة الصعبة لعل أبرزها .. كيف تفكر النخبة التى تدير العمل الثقافى فى المستقبل ؟ .. وهل لديها ما تقدمه للقرن الجديد ؟

هذا بالضبط سبب الحوار وكانت التفاصيل الرفيعة هى المرشد .

* كل صباح يجد المواطن المصرى عشرات من عناوين الكتب بأسعار رمزية .. كل صباح .. يجد المواطن العادى نفسه مدعواً لمحاولة الاستفادة من أكبر مشروع للنشر شهدته مصر خلال الثلاثين عاماً الأخيرة .. والدكتور سمير سرحان يلعب دور الدينامو لهذا المشروع الذى يعتبره مشروعاً يعكس رؤية جميلة فى العمل الثقافى .. ولكنه أيضاً ـ أى الدكتور سمير سرحان ـ هو الذى قال مؤخراً : أرفض أن أكون مواطناً عادياً .. وهو الذى يبدو فى نظر البعض الآخر مسئولاً عن ثقافة جديدة ضرورية لزمن جديد .. والسؤال الذى سيفرض نفسه فى ظل (الزحمة) الثقافية التى تصنعها التغيرات الكبرى فى العالم هو : هل لكل زمان ثقافته ؟ وهل مايردده البعض من أن هناك حاجة لثقافة جديدة تواكب عصراً جديداً تبلور بانهيار الحواجز وتقارب المسافات وسقوط الأيديولوچيات وتبدل السياسات .. هل هذا الكلام دقيق ؟

** من هذه النقطة .. بدأ رئيس الهيئة العامة للكتاب الدكتور سمير سرحان كلامه :

بداية لابد أن نتفق على أن الثقافة تختلف عن العلم .. فالعلم فى تطور رأسى مستمر .. اكتشافات تتجاوز ماسبقها .. واختراعات تلغى ماسبقها وتحل مكانها .. لكن الثقافة عمل أفقى، فليس من المنطقى أن تعتقد أن المسرح الذى يقدم اليوم أفضل من مسرح شكسبير ولكن يظل ذلك الأخير قيمة وقامة ، وأى كاتب فى القرن العشرين قد يكون أقصر قامة بكثير

من شكسبير .. وفى نفسى فهى أشمل من الواقع الذى يتبدل باستمرار ولكن للثقافة ثوابت .. ومثلاً يمكن أن نرى أن الأدب الإغريقى أفضل بكثيرامن الأدب المعاصر .. وليس بالضرورة أن يكون روائى جديد أفضل من نجيب محفوظ أو نظن أن رواية القرن القادم هى أفضل .. فالثقافة نشاط إنسانى يتجاوز الزمان والمكان ويلامس القضايا الإنسانية الكبرى التى يعايشها الإنسان فى كل زمان ومكان .. إن الثقافة تلامس الطلبات الإنسانية والعواطف الإنسانية الكبرى : الله الوطن الحب العلاقة بالكون ، العلاقة مع الآخر .. وجوده على مستوى الكوكب وتأثيره وهل هو مرحلة متقدمة ذات تأثير حقيقى فى قضايا البشرية ، بينما .. من الممكن باستمرار اختراع تليفزيون أفضل من الحالى وسيارة أسرع .. وماكينة آيس كريم أفضل .. ولكن أعود لأحدد بالنسبة للثقافة أنها عنوان الأمة .. طابع بريدها .. علمها .. والعلم هو رمز الوطن .. وإذا كنا نقف تحية للعلم يومياً فإننا نفعل ذلك لثقافتنا .. ثقافتنا هى جماع خبرة الشعب على مدى قرون طويلة على أرض معينة وفى ظل حالة استقرار .. وهذا مايخلق الوعى الجماعى لمجتمع ويصيغ عاداته وسلوكياته وتقاليده وأساليبه فى العمل والمسئولية وفى ظل نواحى الحياة من الطعام إلى الحرب ، وعندما أقول إن المصرى ابن حضارة عمرها سبعة آلاف عام فإنها عبارة ليست إنشائية بل تعبر عن علاقات معقدة ودقيقة للمصرى من الحياة والكون .. فعلاقة الحياة بالموت هى علاقة أساسية عند المصرى .. والعلاقة بين الحكومة المركزية والمواطن العادى أساسية لديه .. احترام الحياة المستقرة فى السهل قيمة أساسية لديه وهكذا .. أنتج ذلك الأساس الثقافى فى إبداعه فى الأدب والموسيقى والعمارة .. وهكذا .

* إلى أى حد تعتقد أن جيلك – وأنت خريج عام ٦١ – قد أسهم فى حركة المجتمع المصرى التى يرى البعض أن هناك جيلاً سابقاً عليكم هو الذى قادها ؟

** جيلى قاد المجتمع وشكل ثقافته ووجدانه حتى الآن .. لأنه مع نهاية الستينيات وقع المجتمع فى مأزق .. لأنها كانت مرحلة كاملة انتهت بمفكريها ومبدعيها وبمسرحها وأفلامها وأغانيها وآدابها .. لقد انتهى الجيل السابق علينا مع هزيمة ٦٧ .. انتهى بإصابته بصدمة أو غثيان أو عجز أو هزيمة داخلية .. جيلى انتشل المجتمع من هزيمته الداخلية وساعدتنا على ذلك حرب ٧٣ حيث ظهرنا كوادر لديها ماتقدمه للمجتمع ونمتلك قدراً من التعليم المتقدم حصلنا عليه من إنجلترا وأمريكا وفرنسا .. وكنا نمتلك معارف جديدة شكلت روح العصر كله فى الأدب والاجتماع والسياسة والعلوم والتكنولوجيا .. ومعظمنا أساتذة جامعات .. لقد كنا الترميم الذى خرجت من قلبه نخبة جديدة تؤمن بالوطنية المصرية .. وأقصد أنها قيادة فى العلوم والآداب والفنون والاقتصاد والسياسة .

* الجيل السابق عليكم كان صاحب مشروع بصيغة من الصيغ .. مشروع توافق مع إيقاع الحياة ورؤياتها آنذاك .. جيلك بدون مشروع ثقافى محدد الملامح حتى اليوم .. ما

أغنيتكم المفضلة ؟ .. أنا شخصياً لا أعرف .. بل قد أراكم صدى لما سبقكم .

** الجيل السابق كان لديه مشروع الاشتراكية وكان صاحب المشروع زعيم هو عبدالناصر .. كاريزما .. وصاحب وجود ساحر وإنشائى على مستوى الشارع .. كان مشروعاً غير صالح عالمياً للتطبيق، وغير صالح لتقدم المجتمع .. كان مشروعاً طوباوياً .. غير واقعى .. أقول ذلك .. وأنا من جيل عبدالناصر وبدونه لم أكن قد تعلمت ولا التحقت بالجامعة .. ولكن هذا لايمنعنى من القول بأن مشروع هذه المرحلة كان مثالياً وقد تجاوزه العصر .. أما جيلى فلم يكن مشروعه تأسيس الاشتراكية بالشكل الحماسى .. وإنما كان ومازال مشروعنا هو التقدم .. وكلمة (التقدم) هى كلمة السر التى نرى أنها تفتح كافة الأبواب .. والتقدم يعنى التقدم العلمى وتقدم المجتمع بأسباب جديدة فى العلم والفن والابتكار .. وتجديد دماء المجتمع .. وإعادة بناء وتثقيف الإنسان المصرى .. بمعنى أرحب : جيلى يؤسس مشروع النهضة الثانى .. سبقنا مشروع النهضة الذى أطلقه محمد على وكان يستهدف تحديث الدولة وإخراجها من ظلام العصور المملوكية إلى العصور الحديثة والاقتراب من أوروبا .. ثم كان هناك مشروع الخديوى إسماعيل والذى حاول من خلاله تحويل مصر إلى قطعة من أوروبا فى الثقافة والفنون والآداب وغيرها .. كان مشروعاً عظيماً.. ولكنه أصيب بالإجهاض .. ثم المشروع الثالث وهو مشروع ٢٣ يوليو وهو أعظم المشاريع الثلاثة ولكنه تعرض للإجهاض أيضاً عام ٦٧ ، هذه المشروعات الثلاثة أسميها مشروع النهضة الأول وكان فرسانه : طه حسين والعقاد وزكى نجيب محمود وقبلهم رفاعة الطهطاوى وقاسم أمين ومحمد عبده وتضمن السعى لتحديث مصر وتحرير المرأة وانبعاث الروح القومية فى ثورة ١٩ والسعى للاستقلال .. واشتمل على كل العناصر التى وصلت بالدولة لصورتها الحديثة.. ومشروعنا للتقدم .. مشروع جيلى هو المشروع الثانى الذى يستهدف نقل المجتمع للعصر مشاركاً ومساهماً .. مشروع يحافظ على الهوية الذاتية ويشارك فى نفس الوقت فى عالمية المجتمع الدولى.

* أنت تتحدث عن مشروع جيلك بالرغم من أن الإنتاج الثقافى العام أدبياً وفنياً والذى يجرى استهلاكه هو من صناعة ذلك الجيل السابق عليكم .. جيلك لم يقدم إبداعاً ملموساً يمكن أن يصنع وجبة حقيقية ؟

** جيلى قدم بدائل يمكن للمجتمع أن يدخل بها القرن الجديد .. البعض يتصور وكأن المطلوب أن يظهر نجيب محفوظ آخر أو طه حسين آخر .. ليس المقصود ذلك .. فالثقافة كما قلت فى بداية الحوار ليست كالعلم .. ويكفى أن أقول إن نظرة سريعة لحياتنا تكشف عن ظهور مانسميه بالحساسية الجديدة فى الأدب .. وظهرت أشكال جديدة من الإبداع فى الرواية والقصة والشعر والذى تخلف عندنا هو النقد .. فلم يستطع مواكبة ماحدث من تطور

.. وظهرت جماعات أدبية جديدة مثل إضاءة وتجارب مسرحية جديدة .. ورقص حديث .. أى أن هناك فنوناً جديدة أفرزتها مرحلة التحول وليس بالضرورة أن يجمعها معاً مشروع فكرى واحد بل عدة مشاريع فكرية .

ثقافة العنف

* تقول إن جيلك سعى لسد الفراغ الذى نشأ بعد انهيار ٦٧ وبعد انتهاء دور لجيل سابق .. ولكن أيضاً هناك من يرى أن جيلك لم ينجح فى ذلك والأدلة عديدة أوضحها ثقافة العنف التى سادت ؟

** من أين أتيت بهذا الحكم ؟ إن هذا الرأى يتجاهل حقائق مهمة فى مقدمتها أن هناك تقدماً ملحوظاً فى الكتابة المسرحية وظهور جماعات شبابية تجذب الانتباه .. ومسرح خاص أصبح يقدم نماذج أكثر جدية وظهرت كتابة سينمائية جديدة .. لدينا بنية ثقافية ولكن قد أتفق معك إذا قلت إن البنية العلمية ضعيفة .. أما ثقافة العنف فهى منتشرة فى العالم كله .. وشباب مصر جزء من شباب العالم .. والحركات العنيفة هى وليدة حقبة يمر بها العالم كله .. بالأمس القريب دخل مسلح ليقتل زوار الكونجرس الأمريكى .. بماذا تفسر ذلك ؟ .. إن العالم يعيش فى حالة قلق ولاسيما بعد انهيار المسلمات القديمة .. وبدلاً من قطبين أصبح هناك قطب واحد ، وبدلاً من الإحساس الوطنى يسود الإحساس بالتفتت .. وبدلاً من أحاسيس العزة الوطنية باتت هناك مشاعر بالانكسار تجاه قوة وحيدة قادرة على أن تفرض إرادتها .. وتضاعف القلق مع مشاعر متزايدة بانتهاك السيادة تحت اسم الشرعية الدولية .. كلها أسباب لذلك القلق الذى يُعد الأرض الشرعية للعنف . والعنف الذى يتستر بالدين فى منطقتنا ليس له علاقة بالدين بل هو سلوك متطرف لجماعات سياسية تريد أن تحل مكان المؤسسات القائمة وتفرض أنماطاً أخرى من السلوك المجتمعى الذى يرتبط فى رأيهم بالدين .. بهدف إنهاء فكرة التقدم .. والخروج بعيداً عن حضارة العصر .

* هناك من يختلف معك ويرى أن هذه الثقافة التى تستند للدين إعلان عنيف عن فشل المؤسسة الثقافة الرسمية التى قادت المجتمع منذ منتصف القرن الحالى .. لقد انبثق البديل العنيف فجأة سعياً للإحلال مكان تلك الثقافة التى انهزمت عملياً على أبواب السبعينيات وتغيراتها ؟

** بداية لابد من الاعتراف بأن هناك انفصالاً غريباً حدث بين قمة المجتمع وأسفله .. فظهرت ثقافة الهبوط التى تتعامل مع الجزء السفلى .. وارتبط ذلك بظهور طبقة الحرفيين التى تملك الثروة فى مواجهة طبقة المثقفين التى لاتملك إلا الفكر .. فتحولت الثقافة الحقيقية

للاختباء فى أحضان النخبة .. لم تعد موجودة فى الشارع .. وإن كنت أستطيع أن أقول إن مشروع مكتبة الأسرة أعاد الثقافة الحقيقية إلى أرض الشارع .. عاد رجل الشارع العادى يقرأ .. عادت الأفكار العظيمة تتحرك فى الطرقات .. وعادت الرؤيات التى صنعت فكر النهضة تطل من جديد على الناس من خلال هذا المشروع .

نحن خُدام للثقافة

* استكمالاً للسؤال السابق : بماذا تفسر أن الجهاز الرسمى للثقافة فى مصر فى أوقات عديدة فى موقع اشتباك مضاد مع مثقفى المقاهى .. لقد ظهرت فئة مثقفى المقاهى طبقاً لتعبيرك بسبب إغلاق المؤسسة الثقافية الرسمية لأبوابها أمام المبدع المشاغب وفتحها أمام المبدع المتعاون ؟

** لم يعد هذا قائماً .. ومن يشاهد عملنا يعرف أنه تم تجاوز تلك القضية التى ظلت معلقة حول علاقة المثقف بالسلطة .. نحن لم نعد سلطة .. نحن خدام للثقافة .. وحريصون على تمثيل كافة التيارات . وكلامك كان قائماً أيام كانت المؤسسات تعبر عن فكر الدولة .. نحن الآن لانعبر عن ذلك لأن الدولة لم يعد لها فكر واحد .. والأساس فى فكر الدولة هو التعددية .. والاعتراف بتعدد الثقافات وحوار التيارات ، فلم يعد لدينا رقيب أو مسئول يطلب منا أمراً ما .. وبالتالى فإن فكرة أن من يتبع ذلك معنا وعكسه يصبح عدواً لم تعد قائمة .. حدث هذا فى فترة سابقة وخلق هذا الشكوك بين المثقف والسلطة .. فقد كانت المؤسسات تخضع لفكر واحد وهو فكر الدولة وكل من لايتفق معه كان يعد من الأعداء ، ولكن موقع كالذى أعمل فيه لاتملكه الدولة .. بل يملكه الشعب .. يملكه دافع الضرائب الذى ينتظر منا مانقدمه له من خلال مشروع مثل مكتبة الأسرة .. إن شرعية دولتنا – فى تصورى – تنبع من الديمقراطية .. وأن التعددية هى الأساس الذى يتحرك على أرضيته الجميع .. ولذلك فنحن كمؤسسة مسئولة عن الكلمة المكتوبة ننشر كل الأفكار والتيارات ومعيارنا الوحيد هو الجودة ويصدق وفى قيادتى لهذه المؤسسة لم يتصل بى .. ولم تكلمنى مباحث أمن الدولة ولم تتصل بى المخابرات لتبلغنى بأمر ما .. ولا رئيس وزراء كلمنى .. ولا حتى وزير الثقافة تدخل .. المؤسسة الوحيدة التى تعترض هى الأزهر .. ونعم هناك رقابة دينية .. ولكن فعلاً لاتوجد توجيهات ودائماً ما أردد أن الأدب يتطلب حالة من التمرد على الواقع وهى التى توجد نوعاً من المعاناة التى تؤدى للإبداع .. فالثقافة هى خلاف مع الواقع من أجل مستقبل أفضل .. وفى المجتمع سلطات أكثر قوة وتأثيراً من السلطة السياسية أو البوليسية .

* هذه السلطات التى تشير إليها أدت إلى ظهور فريق من المثقفين غازل الفكر الدينى وظهر من غازل الاستبداد مثلما حدث فى حرب الخليج ثم ظهر الطرف الثالث الذى عظم من ثقافة البترو دولار ؟ كيف تبدو هذه القراءة من وجهة نظرك ونحن على أبواب قرن جديد ؟

** من المؤكد أنه أصبحت هناك جماعات ضاغطة داخل المجتمع نفسه وهى التى تشكل نوعاً من الإرهاب الفكرى للمثقف .. وأولها جماعات الضغط الدينى التى يمكن أن تكفر أو تصادر العمل الأدبى .. ويومياً أتسلم خطابات من جماعات ضغط لا من الحكومة ، خطابات تتهمنى بالكفر ونشر الفسق والفجور بسبب نشرى قصيدة لشاعر جديد أو كاتب مجرب .. نحن نعيش فى مجتمع الحرام .. وكلنا متهمون فى المسرح أو السينما أو الأدب .. وخطورة هذه السلطة الضاغطة أنها تستخدم الآلة القضائية وهى آلة فى منتهى الرعب .. لأن شكوى فى النيابة ضد شخص بأنه يفسد المجتمع لنشره مجموعة من القصائد يرى صاحب الشكوى أنها تستخدم لغة بطريقة ما متناسياً أن اللغة فى العمل الفنى تختلف عنها فى الحياة التقريرية .. وينسى كذلك أن هذا ليس حياة ولكنه نسيج خاص له بنيته .. ينسى كل ذلك ويتقدم بشكواه .. فتتولى السلطات القضائية إصدار أمر ضبط وإحضار ويقع الشخص فى هذه الحالة فى دائرة الاتهام .. وتبدأ دورة صعبة فى إطار الآلة القانونية .. الحمد لله أن حكومة الجنزورى أوقفت هذه المهازل وأصبح من لا مصلحة له ليس من حقه الدعوى القانونية .. أيضاً لابد أن نشير إلى قوة جماعات الضغط المالى فهى جماعات متنامية ومن الممكن أن تفرض أنماطها الثقافية والفكرية وفى نفس الوقت فإن الثقافة ليست ضمن أولويات هذه الجماعات وإذا طلبنا دعمهم لانجد صدى .

* أنت تتحدث يادكتور عن ثقافة التقدم .. فى مقابل ذلك سادت فى مصر لسنوات طويلة ما أسميه بثقافة التحدى .. (الثقافة) التى تتحدث عنها وترى أن جيلك يصيغها أين تقع منها متغيرات العصر .. وهل هى بمعنى آخر ثقافة السلام ؟ وهل يرتبط بها صعود الاعتماد المتبادل مع الصديق الذى كان عدواً فى ظل شرق أوسط جديد ؟

** أرفض تماماً اصطلاح ثقافة السلام وأعتبره اصطلاحاً زائفاً لأن معناه التصالح الثقافى مع إسرائيل وباختصار نحن نرفض إسرائيل ، كثقافة وككيان استيطانى وكسياسة عدوانية .. والاعتماد المتبادل لايتم إلا بين ثقافتين متكافئتين .. ولايوجد تكافؤ بين الثقافة المصرية والثقافة الإسرائيلية إذا كانت ثمة ثقافة إسرائيلية ، فالثقافة الإسرائيلية هى مجموعة من الأقطار العنصرية الاستيطانية تعتمد على أيديولوجيات يهودية قديمة موجودة فى

بروتوكولات حكماء صهيون وأساسها فكرة التوسع وابتلاع الثقافة العربية من المحيط إلى الخليج .. وهذا مستحيل لأن الثقافة العربية بتعددها وتنوعها ثقافة راسخة من آلاف السنين شكلت فنوناً وآداباً وعادات وتقاليد .. كل هذا غير موجود فى الثقافة الإسرائيلية .. ففى هذه الثقافة لايوجد شاعر واحد يفرض نفسه ولاتوجد حركة مؤثرة يمكن أن نجرى معها حواراً .. أى اعتماد متبادل بين فكرة استيطانية تلغى الآخر .. ورؤيتنا نحن التى تعتمد على التعددية والديمقراطية لايوجد شىء اسمه الأدب الإسرائيلى أو الموسيقى الإسرائيلية حتى الفلكلور مسروق .. الثقافة الإسرائيلية ليست على كفاءة الحوار مع الثقافة العربية .

* ولكن ما قصدك بتعبير الاعتماد المتبادل الذى ذكرته أنت سابقاً وأعدته أنا فى سؤالى ؟

** الاعتماد المتبادل هو تعبير بديل للعولمة .. العولمة اصطلاح اقتصادى وليس اقتصادياً .. على أنها تعنى ثقافة أخرى وتطمس هويتها .. فى العالم الآن الاتصالات الفائقة السرعة ويتكس التكنولوجية التى حدثت وتستخدم فى مجال واستقبال المعلومات .. ويتيح التعرف على ثقافة الآخرين .. مثلاً .. بواسطة الإنترنت أتعرف تقاليد ومفاهيم قرية فى أقصى الهند .. هل معنى ذلك أننى أتأثر بتلك الثقافة ؟ سوف أطلع وأقرأ تفاصيلها .. والآخر سيفعل معى نفس الشىء وليس بالضرورة يسعى طرف للسيطرة على وهذا ما أقصده ، بالاعتماد المتبادل .. أى المعرفة .

* هل يرتبط مفهومك الثقافى ذلك بما بالشرق الأوسط الجديد وثقافته الجديدة ؟

** أنا لا أعترف بشرق أوسط جديد أو ثقافة جديدة ولكن هناك معرفة جديدة .. هناك طريق المعلومات فائق السرعة الذى يمكن أن يجعلنى على معرفة بما يحدث داخل إسرائيل .. بالأمس لم نكن نعلم شيئاً .. ولذلك من السهل وبسبب وفرة المعلومات الآن أن أتوقع انهيار دولة إسرائيل .. فهى دولة بدون فكر وتعتمد على أيديولوچية دينية.. فإسرائيل دولة دينية بالمعنى المحدود وتسعى لوجود دولة دينية حولها .. لذلك فهى مهتمة بوجود عراق نصفه شيعى ونصفه سنى وسعوديةوهابية .. ومصر نصفها مسلم ونصفها قبطى .. أى تفتيت العالم العربى إلى دول أقليات دينية ولذلك أرى أن الإسلام السياسى والمسيحية السياسية واليهودية السياسية .. كلها الدولة اليهودية الصهيونية .. لأن هذه الدولة تزدهر ومحيطها مدنى متقدم يعتمد على العلم والتكنولوچيا .. فمن مصلحة إسرائيل وجود دولة دينية متطرفة على شاكلتها .

* بعد أكثر من عشرين سنة على زيارة السادات للقدس وعلى تحرك قطار السلام بماذا تفسر أن النخبة الثقافية المصرية أغلبيتها ظلت على موقف معارض المسيرة ؟

** أنا أعتقد أن رجل الشارع العادى لعملية السلام بالمعنى الذى يمثله نيتانياهو وماتعنيه

سياسة إسرائيل الاستيطانية لانتهاك حرمات المسلمين بالقوة .. الحكاية هناك ذلك الشعور العام لدى الشعب العربى بأن أسرائيل ليست داعية سلام .. لذلك كان رفضنا المستمر لمشاركة إسرائيل فى معرض الكتاب تعبيراً عن موقف جميع المثقفين ولازلت على ذلك الموقف .. وأعترف أنه كان من حسن حظنا بموازرة وتأييد الرئيس مبارك لأنه أعلنها بصراحة «أنا لا أستطيع أن أجبر المثقفين المصريين على التطبيع» وقد شتمنى رئيس الوزراء الإسرائيلى وحاول استغلال الموقف عندما قال : هناك شخص فى مصر اسمه سمير سرحان يخالف سياسة دولته ومازال فى موقعه ، وكان الرد أنه لا إجبار لمثقفى مصر على التطبيع .

السبعينيات والتسعينيات

* بمناسبة هذا الموقف .. هل تعتقد أن علاقتك ـ كمسئول قطاع مهم فى العملية الثقافية ـ بنظام الدولة قد اختلفت بين السبعينيات والتسعينيات ؟

** فى السبعينيات عشنا محاولة الانتقال من المجتمع الشمولى إلى المجتمع الرأسمالى ومحاولة بذر بذور التعددية وفتح النوافذ وبدء الحوار مع أمريكا وإسرائيل وهو ما كان ممنوعاً قبل ذلك وبدأ الإحساس بأننا جزء من عالم كبير وليس أيديولوچية وحيدة .. ثم جاء عصر مبارك ليحقق كل ما سبق واقعاً حقيقياً .. وفى عصره تسقط الفجوة بين المثقف والسلطة ، وأثق بأن الثقافة هى البنية الأساسية للإنسان فى المجتمع .. هذا الإنسان الذى سيستخدم البنية المادية والذى سيدخل القرن الجديد فالإنسان الذى يستخدم التليفون لابد أن يكون على مستوى ثقافى يسمح له بذلك وهكذا فإن الخدمة المتطورة مرتبطة بإنسان متطور ومجتمع يقدم خدمة مدنية متطورة ـ وعودة لسؤالك أقول إنه إذا كان السادات ينظر بشك شديد للمثقفين ويطلق عليهم (الأفندية) وكان يفتعل التناقض بينه كرمز لأخلاق القرية وبين المثقف طويل اللسان ـ لكن مبارك عكس ذلك ويعتبر المثقف سنداً للسلطة يستطيع تقديم الحلول والبدائل .. وفلسفة اتخاذ القرار عند مبارك مؤشر .. فهو لايعتمد على الأجهزة فقط .. إنما يعتمد على مشاركة واسعة من الأحزاب والمثقفين ومواطنين عاديين ويعكف على دراسة كل ذلك حتى يصل للقرار المناسب .

التراجيديا

* عندما يطل شهر سبتمبر الذى يرتبط فى الذاكرة بشهر صدام بين السلطة ـ والنخبة المثقفة فى مصر والذى أدى إلى أن الناس استيقظت لتجد معظم رموز هذه المرحلة فى السجون .. كنت أنت وقتها عميداً لمعهد الفنون المسرحية .. كيف ترى الأمر كمثقف ؟

** أنا أرى السادات رجل دولة من الطراز الأول وأنه كان بعيد النظر فى خطواته ، وأنه

لو وافق الفلسطينيون على حضور مؤتمر مينا هوس عام ٧٨ لتغير وجه التاريخ فى المنطقة وما ظهر نتانياهو .. ولكن مشكلة السادات أنه دخل فى مواجهة مع جميع القوى الوطنية فى مصر ، وفى تصورى أنه كان أقرب للبطل التراچيدى الذى ارتكب خطأ تراچيديا ومات بسببه .. ولقد كان الإنجاز الكبير للرئيس مبارك هو القدرة على أن يتجاوز المجتمع تلك الفجوة التى وقعت بسبب سبتمبر .

* يبدو أحياناً قدر من التناقض بين تأييدك لعملية السلام ومعارضتك لتوابعها اليوم .. إنه تناقض قد يعكس أزمة المثقف أو بعض المثقفين ؟

** لا .. أنا مش موافق على عملية السلام .. أنا موافق على السلام الذى يؤدى لإعادة كافة الأراضى المشروعة للشعب الفلسطينى .. من ناحية أخرى فإن السلام الحالى سلام زائف .. وعندما يصبح حقيقياً يختلف الموقف .

* هناك مشكلة مع المثقف العربى حيث يبدو وكأنه من أكفأ الناس فى «التقية» أى إعلان شىء والانتظار والصبر حتى تتغير الظروف ليعلن نقيضه .. وقد اهتزت رموز ثقافية عديدة طبقاً لهذا المعنى .. فهل من حق المثقف أن يغير رأيه فى الوقت الذى يراه مناسباً لتجنب دفع الثمن ؟

** التغير مع الواقع ضرورى .. ولابد أن يكون للمثقف موقف من المتغيرات .. نتانياهو متغير لابد أن يكون هناك موقف منه .. حرب الخليج متغير كان لابد أن يكون للمثقف موقف منه .. والتغير سمة الحياة .. ولايمكن أن تدخل القرن الجديد الذى تدير حواراتك تحت رايته بدون تقبل متغيرات الواقع وأيضاً تغيير الرؤيات .

* بمناسبة حرب الخليج الثانية التى ذكرتها والتى تمر ٨ سنوات هذه الأيام على مناسبتها .. أليست هناك حاجة لتفسير موقف العديد من المثقفين المصريين الذين أيد بعضهم للاستبداد على طريقة صدام حسين بسبب الهوى أو الاعتقاد الأيديولوچى وبين مؤيد الرقابة ليست من المباحث للكويت وقيل إن الهوى كان أيضاً نفطياً ؟

** بداية لست مع ابتلاع شعب عربى بواسطة سلطة عربية ديكتاتورية أخرى .. إننا مع شعب العراق ولكننا ضد أن يبتلع الحكم العراقى الكويت .. إن حكم العسكر وسيطرة الفرد يؤدى إلى أخطاء تاريخية والنتيجة النهائية لحرب لخليج الأخيرة أن المال العربى تم امتصاصه ليعود مرة أخرى لأمريكا وأوروبا وأن تظل الشعوب العربية مدينة لأكثر من نصف القرن القادم .. ماحدث كان مؤامرة ضد العالم العربى .. مؤامرة مترامية الأطراف .. وانعكست على الثقافة العربية .. فى الماضى كانت هناك مقولة إن الشعب المصرى يكتب واللبنانى يطبع والعراقى يقرأ .. وبغض النظر عن حرفيته لكنه يعكس التكامل الثقافى المنشود .. هذا انتهى .. وبدأت الثقافة تفرق بعد أن كانت مسئوليتها أن تجمع .. وانتشرت الإقليمية الثقافية .

* أنت أستاذ جامعي .. ما تقييمك للدور الأكاديمي سواء في الحياة الثقافية أو الحياة العامة وبدقة أكثر يبدو أن له مشكلة .. فما هي ؟

* ما هي مشكلته من وجهة نظرك أنت ؟

** كنت أفضل الاكتفاء بالأسئلة .. ولكن أعتقد أن دور الأكاديمي في حياتنا أنه كان دائماً مفسراً للأحداث والوقائع ولكنه لم يبشر أبداً بجديد .. ففي لحظة الإعلان عن الاشتراكية كان أساتذة الجامعة هم الذين سارعوا بتفسيرها والبحث لها عن ألوان عربية وملامح محلية .. وسطعت فلسفة السوق .. فسارعوا أيضاً للحديث عن أهميتها .. يضاف إلى ذلك أن هناك رأياً يرى أن الأكاديمي يفكر في أمر واحد هو مقعد الوزارة .

أعتقد أننا نظلم أنفسنا كثيراً .. هنري كيسنجر ومازالت رؤيته السياسية الخارجية تهيمن على العلاقات الخارجية الأمريكية .. أستاذ أكاديمي .. معظم المشتغلين في المؤسسة السياسية الأمريكية أساتذة جامعة .. إن هؤلاء هم الذين يشكلون رؤية ووجه المجتمع الثقافي .. المبدع مسألة أخرى والسعي للوزارة لماذا أصبح عيباً ؟ .. يعني أصبح تصويراً كاريكاتورياً .. الأستاذ الجامعي من حقه أن ينتقل إلى موقع يحقق فيه أحلامه ..

* هل تحلم أنت بالوزارة ؟

** كنت .. لكن الآن لا .. لا .. بمنتهى الصراحة .. من عشر سنوات كنت أحلم بالوزارة لأني كنت أستطيع العمل الكبير .. الآن أنا متعب ومرهق ولدى اكتفاء بالدور الذى أقوم به .. وأحب أن أكتب .

* بمناسبة الأستاذ الجامعي .. والوزارة .. والثقافة .. والأجهزة بماذا تفسر غفرانك لأستاذك الدكتور رشاد رشدى أنه كاد أن يحرمك من فرصتك كمعيد بقسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب؟ لقد قال أحد النقاد إن سمير سرحان ما كان يمكن أن يتجاوز ذلك المأزق إلا بإعلان العداء الصليبي لليسار حتى يستطيع إكمال مشواره ؟

** زمان كان فيه استقطاب .. إما مع اليمين أو مع اليسار .. استقطاب ساذج .. ورشاد رشدى كان ساذجاً في ذلك .. لقد أصابني الوجع من موقفه لأنه هدد مستقبلي .. لكن هذا كان جزءاً من مناخ الاستقطاب آنذاك حيث كان السؤال : أنت مع رشاد أم مع مندور (يقصد الناقد محمد مندور) مع الأول أنت خائن مع الثاني أنت وطني !! .. ولذلك فإن ميزة هذه الأيام التي نعيشها الآن أن هذا المناخ لم يعد موجوداً .. ورشاد رشدى أستاذي ولا أستطيع الحديث عنه إلا بكل ود وامتنان ـ أما حكاية اليسار .. فأنا ابن اليسار المصري وكنت جزءاً

من هذا اليسار ورشاد رشدى عندما رفضنى كمعيد كان بتهمة أننى شيوعى يسارى وأنا بالفعل كنت مؤمناً باليسار .. اليوم تغير العصر وسقطت الأيديولوچيات .. والفرصة الوحيدة أن تعيش فى مجتمع يمتلك قاعدة تكنولوچية وتعليمية وثقافية ولديك تعددية فى الآراء ويسود المجتمع حوار واسع ولديك طموح للحاق بركب الدول المتقدمة .. هذا هو الأسلوب الوحيد للنهضة .

سؤال أخير

* ما الثمن الذى دفعته لكى تصعد .. أنت ابن الطبقة المتوسطة ؟

** لم أدفع شيئاً .. والله العظيم وحياة أولادى لم أدفع إلا عملاً متواصلاً وإصراراً ودأباً غير طبيعى لم تساعدنى أجهزة ولم يساعدنى أشخاص ولم يدفع بى أحد للأمام ، لكن منصور حسن وكان وزيراً للثقافة هو الذى اقترح على الدكتور حسين نصار وكان رئيساً لأكاديمية الفنون تعيينى عميداً لمعهد الفنون المسرحية وكان هذا أول منصب وأيضاً هناك الوزير المرحوم عبدالحميد رضوان الذى قابلته بالمصادفة .. ونشأت بيننا كيمياء صداقة فكان تعيينى رئيس هيئة قصور الثقافة ومن يومها وأنا فى مناصب ثقافية .. ولم تسهم فى ذلك أجهزة .

طارق البشرى

الشريعة ليست ماضياً غابراً .. إنها جوهر وجودنا

البحث عن اليقين فى زمن متغير .. ذلك هو أصعب ما يواجه جيلنا ونحن نخطو على الطريق إلى الألفية الثالثة للتاريخ .

وهناك فريق النخبة الذى تقود حياتنا الفكرية والسياسية قدم للجيل الحالى ما يعتقد أنه اليقين والخلاص . ولكن المصادفة الكبرى أن كل أفراد هذه النخبة ـ وكأنهم اتفقوا على عدم الاتفاق !! وعلى أن تظل أسئلتنا الكبرى التى واجهت حياتنا منذ أكثر من قرن ونصف القرن معلقة فوق الرقاب .. تتناقلها الأجيال وتتعثر فى جنباتها رغم أن الزمن تغير وباتت الحقيقة الساطعة أن ماحدث فى السنوات الأخيرة من تطورات مذهلة أكثر مما حدث للبشرية من تغيرات خلال عشرات القرون الماضية .

والمؤرخ الكبير طارق البشرى هو أحد أبرز أبناء النخبة الفكرية فى مصر منذ الخمسينيات .. وكان أبرز مايميزه دائماً هو أنه يشعر بأن لديه ذلك اليقين الذى يمكن أن يبشر به بدون تردد .

التقيت بطارق البشرى لأول مرة منذ أكثر من ١٣ عاماً وأنا أسعى لأستمع إليه يشرح ماذا حدث بالضبط لكى ينتقل حفيد الشيخ سليم البشرى شيخ الأزهر من عام ١٩٠٠ إلى ١٩١٧ ـ من اليسار إلى اليمين (بمصطلحات العصر التى سادتها لفترة) وكيف يمكن للمؤرخ أن يمتلك كل هذه الشجاعة فى ٦٧ صفحة ـ هى مقدمة كتابه الشهير عن تاريخ الحركة الوطنية فى مصر (١٩٤٥ ـ ١٩٥٢) لكى يصحح رؤيته التاريخية تجاه الإخوان المسلمين والحركة الدينية !

كانت شجاعة المؤرخ هى بداية التعارف .. وبعد هذه السنوات ألتقيه بالتساؤل : ماذا حدث؟ ولماذا حدث ؟

ماذا حدث بعيون المؤرخ المعاصر ـ ولماذا حدث بعيوننا نحن أبناء جيل آخر ـ يأمل أن ينظر خلفه بقليل من الغضب وكثير من التفهم .

التقيت ـ مرة أخرى .. فى نفس المنزل .. فى نفس الغرفة التى تأخذ طابعاً شرقياً فى كل

شيء من الإضاءة إلى الفازات إلى المقاعد .. ونحتسي نفس أكواب الشاي المميزة وتلهب الخيال منذ بداية اللقاء ـ اللحظة الراهنة ! التي ندور حولها ونحاول أن نراها جيداً :

«تغيرت أشياء كثيرة منذ أول لقاء بيننا في أوائل الثمانينيات .. تغيرت أشياء كثيرة .. ويكفي أن نقدم مثالاً واحداً من الأمثلة العديدة التي كنا نتحدث فيها قبل أن نبدأ في استخدام (جهاز التسجيل) .. وهو النجاح كقيمة في المجتمع المصري ! .. نعم .. النجاح .. هل تعرف أن أخطر ما حدث أن النجاح في مصر بات مشروعاً بغض النظر عن محتواه ولذلك فإن من يقيم مصنعاً (للبان) ويحقق مكاسب كبيرة منه ويثير عادة مضغ اللبان في المجتمع يعتبر ناجحاً ـ وهذا المعنى جاء من نسق القيم الأمريكية ـ وإن كنت شخصياً أتصور أن العمل نوعان : أحدهما تعبير عن رسالة والثاني بحث عن رزق وأشعر دائماً أن هناك حاجة لدمج النوعية .. وأنا كرجل قانون أعرف أن العمل لابد أن يكون مقابل أجر ـ وأن أي خلل في هذه العلاقة يؤدي إلى خلل أشمل .. ولكن يظل في العمل جانب إنساني آخر يدفع الإنسان لإعطاء مزيد من الوقت والجهد من أجل التجويد .. وكنت أشعر بذلك نحو المعلمين في بداية حياتي كان هناك المعلم الذي يقف في الفصل ولديه إحساس بأنه يقوم بعملية تربية نشء وبحكمة هذا المعنى في الكلمة التي يقولها وفي الدرجة التي يمنحها للتلميذ ـ وكان هناك النوع الآخر الذي يقف في الفصل ناظراً لساعة يده لكي يخرج من الفصل ! الجميع يعمل بأجر .. ولكن هناك من يستشعر في عمله برسالة ما .. هذا الجانب الرسالي في العمل قد خفت في حياتنا بصورة ملحوظة وزاد الشعور بالجانب الارتزاقي في العملية» .

ويصمت طارق البشرى قليلاً ليفتح أول قناة في الحوار حول المستقبل .. ونسأله :

* كيف أثر ذلك في العلاقة بين الأجيال ؟ .. وماذا كانت النتائج المباشرة ؟

** الجيل الذي كان يجب أن يضع خبرته ويهديها للجيل الأصغر بات منصرفاً عن هذه المهمة لأن هذه المهمة لاتتم إلا في ظل شعور الفرد برسالة ما ـ ونجد هذه الحالة في العديد من المؤسسات المختلفة سواء الصحافة أو الجامعة أو المؤسسات الفنية في العمل المهني ـ أي حدث نوع من ضرب لعلاقة تبادل الخبرة بين الأجيال ، ولا أستطيع أن أدافع عن جيل ضد الآخر .. ولكن على أية حال إذا قلت إن جيلي بخير فإن ذلك يرجع إلى أن الذين علمونا كانوا بخير ، ولكن أتفق معك أن جيلي يتحمل قدراً من مسئولية هذه الحقيقة التي أقررها لأنه الجيل الذي يعطي ولكن يبدو أن جيلي انشغل إلى الدرجة التي لم يشعر بكم هو ثمين مالديه ـ وفي المقابل فإن الجيل التالي لم يتحمس كثيراً لأن يؤمن بأن الجيل الأسبق لديه شيء مهم يمكن الحصول عليه أيضاً فإن جيلي عاصر ثلاثة نظم اجتماعية بقيم متنوعة .. أدركنا ما قبل ثورة

١٩٥٢ ثم نظام يوليو حتى عام ١٩٧٠ ثم نظام ثالث آخر . يكان كل نظام مه هؤلاء ينتهى قبل اكتماله .. وباث الحال مثل الصجرة التى لاتنمو بصورة طبيعية ـ أو الغير ناضجة ـ ونشعر بذلك فى مجال القضاء ./ لقد بات القاهون لدينا شرائح .. شريحة تنتمى لما قبل ٥٢ وإن كانت بعض آثارها مازالت موجودة وشريحة من نظم الستينيات وهناك شريحة من نظم مابعد ذلك والكل يتعامل معاً ! ومن الأمثلة التى توضح ذلك : علاقة الإيجار مثلاً سواء كان فى بيت أو فلاح يستأجر قطعة أرض .. إن أى محاولة لعمل نظام إيجار جديد يجعلنا أمام شرائح من العلاقات فوق بعضها ولايمكن التعامل مع كل شريحة إلا بنظام خاص بها ..

* هل يعنى ذلك أننا نرحل مشاكلنا من جيل لآخر وليس هناك من يقف لمرة واحدة بحثاً عن حل ؟

** المشاكل معقدة ومن الصعب حلها بصيغة واحدة ولايمكن أن أحاسب جيلى وحده الآن ليدفع الفاتورة ! مثلما أحس من سير الحوار من قبل أن تستخدم (جهاز التسجيل) .. إن محاولة التفسير أو تحديد مسئولية جيلى وهو يستعد للخروج من الساحة لابد ألا تتناسى تضارب القيم الذى يعيشه المجتمع لقد دفعنا ثمناً باهظاً للتضارب بين القيم خلال سنوات طويلة .

* أى القيم التى تضاربت ؟ وأى القيم كانت الأصل وغيرها كان الفرع ؟ .. لقد ساهمتم كجيل فى صناعة المشكلة .. وفى صياغة السؤال الآن ؟

** لا .. إننى أقصد بالتحديد أنه لدينا مرجعية دينية حاكمة للأخلاق وللنظام القانونى، وفى مقابلها مرجعية علمانية رافضة للسابقة وحاكمة لجزء آخر من التنظيم الأخلاقى والقانون ـ وهذا أوجد نوعاً من التضارب والانفصام الاجتماعى داخل المجتمع وداخل الشخص نفسه .. لأنه غالباً ما يحمل الشخص خليطاً من المرجعيتين بشكل يعوق وجود منهج واحد وبالتالى يجعل توقعاتنا للمستقبل غير دقيقة لأننا لانضمن رد فعل الشخص أو الجماعة وبالتالى باتت القدرة على توقع رد فعل المجتمع قدرة غير يقينية ولم يعد هناك مقياس واحد يمكن الاعتماد عليه ، وأصبح موضوع التحديث والتجديد سبباً للانفصال عن الثوابت الحقيقية فى حياة المجتمع والدخول فى دوامة واسعة .

* المؤرخ طارق البشرى من أكثر المدافعين عن فكرة الأصالة والتمسك بالمرجعية الإسلامية كأساس للنظر للعالم .. ولكن كيف يمكن لمجتمع أن يظل أسيراً للماضى دون أن يمتلك شجاعة الاتجاه للمستقبل ؟ .. وكيف يمكن لفكرة الأصالة أن تعوق مجتمعاً وتصبح قيداً لحركته ؟ .. بل إن فكرة التجديد نفسها باتت ـ كما أرى ـ موضع اتهام ؟

** الحوار فى هذا الموضوع يجرى منذ ١٥ عاماً فى مرحلته الأخيرة .. ويعود إلى ١٠٠ سنة فى مرحلته العامة .. ما هو المقصود بالتخلف وما هو المقصود بالتقدم ؟ دائماً أدعو للنظر للموضوع على أساس نسق حضارى واحد .. أى قديم يخرج منه جديد يمكن أن يستعين بالآخر بعد هضمه ويدخله فى نسقه الخاص ـ وهذا ما فعله الفكر الإسلامى عندما أخذ نماذج من الحضارة الإغريقية والفارسية والهندية وفتتها إلى نماذج وأساليب تعامل مختلفة وأنماط تفكير تم ذلك بعد عملية هضم واسعة وهذا بالضبط ما فعلته أو ربما مع نتاج الحضارة الإسلامية .. وأجد ذلك فى بدايات القرن التاسع عشر .. وفى جهود الكثيرين من المفكرين مثل محمد عبده الذين هضموا جيداً بعض ما تخيروه ثم حولوه لأنماط من التفكير فى إطار النسق الإسلامى ولكن ما حدث اليوم هو تبنى نسق حضارى آخر تحت يافطة (التجديد) وهو النسق الغربى .. وبالتحديد أصبحنا نتبنى النسق الأمريكى كبديل ولم تعد المسألة هى التجديد كما يدعى البعض ولكن ما يحدث اليوم فى حياتنا هو استبدال وإحلال شىء محل آخر .

* يرد البعض أحياناً بالقول إن المؤرخ طارق البشرى اعترض على ما سماه التفسير العلمانى للتاريخ ليقدم هو التفسير الدينى للتاريخ ؟

** أحياناً أشعر بتداخلات عديدة فى هذا الموضوع ! لكن ببساطة عندما أتبنى الرؤية الأوروبية للتاريخ وآخذ بالمعيار الأوروبى بقياسه .. عندما أتبنى التحديد الأوروبى للعصور الوسطى من القرن السادس أو الخامس الميلادى حتى القرن الرابع عشر وأنها عصور الظلمات .. فإننى أظلم نفسى وتاريخى لأنها كانت بالنسبة لى عصور مشرقة على كافة المستويات .. فهى من ناحية الرسالات الدينية كانت عصور الازدهار الفلسفى والفكرى والدينى، ومن ناحية العلاقات الاجتماعية كانت عصور صحوة ، من ناحية الجهود الفعلية التى بذلت كانت مرحلة متألقة ساد فيها العقل بإبداعاته واتضح ذلك فى أصول الفقه وفى الفلسفة الإسلامية ومن خلال العديد من المشروعات الفكرية الضخمة التى تمت وأخذت شكل تفسير القرآن وتفسير الحديث كيف أنسى كل هذا لأننى آخذ بأحكام الغرب على تاريخه . نفس المنطق عندما أقول إن هذه العصور الوسطى تبدأ بسقوط روما وتنتهى بسقوط القسطنطينية إنه تقسيم غريب لزمن لم يكن الغرب مسيطراً خلاله ـ أقبل اليوم بأن الحربين الأولى والثانية حروب عالمية رغم أنها كانت غربية أساساً ولكن لأن الغرب كان يسيطر على العالم وكانت حركة صراعاته تؤثر فى العالم كله بحكم جبروته وهيمنته، لكن قبل السابع الميلادى .. لم يكن يسيطر على العالم فكيف أوافق على تقسيماته ؟ وهل عندما أقول ذلك يعتبر كلامى تفسيراً دينياً ؟ .. حرام أن ننسى أربعة أخماس العالم وتجاربهم ليصبح الغرب ربع العالم هو وحده

المعيار مثلما يحدث ويتكلم المثقفون على النظام الإقطاعى فيكون المعيار ما كان سائداً فى الغرب ونجد ما كان لدينا كما يقولون شبه إقطاعى، ولكنه منتشر فى آسيا وأفريقيا ومعظم العالم القديم ورغم ذلك نتجاهله !! إن ما يحدث هو انصياع للمفاهيم الغربية والتقييمات الغربية وعندما يقال عن الإمام أبى حامد الغزالى ـ لأنه كتب فى الصوفية ـ أنه رجل غير عقلانى ! ومن يقول ذلك يتجاهل أن من أهم مساهماته أنه كان فقيهاً، والفقه قياس يعتمد على العقل، وأن له كتباً مهمة تساهم فى التكوين العقلى الرشيد ؟ وعندما يقال إن الإمام الشافعى هو أساس ما عانى الفقه الإسلامى من سلبيات وعندما ننظر لهذا الرجل نجده هو الذى قام بتأصيل مناهج التفكير الإسلامى .. ويقول عنه الشيخ مصطفى عبدالرازق : هذا أرسطو الإسلام ، ويعتمد هذا القول عن فخر الرازى لأن أصول الفقه التى وضعها الشافعى هى المنطق الخاص بالمسلمين وعندما نجد أنه من وضع اللبنات الأساسية لعلم مصطلح الحديث ـ وأعنى طريقة التحقيق التاريخى بشكل عقلى تماماً لما هو قوى وما هو ضعيف بالنسبة للروايات التاريخية المتعلقة بالحديث والتى لو تم تطبيقها اليوم على وقائع التاريخ لن يبقى من وقائع التاريخ الحديث سوى الربع أو الخمس ! بسبب صراحة المناهج التى وضعت فى هذا المجال ويكفى أن نعلم أن كل ما نعتمد عليه من الجبرتى يُعتبر خبراً واحداً !! وبذلك طبقاً لمنهج تحقيق الحديث يصبح ضعيفاً ! والمعجبون بالجبرتى كمصدر للواقعة التاريخية هم الذين يصفون «الحديث» فى روايته بالضعف .. فكيف ذلك ؟

* كمؤرخ .. ألا يستوقفك أننا منذ الحملة الفرنسية وحتى اليوم نعانى من مشكلة نفسية من التعامل مع الغرب (الآخر) ، صاحب حضارة القرن العشرين .. ألا تشعر بأن تلك المسألة غير صحية ونحن نتحدث عن زمن جديد وعصر جديد وعالم جديد ؟

** دعنى أسألك أنت قبل أن أُجيب عن اللغم الذى تضعه فى قلب السؤال .. دعنى أسألك .. لماذا لايعترف الغرب بنا ؟ .. لماذا لايرانا .. لماذا لايعترف بأن لنا ثقافة أخرى .. وأنَّ لنا مرجعية أخرى وإطاراً مرجعياً آخر ونسقاً حضارياً لانستطيع أن نخونه ، وأننا قادرون من خلال تجربتنا وكل معطيات تاريخنا أن نصل إلى نفس التقدم والتطور الذى حققه الغرب فى إطار ثوابته.

* هل يعنى ذلك أنك ترى أن الماضى كان لنا ويغنينا عن المستقبل ؟

** لا .. ليس ماضياً .. إننى أتحدث عن إطار مرجعى فلسفى ـ عندما أتحدث عن القرآن والسنة .. فأنا لا أتحدث عن لحظة تاريخية عبرت، وعلى المستوى الدينى .. هذه نصوص وأحكام آتية عن الغيب أى لم تأت من داخل الزمان، ليست تجربة تاريخية ماضية بل جاء من كيانى الكلى.

* إذن ما هى الأسس التى يجب أن أستند إليها لأكون موجوداً فى عصر الهندسة الوراثية ؟ هل لدى ما أتكلم عنه فى هذا العصر غير الأسى ؟

** ما المشكلة بالضبط ؟

* أية مشكلة ؟

** المشكلة أننى شديد التخلف فى مقابلة آخر شديد التقدم ويسبقنى بسنوات ضوئية ومنذ سنوات طويلة أتحسس طريقى لأقف بجواره ولا أعرف الطريق .

يصمت طارق البشرى للحظات وهو يتأمل تكويناً خشبياً أقرب للأرابيسك يحيط بـ (أباچورة) تجمع بيننا ثم يرد : لماذا كما يبدو فى كلامك أنك ترجع تخلفى إلى ثقافتى القديمة ؟

* الأسئلة التى تظل معلقة فى أعناق مجتمع لأكثر من قرنين من الزمان حول الأصالة والمعاصرة ـ أنا والغرب .. كيف؟ الإسلام كدين أم كدين ودولة!.. وهكذا ثنائيات عديدة فى فكرنا منذ الحملة الفرنسية وحتى اليوم ولم نصل لإجابات ألا يعنى ذلك أننا فى أوضاع غير صحية ؟

** من الذى صنع ذلك .. أنا رجل أعيش بتفكيرى وأطوره من داخله وبأساليبى ولدى مفكرون من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر قادرون على نقل تفكيرى مما هو غير مستجيب لتحديات الواقع إلى ما يكون مستجيباً لهذه التحديات ، عديد من المفكرين على مضى القرون الأخيرة موجودون ولهم مساهمات مهمة ـ مشكلتى لم تكن أبداً فى هذا الأمر .. أقصد فى الاستجابة لتحديات التطور وضروراته وكيفية المشاركة فى النهضة العلمية العالمية .. كانت مشكلتى أن هناك فكرة وافدة جاءت وهى لاتتفق مع النسق الذى لدىّ، وصار لها أنصار .. واندلعت بعد ذلك المشاكل !

* أفهم من ذلك .. أنك تعتقد بمقولة (الأفكار المستوردة) ؟

** نعم .. بالطبع .

* أجابنى الدكتور فؤاد زكريا فى حوارنا بأن كلمة المستورد خديعة لمنعنا من الاستفادة من الثقافات الأخرى ؟ ولماذا ليست لدينا نفس الحساسية من كل ما هو مستورد اقتصادياً ؟ .. أيضاً لماذا لانتذكر أن الحضارة الإسلامية استفادت من حضارات عديدة وافدة عليها ؟

** يرد حفيد شيخ الأزهر بعد أن يتأمل آخر قطرة فى كوب الشاى الذى بين يديه قائلاً : حدد لى مجموعة التحديات الواقعية العملية التى تراها فى مجتمعنا وقل لى هل ثقافتك

التراثية تستطيع أن تستجيب لهذه التحديات وترد عليها أم لا ؟ .. فنتكلم فى المحسوس .. وبصراحة لست مستعداً للدخول فى نقاش خاص بالمستورد، لقد حاولت الوصول لتفاهم أساسه أن نفتح الصناديق المغلقة وننظر محتوياتها ونرى أين الاختلاف وأين الاتفاق لكن المناقشات الحالية على الساحة لاتسير طبقاً لهذه الرؤية، ولذلك لن أشارك فيه .. وليجعل كل منا قدرة أن يحاول ممارسة ما يعتقد أنه صواب، ولكن فقط أحب أن أشير إلى أن التحديات التى واجهتنا كنا دائماً لدينا قدرة على الاستجابة لها إلى مدارس التجديد فى الفكر الإسلامى الحديث وأقصد القرنين الماضيين نجد أنها كانت مستجيبة للتحديات الواقعية المطروحة، وكانت تقدم الإجابات المناسبة، منذ كانت الحركة الصوتية تهتم بأفكار (وحدة الوجود) وقداسة الأولياء نشأت حركة تجديد فقهى مذهبى فضرب هذه النظرة وتخلص الفكر الدينى من هذه الأمور ــ ونجد أنه عندما تقلصت المذاهب واتخذت أشكالاً متصارعة ضد بعضها البعض وبدأ كل مذهب ينحصر فى ذاته وينظر للمذاهب الأخرى على أنها لاتعبر عن الإسلام الصحيح نجد ظهور مفكرين ينزلون القداسة عن المذاهب والدعوة للعودة للقرآن والسنة مباشرة .. لقد واجهوا تحديات عصرهم .. ثم ظهرت موجة ثانية من المفكرين وكان الاحتلال قد أغرق المنطقة .. فلعب المفكرون وفى مقدمتهم الأفغانى دورهم فى شحذ همم الناس وعقولهم ضد المحتل .. بل إن حركات التحرير الوطنية خرجت فى هذا الإطار .. وبعد ذلك محمد عبده ورشيد رضا والشيخ شلتوت .. وغيرهم وفى كل عصر ستجد رجالاً واجهوا مشاكله لم أكن فى حاجة لمن يعلمنى التشريعات الفرنسية لكى أطبقها .. تلكم التشريعات التى جاءت عن طريق الامتيازات الأجنبية والاحتلال ثم النفوذ الأجنبى أساساً .

* لماذا تصاعدت حدة البحث عن التراث منذ نهاية السبعينيات وحتى اليوم على عكس ما كان سائداً قبل ذلك من وجهة نظرك كمؤرخ ؟

** استخدامك كلمة الماضى يعنى انحيازك وأنك تقول إنه فكر غابر ! .. أنت منحاز .. وتسرب قضية انحياز فى قلب الكلام .. وكيف تفسر جهود الشيخ الغزالى فى الستينيات وما بعد ذلك ؟ والشيخ شلتوت تألق من الخمسينيات .. القضية موجودة دائماً لم تنته أبداً .. ففى العشرينيات نجد كتابات محمود عزمى العلمانية ولاسيما عندما كتب يقول : انفضوا عنا هذا الدين وسنجد الشيخ يوسف الدجوى والشيخ محمود شاكر وغيرهما .. إنه حوار لم ينقطع أبداً وظل هاجساً .

* ألم يخلق ذلك نوعاً من (اللخبطة) بين الأجيال حتى اليوم لأن هذا الحوار لم يحسم ؟

** وهل يجب أن أقع فى الهزيمة حتى لاتتأثر ..

* «تاريخ الحركة الوطنية» وكتاباتك ودراساتك التاريخية والقانونية تتوالى .. ما الجديد فى دورك كمؤرخ منذ ذلك الحين ؟

** إننى اليوم أشعر أن واجبى هو الحفاظ على الجماعة تراثها وحضارتها لأنها لم تستطع القيام بدور فى الحضارة العالمية بدون المحافظة على هذه القيم ـ أنا لست ضد التعاون الدولى اليوم ولكن الشرط أن نكون مساهمين فى وضع قواعد لأن لدينا ما نستطيع أن نضيفه إليه . ما لدينا ليس بقليل ، لقد عرفنا حقوق الإنسان منذ ١٥٠٠ سنة .. عندما وقف أحمد عرابى أمام الخديوى وقال له لقد ولدتنا أمهاتنا أحراراً ولن نستعبد بعد اليوم لم يكن قد قرأ حقوق الإنسان بالفرنساوى أو الأمريكانى ولكنه قرأ فى الكتاب عن عمر بن الخطاب ، وكان الكلام على لسان عمر بن الخطاب عن المساواة أهم بكثير من كلام مونتسكيو لأنه كان حاكماً .. وكان يعبر عن السلطة المقيدة من داخل الشريعة إنها شرعية آتية من خارج الحاكم وليس هو مصدرها، هو لم يضع القانون .. ولكنه يخضع له تماماً .. هذا منذ ١٥٠٠ سنة .. إذن لدى ما أقدمه للحضارة العالمية .. وهناك ما أستطيع أن آخذه من الحضارة الغربية بغير حرج .. مثل التكنولوجيا والعلوم وأيضاً لابد أن نستفيد منهم على مستوى تنظيم المجتمع وتنظيم الحكم وتطوير الإدارة آخذ ما أحتاجه وأهضمه ثم أعرف كيف أستفيد منه .

* ولكن فى المقابل ما هى الرؤيات التى يجب أن أتخلى عنها فى مسيرتى نحو التقدم ؟ البعض يشير للنظرة للمرأة والتى سادت طويلاً كمثال لأفكار أخرى تعرقلنا ؟

** من قال إن العلاقة بين الرجل والمرأة فى أوربا أفضل ؟ من قال ذلك ؟ أرجوك اشرح لى .. إن عقد الزواج إرادى بين طرفين منذ ظهور الإسلام وينتهى إرادياً أيضاً بطلاق من الزوج للزوجة ويمكن للزوجة أن تشترط فى العقد من أول يوم أن يكون لها حق الطلاق أيضاً ـ ويكون ذلك لها شرعاً ـ ما هو المطلوب أكثر من ذلك ؟ المأساة أن البعض يرى أن النموذج الغربى هو النموذج الأمثل، بالرغم من أنه غير كامل بل ناقص ، ولم يستطع أن يصل لصيغة حقيقية طبيعية للزواج حتى اليوم ، ويتم التحايل على أبدية العقد وقضية التعدد تتم عن طريق العلاقات غير الشرعية .

* كرجل قانون ـ البعض يرى أن جعل الطلاق فى يد القاضى يحمى الأسرة والمرأة خاصة ؟

** أنا ضد ذلك .. لأن العلاقة بين الرجل والمرأة خصوصية . ولابد أن يتم حلها فيما بينهما وتدخل قاض بكاتب جلسة ، ومحام موجود وشهود للحديث عن علاقة زوجية شىء غير معقول وكشف عما يحسن أن يكون مستوراً ، وحقوق المرأة جزء أساسى ـ أى كفالة التعليم وإمكانات العمل وقدر من الندية يعترف أساساً به الإسلام وبالمناسبة فى الإسلام الرجل

والمرأة فى الزوجية شخصيتان مستقلتان تماماً من الناحية القانونية لها ذمتها المالية وترث وتورث ، وقادرة على إبرام عامة أنواع العقود .. كالرجل تماماً .. مش عارف أين هى المشكلة ؟ نعم قد تكون هناك سلوكيات سلبية عديدة نحتاج لأن نتخلص منها ولكن لابديل من الحفاظ على إطارات المرجع .

* يحذر البعض من الحماس المبالغ فيه للحركات الإسلامية فى الوطن العربى مؤكداً أنه لا يأتى فى أذيالها سوى الاستبداد ؟

** لقد شاهدنا النظم العلمانية فى آسيا وأفريقيا وفى الوطن العربى وكانت سلوكياتها الاستبدادية مما ليس له مثيل من قبل وأتمنى ألا يكون لها مثيل من بعد .. وفى النظام الإسلامى كانت تجمعات المجتمع المدنى أقوى بكثير وكانت تكفل قدراً من الحماية للفرد .. وهذا لم يعد موجوداً فى الدولة العلمانية الحديثة ولم يعد لأحد من جماعة صغيرة تحميه فى مواجهة ضخامة المؤسسات العلمانية .. حتى (المعاش) الذى يحصل عليه الفرد كبوليصة تأمين لا يحصل عليه من مؤسسة معينة ، بقدر معين على عموم القطة - اليوم لكى تقوم بالبيع أو الشراء أو ممارسة أى مهنة لابد أن يصدر ترخيص بذلك من جهة رسمية والدولة المركزية تسيطر على كل ذلك بدون أن تكون لديك إمكانية الاختيار .. فالدولة العلمانية الحديثة حلت مكان مؤسسات المجتمع المدنى منذ قرن ونصف القرن والمركزية وصلت لدرجة فادحة ! أى أن هذه الدولة الحديثة تركت الفرد وحيداً فى مواجهة المؤسسات المركزية بدون حضن للحماية .. وهذا يحدث فى مجتمعاتنا بصورة واضحة - على عكس أوروبا - لأن نظام هذه الدولة العلمانية نظام وافد علينا ولم يراع ما كان لدينا، لقد ظهرت منظمات عمالية على أيدى الأجانب بديلة لطوائف المهن التى كانت موجودة وأكثر تعبيراً عن الناس .. وهكذا .

* بمناسبة الدولة الحديثة وتاريخنا .. هناك من ظهر مؤخراً ليبلغنا بأن التاريخ انتهى، وأنه تم الإعلان عن انتصار أحد أوجه الحضارة الغربية فى العالم .. فهل ترى نفس المعنى تاريخياً ؟

** هذا ما قاله فوكوياما الأمريكى الجنسية .. وهذا أكثر ما يعبر عن تمركز الوعى الغربى حول الذات وقمة التعبير عن الأنانية - فلا شىء آخر هناك - وأنه الكاسب الوحيد على هذا الكوكب، وأنك متقدم بقدر ما تكون قريباً منه ومتخلف بقدر الابتعاد عنه. إنها قمة النشوة بالقوة والإحساس بالتفرد ؟ التاريخى والحضارى ، وبالمناسبة فإن ذلك يرتبط بالكلام الكثير عن الصدام أو التلاقى مع الحضارات .. ونحن لسنا فى تصادم مع أحد ولكن نحن ندافع عن أنفسنا فقط ! ننتظر من أين يأتى العدوان وعلى هذا الأساس يكون هناك صراع أو تعاون .

* بالإضافة إلى كونك أحد أبرز المؤرخين المعاصرين .. فأنت النائب الأول لرئيس مجلس الدولة ـ أحد أبرز القلاع القانونية فى الوطن العربي .. كيف تُقَيِّمُ علاقتنا كأفراد بالقانون ؟ .. وأين يكمن الخلل فى هذه العلاقة ؟

** إذا كان القانون يصدر من إطار مرجعى له تقبل عام لدى المتعاملين به ستحل الكثير من المشاكل بالأسلوب الذاتى، وإذا كان القانون خارجياً وبعيداً عن نظام القيم الخاص بهم لابد أن تنشأ الكثير من المشاكل التى تحتاج لحلول خارجية أيضاً . وفى واقعنا يوجد هذا أو ذاك ـ وفى مصر مثلاً إطارنا القانونى مرجعيته وضعية، وليست مرتبطة بالمرجعية الإسلامية، ولكن فى نفس الوقت هناك جزء من المصادر القانونية لبعض الأحكام قادمة من الشريعة وجزء آخر لايتنافى مع الشريعة .. وجزءاً آخر يتنافى، وهناك أيضاً ثقافة رجال القانون غنية بالجانب الشرعى، ويكفى أن أقول إن تفسير الكثير من النصوص الوضعية لن يتم بصورة صحيحة بدون إتقان أصول الفقه التى بها أستطيع أن أعرف العبارة وكيف أرجح بين معنى وآخر .. وهكذا ..

وإذا كنت أجد في سؤالك تلميحاً عن الفرق بين علاقة المواطن عندنا بالقانون، وعلاقة المواطن الأوروبى بالقانون .. فإننى أذكرك أن القانون الأوروبى جاء متسقاً مع المجتمع الذى خرج منه .. أما نحن فقد تم إقحام الكثير الغريب على بيئتنا ـ وهنا ظهر الخل .

فاتحة الحوار

* لن أقول وأنا أقترب من ختام حوارى أن هذه خاتمة الحوار .. ولكنى أتذكر أن فاتحة الحوار كانت منذ أكثر من ١٢ عاماً حيث بدأت أتابع رحلتك الفكرية .. كنت دائماً أتساءل داخلى : كيف حدث هذا التحول الكبير للمؤرخ طارق البشرى من الاشتراكية إلى الإسلامية إذا صح التعبير ؟

** الاشتراكية أمر مختلف .. الاشتراكية نموذج يمكن أن تقبله أو ترفضه .. أو تهضمه وفى إطار مرجعيتك أنت ـ لذلك لست مستنكراً لانتمائى للاشتراكية فى لحظة ما .. ولكن المسألة من المعنى الذى ترسمه عبارتك .. ولتيسير الأمر أقول لك إن مشكلة الاشتراكية مثل الرأسمالية .. إنها علمانية ، وإطارها المرجعى وضعى وشرعيتها مستمدة من الفكر الوضعى ، وليس من الفكر الدينى ، أنا اليوم أنظر لكل هذه الأفكار من أرضية مخالفة تماماً من شرعيتى الإسلامية .

* ولكن كيف حدث التحول الكبير ؟ وكيف امتلكت شجاعة هذه المغامرة ؟

** إنه تحول فكرى لايعنى الانبثاق من فراغ ـ فالفكرة الإسلامية كانت داخلى .. والجانب المتدين كان راسخاً ـ الإحساس بالغيب ـ ثقافياً .. لم تنقطع فى لحظة تواصلى مع الثقافة والفكر الإسلامى أبداً .. بالعكس احتياجى لهذه الفكرة كان يحدث كثيراً ولاسيما كتابات الصوفية بالرغم من أننى وقتها كنت أناقش وأشارك بالبحث فى قضايا مختلفة .. أتصور أنه التحولات الفكرية الكبرى تضم أيضاً جانباً نفسياً ذاتياً ووجدانياً وعقلياً ، ثم الإحساس بالجماعة والمشكلة كلها هى أنك عندما تستقر على مجموعة أحكام ، ثم تعود لتستقر على أحكام جديدة فإن ذلك يعنى إنك ناقشت وبحثت ونقبت كثيراً لكى تمتلك شجاعة الرؤية مع نفسك أولاً ، لقد أعدت قراءة وبحث الخريطة الفكرية للشعب والجماعة .

* هل كان هناك كتاب معين ؟ شخص معين ؟ موقف معين ؟ وراء ذلك ؟

** أعتقد أن أحداث السبعينات بالذات عامة كان لها دور كبير فى التحول الكبير الذى قمت به .. ولاسيما هزيمة ٦٧ .. التى كان لها تأثير كبير .. فهناك تجربة استقلال إقتصادى مرتبطة باستقلال سياسى .. وفجأة جاءت ٦٧ .. وهى ليست حدثاً بسيطاً .. لذلك أدت ٦٧ إلى إعادة النظر فى الكثير .. من المسلمات والتساؤل أين النقص وأين الخلل .. لقد أدت ٦٧ إلى أن أعيد التفكير فى كل شىء .. وبذلك يكون ٦٧ مفيداً ، ولذلك لا أكره ما حدث ولا أخشى منها مادمنا أننا استوعبنا الدرس فإننا نكون قد تجاوزنا ما حدث ، و ٦٧ من الأحداث التى نفعتنا .. ولذلك لا أنكر وطنية والدور الإيجابى الذى قام به النظام الذى كان قائماً فى عام ٦٧ لأن المشكلة أكبر من نظام سياسى .. إنها قصة مسيرة تاريخية ، وكان النظام جزءاً منها .. إنها هزيمة تجربة نشأت فى ظروف تاريخية معينة .. وبالنسبة لى فقد انتقلت إلى مرحلة جديدة .

* كيف ؟

** لقد كانت سبباً فى إعادة النظر فى كافة المسلمات التى تقوم عليها العلمانية السياسية الوطنية .. طبعاً لم يحدث فى فترة قصيرة بل بعد سنوات طويلة .. وأيضاً فإن من مزايا ٦٧ أنها أنهت دورة الانبهار بالغرب كحضارة بالنسبة لجيلى .

إذن فعندما قلت إننا نستعيد فاتحة الحوار وليست تلك نهايته كنت دقيقاً .

أعتقد ذلك ، وتلك نفسها ستكون فاتحة القرن الحادى والعشرين .

أنى على يقين من ذلك .

عبدالعظيم رمضان

دائماً معلق على أعواد اليمين واليسار

هل لم تعد الشياطين هى نفسها .. ولا الملائكة كذلك ؟ وهل تداخلت الخطوط والألوان واختلطت الأفكار حتى تحولت لوحة الأحداث حولنا إلى لوحة سريالية تحتاج لمن يفسرها وهل يتقاعد التاريخ والمؤرخون بعد أن خرجت الأحداث أحياناً عن المنطق الذى كنا نعرفه لعشرات السنين ؟ وهل يعترف جيلى بأن أكبر وأصعب الأسئلة التى يواجهها هو انعدام اليقين ؟ هل نعترف بذلك .. ؟ فى يوم من الأيام كنا ننظر لجيل سبقنا ونجده يردد أغنية واحدة .. ولم يمض نحو نصف قرن إلا ووجدنا اليوم (المتفائل) بدون أن يقدموا ولو كلمة اعتذار للأيام أو للأجيال التى تحاول أن تفهم .. وهل أعترف بأننى مهما كان اختلافى أو اتفاقى مع آراء الدكتور عبدامعظيم رمضان الذى يخوض حرباً ضروساً منذ نحو ٢٠ عاماً ضد خصومه ـ لم أشاهده كمثقف خارج مجتمعه /. ولكننى اكتشفت أن غواية الحوار معه تجدد معه يهو المؤرخ والأستاذ الجامعى بعد فوزه بجائزة الدولة التقديرية رغم المحاذير العديدة وفى مقدمتها أن الرجل يقف على أرض تفرض على الناس إما الخصومة معه أو الاتفاق .. وبين الحالتين لاتوجد أرض حرام ! ولكن للغواية أسبابها القوية .. فهو أستاذ أكاديمى وصل إلى أقصى درجات السلم الأكاديمى بعمادته لكلية التربية بجامعة المنوفية . وهو مؤرخ له عشرات المؤلفات ومسئول عن سلسلة (تاريخ مصر والمصريين) ، وهو كاتب غزير ينشر أسبوعياً مقالاً فى مجلة «أكتوبر» وفى الوقت نفسه ينشر فى جريدة «الأهرام» وهو مثقف يسارى ساهم فى تأسيس حزب التجمع من أجل المعارضة واستقال منه من أجل السلام مع إسرائيل . وهو ابن الطبقة العاملة الذى صعد إلى (أعلى) فلم ينس له خصومه قصة صعوده .. ولم يغفر لأعدائه قوة ذاكرتهم ! ولهذه الأسباب وغيرها فإن الغواية كبيرة ولكن كان شرط الحوار أنه ليس تكراراً للإعلان عن خصومات الدكتور عبدالعظيم رمضان .. إن الحوار مع الدكتور عبدالعظيم رمضان محاولة لقراءة تحولات مثقف مصرى فى نهاية القرن العشرين .

* تجاوزت الكثير من الحساسيات عندما قلت للدكتور عبدالعظيم رمضان إن هدفى فى الحوار لن يتحقق إلا بأكبر قدر من الصراحة .. وأقل مساحة من الحرص .. وكان للحق شديد الحماس .. وعلى المستوى الآخر فإننى شخصياً كنت قد تجاوزت عناصر الاستقطاب مع الدكتور عبدالعظيم رمضان منذ اللحظة التى قررت بها أن أقترب من ملامح سيرة شخصية

وفكرية لم تأت من فراغ لكنها تعبير عن وضع مجتمع وثقافة سائدة .. ورؤية جديدة وعن حقائق تجعلنا نعتقد فى بعض الأحيان أننا يمكن أن نرى المثقف بعيداً عن نفسه .. أو الكتاب بعيداً عن مادته .

بهذه الرؤية .. بدأت الحوار بحثاً عن المحطات الأولى فى حياة المؤرخ الذى أمسك بخيط الحوار سريعاً .

** حياتى عبارة عن قفزات كبيرة .. ففى خلال النصف قرن الأخير حققت العديد من القفزات العلمية الملموسة .. ففى عام ١٩٥١ حصلت على الابتدائية (نظام أربع سنوات) من الأزهر على أمل أن أصبح شيخاً مثل رأس العائلة عندنا وهو الشيخ محمد متولى الشعراوى الذى تربطنا به علاقة قرابة .. فجدته كانت أخت جدتى .. وبالتالى أستطيع أن أقول إننى من أسرة دينية .. دخلت الأزهر فى سن متقدمة كان عمرى نحو ١١ عاماً ونصف العام وأمضيت السنوات الأربع والجميع ينتظروننى كشيخ معمم ـ ولكنى فى تلك الأثناء كنت أفكر بصورة مختلفة وفرتها لى قراءات عديدة .. كنت قارئاً جيداً أتبع خطوات والدى فى حب القراءة .. وبالرغم من أن والدى ينتمى لعائلة من البرجوازية الدينية غنية بعلماء من الأزهر ومشايخ ووعاظ دينيين .. فإنه اضطر لأسباب عائلية أن يترك أسرته ويرحل إلى القاهرة .. حيث أخذ يبحث عن وظيفة ولم يجد سوى فرصة أن يكون (عاملاً) وهكذا كان هو الحالة الوحيدة فى أسرتى التى انتمت إلى البروليتاريا .. ولكن بسبب أصوله المتميزة دينياً وثقافياً أصبح رئيساً لنقابة شركة الترام وكان له شأنه وكان يتبع المجلس الأعلى للنقابات الذى كان يتبع حزب الوفد .. فنشأت أعشق حزب الوفد الذى كان يبسط رعايته على الطبقة العاملة التى لم تكن تعرف آنذاك كيف تحمى نفسها .. لذلك نجد أن رئيس اتحاد النقابات فى ذلك الزمان هو النبيل عباس حليم ـ المهم أن والدى تعرض للاضطهاد بسبب دوره فى العمل النقابى .

* بسبب دوره أم بسبب انتماء حزبى وسياسى معين ؟

** لا .. العمل النقابى كان جزءاً من الحركة الوطنية وبالتالى كانت الأحزاب تحاول باستمرار أن تبسط رعايتها على النقابات وهذا كله يرجع أيضاً إلى أن الصراع الطبقى لم يكن حاداً .. لأن الذين كانوا يدافعون عن الطبقة العاملة كانوا (البهوات) بل إن البكوات الباشوات كانوا يدافعون عن الشيوعيين كان ذلك هو عصر الليبرالية الذى أخذ فيه الصراع الطبقى طابعاً سياسياً وليس اجتماعياً .

أنا تركيبة غير عادية

* تجنبت النقاش التاريخى حول مايسميه الدكتور بـ (عصر الليبرالية) ومايسميه البعض

الآخر بعصر ارتدى معطف الليبرالية .. فتباهى (الملاك الحقيقيون) بألوان المعطف بينما عاش جسد المجتمع يئن من برد ويشكو من حفاء .. وجذبت الحوار مرة أخرى إلى أرضه الشخصية .. فواصل:

** بعد حصولى على الإعدادية اكتشفت أن الدراسة فى الأزهر متحجرة .. تعتمد على الحفظ واكتشفت كيف تمرد طه حسين على هذه الدراسة .. فتساءلت لماذا لا أصبح مثل طه حسين وألتحق بالتعليم المدنى ولاسيما أننى كنت أستشعر أن ذهنيتى أرحب من مستوى التعليم الذى أدرسه بسبب قراءاتى الحرة .. وسعيت لشق طريقى .. فحصلت على الثانوية العامة عام ١٩٥٢ .. حيث درست السنوات الأربع فى سنة واحدة ونجحت ثم التحقت بقسم التاريخ بجامعة القاهرة وكانت المفارقة أننى عندما كنت أقف فى شرفة قسم التاريخ كنت أطل على مدرسة (الأورمان) فكنت أشعر بذهول لأننى فى العام السابق كنت فى امتحان الابتدائية نظام أربع سنوات فى مدرسة الأورمان .. والآن أنا فى الجامعة كيف حدث هذا ؟ لذلك نما داخلى الاعتقاد الراسخ بأننى لا أفعل كل شىء . بل أنا منوط بى رسالة معينة .. رسالة أسندها إلىّ المولى عز وجل .. لقد رأيت فى حياتى من التيسيرات التى لا أستطيع أن أقول عنها إلا أنها تيسيرات ربانية .. وأنا شخصياً عندى حالة صوفية كانت تتلخص أحياناً فى بيت شعرى يقول :

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجنى عليه اجتهاده .

* اسمح لى يا دكتور قبل هذا النزوع الروحى الذى تشير إليه .. أتصور أن هناك إغراء فى معرفة تكوينك الفكرى أو الأيديولوچى .. أتذكر أننى التقيت معك عام ١٩٨٣ وكنت أسألك فى تحقيق صحفى «للأهرام» ماذا بقى من حرب أكتوبر ؟ .. وأجبت كثيراً ولكنك أكدت أنك ذو عقلية مادية جدلية .. ولعامة القراء نتساءل : إنك ابن الفكر الماركسى وإنك أقرب لهذا الفكر حتى منك للوفد الذى تحبه ؟ كيف حدث هذا ؟ وأين كنت ـ فكرياً فى أوائل الخمسينيات ؟

** تستطيع أن تقول عنى أنى تركيبة غير عادية صنعتها ظروف عديدة جداً .. فكونى أنمو فى عائلة دينية منها فرع عمالى وفى الوقت نفسه والدى وفدى .. هذه كلها مكونات متداخلة .. وحتى ذلك الوقت المبكر من حياتى لم أكن ماركسياً .. والوفد كان بعيداً عن ذلك .. لقد كان حزباً برجوازياً .. وفى الفترة الزمنية التى تتحدث عنها .. كنت أقرب لليسار .

* بصورة أكثر تحديداً منذ عام ١٩٥٢ .. أين كنت، طالباً أم عاملاً ؟

** كنت أعمل فى هيئة النقل العام .. أنا حصلت على الابتدائية ثم عملت ولكنى لم أتوقف عن الدراسة .. أنا لم أكن أشتغل إلا من أجل استكمال دراستى .. ولم أقترب من أى عمل

سياسى فى ذلك الحين ولم أتعرف إلى أى أحد من أهل اليسار .. لقد صنعت نفسى بنفسى تقدر أن تقول عنى أنى جزء من حركة العمال بحكم أن والدى نقابى وأنا نفسى عامل .. أنا كنت ضيفاً كان العمال يشاهدون معى الكتب باستمرار وعارفين أننى أستعد دائماً للرحيل بعيداً عن هذه الطبقة .

اللعب مع الرعاع

* إذن أنت لم تنتم أبداً للطبقة العاملة .. نفسياً أو فكرياً ؟

** لا .. أنت تقدر تقول إننى كنت أنتمى لحركة عمالية لم يكن هدفها نقل المجتمع لكى يصبح فى يد الطبقة العاملة .. لكن الهدف تحسين ظروف العمل .. إذن فكرة الثورة على الطبقة البرجوازية لم تصل إلى عقلى أو قلبى .. ولكنى أنا الطبقة العاملة .. بينما الكاتب محمد سيد أحمد الذى أجريت أنت معه حواراً عن تجربته ورحلته الفكرية أراه أنا أنه من خارج طبقتنا .. غريب علينا .. أنا مولود لأب عامل .. وحياتنا حياة البروليتاريا .. وشعرت لأول مرة .. وفهمت بعد ذلك أن أبناء الطبقة العاملة ليسوا أناساً فقراء بل أناس لهم رؤية .. يعنى والدتى كانت تحذرنى من اللعب مع أولاد الرعاع .. كان لديها الإحساس بأنها ابنة طبقة لها وضع .. وفهمت أنا أن الرعاع الذين تقصدهم هم الذين يعيشون على هامش المجتمع .

* يبدو للبعض أحياناً يا دكتور أن رحلة كفاحك هى محاولة مستميتة للابتعاد عن هؤلاء (أولاد الرعاع) ؟

** أنا أصلاً لم أكن من أولاد الرعاع .. أنا كنت أخاف منهم .. هؤلاء الذين يعتدون علىّ عندما كنت أخرج من منزلى ويقذفوننى بالحجارة .. لكن أنا أنتمى لطبقة لها تقاليد واحترام وطبقة مثقفة، أولاد الرعاع هؤلاء ليس لهم فكر أو انتماء أو قضية لكن أنا كنت أشعر أن لدى قضية وأحب أن ألفت نظرك لمسألة ثانية وهى أن والدى عنده مكتبة ورثتها وبها أكثر من خمسمائة كتاب ، الطبقة العاملة زمان كانت طبقة تشعر بالمسئولية الاجتماعية والسياسية ومفيش حد يفهم ذلك اليوم .. طبقة كانت تعرف العيب وتربى الأولاد على القيم الكريمة .

* البعض يعتقد أنه لو كان هناك تبلور طبقى لتغير وجه مصر .. وأن المسألة أن ذلك لم يكن واضحاً بهذه الصورة وهذا رأى بعض أصدقائك من أهل اليسار فى التكوين الاجتماعى فى مصر قبل ١٩٥٢ ؟

** لا .. كانت هناك طبقات تفصل بينها حدود واضحة .. وكان الانتقال من طبقة لأخرى

بالغ الصعوبة .. هذه الأيام .. ممكن لابن البواب يبقى أستاذاً جامعياً .. لكن زمان الوضع كان مختلفاً .. زمان كانت الطبقة العاملة متحالفة مع البرجوازية الصغيرة ويعيشون فى الحوارى وفى المقابل الطبقة الإقطاعية والبرجوازية الكبيرة يعيشون فى فيلات .. وأنا صغير كنت أحب ابنة واحد ضابط كان يسكن معنا فى الحارة يعنى عاوز أقولك إن مصر كانت منقسمة إلى حوارى وقصور .

إنت بتشتغل إيه ؟

* هذه النشأة الخاصة هل خلقت لديك الرغبة الدفينة فى الخروج من الحارة .. والتحرر من زى العامل بارتداء زى الموظف .. وإننى أستطيع أن أرى ذلك فى سياقه الإنسانى ؟

** فى حقيقة الأمر .. المسألة بالنسبة لى أننى كنت قارئاً نهماً وفى سن الرابعة عشرة كنت قد قرأت حوالى ألف رواية من روايات الجيب بما جعلنى أشعر أننى أنتمى لطبقة متعلمين أكثر من أية حاجة ثانية .. لذلك أتذكر أننى كنت فى منزل بعض الأقارب وحضر مفتش معارف ـ أنا كنت ساعتها عاملاً ـ جلس وهو يتكلم عن عمر بن الخطاب .. فتكلمت عن أخطاء عمر بن الخطاب فى نهاية حياته لأنه أعطى المجاهدين من الامتيازات والأموال ما صنع منهم طبقة مميزة عن بقية المسلمين ، ودخلنا فى حوار ثبت خلاله أننى أكثر معرفة منه .. لكنى طوال الحوار كنت خائفاً يسألنى !! أيامها كانت معى الابتدائية .. لذلك فكرت ما الذى يمنع أن يكون معى مؤهل عال مثل الليسانس !!؟ وإيه المشكلة ؟ لذلك حصلت على الليسانس عام ١٩٥٤ .. وقبل ذلك انتقلت إلى عمل كتابى داخل الشركة وحصلت على منصب كبير كرئيس للعلاقات الداخلية وأشرف على نحو ١٨ ألف عامل وتحت رئاستى نحو ٨٠ أخصائياً اجتماعياً .. كنت حصلت على نتائج التطور الوظيفى الطبيعى بعد إتمام الشهادة التوجيهية .

* إلى متى استمر عملك فى هيئة النقل .. ومتى حدث الانتقال إلى الجامعة ؟ وهل حدث ذلك بسلاسة ؟ هل تتذكر حقيقة مشاعرك فى ذلك الحين ؟

** ظللت أعمل فى الهيئة حتى الانتقال للجامعة .. والانتقال لم يكن سهلاً كانوا ينظرون إلىّ على أننى رجل (أحمر) أنا حاصل على الماجستير عام ٦٤ بدرجة ممتاز مع التوصية بالطبع على نفقة الجامعة ـ والدكتوراه عام ١٩٧٠ بمرتبة الشرف الأولى مع التوصية بالطبع على نفقة الجامعة .. أنا حاصل على أعلى تقديرات من الجامعة فى ذلك الوقت .. شوف بصراحة أنا عندى إحساس أنى أستاذ من زمان والجامعة هى مكانى الطبيعى .. ولكن الجامعة حاربتنى لمدة أربع سنوات حتى أستطيع دخولها .

* تقول إن الجامعة حاربتك لأنك كنت متهماً بأنك (أحمر) فى وقت يرى البعض أن الشيوعيين كانوا فى شهر العسل مع حكم عبدالناصر .. فى الجامعة نفسها .. وفى قسم التاريخ نفسه كان هناك أستاذك الدكتور محمد أنيس .. المؤرخ اليسارى المعروف .. لقد التقيته فى أبوظبى فى منتصف الثمانينيات وقال إنه ساعدك كثيراً ؟

** لا .. لم يحدث .. ولم يساعدنى فى دخول الجامعة .. وكان من المفروض أن يساعدنى فى دخول الجامعة .. لقد جرت العادة أن كل أستاذ يأتى بتلاميذه ويعينهم وهذا تقليد .. هو لم يفعل ذلك معى رغم أنه أشرف على رسالتى للماجستير والدكتوراه .. أيامها كنت شديد اللمعان .

انحرفت فكرياً

* تعتقد أنه أصيب بالقلق بسبب هذا اللمعان الذى تشير إليه ؟

** لا أستطيع أن أقول ذلك .. الدكتور محمد أنيس كان أستاذاً كبيراً وله فضل علىّ .. ولكن (خذ بالك) إن الفرق بيننا فى العمر كان لايتجاوز نحو أربع سنوات .. وفى الوقت نفسه أنا مثقف وقارئ .. والعلاقة بيننا كانت فيها شىء من الندية يجوز هو شعر بها وإن كنت أنا لم أستشعرها لو قرأت التقديم الذى أهديته له فى مقدمة (تاريخ الحركة الوطنية) لعرفت مكانته فى قلبى .

* أعرف تقديره لكتابك (تاريخ الحركة الوطنية) ولكنى شاهدت على مكتبه فى منزله فى أبوظبى كتابك (سقوط الآلهة) وكتاباتك الهجومية على ثورة يوليو وكان رأيه ـ وبصراحة شديدة أنك كنت تلميذاً واعداً ولكنك أخلفت ظنه وانحرفت فكرياً ؟

** يمكن كان ظنه أننى انحرفت فكرياً .. ولكنه نسى أننى كنت ناصرياً .. وأنا الذى دافعت عن الناصرية .. ليست لدى عداوة مع عبدالناصر .. ولكن بالفعل لدى مشكلة نفسية مع أتباع عبدالناصر .. الشيوعيون جميعاً أشادوا بكتابى «تاريخ الحركة الوطنية» محمود أمين العالم .. بدر الديب .. إبراهيم عامر .. عبدالعظيم أنيس ، وغيرهم أشادوا بالكتاب وعلاقتى بهم طيبة .. لكن الجامعة كانت مسألة أخرى .. لم يكن هناك فيها سوى أحمر وحيد هو الدكتور محمد أنيس .. ولم يكن أحد يستطيع إدخالى الجامعة سوى محمد أنيس نفسه لأننى أنتمى للفكر نفسه .. طبعاً لا أقول إنه علمنى الماركسية لأن الماركسية فى ذلك الوقت كانت عملية صعبة حتى فى فهمها .. ولكن أنا فهمتها بجهدى الذاتى وكان حوارى مع الدكتور محمد أنيس حوار أنداد .. هذه حقيقة .. لذلك كان الوحيد الذى يستطيع مساعدتى فى

الالتحاق بالجامعة .. وبالفعل نشر إعلان وتم تحديد الوظيفة المطلوبة والدرجة المالية .. والثابت أنه حول درجة تاريخ حديث التى كنت أنتظرها والتى نشر على أساسها الإعلان إلى درجة تاريخ إسلامى .. وبالتالى خرجت من الموضوع وتم عمل إعلان جديد بعيداً عن تخصصى .. فعل ذلك د . محمد أنيس أستاذ التاريخ الحديث بالقسم طبعاً .. أحب أن أقول إننى أملك نظرة شاملة .. ولذلك لم أنقلب من النقيض إلى النقيض فلم أنس حواراتنا المشتركة والمودة التى بيننا والمعارك الفكرية التى كانت تلتهب .

كان نفسى أدخل الجامعة

* من السطور السابقة ومن بداية الحوار يتبدى طموحك الجامح .. ورغم حرصك عند الحديث عن أستاذك د . محمد أنيس إلا أننا لا نملك إلا أن نقترب من داخلك أكثر .. إن التحولات النفسية التى يصنعها الإحباط لاتقل أهمية وتأثيراً إن لم تكن أعمق من تلك التى تصنعها النجاحات .. إن تحولات مثقف مثل الدكتور عبدالعظيم رمضان ليست مجرد نزوات فكرية .. لا .. لايمكن عدم سؤالك عن أحاسيسك وساعة جامعة القاهرة وهى تبتعد عنك .. وأستاذك يتركك وحيداً ؟

** لقد حصلت على الدكتوراه بأظافرى .. أيوه كان نفسى أدخل الجامعة .. كان الجميع يعرفون قدراتى العلمية .. ولكن الوحيد الذى كان يمكن أن يساعدنى هو د . محمد أنيس ـ كان راتبى فى وظيفتى بالنقل العام أعلى من الراتب المنتظر .. لاتنس أيضاً أننى كنت أكتب فى الصحف وكنت قد سافرت إلى جامعة قسطنطينة لمدة ٩ شهور .. ثم لاتنس أنك تتحدث مع إنسان روحه قوية جداً .. لست من النوع الذى يهتز لأى سبب .. آه .. الدكتور محمد أنيس عمل الحكاية دى .. وأنا زعلت .. لكن لا أنسى أفضاله .. صحيح هو أعطانى المبرر للاستقلال عنه .. لو كان فعلها لأصبحت مديناً له بكل شىء .. وبالتأكيد إنها تجربة إنسانية لا أستطيع تجاهلها .

تعرف أن هناك داخل مصر وخارجها من يعتقدون أو ينسبوننى إلى هيئة تدريس جامعة القاهرة .. رغم أن الحقيقة أننى حرمت من العمل فيها ولكن بأمانة نظرت للمسألة برضا وبدون غضب واعتبرت أن ذلك لسبب لا أعلمه .. ولحكمة يعلمها الله وحده ومصلحة وخير لى .. وهذا ما تأكد فعندما عملت بجامعة المنوفية أصبحت رئيساً لقسم التاريخ قبل جميع زملائى فى جامعة القاهرة .. وأصبحت عميداً لكلية التربية والآداب قبل جميع الزملاء .

* تكتب فى صحيفة (الوفد) بصورة شبه دائمة .. ودفاعك عن تجربة حزب الوفد تبدو مليئة بالحرارة .. وحوارك ونحن نتعرف على عالمك بدأ بالإشارة لعلاقة أسرتك خاصة والدك بالوفد .. لكن هناك ملاحظة أساسية أنك حصلت على الليسانس فى منتصف الخمسينيات .. بعد عشر سنوات تحصل على الماجستير .. وبعد ٦ سنوات تحصل عام ١٩٧٠ على الدكتوراه .. ما يقرأه جيلى وما يتابعه من معارك يدفعه للتساؤل عن رأى خصومك الذين قالوا إنك صعدت وتعلمت وتبلور وعيك فى ظل حكم ما بعد ١٩٥٢ .. فكيف نشأت تلك العلاقة العاطفية مع الوفد التى تبدو للبعض مفاجئة ؟

** أشكرك على سؤالك .. لأن الغيوم كثيرة .. وبما أنك تحاورنى من موقع جيل مختلف فأنا أعرف حساسية السؤال .. لأنك بين السطور تقول إن جيلك ينظر بشك لمواقعنا .. أحب أن أقول بداية إننى أيدت ثورة يوليو لحظة قيامها .. وكذلك حزب الوفد .. ولكنها عندما انقلبت على الدستور والحياة الديمقراطية انقلبت عليها .. أنا فعلت ذلك ومعظم الماركسيين .. كنت ضد عبدالناصر مثلهم بشكل حاسم .

* لكنك لم تدخل السجن مثلهم ؟ وهل يعنى موقفك أنك كنت طوال الستينيات معارض معروف لنظام عبدالناصر ؟

** لا .. لأن اهتماماتى فكرية أكثر منها حركية .. فلم أدخل أحزاباً أو أشارك فى تظاهرات .. أما مسألة المعارضة فقد ظللت خصماً لعبدالناصر حتى تأميم قناة السويس .. بعد قرار التأميم أصبحت مع عبدالناصر .. شعرت أن ما حدث له مايبرره وأننى أنتقل مع زعيم يستطيع تحقيق إنجازات كبيرة .. بل أكثر من ذلك فإننى أعتقد أن موقفى تبلور مع صفقة الأسلحة التشيكية .. لقد أحسست أننى مع نوعية من الزعامة تستطيع أن ترضى شعورى القومى والوطنى أصبحت مع عبدالناصر ولكنى لم أهجر حبى لحزب الوفد .. وفى مجلة «الكاتب» لدى مقالات عديدة عن الوفد .. فى عز زمن عبدالناصر كنت أخدم الوفد كفكرة سياسية . وأتذكر أنه فى رسالتى للدكتوراه قمت بتفنيد بعض الأحداث أو الوقائع التى ذكرها الرئيس السادات فى مذكراته وأثبت أنها لاتمت بصلة للحقيقة .. فما كان من لجنة المناقشة التى تضم الدكتور عبدالملك عودة إلا أن نبهتنى للحرج وأنه من الأفضل حذف هذا الكلام من الرسالة حتى لايتسبب فى مشكلة، خاصة أن السادات كان وقتها نائباً لرئيس الجمهورية وكان له كلام كثير عن اتصاله بالألمان خلال الحرب العالمية الثانية وقصص عديدة حول علاقته بالإخوان المسلمين .. لقد رجعت لصحف تلك السنوات وخرجت بنتيجة كتبتها فى الرسالة أقول فيها : «يبدو أنه غشى ذاكرته ضباب كثيف فحجب عنه الكثير» وكان هذا هو التعبير

العلمى الممكن وإن كنت حذفته فى الكتاب كل ذلك كان داخل الجامعة .. ولذلك أزعم أننى مهدت الطريق أمام الوفد .. وساعدنى الشيوعيون فى ذلك ومن يقرأ ما كتبوه عن دراستى يؤكد ذلك .. كلهم كانوا مؤيدين للوفد خاصة بعد (العلقة) فى المعتقلات الناصرية .. أنا لم أدخل المعتقل وطوال تلك السنوات أكتب عن الوفد .. وأيضاً ناصرى !! أنا كنت ناصرياً متحمساً ولكن واجبى كمؤرخ كان إنصاف الوفد.

* دكتور عبدالعظيم رمضان عند هذه النقطة من الحوار .. وبعد هذه التفاصيل الدقيقة التى تبدو واضحة وغيرها بين السطور .. لابد أن أسأل : هل التطلع الطبقى عيب لنا كمثقفين أو كأفراد عاديين ؟

** من قال إنه عيب ؟ هذا واجب إنسانى .. ليس مطلباً .. لكنه واجب بمعنى أنه على كل فرد أن يسعى لرفع مستواه الفكرى والاجتماعى والطبقى .

ثمن الانتقال

* أتصور يادكتور أنك فى انتقالك الاجتماعى والطبقى لم يقابلك سوى النقد الحاد والصارخ.. هل ترك ذلك أثراً نفسياً ؟

** برضه .. أشكرك على السؤال .. شوف أنا للأمانة لم أنتقل بالصورة التى يعتقدها الناس.. أنا أملك عقلية بروليتارية .. وهذه العقلية ليس فيها طموحات مادية .. أنا أفكر فى الستر وهو تعبير مصرى جميل والمقصود به أن يستر الإنسان حاجاته .. كان عندى سيارة (١٢٨) ولم أفكر فى غيرها .

* والآن .. ماذا عندك ؟

** عندى سيارة (أوبل) وليس مرسيدس .. ووظيفتها نقل الإنسان من مكان إلى مكان .. نعم عندى شقة كويسة تليق بأستاذ جامعى .. ولكن لاتناسب رجل أعمال حديث !!

* اسمح لى يادكتور .. هل ثمن الانتقال الطبقى عند المثقف لابد بالضرورة أن يكون الخيانة الفكرية .. قد يتهمك خصومك بذلك ؟

** شوف .. السؤال جميل .. وأنا حريص على ما اتفقنا عليه فى بداية الحوار من وضوح وصراحة .. لكن التعبير الذى استخدمته لايستند إلى منطق فالماضى الذى عشته أيام حكم عبدالناصر لم يكن فكراً قمت بخيانته لا .. تجربة فشلت وبالتالى فانقلابى تصحيح لوضع، إن نقطة تحولى ضد عبدالناصر حرب يونيو ٦٧ .. عندما درست ـ كمؤرخ ـ المرحلة .. وجدت أن هذه المجموعة كانت تلعب بمصالح البلد .. وقلت عن ذلك «الاستيلاء على أمة» واكتشفت أن عبدالناصر قال نفس الكلام فى اجتماعاته مثلما أشار عبدالمجيد فريد فى مذكراته .. كنت مثل كل الماركسيين نؤيد عبدالناصر الذى يحقق أحلامنا كزعيم ولكن بعد الهزيمة تغيرت أما

الذين مازالوا يؤيدون مثل محمود أمين العالم أو غيره فإننى أرى مايقومون به نوعاً من الدفاع عن النفس.. مش قادرين يعترفوا بأخطائهم (مكسوفين) أنا اعترفت بأخطائى وتراجعت .. أعود وأقول أنا لم أمارس أية خيانة في سبيل أى سبب .. لقد ظللت أدافع عن عبدالناصر فى «روزاليوسف» فى مواجهة الهجمة السلبية التى تعرض لها فى منتصف السبعينيات أنا أهاجم سلبيات .

* ازدهرت كتاباتك بعد اتجاهك هذا هل أحياناً يطلب من المثقف دور معين أم أنه ..

** لا .. قبل أن تكمل سؤالك .. لقد تركت الكتابة في «روزاليوسف» بعد أن ضاقت بكتاباتى أيام عبدالعزيز خميس .. وأتذكر أننى كتبت مقالاً بعنوان : «اعدموا المستشار» من وحى فيلم عن محاكمة كرمويل والدعوة لمحاكمة مستشاريه لأنهم السبب فى الخطأ وبدأ عبدالعزيز خميس في الحذف من المقال فقلت له اترك فقط العنوان .. فما كان منه إلا أنه غير العنوان وجعله تعليقاً على فيلم تليفزيونى .. فلم أستطع الاستمرار .. فى الوقت نفسه كان أنيس منصور يجذبنى للكتابة عنده فى مجلة أكتوبر .. وبعد وصولى إلى طريق مسدود فى «روزاليوسف» قبلت عرض أنيس منصور .. وأقول لك حقيقة إن أنيس منصور لم يكن يتلقى تعليمات .. ولم يوجه إلىّ تعليمات أبداً ولم أشعر بحرية فى الكتابة إلا فى عصر أنيس منصور .. أنيس لديه مبدأ : إما أن توافقوا على فلان أنه يكتب أو بلاش خالص .. وكان إحسان عبدالقدوس يكتب أيامها «على مقهى فى الشارع السياسى» ولم أشعر أيامها بأن هناك أى نوع من التوجيهات هذه حقيقة للتاريخ .

* عندما قال لى د. عبدالعظيم رمضان بإيمان :

«إللى يفكر فى حرب مع إسرائيل أنظر له نظرة واطية» .

واصلت الحوار متأملاً .. ومفكراً .. ومقتنعاً بأنه ليس نغمة شاردة أتت بها رياح غير مواتية فى لحظة ضعف فى المناخ .. لكننا نعيش مناخاً جديداً .. وهذه ظواهره .. واصلت حوارى وفى ذهنى أنه كان عميداً لكلية التربية جامعة المنوفية، وعضه ن الشورى، وعضو المجلس الأعلى للثقافة، ورئيس لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة .. وعضو مجلس إدارة هيئة الكتاب ـ ورئيس تحرير سلسلة تاريخ المصريين .. كل هذه المناصب وغيرها .. ولكن المسألة أنه يكتب التاريخ وهو يعيش أحداثه ويشترك فى خلافاته ويصل الأمر إلى الاشتباكات العنيفة .. البعض اتهمه بعدم الحياد وبتحويل التاريخ إلى حاملة طائرات عدوانية وهو يرى أنه حطم نظرية عدم كتابة التاريخ إلا بعد مرور نصف قرن وقال إنه ليس المهم الوقت بل الوثيقة .

* دكتور أنا من جيل مختلف .. جيل نظر بإعجاب فى لحظة للجيل السابق سواء لإنجازاته أو للقضايا التى تصدى لها . ولكن مع نهاية القرن الذى نعيشه تحول إعجابنا .. إلى دهشة انقلبت بسبب التغيرات السريعة والعميقة فى مواقف جيلك .. لقد كان التغير فى أغلبه يبدو

غير أصيل.. فإما (الزعيم) قد رحل ـ أى زعيم ـ وإما أن التيار السائد فى الحياة يقتضى هذا التغير، لم نسمع عن الأغلبية من مفكرينا ومثقفينا أنهم بشروا بجديد .. ما تفسيرك ؟

** بداية أحب أن تبعد بى عن هذا الاتجاه .. فأنا كنت دائماً ضد السلوكيات والمواقف فعندما مات عبدالناصر لم يدافع أحد عنه مثلما أنا فعلت وكنت أهاجم السادات فى حياته .. ولى كتاب من جزئين (مصر فى عصر السادات) .. وبدأت أدافع عنه بعد موته .. والسبب أننى مستقل .. وكان الراحل لطفى الخولى يصفنى بأننى «ماركسى مستقل» فأنا لا أتلقى وحياً من أية جهة على الإطلاق .. وأنا أول من اختلف مع السادات حول ما سماه انتفاضة الحرامية .. وأتذكر أننى وقتها كنت أكتب فى «روزاليوسف» وشعرنا أن اليسار معرض للضرب .. وكان وضعى كأستاذ جامعة يمنحنى قدراً من الطمأنينة .. لذلك (صدرونى) فى المجلة ـ وتحديداً الراحل حسن فؤاد ـ لكى أكتب ونعرف رد فعل السادات .. وبالفعل كتبت مقالاً بعنوان «حتى لا يفلت الجانى مرتين» وقلت فيه إن الذى صنع حريق القاهرة أفلت وأنه يبدو أن من صنع ١٨ و ١٩ يناير سوف يفلت .. ونصحت بنسيان حكاية اليسار كشماعة والبحث عن الفاعل الحقيقى» ورأيى فى القضية التى يحملها سؤالك أن كل مثقف لديه الشعور بأنه يعيش فى زمن ليس هو الزمن الذى كان يعرفه .. حجم التحولات سريعة لايستطيع العقل متابعتها .. هل تتصور أن الاتحاد السوفيتى اختفى .. وأن يوغسلافيا تضرب بواسطة الأمريكان !! هل نرى الهزات العنيفة التى ضربت دول جنوب شرق آسيا ! هذه السوق العالمية التى تحاول القوى الكبرى فرضها على دول العالم الثالث .. كيف ؟ .. إنها تغيرات تحتاج لعشرات وعشرات من السنين .. ولكن هذا حدث فى وقت وجيز وبدون طلقة رصاص واحدة ، إحنا هنا فى مصر ربنا رزقنا برئيس دولة ديمقراطى .. لم يقبض على مفكر ولم يقصف قلم ولم يسمح لأحد بأن يجذبه لذلك .. لقد عشنا فترة استقرار لأول مرة فى حياتنا .. فقبل ثورة يوليو كنا دائماً فى صراع المثقف ضد السلطة.. فى عهد عبدالناصر كان المثقف إما جزء من السلطة أو ضدها وفى أيام السادات كلمة المثقف تغيرت وبلغت العلاقة قمة أزمتها عندما وضع السادات المثقفين فى السجن .. أيامها كنت فى أوربا .. وقلت لنفسى إن هذا الانقلاب الذى يحدث فى مصر إما أن يكون يمينياً وفى هذه الحالة سوف أسجن وإما يسارياً وسوف أسجن أيضاً .. فأنا دائماً معلق على أعواد اليمين واليسار.. فأنا مستقل اليوم .. لم يعد المثقف ضد السلطة لأن مبارك لم يكوّن علاقة عداء مع أحد .. وارتاح المثقفون للرئيس .. وأنا شخصياً أرى ذلك بين الأغلبية باستثناء مجموعة ضئيلة جداً أهاجمها باستمرار .. إنها تلك المجموعة التى تضم ذلك المثقف الذى يتلقى تعليمات من دولة عربية أخرى تحت مظلة العروبة .

مثال تمويل

* ألا تستشعر معى يادكتور مخاطر هذه المقولة .. وأقصد توجيه الاتهام للبعض بأنهم

يتلقون تعليمات من خارج الحدود .. ألا تتذكر معى أنه فى وقت من الأوقات كان الاتهام لبعض أصدقائك بأنهم يتلقون التعليمات من موسكو .. ألست معى أن استخدام هذا المنطق فى الحوار فى حياتنا بين المثقفين أو المتعلمين غير سليم ؟ .. وألا ترى أنه آن الأوان لكى نتخلص منه لخطورته على نفسية وثقافة الأجيال ؟

** يعنى أعتقد أنه يجب التخلص منه لو أنه اختفى بالفعل .. أى أن ينتمى الناس لمصر ، أنا مصرى .. وإحساسى بمصريتى أكبر من إحساسى بأى حاجة ثانية أو أى انتماء آخر .. لقد وجدت أحد المثقفين يكتب ذات مرة يلوم اجتماع بغداد الذى عقد بعد اتجاه مصر للسلام لأنه اكتفى بعزل مصر ولم يحاربها .. الوطنية المصرية الحقيقية لاتسمح لأبنائها بذلك .. هذا إنسان لايعرف قدر مصر وحقها فى الاجتهاد .. لايعرف أن مصر هى التى تقود وهى الأساس فى العالم العربى .. لايعرف أن حرب أكتوبر هى التى جعلتنا قوة سادسة فى العالم المعاصر .. وعندما أنظر إلى حرب تحرير الكويت فأجد حزباً مصرياً ينادى بصدام حسين على أنه صلاح الدين الأيوبى ويحرض الجيش المصرى على العصيان .. هذا كلام ليس فى الرأى .. لا .. هناك تمويل وهذا ثابت.

* أتصور أن فى هذا الكلام ما يجب أن يكون الفيصل فيه هو القضاء .. ومن ناحية أخرى .. فإننى لابد أن أشير إلى ظاهرة العنف فى الحوار وأنت كنت طرفاً فى حوارات حادة النبرة مدببة الألفاظ والمعانى طوال الفترات الماضية .. ولم تعد الحوارات فكرية أو ثقافية أو تعكس اختلافاً فى الرأى بل (خلافات شخصية) أى تمت شخصية الحوار .. وساهمت يادكتور فى ذلك حتى أنك كتبت مرة تقول أن من يختلف مع نجيب محفوظ أو يعترض عليه فكأنما يعترض على مصر !! إن استخدام اسم (مصر) فى عمليات الكر والفر بين بعض المثقفين يشد الجميع إلى منزلق خطر .. ألست معى فى ذلك ؟

** لا لست معك .. لأنك لاتستطيع أن تفصل بين الإنسان والوطن ـ المصرى أو المثقف المصرى لابد أن يكون ملتزماً .. وأنا من الذين يؤمنون بالالتزام .. اليوم وبعد أن قدم نجيب محفوظ للعالم، هل من المصلحة هدم نجيب محفوظ ؟ العالم كله عبارة عن مواطنين عظام وكلما اتسعت دائرة العظماء فى أى بلد كلما زادت قيمة هذا البلد .. عندما يفوز نجيب محفوظ بجائزة نوبل ثم أجد محاولات لهدمه ضد مصلحة مصر .. مصلحة مصر الحقيقية فى أن تكون سيناء محررة .. ويكون هناك سلام بينها وبين إسرائيل ولاتكون هناك حروب ومن يذهب إلى سيناء ويشاهد ما فيها من مشروعات يعرف أن الحرب تدمير لهذا الإنجاز العظيم هناك ، إن من يسعى لحرب مع إسرائيل أنظر له نظرة واطية جداً لأن المسائل اختلفت وأصبحت هناك معاهدة سلام بينك وبين إسرائيل .. والنظام الذى يحكمنا نظام وطنى وعلينا أن ندعمه ونؤيده .. لماذا كنا ندعم نظام عبدالناصر أيام هزيمة يونيو ٦٧ ! وكنا واقفين معه .. اليوم بعد أن حققنا انسحاب إسرائيل من أرض غالية بالثروات والبشر يتشكك البعض فى مواقفنا .. كيف ؟!

* رغم جذورك الماركسية يادكتور .. فإنك تحمل إعجاباً وتقديراً لحزب الوفد وتجربته الليبرالية.. والكثيرون من جيلك يبدون إعجابهم الشديد بليبرالية وحرية الغرب ويعبرون فى مناسبات عديدة عن قناعاتهم بالتجربة الغربية إلا أننا نفاجأ بمواقف لهم تجعلنا .. كجيل مختلف.. ينظرون بشك لما يقال .. مثلاً تكلمت أنت ذات مرة عن بعض الصحفيين الذين قد ينتقدون بعض الوزراء ووصفتهم بأنهم يطعنون النظام السياسى فى البلاد !! أليس فى ذلك ما يؤدى إلى اللبس والحيرة ؟

** لا، أنت لاتجد كاتباً ينتقد مثلى .. ومقالاتى شاهد على ذلك ولكن عندما يكون النقد عبارة عن تسفيه وتشويه ولمجرد الكلام بدون حقائق يبقى ده هجوم على النظام ، هو النظام عبارة عن إيه ؟ مش عبارة عن حكومة ، فى إنجلترا النظام حاجة .. والحكومة حاجة ثانية ـ لكن عندنا الحكومة هى النظام .. فى إنجلترا تقدر تلعن حزب العمال وهذا لا علاقة له بالنظام الإنجليزى .. لكن عندنا .. مفيش بديل .. معندناش غير حزب وطنى لكن لو عندنا حكومة مختلفة .. حكومة وفد أو تجمع .. كانت المسألة تصبح عادية وتصبح وظيفة النقد استبدال حكومة بأخرى.. فى إسرائيل غيروا نيتانياهو واستبدلوه بواحد جديد هو إيهود باراك ـ لكن إسرائيل مالهاش دعوة .. هنا الحكومة هى النظام .

* ألا تستشعر خطورة هذه الصورة التى ترسمها على الديمقراطية ؟

** خطورة لكن نعمل إيه ، إنها صورة عامة .. لدينا حكومة واحدة .. ونظام واحد ويقتضى أن الأقلام التى تنقد أن تنقد بصورة موضوعية .. وأن نتجنب النقد الشكلى الذى يستهدف نشر الشائعات .. أنا نفسى أنقد وكافة مقالاتى مليئة بالنقد ولكنه على أساس ، والصحفى الموجود فى صحيفة قومية يأخذ منها راتبه وتأكله عيشاً لازم يدافع عن الحكومة ولكن لا أقول ذلك .. بل ينقد بموضوعية .. إننى أهاجم عملية التشنيع من صحف قومية والافتراء من صحف حزبية يعنى عندما تتهم صحيفة يوسف والى بالخيانة .من قال أن التطبيع خيانة ؟ التطبيع مادة أساسية فى معاهدة السلام المصرى الإسرائيلى والذين ضد التطبيع متخلفون عقلياً لأنهم لم يقرأوا المعاهدة ـ وأساس أى معاهدة بين إسرائيل وأى بلد عربى لابد أن يكون التطبيع جوهرها .. وإلا تفقد إسرائيل أمنها فى الحال .. يوسف والى لايتعامل مع دولة عدو لمصر .. لا، الحرب انتهت مع إسرائيل وانتهى الصراع فى لحظة توقيع المعاهدة بين الطرفين ـ وكل ما علينا أن ندعم موقف العرب لكن لاندخل فى صراع .. والذى يدعو لمواجهة مع إسرائيل يعمل ضد مصلحة البلد .

* متى بدأ حماسك للسلام .. قبل زيارة السادات للقدس أم بعدها ومتى بدأ إيمانك بانتهاء أو أهمية انتهاء الصراع مع إسرائيل .. قبل توقيع معاهدة السلام أم بعدها ؟

** أنا ها أقولك .. موقفي من إسرائيل كان مثل موقف أي شخص .. كان موقفي عدائياً مثل أي مصري ، وعندما جاء السادات وقام بمبادرته اعتقدت أنه يمزح .. ولكني فجأة وجدت الشارع المصري كله مع المبادرة .. حتى بيتي كان مع المبادرة .. فبدأت أعيد النظر في الأمر ـ وقلت لازم أنتظر وأتأمل هذه العملية وبدأت أدرس المسألة عسكرياً تبين لي أن المشكلة لن تحل إلا عن طريق السلام .. سلام بين مصر وإسرائيل لن تتفق عليه الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي .. السادات اخترق كل ذلك .. وقفز إلى إسرائيل .. بعد ثلاثة أيام أنا أيدت المبادرة، الصدمة استغرقت بالنسبة لي ثلاثة أيام وسرعان ما أيد المبادرة عدد من اليساريين البارزين مثل عبدالرحمن الشرقاوي ـ صلاح حافظ ـ عبدالستار الطويلة ـ سعد خيال ، وغيرهم ، حزب التجمع أخذ موقفاً ضد المبادرة فكان الصدام .. وبدلاً من الحوار بدأ الهجوم عليّ فتقدمت باستقالتي من الحزب .

* لك العديد من الكتابات المؤيدة لاتفاقات السلام منذ تلك الأيام .. لكن أليس هناك شيء لايرضيك فيها .. ألا يوجد ما تختلف عليه أو تبدى رأياً مخالفاً حوله ؟ وهل السلام حتى يصبح سلاماً يتطلب منا الرضا الكامل الأقرب للإيمان الديني وهل النقاش يقلق استقرار السلام ؟

** بوضوح أي معاهدة سلام هي انعكاس لعلاقات القوى والسياسة فمن الممكن .. ودراستي لحرب أكتوبر كشفت لي أبعاد الموقف وكشفت لي صورة الأرض وماذا يعني حصار الجيش الثالث وما دلالة وقوف الإسرائيليين عند الكيلو ١٠١ .. لقد فهمت أننا لم نحقق الذي نريده كاملاً .. ولكننا حققنا النصر السياسي الهائل الذي وفر لنا فرصة تاريخية لإكمال تحرير الأرض .. وهذا هو موضوع خلافي مع محمد حسنين هيكل .. إنه يقول لقد تحقق نصر عسكري كبير ولم يستثمره السادات أو يحقق السادات منه ذلك النصر السياسي المنشود .. أي أن السادات أضاع سياسياً ثمار النصر العسكري .. هذا كلام غير مضبوط وغير صحيح .. فالحرب لها غرض أساسي وهو تحقيق أهداف سياسية .. وهدفنا من حرب أكتوبر تحرير سيناء .. اليوم تحررت سيناء .. ولولا حرب أكتوبر ما كان لهذا الإنجاز أن يتحقق فالنصر السياسي الذي حققته مصر أدى إلى نقل القضية إلى مراحل جديدة وصراع عربي مع إسرائيل ـ فحرب أكتوبر لم تحقق أهدافها العسكرية ولكنها حققت أهدافها السياسية .. لقد حررت الحرب ١٥ كيلو متراً شرق القناة، إنما العمل السياسي أكمل العملية ـ أعود لسؤالك هل لم أر شيئاً ناقصاً أو خطأ أو لايعجبني ؟ أقول لك إن كل عمل سياسي انعكاس لعلاقات القوى القائمة على الأرض .

* أحياناً يبدو أن دور السياسي أكبر من دور المثقف في شخصيتك .. وبالتالي يقدم

السياسي على أعمال تصبح غريبة على صورة المثقف .. وفى هذا الإطار يأتى الدور المبكر الذى لعبته أنت فى الحوار مع الإسرائيليين فى الخارج .. مبكراً أنت قفزت للجلوس معهم فى عام ١٩٨٠ على ما أعتقد .. ليس لهذا علاقة بوظيفة المثقف على ما أظن ؟

** بالتأكيد كان هذا الدور سياسياً .. وكل واحد مطالب بأن يعمل سياسة مادام أن فى إمكانه تقديم شيء .. عندما ذهبت للقاء الإسرائيليين فى هذا المؤتمر الدولى كان الهدف خدمة القضية الفلسطينية وخدمة قضية السلام، لكن التضليل الذى أحدثه البعض جعل الجلوس مع الإسرائيليين وكأنه خيانة .. وهذا الادعاء منتهى التضليل .. لأنه بطول التاريخ كان الوطنيون يجلسون مع الأعداء لخدمة القضية .. فالخيانة عندما يجلس المثقف مع العدو ليتآمر ضد بلده .. ولذلك أحب أن أؤكد بعض الحقائق مادمت أنك تجرى هذا الحوار فى إطار قراءة لموقف ورؤية وحركة مثقف مصرى .. أقول لك كانت لدينا تعليمات واضحة وموافقة من الدكتور بطرس [الى وجلسنا معه قبل سفرنا .. أنا كنت مكلفاً كقية شعبية بذلك – وفى عيد الإعلاميين الأسبق قلت:للرئيس مبارك .. ياريس المثقفون الإسرائيليون أتباع حركة السلام الآن يحاربون من أجل السلام .. ومفيش حد بيمد لهم المساعدة لا من هناك .. ولا من هناك .. فرد قائلاً : السبب أنتم.. دا الواجب على كل مواطن أن يساند جهود البلد من أجل السلام، بعد ذلك تم تكوين مجموعة كوبنهاجن على هذا الأساس .

السلام تحقق

* ولماذا لم تنضم لفريق كوبنهاجن مادمت تمتلك نفس القناعات ؟

** لأن أنا اهتماماتي أوسع .. أنا مهتم بالشعب المصرى .. الصراع العربي – الإسرائيلى أحد الاهتمامات .. لكن لدى أمور كثيرة تشغلنى .. فأنا وبسبب نشأتي البروليتارية أحزن جداً عندما أرى معاناة الناس . لا أستطيع تكريس حياتي السياسية لحل المشكلة الفلسطينية .. لنفس الرؤية .. فأنا لم أذهب إلى إسرائيل على الإطلاق .. ولا أضحك أن ذلك سببه نفسى لأننى مؤمن بأن زيارة إسرائيل حاجة طبيعية والذهاب لإسرائيل لايعنى الذهاب لبلد الأعداء .. بل بلد بيننا وبينه معاهدة وبالتالى لايوجد ما يمنعنى أخلاقياً من الذهاب لإسرائيل إنما تكوينى النفسى يمنعنى رغم أن لدى أصدقاء إسرائيليين عديدين من المثقفين والعلماء !

* البعض يعتقد أن ما تشعر به هذا – ليس مشكلة نفسية – ولكنه قد يعود إلى أن السلام لم يكتمل .. أي كالوليد ناقص النمو .. وأن الحرب لم تختف رائحتها بعد .. فمازالت إسرائيل تضرب لبنان كلما شعرت بعسر هضم ؟

** لا .. أنا كمصرى أقول إن السلام بين مصر وإسرائيل تحقق واكتمل تماماً .. والجبهة المصرية الإسرائيلية لم تحدث عليها أية مواجهة عسكرية منذ بدء مشروع السلام . السلام بيننا وبين إسرائيل تحقق بشكل إستراتيجي وليس بشكل تكتيكى .. لم يتحقق هذا السلام بالنسبة للفلسطينيين أو السوريين أو اللبنانيين أو العراقيين .. ولكن هذا ليس ذنبى .. لن أحمل هموم الناس دى كلها لقد عرضنا عليهم أن يأتوا ويجلسوا معنا فلم يأتوا .. إذن هم أحرار .. لكن لا مواجهة بيننا وبين إسرائيل .. وأى مواجهة فى ظل علاقات القوى القائمة تكون خيانة وطنية كبرى لأنها ستكون ضد مصلحة البلد، وبالتالى فإنه إذا كان الطلب الوطنى أيام عبدالناصر هو تأجيج العداءابين المصريين والإسرائيليين وكان لابد منه حتى نستطيع محاربة الإسرائيليين الآن تأجيج امعداء ضدالإسراايميين ضد المصلحة الوطنية ولا أريد أن أقول إنهايعتبر خيانة وطنية .. نعم .. أُهظر أى عاقل للتعمُّر والاستثمار فى سيناء ولينظر!أى مراقب لمشروعات شرق التفريعة والمدن الجديدة!.. كل ما يحدث فىنجسيناء ما كان يمكن أن يتحقق بدون سلام بيننا وبين إسرائيل.. إذن أى مصرى وطنيمخلص لهذا الشعب عليه أن يفكر فيما تحقق من إنجازات .. وألا يتأثر بمحاولات من هم خارج الوطن ويحاولون جذبى لمتاهات .

خناقة شعبية

* فى أحيان عديدة .. وأنت أستاذ تاريخ .. يبدو الأمر وكأنك جعلت من التاريخ أو وقائعه موضوع خناقة شعبية .. أى لم يعد التاريخ وقائع وأحداثاً .. ولكنه سلاح ضمن أسلحة عديدة فى الخصومة بينك وبين أعدائك ومنتقديك .. البعض يخشى على (التاريخ) وموضوعيته من هذه العداوات ؟

** أنا لا أكتب تاريخاً بدون وثيقة وبدون إثبات .. أما الجانب السياسى فأنا رجل سياسى يقف فى مواجهة اتجاهات مضادة ووجهات ورؤيات أختلف معها وأراها ضد المصلحة العامة .. فأنا هنا فى مواجهة سياسية .. ولكن أيضاً علاقاتى الإنسانية بالكثيرين الذين يخالفوننى فى الرأى طيبة فعلاقتى بعبد الله إمام رئيس تحرير جريدة «العربى» التى تهاجمنى علاقة طيبة جداً .. وأنا أكره (قليل الأدب) .. أكره الشتام .. إنما حواراتى تدور مع مختلفين ـ وعند كتابة التاريخ أنسى الخصومة .. وأكتب التاريخ بأمانة .. والذين يهاجمون كتاباتى التاريخية ليسوا مؤرخين .. لايوجد مؤرخ متخصص انتقد دراساتى التاريخية .. نختلف هذا طبيعى وأنا شخصياً أختلف مع نفسى لكن هجوم لم يحدث، وقد كتبت مرة مقالاً أصحح مقالاً سابقاً لنفسى حول فكرة إنشاء بنك ناصر فقد كنت أعتقد أنه من أفكار طلعت حرب ولكنى اكتشفت أنه من أيام الثورة العرابية.

* ولكن يبدو أن هذه الإجابة لاتمتد إلى الإسلاميين .. فقد لفت نظرى أن الدكتور عبدالعظيم رمضان يعرض مودته للإسرائيليين باتهامات عنيفة ضد الإسلاميين ؟

** أولاً لاتوجد صلة أو مودة بينى وبين اليهود .. وكل ما هنالك أننى عندما وجدت أن ما فعله شيخ الأزهر فى لقائه بالحاخام الإسرائيلى أمر طبيعى ولايخرج عن إطار العلاقات الطبيعية بيننا وبين إسرائيل ـ المشكلة أن الناس إللى ضد كامب ديفيد وضد المعاهدة المصرية الإسرائيلية أفكارهم تجاه مصر ونحو المثقف المصرى أصبحت أفكاراً مصطبغة بالعداء .. بمعنى أن هناك غيرة من مصر لأنها البلد الوحيد الذى لايوجد على أرضه أى جندى أجنبى .. البلد الوحيد الذى يحقق انتقالات إقتصادية يعترف بها العالم .. هذه الصورة تخيب رجاء الذين ظنوا أن المعاهدة المصرية الإسرائيلية كانت ضارة بمصر .. إنهم يحاولون التمسك بالقديم .. أنهم لايريدون الاعتراف بأنهم بالأمس كانوا على خطأ .. وأن الصواب هو ما يحدث اليوم .. ومثال ذلك الكاتب محمد سيد أحمد الذى يمدح النظام الناصرى لأنه لايريد أن يواجه نفسه بأنه أخطأ .. أو محمود أمين العالم الذى لايعترف بالعذاب الذى لاقاه فى عهد عبدالناصر لأنه يريد أن يقنع نفسه بأنه كان على حق .. فيه ناس لاتريد أو ليس لديها الاستعداد لقبول حقيقة أن ظنونها لم تتحقق.. وما تفعله مصر اليوم خيب ظن الجميع .. ومن هؤلاء الشيخ يوسف القرضاوى .. إنه يعتقد أن بيننا وبين إسرائيل عداء !! طيب مفيش عداء ؟ مين قال إن بيننا وبين إسرائيل عداء !! بيننا وبينهم معاهدة سلام !! إن هذا التفكير نوع من الفهم المضلل .. والفهم الخاطئ .. البعض مازال يعتقد أن إسرائيل اليوم هى نفسها إسرائيل أيام عبدالناصر .. لا .. إسرائيل اليوم بيننا وبينها معاهدات .. فى الشارع نلتقى كثيراً بالإسرائيليين .. تغيرت كل حاجة .. البعض يحاول تثبيت الزمن عند مرحلة بعينها .. الدنيا تغيرت .. ولكن فيه ناس دخلت الكهف ولم تخرج منه.. مش قادرين ينظروا للدنيا من حولهم .

* سؤال أخير يادكتور: التاريخ الذى تغير .. أم الذين يكتبون عنه ويفسرونه ؟

** الطرفان .. ويكفى تاريخياً أن تتأمل أن العالم العربى الذى تخلص من الاستعمار هو نفسه الذى صرخ طلباً للمعونة .. فتصل ٣٢ دولة معظمها هى نفسها الدول الاستعمارية القديمة لتحل مشكلة اعتداء العراق على الكويت .. هذه الدول وصلت هذه المرة على حساب الدول العربية .. القوات الأمريكية فى الخليج تنفق من الخزينة العربية .. اضطررنا لذلك بحثاً عن الحماية .. فماذا نفعل ؟ كل حاجة تغيرت .

يونان لبيب رزق
مؤرخ يسكن فى شارع "الكفاح" الهادئ

التاريخ هم ذاكرة الوطن والحقيقة هى أداته ولكنه فى لحظة القلق يصبح نافذة تطل على المجهول ، وبحرا من غبار وأرضا من شجون وسماء من قلاقل يتحول التاريخ-فى ظل الزحمة وسقوط المحرمات إلى كرباج يلهب ظهر الأحلام ومحرقة لليقين وجسر لخلط الأوراق.

وفى المجتمع العربى .. ومنذ سنوات طويلة حاصرت التاريخ أحاسيس عدم الثقة .. وصل الأمر على أبواب القرن الواحد والعشرين أننا قد نخلط بين أسماء القادة وأوصاف الموظفين.. وبات الخلق فى الرأى سببا للخوض فى الأرض الحرام وهى أحلام الناس .. وباتت الصورة فى كثير من الأحيان أقل ابتساما وأكثر اهتزازا أو سقط الخط الفاصل بين الأكاذيب والحقائق، وأصبح هناك جيل جديد لا يملك من معانى اليقين إلا الأوصاف .. ومن الثوابت إلا ذكريات مشوشة ومن الأحلام إلا أثار الكوابيس.

كيف الخلاص من مواجهة كل ذلك؟.. وكيف نفض الاشتباك مع التاريخ ؟ هذا هو السؤال الذى شغلنى وأنا ألتقى بالدكتور يونان لبيب رزق الذى كان عضو الوفد المصرى فى مؤتمر مدريد .. وكان المسئول الأول عن جمع وثائق قضية طابا أثناء النزاع مع إسرائيل .. وقبل ذلك وبعده المؤرخ الذى يحذرنا بتشاؤم من مخاطر المستقبل ..من هنا كانت البداية بعيدا عن الأوهام واقترابا من الحقائق بحثا عن الخلاص لجيل قال عنه الدكتور يونان لبيب رزق أنه سيدفع ثمنا غاليا لما يحدث اليوم.. !!

ومن هنا كانت البداية..

*لماذا يا دكتور كل هذا التشاؤم .. لماذا تلك الصرخة عندما حذرت من أن هناك محاولة لطمس ذاكرة الأمة سيتم خصم مستحقاتها وتكاليفها من المستقبل ؟ من أين جئت بكل هذا التشاؤم الذى تلقيه أمام عيون لا تمل من الحديث عن قرن جديد لا تعرف خطواتها إليه ؟ .. وما أسبابك ؟

- الحقيقة أن هذا الخوف أو التشاؤم الذى أبديته يعود إلى الوجهة التى بدأت فى منتصف عصر السادات واستمرت طول الثمانينيات واستهدفت ضرب الحقبة الناصرية (يعنى - مثلا - تأميم قناة السويس) .. وننسى أن ذلك تم أساسا لحساب الوطن .. فى مرحلة أخرى قالوا المصائب بسبب التأثيرات الجانبية للسد العالى ونسبوا كافة الكوارث للسد ..هنا أيضا لم يحدث فصل بين السد العالى

كمشروع وطني قومي وبين كونه مشروعا حدث في عصر عبد الناصر .. ما حدث مثلا من مذكرات شخصية مليئة بالمغالطات .. وهنا نتوقف أمام فهمنا الخاطئ في أحيان كثيرة لموضوع (المذكرات) .. فالعالم الغربي يعرف المذكرات الشخصية بصورة مختلفة عنا.. فالسياسي الغربي بعد أن يعتزل يبدأ في كتابة مذكراته الشخصية ..وهو في ذلك لا يهدف إلى مطمع ، ويعرف أن هناك حاجة اسمها الخدمة العامة، ويعرف أنه خادم عام ،وأنه في وقت من الأوقات لابد أن يعتزل إما بسبب الخسارة في الانتخابات أو ضعف في قدرته على التجديد والتطوير في عمله .. وقد حدث ذلك لتشرشل عام ٤٦ .. الذي جاء المنتخبون بحزب العمال بديلا لحزبه ، فاتجه للريف ، يرسم ويكتب المذكرات . في بلادنا العكس يحدث تماما ،إن ما يجري عندنا هو اعتزال المناصب العامة بكل بريقها وامتيازاتها ومن يحدث له ذلك يصبح هدفه تقديم تبرير لما حدث .. وعادة لا يكون صادقا ، كما أنه لا يفقد الأمل في العودة للأضواء مرة أخرى ..كل ذلك لأن فكرة الخدمة العامة أساسا-غائبة المهم ..أن المذكرات كانت إحدى أسلحة الهجوم على حقبة تاريخية معينة من أجل أهداف سياسية . وبالمناسبة أيضا ، فإن ما فعلة عبد العظيم رمضان أو غيره مع ثورة يوليو من عدم الموضوعية ، فعلته الثورة نفسها .. فنجد أن الميثاق في عام ١٩٦٢ قد قلل كثيرا من قيمة ثورة ١٩١٩ ، وهذا كله يسبب إضعاف الذاكرة الوطنية ،بل أكثر من ذلك أضيف ، أنه لم يكن يحدث تراكم تاريخي في أحيان كثيرة .. بمعنى أن كل حقبة كانت تأتي لتطعن في الحقبة التي سبقتها . فنجد أن مصطفى كامل يعتبر عرابي خائنا ، وقد استقبلت جريدة اللواء عرابي عقب عودته من المنفى عام ١٩٠١ أسوا استقبال ، وجاء سعد زغلول لينظر إلى مصطفى كامل وحزبه على أنهم ثبتوا أقدام الاحتلال الإنجليزي ، وتجئ ثورة ٥٢ لتقول أن سعد زغلول ركب موجة ثورة ١٩ ولم يكن له فضل كبير عليها !.. وأكثر من ذلك يجئ السادات وطبقا للنكتة الشهيرة فإنه (يمشي على خط عبد الناصر بأستيكة).. يمكن وللأمانة في عصر مبارك وخاصة في السنوات الأخيرة ، أنه أي الرئيس حريص على الإشارة لكل الزعامات ولا يقلل قيمة من كان قبله ، وهذه مسألة مهمة في صناعة التراكم .. وقد كنا ندهش عندما نجد في أحد ميادين لندن تمثال كروموبل- أي تمثال للشخص الذي صنع جمهورية في إنجلترا أي الرجل الذي ثار ضد الملكية ورغم ذلك يحتل موقعة لأنه جزء من تاريخ إنجلترا ، للأسف نحن لا نصنع ذلك ، بل لدينا ظاهرة الكراهية المتوارثة .. فالخديوي إسماعيل كان موضع كراهية شديدة من أبنه توفيق ، وعباس كان يكره توفيق بعمق ، وفاروق كان يكره فؤاد بشده ، السادات كان يكره عبد الناصر بقوة ، ولذلك شاعت فكرة الكراهية بين الحكام .. وللأمانة فإن الشعب العربي كان يقف ضد قطع السلسلة بهذا الأسلوب بينما بعض المتعلمين يعزفون نغمة الكراهية ، ولكننا نتذكر أن مجلة مثل (أكتوبر) نشأت للطعن في عبد الناصر ،

وهذا ما قاله الأستاذ أحمد بهاء الدين "الله يرحمه" فى كتابه عن محاوراته مع السادات .

ومن الأخطاء التاريخية الشهيرة ما كتبه البعض عن الخديوى إسماعيل ، فوصفوه بالعبيط الذى أنفق مليون جنية على افتتاح قناة السويس لجذب قلب الملكة أوجينى التى كان متيما بحبها !! طبعا تفسير ساذج للتاريخ لأنه لو كان إسماعيل أعطى أوجينى مائة ألف فرنك كان أغمى عليها من الفرح !! لكن من يقرا التاريخ جيدا سيكتشف أن المعركة بين الخديوى إسماعيل والسلطان عبد العزيز سلطان الدولة العثمانية كانت محتدمة ، وأن إسماعيل وجد فى افتتاح قناة السويس فرصة للتأكيد على استقلالية مصر فأراد أن يدعو ملوك العالم لهذا الهدف ..لذلك نجد أن الدولة العثمانية هى الوحيدة التى لم ترسل ممثلا لها فى افتتاح القناة !! وعلى مستوى الغرام ، لم يكن إسماعيل فى حاجة شديدة لأوجينى ..فقد كان متزوجا لأربع من أصول تركية بالإضافة إلى الجوارى.

الانقلاب الكبير

* بالرغم من حديثك عن ارتباط الناس أو تقديرهم لفترة حكم عبد الناصر ،فإن هناك من يرى أن هذا النظام كان من قش والدليل على ذلك أنه انهار برحيل مؤسسه ومجيء نظام السادات ليحفر للمجتمع مجرى جديدا ويخرج نفس الشعب ليلتف حوله .. فهل يعبر ذلك عن خطا فى الرؤية أم أنه يعبر عن حاجة لتحليل أخر ؟

– ما حدث فى عصر السادات لم يكن تطورا بل كان انقلاب على عصر عبد الناصر ، ما نسميه بالانفتاح كان فى حقيقته فترة صنعت ثروات لأناس لم يكونوا يحلمون بذلك ، فالتغير الاقتصادى تم بصورة انقلابية ، ويشيع بين الناس أن الذى لم يستطع الثراء فى عصر السادات لن يثرى مرة أخرى !! الثراء هنا معناه انقلابى .. ولذلك نماذج كثيرة ، هذا لا يمثل تطورا اقتصاديا ، لعل ما يحدث الآن هو ما يمكن تسميته بالتطور الاقتصادى حيث تتطور طبقة من رجال الأعمال الذين يشتغلون بالعمل الحر ويتبلورون بصورة طبيعية .. وفى تقديرى أن التطور الذى نعيشه اليوم كان سيحدث إن أجلا أو عاجلا ولكن ما حدث من انقلاب فى منتصف السبعينيات فكان شيئا أخر .. أدى إلى ظهور فئة شديدة الثراء وإلى سقوط الكثيرين من أبناء الطبقة المتوسطة فى هوة الفقر ، وهذا ما يفرز حتى اليوم مشاكل التطرف والإرهاب وما يزيد من عمق التفاوت الاجتماعى الذى يشعر به الكثيرون اليوم ، وفى ظل الحماس الزائد لهذا الانقلاب الاقتصادى ينسى البعض أن الطبقة الوسطى هى العمود الفقرى للمجتمع وأن يسقط منها الأفندية وصغار رجال الأعمال والموظفون وأصحاب المهن الحرة كالأطباء والمهندسين فى الحفرة لضيقه من الفقر فإن ذلك يحمل كل الخطر .

- تحاسب فترة السادات كأنها تاريخ منعزل عما جاء بعده ، بينما الحقيقة أن السادات حفر مجرى جديدا تدفقت فيه مياه كثيرة مازالت تجرى حتى الآن ، وأنت تراها كفترة تاريخية أقرب لبحيرة منعزلة ؟

* لا أقصد أن التغير الذى حدث كان لن يحدث ، ولكن فى تقديرى أن مشكلة عصر السادات أن التغيير فيه حدث بشكل انقلابى ، وبشكل كانت الوعود بالرخاء أكبر من حقائق الفقر التى أصابت الكثيرين وعل الأمور بدأت تتبلور بشكل أقرب للاستقرار فى التسعينيات.

- بالمناسبة تعيش فى شارع هادى يحمل عنوان شارع (الكفاح) وجيلك هو الأقدر على أن يقول لنا ماذا حدث .. ولا سيما أنك مازلت تدافع عن كفاح جيل لم يبق من آثاره سوى اسم (الشارع) كما يرى البعض ؟

** مسألة نسبية ، فى جيلى كانت هناك رأية للكفاح ضد الاستعمار أو الإمبريالية أو الفقر ، ولكن ليس معنى ذلك أن كفاح الأجيال السابقة يتوقف مع المرحلة الجديدة التى نعيشها اليوم ، لأن المرحلة التى تمثلها أنت والأجيال التالية لك ، أعتقد لن تلغى من حياتها مفهوم الكفاح ، ولكنه كفاح مفاهيم مختلفة فمثلا نحن نواجه فى العالم ما يمكن تسميته بكفاح السبق العلمى .. وبات من لا يعرف الكمبيوتر يمكن وضعه فى عداد الأميين ، وفى تقديرى أن الكفاح اليوم من أجل هذا الهدف أكثر صعوبة .. ففى جيلنا كان الكفاح يتمثل فى مواجهة المحتل والهتاف ضده ، ومناهضة ديكتاتورية القصر ، وهذه مسائل تأخذ وقتها وتنتهى ، إنما الكفاح بمعنى التقدم أو الصناعة ، فإنه نظام حياة ، وهنا موضع الصعوبة ! لأنه لابد من وضع نظام حياة صارم على نفسك وعلى الآخرين لتحقيق هذا التقدم ، وإذا لم يحدث فإننا فى مأزق شديد وفى تقديرى أن هذا الكفاح أخطر من مواجهة المحتل الأجنبى مثلما كان حادثا .. وبالتالى فالكفاح عملية مستمرة من جيل إلى جيل ، وبالتالى يمكن لنا جميعا أن نسكن فى شارع الكفاح .. كذلك الأجيال اللاحقة لا مفر من أن تعيش فى هذا الشارع.

تكنولوجيا نعم . . أيديولوجيا لا..

- هل يعنى ذلك أن جيلنا مطالب بأن يلتف حول رأيه التكنولوجيا بديلا لراية الأيديولوجيا التى كان جيلك يلتف حولها وتوجه نضاله ويتفق ويختلف عليها ؟

* أظن أننى أوافق على ذلك ، فالأيديولوجيا كان بعضها اقتصاديا اجتماعيا وبعضها سياسيا أو دينيا .. فإن هذه الأيديولوجيات تتغير مفاهيمها تماما أمام التقدم العلمى ولنأخذ النظريات الاقتصادية الاجتماعية سواء بالنسبة لصناعة الثروة أو صناعة

الفقر ..اليوم التكنولوجيا هى التى تصنع الثروة ، والتأخر فى التكنولوجيا هو الذى يصنع الفقر وهكذا عندما نكون فى عالم التقدم التكنولوجى فإن هذه الأيديولوجيات تفقد الكثير من مضامينها القديمة ، يعنى لا نستطيع أن نقول فى بلد مثل اليابان أو الولايات المتحدة أن هناك رواجا كبيرا لمثل هذه الأيديولوجيات وذلك بحكم التقدم التكنولوجى .. وهذا عكس الدول التى لم تفز بثروة ناتجة عن التقدم التكنولوجى .

نعم قد تكون مرهون بالمصادفة وتقدم يصنعه النظام السائد والبشر .. ويكفى مثالا أن بلدا مثل هولندا اغنى بكثير من بلد مثل السعودية ومتوسط دخل الفرد اعلى !! .. وأعود لأؤكد أن ما يجب أن نفهمه ونستوعبه فى مرحلة الانتقال التى نعيشها ، أن التقدم الذى تصنعه المصادفة يظل باستمرار رهن الصدفة التى أن اختفت أخذت فى أحضانها ذلك التقدم ، لذلك فأنا لا أفرح كثيرا إذا قيل أن هناك نفطا فى بنى سويف أو ذهبا فى سيناء ، وأتذكر على الفور أن اليابان ليس فيها مواد خام ومع ذلك فغنى هذا البلد فى مقدمة العالم بفعل تقدم الإنسان ، ولذلك ففى تقديرى اجمل مصادفة فى حياة البشر هى صناعة البشر أنفسهم .

- هذه الأيام تمر ٦ سنوات على مؤتمر مدريد الذى كنت عضوا فى وفد مصر هناك .. هذا المؤتمر البعض يعتبره بداية طريق لم يؤد إلى نجاح للقضية العربية .. والبعض الآخر يراه طريقا لم يكن هناك بديل عن السير فيه .. ونحن نسألك رأيك .. وماذا يبقى فى ذاكرتك عنه ؟

* تذكر حقيقة مهمة ، أن حرب الخليج ، والعدوان العراقى السافر على الكويت قد أدى إلى تغيير المنطقة بصورة درامية قد تسئ لأحلام الكثيرين أو على عكس ما كان يأمل الكثيرون .. ولكن حرب الخليج الثانية كانت وراء كل ما حدث ومنها فتح الطريق إلى مدريد ، وتذكر أن المصريين ذهبوا هناك وليس لهم هدف سوى دعم أضعف الحلقات العربية وهى الحلقة الفلسطينية .. كانت كل الأطراف هناك وكان واجبنا حماية المستقبل وعدم جعله مشاعا للتقسيم . وقد تبقى فى ذاكرتى كمؤرخ عدة صور ونتائج أبرزها أن الإسرائيليين يفوزون بلقب الأسير الأول لمقولات التاريخ ، لقد لاحظ الجالسون فى بهو الأعمدة فى قصر الشرق فى مدريد حيث انعقد المؤتمر أن زهاء نصف الخطبة التى ألقاها المستر شامير رئيس الوزراء الإسرائيلى آنذاك استعراضا للتاريخ من وجهة نظره بالطبع ، وهو تاريخ اختلطت فيه الحقيقة بالأسطورة على نحو فاضح . فقال انه يمثل الشعب الذى "عاش فى أرض إسرائيل أربعة آلاف عام دون انقطاع ، ونحن الشعب الوحيد الذى تمتع بسيادة مستقلة فى هذه الأرض باستثناء مملكة صليبية استمرت فترة قصيرة" .

المقولة الثانية انصرفت إلى القدس بقوله "نحن الشعب الوحيد الذى كانت عاصمته القدس ونحن الشعب الوحيد الذى لا توجد أماكنه المقدسة إلا فى إسرائيل ، ولم ينس فى هذه المناسبة أن يردد بعد الآيات المتعلقة بالقدس خاصة ما جاء فى المزامير .. "لن أنساك يا أورشليم ولو فقدت يمينى" ! .

وكان هناك أسير أخر واقصد بعض العرب ، حيث اكتشفت أن التمسك بالتاريخ جاء من قطاعات من الشارع السياسى العربى .. حيث ظل هذا (الفريق) وما زال ينظر للصراع العربى الإسرائيلى باعتباره صراع حياة أو موت ، وهم فى هذا ما زالوا واقعين تحت تأثير مقولات تاريخية أطلقت خلال الثلاثينيات والأربعينيات دونما نظر إلى أن عجلة التاريخ قد دارت خلال العقود الأربعة الخيرة دورات عديدة ! . نعم تبقى إسرائيل كيانا عدوانيا يهدد الأمة العربية ما دامت استمرت تتبنى السياسات القائمة على الغزو والتوسع ، ولكن يبقى الجمود عند لحظة تاريخية معينة بكل مفرداتها مما يعطى هذا الكيان الوقت أو الفرصة لتحقيق كل مخططاته .

وإذا كان "التفخيخ" يمثل عنصرا من عناصر الحرب لدى إسرائيل فنرى ومن خلال قراءة طويلة لسياسات تل أبيب تجاه الجيران العرب أن نصب الفخاخ يمثل ركنا أساسيا من أركانها . ولعل أهم الفخاخ التى وقعت فيها بعض قطاعات الشارع السياسى العربى فى تعاملها مع الصراع مع إسرائيل بالنظر إليه من منظور دينى ، باعتبار أن هذا الصراع لون من الجهاد ينبغى إلا يتوقف إلا بانتصار المجاهدين .

والأسير الآخر كان مصريا ، حيث اكتشفت أن هناك معركة غريبة على هذه الساحة حول كامب ديفيد .. فبينما عاد الكثيرون إلى التذكير بها باعتبارها إنجازا عظيما ، فإن آخرين عادوا للتنديد بها وقد تناسى هؤلاء وأولئك انه قد مرت تحت الجسور مياه كثيرة .. ويكفى أن أقول اليوم إننا كنا فى مدريد أمام موقف درامى محدد وهو ضرورة الاعتراف بالحقيقة وانه بعد متغيرات الثمانينيات والتسعينات أصبحت فعلا معظم أوراق الحل فى يد أمريكا .

المهم .. أن هذه النماذج بقيت فى ذاكرتى عن مدريد تعبيرا عن أزمة .. وعن أن التاريخ اسرى من الجانبين .

- حديثك عن أسرى التاريخ .. يدفعنا لأرض أخرى ونحتاج لمن يقرأ تضاريسها لنا وهى : هل هناك مؤرخون يستخدمون المصادفة فى تفسير الأحداث ؟ وهل للهوى الشخصى مكان فى هذا الاستخدام ؟ وما تقييمك لهذا الفريق من المؤرخين ؟

* هناك من تسعدهم صناعة المصادفة فى مجرى التاريخ ، وهؤلاء قد يكونون قريبين من رؤية المخرج الراحل حسن الإمام حيث نجد مجموعة من المصادفات لا تنتهى ، وهناك بالفعل مدرسة تاريخية بهذا الشكل ، ويمكن اقرب الناس لصناعة

هذه المدرسة كان المرحوم المؤرخ عبد الرحمن الرافعى .. فكتاباته التاريخية مليئة بالمصادفة السعيدة لمن يحبهم ، والمصادفة السيئة لمن يكرههم !! ويمكن موقفه من مصطفى كامل نموذج لذلك . ففى كتابه (مصطفى كامل داعية الحركة الوطنية) ، يتكلم عن أن على مبارك وكان ناظرا للمعارف قام ذات يوم بجولات تفتيشية على المدارس ، ومنها مدرسة ابتدائية كان مصطفى كامل تلميذا بها ، وقد قام هذا التلميذ بإلقاء كلمة ترحيب بالوزير نيابة عن زملائه ، وفى ختامها هنأ على مبارك التلميذ على رجاحة عقله وتنبأ له بمستقبل طيب .. فهل يمكن أن نعتقد أن على مبارك قد خص مصطفى كامل بهذه التهنئة ؟ الإجابة بالنفى .. ولكن بالتأكيد انه كلما دخل مدرسة ووجد طفلا جيدا يشجعه بكلمات طيبة .. ولكن .. تصور عبد الرحمن الرافعى أن فراسة على مبارك هى التى دفعته لاكتشاف علامات لم يرها فى جميع الأطفال الآخرين !! بالمقابل .. ولأنه أى الرافعى كان منتميا للحزب الوطنى فلم يكن يحب سعد زغلول وكان يرى أن المصادفة وراء زعامته ، وأنه لولا زواجه من ابنة مصطفى فهمى رئيس النظار لما برز ولما فعل شيئا .. وأنه لولا ذهابه لصالون نازلى فاضل لم يكن أحد قد شعر به .. وهكذا نجد أنفسنا أمام نموذج لمؤرخ يستخدم المصادفة فى التفسير التاريخى !! بينما الحقيقة انه ليس على مبارك هو الذى صنع زعامة مصطفى كامل .. وإنما مسائل كثيرة ، فبالإضافة للإمكانات الشخصية ، كان هناك نشاطه السياسى وتحالفه مع الخديوى وعلاقاته مع الفرنسيين والسياسات البريطانية فى حادثة دنشواى وغيرها نفس الشىء بالنسبة لسعد زغلول ، فلا يمكن تفسير زعامته بزيجة من السيدة صفية زغلول ، بل كان فكر فى تطليقها من قبل الحديث عن زعامته لأنها من اصل تركى !! وكان على رغبته فى الزواج من فلاحة مصرية ، وبعيدا عن ذلك فإن سعد زغلول كان ناجحا كمحام ، وكان ناجحا كقاض ، وكان له علاقات متعددة فى الجامعة المصرية عندما أنشئت مع قاسم أمين وتلامذة محمد عبده ، إذن فاعتماد المؤرخ على المصادفة لتفسير التاريخ يصنع مغالطات وهذا حدث بالفعل .

- تشير باصبع الاتهام لمنهج المصادفة لدى بعض المؤرخين .. ولكن كيف ترى أحاسيس الشك التى تحاصرنا ونحن ننظر لأحداث كثيرة ؟ هل نحن بالفعل مستهدفون أم أننا مرضى الشك التى تحاصرنا ونحن ننظر لأحداث كثيرة ؟ هل نحن بالفعل مستهدفون أم إننا مرضى بالوسواس القهرى ؟ أم أننا وتفاصيل حياتنا تخضع لقوى لا نراها تحرك أو تصنع أحداث أيامنا ؟

* لا هذا .. ولا ذاك .. نحن اسرى عقلية المؤامرة ، وهى عقلية كانت تسود فى العصور الوسطى ، لان فى هذه العصور كان المجتمع (أبويا) شيخ القبيلة .. أو أمير مقاطعة .. أو زعيما لمنطقة .. وفى هذا المجتمع ، الفرد فيه شئ جوهرى ، ولو اختفى الفرد الذى يلعب دور الأب يمكن أن تحدث بسبب ذلك تغيرات جوهرية .. من

هنا ظهر ما يسمى بانقلابات القصور .. وهى تلك الانقلابات التى يتم خلالها التخلص من هذا (الأب) سواء كان ظالما أو عادلا .. ويحل مكانه المتآمر .. هذا لا يحدث إلا من خلال مؤامرة ، وإذا نظرنا للدولة العثمانية وكانت دولة المجتمع الأبوى ، وهو بالضرورة مجتمع إقطاعى ، سنجد تجميدا لفكرة المؤامرة . ومن الأمثلة العديدة التى نعرفها أن الخديوى إسماعيل بعد وصوله لقصر عابدين كانت المطابخ بعيدة عن مقر إقامته .. فكان الطعام يتم تغليفه فى قماش مخصوص مختوم بالختم الأحمر ولا يفتح الطعام إلا فى الحضرة الخديوية !! وكان ذلك جزءا من احتياطات تجنب قتل الخديوى بالسم !! إنها المؤامرة !! وهذه الفكرة ما زلنا متأثرين بها حتى اليوم فخصوم عبد الناصر قالوا انه قتل من الدكتور المفتى بالسم وبنفس الأسلوب قيل أنتهت حياة الملك فاروق والمشير عبد الحكيم عامر ..

والحقيقة أن هذه الرؤية تعود للعصور الوسطى لأنه لم يكن هناك سبب يدعو عبد الناصر أن يقتل الدكتور المفتى والذين أرجعوا ذلك لأنه عرف بمرض عبد الناصر بالقلب ينسون أن الروس كانوا على معرفة بذلك وجهات أخرى !! وفاروق مات سياسيا منذ زمن طويل وعامر انتحر سياسيا منذ هزيمة ٦٧ ، لكن المسألة هى التفسير التآمرى للأحداث فى بلادنا .. وهو المنهج الذى جعل الحس الشعبى فى بلادنا ينظر لحادث ديانا على أنه مؤامرة .. هناك قبول عام لذلك ، لأن العقل العربى لا يستطيع قبول إمكانية وقوع الأحداث بشكل طبيعى ، حتى الغربيين لديهم دهشة من أسلوب التفكير العربى والأخطر أن ذلك الأسلوب ليس مقصورا على العوام ، بل على الكثيرين من المثقفين . وهناك أصدقاء فى الجامعة وأقارب يحملون مؤهلات عليا ما زالوا يؤكدون أن ديانا قتلت !! المشكلة اننا لا نستوعب أن العالم تحكمه اليوم فكرة التخطيط بديلا للمؤامرة فى أغلب الأحيان مثلما حدث فى محاولة الموساد لاغتيال خالد مشعل .. فهذا تخطيط ، والدليل انها تسمى عملية ، وأنها عندما فشلت أصبحت موضع صفقة سياسية .. لكن المؤامرة لا تصبح كذلك ، إنها على الأرجح (قاتل أو مقتول) .

وقياسا على رفض فكرة المؤامرة .. يصبح قبول انه كانت هناك مؤامرة دولية أو أمريكية لشن حرب الخليج أو ضرب العراق مما تروج له بعض الدوائر العربية معتمدة فى ذلك على حادثة أو واقعة هناك ، لعل اشهرها ما ذكر فى المقابلة بين السفيرة الأمريكية فى بغداد والرئيس العراقى والتى قيل إنها قد ألمحت للرئيس العراقى أن بلادها لن تتدخل إذا ما احتل الكويت ، إنها بذلك قد غررت به وهو ما ثبت عدم صحته ، واعتقد أن محاولة ترويج بعض الدوائر العربية لتفسير المؤامرة فى حرب الخليج .. والأهم من ذلك قبول قطاع كبير من العاملين فى حقل السياسة العربية تم فى جانب منه لسبب سياسى ، إلا أن قبوله يكشف عن وجود جذور للفكرة فى العقل العربى ، ولا شك أن المروجين للتفسير يرون انه يعفى القيادة

العراقية والقيادات العربية التى دعمتها من مسئوليتها التاريخية عما حاق بـــالوطن من كوارث وهى مسئولية ثقيلة على وجه اليقين .

وظـيـفـــة الـتــاريـــخ

– ما بين المؤامرة والمصادفة توجد ارض ثالثة يقف الكثيرون من المؤرخين الذيـــن تراهم يحرثون الأرض يوميا ، فيظهر فى الصباح بطل ، ويأتى المساء وفى جعبتـــه خائن ، وبين البطولة والخيانة يقف جيلى على مفترق الطرق حائرا بين اليقين الـذى ضاع والشك غير المكتمل .. فمن المسئول ؟ .

* هناك مشكلة لدى بعض المؤرخين فى بلادنا وهى التوظيف السياســى للتــاريخ ، وبالتالى فإن هؤلاء فى تقديرى قد انشغلوا فى الكتابة الصحفية اكثر من التـاريخ الموضوعى ولو انهم يدعون عكس ما أقول .. ومن الأمثلة على ذلـــك أن الدكتـــور عبد العظيم رمضان فى عدائه لعبد الناصر وصل به الأمر أنـــه طعـن فـى حـرب الاستنزاف ويسفه منها .. إنه لم يكن هناك ضرورة لها وأنها كانت خسارة كبـــيرة. بينما فى احتفالات ٦ أكتوبر الأخيرة، وفى اللقاء الذى تم بين المشير طنطاوى وزيـر الدفاع مع بعض الإعلاميين، أكد بنفسه أهمية هذه الحرب ووصف من يقولون بـأن حرب الاستنزاف لم تكن ضرورية بأنهم (أناس لا يفهمون فى العسكرية) والرئيـــس مبارك بعد ذلك فى بعض تصريحاته قال أن حرب الاستنزاف كانت المدرسة التى تـم التعلم فيها والاستعداد لحرب أكتوبر.. وهنا تتضح لنا قيمة حرب الاستنزاف وتتضـح فى نفس الوقت رؤية عبد العظيم رمضان كرؤية سياسية تريد التقليل من قيمة حـرب الاستنزاف لأنها حدثت فى عصر عبد الناصر. ونتيجة لذلك أنه يقع فى خطـأ بـالغ، وبالمناسبة فإن حرب الاستنزاف كانت أيضا ضرورة سياسية، ولكن المشكلة الأخرى أننا نكون معلوماتنا عن الحرب من خلال التليفزيون وهذا المنظـور يقـود لأخطـاء بالغة .. تماما مثل المنظور الذى كان البعض ينظر منه للفلاح على نغمات أغنية عبد الوهاب (ما حلاها عيشة الفلاح) .. وكنت أحكى عن تجربتى، وكيـــف كـان جـدى يفرض على العائلة حضور الأحفاد لقضاء شهر فى إجازة الصيف فى الريف .. وكان ذلك يحدث بالضرورة وتكشف لنا الواقع المر الذى يعيشه الفلاح .. وكان نعد الأيـام حتى يمر الشهر وكنت دائما فى نهاية الإجازة أقول (محلاها عيشة الفلاح من شـباك القطار).

– بنفس القدر من الحرارة .. ألا تعتقد أن هناك ضرورة للتخفيف من أسماء الأبطال الآلهة الذين نختلف عليهم باستمرار وأن ننظر لضـــرورة تغيـير الكثـير مـن المفاهيم التى عشناها بعيدا عن العواطف ومثال ذلك الحديث المستمر عن مشـــروع قومى يلتف حوله الناس بحماس كبير وإيمان أكبر ؟

* بداية ألفت نظرك أن المسألة بالنسبة لى ليست أسماء أبطال، ولكن أحب فقط أن أقول أن أهمية أى زعيم تمكن من قدرته على استثمار ظروف العصر لصالح وطنه .. ونهاية الأربعينيات وتحديدا مع استقلال الهند واستقلال عدد كبير من المستعمرات وظهور عالم الدول الوسطى الذى سماه العالم المتقدم (العالم الثالث) .. وفى هذه الفترة وحتى أوائل الستينات كانت فترة الاستقلال العربى ثم الاستقلال الإفريقى ومصر كان لها فى ذلك الوقت مشروع لقيادة العمل العربى وقيادة العالم الثالث .. لكن اليوم، الكفاح من أجل الاستقلال انتهى .. واختفى الوجود الأجنبى .. وبدأ الكفاح من أجل حياة أفضل وبالتالى ففكرة المشروع القومى يحتاج لإعادة نظر .. بمعنى أننى موافق على مشروع قومى للتعليم، أو مشروع قومى فى سيناء، أو مشروع قومى فى توشكى، ولكن ما لا أوافق عليه أن يكون ذلك مخصوما من الدور المصرى فى العالم العربى، أو مخصوما من هذا الدور فى العالم الثالث أو من الجهود المبذولة لمواجهة إسرائيل .. فالدور المصرى ثقافى سياسى علمى حضارى .. وبصراحة ما صنع تأثير مصر أيام عبد الناصر هو دور مصر الحضارى سواء من خلال المعلم أو من خلال الأغنية أو الكتاب .. وأتذكر أيام وجودى فى المملكة السعودية والذى استمر أربع سنوات كيف كانت حلاقات المسلسلات التليفزيونية تسمى بالحلقات العربية .. وكانت تذاع مرة فى الأسبوع، وكان فى وقت إذاعة الحلقة لا نجد إنسانا يسير فى الشارع، ولم ندخل منزل أحد من زملائنا الأساتذة إلا ووجدنا اسطوانات عبد الوهاب وكتب طه حسين وكان البائع يقدم خصما فى سعر البضاعة إذا وعدته بإبلاغ تحياته لممثل مصرى يحبه !! .. وأذكر أنه فى ثمانينات القرن الماضى كان الطليان يحاولون الاستيلاء على "مصوع" فى إريتريا الآن بعد انسحاب المصريين من هناك- فأرسلت صحيفة "الأهرام" أحد أبناء مصوع ليكتب لها عن أحوال الناس، فكانت أول رسالة أن الناس تشكو هناك من عدم وصول صحيفة "الأهرام" لهم !! هذا الكلام من نحو مائة سنة، من هنا تكمن أهمية الدور ..

وبجانب ذلك أحب أن أقول أن الزمن لا يغير أيضا المفاهيم الكبرى أو المرتبطة بجوهر حق الناس ولتوضيح الإجابة عن بقية سؤالك أقول لك أن هناك فرقا واضحا مثلا بين الإرهاب والنضال فى سبيل الحق، فما تقوم به حماس فى الأرض المحتلة أو حزب الله فى جنوب لبنان هو عمل وطنى، بينما ما تمارسه الجماعة الإسلامية فى الجزائر هو إرهاب !!.

- ولكن فى مقابل رؤيتك لهذا الدور المصرى هناك من يرى أن الدور بهذا المعنى قد أضر بمصالح مصر ويقدم هؤلاء، مثالا على ذلك ما حدث لمصر فى اليمن التى ما زالت قضية موضع اختلاف بين المؤرخين .. وهناك فريق آخر يطالب بأن تدور مصر حول نفسها أو تقترب أكثر من أوروبا والعالم المتقدم وفريق ثالث يقول أن

حرب الخليج قد غيرت المنطقة وأن التغيرات الكبيرة التي وقعت لا تشجع دورا مصريا بالصورة التي طرحتها ؟

* كل هذه الأمور أو التفاصيل التي يتضمنها سؤالك قد تكون معوقة للدور ولكنها ليست قاتلة لهذا الدور المصرى، فحرب الخليج أدت إلى مؤتمر مدريد، وكنت عضوا فى وفد مصر فى هذا المؤتمر كنا نفكر ما هو دور مصر فى هذا المؤتمر ولاسيما أن مصر كانت قد أنجزت صلحا مع إسرائيل وبات السؤال ماذا سنفعل هناك ؟. وجاءت رؤية وزير الخارجية المصرى عمرو موسى واضحة وهو يقول إن دورنا خاص بمستقبل العالم العربى ولاسيما الحلقة الضعيفة وهى فلسطين .. وقال أن دورنا هو أن ندافع عن الفلسطينيين .. أيضا نتذكر أنه رغم اشتراك مصر فى حرب الخليج إلا أنه كان لها شروط فى مقدمتها ألا تدخل قواتها الأرض العراقية .. أيضا بالنسبة للسودان، ورغم محاولة اغتيال الرئيس مبارك لم يحدث رد فعل انتقامى .. أيضا عندما حدث الانفصال السورى عام ١٩٦٢ لم يكن هناك رد فعل معاد لسوريا.

كل ذلك يؤكد أن لمصر سياسة ثابتة على المستوى العربى، وهذا ما لم يفهمه صدام حسين .. إنها سياسة مستقرة منذ عبد الناصر إلى مبارك، والمرة الوحيدة التى كان فيها خروج على القاعدة عندما أرسل السادات قوة مهاجمة إلى ليبيا، وكانت عملية محدودة ومؤقتة وكان الهدف تكتيكيا. أما بالنسبة لقضية اليمن التى تستخدم من خصوم عبد الناصر كدليل على فشل سياسة مصر العربية، فإننى أقول أن قضية اليمن أكبر بكثير من اليمن لأن القضية كانت فى جوهرها الالتفاف حول العالم العربى التى كانت تقوده مصر .. وأيضا حرب ٦٧ كان من أهدافها إبعاد مصر عن اليمن .. وبالتالى عن منطقة الخليج وبعيدا عن مدخل البحر الأحمر .. وحتى نستوعب الأمر لابد أن نتذكر أن هذا السيناريو قد حدث تماما مع محمد على .. ففى أيامه وصل المصريون إلى شمال عدن .. فأسرع الإنجليز لاحتلال عدن بالكامل عام ١٨٣٩ ومن هنا جاءت ضربة ١٨٤٠ لوقف امتداد محمد على، ولم يعترض أحد على حركة محمد على أو يصفه بأى شئ .. بينما مازلنا نعاقب عبد الناصر لأنه قريب من زماننا، ومازلنا نقول أن مغامراته العربية هى التى أفقرت الشعب المصرى. ولكن الحقيقة أنه عندما مات كانت ديون مصر لا تتجاوز تقريبا العشرين مليون جنيه باستثناء الديون العسكرية التى كانت معدومة .. بينما ترك السادات مصر مديونة بأكثر من ٤٣ مليار جنيه !! فبالتالى هذا الكلام نوع من المغالطة التاريخية تدفع البعض لكى يقول أن مصر كانت دائنة لإنجلترا قبل ١٩٥٢ وهذا صحيح، لكن ما ننساه أن إنجلترا أثناء الحرب العالمية الثانية كانت تستخدم مرافق وموارد مصر كالسكك الحديدية أو الموانئ ولكن على الحساب ! وفى نهاية الحرب تراكم مبلغ من المال !! لكن ديون إنجلترا لم تكن بسبب منتج مصرى كان يتم تصديره لإنجلترا، وكان الميزان التجارى لصالحنا .. وحتى بعد الحرب الثانية

فاجأنا الإنجليز بأن أرصدتنا الإسترلينية مجمدة !! وبدءوا الدفع بالتقسيط الممل ! وكانت حجة الإنجليز أنهم كانوا فى الحرب يدافعون كذلك عن مصر !!

وهكذا نجدا أنفسنا أمام مغالطات تاريخية، لابد من التوقف أمامها ليس من أجل عبد الناصر ولكن من أجل مستقبل مصر، وبالتالى فإن فكرة العزلة عن العالم العربى تتفق مع الداعين لتحجيم دور مصر، وقد شاعت هذه الرؤية أيام السادات وتناسى وقتها بعض مؤيديه أنه ليس هناك تناقض بين دور مصر العربى ودورها المتوسطى، وأن يكون لها دور أفريقى أو إسلامى، ولكن المكان الطبيعى هو فى العالم العربى .. ولمصر دور عربى قديم تؤيده وقائع التاريخ، ولا يختفى إلا بحكم القوى الأجنبية. وهذه الأيام أعد كتابا لمركز الوحدة العربية فى بيروت عن موقف بريطانيا من الوحدة العربية، وقد تبين أن بريطانيا سعت لعزل مصر عن باقى المنطقة العربية وهذا من واقع الوثائق البريطانية، لذلك فإن الخطأ الذى ارتكبناه هو الاعتقاد بأن هناك بديلا للعالم العربى مثلما حدث أيام السادات.

صناعة أسطورية

– قد يرى البعض أن هذه الرؤية التى تطرحها تتغاضى عن الظروف التى حدثت فى المنطقة وشاركت أنت فى قراءاتها بحكم عضويتك فى الوفد المصرى فى مؤتمر مدريد الذى تمر عليه هذه الأيام ست سنوات، كما تمر على اتفاقات أسلو أربع سنوات .. ألم تتغير المنطقة ؟ وألا تتجاهل بحديثك هذا أن هناك شرق أوسط جديد كما يرى البعض .. أصبح بديلا للعالم العربى الذى مازلت تتحدث عنه بلغة الستينات؟ وألم تلحظ أن الحوار الذى يشغل الكثيرين هو كيف التعامل مع إسرائيل وليس كيف هو حال العرب ؟

* أنت تثير قضية دور إسرائيل فى المنطقة كما يتضح من بين سطور سؤالك .. وأقول أن إسرائيل غير قادرة على أن تحل مكان مصر. لأن المسألة هنا ليست أن إسرائيل هى الأكثر تقدما أو لديها الخبرة الاقتصادية، المسألة هى تاريخ لا تستطيع أن تصنعه إسرائيل .. وجغرافيا تحتلها مصر فى قلب العالم العربى، وقضية تأثير ثقافى حضارى تمارسه مصر وإسرائيل لا تستطيع أن تفعل ذلك. وبمعنى آخر فإن إسرائيل لا تستطيع أن تشترى تاريخا أو تبدل فى الغجرافيا لكى تكون بديلا لمصر. وبالمناسبة فإن إسرائيل هى صناعة أسطورية، وأتذكر قضية طابا .. وكنست مكلفا بجمع الوثائق التاريخية اللازمة لهذه القضية .. وعندما قدم الإسرائيليون مذكرتهم الأولى وقرأتها بسهولة جدا اكتشفت قدر الزيف وسوء استخدام الوثائق .. وأتذكر أنهم قدموا هذه المذكرة وأنهم يعتقدون أنهم قدموا شيئا يلفت الأنظار .. بالإضافة إلى أن لديهم فكرة سيئة عن التخلف العربى .. وأتذكر أننى بمجرد قراءة المذكرة

ابتسمت وكتبنا مذكرة مضادة كشفنا فيها أن الوثيقة التى اعتمدوا عليها أننا نعرفها جيدا وأنهم أساءوا استخدامها !! والإسرائيليون (شطار) فى صناعة الأساطير والمبالغة حولها، وموقفنا نحن أيضا يبدو غريبا فى كثير من الأحيان، فإما نهون من شأن إسرائيل كما حدث قبل حرب ٦٧ أو نبالغ فى قوتها مثلما حدث بعد المأساة .. ولكن بعيدا عن التهوين وبعيدا عن التهويل، فإن إسرائيل حجمها فى المنطقة أقل بكثير من حجم مصر .. وقد سمعت أن بيريز قال ذات مرة للدكتور أسامة الباز أن خريجى كليات الهندسة فى مصر أكثر من ربع سكان إسرائيل !!.

- البعض يبدو لديه رؤية أكثر تشاؤما من رؤيتك، ويقول أن القرن الجديد سيكون قرنا إسرائيليا على مستوى الشرق الأوسط كامتداد للقرن الأمريكى الذى يغطى العالم وأن العرب سيكون كلاعب دفاع فى أفضل الحالات فى المنطقة ؟.

* أتشكك فى ذلك ليس من منطق الحماس الوطنى. ولكن من خلال قراءة مفردات الواقع وعلى إسرائيل أن تعيش ثلاثة آلاف عام فى المنطقة حتى تستطيع أن تؤثر فيها !! وتوقعاتى أنها ستظل منطقة محدودة على البحر المتوسط ولها منفذ بسيط على البحر الأحمر، ولن تستطيع أن تصنع أو تصبغ عقولا لأن المسألة تحتاج لأمور شديدة التعقيد ! وفى هذا السياق فإننى لاحظت أن أحفادى لا يشاهدون شيئا فى القناة الإسرائيلية التى تجئ عبر الأقمار الفضائية باستثناء الكرتون ! لكن لا يوجد فيلم أو تمثيلية أو أغنية ! .. كذلك فالتقدم التكنولوجى ليس مقصورا عليهم، بل إن العالم فيه الكثير من أسواق التكنولوجيا ومراكزها متاحة أمام الجميع، والعلاقة مع إسرائيل فى المستقبل المنظور ستكون علاقة دولة فى المنطقة قبلنا بوجودها على أن تتخلى عن سياستها العدوانية وشعورها الاستعلائى وأنهم شعب الله المختار، وأن يتم تبادل المنافع معها مثل أى دولة أخرى، ولكننى ما زلت أرى أن تخليصها من الأسطورة يضعها فى حجمها الحقيقى، ولنتذكر أننا منذ مرحلة نعيش مع حكاية جلد الذات ولدينا شعور غريب بالدونية.

الاعتراف

- النخبة الحاكمة بالمعنى الواسع تنتمى لجيلك الذى يتولى المسئولية فى قيادة حركة المجتمع منذ منتصف القرن حتى اليوم. فما ملاحظتك على هذه النخبة ؟ وكيف تبدو بصمات جيلك على جبين مصر ؟

* هناك باحثة إسرائيلية لسوء الحظ درست صفحة الوفيات بـ "الأهرام" وخرجت بنتيجة مؤداها أن أغلب حكام مصر مرتبطين عن طريق المصاهرة، وكانوا يقولون دائما أن حكام مصر أعضاء بالضرورة فى نادى الجزيرة، وأتصور أن

الحلقات الحاكمة ستظل هناك درجة من القرابة تربطها .. أما سؤالك عن هذا الجيل الذى أنتمى إليه ومنهم تلك النخبة الحاكمة منذ منتصف الأربعينات حتى الآن وماذا ستترك خلفها ؟ .. ففى رأيى أننا أى جيلى لا نترك مصر فى حالة أفضل مما أتينا لها !! لأن كثيرا من القيم الإنتاجية وقيم العمل وقيم الإنجاز قد تدهورت .. ونحن كنا السبب فى جانب من هذه الجوانب لأننا انشغلنا بأنفسنا، ثم درجة التطور السريع الذى لم نستطيع أن نلاحقها كشفت عن عجزنا وتخلفنا .. وأظن أن مصر فى الأربعينيات كانت أفضل كثيرا بالنسبة للسياق العالمى منها فى التسعينيات !.. وليس ذلك بسبب أن مصر تأخرت. لا .. لكن لأن العالم تقدم بصورة أسرع وأكبر. فى نفس الوقت سافر المصريون لدول النفط وعادوا بثروات تم استخدامها ليس فى الإنتاج، بل فى شراء فيديوهات وسلع استهلاكية، كما عادوا بقيم محافظة لم تكن موجودة فى جيلنا وعمقت التفاوت الاجتماعى من جانب آخر.

خاتمة .. مرة

- عند هذه النقطة من الحوار، ألا تعتقد يادكتور أن جيلى من حقه أن يقف ويستشعر أن جيلكم يترك ميراثا مرا .. على مستوى القضية الديمقراطية، وعلى مستوى قضية التنمية، وعلى مستوى قضية التحديث ؟

* بالتأكيد .. ولك الحق فيما ذكرت .. ولهذه الأسباب قلت أن جيلى عندما ينسحب لا يترك المسرح أفضل حالا .. وأننا نترك خلفنا ثقافة أحادية لا تعترف بالحوار أو الاختلاف ورؤية تعتمد على التوافق والإجماع والثبات وليس على التمدد والتنوع .. لذلك يحدث هذا التيبس أو التجمد الذى يعوق تبادل الخبرات الإيجابية بين الأجيال ولا يزيح عن كاهل المجتمع أحاسيس الإحباط.

جلال أمين

يطلق النار برومانسية شديدة !

الطيران خارج السرب .. ليس جريمة .. لأن السماء واحدة ، والغناء خارج (المجموعة) ليس خطيئة لأن الحلم واحد ، والطيور الخارجة عن أسرابها لاترتكب فعلاً فاضحاً فى الهواء .. بل لعلها تمنح الهواء – فى أوقات تغير الفصول – قدراً كبيراً من الحيوية ، ومزيداً من الألوان التى تكسر العتمة .. والكثير من الشغب الذى ينبه السرب فى رحلته الطويلة لمخاطر خفية أو قناصة وراء أقنعة .

فى كل بلدان العالم .. كانت أجمل الطيور تلك التى انشقت على أسرابها .. تحلم وتغنى وتشاغب .. فى أمريكا ظهر فيلسوف لخبط أموراً كثيرة فى الستينيات اسمه هربرت ماركوز .. وظهر أديب كان يغرز أظافره فى وجه المجتمع هناك اسمه جيمس بولدوين .. وقبلهما وبعدهما أسماء أخرى كثيرة .. وفى إنجلترا تمرّد أوسكار وايلد فعاقبته الكنيسة ثم أعادته مرة أخرى مقروناً بالاعتذار ، وظل الأدب الإنجليزى يستخدمه للمباهاة .. وفى فرنسا اندلعت أسماء كثيرة تشاغب ومن أقربها للذاكرة رامبو وبات مع الأيام جزءاً مهماً من حيوية فرنسا التى تتباهى بها .. وفى مصر أسماء عديدة لامعة ، خرجت تكسر المألوف من طه حسين إلى يوسف إدريس .. ومن عبدالله النديم إلى بيرم التونسى إلى فؤاد حداد .. وكلها تدل على أن حيوية الوطن هى أن تستطيع طيوره أن تتمرد وتنمو وتطير بعيداً عن السرب وأن تحلم بصوت مرتفع .

والدكتور جلال أمين .. المفكر الاقتصادى والمثقف الحاصل على وسام العلوم والفنون فى السبعينيات عن كتابه البالغ الأهمية «تحديث الفقر» ، أحد هذه الطيور الحريصة على الطيران خارج السرب ، لايحمل على كاهله أعباء أيديولوجية (لا اشتراكية .. ولا رأسمالية) يحمل فقط عبء الحلم .. ويدفع تكاليف رومانسية تجذب الأنظار ، ويختلف فى الغناء عن الآخرين .. بل أحياناً يبدو وكأنه يغنى أمام المرآة لنفسه .. ولكنه مصر على أن يظل فى الغناء متمسكاً بالأمل فى الحفاظ على أمور جعلت شقيقه المفكر حسين أحمد أمين يصفه (بأنه مثل يهود القرن الثانى قبل الميلاد الذين ظلوا حريصين على الحفاظ على ما يسمى بالهوية الخاصة حتى تم اكتساحهم من قبل الرومان) !! .

* لابد أن يشعر البعض بقدر من الدهشة من هؤلاء المثقفين العرب الذين تربطهم علاقات وطيدة بالغرب وفى نفس الوقت فإنهم الأكثر حرصاً على إظهار الامتعاض والنقد لهذا الغرب .. حتى أن البعض تساءل : هل ذلك التشدد يعبر عن الحرج أم لغض الطرف من الآخرين أم ماذا بالضبط ؟ .. هذه الدهشة المقرونة بالتساؤل كانت بيننا - أنا والدكتور جلال أمين - مع أول فنجان شاى فى بداية اللقاء .. فالرجل حاصل على الدكتوراه من لندن ، ومتزوج من سيدة إنجليزية ، ويقوم بالتدريس فى الجامعة الأمريكية ، وزيارته لأوربا - بحكم المصاهرة والنسب - باتت دائمة .. وهو فوق ذلك لايمل الهجوم على الغرب بصورة تدعو للبحث عن الفهم.

** يضحك الدكتور جلال أمين من قلبه قائلاً : الحقيقة لاتوجد أية غرابة ، فبداية ، طوال عمرى كانت لدى شكوك تجاه نمط الحياة الغربى .. إنما طوال فترة وجودى فى إنجلترا لم أنشغل بذلك ، بل كانت قدراتى متجهة للتعلم والتعرف على الحضارة الغربية .. لكن مع مرور الوقت ، ومع زياراتى الكثيرة لأوروبا بعد حصولى على الدكتوراه ، تبلور لدى شعور قوى بالسخط على أشياء كثيرة فى هذه الحضارة .. وهذا الموقف كان له علاقة بأشياء حدثت فى الغرب ولم تكن موجودة قبل ذلك ، ولها علاقة بأمور حدثت فى بلادنا ولم تكن موجودة قبل ذلك . لقد أنهيت دراستى للدكتوراه فى منتصف الستينيات .. ويمكنك أن تقول إنه منذ هذا التاريخ بدأ معدل التغير فى المجتمع الغربى نحو الاتجاه الاستهلاكى يتسارع ويتصاعد بشكل ملحوظ . طبعاً صعب تحديد تاريخ لاندلاع الحريق الاستهلاكى ، لكن يمكن القول إنه مع النصف الأول من الستينيات كانت أوروبا أو الحضارة الغربية قد نجحت فى علاج جراح الحرب وعوضت مافقدته فى الحرب ودخلت مرحلة الرخاء العظيم ، وكان ماكميلان رئيس وزراء بريطانيا يقول للإنجليز: YOU NEVER HAVE IT SO GOOD «المسألة لم تكن أبداً بهذه الحلاوة» .. فى هذه المرحلة بدأ ظهور البيتلز ، ثم الهيبز .. وصاحب ذلك معدل نمو لم يشهده العالم من قبل مما خلق ذلك المجتمع الاستهلاكى الذى لم يشاهده أمثالى الذين كانوا هناك فى الخمسينيات ! . لقد صاحب هذا التغير الضخم ظواهر غريبة لم يعايشها أمثالى فى أوروبا آنذاك ، مثل سطوة التليفزيون، والإعلانات تزداد سطوة .. وكلما زرت أوروبا ولاسيما لندن ، كانت تظهر لى معدلات تغير عميقة . واقترن ذلك بالانفتاح المصرى الذى بدأ فى منتصف السبعينيات وشاهدنا المشاكل العميقة التى طفت على جلد المجتمع بسبب مايحدث من تقلبات .. وهنا - فى تقديرى - اقترن السخط على ما يحدث فى مجتمعنا بالسخط على مايجرى هناك !! وبات أن السبب فى الواقع هو أن هناك شيئاً سيئاً يفرض نفسه على العالم كله اسمه المجتمع الاستهلاكى ، يكتسح الثقافات والقيم والتقاليد وحاجات حلوة كثيرة جداً كانت لدينا فى الخمسينيات والستينيات تتعرض للاندثار بسبب هذا الاتجاه .

أما عملي في الجامعة الأمريكية بالقاهرة فيرتبط بظروف شخصية تماماً .. فقد كنت أقوم بالتدريس في جامعة عين شمس منذ حصولي على الدكتوراه ولمدة عشر سنوات ثم عُرضت فرصة للعمل في صندوق التنمية الكويتي وتحمست للتجربة وحاولت الحصول على إعارة من الجامعة ، ولكن رفض رئيسها آنذاك الدكتور إسماعيل غانم ، فسافرت من فوري وتم إنهاء عملي بجامعة عين شمس .. وظللت هناك أعمل في مناخ طيب حتى قررت بعد خمس سنوات العودة للقاهرة بالرغم من وجود عقد لدى لمدة خمس سنوات أخرى . في هذه الأثناء علمت الجامعة الأمريكية بالقاهرة بقراري بالعودة قبل وصولي مصر ، فعرضوا عليّ التدريس ، فقبلت ذلك .

أكثر من مكانته !!

* هناك حساسية مصطنعة هذه الأيام في رأى البعض تجاه العلاقة مع أوروبا ، لأن البعض يتناسى أن كوكبة التنوير في حياتنا الحديثة قد درسوا جميعاً هناك ، أو تأثروا بما أنجزته الحضارة الأوروبية حتى بدون سفر ، وموقفك أنت الآخر في حاجة للتفسير ؟ .

** الذين يذهبون للتعلم والتعرف على الثقافة الغربية يعودون بمواقف مختلفة . فهناك من يعود وفي فمه (غليون) وينظر للناس في بلده بقرف ويصفهم بالجهل وأن كل ما في حياتهم خطأ، وأن الصواب هو فقط الذي رآه هناك . وفريق آخر يعود كما ذهب ، لم ير شيئاً ، ولايتذكر شيئاً . وفريق ثالث أنتمي إليه يقول: يا جماعة المسألة ليست استبدال شيء بآخر .. المسألة تحتاج نظرة تحترم الواقع والخصوصية . المهم أن الفريق الأول ـ الذي يحتقر الواقع والناس في بلده ـ يمثل الأغلبية. وللأسف انضم لهؤلاء الدكتور زكي نجيب محمود . والحقيقة فإنه يحتل مكانة أكثر مما يستحق !! .. وفي اعتقادي أن الجزء الأكبر من حياته كان مخصصاً أو لصالح هذا الفهم الذي أنتقده في الفريق الأول الذي غرق في أحضان الحضارة الغربية . فقد ذهب زكي نجيب محمود إلى أوروبا وبالتحديد إنجلترا ووجد حكاية اسمها الوضعية المنطقية ، فعاد ليقول لنا نفس الموضوع . وقد كنت مفتوناً بكتابه عن الوضعية المنطقية ، ولكن عندما ذهبت إلى أوروبا وجدت كتاباً صغيراً صدر عام ١٩٣٣ للبروفيسور «إير» يضم كل هذه الأفكار ! وبوضوح أكثر وبثراء أكبر !! وأقصد بذلك إنه ـ زكي نجيب محمود ـ اتعمل فيلسوفاً كبيراً وهو يشرح حاجة بطريقة غير كاملة ومنقوصة ، وفي نفس الوقت يتعالى فكرياً علينا وكأن ما جاء به هو كل ما نحتاجه لإصلاح العقل العربي . والغريب أنهم هناك كانوا قد بدأوا يتراجعون عن الكثير من هذه المقولات ، في الوقت الذي كان قد بدأ هو ينشرها ويذيعها .. وكانوا قد بدأوا في أوروبا يدركون أن هذا البروفيسور «إير» قد وصل إلى أبعد مما يجب .

ولكن .. أحب أيضاً أن نفرق بين جيل أحمد أمين ومن جاء بعدهم مثل زكى نجيب محمود.. فلم يحدث أبداً أن فقد جيل أحمد أمين ثقته بالثقافة العربية مثلما حدث من زكى نجيب محمود . لقد دخلت هذه الثقافة في تكوينهم العصبى والنفسى . صحيح أحمد أمين والعقاد وغيرهما اطلع على الغرب وفُتن به ، لكنهم اطلعوا على الغرب الأوروبى وليس الغرب فى الخمسينيات الذى كان قد بدأ يأخذ الإيقاع واللون الأمريكى .. وترجيحى أننا سنكتشف بعد فترة أنه من الخطأ النظر للغرب كله كوحدة واحدة .. أكثر من ذلك أنه يبدو أن الافتتان كان يتزايد تدريجياً مع الغرب . فتوفيق الحكيم كان مفتوناً بالغرب أكثر من العقاد ، وافتتان العقاد كان أكثر من افتتان أحمد أمين ، وهكذا .. طبعاً لاننسى الدكتور طه حسين ، فقد كان حالة فريدة أيضاً فى الغرق فى الغرب ، ولكنه فى تقديرى لم يصل لما وصل إليه زكى نجيب محمود !! نعم .. فهذا الفريق الذى تطلق عليه «كوكبة التنوير» .. لم ير خصوصية الغرب ، وكانت فكرة التقدم عندهم معيبة ، وجيلى أنا لابد أن يفهم ذلك ! فنحن فى وضع يسمح لنا برؤية كافية تكشف لنا أن الأجيال السابقة خُدعت بفكرة التقدم .. ففى الوقت الذى بدأ فيه أحمد أمين والعقاد والمازنى وغيرهم فى الكتابة ، كانت الدارونية تكتسح ، وكانت آثارها فى الحضارة سائدة فى كافة المجالات ، وكان الفهم السائد أنه مثلما تتطور الكائنات من شكلها البدائى جداً إلى شىء متطور جداً هو الإنسان ، فإن الحضارة كذلك وبالتالى فإن آخر حاجة هى أفضل حاجة ، ولذلك فكلما أسرعنا بتقليد ما أنجزته أوروبا كان ذلك أفضل .. ورأيى أنا ببساطة غير هذا الكلام .. بمعنى أن الإنسان ممكن يتقدم فى حاجات ويتأخر فى حاجات تانية ، وأن التاريخ الإنسانى تاريخ تقدم فى حاجات وتأخر فى غيرها .. ولاداعى أن نتصور لأن وسائل تكنولوجياتنا ضعيفة أننا متخلفون !! .. فالخطأ الحقيقى الذى ضرب «التنويريين» العرب منذ أوائل القرن الحالى هو الاعتقاد فى فكرته العامة أن التقدم يشمل كل شىء ..

* من يقرأ بين السطور سيكتشف سريعاً — أو هكذا يقول البعض — أنك جعلت من الماضى أو صنعت من الماضى نماذج للتقدم والنهضة لانعرفها بالضبط .. وتعيب على كوكبة النهضة والتنوير سعيهم القلق للمستقبل الذى ما زلنا نبحث عنه حتى اليوم . إن أحاسيس العداء الشديد الذى تحملّه للغرب قد انسحب على الدارسين له . والحقيقة أنها مشكلة لأن هناك مثل شقيقك المفكر حسين أحمد أمين أو المستشار محمد سعيد العشماوى وغيرهما يرون أن إعطاء الظهر لإنجازات الغرب فى الحرية والمجتمع المدنى وحقوق الإنسان خطأ ضد التقدم ؟ .

** بداية .. هذا غير صحيح . فأنا لم أتخذ من الماضى معياراً . كلنا قلقون على المستقبل الذى يعتبر أهم مايشغلنا ، لكن أسعى لكى تكون لدى حرية أكبر لتحديد المستقبل .. الذين تسميهم كوكبة التنوير كانوا — ومازالوا مشغولين بالمستقبل ، ولكنه مستقبل وحيد تقرر بالفعل

وهو ماضى أو حاضر الغرب فعلياً . يعنى فولتير الذى هو ماضى الغرب يبقى رائع جداً لهؤلاء عندما يصبح مستقبلنا .. لا .. أنا لا أنتمى للماضى وهم لايعيشون فى المستقبل ، أنا مستقبلى وهم كذلك ولكننا نستعين فى تصور المستقبل بأشياء مختلفة . فالمسألة ببساطة أقرب لإنسان يعيش فى منزل ولم ير خارجه ، فبات يأخذ مافيه كمسلمات . فهذه الأفكار التى طرحتها ضمن سؤالك أعطاها الغرب معانى محددة وليست أفضل المعانى .. حرية إيه ؟ فين الحرية فى المجتمع الأمريكى ؟ شومسكى المفكر المعروف كتب مقالاً مهماً عن أن هناك حدوداً لما هو مسموح التفكير فيه !! .. فين الحرية عندما يشغلوننا ٩ شهور بقضية جى سمبسون وهل هو الذى قتل زوجته وعشيقها أم لا ؟ الحرية هى إيه بالضبط ؟ .. لقد فهمنا ياعزيزى الحرية أن يعطونا ورقاً ونضعه فى صندوق الانتخابات .. بينما اكتشف الأمريكان أنفسهم أن هذه المسألة خدعة ، وبدأت تتراجع نسبة المقترعين بعد اكتشاف أن هناك حزبين متشابهين والفرق بينهما تافه !! أنا أقدر أكلمك كثيراً عن الحرية وأقول لك أنها ليست بديعة بالصورة التى يعتقدها المستشار محمد سعيد العشماوى وأنه ممكن أن تكون هناك صور للحرية أفضل وبعضها عندنا ، يعنى التليفزيون المصرى ـ رغم كل سلبياته ـ يترك لى قدراً من الحرية أكثر من التليفزيون الأمريكى !! لأن هذا الأخير باتت كفاءته قيداً على الحرية بصورة خطيرة !! أى حرية تلك ؟ حرية أن يترك الابن أو الابنة الأسرة للحياة بعيداً .. ما هو البديع فى ذلك ؟ .. أقول لك لابد أن نقتنع بأن مصير الإنسان أنه كلما كسب بعض الحرية فى جانب خسر هذا البعض فى جانب آخر . فالحرية بالصورة التى يعتقدها البعض مستحيلة ، يعنى عايز أقول إن المجتمع الغربى ليس النموذج الذى يجب أن نلهث خلفه ولابديل من أن نسترد حريتنا .

العار

* ما هو معيارك فى قياس موقف المثقفين عامة .. ودعاة التنوير خاصة من النهضة ؟ .. وبمعنى آخر هل لديك معيار تنظر به لدعاة النهضة والعلاقة مع الغرب ؟ .

** نعم .. العار ، أو الشعور به هو المقياس .. فهناك طائفة من المثقفين لدينا عندهم شعور قوى بالعار ، بل أستطيع أن أقول إن الكثيرين من المسيطرين على الحياة الثقافية عندهم هذا الشعور ، وأقصد به الشعور الذى ينتاب الشخص الذى يزوره واحد خواجة ويشعر بالخجل لأن أمه تمشى بـ «القبقاب» .. بلاش «القبقاب» .. إنه ممكن يخجل لأن أمه «تزغرد» بالفرح !! .. علاج هذا الشعور صعب جداً وآثاره ضارة جداً ، وأبرزها أن يكمن داخل هذا الشخص الإحساس الدفين بالعار .. ويترتب عليه القبول بالإهانة واحتقار الذات والأهل بدون داع . إن تلخيص هذا المعنى يكمن فى النكتة الشهيرة التى تقول أن شخصاً

ذهب لإنجلترا وعاد ليقول : لقد وجدتهم متقدمين جداً إلى درجة إن «الشحات» يتكلم إنجليزى ! هذا الشعور سيطر بشدة على حياتنا ويتزايد .

* ما تفسيرك لهذه السيطرة التى تقول بها .. وكيف تدلل عليها بعيداً عن الرؤية النظرية؟

** تفسيرى يرتبط بزيادة سطوة وقيمة وأهمية الفلوس فى المجتمع .. أو بمعنى آخر أن كلمة الفلوس هى الحاكمة . هنا يتم الرجوع بكل شىء لدلالته المادية وليس القيمية .. يعنى من يقول أن السائح دائماً على حق وأن دولارات السائح هى الأمل الوحيد للنجاة ، يضع نفسه مباشرة فى علاقات قوى غير متكافئة ، ويترتب على ذلك مشاكل نفسية واجتماعية وقيمية عديدة . لكن تزداد الخطورة عندما يدخل المفكرون فى هذه الدائرة .. مثلاً مثقف مثل الشاعر أحمد عبدالمعطى حجازى ذهب إلى باريس وعاد ليعمل لنا زعيماً لايرى فى حياتنا حاجة حلوة أبداً . ياعزيزى .. زكى نجيب محمود فى كتابه «اللى طالعين به السما» فيه حاجات تدعو لضحك كالبكا !! . الراجل مفيش حاجة خالص عجباه فى حياتنا ، حتى اللغة العربية فى رأيه غير علمية !! أحلى مانملك ينظر له بتعال ويخجل منه ، هل هذا ممكن ؟ .

* ألا تشعر بقدر من التداخل بين رؤيتك للغرب من جانب ورؤيتك لرموز التنوير والنهضة فى بلادنا من جانب آخر ؟ .

** (شوف) مثلما تنفى الحضارة الغربية الثقافات الأخرى ، فإن هناك أناساً ينفون أيضاً الثقافات أو الرؤيات أو الطروحات الأخرى .. نعم ، هؤلاء ينفون وجودى أنا فى محاولتى للتمسك بتراثى وتقاليدى وهويتى الذاتية ، إنهم يشعرون بالعار فى مقابل فريق آخر يسعى للتخلص من هذا الشعور . نعم .. أقولها بصدق ، فأنا أقول لنفسى أننى اكتشفت العيب وأحاول التخلص منه ، وأكرر لك مرة أخرى أن طه حسين مثلاً كان يشعر بالعار من واقعه ويحاول القفز بعيداً عنه ومن هنا حاول العبث فيه من خلال ماكتبه عن الشعر الجاهلى .. وهذا الشعور لدى طه حسين كان أقوى مما لدى العقاد .

* تتحدث بحماس ضد الغرب ، ويشاركك فى ذلك الكثيرون ، ولكن بدون امتلاك معايير بديلة للتقدم ؟ .. إن الهجوم سهل ، ولكن الاستفادة من الآخر هى الصعب ؟ إنك تتجاهل واقع التخلف ولاتساعدنا فى البحث عن آفاق للتقدم ! .

** كلامك يقول إننى أحارب معركة خاسرة بالضرورة ، ويعنى أن كل من يقف ضد التيار لابد من اكتساحه . أحب بداية أن أقول إنك عندما تصف حالتى تقول بأننى متخلف ، وأنت بذلك وصلت لحل المشكلة !! لكن أنا أقول لك أنا غير متخلف ! أنت تحسم القضية قبل الوصول إلى حل ! ياعالم .. أنا فقير ، لكن صدقونى أنا مش متخلف !! بلاش أحكام قاطعة والسلام !! ..

أما حكاية أنه ليس لدى معايير للتقدم بديلة للمعايير الغربية التى أخذ بها دعاة التنوير فى بلادنا ، فهذا غير صحيح . ياعزيزى .. عاوز تقول لى أنه ليس هناك طريقة لقضاء وقت الفراغ إلا بالطريقة الأمريكية !! هل المسألة أظلمت لهذه الدرجة !! .. نعم الحضارة الغربية الحديثة عمرها ٥٠٠ سنة مثلاً ، لكن ماذا يعنى خمسمائة سنة فى حياة الأمم .. بمعنى آخر ، فإن الممكن وغير الممكن يتوقف على المدى الزمنى الذى تفكر فيه .. يعنى إذا كان لابد أن تُحسم خلال العشرين سنة القادمة قضية النهضة ، فأنا معك لابد من التسليم .. ولامفر من السير على كلام الأمم المتحدة الفارغ للنمو والاستثمار وصولاً إلى زيادة عدد ساعات الإرسال فى التليفزيون . لكن أنا لست مستعجلاً !! لأن القضية تستحق الانتظار .. لأن أى شىء يمس هوية الأمة لايمكن قبوله تحت أى مسميات . أنا لا أقبل أن يضيع منى المتنبى ولا أرضى بأن يُلقى أحد بلغتى العربية الجميلة فى سلة المهملات .. لا أريد موسيقى محمد عثمان تُحتقر ، ليس فقط لأسباب قومية أطالب بالحفاظ على هويتنا ولكن لأسباب إنسانية .

إنهم ــ أقصد دعاة التنوير ــ مشغولون بحرية الرأى أى المقالات فى الصحف ، أو معارضة النظام السياسى ، ولكن لم يفكروا فى ذبح ثقافة الأمة على مهل ! مثل هؤلاء فى الغرب يعرضون طلباً لحماية الحيوان ويذبحون البشر لأهداف عديدة .

* يادكتور خلال هذا الحوار هناك خيط رئيسى يمكن الإمساك به ، وهو أنك تدافع عن لونك.. عن طعمك .. عن ملامحك الخاصة .. وتريد أن تُقيم لها تمثالاً نحج إليه وهو ما يُسمى بالهوية .. أنت تتحدث عن خصوصية تبدو وكأنها جدار يفصلنا عن العالم .. فى الوقت الذى كتبت فيه متسائلاً عن ديانا .. امرأة لانستطيع العيش بدونها !! كيف ننسى ذلك وأن هناك سيدة بعيدة دمعت عيناها وهى تشاهد جنازة الأميرة العاشقة ، الرائعة الخائنة .. ولكن رياح العالم الجديد جعلتها تتعاطف معها ، إنها ثقافة جديدة تتجاوز الحدود فى زمن مختلف .. وتجعل البعض يتساءل ، ألا تحتاج المسألة بعض التواضع من الدكتور جلال أمين وآخرين فى قضية الهوية وغيرها من قضايا عديدة مماثلة ! .

** طبعاً كلامك كله صدى للمظلة التى يفرضونها فوق عيوننا .. كلامك كله يأتى من تحت مظلة العولمة . إن هذه المظلة تخفى أن فيه ثقافة معينة تكتسح .. ياعزيزى ماتشير إليه غير موجود، ليست هناك ثقافة عالمية ، ولكنها ثقافة الهامبورجر والجينز والكوكاكولا .. وغيرها ، إنها تكتسح العالم .. إنها رموز ثقافية وليدة مجتمع معين له خصائص اتساع السوق والوفرة الشديدة فى المواد الطبيعية .. إلخ . فضلاً عن شخصية المهاجر الأوروبى الذى عاش هناك .. هذه الظروف قدمت لنا الثقافة الأمريكية التى تهيمن اليوم لأسباب اقتصادية وتكنولوجية وليس لأنها الأفضل.. وليس مطلوباً منى فى نفس الوقت أن أبتلعها «بالذوق أو العافية» .

ثانياً .. بصراحة كده ، أنتم زعلانين ليه من الهوية ؟ ليه تقلق لما نقول ونصرخ حافظوا

على سماتنا الثقافية التى لا أقول عنها أنها أفضل أو أسوأ .. ولكنها مختلفة وعزيزة علىّ وأكره ضياعها .. وفى نفس الوقت فأنا واعٍ إلى أنه لاتوجد هوية ثابتة على مر العصور .. وحتى موسيقانا تضم عناصر عربية وتركية .. فأنا ياعزيزى لست ضد التغيير وأن تستزيد الهوية من عناصر وافدة جديدة تغذيها ، ولكن أنا ضد قهر الهوية مثلما جاء فى صياغة سؤالك.. الهوية تتغير بسرعتها الذاتية .. لكن لاتقهرنى !! .. هناك قهر مرفوض ! .

* هل يقودنا كلامك بنعومة شديدة إلى أن تقول: فى القرن القادم سوف تكون رايته الخفاقة على العالم هى راية القهر الملون .. أى القهر الناعم اللذيذ والقاسى ؟ .

** بالضبط .. بالضبط .. هذا هو المعنى .. ويشرح هذا المعنى ويقربه أديب إنجليزى هو الأقرب إلى قلبى ، إنه چورچ أورويل وكثيراً ما أذكره .. وكثيراً ما أشعر أنه يلح على خيالى ونحن نتجادل الآن حول القلق الذى جئت تفتش عنه عندى أو فى الحياة على أبواب قرن جديد .. هذا الأديب لم تكن مشكلة الهوية مطروحة بالنسبة له لأنه عندما كان يستعد للموت فى نهاية الأربعينيات لم تكن ثقافته مهددة مثلما يشعر الفرنسيون الآن .. لكنه كان قلقاً على مستقبل العالم من زاوية القهر .. وروايته (١٩٨٤) تشرح ذلك بوضوح .. ولم تكن المسألة اشتراكية أو رأسمالية ، ولكن المسألة هى المحاذير من أن التقدم التكنولوچى يقهر الإنسان .. إذن ليست ثقافتنا فقط التى أشعر بالقلق عليها ، ولكن الثقافات كلها .. المفكر الدكتور سمير أمين له عبارة جميلة وهى أن الرأسمالية هى نفى الثقافة أصلاً !! فالهامبورجر إحلال ثقافة مكان أخرى .. بل محو للثقافة !! علشان كده أنا عايز أقلق ليس فقط على هويتى الإسلامية العربية المصرية .. ولكن على هويات كل الناس ، وهذا يعطينى أمالاً أكثر .. نفسى أصرخ وأقول ياأصحاب الهويات المختلفة اتحدوا !! القضية هى قضية الإنسان فى كل مكان بما فيها الإنسان الأمريكى .. لأن أحلى ما فى الثقافات الأمريكية والفرنسية وغيرها معرض للضياع والانسحاق .. وكبار المثقفين الأمريكان قلقون من المجتمع الاستهلاكى التكنولوچى مثلى تماماً.

* قد يظن البعض مما تقوله فى ثنايا الحوار أننا كثقافة إسلامية عربية فى تضاد أو نزاع مع الآخر.. فى الوقت الذى ترتفع فيه رايات الحوار والبحث عن جسور للتلاقى مع نهاية قرن تم الإعلان فى منتصفه الأول عن أن العالم قرية إلكترونية وتم فى نهايته تدشين عصر المعلومات الذى يكتسح الحدود القومية ؟ .

** أحياناً أفهم من كلامك أن ما أقوله مستحيلاً .. وأحياناً أفهم أنه «لايصح» ! والحقيقة أننى لست ضد الآخر ولكن لى حرية حماية نفسى من الآخر .. وفى كل مراحل التاريخ لابد «إنهم» يجندوا بعض مفكرين مثل فوكوياما من أجل أن يبرروا الاكتساح الجديد الذى يحدث فى العالم .. وفيه مصالح عالمية تعمل غسيل مخ عالمى حتى يعتقد الناس أن ما يحدث

(كويس) ولامناص منه .. حضارة جديدة إيه بالضبط ؟ وأية ديمقراطية تلك التى يتحدثون عن أنها تنتشر. انظر ماذا فعلوا بحقوق الإنسان وبالديمقراطية عندما اختلفت مع مصالحهم .. صدقنى إنها ترسانة من الكلام لإخفاء الحقائق .. علشان كده مفيش حاجة تصيبنى بالحزن مثل موضوع الشرق الأوسطية الذى يأتى فى هذا السياق ..

مش عاجبانى ..

* السطر السابق يشى بالخروج عن الواقع الجديد الذى اعترف به البعض ، وأقصد به خريطة ترحب بإسرائيل كواقع فى جغرافيا يطلق عليها الشرق الأوسط الجديد ؟ .

** ما العيب فى خروجى على ذلك ؟ أنا أرى إسرائيل وأرى وجودها ، لكن «مش عاجبانى».. فهناك فرق بين عدم رؤية الظاهرة ، وبين الإعجاب بها .. ودائماً أتساءل : هل يجوز لشخص ألمانى أن يأتى ويقول بعد هزيمة بلاده: والله يا جماعة هذا التقسيم هو الحلم الذى كنا ننتظره. أم أن الطبيعى أن يقول أن التقسيم شىء مرير وسنظل نحلم بعودة الوحدة الألمانية مثلما تحقق بعد ذلك ! . للأسف المثقفون المؤيدون للتطبيع يتحدثون وكأن الشرق أوسيطة كانت دائماً الأمل المنتظر .. ويتحدثون عما سيعود علينا ــ كعرب ــ من التعاون مع إسرائيل ، وللأسف لايفرقون بين قبول الأمر الواقع على أنه شىء عظيم جداً .. وبين قبوله وأن نظل نحاول تجاوزه .. للأسف المثقفون المؤيدون للتطبيع يقولون أن هذه مسألة عظيمة جداً وأن التعاون مع إسرائيل كله خير .. وهذا يجعلنا نقبل أكثر مما يفرضه الواقع علينا لأننا بهذا المنطق جعلناه الأمل الذى كنا ننتظره !! .. يا أخى ، حتى لو اضطررت للتعامل التجارى مع إسرائيل ، فمن حقى أن أرفض أن يغيروا لى المقررات الدراسية لأولادى .. (ستقول لى إن هذه أيضاً حتمية لايمكن التخلص منها).. ياجماعة فيه حدود !! مش معقول أن نجيب محفوظ دائماً يرد فى هذه المسألة ويقول : مفيش بديل .. وينسى أن سياسة لابديل تجعلك تقبل كل شىء . نفرض أننا لانستطيع أن نحارب إسرائيل .. لكن فيه حاجات نقدر فيها نقول : لا .. مثلما قلنا «مش هنروح الدوحة» ، الاعتراف بالواقع ياجماعة لايمنع من أن نقول إنه كريه !! .

* البعض يرد علينا بأن اعترافك بالواقع لماذا لايكون الخطوة الأولى فى التفاهم ، أو بمعنى آخر الخروج من دائرة الصراع إلى دائرة التعاون المتبادل فى قضايا مشتركة ؟ .

** الذين تقول عنهم «البعض» هم دعاة التطبيع وهم يقولون مالايعتقدون .. فالمسألة أوضح من أن تكون غامضة على من هم فى ذكاء هذه المجموعة . ولا أصدق أنهم لايدركون خطورة إسرائيل ، ولكنهم يصدرون فى دعواهم أو كلامهم عن نيات خبيثة .. فتاريخهم وأعمالهم تدل على ذكاء حاد وعلى مشكلة فى الأخلاق !! .

* جعلت مسألة التطبيع مع إسرائيل مشكلة لدى بعض المثقفين .. وتجاهلت ــ فى رأى

البعض ـ أن التطبيع صار لغة سائدة من المشرق العربى إلى المغرب العربى والفروق تكمن فى هبوب رياح غير مواتية ، وليس فى الجذور والأسس الجديدة التى نشأت فى المنطقة منذ سنوات طويلة ؟ .

** ردى أن هذا الكلام يتوقف على: آمالك إيه ؟ وأفقك الزمنى إيه ؟ .. أنا لم أفقد الأمل أبداً .. وهذا عكس دعاة التطبيع الذين لايشغلهم الأمل أو اليأس ، ولكنهم مشغولون بالمنفعة الشخصية .. وعكس فريق آخر من دعاة التطبيع من باب اليأس .. لكن أنا أكرر: إننى لدى أمل دائم ، أو تحديد مختلف للمسئولين .. فمسئولية الكاتب ألا يكذب ولايصف ظاهرة بأنها زاهية وهى مظلمة . وأيضاً يمكنه أن يعترف بأنه قليل الحيلة ، ولكن لايقول أن الأجيال القادمة كلها قليلة الحيلة . قد أكون ككاتب غير قادر على أن أفعل شيئاً ، ولكن لايعنى ذلك أن أرسم صورة وردية لحاجة بالغة القبح !! .. ياأخى فيه شباب كثير «جاى» يمكن يطلع منهم واحد جدع !! من أين أعرف .. ليس لدى أمل أن أصل إلى شىء فى حياتى ولايمكن فى حياة أولادى .. لكن الدنيا لم تنته ! .. ومسئوليتى أن أقول الكلمة الصح .

* لابد من قطع .. هنا ، لأن أكثر من صوت سيتساءل الآن عن أنك تتكلم وكأن التاريخ فى انتظارنا نحن لتعديله ؟ .

** أعرف ذلك .. ولكنى أسألك إيه الفرص التى تشير إليها وأنها ستضيع ؟ .. علشان كده موقفى من الغرب والتغريب لاينفصل عن موقفى من الدعوة للتطبيع مع إسرائيل .. لأنى لو قبلت التغريب فأنا ذاهب لإسرائيل بكرة !! .. طبعاً أكون خُنت الفلسطينيين ، لكن باستثناء ذلك فإن قبول التغريب يدفعنى للصلح معهم ، لأن التغريب فى رأيى كله تبعية ..

الإنسان .. القرخة !! ..

* بمناسبة التبعية .. تشعر بضيق من كثرة الحديث عن قضية التنمية والدعوة لها وأنت رجل اقتصاد .. ما العيب فى «التنمية» من وجهة نظرك ؟

** أنا لاأشعر بالضيق إلا بسبب تجاهل بعض المسلمات لدى المثقفين وبخاصة الاقتصاديون .. وقد كتبت ذات مرة أحذر من تجاهل القضية الحضارية فى مسألة التنمية التى يستخدمها البعض لتجاهل أغلى مقومات ثقافتنا .. فالإيمان بالله فى نظر اقتصادى التنمية المحدثين قدرية لاتساعد على التقدم !! والولاء للعائلة ليس مهماً .. والكلام إسراف .. والقناعة مدعاة للركود !! والتعاطف مع الغير مضيعة للوقت . إن شخصية الأمة جديرة بأن نحافظ عليها ولانتركها عرضة لاهتزازات السوق كأية سلعة .

* تتكلم وكأنك تستخدم لغة غريبة عن أيامنا هذه .. ففى لغتك سمات أو رائحة أيديولوجية ـ وبالرغم من معرفتى أنك لاتحمل على ظهرك أعباء اشتراكية أو رأسمالية .. ولكن هذا ما

يبدو .. لذلك .. يهمس البعض لك: لماذا لاتساعد فى أن يلتف المجتمع وهو يأخذ طريق النهضة حول راية (التكنولوچيا) حتى نستطيع أن نحتل مكاناً إنسانياً لائقاً بين العالم ؟

** تتحدثون عن التكنولوچيا كثيراً هذه الأيام .. ولكن لماذا ننسى أن التكنولوچيا هى طريقة صنع الأشياء .. وسؤالى الدائم هو أى هذه الأشياء التى ترغب فى استخدام التكنولوچيا فى صنعها ؟ مدن كبيرة أم مدن صغيرة ؟ .. تعمير الصحراء أم تعمير الساحل الشمالى بالطريقة التى تم بها التحول إلى أسمنت وحديد .. أنا لست ضد التكنولوچيا .. ولكن مع سؤال : نعمل بها إيه ؟ ورأيى .. أننا نعمل بها مالا يتعارض مع جوهر وجودنا مع ذاتيتنا مع سماتنا الإنسانية الحضارية .. مع جوهرنا .. ثم بعد ذلك ألا يترتب على استخدامها استغلال للإنسان .. لأنه ممكن تطبيق تكنولوچيا عالية جداً ومعها تقوم بمسخ للهوية مثلما حدث فى الساحل الشمالى .. حيث عملنا منشآت فى غاية القبح .. ليس لها علاقة بطرازك المعمارى وحجبت البحر ولوثت البيئة فى سبيل بعض الناس يذهبون إلى هناك شهراً فى العام !! وبعيداً عن الأمثلة .. أنبه إلى أن التكنولوچيا كلمة تحمل الأوهام مثل العولمة حتى أننى فى أحيان كثيرة أقول ليس لدى اعتراض على العولمة بشرط أن تسود ثقافتى أنا !! .. والادعاء بأن الالتفاف حول التكنولوچيا هو السبيل الوحيد كلام غير واضح !! .. وحتى الذين يستندون فى ذلك إلى أن الأيديولوچيا سقطت فى العالم كلامهم غير دقيق .. لأن الأيديولوچيا .. هى أسلوب للنظر للحياة .. ولها معايير أخلاقية وميتافيزيقية وغيرها .. وهذه لايمكن أن تنتهى .. ولامصلحة لأحد أن تنتهى .

* ولكن هناك من يرى أنك بذلك تتجاهل لغة المصالح التى يبدو أنها هى الأساس اليوم .. حتى أن (البيزنس) كاد أن يصبح السهم الذى يشير إلى الطريق السريع للقرن الجديد ؟

** ياعزيزى .. البيزنس أليس أيديولوچية ؟ .. بعضنا ينسى ذلك .. أتذكر فى هذه السياق فيلم البحث عن الذهب لشارلى شابلن عندما حوصر هو ورجل آخر ضخم الجثة فى موقع هبت عليه عاصفة ثلجية .. ومر بهما الوقت وهما يشعران بالجوع .. فكان الرجل الضخم هذا ينظر لشارلى شابلن ويتخيله (فرخة) وعندما يهاجمه ليأكله يجرى شابلن للفرار بنفسه .. هذه أيديولوجية والبيزنس هو ببساطة أن تنظر للآخر فتجده (فرخة) للأكل !! وأن تشاهد منظراً جميلاً يطل على البحر فلا تفكر فى كيف يسعد به الناس ولكن فى كيف تُشيد فندقاً مرتفعاً ليحقق أعلى دخل ممكن . أليس البيزنس أيديولوجية ؟ .. وفى تقديرى الشخصى أن أيديولوچية البيزنس من أحقر الأيديولوچيات .. وعمرها فى أوروبا لايتجاوز الخمسة قرون .. وهى نظرة واحدة للأمور .. لهذا أقول إن توسيع الأفق الزمنى مهم جداً .. لو حصرنا أنفسنا فى الخمسمائة سنة فقط لاعتقادنا أن البيزنس هو الحقيقة الوحيدة التى تستحق أن نفكر فيها!! .. صدقى باشا كتب ذات مرة فى الثلاثينيات ساخراً يقول أن شخصاً ذهب لشراء

قماش فما كان من التاجر إلا أن قال له أنا بعت كفاية اليوم .. يمكن الشراء من التاجر المجاور .. وسخر صدقى باشا من ذلك لماذا ؟ لأنه اعتبر تعظيم الربح هو الحقيقة الوحيدة بغض النظر عن أية اعتبارات أخرى .. هذه رؤية (البيزنس) ثم بعد ذلك نجد من يقول لنا أنها الأمل المراد !! وهذا يرجع إلى أن معدل زيادة انتشار هذه النظرة قد زاد العشرين سنة الأخيرة ، وقد اكتسحت العالم العربى هذه النظرة مؤخراً والتى ظللنا نحاول أن نتجنبها طويلاً ونحمى أنفسنا منها ؟

* الانطباع الذى يأتى للبعض من كلامك أنك مع الثبات ضد الحركة ومع الأمس ضد الغد .. بل أكثر من ذلك هناك من يرى أنك مع آخرين كنتم وراء تكريس ثقافة أصولية جعلتنا فى مجتمع ينظر البعض فيه للخلف باستمرار والبعض الآخر يبحث عن طريق للأمام باستمرار من أجل التطوير والنهضة ؟

** بداية، من قال إن الحركة أفضل ؟ .. هذا مفهوم يعود للقرن الثامن عشر الأوربى .. لأن قيمة الحركة تتوقف على توجهها .. أى إلى أين تسير .. وفى أمور معينة أرى أن الثبات حفاظ على الذات أفضل من حركة تضيع معها معطيات وجودى وأذوب !! أما بالنسبة لحكاية النهضة والتطوير .. يعنى بطريقة كلامك والضغط الواضح بين السطور والمعانى لازم أنا أتنازل .. من أين جعلتهم دعاة تقدم وجعلتنى أنا من دعاة تأخر .. إن موقف هؤلاء الذين تشير إليهم على أنهم دعاة حركة ونهضة بالغ الغرابة والسوء .. والمستشار محمد سعيد العشماوى كنموذج لهم كتب الكثير فى مجلة أكتوبر من موقع أنه من دعاة نهضة وهو فى الحقيقة يبرر التعامل مع إسرائيل – أو يخلق أسباباً تؤدى إلى التطبيع مع إسرائيل .. لماذا ترى فى هؤلاء دعاة نهضة ! ياعزيزى من تتكلم عن أنهم أصحاب دور للتقدم والنهضة .. معظمهم يلعب دوراً «سيئاً» جداً .. كتبت كثيراً عن هؤلاء الذين يرفعون شعار التنوير .. فلفظ التنوير (حلو) .. هو فيه حد يحب الظلمة !! ..

الغريب أن بعض دعاة التنوير عندهم شجاعة الهجوم على الدين والتراث وليسوا كذلك فى مواجهة الفساد أو ضد إسرائيل .. لقد جعلوا قضيتهم (متأسلم ومش متأسلم) وكأن هذه الحكاية هى كل شىء .. يتجاهلون قضايا المجتمع الحقيقية .. وحربهم المقدسة أو الأساسية ضد الإسلام وهم يظهرون أمام الحكومة أنهم معها .. وأمام الغرب أنهم مستنيرون فتتم دعوتهم للمؤتمرات ويصبحون نجوماً أمام أجهزة الإعلام .. طبعاً هناك أسماء جديرة بالاستثناء من هذا الكلام .. ولاأقصد التعميم . ولكن أتكلم عن ظاهرة .. لذلك أستثنى مثلاً الدكتور فؤاد زكريا .. فهو رجل مخلص ولايطمح فى أدوار النجوم ولم يصمت على أية ظاهرة سلبية فى المجتمع ..

* هل أفهم من ذلك أن نقطة الضعف فى قضية التنوير أنها ليست قضية شاملة وأنها فى

مـأزق بسـيب وقـوفـهـا فى خندق الحـرب ضـد الدين والتـراث والدعـوة للتـحـرر من الثـوابت الحضارية وكأن التقدم هو التحلل من كل شيء والانطلاق فى فضاء لانهائى ؟

** بالضـبط .. هذا هو مـاأقـصـده .. ولاسـيـمـا أن هناك بين المتـدينين من يسـتطيـعـون المسـاهمـة بفـاعلية فى قـضـيـة التـقدم التى جعلوهـا للأسف تدور فى تقليد الغرب ومـهـاجـمـة الإسلام وفى أحيان أخرى التعاون مع إسرائيل .

* ولكن فى هذا السياق هناك قضايا أخرى جديرة بالفعل بالاهتمام حتى أن أحدهم علق على ما كتبته حول (إيه حكاية المساواة بين الرجل والمرأة) قائلاً : إن الدكتور جلال يعيش فى برج عاجى ولايعرف معاناة المرأة المصرية .. ولو عرف لتغير رأيه نحو هذه المرأة ؟

** أظن أن فى هـذا الكلام الكثـيـر من الحق .. وقـد شـاهـدت فـيلمـاً للمـخـرجـة عطيات الأبنودى ـ بعد كتـابتى لهذا الكلام ـ وشـعـرت بالندم والتـأثر، أنا ظللت أفكر حقـيقة فى هذا الموضوع من زاوية المعنى الحقيقى للمساواة .. وأن المرأة يمكن أن تكسب مساواة من ناحية وتخسرها من ناحية أخرى .. لكن لدى عيب لابد من أن أعترف به وهو أننى معزول .. منذ أيام ركبت مترو الأنفاق لأنه الأسرع ولكنه توقف فى محطة (مارى جرجس) واضطررت لترك المترو للبحث عن تاكسى فى الجهة المقابلة .. وشـعـرت ـ للأسف ـ بأننى أشبه بسائح، وأعترف أن هذا خطأ .. ويؤدى إلى خطأ !! ولكن اسـمح لى أن أركز فى كلامى على مـعنى .. وهو أن مشكلتى أننى أعرف جيداً وبعمق أننا نبالغ فيما نحاول نقله عن الغرب .. وهذا يجعلنى أشعر بالحسـاسية .. وفـى مسـألة المرأة .. نحن نبالغ فيمـا تتمتع به المرأة الغربية من حرية .. لقد حققت حريات فى أشياء .. ولكن تم استعبادها فى ظروف أخرى .. فهى ترتدى ما تشاء من ملابس وتمارس حريتها الشخصية كما تحب قبل الزواج .. ولكن تدفع ثمن ذلك عندما يجرى استغلالها فى الإعلانات أو مطالبتها بالعمل كالرجل فى المهنة .. والعمل كزوجة ناضجة وأم فى المنزل .. أيضاً مازلت مصراً على أن المساواة كهدف أخذناه من الحضارة الغربية .. بينما العدل أفضل ـ فالمساواة فكرة ميكانيكية .. ويدور فى ذهنى أنها تعبير عن المجتمع الصناعى .. بينما بيولوجياً .. ممكن يكون جزء أكبر من جزء .. يعنى فى الأشياء الميتة المساواة هى المطلوبة .. ولكن فى الأشياء الحية فإن العدل هو المطلوب .. إذن ففى علاقة الرجل والمرأة نحن نريد العدل ومعناه أن تعطى كل شيء ما هو جدير به .. والحقيقة أن فكرة المساواة أحياناً تبدو كفكرة (عبيطة) .. بس ياريت الناس تفكر فيها ..

ميلاد مثقف جديد

* أنت فى الثانية والستين من العمر .. ويدور جيلك فى هذه الحلقة من العمر .. ومازال هو

الذى يتحرك بنشاط .. لكن هناك سؤال لابد أن نواجهه أو نسأله نحن ـ كجيل آخر ـ له .. هل يترك هذا الجيل الواقع خلفه ـ بعد وقت طال أو قصر ـ أفضل حالاً ؟

** لاأستطيع أن أقول أن جيلى عمل أشياء بديعة .. لأن المسألة هى مواجهة بين ظروف .. والقوة الذاتية .. والظروف كانت قاسية قوى .. داخلياً وخارجياً .. لو أنك سألتنى هذا السؤال فى منتصف الستينيات لقلت لك أن هذا الجيل عمل أشياء لابأس بها .. الخمسينيات والستينيات كانت حنونة وعطوفة ليس فقط على مصر والعرب والعالم الثالث ولكن على العالم كله .. لكن من ثلاثين سنة الظروف أصبحت قاسية على العرب وعلى العالم كله .. وجيلى شارك فى الصالح والطالح .. ولكن دعنى أتذكر معك .. كان أساتذتى فى الجامعة هم الدكاترة الكبار زكى شافعى وسعيد النجار وحسين خلاف وغيرهم من العظام ـ وقد أدوا وظيفتهم بطريقة جيدة جداً على اختلاف مشاربهم . جيلى أنا لم يؤد الوظيفة أو الدور بنفس الجودة ليس لأن معدننا أسوأ .. لكن الظروف باتت بالغة القسوة يكفى أن نذكر لفظ (التضخم) السريع الذى بدأ فى منتصف السبعينيات قلب الدنيا كلها .. لم يعد الإنسان مطمئناً لمستقبله .. و (لخبط) تقييم الناس للأمور ولبعضها .. وأصبح القلق هواء يتنفسه الجميع بلا استثناء ـ وتمزقت الأسر .. وباتت الهجرة الاضطرارية ظاهرة .. وبدأ الأب يشعر بالخجل من أولاده .. وبات الأبناء يحسون بالخجل من الآباء .. التضخم أفسد الحياة وهذا معروف فى التاريخ الاجتماعى للشعوب بأن آثاره ـ أقصد الارتفاع المفاجئ والمستمر فى الأسعار ـ قاسية على الأوضاع الاجتماعية .. حتى أن فلاسفة الاقتصاد قالوا : إن أسوأ ما يصيب أى حضارة هو التضخم الجامح .. أيضا يعانى جيلى هزيمة ٦٧ التى أحبطت الآمال وأدت إلى الشعور بخيبة الأمل وموت نجوم لامعة من صلاح جاهين إلى صلاح عبدالصبور .. إلخ ..

* هل أفهم من كلامك أيضاً أنه إعلان عن موت نوعية من المثقفين وميلاد مثقف آخر ؟

** بالتأكيد مات مثقف ، وتم ميلاد مثقف مختلف .. فمات نموذج الدكتور جمال حمدان محترقاً .. وأصبح فى تقديرى رمزاً لمثقف يختفى من حياتنا مع التغير السريع .. نفس المنطق يحكم اختفاء يوسف إدريس الذى ظل يبدع ثم توقف وبدأ يكتب مقالات وانتهى !! ونفس المنطق يحكم من هاجر إلى فرنسا .. وعاد بصورة مختلفة .. أو هاجر إلى العراق ثم إلى لندن ولم يعد .. وآخرون ذهبوا للخليج .. وهكذا كان الاختفاء هو القانون الذى صدر فى حق هذه النوعية من (المثقف) وهذا ما حدث بالضبط .. اليوم هناك ميلاد لآخرين .. ولكن أترك لك أنت أن تقول من هم !! وأى فراغ يسدون .. وعن أى معنى يبدعون أو يفكرون .. ولأى هدف يسعون .. وأى درجة من التحقق والتوهج والإبداع يحققون !! أسئلة مطروحة .. قد تعنى وجود حالة جفاف .. ولكن ليس لأن الأرض عاقر .. لا .. هناك مواهب ، ولكن مطحونة على يد الجيل الذى احتكر المقاعد الحضارية أو المتقدمة فى المجتمع بصفة عامة .. ولايسمح لهم إلا

بشق الأنفس للمرور فى كافة المجالات .. إنها قضية بالفعل ـ ومما يدعو للتذكر للاستفادة أن جيل أحمد أمين والعقاد تربى على أيديهم نجيب محفوظ .. وحدث ذلك من نجيب تجاه اللاحقين ولكن هناك ظروفاً أقسى من ظروف ونحن من عانى هذه الظروف التى تجعل من عملية نقل المشعل أو الراية تجعلها أصعب لأن هناك أسباباً تصيب الناس (بالدناءة) وتشجع التسلق بحيث أن ضريبة النجاح باتت غير أخلاقية بهذا المعنى .

* هل تستطيع أن تتجاهل هذا الحوار .. الكلام فى الاقتصاد .. هل يمكن أن يكون الكلام فيه عن الناس وبعيداً عن الكلام الصعب الذى يقوله الاقتصاديون ولانستطيع نحن البسطاء تفسيره .. بداية أنت صاحب كتاب مهم حصلت بسببه على وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى وهو بعنوان (تحديث الفقر) .. وأنت عاصرت رغبة مجتمع عربى فى التنمية .. ومازلت تعيش حتى اليوم ونحن نلهث خلف هذا الحلم .. ببساطة .. أحب أسألك لغير المتخصصين .. أين مفتاح الرفاهية ؟ .. وهل يمكن أن ندخل القرن الجديد ونحن على طريق تنمية أفضل .. وحياة بالتالى أكثر سعادة نكون فيها قادرين على الاختيار أكثر بين سلع أو أنماط حياة أو مستويات معيشة ؟

** للمرة الثالثة .. يصمت الدكتور جلال أمين ويطلب إغلاق جهاز التسجيل ليعود من رحلته الذاتية ليقول : بداية وحتى نقطع الطريق من الأول فإن مفتاح الرفاهية ليس فى يد الاقتصاديين .. إن هذه الفئة تتمتع للأسف بأعلى درجات التبجيل ويعيشون بيننا بأبهة فارغة فالاقتصادى وهو يبحث مثلاً عن أثر الاستثمارات الأجنبية فى الدولة الفقيرة يسمح لنفسه بتجاهل أثر هذه الاستثمارات على توزيع الدخل فى الدولة المستقبلة لهذه الاستثمارات .. وعلى استقلال الدولة الاقتصادى والسياسى وعلى حالة البيئة وعلى أخلاقيات المجتمع الفقير وعلى قدرة المجتمع على الاحتفاظ بقيمه الخاصة وتقاليده ـ ويعتذر الاقتصادى عن عدم مناقشته لهذه الأمور لأنها ليست فى مجال اختصاصه .. وفى تقديرى أن الاقتصادى يتجاهل هذ الأمور، والهروب منها قد أضر بالرفاهية الاجتماعية بدلاً من أن ينفعها .. فالاقتصادى ينسى أن الإنسان كائن غاية فى التعقيد وقد يقوم بتصرفات اقتصادية هى أبعد ما تكون عن العقلانية فيشترى من السلع ماليس بحاجة إليه ويتأثر بسلوك جيرانه وأقرانه، إن مفتاح الرفاهية وتحقيق السعادة والتنمية ليس فى الاستهلاك غير المحدود لمنتجات لاتحقق فائدة حقيقية والدليل على ذلك أه المنتجين يبتدعون الوسائل التى من شأنها أن تحيل حرية المستهلك فى الاختيار بين سلع متعددة إلى علاقة إرغام من ناحية وخضوع من ناحية أخرى وليس من السهل الفكاك منها ـ والأمثلة عديدة فالرجم لاتكتمل رجولته إلا إذا ارتدى ثياباً من نوع معين، والعطش لايرويه إلا الكوكاكولا، والسيجارة لايمكن إشعالها إلا بولاعة والنوم لايمكن الحصول عليه إلا بالحبوب المهدئة ـ إذن فالسعادة فى مزيد من الاستهلاك أكذوبة .. وحرية الاختيار والرفاهية أكذوبة .. لابد أن نثق فى الكثير من المنتجات الجديدة التى تخرج من

مصانع الغرب يوماً لاتقوم بإشباع حاجات جديدة للناس بل ليست أكثر من وسائل جديدة لإشباع حاجات قديمة .. والكثير مما يقدمه الغرب إلى بلاد العالم الثالث ليس أكثر من إحلال سلعة على أخرى ، مثلاً : وسائل الرياضة الحديثة على الطريقة الغربية .. ليست سوى أدوات باهظة الثمن وبديلاً للنشاط الطبيعي الذي يمكن أن يمارسه الناس دون نفقات !! وبرامج التليفزيون ليست إلا بديلاً عن النشاط الإنساني في التواصل !! والكوكاكولا .. بديل سيئ للماء والطب النفسي بديل سيئ للعلاقات الاجتماعية !!

* إنك بذلك الكلام تضرب تجربة التنمية في بلدان العالم النامي وكأنك تريد فصلها عن الاقتصاد العالمي الجديد فتظل في دائرة التخلف كما يقول البعض ؟

** هذا كلام غير صحيح على الإطلاق .. إن إطلاق اسم التنمية على الغزو الغربي لاقتصاديات وثقافة العالم الثالث وتسمية هذه الدول بالنامية هو مثال على الاستخدام السيئ للغة وتسمية الأشياء بغير أسمائها حتى أننا - وأنت تردد نفس الكلام - نستخدم وصف الدول المتخلفة للمجتمعات التي ترفض هذا الغزو وهذا يمثل إهانة أيضاً .. وبدون تفاصيل فإن التصور الغربي للتنمية فيه ضلال كثير وضيق أفق - وأحياناً يجري الناس للأمام دون أن يعرفوا إلى أين يتجهون وتنطبق في ذلك مقولة اقتصادي كبير أثناء زيارته للبنان - وقد ذكرتها أكثر من مرة - وهي: إني لا أفهم كيف يسير الاقتصاد اللبناني .. ولكن نصيحتي أن يستمروا بالضبط فيما يفعلونه ..

* بشكل أكثر تحديداً .. كيف يمكن قراءة الخريطة الاقتصادية وهي الأكثر إثارة للحوار هذه الأيام من أجل مستقبل أفضل ؟

** حدث تقدم اقتصادي خلال الخمسين سنة الماضية لايمكن إنكاره أو تجاهله .. ولايمكن تجاهل أن الكثير من وسائل التقدم الحديثة قد دخلت بيوتاً عديدة وحدث ارتفاع في متوسط الدخل لاجدال .. طبعاً كان ممكن يحدث أسرع وأكبر .. لكن نقطة البداية أن تعترف بأن هناك تقدماً حدث وفي مقابله حدثت سلبيات عديدة من تلوث البيئة إلى عدم حدوث تقدم في عدالة وتوزيع الدخل .. بالعكس في العشرين سنة الماضية .. ساءت هذه المسألة ! لكن أكرر الاعتراف بأن هناك تقدماً ملحوظاً حدث .. نأتي بعد ذلك لتحديد الوقت .. وأقول إنه خلال العشر سنوات الأخيرة كانت الأوضاع صعبة حتى في متوسط الدخل سواء بالنسبة للبلد كلها أو الأفراد.. وهذا معناه أن كثيرين قد سقطوا في حفرة الفقر .. صحيح حدث تحسن في السنتين الأخيرتين - لكن هذه الصورة حدثت خلال العشر سنوات الأخيرة .. أيضاً البطالة زادت بصورة مزعجة وهذه ظاهرة غريبة على التاريخ الاقتصادي المصري الحديث .. لأننا كنا نعرف البطالة المقنعة .. لكن البطالة المكشوفة كانت قليلة مقارنة بأمريكا اللاتينية لذلك يمكن أن ننظر بخشية أن يأخذ الاقتصاد المصري صورة اقتصاد أمريكا اللاتينية لاسيما في ظل الاستقطاب الاجتماعي وزيادة الفجوة .. والدولة تسحب يدها بسرعة من الاقتصاد .. والأولاد

الذين يسيرون فى الشوارع وينامون فى الأرصفة ويدخنون المخدرات المصنعة الرخيصة .. كلها ظواهر غريبة على المجتمع المصرى وهى أيضاً مزعجة .. أيضاً فإن القطاع الاقتصادى غير المنظم والذى يشمل الاقتصاد السرى .. والحاجات الصغيرة أو خدمات الاقتصاد) .. نسبتها تتزايد ..

ولكن فى مقابل هذه الصورة لايمكن تجاهل عدة حقائق أبرزها أن لدى مصر اليوم أعلى نسبة أو رصيد من العملات الحرة . وأن هناك طبقة من رجال الأعمال قد تشكلت وتتحرك وأن هناك مظاهر نقدية أو مالية يمكن ملاحظة تدفقها وأن المؤسسات الدولية تعترف بتحقيق دور عال من الاستقرار وأن نسبة التضخم قد تراجعت بالفعل ..

ليس هناك اختلاف .. بل إن متوسط الدخل قد بدأ بالفعل يزيد خلال العامين الأخيرين وبالفعل التضخم انخفض وهذه ظاهرة مؤقتة فى تقديرى وترجع للاستماع إلى نصائح صندوق النقد الدولى فى خفض العجز فى الميزانية .. بعد ذلك ستنطلق فى التنمية ويرتفع معدل التضخم مرة أخرى .. وبالمناسبة شهادة البنك الدولى ليست ذات أهمية كبيرة لأنهم مشغولون بمتوسطات وليس بمن سيستفيد .. الذين يستفيدون اليوم هم شريحة لا تزيد على ٢٠٪ من السكان !! وهذا نموذج لايهمنى بالمناسبة !! وأتذكر أننا التقينا بالأستاذ هيكل أنا وباحثة اقتصادية زميلة .. وكان سؤال إلى أين نحن ذاهبون ؟ واختلفت وجهات النظر .. هى كانت شديدة التفاؤل وأنا شديد الحذر .. وهذه الباحثة هى الدكتورة هبة حندوسة .. فهى تعتقد أن مصر يمكن أن تكون الصين المتقدمة فى المنطقة وتقول ذلك بإخلاص .. وأنا أعتقد أن الصورة ليست (وردية) بهذا الشكل.. وأستطيع أن أقول إن مصر خلال العشرين سنة القادمة ستقوم بأداء متقدم جداً ولكن لن يحقق الناس نفس التقدم .. طبعاً .. ستكون هناك شريحة مستفيدة وهى التى تهتم بها الشركات العالمية .. لكنها ـ أى هذه الشركات ـ غير مهتمة بالأغلبية .. يعنى فيه ٤٠٪ من السكان لايشكلون وجوداً يذكر أمام عيون الشركات المتعددة الجنسية !! لأن قدرتهم الاستهلاكية ضعيفة .. وهم فى حاجة إلى أناس يشترون .

* النخبة .. وأقصد بها تلك الشريحة الواسعة من الإدارة العليا التى قادت مجتمعاتنا العربية خلال النصف الثانى من القرن الحالى وحتى اليوم .. كيف ترى صورتها الحقيقية ؟ .. وكيف تقيم سلوكها خلال هذه السنوات الصعبة ؟

** من أهم ما يميز الخمسين عاماً الماضية .. هو تسارع الحراك الاجتماعى .. بمعنى أن الطبقات التى فوق نازلة .. وغيرها طالعة .. وهكذا .. فى فترات مثل هذه تحدث أشياء سيئة كثيرة منها أنه يطفو على سطح الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية عناصر من أسوأ العناصر الموجودة فى المجتمع من حيث آمالها وطموحاتها وأحلامها . ومدى افتقادها إلى الولاء وهذه سمة للتحرك الاجتماعى السريع فى أى مكان .. وللأسف .. هذا ما جعل النخبة الموجودة فى مصر فى الثلاثين سنة الأخيرة أسوأ مما كان قبلها والذين كانوا موجودين من

قبل ثورة ١٩٥٢ من ناحية القيمة الشخصية .. كان من الممكن أن تختلف مع سياسة الوزير أو رئيس الوزراء زمان .. لكن من الناحية الشخصية غيرهم اليوم مختلقون عما كان فى الأمس قبل ٥٢ سواء من حيث الكفاءة أو الاعتزاز بقيم ثابتة .. وهنا يمكن ملاحظة أن معدل التحرك الاجتماعى فى الخمسين سنة السابقة على ثورة ٥٢ كان شديد الانخفاض .. أو بالغ البطء .. لكن بعد ذلك انطلق بسرعة .. وهذا أدى إلى أن النخبة باتت لها سمات غير مرغوب فيها، مثلاً: أليس غريباً أن الناس قبل ٥٢ ممكن يستقيلون من أماكنهم .. اليوم لايستقيلون . لطفى السيد استقال ووالدى أحمد أمين استقال من العمادة لمجرد أنه تم نقل أستاذ من مكان لآخر دون استئذانه !! هذه الأيام .. حاجة غريبة .. إن مفيش حد بيزعل !! وهذا دليل خطير على أمور صعبة !! إنها صفات النخبة السائدة.. لذلك من أعمدة التطبيع حالياً أناس عملوا هذا الحراك الاجتماعى .. طلعوا اجتماعياً بسرعة جداً .. ولايمكن أن يتجاهلوا ما قاموا به حتى لو كان فيها تطبيع .. !! لأنه فى داخل نفسه يقول لك (عايز ترجعنى للأصل الاجتماعى اللى أنا قادم منه) .

خاتمة زوجية !!

* هناك مجموعة كبيرة من المثقفين ارتبطوا بزيجات أجنبية .. طه حسين – وحسين فوزى .. ويحيى حقى .. وآخرين وأنت أيضاً متزوج إنجليزية . ولكنك الوحيد الذى خرج عن القاعدة بشدة المخالفة والمخاصمة مع الغرب .. فهل كان تأثير زوجاتهم الأوروبيات أفدح عليهم مما وقع لك؟

** هذا السؤال أكثر الأسئلة مكراً وشرك لا أحب الوقوع فيه ولا أستطيع أن أقول شيئاً لفهم سؤالك وما خلفه من إشارات مثلما كتب البعض عن تأثير زوجة طه حسين .. ولكنى أعتقد أننا نبالغ فى ذلك . ولكن لابد أن أعترف على المستوى الشخصى أننى بسبب هذا الزواج سافرت أوربا كثيراً لأن هناك أهل أولادى (من ناحية الأم) وقد طورنا فى البيت لغة .. لا هى إنجليزية ولا هى عربية .. أيضاً لها تأثير فى نمط حياتنا من تنظيم مواعيد النوم إلى نوعية الأكل .. ولكن يظل معيار المسألة هو الشخص نفسه، هل نجوت من الحفرة !! ؟ .. لا أعرف .

إبراهيم كامل
أنتظر موافقة الدولة
حتى أنشئ قناة تليفزيونية خاصة !

المال .. يصنع القوة .. ولكن دوره هو ضمان الاستمرار والشهرة .. قد تأتى على بساط الثروة ولكن لابد لها من قدمين بين الناس حتى لاتصبح ضوءاً لاينير طريقاً أو يضيء نفقاً و «رجال الأعمال» يجمعون المال .. ولديهم الشهرة .. ولكن تبقى المسئولية فى الدور .. والمكانة فى القيمة التى يعكسونها و «رجال الأعمال» .. عالم .. ومصالح .. وأيضاً رؤى .. والدكتور إبراهيم كامل .. ليس مجرد رجل أعمال وأستاذ جامعى سابق وليس مجرد ملياردير .. يفطر فى القاهرة ويتغدى فى باريس ويتناول العشاء فى موسكو .. وليس مجرد رجل أعمال لديه من الثروة ما يكفى لإنشاء الشركات والمؤسسات وشركات الطيران ولكنه أيضاً صاحب وجهة نظر شديدة الوضوح .. ليس لديه أوهام حول ما يجب أن يكون .. لايعتقد بدور خارج المسموح به .. ولكنه يأمل فى دفء أكبر ينمو فى حضنه رأس المال الخاص .. إنه صاحب رؤية وموقف .. ويرى أن العالم الجديد الذى تشكل بالفعل يؤكد صحة رؤيته أما رحلة الحياة فقد أكدت له أن أهم ما فيها هو دعوة الوالدين بالستر والصحة وراحة البال وأن أكبر إنجازاته .. ليس أنه «ملياردير» بل أنه أب لأسرة تربت على التقاليد القديمة ولاتعرف من الثراء أمراضه !!

«الفرق بين الأجيال» .. كان فى ذاكرتى عندما التقيت مع الدكتور إبراهيم كامل ـ رجل الأعمال المعروف .. وعضو مجلس الأعمال المصرى ـ الأمريكى ـ فى مكتبه الهادئ المطل على نيل القاهرة .. كان كل ما فى المكتب يعطى الانطباع بالبساطة والأناقة والكفاءة .. فى المساحة والضوء والأثاث .. وكان كل ما يجمعها على مائدة الحوار هو الرغبة فى البحث عما بين السطور من جانبى .. ورغبته فى الإيضاح .. ومن هنا كانت البداية :

* أنا من جيل لم يسمع عن (رجال أعمال) فى مصر إلا بعد أن اقترب من سن الأربعين .. قبل ذلك كانت هناك تعبيرات أخرى أبرزها (الرأسمالية الوطنية) وأشهرها (القطاع الخاص) .. ولكن (رجال أعمال) إنهم الأمريكان فقط !! .. ولكن الدنيا تغيرت بسرعة .. وأصبح (رجال الأعمال) تعبيراً أو وصفاً شائعاً وضوءاً مبهراً .. وفلوس كثيرة .. وبيزنس .. وعالم من الإنجازات والأموال .. والبنوك .. والمشاكل .. بهذه المناسبة وأنت رجل أعمال شهير : كيف يصبح الإنسان ثرياً .. غنياً فى مصر ؟

** إنه يشتغل .. هى إجابة بسيطة .. إنما الغنى لايتم إلا بالشغل هناك ثراء بالوراثة .. لكن إزاى يصبح غنياً ؟ .. فلابد أن يعمل .. ويعمل كثيراً .. وأقدر أقول أن والدى ترك قدراً كبيراً من الخبرة فى مجالات التصدير أكثر مما يكون قد ترك من أموال .. هذه الخبرة كانت البداية للعمل الذى بدأناه من عام ١٩٧٠ .. والحمد لله .. أننا أمسكنا بعمل طورناه ويمتد فى مجالات التنمية بنتائج طيبة .

الخط المستقيم

* أعرف أن لك علاقات دولية ومحلية قوية .. وأعرف أنك بدأت العمل الحر منذ السبعينيات.. أى تلك السنوات التى شهدت تغيرات عميقة فى المجتمع المصرى .. بالمناسبة .. ما هى عوامل النجاح التى اكتشفتها خلال رحلتك .. ؟

** النجاح فى مصر متاح ولكن بشروط أبرزها أن تنتقى ما يسمى بأقرب المسافات بين نقطتين .. إنه الخط المستقيم .. جايز يختلف معى فى ذلك البعض ولاسيما البعيد عن المجال .. أقول هذا الكلام لأى حد بيبتدى عمله .. ولأى أجنبى عاوز يستثمر .. قد يبدو للبعض أن وجود نوع من الفهلوة فإن ذلك يعنى وجود إمكانية لاختصار الطرق .. هذا ممكن فى المدى القصير إنما لايمكن أن يكون من عوامل النجاح على المدى الطويل ـ من يريد النجاح فى هذا البلد لابد أن يسير على الخط المستقيم ـ وحتى نكون واقعيين .. فإننى أقول أيضاً أنه مازال حتى الآن هناك نوع من سوء التفاهم بين المجتمع المصرى ورأس المال ـ رأس المال .. صورته فترة التحول الاشتراكى فى مصر بصورة كريهة وخلطت الأوراق .. فنحن تكلمنا أيامها عن رأس المال المستغل ورأس المال الظالم وقلنا أن هذه هى الحالة .. ونسينا أن مصر وقتها كانت تحت الاحتلال الأجنبى.. لم يكن هناك رأس مال مصرى يتصرف بطريقة طبيعية .. كانت هناك محاولات خاصة مثل تجربة طلعت حرب الذى أقدم على الاستثمار بقدر كبير من المسئولية الاجتماعية لايقل عن المسئولية المادية تجاه رأس المال ـ ومازالت تجربة المحلة الكبرى من الأمثلة الناجحة .. وهذا هو المفهوم الطبيعى لرأس المال ـ ولذلك أستطيع أن أقول أنه عندما بدأت الدولة تتحدث عن الانفتاح الاقتصادى ـ منذ منتصف السبعينيات ـ كان الشعور العام مضاداً لرأس المال .. وأذكر جيداً أنه قبل مرور عامين على الانفتاح بدأ البعض يتساءل : فين الاستثمارات .. فين التحرك الملموس لهؤلاء الذين يقدمون أنفسهم كبديل فى التنمية الاقتصادية عن الدولة ؟ ولو درسنا بعمق الأوضاع آنذاك سنكتشف أن نظام الضرائب فى ذلك الوقت كان يفرض على كل من يكسب أكثر من ١٠ آلاف جنيه فلابد أن يدفع ضريبة على الإيراد العام تبلغ ٩٥٪ !!! ـ وأذكر أن أحد الأساتذة أعد دراسة حول أنه إذا كان هناك

من يلتزم بذلك فمن المفروض أن يفلس بعد عام ! لأن ضريبة الأرباح التجارية والصناعية ٤٢٪ !! .. وفى مقابل ذلك زادت النبرة التى تتحدث عن سلبية رأس المال .. ولم يفكر أحد فى ضرورة خلق المناخ للاستقرار .

بالإضافة إلى ذلك .. لم يكن فى السبعينيات مكان لإقامة مصنع وكل مصنع أقيم قبل إقامة المدن الصناعية الجديدة كان يقام بمخالفة .. ولاسيما أن البناء على الأراضى الزراعية كان ومازال تعبيراً مخالفة قانونية ـ أيضاً لم يكن هناك تشجيع كاف .

* منذ عام ١٩٧٤ ـ وحتى اليوم ـ شهد المجتمع المصرى تغيرات واسعة النطاق .. وكان المجتمع ينتظر من رجال الأعمال أن يقدموا له : الدور .. وأن يعكسوا على المجتمع شعورهم بالطمأنينة.. من موقعك ـ كرجل أعمال ـ كيف تقيِّم مايراه البعض بأن الدور الأكبر لرجال الأعمال مازال فى مجال الاستثمار العقارى وصناعة الخدمات والتوكيلات وصناعات التجميع .. والاستيراد والسلع الخفيفة أو الهامشية ـ على مستوى الطمأنينة .. هل تعتقد أن القطاع الخاص يشعر بالطمأنينة .. بعد أن أزيلت كافة العقبات وتم رصف وتمهيد الطريق أمامه بسلسلة من القوانين المشجعة طوال ربع قرن ؟ .

** أنا أحاول أن أقول أن الـ ٢٥ سنة التى تشير إليها لم تكن كلها أرضاً ممهدة أمام القطاع الخاص .. حتى اليوم نحاول تنقية القوانين بما يسمح للقطاع الخاص للعمل فى مصر !!! .. حتى هذه اللحظة مازال هناك مشوار لازم نقطعه حتى ننقى كافة القوانين .. لكن أقدر أقول إن إحنا قطعنا ٩٥٪ من هذا المشوار ، أما حديث البعض عن السمسرة والتوكيلات والاستثمار العقارى .. فإنه يتجاهل ما حدث فى برج العرب ـ فى مدينة العبور ـ فى مدينة ٦ أكتوبر. تريد تقديم صورة متوازنة .. نعم هناك سوق للتوكيلات والسمسرة .. والخدمات .. وهذه أمور مشروعة بل إنها جزء من العمل الاقتصادى .. قد تقول إنها أكبر فى حجمها وفى شكلها من العمل الاقتصادى .. ولكن أقول إننا يجب أن نقدم للمجتمع صورة متوازنة .. مثلاً الاستثمار السياحى .. كان ضرورة حتى نستقبل ٤ ملايين سائح وتزيد مواردنا ! فى شرم الشيخ هناك ملحمة جملة تقول أن مصر يمكن أن تصنع تجربة جميلة .. واميوم نستطيع أن تجد منتجات مصرية على قدم المساواة مع العديد من المنتجات المستوردة فى الماضى ./ كنا نجد (برطمان المربى المستورد) يفتح الشهية على مائدة الطعام والعكس الإنتاج المحلى .. اليوم الصورة مختلفة .

ينتظر تحت قدميه

* رغم هذا الإنجاز الذى يسعد الجميع بالتأكيد .. إلا أن المفارقة .. أن أصحاب هذا

الإنتاج المميز هم الذين يرتفع صوتهم اليوم ضد منافسة المنتج الأجنبي !! وتبدو الصورة وكأن القطاع الخاص ضد المنافسة التي تعتبر إحدى ركائز فلسفة السوق !! على الجانب الاخر .. فإن هذا المنتج المستورد قد استنزف قدراً كبيراً من العملات وارتفعت الأصوات اليوم تشير إلى أن صناعاتنا الوطنية تحتاج لظروف حماية حتى لاتضيع فى هذه المواجهة ؟.. كيف تفسر تلك الصورة ؟

** آسف أن أقول إن هذه الدعوة للحماية لاتأتى إلا من صاحب مصلحة ينظر تحت قدميه ! ، من يدعى أنه من الممكن أن يتطور الإنتاج فى أى مجامع وينافس دون منافسة خارجية أو من آخرين فإنه يعبر عن وجهة نظر خاطئة ، مصر جزء من العالم .. وهى جزء من اتفاقات دولية وهاننفتح يعنى هاننفتح على العالم .. وهذا سيحدث اليوم أو غداً أو بعد غد .. وأن يكون هناك من يطالب بحماية .. يقول .. لكن الحقيقة أن المنافسة تخدم المستهلك .. وإذا تعاطفنا مع الأصوات التى تدعو لحماية منتجاتنا فإننا نصبح ضد مصالحنا كأفراد .

* صناعة النسيج تتعرض لمخاطر فادحة .. وهى صناعة قديمة لها تراث ويعمل بها الملايين .. طبقاً لمنطق رؤيتك فإنها سوف تتعرض لمشاكل صعبة فى المنافسة مع منتجات مستوردة .. هل هذا طبيعى ؟

** عندما نواجه منتجاً أفضل وأرخص .. سوف نضطر للسؤال : لماذا ؟ هناك مبدأ المقدرة التنافسية فى سلعة ما .. هذه السلعة المفروض أن ننتجها ونصدرها .. ونستورد السلع التى نعجز عن إنتاجها .. وعلى سبيل المثال .. قد يكون إنتاج القمح فى مصر ليس هو الأفضل إنما تحت مسمى قديم اسمه (الأمن الغذائى) فإننا قد نحزن لو قلنا أننا لن ننتج القمح !! تتعالى الأصوات تحذرنا من أن المصدر الخارجى قد يضغط علينا ،، هذا كلام قديم .. عندما كان المصدر وحيداً .. لكن اليوم أمامك المصدر الأمريكى وفى مقابله المصدر الأسترالى ثم الكندى .. وهناك غيره .. أسواق الكومنولث القديمة تنتج وتصدر .. أى أن الفكر القديم لم يعد معبراً عن المجتمع اليوم .. إذن يجب أن أنتج ما أستطيعه بصورة أفضل من غيره .. بالنسبة لمثال الغزل والنسيج فإننى أتذكر أنه فى وقت ما كانت مصر لديها أحدث مصانع فى العالم .. مرت فترة لم أتطور فيها فباتت السلع المحلية أغلى من المستورد !! على مستوى آخر .. مصر تزرع أفضل قطن .. لكن عندما يتم جمعه وهو ملىء بأعقاب السجائر وفضلات من البلاستيك والأقمشة لم يعد أفضل قطن !! اليوم معروف أن من أحد مآسى تصدير القطن المصرى الأجولة التى يُعبأ فيها يتم ربطها بخيط بلاستيكى فإذا حدث ـ ويحدث ـ أن يقع الخيط فى داخل القطن فإنه يتسبب فى الإضرار بالقطن والنسيج ـ وبالتالى فإن المشكلة تبدأ بحاجة بسيطة .. لم نبحث ذلك .. وبالتالى لم نعلم الناس أن هناك كوارث وأننا لو استخدمنا خيطاً من القطن لربط الجوال لتم حل المشكلة .

* المثال الذى نتحدث عنه .. يجعلنا نتساءل : هل المشكلة فى الملكية أم فى الإدارة ؟

** شوف .. أنا فى القطاع الخاص عندما فتحت تجارة الأقطان قمت بتأسيس شركة صغيرة يرأسها أمين أباظة .. من أول يوم بدأنا نبحث عن المشاكل لحلها .. اليابان كانت ترفض استيراد كيلو قطن واحد بسبب هذه المشكلة !! .. لقد باتت مسألة الجودة موضوعاً ليس للنقاش .. بل حقيقة مطلوبة ولابد من احترامها .. لامفر من أن يكون المنتج الذى تقدمه مصنوعاً بجودة ولايكفى أن نقول أن هذا القميص من القطن المصرى المشهور !!

الرجل الشريف

* فى حديثك تشير بأصبع الاتهام إلى بعض الأثرياء لأنهم يحملون صورة سلبية عن رجال الأعمال أو الأغنياء.. أحب أن أسألك يادكتور .. هل هذه الصورة هبطت من السماء .. وهل الشائعات المحيطة ببعض الأثرياء هى من قبيل الأحقاد .. أم أنه وخلال العشرين سنة الأخيرة هناك من الوقائع ما جعل المال مقروناً بالشائعة .. وهل تعتقد أن المواطن الذى يقرأ يومياً عن أن الموظف المصرى هو الذى يدفع الضريبة .. ليس له تأثير ؟ .. وكرجل أعمال أسألك هل يمكن للرجل الشريف أن يجمع أموالاً بدون شكوك ؟

** أولاً بالتأكيد يستطيع الرجل الشريف أن يجمع المال بدون أن يقلق ضميره وبأن يظل شريفاً .. ولكن مجتمع رجال الأعمال مثل أى مجتمع آخر .. فيه أناس أقرب للقديسين وهناك فى المقابل من لانتمنى أن ينتموا لهذه الجماعة وبين الجانبين توزيعات طبيعية .. فى كل المهن هذا موجود وفى كل الشرائح .. الفرق الوحيد أن خطأ رجل الأعمال خبر .. علية العيوطى ليست أول مرة تسافر .. ولكن هذه المرة تم التركيز بصورة أعلى .. إن تغطية ما يسمى رجال الأعمال يتم ـ أحياناً ـ تضخيمها .. وأحياناً المعلومة الحقيقية لاتصل إلى القارئ .. أى محاولة للدفاع عن الانحراف تعتبر مدانة .. وأى محاولة لتقويم الانحراف لابد من التصفيق لها .. لكن ممكن ننسى الأفراح المرتبطة بالإنجازات ولايتبقى لنا سوى الإحباطات .. إن النمو الاقتصادى حقيقى ومن المتوقع وصوله إلى ٦٪ ـ وهناك أمل فى الارتفاع إلى ٨بم٩٪ وهذا مرتبط بمجهود ـ والتفكير فى فلان أخذ قرضاً وهرب أو فلانة سافرت ولن تعود يعتبر نوعاً من الإهدار لهذه الإنجازات .

* لماذا لاننظر لذلك الكلام كنوع من العلانية ـ إن لدينا نموذجاً نقلده بعد أن فرض نجاحه على العالم كقوة وحيدة، أقصد النموذج الأمريكى .. إن الشفافية على الطريقة الأمريكية أمل .. لماذا يقلق منه رجال الأعمال ؟

** لا !! يعنى إلى عملوه فى كلينتون مسألة غريبة على مجتمعاتنا .. نعم العلانية مطلوبة والشفافية مطلوبة فى كل شىء .. إنما لابد أن تلاحظ أننا نتكلم عن مجتمع الأعمال وهو مجتمع شديد الحساسية والتأثير ولذلك فإن مسألة النشر قد تؤثر عليه فى بعض الأحيان .. ولكن الشفافية مطلوبة وهى حق للمجتمع على كافة الأمور وهى التى توفر الضمان بعدم حدوث انحراف .. إن هناك ضرورة لاشتراك الجميع فى مواجهة أى انحراف .. وفى صناعة واقع سليم .. والبديل لعدم تصحيح مسار رجال الأعمال ـ ورأس المال الخاص سيئ.. ! فى الماضى كنا نقوم باستثمارات دولة .. اليوم يقوم بها القطاع الخاص .. وإذا لم يكن هناك صلح معاً كمجتمع .. وإذا لم تحتضنه فإن البديل كارثة .. وسوف أشرح ذلك .. ممكن يكون لدى أسرة أبناء .. اثنان منهم يتميزان بالالتزام والدأب فى المذاكرة .. والاثنان الآخران يحتاجان لمساعدة مستمرة ودروس خصوصية، والخامس فى حاجة لرعاية ومتابعة أصدقاء السوء وتصرفاتهم السلبية .. هذا الابن الخاص فى حاجة لرعاية ومتابعة وعلاج .. ولكنك لم تلق به من النافذة !! وما أقوله إننا فى مرحلة التحول الحالية لابد أن يحتضن رأس المال .. وأن التصرفات غير المقبولة لابد أن نحاول جميعاً فى عملية التقويم والتصحيح .

لم يحدث

* بمناسبة حديثك عن (مجتمع رجال الأعمال) فإن هناك تقارير تشير إلى أنه مجتمع للنخبة المالية المحدودة العدد جداً .. مجتمع لكبار الماليين .. وبالتالى فإن السؤال .. كيف تتسع قاعدة هذا المجتمع وكيف تفسر ما يراه البعض من أن هذا المجتمع يبدو وكأنه يرفع لافتة (كامل العدد) ولايرحب بشريحة من رجال الأعمال الطبيعيين وأقصد بهم غير الكبار ؟ ..

** لا .. هذا غير دقيق .. لايمكن إغلاق باب مجتمع رجال الأعمال بهذه الصورة ..

* عندما يستشعر المواطن العادى أن هناك من عشرين إلى ثلاثين رجل أعمال يحصلون على أكبر نسبة من قروض البنوك ويحصلون على أكبر مساحة من مجالات سوق الاستثمار .. فإن هذا المواطن لابد أن يتساءل هل يمكن لشاب أن يدق أبواب هذا العالم ؟

** لابد فقط أن تلاحظ أنه كلما كبرت زادت فرصتك فى دخول مشروعات أكثر وبالتالى تحصل على ظروف أفضل .. لكن هذا الكبير لم يُولد كبيراً .. بل إنه احتاج إلى قدر كبير جداً من العمل المتواصل .. مش ممكن حد كبر فى مصر لأنه واجه صدفة سعيدة !! لم يحدث ! .. لو رجعنا لكل واحد من رجال الأعمال هؤلاء سنجد أن كلاً منهم قدم الكثير من العطاء والمجهود .. قد تكون هناك استثناءات لكن القاعدة هنا لا خلاف عليها ـ لكن الإيحاء بأنهم تضخموا بالصدفة أو بالعلاقات .. مسألة غريبة ـ لذلك فإن من ضمن ما يتردد أن رجال

الأعمال يطمعون فى السيطرة على الحكم .. كلام غريب .. لأنه من المفروض أنه عندما يكبر رجال الأعمال .. فإن ذلك يعنى أن الاقتصاد المصرى صار أكبر !! وتصبح الدولة أكبر ، والدولة هى المصدر الحقيقى للسلطة .. وبالتالى فإنه مع النمو الرأسمالى لابد أن نعرف أن دور الدولة هو القوى .. ولايجب أن نخاف من سيطرة رأس المال على الحكم .. هذا لايحدث فى الأوقات الطبيعية .. علشان كده دائماً أقول مفيش حاجة اسمها حزب رجال الأعمال .. ده يبقى حزب مريض ، قد ينضم رجال الأعمال لحزب دون آخر .. ولكن مفيش حاجة اسمها حزب رجال أعمال يسيطر على الحكم .

* لعل ما يقصده البعض عن العلاقة بين الثروة والسياسة أنه يمكن للمال أن يقترب من المسئول.. فيصبح هناك تأثير لرجال الأعمال على القرار .. هناك لقاء بين البيزنس والمسئولية العامة .. البعض يحذر من ذلك والبعض يؤكد أهمية الحصر فى ذلك من أجل مصلحة المجتمع كله .. ؟

** شوف .. عندما تقول الحكومة يا رجال الأعمال نريد تنمية وتعاوناً مع بلد مثل الصين .. فيسافر وزير ومعه مجموعة من رجال الأعمال .. فهل هذا دور سياسى ؟ هذا دور اقتصادى بحت.. من ناحية أخرى هل من المفروض أن تكون هناك علاقة تنافر بين الحكومة ورجال الأعمال.. أم أن المفروض أن يكون هناك حوارا متصل من أجل المصلحة العامة ؟ .. لكن إحنا مش متعودين ! لكن فى الدول المتقدمة عندما تكون هناك حوارات مهمة بين دولة وأخرى .. فإنك تجد المسئول الأول فى هذه الدول يكون محاطاً برجال الأعمال، حتى فى روسيا لامفر من وجود رجال الأعمال .. وهذا يرجع إلى أن العامل الاقتصادى أصبح بالغ الأهمية فى العلاقات الدولية .. اليوم السيد وزير الخارجية المصرى عمرو موسى يبدى اهتماماً كبيراً بتقديم مصر من الناحية الاقتصادية فى أبهى صورها .. وهذا بات من أولويات وزارة الخارجية كما أن الكثيرين من رجال الأعمال يتحدثون فى الخارج كسفراء لمصر - بل إن مجهودات بعض رجال الأعمال أدت إلى زيادة الاستثمارات الأمريكية فى مصر ، وأغلب المشروعات الكبرى فى مصر تضم شريكاً أمريكياً، وعندما يقول رجال الأعمال المصريون أنهم يشاركون فى وضع السياسات فإن هذا ليس خطأ ، هى المشاركة غلط !! وهل عندما أشارك فى وضع السياسة التى تمس النشاط الذى أعمل فيه هل ذلك يعنى فرض رؤية معينة ؟ إطلاقاً .. قد تكون هذه المشاركة بالرأى أو الفكر أو النصيحة .. شوف هناك حساسية لا مبرر لها ..

* لك استثمارات دولية واسعة تمتد من روسيا إلى إفريقيا ومن أوربا إلى العالم العربى .. البعض يعتقد أن بعض رجال الأعمال يستمدون قدراً من الطمأنينة على الدور والأمان على الحركة من علاقته الدولية .. هل تعتقد أن ذلك صحيح ؟

** إطلاقاً .. أسف أن أقول أن الضمانة الحقيقية للمستثمر المصرى من الاستقرار السياسى والاقتصادى والاجتماعى فى مصر .. ولكن المشكلة أن المجتمع يميل إلى تفسير سلوك رأس المال المصرى فى إطار الريبة وهذه الريبة هى التى أطالب بإزالتها لأنه جاء الوقت لإعلان المصالحة الحقيقية بين رأس المال والمجتمع ..

١٠٠ مليار دولار

* نسمع عن الدور الاجتماعى لرجال الأعمال فى أوربا .. ولا أتذكر بالضبط اسم رجل الأعمال الأمريكى الذى قال إنه من العار أن يموت رجل الأعمال ولديه الثروة .. ولذلك ننظر بدهشة لتبرعات تير تيز صاحب المشروعات الإعلامية العملاقة وعلى رأسها المحطة الشهيرة (سى . إن . إن) وتبرعات بيل جيتس التى باتت أبرز ظواهر نهاية القرن العشرين .. وغيرهما .. فى منطقتنا العربية وفى مصر المسألة غريبة ؟

** لا .. شوف .. بل جيتس بدأ يتبرع بعد ما أصبح لديه نحو ١٠٠ مليار دولار .. يعنى أكثر من الدخل القومى لبلدان إفريقية عديدة !! الدور الاجتماعى لرأس المال فيه شىء لازم نأخذه فى الاعتبار .. أنه فى مصر لو قلت أنا أعمل سيقولون إنه يتباهى على المجتمع وفى حالة السكوت سوف يكون السؤال : أين الدور الاجتماعى لرأس المال ؟ ونعود للسؤال : ماذا نقول وما الذى لا نقول ؟ .. مثلاً عندما حدثت أزمة السيول وكانت هناك حاجة لتعمير بعض القرى بسرعة فإن دور رجال الأعمال لايُنسى ، وعندما كانت هناك حملة لإعادة بناء المدارس بعد الزلزال.. لايمكن تجاهل الدور الذى قامت به السيدة سوزان مبارك ووراءه دور مجتمع رجال الأعمال .. هذه بعض أمثلة .. ولكن هناك مئات ومئات الأدوار .. وأرى أنها تمثل بداية حقيقية.. والسلوك المراد تكراره لابد أن يصفق له المجتمع وأن يشجعه .. ولكن ما يحدث أننا نهتم بالسلوك السلبى .. أو نلقى الضوء على النواقص ونقول هؤلاء هم رجال الأعمال . أتصور أن المجتمع المصرى اليوم يضع فى مقدمة صفوفه (رجال الأعمال) إنهم كريمة المجتمع .. ونجومه .. صورهم فى كل مكان وموضع كل حديث .. إنهم النموذج اليوم ؟

* هل تعتقد ذلك بالفعل ؟ وعندما تعلن صور رجال الأعمال ألا يقدم البعض بجانبها ما يسىء للصورة .. ولمجتمع رجال الأعمال؟

* وهل هذا الإحساس هو الذى دفعك للاستثمار فى مجال الإعلام خاصة من خلال ملكيتك لأغلبية أسهم إحدى الصحف اليومية ؟

** لا أبداً .. أنا اتجهت لمجال الإعلام فى ظرف معين .. فقد كانت هناك صحيفة مملوكة لغير مصريين وكانت هناك فرصة لكى تصبح الملكية مصرية .. وبمجرد ما حدث ذلك كنت شديد الحرص على أن تتاح الأسهم لكل من يرغب فيها بنفس السعر الذى اشتريناها به ..

وبدون حساب للفترة التى انقضت بين البيع والشراء .. كان الأمل أن تكون مملوكة للمجتمع كله ـ والحمد لله .. وأنا سعيد بذلك .. وإن كان أول رد فعل لذلك أنهم قالوا لقد ذهب لشراء جريدة لتصبح ملكه وهذا غير صحيح .. أنا كنت عايز الجريدة تكون مصرية .. وللتاريخ أنا لم أتدخل بكلمة فى تحرير هذه الصحيفة من يوم تمصيرها .. من ناحية أخرى .. فإن الاستثمار فى مجال الإعلام ـ إلى أن يصبح هناك صفاء كامل بين الاستثمار والمجتمع ـ موضوع يمكن أن يشكل حساسية كبيرة .. وتصبح الأحاديث ليس عن سيطرة رأس المال على الحكم لكنه كذلك على الإعلام ـ لكن أتمنى أن أدخل هذا المجال ولدى نية لإنشاء محطة تليفزيونية عندما تكون الدولة راضية تماماً عن هذا المجال .. وهذا يرجع فى تقديرى إلى أن التليفزيون خاصة أصبح من الأدوات المهمة فى عملية التثقيف ونقل المعلومة فى التوقيت المناسب وإذكاء سلوك معين ـ التليفزيون يمكن أن يساعد فى تغيير السلوكيات بصورة إيجابية ..

* تتكلم عن الدور الإيجابى للتليفزيون فى تغيير السلوكيات للأفضل ولكن هل تعتقد أن هذا هو الجانب المريح للقطاع الخاص عندما يمتلك أداة إعلامية مثل التليفزيون ؟

** لو القطاع الخاص عنده القناة التليفزيونية ولايساهم فى إشاعة السلوك المحترم فى المجتمع .. فإنه فى هذه الحالة يصبح مفتقداً للنظرة الإستراتيجية على المدى الطويل لأن الحماية الحقيقية للقطاع الخاص تتحقق من مجتمع صحى وليس من مجتمع مريض كاره لرأس المال ـ الضمان الحقيقى للملكية الفردية هو مجتمع متوازن تستطيع أن تقضى فيه ـ بصورة كبيرة ـ على مظاهر الفقر والمرض والحقد ـ وبدون ذلك فلن يتحقق الأمن للملكية عموماً .

* ألا تعتقد أيضاً أن ضمانة الاستقرار لرأس المال تكمن فى ألا يكون الربح أو المكسب على حساب ثوابت المجتمع ومصالحه الجماعية .. ؟

وفى هذا الإطار .. يبدو فى الحوار حرصك على التنبيه لواجب المجتمع فى احتضان وحماية القطاع الخاص .. ولكن ما مسئولية هذا القطاع نحو المجتمع ؟

** بالنسبة للشق الأول فلا خلاف على ذلك المعنى الذى يتضمنه سؤالك من ناحية أخرى.. فإن كل مساحة جديدة لرأس المال الخاص .. تفرض مسئولية اجتماعية .. لأن تقليص دخل الدولة من المشروعات الاقتصادية والبديل فى المجتمعات الرأسمالية المتقدمة يتحقق من الدور الاجتماعى لرأسمال الخاص .. وهذا هو المتوقع ..

* الحديث عن دور القطاع الخاص فى المجتمع يفرض على الذهن تجربة شركات توظيف الأموال التى دمرت آلاف الأسر .. وأضافت شكوكاً عديدة إلى نفوس المواطنين ؟

** شركات التوظيف كانت أدوات لنهب أموال معينة فى دول عديدة .. كيف يقول عاقل أنه يؤسس شركة ومن يضع أمواله فيها سيحصل على مرتين ونصف ما يمنحه البنك من عائد .. فهذا معناه أن المؤسسات المالية قاصرة ، وهذه الشركات ظهرت فى أمريكا وحققت خسائر فادحة ونفس التجربة حدثت فى أحد البلدان العربية وكانت أضرارها فادحة .. وبعدما حدث فى مصر ظهرت فى ألبانيا وروسيا .. إنها محاولة لاستغلال الطمع الكامن فى الإنسان ـ ولكن كان هناك دور للدولة كان يجب أن تلعبه بصورة أكثر جدية فى مواجهة شركات توظيف الأموال .

* مع العولمة .. والحديث المستمر عن قرن جديد .. يزداد فيه اتساع السوق ومقدرة الشركات المتعددة البنية والعملاقة فى دخول كافة الأسواق المحلية وزيادة حجم التحدى أمام المنتجات المحلية.. هل تعتقد أن هناك مواصفات أو تقاليد يجب أن يتبناها القطاع الخاص أو يعتنق سياسات جديدة للمواجهة والتعامل مع عالم مختلف ؟

** هذا بالتأكيد .. إذ لابد أن نعرف أن أبرز ما يميز المرحلة الجديدة هو المعلومات .. والاهتمام بوسائل الاتصال مع العالم والاقتراب من استخدام أو تبنى الأسلوب العلمى عند تنفيذ أى شىء لم يعد ترفاً بل ضرورة ، كما أنه يجب أن نعرف أن هناك التزاماً ضمنياً بقواعد ملعب ويجب أن ندرسها جيداً .

صورة

* ما الثمن الذى دفعته لكى تنجح .. بصراحة ؟

** بصراحة كنت أتمنى مزيداً من الوقت لأمارس ما أحب .. وكنت دائماً أتمنى ومازلت ممارسة الوظيفة التى أحببتها وهى التدريس فى الجامعة .

* حتى تنجز قراراتك أو تنفذ رؤية أو تحقق مشروعاً .. ما وسائلك ؟

** والله بسيطة جداً .. أنا عارف إنه علشان تحقق أى هدف لابد أن توجد خطة .. أو مجموعة خطوات لابد من اتخاذها .. أنا لا أعقد الأمور إطلاقاً .. فالأمور لها بداية ونهاية ولها قواعد فى تنفيذها .. ولو سألت كل الذين يعرفوننى عن قرب سيقولون لك إنه مع حسن الحظ أو للأسف أننى لا أفهم جيداً فى المجاملة .. وقد يعتقد البعض أن ذلك غير طبيعى ولكنه هو الطبيعى .. ومش عارف أشرحه لك .. هذه الموهبة ـ التى تشير إليها فى خلفية السؤال ـ أفتقدها.. وبشرفى قد يبدو الكلام غريباً .. ولكنها الحقيقة ..

ولدى ولد .. وبنت من خريجى الجامعة الأمريكية قسم الاقتصاد.. سمر تزوجت ومنحنا الله الحفيد واكتشفت أن المثل الذى يقول «إن أعز الولد ولد الولد ليس ببعيد عن الحقيقة» .. أما الابن محمد .. فإنه بدأ يساعد فى بعض الأعمال معى وأتمنى من الله أن يكمل تعليمه .

الشركات كلها شركات مساهمة .. ومن يصلح من العائلة للعمل نرحب به ومن لايصلح لا يمكن استثناؤه .

زوجتى كانت مذيعة تليفزيونية وقارئة نشرة باللغة الإنجليزية .. وحصلت على الماچستير من الجامعة الأمريكية ثم تفرغت لتربية الأولاد .

هناك ميزانية محددة للبيت تديرها زوجتى .. وبالنسبة للأولاد .. فإنهم تربوا مثلما تربيت أنا .. تربيتهم ليس لها علاقة بدلع الأبناء الذى نسمع عنهم اليوم .. سمر أيام الجامعة كان مصروفها فى الشهر (١٠٠ جنيه) ولاتستطيع أن تقول غير أنه غير طبيعى .. وكان مصروف محمد (٢٠٠ جنيه) لأنه كان يستخدم مواصلات عامة ويشترى بعض احتياجاته أول سيارة كانت لسمر وهى فى مرحلة متقدمة فى الجامعة .. بينما محمد ليست لديه سيارة حتى الآن وأتمنى أن يحصل عليها بعد عمله وتكون مقابل إنجاز قام به .

فى يوم من الأيام كنت أحكى لأولادى عن ألفريد سولون الذى أسس مجموعة من المؤسسات الهامة فى أمريكا مثل هارفارد وبوسطن .. ومدرسة سولون للإدارة .. ويقال أنه كان لديه ولد وبنت فعندما توفى ترك لهما حاجة بسيطة جداً وتبرع فى وصيته بمبلغ يقترب من ٤٠٠ مليون دولار للجامعات وأجهزة مراكز الأبحاث وغيرها .. كان ابنى وبنتى صغيرين وأنا أحكى لهما ذلك وأتذكر ما حدث فى ذلك اليوم .. فقد نظر محمد لشقيقته وقال : بابا قادر على أن يكرر التجربة .. !! أحمد الله على أن أولادى عارفين معنى المواطنة ، وأن القيمة الحقيقية للإنسان تكمن فى عمله .

أكبر إنجاز فى حياتى أننى فخور بتربية أولادى .

إفطارى عادة كوب عصير برتقال .. مع فنجان شاى .. وساعات يصاحبهما جبن وخبز ناشف.. وفى العشاء إذا استطعت فإننى لا أتناول طعاماً ..

الأكلة المفضلة هى الفول والطعمية .. ولا أعتقد أن ما تشير إليه يدخل بيتنا !! والله بصراحة.. !! طيب صدقنى .. الأطعمة التى تشير إليها على أنها مرتبطة بالثراء ليست (طعمة) .. طبق الفول أذهب بنفسى لشرائه فى بعض الأحيان وأقف أتفرج على طريقة الشغل .

فهمت من رحلة الحياة قيمة ما كان أهلنا يتحدثون عنه زمان : وهو ما أدعو به فى لحظة الصفاء .. ولحظة العلاقة مع الخالق .. وهو الستر والصحة وراحة البال .

المال إما نعمة كبيرة من الله .. وفى بعض الأحيان يصبح نقمة لو أسىء استعماله .. وعن أهمية المال إلى حد معين لا أعتقد أننى اهتممت به فى حياتى على الإطلاق .. ولم يكن هدفى إطلاقاً .

حنينى لاينقطع .. للعودة للتدريس فى الجامعة .

قدرى حفنى

الفجوة بين العنف والاستسلام ينبغى أن تملأ

مع نهاية قرن وبداية قرن جديد استوقفنا جميعاً مجموعة من الأحداث الهامة التى ظهرت على سطح مصر يمكن من ضمها قبضة العنف الغير منظم أو (العنف الجمعى) والإرهاب منذ منتصف السبعينيات فكيف تتم تناول هذه القضايا من خلال الدراسات والأبحاث ؟

بداية لكى تدرس مجموعة من البشر فلابد أن تعيش معهم وتتقرب إليهم عن طريق المشاركة بالبحث وهذا ماحدث لإحدى تلميذاتى فى آداب عين شمس بقسم علم النفس عندما كاهت تقوم بعمل رسالة الماچستير وفى رسالتها هذه وحدتها تستخدم الأسلوب التقليدى فى الاستيعاب وكاهت عن العنف فوجهتها نحو تغيير هذا الأسلوب .. لأن الموضوع الحساس لايظهر فى الأسئلة العادية فإهه من غير المعقول أن نسأل شخصاً هل أنت متطرف ؟ فكل شخص له رأى فى نفسه واقترحت عليها من باب التجربة أسلوب الملاحظة بالمشاركة فبدأت تذهب فى البداية إلى أماكن تجمع السيدات المحجبات فى إحدى المساجد بالمهندسين .. وفوجئت بها بعد ثلاثة أشهر تقول لى إننى سوف أرتدى الحجاب. فقلت لها: لماذا ؟ قالت لأنها اقتربت من هذه المجموعة واقتنعت بهم تماماً فقلت لها هذا حقك ولكن لابد أن نكف عن نظام أسلوب المشاركة بالبحث لأنه خطر على الباحث لأنه يمكن أن يشد الباحث تماماً عن رسالته .

وبعد الانتهاء بالفعل من الرسالة ظهرت نتائجها طريفة جداً ومنها أن الفتاة الجامعية التى ترتدى الحجاب ليست مجموعة واحدة وإنما فرق .. وهناك فتاة يمكن أن ترتدى الحجاب احتجاجاً وتسمى «الفتاة المحتجة» فهى ترى أن الأسرة ليست متمسكة بالدين لتظهر أنها مختلفة عن الأسرة .. وهناك فتاة تتحجب مجاراة لأنها ظهرت فى أسرة متدينة ومتمسكة فتعمل مثلهم وهناك فتاة تتحجب بسبب الحياة الاقتصادية .. ويقول أننا وجدنا أن هناك نقلة من ثانوى إلى الجامعة تظهر بميزات طبقية كثيرة .. ففى المدرسة الكل يرتدى نفس الزى بينما فى الجامعة كل فرد حر فيما يرتديه فيظهر الغنى والفقير معاً أما إذا تحجبت الفتاة فإنها تخرج من هذا الموضوع كما أن ذلك يكفل لها نوعاً من الانتماء وقد لاحظنا هذا خاصة فى الفتاة فهى تشعر أنها لاتستطيع أن تعيش فى القاهرة وأنها سوف تضيع فيها .

ولكن إذا ارتدت الحجاب فهى حينما تقابل شخصاً ملتحياً فهى تأمن لسؤاله وعندما تجد

طالبة محجبة فهى تقف بجانبها فهى تشعر أنها جزء من جماعة موجودة فى كل مكان بهذا الزى مشيراً إلى أن هناك من يتحجبن وبعد فترة الدراسة يخلعن هذا الحجاب .

* وما الذى وجه اهتمامك لهذا البحث بهذه الطريقة ؟

** لأنها ظاهرة يهمنى أن تدرس وقد درستها بالفعل، فى سياق آخر حرب ٧٣ حوادث أطلقت الصحافة عليها حوادث مؤسفة وهى انفجار العنف بدون مقدمات فجأة ثم ينتهى فجأة وأن الناس المتسببين فيه غير مصنفين لا جماعات إسلامية ولا شيوعية . فمثلاً حادثة حديقة الحيوان المشهورة وحادثة العتبة والتى أحدثت شجاراً كبيراً بين الشرطة والجيش بسبب أن شرطيًا ضرب عسكرياً مجنداً فاستنجد المجند بزملائه فقامت معركة كبيرة بينهم حتى أن وزير الداخلية وقيادة عسكرية ظهروا فى سيارة مكشوفة لتهدئة المواطنين .. وبعد التحقيق وجد أن هؤلاء الناس غير مصنفين وأنهم أناس عاديون جداً ومن هنا عملنا دراسات عن العنف الجماهيرى فى المركز القومى واشترك معنا متخصصون فى علم الاجتماع والنفس والشرطة ولكن كان محدود التوزيع وبعد الطبع بفترة ليست طويلة .. وبالصدفة حدث انفجار أحداث ١٨ ، ١٩ يناير .. فالذين قرأوا هذا البحث إعتقدوا أننا نتحدث عن أحداث ١٨ ، ١٩ يناير فكان هناك نوع من استباق الحدث وهذا يفيد علمياً .. أن عينيك على مايجرى وتحاول أن تسبقه فهذه ظاهرة أخطر من العنف المنظم كما يقول ولابد من الاهتمام بها لأن العنف المنظم له قيادة تستطيع التعامل معه وتعكسها وتتفاوض معها .

* هل يمكن القول أن العنف أصبح ظاهرة يمكن النظر إليها باهتمام شديد ؟ وما هى النتائج التى استخلصتها من خلال قراءتك للتغير الاجتماعى الذى حدث فى مصر خلال الـ ٣٠ سنة الأخيرة من ٦٧ : ٩٧ أى خلال النصف القرن الأخيرة ؟

** يقول: صحيح أن العنف زاد ولكن ليس ذلك أن الشخصية المصرية انتهت، فمازالت هناك قطاعات كبيرة تميل إلى المسالمة .

* ولكن كيف يكونون مسالمين ويعملون أقصى درجات العنف ؟

** المشكلة كما يقول: أنت من الكبار لأننا أنشأنا الجيل الأصغر على العنف ففى الماضى كان الطفل المثالى هو الطفل المؤدب (المهذب) الطيب ولكن تغيرت هذه الصورة وأصبح الطفل المثالى هو الذى يأخذ حقه بيده . فظهرت صورة جديدة أن تكون عنيفاً تصبح محترماً .

وعندما أكون عنيفاً فإنه يمكن أن أواجه بشخص أعنف منى .. فأما أن أضرب أو أهرب .. أكون شديد المسالمة أو شديد العنف .. فأصبح هناك أساليب كثيرة من العنف والاستسلام، التفاوض أو التوجيه أو الشكوى .

ويضيف أن الفجوة بين العنف والاستسلام لابد أن تملى ببدائل وللأسف أن هذه البدائل فى السياسة لها بدائل مدانة بمعنى أن التفاوض مدان ، أما أن تضرب أو تستسلم .. فأصبحت الثقافة العامة ترفض الحلول الوسطى واللجوء للقانون .

فعندما لجأنا للقانون لاستعادة طابا كان هناك رأى عام يرفض ذلك .. هل نذهب إلى المحكمة ؟ فالرأى العام فى مصر يرفض ذلك وكذلك الرأى العام المتطرف فى إسرائيل يرفض . ففى مصر الرفض بسبب أن ذلك نوع من العنف وأنه يجب أن نأخذ حقوقنا وهذه هى الفكرة العامة التى تزيد من العنف .

العامل الثانى كما يقول: تزايد العنف العالمي وربما كل ذلك انعكس على الأسرة وتربية الأبناء.

ويذكر أن الرئيس الراحل جمال عبدالناصر عندما قرر بمبادرته روجرز وعرفنا فيما بعد أنه قام بذلك لدفع حائط الصواريخ .. فكان الرئيس عبدالناصر غير مطالب بالمرة ليقدم لنا تفسيرات لذلك الإجراء وإلا فإنه يمكن أن ينعكس عليه ضمنيًا بالسلب ومن هذا المنطلق فإنه يجب الوثوق بالقيادة ثقة كاملة وهذا بدوره ينعكس على الطفل فالأب مثلاً يقول لابنه لاتسألنى .. أنت قليل الأدب لا أستطيع أن أقول لك ؟ إننى أعرف مصلحتك. هذه عبارات تقال لأبنائها والنتيجة أن الطفل الناشئ إما أن يثق تماماً فى الأب وأنه لو وضع فى موقف جديد فلن يستطيع التصرف إلا بمراجعته أو أن يتمرد وهذا كان الناتج .

* اسمح لى أن أواصل العزف على حدوتة الطفولة فى مصر .. قواعد تنشئتها .. والعوامل المؤثرة فيها والمتغيرات التى ظهرت على أطفالنا منذ ٨٦ : ٩٢ لأنها فترة حيوية وهامة شاهدت فيها مصر متغيرات واسعة النطاق .. فهل تقرأ هذه الصورة ؟

** لايمكن أن ندع الطفولة فى مصر بسلة واحدة فهناك تفاوت كبير .. فأطفال الفقراء غير أطفال الأغنياء غير أطفال الطبقة المتوسطة من حيث آمالهم وطموحاتهم وأحلامهم فهناك بحث كان يجرى عن السلع المدعومة .. وما هى السلع التى يمكن دعمها ؟

فكانت اللحمة رقم واحد .. فاكتشفنا أن البعض قال لاداعى لدعمها فعندما أصبحت بجنيهين أصبحنا لانعرفها .. وشخص آخر طالب بدعم اللحوم والدواجن والبروتينات .. لذلك لايمكن أن نضع كل الأطفال فى سلة واحدة .

ومن خلال الدراسات يقول للأسف أن الطفل المصرى نسعى بأيدينا لإجهاضه فهو يولد ضعيف جداً، شخص حياته متوقفة على حماية ورعاية الآخر له . ومع ذلك فالطفل يحقق مايريد فهو كائن ماهر ومناور ومفاوض .. مؤكد أنه لامكان لطفل مبدع فى مجتمع غير مبدع

وصلنى إحساس بأنك تكاد تكون مغترباً عن الواقع العملى الحيوى فى مصر .. فهل هذا صحيح ؟

** ربما أكون مُقلاً ولكنى أكتب مجموعة من المقالات فى جرائد متعددة ومع ذلك فإننى أعترف أنى مقل وليس لدى قدرة على سيولة القلم فمن يكتب عموداً يوميًا هذا شيء خطير ورائع .. وتكوينى الشخصى جعلنى غير مكثر فى الحياة العامة ولكن حينما يحتم الموقف المساهمة فإننى لا أتأخر ولا أتردد .

* لك تجربة قديمة خاصة مع الدكتور سيد ياسين ومنعه لنشر أحد كتبك فما هو تعليقك ؟

** لم يمنع ولكن ما حدث بعد عام ٦٧ أننى اكتشفت مدى جهلى خاصة بعد خروجى من المعتقل عام ٥٩ ثم خرجت منه مركسيًا فاعتقدت أننى فاهم كل شيء وفى ٦٧ وجدت أننى غير عارف بشيء واكتشفت أن إسرائيل لاتحتل فى خريطتى الفكرية أى اعتبار واختلفت السبل بين مجموعة الأصدقاء فبعضهم قال أن الأمل فى منظمة التحرير والنظام المسلح وآخرين قالوا بلا سياسة بلا «وجع دماغ» وإننا سوف نعمل فى الاستثمار .. أما أنا فقد اخترت لنفسى منهج الدكتور محجوب عمرو لموقعى كمتخصص فى علم الاجتماع أن أدرس إسرائيل وأكتشفت أنها مهمة صعبة جداً .. لأنه كان لايوجد كتب عنها .. وجاء الإنقاذ بأن كلف الرئيس عبدالناصر محمد حسنين هيكل بإنشاء مركز للدراسات الفلسطينية والصهيونية يرأسه الأستاذ حاتم صادق زوج ابنة الرئيس عبدالناصر وكان من المعاونين له الأستاذ سيد ياسين وهو صديق قديم .. وكان التوجيه هو أن ندرس إسرائيل وكان من المجموعة الدكتور عبدالوهاب المسيرى وعزت حجازى ومجموعة من المتخصصين واكتشفت المأساة أننا يجب أن نبدأ من الصفر، وكونا المكتبة، وقمت بتأليف أول كتاب وهو «تكسيد الوهم» فى عام ونصف وكان ذلك عام ٧٢ ثم كتاب «شباب عجوز» وعندما قدمته للمركز كان سيد ياسين رئيس المركز وكانت لديه ملاحظات معينة . فاعتذر عن نشر هذا الكتاب بشكل رسمى ومهذب .. واستأذنته فى نشره بطريقتى الخاصة وبالفعل تم ذلك فى مجموعة كتاب مجمع وهو «الإسرائيليون من هم ؟».

وبعد ٧٣ بفترة بدأنا ندخل فى مبادرة السادات وبدأ يظهر المفهوم الغامض الخاص بتطبيع العلاقات والرأى العام كان وقتها مهيأ لكراهية إسرائيل .. والتطبيع وقتها معناه هو أن تحب إسرائيل وتسامحها .

* وماذا اكتشفت من خلال دراستك للشخصية الإسرائيلية ؟

** إكتشفت أن الإسرائيليين بشر مثلنا يمكن أن يكونوا أذكياء أو جهلاء أو عباقرة أو متخلفين، فالقيمة الحقيقية لحرب أكتوبر أنها أنزلت الإسرائيليين من مستوى الأسطورة إلى مستوى البشر .

* وهل معنى ذلك من خلال دراستك لهم أنك كنت أول المتطبعين ؟

** لا طبعاً وإنما كنت أول من جرى مع العقل الإسرائيلى .. فالتطبيع أرفضه تماماً فإسرائيل مازالت تحتل الأراضى العربية وتميل إلى العنف .. ولكن اجلعنا ننظر إلى التطبيع بمعنى إقامة علاقة مع أفراد إسرائيليين وأن هذه العلاقة ستخدم العرب .. أليس هذا تطبيع ؟

* لماذا لم تشترك فى مؤتمرات السلام الخاصة بالقاهرة بين جماعة السلام الإسرائيلية والمصرية ؟

** لأنه فى رأيى أن كل ذلك علاقات نخباوية بمفهوم السلام الهجومى بعد ٨٢ بعد أن اعترفنا بإسرائيل حكومياً وبالتالى أصبح من حقهم دخول القاهرة والتجول فيها وفكرت أن أمامنا عدة اختيارات إما أن نقاطعهم .. ومن خلال قراءتى للشخصية الإسرائيلية وجدت أن ذلك أفضل قرار فالإسرائيلى إما أن يكون سائحاً أو جاسوساً أو فضولياً .

هل تتصور أن أقسام الشرطة فى مصر لم تسجل حادثة تشاجر واحدة مع إسرائيلى ؟ ومعنى ذلك أن المقاطعة تخدم أهداف إسرائيل .

* أنت تتحدث عن علاقات إنسانية متبادلة مع إسرائيل سواء بالداخل أو الخارج .. أليس كذلك ؟

** نعم فعندما عملت لجان التطبيع الثقافى والتفاوض مع إسرائيل فكان هناك علاقات علمية وزراعية وأكاديمية وثقافية فمصر عندما تحسب ميزان القوة الثقافية نجد أننا أقوى من إسرائيل ١٠٠٪ لأنها لم يكن لها تاريخ ثقافى فى يوم من الأيام كما أن عدد قراء العربية فى إسرائيل لايقارن بعدد قراء العبرية فى مصر ورغم ذلك فى المقاطعة يكون التركيز دائماً على المقاطعة الثقافية فإننا نقول أن الثقافة آخر درجة فى التطبيع بالرغم من أنها أهم ورقة وأنها يجب أن تكون فى المقدمة فصحف إسرائيل تدخل مصر دون أى رقابة فوجدنا أن إسرائيل رفضت ذلك لأنه إذا دخلت صحافتنا إلى إسرائيل فلها مليون قارئ بينما فى مصر «صحيفة معاريف» يشتريها فقط الطلاب الذين يدرسون العبرية وثمنها ٧ جنيهات بينما صحفنا الأهرام والأخبار رخيصة الثمن .

* إذن أنت مع التطبيع الثقافى مع إسرائيل ؟

** لا .. أنا مع الهجوم الثقافى على إسرائيل فالتطبيع كلمة أرفضها .

* إذن ما هو الفرق .. ولماذا ترفض التطبيع ؟

** التطبيع يفهمه الشارع على أنه حب إسرائيل . عفواً سيدى ولكننى أتحدث عن النخبة المصرية التى نظمت عدة مؤتمرات وكان آخرها مؤتمر القاهرة عن السلام مع إسرائيل.

لا فهذه لاتطرح تطبيعاً فمجموعة كوبنهاجن رأيها كان نفس رأيي وهو تعليق العلاقات الثقافية إلى أن يتم الانسحاب من الأرض فلا تطبيع إلا بعد الانسحاب .

* اسمح لى .. فأنت بذلك أقرب من منظومة السلام العامة التى بدأت منذ رحلة الرئيس السادات للقدس وتطورت من مدريد حتى كوبنهاجن حتى إلى هنا ؟ فما من مثقف مصرى أكاديمى وهو مع السلام وضد التطبيع .. فكأنك تشق لنفسك طريقاً يؤمن لك أقل الخسائر من الجانبين ؟

** لا .. طبعاً !! لأن هذا الطريق يحملنى أكثر الخسائر من الجانبين ؟ فمجموعة كوبنهاجن لست معها والمجموعة الأخرى لاترانى معها ولذلك فأنا أدفع الثمن مضاعفة والأمن أن تكون ضد التطبيع . فأنت هكذا لن تخسر شيئاً فإننى ضد التطبيع الصناعى فلا أجد مبرراً لذلك فإسرائيل ليست متقدمة صناعياً فأمريكا متقدمة عنها كما أن هناك دول كثيرة متقدمة عنها . فأرى أن يحكم إسرائيل منطق المصلحة الوطنية .

فهناك مفارقة مدهشة: عرب ٤٨ إسرائيل تزعم أنهم إسرائيليون وهم دبلوماسيون يحملون جوازات سفر إسرائيلية فما الذى يجبرنى أن أصدقهم .. فهم عرب فلماذا لا أتعامل معهم كعرب. إننى لا أحب إسرائيل وأدعو للتعامل معهم فى حدود المصلحة الوطنية وحمى هو تحرير كل فلسطين .

* وما هى الأوهام الكبرى التى تشعر مع نهاية القرن العشرين بأن جيلك مازال أسيراً لها؟

** الوهم الأول كما يقول: تجاهل قضية إسرائيل وأنها أصبحت قضية ثانوية والشعار الذى كان موجوداً وقتها هو تمرير فلسطين عن طريق عمان وحدة الصف قبل وحدة الهدف . الهم الثانى أنه من الممكن فى فشل الحياد الإيجابى إقامة مجتمع اشتراكى .. فثبت أن ذلك غير ممكن لأنك تجمع متناقضين معاً وهذا واضح من خلال الشعارات فكانوا يقولون مثلاً اشتراكية ولكن منبثقة .. حتى عندما رفع السادات شعاراً بتمرير الاقتصاد قال فيما لايتعارض مع قيمنا فلابد أن نضع لها ذيولاً تجعلك لاتعرف ماذا تريد ؟

* مقاطعاً : ولكنى أجد أيضاً أن هناك وهماً ثالثا ومهماً وهو الاشتراكية التى دخلت بسببها السجن ألا تشعر بأنك كنت تدافع عن وهم وأن الجيل قد باع وهماً مستورداً ؟ ألا تشعر سيدى أن هناك وهماً من الخارج ضمن الأفكار التى جاءت إلى مصر وتم ترويجها للنخبة الحاكمة وأن الماركسيين باعوا الكثير من الرقعة الاشتراكية والبغاء ؟ ألا إن هذا كان وهماً عظيماً لأنه انتهى القرن والاشتراكية وئدت والرأسمالية انتعشت ؟

** مهلاً على صديقى .. ففكرة أن هذه مستوردة من الخارج هذا غير صحيح بالمرة لأنه عندما دخلت الشيوعية لم يكن لى أى أفكار مستوردة.

والفكرة الأساسية لدى هى العدالة الاجتماعية وحلم أن البشر تسودهم العدالة وهذه أفكار أعتقد غير مستوردة من الخارج، الفكرة الثانية أن النخبة الماركسية المصرية أقنعت السلطة بوهم الاشتراكية .. فعبد الناصر رحمه الله كان يعرف الحركة الماركسية وهو الذى ضربها كما أفرج عنها ومن الصعب أن نقول أن أحداً أوهمه بشىء وإنما كانت اختيارات عبدالناصر، الفكرة الثالثة أن الاشتراكية انتهت فهذا غير صحيح، وإنما الاتحاد السوفيتى هو الذى انهار فالاشتراكية بمعنى البحث عن العدالة الاجتماعية مازال باباً مفتوحاً وسيظل قائماً وسيظل الإنسان رافضاً للظلم حتى ولو هزم .. ولو انكسر فسيظل يبحث عنها وإلا سنكون نحن متطرفين جيران اتجاه التعصب .. فالعدل الاجتماعى كاختيار فكرى قائم وهذه دعوى مفتوحة فى أمريكا وفى كل مكان لأن النظام العالمى الجديد أصبح فى تفاوت إجتماعى شديد ويجب البحث عن حل .

* إننى أراك مع السلام مع إسرائيل ومع الشراكة وفى النهاية مع العلاقات الطبيعية بين الشعوب والدول ؟

** نعم لأن اختيار السلام هو الكفيل بتحقيق هذا الهدف ودعنا نراجع كيف قامت إسرائيل؟ وكيف تجسد الصهيونى على الأرض ؟

فكل ذلك كان عن طريق عصابات مهجرين أتوا فى حرب ٤٨ وأعلنت بعدها دولة إسرائيل فى ٤٨/٥/١٥ ومنذ ذلك التاريخ وحتى زيارة السادات إلى القدس الشعار المرفوع هو ما أخذ بالقوة لايسترد إلا بالقوة ولم يؤد هذا الشعب إلا لتقوية إسرائيل وتمكينها من تحقيق حلمها الكبير فى ٦٧ ومن ٧٩ بدأت مصر تقول السلام وسياسة جديدة ومنذ أن رفعنا شعار السلام تراجعت إسرائيل عن سيناء وعن الأرض وجزء صغير من الضفة وهذه حقائق تاريخية، السلام يؤدى إلى تراجع إسرائيل لأن ما أنجزته من ٤٨ إلى ٦٧ قام على شحن أكبر قدر من العنف عند المواطن الإسرائيلى .. فالعالم كله ضدك وما أخذ بالقوة لايسترد إلا بالقوة ولاسبيل إلا القتال، فبدأ ينظر الإسرائيلى اليهودى بنظرة واقعية إلى قضاياه بعد ذلك .

* النخبة الفكرية كقانون عام هناك حاجز ومسافة بينها وبين الجماهير ما رأيك ؟

** النخبة المثقفة فى مصر أصبح بها تيارات مختلفة وتيارات ملأت السلطة واندمجت بها فإذا ما غيرت السلطة توجهاتها تغيرت هذه النخبة .. فالنخبة فى مصر تنتمى إلى الطبقة المتوسطة . وهى ثقافة المجتمع المصرى .. بمعنى أن السلطة تأخذ القرارات التى تعجبها ولكن لكى تنفذ لابد أن تسوق هذه القرارات عن طريق النخبة .

* أساتذة الجامعات لو تحدثنا عنهم كأكاديميين كيف تراهم ؟ وما الفرق بين الأستاذ الجامعى فى الستينيات والأستاذ الجامعى فى عام ٢٠٠٠؟

** الأستاذ الجامعي والقاضي والشرطي هم أبناء المجتمع يتغيرون بتغير المجتمع .. فهذا إفراز اجتماعي كامل بالجيل الذي كنت أمثله نتيجة ظروف عديدة .

ويذكر أنه في إحدى لقاءات الرئيس مبارك مع المثقفين قال أحدهم أن الشوارع أصبحت مليئة بالكتب التي تحض على الإرهاب وتنادي بدونية المرأة .. وقال أيضاً أن الحكومة يجب أن تستخدم قانون الطوارئ وتلم هذه الكتب فكان رد الرئيس مبارك عليهم .. ولماذا لاتكتبون أنتم ضدهم .. فالفكرة إستوقفتني كثيراً أن المثقفين أكثر بحثاً عن السلطة وأن العسكريين ومن هم في السلطة يدركون أنها وصية وأن الرد الثقافي هو الحل .

* ثقافة العنف ـ أو البناء الفوقي للعنف المادي من أين أتت ؟

** ثقافة العنف أتت أصلاً من رفض الآخر وأنه لاسبيل إلى الاستسلام أو العنف ولكن ثقافة العنف ليست قتلاً فقط وإنما استبعاد الآخر ففي التنشئة الاجتماعية يجب أن نعلم الطفل أكثر من شيء وأول شيء نعلمه: من نحن ؟ وتعريفه بالهوية القومية .. ومن هو الآخر ؟ فهناك ثلاثة للآخر وهو الآخر العدو والصديق والمجهول فإننا يجب أن ندرب أطفالنا على التعامل مع الآخر سواء كان صديقاً أو عدواً، مشيراً إلى ضرورة عمل نوع من التوازن بمعنى عدم استسلام الطفل له ولا لثقافته وإنما تدريبه على محاولة تحجيمه أولاً .. جمع رأي ضده وهكذا والخلاف كما يقول أننا لانستطيع التميز بين العدو في الداخل أو الخارج . فليس من المعقول مثلاً أن أعامل الإرهابي الإسرائيلي بأن أسمع له وأعمل تحالفات ضده وأن أعامل الإرهابي المصري بإطلاق الرصاص عليه فوراً فيجب أن يكون هناك توازن فالعنف وارد ما إذا استنفذنا أساليب الحوار .

* في نظرك ماذا قدمت إسرائيل للتنشئة الاجتماعية لديها ؟

** إسرائيل ليس مطلوباً منها تقديم النموذج الأفضل للتنشئة الاجتماعية في العلاقات .

* إذن لماذا نحن مطالبون بتقديم فروض الولاء ؟

** ببساطة لأن إسرائيل دولة محتلة للأرض، والطفل الإسرائيلي ينشأ للحفاظ على أرض مغتصبة ولذلك فهو ينشأ على العنف ضد الآخر فعندما يتبنى السلام ويمتد العنف ليصل إلى الداخل .. اغتيل رابين فكيف أمكن اليهودي الإسرائيلي أن يرفع السلاح ويطلق الرصاص على رابين ؟ فقبل ذلك كان يطلق الرصاص على العرب .

* وهل تريد أن تقول أن هناك تنشئة من أجل السلام ؟

** لا وإنما تنشئة من أجل العنف ولو كان هناك تنشئة للسلام فهي محدودة جداً ولذلك فالمطلوب هو تدريب أبنائنا على السلام وليس الاستسلام مع استنفاذ أساليب الحوار أولاً

ويظل العنف مدرجاً فى آخر القائمة إننا نريد أطفالنا ينشأون على السلام وإذا ما فشلوا فليس أمامنا سوى المواجهة والتصدى .

* ما الفرق بين صورة إسرائيل وقت الدراسة وصورتها اليوم ؟

** طبعاً اختلفت ففى ٦٧ حلم إسرائيل كان تجسيد الصهيونية وكان لها أكثر من حلم ومنها أرض الميعاد، إسرائيل الكبرى أصبحت موجودة على الأرض وهناك أحلام أخرى كانت مؤجلة أن تكون إسرائيل دولة يهود العالم .. واليهود جميعاً يصبحون صهاينة العالم وتصبح دولة خالصة لهم ويطرد الفلسطينيون منها وبنهاية القرن كما يقول انهارت هذه الأحلام وهى فى سبيلها للانهيار الكامل .

* بماذا تفسر تراجع زملائك أمثال الدكتور محمد عمارة ومحمد حسين وحسنى على تراجعهم إزاء خيارات علمانية الاشتراكية ، واتخاذ التيار الإسلامى بماذا تفسر ذلك ؟

** ليس هناك خلاف كبير فإننى كنت قريباً من الدكتور محمد عمارة .. فتيار الماركسى التقليدى كان منعزلاً عن الجماهير فعندما كنا فى الحركة الشيوعية كان يقال أن المنشور هو مدفعيتنا الثقيلة وبالتالى اختيار المجموعة للدين يحقق نفس الهدف وهو العدالة الاجتماعية بمعنى أن عادل حسين دخل الشيوعية ليحقق العدالة فهو اختار الإسلام لتحقيق هذا الهدف .

* فى إطار علم النفس ماذا جرى للمصريين فى محيط هذا القرن ؟

** أصبحوا يمرون بمرحلة قيم كثيرة .. كما أنه حدث انهيار وإجهاض للقيم الليبرالية كما أننى أرى أن المجتمع سيواجه هوة كبيرة، ناس فوق وناس تحت وهذا قانون عام .

فالطبقة العليا + السلطة يصنعون حلم الفقراء وحلم الطبقة الوسطى .

* ينتهى القرن العشرون بنهاية جنسية: الفياجرا، رئيس دولة يمارس الجنس علناً، وامرأة تحب فأصبحت قديسة «ديانا» فما هى رؤيتك ؟

** أختلف معك فحلم الفياجرا والقوة الجنسية هما حلم الشيخ الشاب عكس شباب عجوز فهناك حلمان فى البشرية هما حلم الطفل الحكيم والشباب العجوز وحلم العجوز الشاب «حكمة الشيوخ» والفياجرا كانت جزءاً من هذا الرجل ولكن لديه قوة الشباب وحركته إلخ فكرة نساء الحكم وهذه قديمة جداً وموجودة فى التاريخ الإسلامى والمسيحى والفرق هنا جهاز الإعلام الذى يجعل المسائل معروفة خاصة بعدما أصبح العالم قرية صغيرة وإننى لاأعتقد أن العالم الجديد أساسه الجنس ، وإنما النظام العالمى الجديد وهو الحكم الوحيد .

* من الذى حول الأستاذ الجامعى إلى لص ؟ فكم السرقات داخل الجامعات من رسائل ماجستير ودكتوراه ؟

** أشك فى ذلك كثيراً .. فعندما تقول لى تدهور أداء الأستاذ الجامعى ولكن الأستاذ الجامعى لص فأنا أعترض فنحن لسنا ضد المكاشفة فكم أستاذ جامعى وسخ القيم والبحث العلمى.. وكم أستاذ جامعى خرج أجيالاً وأجيالاً لها مكانتها فى المجتمع مقارنة بعد ذلك بكم أستاذ جامعى اغتصب تلميذته فهو غير عادل بالمرة .

* وماذا عن زوجتك وأسرتك ؟

** إننى أعيش مع زوجتى الثانية وابنتها وهى قريبة منى تماماً لفكرها الواعى المستنير وهى تعمل فى مجال البحث العلمى باليونيسيف .

* وما رأيك فى العلاقة بين الرجل والمرأة ؟

** يسودها اضطرابات كمثل بقية الظواهر فى مصر فكانت المرأة قديماً راضية بدورها فى عهد السيد أحمد عبدالجواد والرجل مستمتع بدوره والأمور بدأت تضطرب مع تطلعات الحياة .

والتطور الاقتصادى وزيادة أعباء الأسرة جعل المرأة تعمل .. كما جعل الرجل يتنازل عن جزء من حقوقه وسلطته وهذا شىء خاص بالطبقة الوسطى .



"حاول الراحل العزيز محمد همام وأن يوظف رصيده الكبير من الخبرات والتجارب الصحفية والثقافية في تقديم عمل صحفي متميز بكل المقاييس.. أثبت جدارته وتفوقه في مدي زمني قصير لا يتجاوز بضع سنوات، مستخدما في ذلك أداة من أفضل وأصعب أدوات العمل الصحفي، بل لعلها من أكثرها صعوبة في الممارسة والتطبيق، وبالأخص حين يتعلق الأمر بمشروع طموح كالذي تصدي له وهو استكشاف المعاني والقيم والتحولات والتقلبات والأهداف والمقاصد التي حركت جيلا بأكمله من اجيال النخبة المصرية، من خلال الحوار الحي المباشر، والتي حددت مصيره وأجهضت في معظم الأحيان أهدافه وأدواره. وفي هذا المجال فليس أفضل من الحوار أداة، لتسليط الأضواء علي حشد كبير من المثقفين والسياسيين، والمفكرين والدبلوماسيين، ورجال الأعمال والعسكريين.. الذي لعبوا أدوارا مؤثرة وحاسمة في تقرير مصير هذه الأمة وفي تحديد اتجاهاتها، وفي صياغة عقل أجيال حاضره ومستقبله من أبناء مصر والأمة العربية.. وتسليط الأضواء هنا لا يقتصر علي المظهر دون الجوهر، ولا علي الشكل بغير الموضوع ولكنها محاولة جادة للغوص في الأعماق والولوج فيما وراء الشعارات والكلمات والكتابات التي يمكن أن ترتبط بظروفها وزمانها والتي يمكن أن يعاد تأويلها وتفسيرها في أطار زمني وتاريخي قد يختلف أشد الاختلاف."

سلامة أحمد سلامة
من مقدمة الكاتب الصحفي